الاسلام وايران

الشهيد آية الله مرتضى المطهري

شبكة الفكر
alfeker.net

الاسلام وايران

الاسلام وايران

الشهيد آية الله مرتضى المطهري

الكتاب: الاسلام و ايران

المؤلف: الشهيد آيةالله مرتضىٰ مطهري

المترجم: محمد هادي اليوسفي الغروي

الناشر: رابطة الثقافة و العلاقات الإسلامية

مديرية الترجمة و النشر

سنة الطبع: ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م

الكمية: ٣٠٠٠ نسخة

المطبعة: سپهر

العنوان: الجمهورية الاسلامية في ايران/ طهران. ص.ب ٦١٨٧/١٤١٥٥

ISBN 964-6177-27-1

حقوق الطبع محفوظة

مقدمة الناشر

من جديد؛ انطلق نداء الإسلام الاصيل من ايران، ايران الثورة، ايران الاسلام، ايران التي حطم شعبها عروش الظالمين المستبدين بقيادة القائد الفذ البطل الإمـام الخـميني حفظه الله، وراح يعلنها للعالم كل العالم، ان لاخلاص له إلّا بالإسلام، وان لامنهج لسعادته الحقيقية إلّا منهج القرآن الاصيل، ويدعو كل الشعوب الإسلامية ان تـرجـع إلىٰ ذاتـها وروحها الإسلامية الحقيقية فتكون خير أمة أُخرجت للناس. وهي بذلك تفجر أعظم ثورة في القرون الأخيرة ضد الطاغوت الأرضي المستحكم.

ايران هذه، احياها الإسلام مرتين، مرة عندما دخلت لأول مرة في الإسلام، فانقذها من وهدة الضياع المادي البائس، وأخرىٰ عندما فجر في شعبها هذه الثورة الإسـلامية الكبرىٰ...

وبين الفترتين روابط تختلف من حال إلىٰ حال، تتبّعها فقيد الثورة الإسلامية وشهيد الأمة الكبير، آية الله المطهري، محللاً بروح صادقة وصبر دؤوب، راداً عـلىٰ الشـبهات القومية الضيقة، والوطنية المضادة للروح الإسلامية، مقدماً بذلك أضواء ساطعة في هذا المجال. والجدير بالذكر أن الكتاب انتشر قبل نجاح الثورة الإسلامية بسـنين عـديدة، وكان له دوره في بث الوعي ودفع الشبهات.

فإلىٰ قراءة هذه الفصول الممتعة،ندعو القراء الاعزاء،راجين أن تكون لها نتائج كبيرة في كشف بعض الاجزاء الغامضة من تاريخنا الإسلامي المجيد.

واننا لنتضرع إلىٰ الباري العلي القدير، أن يمنّ علينا بتحقق الدولة الإسلامية العالمية الواحدة حيث الدين كله لله.

والله المنان الموفق

بين يدي الكتاب

كنت بمدرسة الصدر في النجف الأشرف عام ١٣٨٣ هـ بعد أن قام طاغية ايران إذ ذاك بما اسماه «الثورة البيضاء للشاه والشعب » وكان من نتائج ثورته قانون بعنوان «قانون حماية الأسرة» وأهم ما فيه بنود تخالف نصّ رسول الإسلام صلّىٰ الله عليه وآله إذ قال: «الطلاق بيد من أخذ بالساق ».

وحصلتُ هناك ـ من قادم كريم من ايران ـ علىٰ اعداد من مجلة مصورة فارسية خاصة بالمرأة باسم «زن روز أي: المرأة المعاصرة » وفيها مقالات للمرحوم الاستاذ الشهيد العلّامة الشيخ مرتضىٰ المطهري الخراساني (قده) ينتقد فيها هذا القانون

المخالف لشريعة الله تعالىٰ. فسألنا المشايخ يومذاك عنه فقالوا فيه: انه من الأشخاص البارزين من مجتهدي تلامذه المرحوم آية الله السيد حسين البروجردي (قده) وبعد وفاة استاذه قبل التدريس بكلية «الالهيات أي: الشريعة » في طهران في قسم

الفلسفة الإسلامية وغيرها، وكان من فروع التاريخ الاسلامي المقررة في هذه الكلية في ايران، دروس بعنوان «الإسلام وايران » وكان النظام السابق اللاإسلامي يقصد من وراء ذلك تقرير ما قدمه الايرانيون من خدمات وجهود فكرية وعلمية، وغيرها للإسلام أكثر من أن يكون قاصداً لتقرير معطيات الإسلام للمسلمين في ايران! أي كان قاصداً بذلك خدمة قومية وطنية لتاريخ ايران، أكثر من كونه قاصداً بذلك تقرير التاريخ الاسلامي ومعطياته وآثاره!

فعمد المرحوم الاستاذ الشيخ الشهيد (قده) لدحض ذلك، إلىٰ ثلة من المهندسين المؤمنين حيث اقاموا ندوة باسمهم استمرت أكثر من أربعة عشر عاماً، ألقىٰ فيها الأستاذ الشهيد، الفصل الأول من هذا الكتاب بعنوان «الإسلام والأمم».

وفي سبيل المساعي الفكرية الإسلامية إلىٰ جانب «ندوة المهندسين الإسلامية» بنيت مؤسّسة باسم «حسينية الارشاد»، فالقىٰ الاستاذ المؤلف فيها الفصلين الثاني والثالث، ضمن ست محاضرات، وكانت تسجل هذه المحاضرات بمسجلات الصوت «الكاسيت»، وتتناقلها أيدي الطلاب الشباب في كثير من مدن ايران.

ثم طلب إليه جماعة أن يجمع هذه الفصول ويدونها ويكملها ويصنّفها ويعيد النظر فيها، ويسمح لهم بطبعها. وطبع الكتاب بمساعدة بعض الإسلاميين في الرقابة الحكومية علىٰ المطبوعات، فتصدت المجلة المجوسية التي كانت تصدر يومئذٍ في طهران باسم «هوخست»، تصدت للهجوم علىٰ الكتاب ومؤلفه الكريم باسم النقد، وأدىٰ هذا إلىٰ عرقلة إعادة طبع الكتاب للمرة الثانية، وإن طبع بعد ذلك، والكتاب بفصوله الثلاثة يحاول الاجابة علىٰ ثلاثة أسئلة:

١ ـ اعتنقت الإسلام أمم كثيرة، اعتقدت به ودخلت في خدمته وسعت في سبيل نشره وتنفيذ تعاليمه وارشاداته، وساهمت في إقامة حضارة إسلامية عظيمة. فما حظنا ـ نحن الإيرانيين ـ من هذه الخدمات لهذا الدين الحنيف؟ وما هي منزلة ايران علىٰ هذا الصعيد؟ فهل حازت قصب السبق في هذا الميدان؟ أم ماذا؟ ثم ماذا كانت دوافع الايرانيين إلىٰ ذلك؟

٢ ـ دخل الإسلام إلىٰ ايران منذ أربعة عشر قرناً، فما هي التغييرات التي أوجدها في هذه البلاد؟ وفي أي جهة كانت تلك التغييرات وما الذي منحه الإسلام لايران وما الذي أخذه منها؟ وهل كان دخول الإسلام إلىٰ ايران منحة إلهية أم فاجعة! كما يصوّرها بعض العنصريين؟

٣ ـ لاتبلغ النسبة المئوية لغير المسلمين في ايران سوىٰ اثنين بالمئة والمسلمون يشكلون بقية النسبة أي ٩٨ ٪ هؤلاء يعتقدون بالإسلام ديناً، ويحبون ايران وطناً، ولذلك

فهم يودون أن يدركوا بوضوح تلك المسائل التي ترتبط بالإسلام والوطن والقومية. وبعبارة أخرىٰ: ان لنا أحاسيس دينية وأخرىٰ وطنية وقومية، فهل هناك تناقض بين هذين الاحساسين أم لا؟

ويقول الاستاذ المؤلف عن كتابه في مقدمته: مع أن الضرورة كانت تفرض علىٰ المفكرين المسلمين القيام بدراسة وتحليل هذه المسائل وإيضاحها لشباب الجيل، فإن هذا الكتاب هو الأول من هذا النوع في موضوعه، ولم يقدم أحد غيري علىٰ اقتحام هذا الميدان، مع توافر أرضية البحث في هذه المسائل. وأقول بوجود ضرورةٍ في ذلك نظراً إلىٰ أن أكثر الذين كتبوا في هذه المسائل أما أنهم لم يطلعوا الاطلاع الكافي علىٰ جوانب الموضوع أو كان دافعهم إليها شيء آخر سوىٰ التحقيق، فقد أدركت أثناء مطالعاتي في هذا الموضوع أن التحريفات كانت أكثر مما كنت اتصور، وان هناك سعياً حثيثاً لتصوير العلاقات بين الاسلام وايران علىٰ خلاف الواقع والحقيقة وقد حدثت في ايران حركات صارت مستمسكاً لبعض المغرضين من «المستشرقين» وغيرهم، مما جرّأهم علىٰ أن يصوّروها بعنوان ردّ الفعل الايراني أمام الاسلام، كالفارسية والشعوبية وحتىٰ التصوف، بل وحتىٰ التشيع، كما صوّروا بعض الشخصيات الفارسية بمظاهر المقاومة السلبية أمام الاسلام، من أمثال الحكيم الايراني أبي القاسم الفردوسي والفيلسوف الكبير الشيخ شهاب الدين السهروردي المعروف بـ«شيخ الاشراق».

وهذا الكتاب خير إجابة لردّ جميع هذه الشبهات والافتراءات والتهم، واثبات أن العلاقات بين الاسلام وايران تعدّ مفخرة للاثنين: إنها مفخرة للاسلام لانها تثبت أن هذا الدين بما فيه من إنسانية سامية وعطاء خالد، استطاع أن يستوعب أمة متمدنة مثقفة متفكرة ويصهرها في نفسه. وانها مفخرة لايران لثبوت أن هذه الامة بما فيها من روح حب الحقيقة والثقافة والمرونة وعدم التعصّب لغير الحق، كانت أسبق الأمم إلىٰ الخضوع لحقيقة الإسلام، بل وإلىٰ التضحية والفداء في سبيله».

ولقد حاول المحتالون من المستشرقين المغرضين أن يستغلوا إقبال المسلمين في ايران علىٰ اعتناق مذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام وانتساب الأئمة من أبناء

الامام الحسين بن علي عليه السلام إلىٰ الفرس عن طريق أم الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام فادعوا أن الايرانيين إنما دخلوا إلىٰ مذهب أهل البيت عليهم السلام، خروجاً عن الاسلام ومروقاً عن الدين، ارتداداً إلىٰ جاهليتهم المجوسية! وجعلوا من أم الامام زين العابدين عليه السلام دليلاً علىٰ ادعائهم هذا!

وقد انخدع بحيل هؤلاء المستشرقين الاستعماريين فريقان:

فريق خارج ايران من المثقفين المسلمين الجدد، حيث صدّقوا بما لفّقه أولئك المنحرفون وراحوا يكيلون التّهم والافتراءات علىٰ اخوانهم المسلمين في ايران، في كتب وصفت بانها دراسات في تحليل التاريخ الاسلامي، ككتاب فجر الاسلام وضحاه وغيرهما.

وفريق آخر في داخل ايران أيضاً من المثقفين العنصريين اللاإسلاميين الجدد، حيث رفعوا عقيرتهم - علىٰ عهد البهلوي - يقولون: أجل، ان أسلافنا الايرانيين وجدوا أن أحسن السبل للوصول إلىٰ الاستقلال والتحرر عن العرب وغيرهم من المسلمين هو أن يطلبوا استقلالهم السياسي علىٰ أساس استقلال ديني طائفي فلجأوا إلىٰ مذهب التشيع لذلك دون أن يكون هو الهدف الأساس!

ولنقد هذه الاوهام وردّها، تصدىٰ الاستاذ الشهيد في كتابه القيّم. وقد اجهد نفسه لاريب في سبيل تأليف وتنسيق ابحاث الكتاب واستنباط الافكار الصائبة من خلال المصادر المعتمد عليها. وهو يضم بين دفتيه عدة أبحاث تحقيقية صافية حول حقيقة الامة الايرانية وتأثير العوامل الدينية والثقافية وغيرها في صياغة هذه الامة.

وقد سبق أن ترجمت فصل «التشيع» من الكتاب وطبع في عددين من السنة الخامسة من مجلة «الهادي» الصادرة في مدينة قم المقدسة، ورغب الاستاذ الشهيد في ترجمة الكتاب كله فبدأتُ في ترجمته حتىٰ بلغت منتصف الكتاب، فانتصرت الثورة الاسلامية المباركة وعُيّن الاستاذ المؤلف فيها عضواً كبيراً، بل أكبر أعضاء مجلس الثورة بطلب من الإمام القائد السيد الخميني.

ولم يكن من الهيّن علىٰ المستعمرين أن يروا رجال هذه الثورة الاسلامية المظفرة

دائبين في سبيل توطيد دعائم دين الله بين عباده فدفعوا بعملائهم إلىٰ اغتيال هؤلاء الأبطال، وفي مقدمتهم الشهيد الاستاذ المطهري (قده) حيث اغتيل في ليلة مظلمة من ليالي شهر جُمادىٰ الأولىٰ، أي بعد نحو من ثلاثة أشهر عقيب انتصار الثورة المباركة فتغمده الله برحمته وأسكنه الفسيح من جنته وحشره مع الشهداء والصدّيقين، وحسن أولئك رفيقاً

وبما أن المؤلف الشهيد (قده) كان قد كتب الكتاب حول خدمات الايرانيين للاسلام قبل قيام هذه الامة بهذه الثورة الاسلامية المباركة التي قدمت أكبر خدمة للاسلام في هذا العصر لذلك لا يجد القارىء الكريم في هذا الكتاب شيئاً عن هذه الخدمة العظمىٰ. وحاولت أن أسدّ هذا الفراغ في هذه المقدمة ولو بأقل الواجب، فرأيت أن أنسب مقال نسدّ به هذا الفراغ ما قاله قرين المؤلف، شهيد العلم والاسلام الامام الصدر (قده) في رسالته إلىٰ علماء لبنان عن خدمة هذه الامة المسلمة للاسلام بهذه الثورة العظيمة إذ كتب يقول:

«وقد استطاع الشعب الايراني المسلم أن يشكل القاعدة الكبرىٰ لهذا الرفض البطولي – رفض كل ألوان الباطل والاصرار علىٰ التعلق بدولة الأنبياء والائمة دولة الحق والعدل – والثبات الصامد علىٰ طريق دولة الأنبياء والائمة والصدّيقين،باعتباره (الشعب الايراني المسلم) الجزء الاكثر التحاماً مع المرجعية الدينية وأسسها الدينية والمذهبية.

وقد بلغت هذه القاعدة الرشيدة ـ بفضل القيادة الحكيمة للمرجعية الصالحة التي جسّدها الامام الخميني دام ظله ـ قمة وعيها الرسالي والسياسي الرشيد، من خلال صراعها المرير مع طواغيت الكفر، ومقاومتها الشجاعة لفرعون ايران الحديث، حتىٰ استطاعت أن تلحق به وبكل ما يمثله من قوىٰ الاستعمار الكافر أكبر هزيمة يمنىٰ بها المستعمر الكافر في عالمنا الاسلامي.

وكان من الطبيعي أن يزداد الشعب الايراني المسلم إيماناً برسالته التاريخية العظيمة، وشعوراً بأن الاسلام هو قدره العظيم فبالاسلام وبزخم المرجعية التي بناها الاسلام، وبالخميني القائد، استطاع (الشعب الايراني المسلم) أن يكسر أثقل القيود ويحطّم عن معصميه الاغلال والسلاسل الثقيلة، فلم يعد الإسلام هو الرسالة فحسب، بل هو أيضاً

المنقذ والقوة الوحيدة في الميدان التي استطاعت أن تكتب النصر لهذا الشعب العظيم.

ومن هنا كان طرح المرجعية للجمهورية الاسلامية شعاراً وهدفاً وحقيقة، تعبيراً حياً عن ضمير الامة، وتتويجاً لنضالها بالنتيجة الطبيعية، وضماناً لاستمرار هذا الشعب في طريق النصر الذي شقه له الاسلام.

الشعب الايراني العظيم - بحمله هذا المنار وممارسته مسؤوليته في تجسيد هذه الفكرة وبناء الجمهورية الاسلامية ـ يطرح نفسه لا كشعب يحاول بناء نفسه فحسب، بل كقاعدة للاشعاع علىٰ العالم الاسلامي، وعلىٰ العالم كله في لحظات عصيبة من تاريخ هذه الانسانية، يبحث فيها كل شعوب العالم الاسلامي إلىٰ المنقذ من هيمنة الانسان الاوربي والغربي و حضارته الغازية ويشعر فيها كل شعوب العالم بالحاجة إلىٰ رسالة تضع حداً لاستغلال الانسان للانسان.

علىٰ هذا الاساس، يقوم الشعب الايراني المسلم في هذه اللحظات المفعمة بالتاريخ، والغنية بمعاني البطولة والجهاد والزاخرة بمعاني النصر وارادة التغيير يقوم هذا الشعب بدوره التاريخي، فيضع لأول مرة في تاريخ الاسلام الحديث، دستوراً للجمهورية الاسلامية، ويصمم علىٰ أن يجسّد هذا الدستور في تجربة رائعة ورائدة.

كما هزّ هذا الشعب العظيم ضمير العالم وزعزع مقاييسه المادية بقيمه التي جسّدها في مرحلة النضال كذلك يهز ضمير الانسانية المضللة ووجدان الملايين المعذبين ويغمر العالم بنور جديد هو نور الاسلام، الذي حجبه الانسان الغربي وعملاؤه المثقفون، وبذلوا كل وسائلهم ـ من الاحتلال العسكري إلىٰ التشويه الثقافي والتحريف العقائدي ـ في سبيل ابعاد العالم الاسلامي عن هذا النور ليضمنوا لانفسهم السيطرة عليه ويفرضوا عليه التبعية.

إن الاسلام الذي حجزه الاستعمار عسكرياً وسياسياً في قمقم ليصبغ العالم الاسلامي بما شاء من ألوان، قد انطلق من قمقمه في ايران فكان زلزالاً علىٰ الظالمين ومثلاً أعلىٰ في بناء الشعب المجاهد والمضحي، وسيفاً مصلتاً علىٰ الطغاة ومصالح الاستعمار، و قاعدة لبناء الامة من جديد.

ولم يبرهن الامام الخميني باطلاقه للاسلام من القمقم علىٰ قدرته الفائقة، وبطولة الشعب الايراني فحسب، بل برهن أيضاً علىٰ ضخامة الجناية التي يمارسها كل من يساهم في حجز الاسلام في القمقم وتجميد طاقاته الهائلة البنّاءة، وأبعادها عن مجال البناء الحضاري لهذه الامة.

وهذا النور الجديد الذي قدر للشعب الايراني أن يحمله إلىٰ، العالم سوف يعرّي أيضاً تلك الانظمة التي حملت اسم الاسلام زوراً، بالدرجة نفسها التي يدين بها الانظمة التي رفضت الاسلام » (اللمحة الفقهية ص ١٤ ـ ١٨).

ومنذ أن أطلق الامام الصدر (قده) هذه التصريحات الخطيرة التي كانت كما يقول «تعرّي الانظمة التي حملت اسم الاسلام زوراً بنفس الدرجة التي يدين بها الانظمة التي رفضت الاسلام » منذ ذلك الحين اشفقت عليه نفوس المؤمنين من سطوة طاغوت العراق الحديث، وبالفعل فقد وقع المحذور والقىٰ القبض علىٰ الامام واشخصه من النجف الاشرف، إلىٰ بغداد ولكنه هابه هذه المرة فردّه بعد مدّة إلىٰ النجف الاشرف واحتجزه في داره تحت حراسة مشددة، وبعد الضغط عليه بالتنازل عن موقفه هذا وإبائه اشخصه إلىٰ بغداد ثانية، وفي هذه المرّة أعدمه هو وأخته المفكرة الكاتبة بنت الهدىٰ! جزاهما الله عن الاسلام والمسلمين خير جزاء الشهداء والصديقين.

ولا ريب أنه أراد ـ بموقفه هذا ـ الاقتداء بالامام القائد السيد الخميني دام ظله، في قيادة شعبه في العراق الجريح نحو تحقيق الجمهورية الاسلامية هناك، والله هو الكفيل أن يحقق أمل هذا الشهيد العظيم فيمن يقتفي أثره بعده من علماء المسلمين المفكرين،وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

المترجم

مقدمة المؤلف

هناك ٩٨ ٪ منا ـ نحن الايرانيين ـ مسلمون[١] وهذا العدد يعتقد بالاسلام باعتباره ديناً وإيماناً، ويحب ايران باعتبارها مسقط رأسه. ولذلك نودّ أن ندرك بوضوح تلك المسائل التي ترتبط بايماننا واعتقادنا من ناحية، وبمسقط رأسنا الذي نحبّه من ناحية أخرىٰ. وهذه المسائل تتلخص في أمور ثلاثة:

١ – إن لنا أحاسيس دينية، وأخرىٰ أرضية، فهل ان لنا ـ بهذين الاحساسين ـ إحساسين متضادين؟ أوليس هناك تضاد وتناقض بين هذين الاحساسين؟

٢ ـ لقد دخل الاسلام إلىٰ وطننا منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فياترىٰ ما هي التغييرات التي أوجدها الاسلام في وطننا هذا؟ وفي أي ناحية كانت تلك التحولات وماذا أخذ الاسلام من ايران؟ وماذا أعطاها؟ وهل كان دخول الاسلام إلىٰ ايران منحة إلهية؟ أم فاجعة!

٣ – لقد اعتنق الاسلام أمم كثيرة، اعتقدوا به ودخلوا في خدمته، وسعوا في سبيل نشره وتطبيق تعاليمه، وشاركوا في المساعي من أجل إقامة حضارة إسلامية عظيمة. فيا ترىٰ ما هو حظنا ـ نحن الايرانيين ـ من هذه الخدمات لهذا الدين الحنيف؟ وما هي منزلة ايران في هذه الناحية، فهل حازت قصب السبق في هذا المجال؟ أم ماذا؟ ثم ماذا كانت دوافع الايرانيين في ذلك؟

---

١ ـ وفقاً للاحصائيات الرسمية.

أنا أرىٰ أن هذه الأسئلة الثلاثة هي أهم الاسئلة في بـاب المسـائل المشـتركة بـين الاسلام وايران.

والكتاب الذي بين أيدينا يشتمل علىٰ أقسام ثلاثة:

١ ـ الاسلام والقومية الايرانية

٢ ـ معطيات الاسلام لايران.

٣ ـ خدمات الايرانيين للاسلام والمعارف الاسلامية.

وهذه الأقسام الثلاثة علىٰ التوالي تجيب عن تلك الأسئلة الثلاثة.

هذا والكتاب في الأصل بأقسامه الثلاثة، تفصيل وتكميل لعدة محاضرات القيتها قبل أعوام:

فالقسم الأول، تفصيل لمحاضرات ثلاث ألقيتها في شهر محرم من عام ١٣٨٨ هـ

والقسم الثاني والثالث تفصيل لستٍّ محاضرات القيتها في شهر صفر من السنة نفسها، بعنوان « معطيات الاسلام للايرانيين وخدمات الايرانيين للاسلام ».

ولم أر بين خطاباتي التي ألقيتها مدة إقامتي في طهران أي خطاب يحتل موقع الاقبال والاهتمام أكثر من هذه الخطابات وخاصة تلك الخطابات الستة التي ألقيتها تحت العنوان المذكور آنفاً. فكان عدد كبير من طهران وسائر البلدان يراجعوننا لذلك كانت الاشـرطة الصوتية تسجل بكثرة وتوزع وخاصة من قبل طبقة طلاب الجامعات و المعاهد، ومن سائر الطبقات أيضاً.

ولم يكن هذا الاقبال والعناية لميزة خاصة في تلك الخطابات، وإنما هـما لعـاطفة الايرانيين الطبيعية تجاه المسائل المشتركة بين الاسلام وايران.

وحسب اطلاعي أقول آسفاً: مع إن الضرورة تقضي بـلزوم تـحليل هـذه المسـائل وتوضيحها مهما أمكن، وجعلها في متناول الطبقات كافة، و بالخصوص في متناول شباب الجيل... مع ذلك فان هذا الكتاب هو الاول من هذا النوع في موضوعه ولم يقدم أحد قبلي علىٰ ذلك. وان أرضية البحث والتحقيق في هذه المسائل متوافرة وإذا عزم باحث علىٰ العمل في سبيل البحث الوافي في جميع المسائل المشتركة بين الاسلام وايران، لاستغرق

بحثها عدّة مجلدات ضخمة. ولي أمل أن يكون هذا الكتاب فاتحة لحث الذين لهم فرصة من الوقت أكثر علىٰ أن يؤدّوا هذا الموضوع حقه أحسن أداء.

وبما أن أغلب الذين كتبوا في هذه المسائل المشتركة بين الاسلام وايران، أما أنهم لم يكونوا علىٰ اطلاع كافٍ علىٰ جوانب الموضوع، أو أن ما يبعثهم علىٰ البحث دافع آخر غير التحقيق... لذلك فهذه المسائل لم تطرح إلىٰ الآن بصورة صحيحة، مع ما لها من الأرضية الواضحة. أنا كلما قرأت في هذا الموضوع أكثر أدركت بدقة أكبر من ذي قبل أن هذا البحث مما يبعث علىٰ الفخر، للاسلام و لايران كليهما! أما انه يبعث علىٰ الفخر للاسلام، فلانه يثبت أن هذا الدين بما فيه من « قيم إنسانية فذّة وعطاء خالد » استطاع أن يستوعب أمة متحضرة متمدنة مثقفة مفكرة، بل وأن يصهرها في داخله. وأما أنه مفخرة لايران: فلانه يثبت أن هذه الامة بما فيها من روح حب الحقيقة والثقافة، بما هي عليه من المرونة والوجدان وعدم التعصب، كانت أسبق الأمم الىٰ الخضوع للحقيقة متمثلة بالاسلام، بل وإلىٰ التضحية والفداء في سبيلها.

و مما لاحظته أيضاً ضمن قراءاتي في الموضوع هو: أن التحريفات التي دخلت في هذا الموضوع أكثر مما كنت أتصور، وأن السعي حثيث لتصوير العلاقات بين الاسلام و ايران، علىٰ خلاف الواقع والحقيقة.

فقد حدثت في ايران حوادث، أصبحت مستمسكاً لبعض المغرضين من المستشرقين و غيرهم، مما جرّأهم علىٰ أن يصوروها بعناوين: «التمرد » ورد الفعل الايرانيالمخالف أمام الاسلام وذلك من قبيل الحركات الشعوبية والفارسية والتصوف. بل وحتىٰ التشيع... كما وصَفوا بعض الشخصيات الفارسية، بمظاهر هذا التمرد السلبي من امثال الحكيم الايراني العظيم ابيالقاسم الفردوسي والفيلسوف الكبير الشيخ شهاب الدين السهروردي المعروف بشيخ الاشراق.

وباستطاعة بحوث هذاالكتاب أن تكون إجابة مفيدة علىٰ جميع هذه المسائل وغيرها. وقد أحببت أن أبحث حول أفكار الفردوسي وشيخ الاشراق بحثاً مستقلاً، احلل فيه أفكارهم حول هذا الموضوع، ولكن لم يتفق ذلك مع ما كنت قد عنونت به بحثي في

البداية، و كان ذلك بحاجة إلىٰ فرصة أكبر وبحث أوسع. وقد بحثنا حول اللغة، ومذهب التشيع في القسم الاول من الكتاب بصور مختصرة من هذه الناحية. وسيقف القـارىء الكريم من خلال الكتاب علىٰ مسائل أخرىٰ من هذا القبيل بحثنا حولها من هذه الناحية أيضاً.

وسنستفيد مما يذكّرنا به الباحثون المخلصون للحقيقة بعد مطالعتهم الكتاب، ولنفيد منها القراء الكرام في الطبعات الآتية إن شاء الله تعالىٰ.

مرتضىٰ المطهري

تمهيد

في هذه الأيام التي أصبحت العلاقات بين الامم المختلفة والتصادم فيما بينها حديث كل صباح، أصبحت مسألة القومية وعناصرها البنّاءة، وحدودها وثغورها، هي إحدىٰ تلك المسائل، بل لعلها من أهمها.

وفي هذه العقود من الاعوام الخيرة تشكَّلت أمم كثيرة بلغت أكثر من خمسين أمة أخذت اسمها وشكلها وصورتها ومركزها بين الأمم، وأما الامم التي بقيت حية فقد انقسمت إلىٰ قسمين أو أكثر، وأخذ كل قسم منها طريقه في الحياة. وتغيَّر من أمم أخرىٰ محتواها بما لها من الخصائص الفكرية الدينية والجغرافية الخاصة وبما لها من نظام فكري واجتماعي، إلىٰ نظام آخر مخالف لنظامه السابق تماماً. وكان يصاحب ويواكب جميع هذ التغييرات أعوام وسنين من المقاومة والجهود والدماء والتضحيات وكانت تستغرق كثيراً من الوقت والجهد في طريقها إلىٰ الوجود، وكانت تقدم كثيراً من الفداء والقرابين صغيرة وكبيرة.

فهل أن الامم التي وجدت في هذه المدة لم يكن لها وجود من قبل؟ أو لم تكن تلك الامم التي قد تفككت وتحللت، أمماً أصيلة مستقرة قائمة علىٰ قدميها؟ وهذه الامم التي قد غيرت من انظمتها، هل هي تلك الامم نفسها من ذي قبل؟ أم ليست هي تلك الامم نفسها. حتىٰ وان كانت قد احتفظت بكثير من خصائصها كاللغة والعنصر والحدود الجغرافية؟! ثم نحن نرىٰ اليوم أن أكثر المسائل السياسية والاجتماعية والعسكرية تعنون

في أُطُر قومية وفي اطر مصالح الامة ومنافعها، وان القومية قد أصبحت من أكثر المدارس الفكرية رواجاً وشيوعاً واقبالاً بين النـاس، وحـتى أن الآيـديولوجيات الاجـتماعية والسياسية التي كانت في الاصل تخالف الصبغة القومية، إذا تبنّت حركة أو نهضة أو ثورة صبغتها بصبغة قومية وطنية أو عنصرية.

وإن مسألة القومية بالنسبة لنا- نحن الايرانيين -أيضاً هي حديث اليوم. فاننا وان لم يتعرض وطننا لتعدّ أو هجوم أجنبي الآن، إلّا أن في تفكير كل فرد منا عن القومية الايرانية اختلافاً كبيراً، بل قد يصل أحياناً إلىٰ التناقض والتضاد. فان لنا الآن عنصرين، احدهما فكري ديني واجتماعي وثقافي يرتبط بالاربعة عشر قرناً من تاريخ الاسلام، و الآخر: عنصر تاريخي يرتبط بما قبل هذه القرون الأخيرة: فنحن نرتبط من حيث الاصـول و الجذور الطبيعية والعنصرية بالاقوام والامم الآريّة، ومن حيث البناء الفكري والثـقافي والنظام الاجتماعي بالاسلام الذي جاء من عنصر غير آري. فان تقرر أن تكون الأصالة في تعريف الأمة للعنصر والدم كانت القومية هنا شيئاً، وإذا اعطينا الاولوية في تعريف الامة لعنصر النظام الاجتماعي والفكري الممتد طوال هذه القرون الاربعة عشر الاسلامية كانت، سيرتنا في مستقبل امتنا وقومنا شيئاً آخر، علىٰ خلاف ما سبق. إذا تقرَّر أن يكون الأساس في تعيين حدود الأمة الايرانية هو العنصر الآري، كانت النتيجة في نهاية الشوط الاقتراب من العالم الغربي، وكان لهذا الاقتراب في سيرتنا القومية والسياسية تـبعات و آثار أخطرها الانقطاع عن الامم المسلمة المجاورة غير الآريّة، والارتباط بأوربا والغرب ، و حينئذٍ يصبح الغرب المستعمر لنا صديقاً قريباً، والعرب المسلمون بالنسبة إلينا بعداء أجانب!... وعلىٰ العكس من ذلك تماماً فيما إذا جعلنا مـلاك أمـتنا نـظامنا الفكـري و السلوكي والاجتماعي لهذه القرون الاربعة عشر الأخيرة إذ يكون لنـا آنـذاك سـيرة و تكاليف أخرىٰ مغايرة لما سبق ويصبح حينذاك العرب والترك والهنود والاندونيسيون و الصينيون المسلمون بالنسبة إلينا أصدقاء، بل أقرباء ويصبح الغرب غير المسلم أجـنبياً بعيداً عنا كل البعد.

إذن: فالبحث حول القومية ليس بحثاً أكاديمياً خالصاً، بل هو بحث واقعي يـرتبط

بسلوك وسيرة ومستقبل ومصير وحدة إجتماعية وسياسية تسمىٰ اليوم بالامة الايرانية و حينئذٍ يكون طرحها علىٰ طاولة البحث والتحقيق والتنقيب مما ينبغي أن يكون.

الجذور التاريخية للقومية

ظهر مفهوم القومية بهذه الصورة المتداولة فعلاً في العالم، منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادي عند الالمان. وهي إحدىٰ ردود الفعل والتبعات التي ظهرت في أوربا بعد الثورة الفرنسية الكبرىٰ.

وكانت الثورة الفرنسية هي بدورها ردّ فعل علىٰ أسلوب الفكر الطبقي و الارستقراطي الذي لم يكن يعترف بقيمة للرأي العام للشعوب أبداً. ومنذ نجاح الثورة الفرنسية أصبح الاساس في خطابات المتكلمين والكتّاب والفلاسفة هو «الامة» والرأي العام والحرية والمساواة...

والحريّة والمساواة اللتان كان القائمون بتنظيم منشور الامم المتحدة لحقوق الانسان يدعون انهم هم الذين جاءوا بهما هدية الىٰ البشرية لم تكونا تعرفان حدوداً محدودة ولا أمماً معينة، إذ أن أشعة الثورة الفرنسية سرعان ما عبرت الحدود الفرنسية فشملت، أوربا كلها خلال عشر سنين، وفي مقدمة أممها الامة الالمانية. وفي ألمانيا افتتن الكتّاب والفلاسفة بهذه الأفكار المتحررة، حتىٰ أنهم أوقفوا أنفسهم علىٰ نشرها والدعاية لها. وكان «فيخته» الفيلسوف الالماني في مقدمة الناشرين المتحمسين.

وسرعان ما ادرك الألمان أن هذه الحرية المدّعاة في لائحة حقوق الانسان إنما تختص بالفرنسيين أنفسهم، وأنه ليس للالمان فيها أيّ نصيب فكان «فيخته» أول من رفع صوته بالاعتراض علىٰ هذا التمييز بين الانسان الفرنسي والانسان الالماني. وفيما ألقاه فيخته من محاضرات في مؤتمراته التي كان يقيمها في أكاديمية برلين، بعنوان الاعتراض علىٰ هذا التمييز، و بعنوان رد الفعل أمام اختصاص الحرية والمساواة بالفرنسيين، أعلن عنوان: «الأمة الألمانية» علىٰ اعتبار انها وحدة واقعية متماسكة وان لها بخصائصها العنصرية والجغرافية واللغوية والثقافية والعرفية والاخلاقية امتيازاً خاصاً

ونبوغاً ذاتياً. وهكذا وجدت القومية الالمانية التي أصبحت فيما بعد أطروحه القومية في العالم.

ان القومية في مفهوم واضعيها الغربيين تعني: ان نجعل الناس الموجودين في حدود جغرافية معينة، ولهم عنصر مشترك وجذور تاريخية ولغة وثقافة واحدة باعتبار انها وحدات مشتركة لاتقبل التفكك والانفصام، نجعل هذه الامور أصلاً للوحدة القومية، وأن نجعل من يدخل في دائرة مصالح هذه الوحدة ومنافعها ومكانتها صديقاً وقريباً، وما عداه أجنبياً بل عدوّاً؟!

وقد ظهرت في القرن التاسع عشر الميلادي ردود فعل للثورة الفرنسية، هي ثلاثة في الأساس:

١ ـ ردّ الفعل القومي.

٢ ـ ردّ الفعل المحافظ.

٣ ـ ردّ الفعل الاشتراكي.

وقد عدّ مجموعة من الفلاسفة السياسيين ردي الفعل: الأول والثاني منحرفين عن الاصول، مضادَّين للثورة، وادّعوا أن الثالث هو الرد المعتدل[١].

ووجدت القومية بعد فيخته مفكرين آخرين مثل: شارل موراس، وبارس، اللذين اشتركا في تدوين وتنظيم الافكار العنصرية والقومية والوطنية لمختلف الامم الاوربية. وقد تقدم موراس بفكرة «الأمة وحدة لاتنفصم» إلىٰ درجة أن قال بشخصية واقعية لمجموع الامة حاكمة علىٰ ارادة الفرد وشخصيته، وأفرغ هذه الشخصية الجماعية في وجود الدولة الحاكمة. وهذه هي الفكرة التي أصبحت فيما بعد أساساً لوجود أنظمة: التوتاليترية، والنازية في المانية والفاشستية في ايطاليا.

وبعد هذا أصبح ما تبقىٰ من القرن التاسع عشر إلىٰ أواسط القرن العشرين عصر ظهور الأفكار القومية والعنصرية والوطنية وتكاملها، في المجتمعات الاوربية. ان الاتجاهات الاشتراكية أو المحافظة في أوربا و إن كانت علىٰ الصعيد الاجتماعي والسياسي قد اثرت

1- J.J Chevallier: Lesgranrdes oeuvres Politiques Troisieme Partie

في أفكار المثقفين آثاراً كثيرة، ولكن الاتجاهات العنصرية والقومية في دول أوربا كانت شديدة حادّة إلىٰ درجة إنها جعلت سائر الاتجاهات فيها سواء الليبرالية والكنسروية و الاشتراكية الماركسية، تحت أشعتها خافتة باهتة. وهذه القومية في الامم الاوربية هي التي ظهرت بصورة عنصرية متطرفة، فاشعلت نيران حربين عالميتين. وأكثر من ذلك فالقومية الاوربية هي التي صادقت علىٰ استعمار الامم الشرقية والافريقية والامريكية الجنوبية وفسرتها تفسيراً جميلاً، بالرغم من أنها هي التي كانت ترفع شعارات الحرية و المساواة لافراد النوع البشري! وحتىٰ أن القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين أو قل عهد أوج الاستعمار وحدّته في آسيا وأفريقيا، كان يعاصر اتساع نطاق الافكار القومية للامم الغربية.

وان كتّاب ومحققي الغرب علىٰ أساس من هذه الأفكار نفسها يسمون النهضات والحركات في الامم الاخرىٰ أيضاً باسم: الحركات القومية وان المثقفين والمفكرين الشرقيين والافريقيين بوحي من القاموس الفكري والثقافي نفسه أيضاً يقبلون هذا العنوان وهذه التسمية لحركات شعوبهم، وهم يرددون لاممهم المقاييس نفسها التي حددها الغربيون لامتياز اممهم وافتراقها بعضها عن بعض. ان القومية والعنصرية في الدول الغربية وان كانتا بعد الحرب العالمية الثانية قد تركتا مكانها ـ وعلىٰ الاقل في المستوىٰ الاقتصادي والاستعماري وفي بعض موارد النظم الاجتماعية ـ لاتحادات أو اتجاهات اقليمية أو قطرية، ولكنهم مع ذلك يحاولون في دول أوربا الغربية وامريكا الشمالية أن يدعو السيّاح والطلاب الشرقيين والإفريقيين إلىٰ النظر في صبغتهم القومية ويحاولوا أن يقنعوهم بأن القومية هي التي تهب للشعوب الغربية الحياة ولثقافتها الحركة والنشاط و ذلك من أجل أن يحفظ هؤلاء الطلاب هذه الفكرة فإذا رجعوا إلىٰ قومهم يدعونهم إليها و يقنعوهم بها لتعيش كل من دول العالم الثالث واحدة واحدة حياة القومية والعنصرية واللغة و...، فتقابل كل واحدة منها جاراتها المتساوية معها، وسائر الدول التي هي مثلها في التعرض إلىٰ فرض الاستعمار الغربي بالحرب لا الانسجام. والنتيجة هي: أن تصبح الدول الغربية بقدراتها الثقافية والسياسية والاقتصادية متحدة متراصّة، بينما تصبح دول العالم

الثالث بأوضاعها المضطربة وضعفها السياسي والثقافي والاقتصادي تعيش كل منها بعيدة عن الاخرىٰ، بل عدوة لها.

فلنر: أللقول بالتمايز الحدودي بين وحدات المجتمع البشري أصالة وحقيقة تطابق الواقع؟ أم لا؟ واذا كان له ما يسوغه فهل أن المقاييس الصحيحة لتلك الحدود هي نفس ما علمتنا إياه القومية الغربية نفسها؟ أم هي غيرها؟

مقاييس تقليدية

نحن نرىٰ تمييزاً بين مختلف الناس علىٰ الارض من التركي والفارسي والعربي، إلىٰ الافريقي والاوربي والاسيوي... فلا تختلف في هؤلاء الألوان والصور واللغات والخصائص الفيزيائية المختلفة فحسب، بل تختلف فيهم السنن والثقافات وحتىٰ أساليب التكفير والخصائص الروحية والنفسية أيضاً. فإذا أردنا أن نقسم هؤلاء إلىٰ وحدات إجتماعية مستقلة، أنجعل أساس التصنيف: اللون أو العنصر أو الاقليم أو الحدود الجغرافية أم السوابق التاريخية والثقافية؟ أم عوامل أخرىٰ غيرها؟ أم ماذا؟

ان الاحساس القومي هو احساس أو وجدان مشترك، أو شعور جماعي بين عدد كبير من الناس يشكل بذاته وحدة سياسية أو قومية مشتركة. وهذا الوجدان الجماعي هو الذي يوجد في أفراد المجتمع الحاضر، وبينهم وبين أسلافهم والماضين منهم روابط وعلاقات، وهي التي تصوغ لهم مناسباتهم فيما بينهم وبين سائر الامم، وتقرب آمالهم بعضهم مع بعض وتوفق بينها مهما أمكن.

والتعريف التقليدي الغربي لهذا الاحساس هو: أن هذا الوجدان الجماعي ينبثق من أوضاع اقليميةوعنصريةولغوية وآداب تاريخية وثقافية مشتركة بينهما يؤدي بنا الفحص الدقيق والتنقيب في الواقع والحقائق الفردية والاجتماعية البشرية، إلىٰ أن دور هذه العوامل في تكوين ذلك الوجدان الجماعي ليس دوراً أساسياً عقائدياً بناءً،

وأنها لاتستطيع أن تصبح أساساً لارتباط أبناء الإنسان واتحادهم بعضهم مع بعض تحت عنوان أمة واحدة، الىٰ الأبد

الوحدة اللغوية

هيأن اللغة المشتركة ـ في أولىٰ مراحل تكوين الامة ـ عامل لتعارف واقتراب الافراد بعضهم من بعض، وارتباط القلوب والعواطف، وبالتالي فهي مربية للشعور الجماعي والقومي ولكننا إذا راجعنا ماضي الامم وقارناه بحاضرها وجدنا أن اللغة المشتركة ليست عنصراً مقوماً لقومية الامة بل فرع من قوميتها. إذ لم تكن لغة اية امة منذ تكوينها علىٰ ماهي عليه الآن، بل انها وجدت بوجود الامم واجتماعها بعضها مع بعض و ارتباط قلوبها في رقعة معينة من الارض وانها تكاملت واتسعت قواعدها وأصولها خلال قرون وانها باختلاطها بلغات سائر الأُمم تغيرت وتحولت حتىٰ بلغت إلىٰ ما هي عليه الآن.

وإذا كنا قد رأينا أن اللغة ظهرت في ادوار معينة من تاريخ أمة ما، كدور الكفاح، التحرري لها، وانها أصبحت شعاراً للامال القومية والوطنية كما كان ذلك للغة الهندية في كفاح التحرر الهندي، واللغة العربية في كفاح التحرر الجزائري فان ذلك إنما هو ظهور مؤقت ليس له إلّا دور الدافع لجماهير الامة إلىٰ الكفاح.

الوحدة العنصرية

البحوث التاريخية والدراسات التحليلية في المجتمعات البشرية، اثبتت أن بامكان جميع العناصر والدماء البشرية أن تتمتع بجميع الخصائص الانسانية عند توافر الشروط الاجتماعية والاخلاقية المعينة. كما أن العرب قبل الاسلام كانوا مجموعة نزعات عصبية وحروب قبلية وخرافات جاهلية، ولكنهم بعد ظهور الاسلام فيْ شبه جزيرتهم ومعه التوحيد والدين و مكارم الاخلاق والعدالة الاجتماعية وجدوا الخصائص نفسها التي لاتؤمل الا من أرقىٰ الامم وأكثرها تمدناً وحضارة وأنّا نرىٰ أن تلك الخصائص العنصرية العربية السابقة نفسها، بدأت بعد لأي من الزمن، تجد طريقها مرة أخرىٰ إلىٰ الظهور علىٰ المسرح العربي، ان ذلك هو بسبب تهاونهم بنفس تلك الشروط الأخلاقية والنظم الاجتماعية التوحيدية في الاسلام وهذا يكشف لنا أن الخصائص العنصرية ليس لها

أصالة دائمة لا تزول بل بالامكان أن يتغير دورها وأثرها ضمن شروط اجتماعية واخلاقية مغايرة لما هي فيها من الاوضاع والاحوال، والامة الجزائرية اليوم شاهد آخر علىٰ ما نقول.

وأما امكان صيانة تلك الشروط والاوضاع الاجتماعية والاخلاقية، وكيفية تلك الصيانة فلهما بحث خارج عما نحن بصدده الآن. وفضلاً عن هذا نقول: إن عوامل الخصائص العنصرية و إن كان لها أثر في المسيرة التاريخية للامة في تقدمها أو انحطاطها بل وفي سقوطها و موتها، ولكن هذا ليس مما يسوغ أن تصبح الخصائص العنصرية هي الاساس الجامع بين ضمائر أفراد الامة.

ان الاشتراك الناتج عن الخصائص العنصرية، اما انه يخلف، جفاء بين الافراد أو يشكل أمة ضعيفة لاتدوم يكون أكثر من أن يكون عامل ارتباط وعنصر تماسك للوجدان الجماعي واتحاد الامة. ان الامم التي كانت في بدايتها من أهل الحروب والغارات يقضون أعمارهم في الحروب الداخلية أو الخارجية، أما أنهم بادوا، أو وجدوا في مسيرتهم التاريخية عوامل رابطة بينهم، من قبيل القواعد الاخلاقية والاجتماعية، واصحبت قواماً لجمعهم ووحدتهم: ﴿.. وكنتم اعداء فألف بين قلوبكم﴾ وعلىٰ العكس من ذلك تلك الامم التي كانت أهل سلام ووئام لم يتسالموا فيها بينهم وفي محيطهم وحياتهم الداخلية فحسب وانما سالموا حتىٰ الخصم المهاجم وتعايشوا وتوافقوا معه، هؤلاء لم يبنوا لانفسهم عنصراً أو قومية مستقلة وحتىٰ لو كان لهم ذلك فانه لايكون إلّا بلون خافت، خالٍ من الخصائص والمميزات متجه إلىٰ الزوال.

وهذا من خصائص كل فرد من أفراد البشر: أن يكون في علاقاته المنطقية والعاطفية ساعياً وراء من يكمل له نقائصه الوجودية، أي يؤمن له حاجاته الداخلية و الخارجية. وان أحكم العلاقات الغرامية هي التي يرىٰ العاشق جميع حاجاته الاساسية و العميقة في وجود معشوقه، وهذا ما نشاهده في حياتنا اليومية. فالروابط الاجتماعية والعلاقات الوجدانية الجماعية تؤمن فيما إذا أصبحت كل وحدة من وحدات المجتمع مؤمنة ومكمّلة لحاجات الاخرين. وهذا أيضاً شيء لا دور فيه للمقتضيات والخصائص العنصرية الجبرية.

وحدة التقاليد

نرىٰ بين الامم المختلفة تقاليد قومية مشتركة كثيرة. تقاليد تصبح أحياناً - كاللغة و العنصر - وسيلة لمعرفة وتمييز القوميات بعضها عن بعض. ولكن ما هو دور وأثر هـذه التقاليد في تكوين الامم؟ ان التقاليد بل وحتىٰ الثقافات والمعارف العامة، إنما هي من آثار الحركات الارادية الواعية للانسان السابق، ولو لم تكن هناك علاقات بين الماضي والحاضر لم تنتقل هذه التقاليد من جيل إلىٰ جيل وما لم تكن هناك أمة وقومية لها وجدان جماعي لم تنتقل هذه المعارف والتقاليد إلينا. إذن فالتقاليد القومية الموجودة هي مـن نتائج القومية لامن أسسها ومقوماتها.

أضف إلىٰ ذلك: أن العاملين بالتقاليد الاجتماعية الموجودة في أمة ما علىٰ نوعين: نوع قد عبروا عن حدود مكارم الأخلاق الشخصية والمجاهدات النفسية، ويسعون الآن لاقامة حكم العدل والبرّ والتقوىٰ وخصال الخير.. ونوع آخر: استوحوا من الجهل وحب الدنيا والحكومات الظالمة. وطبيعي أن تكون نتيجة التقاليد من النوع الأول: هي الحياة والحركة والرقي المتفتح، وان تكون نتيجة التقاليد من النوع الثاني: التأخر والانـحطاط ووقوع الناس بيد أرباب الثروات والحكومات.

وبما أن بناء الوجود مبني علىٰ العدل والتقىٰ والتكامل والتقدم، فان الاداب الانسانية الحميدة تكون دوافع لانتظام الدوام وحياة الامة وقوامها. وان التقاليد غـير الانسـانية تكون سبباً لانحطاط الأمة وموتها. ويكفي للمثال ان يراجع بهذا الصدد مصير بعض الأمم السابقة: كقوم لوط وعاد وثمود ومصر والروم واليونان، وحتىٰ هذه الامم الحاضرة.

الوحدة الاقليمية والطبيعية

إن تكامل الموجودات الحية يكون في تحررها من كثير من أحكام الطبيعة والمحيط الخارجي والغرائز الداخلية. والإنسان الأول الذي كان في منتهىٰ هذا الخط التكاملي كان أكثر الموجودات تحرراً من أسر الطبيعة إلّا أن هذه الحرية لم تكن مطلقة بل هي بالنسبة

إلىٰ سائر الأحياء قبل الإنسان، فالانسان الأول كان لايزال تحت تأثير الدوافع الغريزية والطبيعية، ثم تدرج شعوره وقواه الارادية في النمو والرشد والتكامل وعلىٰ مدىٰ هـذا التكامل تحرَّر أكثر فأكثر من أسر الطبيعة. ان علاقات أفراد المـجتمع الإنسـاني الاول بعضهم ببعض في أولىٰ مراحله التكاملية كان مصدرها غرائـزه الداخـلية أو العـوامـل الطبيعية والبيئوية، فكانت العناصر الاقليمية والطبيعية فـي تـلك المـجتمعات الأوليـة وبعدها الدوافع العاطفية والعائلية والقبلية هي العامل الاساس فـي صـياغة الوجـدان الجماعي. ولكن كلما دخلت عناصر أخرىٰ إلىٰ دور المؤثر علىٰ العلاقات الوجـدانـية والاجتماعية لافراد الإنسان في المجتمع المتكامل والرشيد، تضاءل دور وأثر العوامل الطبيعية ومنها الأوضاع الاقليمية.

فاليوم نرىٰ دولاً واموماً كثيرة في منطقة معينة وفي شروط اقليمية وطبيعية متشابهة تماماً ليست لاتشكل جميعاً قومية واحدة فحسب، وإنما هناك اخـتلافات ونـزاعـات كثيرة،فنجد الامة الهندية تعيش مع الامة المسلمة في شبه القارة الهندية فـي أوضـاع اقليمية وطبيعية متشابهة تماماً ولكن ليس بينهما تلك العلاقات الجماعية والاجتماعية التي تنم عن قومية و أمة واحدة أبداً، ونشاهد الامة الانجليزية والايرلندية ليس بينهما ـ بالرغم من الجذور التاريخية والعنصرية واللغوية ـ ذلك التفاهم والتلاؤم الذي يبنىٰ منهما أمة وقومية واحدة. وعلىٰ العكس من ذلك نجد كثيراً من دول العالم الثالث في هذه الأيام، بينهما علاقات عميقة، بالرغم من آلاف الكيلومترات من الفواصل الأرضـية والفـوارق الطبيعية والاقليمية، وحتىٰ اللغوية والعنصرية والتاريخية وغيرها، كالعلاقة بين الجزائر وكوبا وفيتنام، وفلسطين و...

ان جميع هذه العوامل السابقة التي يذكرها الكـتّاب الغـربيون بـاعتبار أنـها أسس القومية، كلها علامات أُولىٰ لتعريف الامم الموجودة وتمييزها بعضها عـن بـعض، كـما تعرف عناصر الطبيعة الاكثر من مئه عنصر بخواصها الكيميائية والفيزيائية، لكن هـذه الخواص التي تقف عليها تعرفها من المشاهدة الأولىٰ والمعرفة السطحية ليست كنه الواقع المكنون في الأشياء، ومع التعمق والتحقيق وإمعان النظر والمعرفة يتكشف لنا تحت هذا

الاختلاف الظاهر بين العناصر عالم الذرّة الداخلية وما فيها من المكنونات، ويتبيّن لنا أن تعدّد هذه العناصر يكشف الواقع الداخلي لباطن الذرّة وعدد الالكترونات فيها، وأن اختلاف كميتها في داخل الذرّة وحده، هو السبب في ظهور اختلاف هذه العناصر في الكيفية أيضاً فقط. وهكذا يجب علينا أن نكتشف تحت هذه العوامل والعناصر المعرّفة للامة والمذكورة آنفاً عاملاً أو عوامل داخلية أساسية تكون هي المؤسسة الحقيقية ـ أو الأقرب إلىٰ الحقيقةُ ـ للوجدان الجماعي في الإنسان.

هناك عامل أساسي خفي لهذا الوجدان، هو في طريقه الآن إلىٰ الظهور. واللغة والتقاليد القومية احياناً ليستا إلّا مظهرين لتجلّي تلك الحقيقة. ونحن نريد الآن من تتبع هذا التحقيق أن نهتدي إلىٰ الطريق من وراء هذه المظاهر الخارجية إلىٰ الواقع المكنون خلف هذه الأشياء والظواهر والحوادث.

وقد وصل فرانتس فانون، الكاتب الافريقي الاخصائي في دراسة المجتمعات البشرية، والذي بحث كثيراً على صعيد وعي الاحساس القومي بين الأمم والاقوام الافريقية بحثاً نفسانياً بديعاً، وصل إلىٰ هذه النتيجة، وهي: ان دور عوامل التاريخ واللغة والتقاليد والاقليم المشترك في ايجاد الشعور القومي ليس إلّا دوراً مؤقتاً لا دائماً. و للتدليل علىٰ هذه النتيجة يشير إلىٰ تلك الدول التي هي الآن في معترك الكفاح من أجل الاستقلال والتحرر من الاستعمار، فيقول: نرىٰ في هذه الدول أن الأماني الأساسية والأصيلة للانسان تفرغ في عوامل كالتقاليد والتاريخ واللغة المشتركة، لكننا نرىٰ أن هذه الامم ما أن تصل إلىٰ هذه الأهداف ـ أي في بداية استقلالها ـ حتىٰ يظهر فيها عدد من المفارقات والمنازعات، فنرىٰ أغنياء هذه الامة الذين ضحوا البارحة بأنفسهم في سبيل هذا الاستقلال تفترق طرقهم عن فقراء الامة: فيسعىٰ ذلك الغني في سبيل الحصول علىٰ سقام أمين وموقع سياسي و اقتصادي واستثماري علىٰ حساب تلك الأتعاب وذلك الحرمان الذي أصابه أيام الكفاح، في حين يتجه الفقراء إلىٰ طريق المقاومة والكفاح في سبيل الحصول علىٰ حقوقهم، وبالتالي يحصل بينهما الفراق والتباعد والتناحر والكفاح من جديد. وهكذا تنقسم هذه الامة نفسها إلىٰ «طبقتين» لهما آمال متضادة، بينهما يشترك

أفراد هذه الطبقات في وحدة اللغة و التقاليد والثقافة والتاريخ. ولنا شواهد كثيرة من الكفاح الطبقي والديني في الامم الراهنة كلها تؤكد عدم الأصالة الدائمة لعوامل اللغة والتاريخ والتقاليد والثقافات.

ان الاستقلال السياسي الذي تحقق اليوم وكان محط الآمال القومية المشتركة والوجدان الجماعي – لا روح له ولا معنى، وعلىٰ الاقل لدول العالم الثالث مع حضور المستعمرين، بينهم فالجهاز السياسي وحتىٰ الجهاز الحاكم في مجتمعات كثير من الدول حديثة الاستقلال بل وحتىٰ قديمة الاستقلال، ليس إلّا ممثّلاً للأجانب وليس القائمون عليه إلا محافظين علىٰ مصالحهم ومنافعهم، إلّا أنهم مجهزون بسلاح الاستقلال والحكم الوطني بينما هم من أهل ذلك البلد ومشتركون مع أهله في اللغة والجذور التاريخية.

وقد فقد الاستقلال السياسي والحدود الجغرافية مفهوميهما الأوليين وأصبحا علىٰ شكل تكتلات واحلاف اقليمية، وهذا يدلل علىٰ أن هذه الدول وجدت أن اختلافاتها اللغوية والتقليدية والثقافية والعنصرية السابقة ضعيفة غير أصيلة أمام مصالحها المستجدّة، ولذلك فهم طرحوا هذه الاختلافات جانباً، واتحدوا في سبيل مصالحهم ومنافعهم وقد تحقق اتحادهم هذا علىٰ الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والثقافي بصورة أجلىٰ وأوضح، فقد أصبح الغرب اليوم باقتصاده وثقافته متحداً كقطعة واحدة أمام العالم الثالث ولذلك فقد طرح الألوان والمفارقات القومية جانباً، وعلىٰ الأقل في سبيل منافعه الاقتصادية المشتركة والاقليمية. أما في دول العالم الثالث (النامية أو غير النامية) فمصادرهم الاقتصادية من ناحية هي في سلطة القوىٰ الاقتصادية للدول الكبرىٰ وقيادتهم الفكرية والثقافية هي تحت تأثير المثقفين الذين يجرون وراء الثقافة الغربية المسيطرة.

دور المثقفين

من الطبيعي، في المجتمعات المستعمرة المختلفة أن يكون المثقفون هم الذين يريدون أو يحاولون احياء هذا الوجدان الجماعي في مواطنيهم. وحيث أن اللغة والتقاليد والثقافة القومية عند هؤلاء المثقفين لاتعني ما يناهض الواقع المعاش للامة، الذي هو خليط من

الشقاء والتخلف والحرمان، فهم يعرضون عن الدعاية إلىٰ هذه التقاليد وما يضارعها، و يتجهون إلىٰ مقاييس الدول المتقدمة الحاكمة علىٰ العالم، فيحاولون أن يجعلوا منها مثلاً لتكوين الاحساس القومي في أممهم.

فنرىٰ أن فرانتس فانون، العالم النفسي والاجتماعي الواعي، الافريقي، الذي يقول عن ظهور هذا الاحساس القومي التقليدي في مثقفي المجتمعات المستعمرة (بالفتح) في فصل «في شأن الثقافة القومية» من أثره المهم والخالد «الملعونون في الأرض» ـ يقول ـ: انها مرحلة بدائية غير ناضجة لتبلور الوجدان القومي في هذه الطبقة من المفكرين، هذا يرىٰ أن المثقف في المجتمعات المستعمرة (بالفتح) في هذه المرحلة مع سعيه لنشر الوعي القومي، إنما هو ذائب في الثقافة الاستعمارية وأن ما يكتبه المثقف في هذه المرحلة يتفق تماماً مع ما يكتبه أقرانه المثقفون في الدولة المستعمرة نفسها[1] (بالكسر) وبعبارة أخرىٰ يقول: ان المثقف في المجتمعات المستعمرة (بالفتح) في هذه المرحلة الفكرية، وان كان هو من المفكرين، ولكنه ليس سوىٰ بضاعة مستوردة جاءوا بها من وراء الحدود، بل من الدول المسيطرة الغربية بالذات، فهو في هذه المرحلة إنما يفكر مترجماً ويعمل مترجماً أيضاً!.

وان ما لهؤلاء المثقفين في هذه البلدان المتخلفة من الاعتماد علىٰ معلوماتهم و محفوظاتهم، والغرور الذي يصيبهم بامتيازهم عن سائر الناس في جهلهم وتخلفهم يحول دون النقد الدقيق وتحليل الحوادث والواقع المعاش. ويجب أن تمر أعوام وقرون من الحوادث المؤلمة حتىٰ يستيقظ هؤلاء المثقفون من نومهم «نومة الارنبة الغافلة »، وحتىٰ تتضح للناس حقيقتهم ومدىٰ قيمة آرائهم.

وفضلاً عن هذا فان هؤلاء المثقفين يجعلون احياء الشعور القومي محط همهم في تلك المراحل الاولىٰ لحركاتهم الفكرية والعملية. وسرعان ما ينحتون لأنفسهم ـ بمقتضىٰ نزعاتهم وأفكارهم ـ أهدافاً ثانوية من الحياة الغربية وحضارتها، لتصل بهم بسرعة إلىٰ

---

١ ـ يراجع بهذا الشأن كتابات مجموعة من هؤلاء المثقفين الفرس من أمثال: ميرزا صالح، فتح علي اخوندزاده، وفريدون آدميت... وما كتب عن النهضة الدستورية في ايران وتركيا الحديثة.

تلك الحياة الاوربية المرفهة. وهذا الاتجاه بنفسه يستلزم السكوت، بل مهادنة عوامل الظلم والفساد في كل زمان ويسبب التحلل والذوبان في الجهاز الاستعماري ويوجب عليهم خدمته أيضاً!.

والمرحلة الثانية في تحليلات «فانون» تبدأ حينما يصمّم مثقف المجتمع المتخلف أن يفكر في أمته بتصميم وارادة أقوىٰ وأشد، ولكنه حينما يرىٰ أمته وما هي عليه الآن عليه من شقاء وقلق وجهل وتخلف، يتجه إلىٰ تاريخه لينتزع منه لأمته المجد والعظمة أو السمعة والشهرة والظهور علىٰ الأقل. ولهذا فهو يترك مجتمعه الحاضر بما فيه من جوانب تجذب النظر، ليطير فوق قمم القرون التي قد خلقت سلسلة من العلل التي انتهت امته علىٰ ما هي عليه الآن إلىٰ آلاف من السنين القديمة وحتىٰ لو لم يجد في تاريخ أمته مثل هذه الأيام فانه سوف يتجه لذلك إلىٰ اساطير الأولين[1]

وإن قيمة فكرة وعمل هؤلاء المثقفين ليس هو سوىٰ بقاء هذه الافكار في بطون الكتب أو بقاء عدد من الناس مدة من الزمان في فرح وغرور وحيث إن هذه الفكرة لاتنبع من الأدواء الموجودة لخلق الله، فهي لن تستطيع أن تبعث الوجدان الجماعي للناس عامة.

والمرحلة الثالثة: هي حينما يترك المثقف أوهامه، ويعيش آلام مجتمعه، ويتذوّق طعم الحرمان والضغط الذي يصيب أمته، فيتصالح معه ويستهدف ما يستهدفون، ويحترم عقائدهم وعواطفهم ويتعرف عليها فيستوحي منها دروسه. وهكذا ـ فحسب ـ يجد المثقف دوره البنّاء والمتقدم في بناء إحياء الوجدان والشعور القومي، شريطة أن يكون صادقاً في عمله هذا غير مقلد فيه ولا تابع لأساتذته الغربيّين. وكلما كان في عمله هذا مصمّما مضحّياً فدائياً كان أثر فكره ونتاج عمله أوسع وأسرع.

الحدود الحقيقية

والآن، وبعد أن فقدت العوامل التي كانت حسب التعريف التقليدي الغربي – مؤثرة

---

١ ـ يراجع بهذا الصدد كتابات مجموعة أخرىٰ من المثقفين الفرس من قبيل: پروين دختر ساسان، يراجع النص الفارسي اوستا، دو قرن سكوت، ماه نخشب، مجموعة ايران باستان ايران كوده.

في بناء الوجدان الجماعي واتحاد الأمة أو العناصر المؤسسة للاحساس القومي أصالتها فهل يمكننا أن ندعي عدم وجود أي تمييز بين وحدات المجتمع البشري، وأن بإمكان جميع الامم أن تتخلّىٰ عن قومياتها الخاصة فتبني أمة واحدة؟

إن التجربة التاريخية والشواهد المكتسبة من النضال والتغيرات الاجتماعية، تؤكد وجود الشعوب والقبائل والاصناف المختلفة من الناس أصنافاً متمايزة ولها طرق مختلفة في الحياة حيث لايمكن دمجها بعضا في بعض أو اضمحلالها. وان التحولات والتغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية في عالمنا المعاصر، تبعد روح التفاهم والوحدة بين العالم الثالث والعالم الغربي يوماً بعد يوم، بل تجعله من غير الممكن أيضاً، فانهم وإن كانوا يتحدثون دائماً عن التعايش السلمي، والسلام والاتحاد العالمي لكن عملهم، أو واقع التحولات والتغيرات تبعد ذلك وتجعله من غير الممكن. وإذا شكل جماعة من الناس مجتمعاً مجهّزاً بأجهزة ادارية بأي عنوان إجتماعي كان ذلك المجتمع، و على أي أساس كان، فلابد أن يحفظ هذا المجتمع حدوده الجغرافية والسياسية والاقتصادية أو الثقافية والفكرية والعقائدية فيما إذا كان معرضاً للخطر أو مطمحاً للنظر.

ولكن ليس البحث هنا في الوظيفة الفعلية للأمم في الوقت الحاضر بل ان الهدف هو: الكشف عن العوامل والعناصر التي تبني الوجدان الجماعي للأمم، والتي تؤسس علاقات وعواطف بين أمة من الناس لتبني قوميّتها.

وقد رأينا: أن العوامل المتعارف عليها الآن: من اللغة والثقافة والجذور التاريخية والعنصرية، وإن كانت مؤثرة في مبادىء تكوين الامة، ولكن ليس لها دور أساسي ودائم، ولهذا فنحن نقول أن لا أصالة لدور هذه العوامل، وأنها ليست جواهر، بل هي اعراض إذ أن الامة التي كانت تكافح حيناً في سبيل استقلالها وشرفها تنقسم بعد وصولها إلىٰ أهدافها هذه، حسب توقعاتها والدواعي التي تضمرها والمنافع والمطامع التي تستهدفها، إلىٰ جماعات حاكمة ومحكومة ومنتفعة ومحرومة، وينقلب الكفاح القومي إلىٰ كفاح طبقي داخلي يشتمل علىٰ مفارقات وشقاق، ينشأ بين أفراد أمة واحدة ذوي ثقافة ولغة وعنصر واحد، والذين كان الوجدان الجماعي المزعوم قد ولد وعاش معهم بتلك العوامل، إلّا أنهم

حينما تبدّلت وتغيرت العلاقات بينهم مات ذلك الوجدان الجماعي وذاب.إذن: ما هو العنصر الأساس لتكوين وحدة قومية أو أمة واحدة تتقارب قلوب أفرادها وتشدها علاقات وعواطف، وآمال وأماني مشتركة؟

لقد رأينا حينما بدأ الجزائريون كفاحهم التحرري ضد الاستعمار الفرنسي أو حينما بدأ الفلسطينيون كفاحهم الإنساني لاسترداد حقوقهم أو حينما بدأ الفيتناميون ثورتهم العارمة ضد امريكا، كانت عناصر القومية من اللغة المشتركة والتاريخ المشترك والوحدة الاقليمية والاقتصادية، ومؤثرة في تقارب قلوبهم وتفاهم أفرادهم وفي الوقت نفسه رأينا هناك في أقصىٰ نقاط العالم أناساً اهتزت قلوبهم لانتصار هؤلاء كأنهم منهم.

فهناك نوع من العلاقة القلبية ووحدة الآمال يربط بين قلوب هؤلاء وحدة قد تدفع ببعضهم إلىٰ أن ينسىٰ أهله وأولاده ومحيط بيئته وتقطع آلاف الكيلومترات لتصل بهم ويستشهد معهم! في حين ليست بينهم لغة مشتركة ولا ثقافة ولا حضارة ولا جذور تاريخية واحدة. وإذا لاحظتم تاريخ هذه النهضات فربما تجدون فيها أشخاصاً «أجانب» من سائر الأمم والقوميات قد لعبوا أدواراً بطولية بينهم، من أجل أن يبقوا فيهم بعد أنتصارهم ويبنوا معهم أمة من جديد.

ومن ناحية أخرىٰ نجد في داخل دولة واحدة جماعات مختلفة كلها من عنصر وجذر واحد ولهم لغة وتقاليد وثقافة وشروط جغرافية واحدة لكن ليست بينهم أية علاقة وأية رابطة أبداً ولا تتوافق آمالهم السامية ولا أهدافهم المستقبلية بل هي متناقضة أحياناً، وإذا كانت بينهم روابط وعلاقات فإنما هي ميكانيكية وشكلية وفي حدود حاجات الحياة اليومية. وما أكثر الحروب التي نشبت بين الدول والهيئات الحاكمة في كثير من الدول لم يطلع عليها عموم الناس ولم يهتموا لها. وفي تاريخ دولتنا هذه أيضاً هناك كثير من الشواهد والنماذج علىٰ عدم إهتمام الناس بما يدور في فلك السياسيين من حولهم.

وكثيراً ما يتفق أن يبدي الهندي أو الافريقي اهتماماً لانتصار الشعوب الفلسطينية أو الجزائرية أو الفيتنامية.. إذن: فهذه الحدود التاريخية و الجغرافية والسياسية والجنسية و

اللغوية لايمكن أن تكون حدوداً واقعية بين أفراد الناس ولا أن تكون أساس العلاقات بينهم.

الآلام المشتركة

فما هو الجامع المشترك بين هؤلاء الذين يشعرون بروابط ولهم آمال وأهداف تربط بينهم وهم من أطراف العالم المختلفة في حين انها تفصل بينهم وبين مواطنيهم ومجاوريهم في بلدانهم؟

إن هذا العامل: هو الآلام المشتركة التي هم يشتركون فيها: ألم الظلم والاستعمار.

وقد صادف ميلاد القومية والوطنية مع العهد الذي أحسّ فيه الناس بألم فراغ عام ومشترك بينهم، فالقومية الألمانية ظهرت إلىٰ الوجود حينما أحسّ الالمان بالألم من جرّاء تدخل الفرنسيين بينهم بالتمييز والطبقية، وان القومية الايطالية أو المجرية أو الهندية أو الهند الصينية أو الجزائرية إنما وجدت حينما شملهم الاحساس بالالم والفراغ أوجلّهم.

ويقول الباحثون الغربيون في تاريخ ايران: الحقيقة أن الوطنية الايرانية أو قل الاحساس الجماعي القومي الايراني ولد حينما بدأت ثورة تحريم التبغ أي منذ ذلك العهد أحسّ جماعة من الايرانيين بألم الاستعمار والمستعمرين.

إذن فالشعور الجماعي والاحساس القومي والوطني بين جماعة من الناس يولد حينما يحسون بآلام وآمال مشتركة وهذه الآمال المشتركة هي التي تبني لهم أهدافهم الجماهيرية، وحينذاك يتحركون فيكافحون ويناضلون ويجاهدون، يتحملون لذلك الألم والحرمان، وذلك الألم والأمل، هما اللذان يمدان وجدانهم الجماعي بالنشاط والدوام الاكثر فالاكثر ويخلقان عندهم علاقات وروابط قلبية ووحدة قومية.

عوامل الوحدة

وحينما نلاحظ جميع الآلام التي أوجدت إلىٰ الآن الأمم والقوميات ، ونقارن بعضها

ببعض ونجد بينها عاملاً مشتركاً، هو إنه: حينما أعلن الفيلسوف فيخته القومية الألمانية بشدة وحرارة متزايدة ، أو بدأ غاندي أو غاريبالدي كفاحهما في سبيل استقلال الهند أو ايطاليا أو بدأ الفيتناميون أو الفلسطينيون محاولة التحرر والاستقلال لعلاج آلامهم وبلوغ آمالهم وحينما تبدأ جماعة من أمة محاولة النهضة والثورة ، نجد أن هناك عنصرين مشتركين بينهم جميعاً، هو: الاحساس بألم الظلم وسيطرة الانسان علىٰ أخيه الانسان ، ثم محاولة رفع هذه السيطرة. فكان فيخته يريد باعلانه القومية الالمانية تحرير الأمة الالمانية من نفوذ وسيطرة الفرنسيين السياسية والثقافية وغاندي كان يريد تحرير الهند من السيطرة السياسية والثقافية والاقتصادية الانجليزية ، والجزائريون كانوا يريدون تحرير الجزائر من تجاوز الفرنسيين أيضاً ، وهكذا...

إذن: فالعامل المشترك في جميع الآلام والآمال والقومية التيأوجدت أمم العالم هو هذا الاحساس نفسه وارادة رفع الظلم وطلب العدل.

ولماذا لايوجد الاحساس القومي والوطني إلّا في عهد الحرمان ومعاناة الظلم والعدوان والاستعمارة والاستثمار؟ لأن الانسان إنما يكتشف نفسه وفطرته وحقيقته ويعرف قيمته وفضائله الانسانية في عهد الحرمان وفقدان حب وعواطف الانسان لاخيه الانسان وحينما يسعىٰ جاهداً من أجل التحرر من تلك الاوضاع والاحوال والشروط غير المطلوبة .فالانسان حينما وقع تحت نير الظلم والجور والفسق والفجور والكفر والجريمة وتحمل منها الأمرين، ظهرت عنده رغبة وحب إلىٰ الحق والعدل وهذه الرغبة والحب هي التي تجمع الأفراد وتمنحهم الوحدة والود فالانسان بطبعه يعشق الحق والعدل والتقىٰ في أعماق ضميره ، ويظهر هذا الحب في كل زمان ومكان بشكل من الأشكال ولون من الألوان.

وعلىٰهذا، فنحن نرىٰ: أن عامل الحرمان من التمتع بحق الحكم والوقوع تحت نير حكم الاخرين ، هوالذي يحدد الحدود الواقعية بينهم ويعين أماكن صفوفهم في المجتمع البشري.

والباحث الغربي تيبورمند[1] أيضاً يقسّم أمم العالم اليوم إلىٰ معسكرين: المحرومين والمتمتعين، أو قل: الدول الصناعية، والدول المتخلفة، وهذا التقسيم ـ وإن كان يطابق الواقع الخارجي اليوم للعالم ـ ليس تقسيماً واقعياً تاماً؛ إذ لو قررّنا أن نقسم الناس اليوم إلىٰ أمتين: حاكمة ومحكومة، فهل أن جميع المحرومين يكونون علىٰ مستوىٰ واحد؟

يقول فرانتس فانون بهذا الصدد:

«... ان تمجيد السود في آدابهم العاطفية ـ ان لم يكن منطقياً ومعقولاً ـ فهو شتائم نثرها البيض علىٰ الانسانية! فان تمجيد السود الذي يمثل ثورة طاغية ضد تحقير البيض لهم، يصبح أحياناً من أحسن الوسائل والسبل إلىٰ ردّ الشتائم والمحروميات، إذ رأىٰ المثقفون الكينيون أنهم مواجهون ـ قبل كل شيء ـ بالطرد التام والتحقير الكامل من قبل القوة المسيطرة عليهم فيصبح رد فعلهم أمام هذا الطرد والحرمان أن يؤكدوا أنفسهم وميجدوها ويكيلوا لها الثناء العاطر والتحسين وحينئذٍ يتبدل تصديقهم المطلق للثقافة الاوربية الى تصديق مطلق للثقافة الافريقية وحينذاك يتبدل السود ـ بصورة عامة ـ المعسكر المتعب الشيخ العجوز بافريقيا الفتية! وذلك العقل والعلم الظالم بالشعر الحرّ، والمنطق الظالم بالطبيعة المنطلقة ، فان ذلك العقل والعلم والمنطق لانطوي إلّا علىٰ الدبلوماسية ثم الظلم وعدم المسؤولية والتشكيك في كل شيء والطبيعة والشعر لاغل فيه ولا غش ولا شيء سوىٰ الوحدة والحرية. وما هي جدوىٰ أرض مثمرة لكنها تتنعّم بعدم المسؤولية أيضاً»[2]

ان عدم المسؤولية الذي التفت إليه فانون في كلمته هذه هو ناتج عن أنّ الألم والأمل المشترك الموجود في المجتمع الافريقي لازال ضعيفاً في بعض الحقول من ناحية الدوافع والدواعي والأهداف. ان حركة القارة السوداء ضد الاستعمار والظلم والتمييز الطبقي، من أجل أحقاق الحق الانساني لهم، حركة مقدسة تطابق الواقع الفطري والضمير البشري ولكنها حينما تكون بصورة تمجيد النفس والانتقام من الغير والأمل في الحكم والمتعة بها، تصبح مقدمة وأساساً لظلم جديد ظلم لم يجد لنفسه بعد مجالاً للعمل.

---

١ ـ عن الترجمة الفارسية لكتابه: جهانى ميان ترس واميد: عالم بين الخوف والرجاء.

2- Frantz Fanon : Les damnees de la terre: drculture natiole.

إذن فللدواعي والدوافع دور في حرمان الامم والسيطرة عليها. فمتىٰ ما تكاملت فكرة تمجيد السود وتوصلت إلىٰ تمجيد الحق والعدل، كان نتاجها نهضة مثمرة. ولهذا فنحن نقيس الحركات التحررية المنبثقة عن الألم والأمل المشترك بدواعيها ودوافعها؛ فهل هي منبثقة عن المطالبة بالحقوق والعدل والتحرر؟ أو عن المطالبة بالحكم والتمتع بها والاستئثار بمنافعها ومطامعها. وهذا شيء ينتج عن منهج الحاكم ومذهبه وفكرته ونظرته إلىٰ العالم، وهو يقود حركة الأمة.

إن الثقافة الغربية تخرج هذه العوالم المذكورة آنفاً عن دائرة العناصر البنّاءة للوجدان الجماعي المشترك والمؤسسة لقومية الأمة. والمثقف الشرقي والمسلم الافريقي يريد أن يصبغ قومية أمته بتلك المقاييس الغربية نفسها وأن يعرضها علىٰ الرأي العام بتلك الصبغة وهذا يعني أنه يريد أن يبنىٰ قومية أمته ويدافع عنها بتلك الأسلحة نفسها التي باعها له عدّوه: الويل ثم الويل من هذه الاسلحة التي نشتريها نحن من العدو!.

وكما وجدنا في الحركات القومية والنهضات الطبيعية عالم الألم والأمل والمشترك والثورة ضد سيطرة الاجنبي، نشاهد فيها عنصراً آخر: هو التطلع إلىٰ الحق والتحرر الفكري وان هذين العاملين هما معاً خير مقياس لمشروعية النهضة واستحقاقها فالقومية الالمانية بما كان لها من دواع عنصرية وتفوقية، لم يكن فيها لسائر الناس في الأرض شيءمن الخير والعطاء بل الحرب والفناء والصهيونية التي كانت تتراءىٰ أنها بدأت لانقاذ اليهود من التشرد والضياع بين الأمم تبدّت اليوم في ايديولوجية معتدية وعنصرية ظالمة؛ فهذه الحركة – مع ما فيها من الألم والأمل المشترك بين اليهود وبما لها من دواعي الانتفاع من المحرومين في العالم لصالح انثي عشر مليوناً من الصهاينة قد أصبحت موضع استنكار جميع الأحرار في العالم. وان نهضة المقاومة القومية الفرنسية ـ مع ما كان لها من البطولات التكتيكية ـ بما أنها كانت نابعة عن روح القومية الفرنسية، فانها صححت استعمار الامة الجزائرية وسحق نهضتها التحريرية، ولم يكن من نصيب هذه النهضة الفرنسية أن تؤسس مدرسة للحركات التحررية، أما تلك الحركة التي كانت تحتوىٰ علىٰ عوامل طلب العدل والحق أكثر وأظهر، أصبحت حركة عالمية وأساساً لحضارة عظيمة

ومدارس فكرية إنسانية.

والحاصل: انا نلاحظ للتمييز بين الوحدات الاجتماعية والانسانية وتعيين واقع القوميات وحدودها: جميع آلامهم وحرمانهم البالغ إلىٰ مستوىٰ الشعور بالمسؤولية، والهدف الحاصل منه والدواعي والدوافع لهم وهذه الامور هي التي تصبح منبع الحياة والحركة لجماعة من الناس.

ومن البديهي، أن هذه العوامل الاساسية والجوهرية إذا انتشرت بين أمة فاوجدت فيهم وجداناً جماعياً واحساساً مشتركاً، أوجدت فيهم الأساس الصحيح لقوميتهم؛ وهذا الأساس بحاجة إلى مهبط يحتله وقالب يحتل فيه، وهو الذي يبني تلك الثغور والحدود المادية والطبيعية والموضوعة. وان صيانة تلك العوامل الاساسية والجوهرية تستلزم المحافظة علىٰ ذلك القالب والمهبط من تدخل الاجنبي ونفوذه فيه ذلك الأجنبي الذي يختلف مع تلك الأمة في جوهرها ولا يعرف آلامها ولا دواعيها ولا دوافعها بالاحرىٰ أو هو عدوّ لها.

أُمة في طريقها إلىٰ الحياة

كنا ننشد عن العوامل الأساسية للوجدان الجماعي المشترك، وبلغنا في محاولتنا هذه إلىٰ الألم والأمل المشترك أمام سيطرة الإنسان علىٰ أخيه الإنسان واستثماره له ورأينا أن هذا الجامع المشترك يصبح جامعاً مقاوماً فيما إذا أصبحت التقوىٰ وطلب الحق والعدل (وكما يقول الكتّاب الغربيون: الدواعي الانسانية المتعالية) أساسه ورأسماله. وان هذا الأساس والرأسمال جوهرة كالحياة حيّة تحيىٰ وتتطور، وهي مادة إذا حقن بها مجتمع من الناس دفعته إلىٰ الحركة والتكامل الجماعي والثقافي والتقليدي والحركة والثقافة والتقاليد هي مظاهر استقلال الامة.

وأنت ترىٰ اليوم أمماً لها لغات وتقاليد ودماء مختلفة، وتعيش في أوضاع اقليمية وجغرافية متفاوتة، وتشكل بمجموعها منطقة واسعة نسبياً من هذا العالم، وتصور وحدات سياسية مع دول متعددة، وهي بعيدة ومستقلة بعضها عن بعض .هي الدول

الإسلامية في هذا العالم المعاصر.

فالمقاييس الكلاسيكية والغربية ، تفصل قوميات هذه الدول بعضها عن بعض وتجعل بعضها بالنسبة إلىٰ البعض الاخر أجنبياً، كما أن الدول والأمم الاخرىٰ أجنبية عنها تماماً. وقد أصبح من الواجب علىٰ كل واحدة منها أن تكون منفصلة وأجنبيةً عن الاخرىٰ، ولهذا الانفصال والاجتناب تبعات تحت مرآنا ومسمعنا!.

ونشاهد بالرغم من هذا الاختلاف الظاهر عناصر من الوحدة بين هـذه الجـماعات فنحن نجد بين هؤلاء الناس المختلفين عاملاً مشتركاً وهو أبرز ما يكون من سمات هذه المجتمعات، وهو الدين الاسلامي الحنيف والاسلام عالم مليء بثقافات ومعارف وآداب خاصة منسجمة معه تماماً.

فلنر: ما هي مباني الوجدان الجماعي الوحداني والمشترك كيف يمكن أن يكون فيما لو تمسكت قلوب أفراد هذه الأمم بهذا الدين ،عقيدة وشريعة وحكماً ونظاماً؟ اعني: ان نرىٰ ما الذي يعلمهم هذا الدين ويلقنهم بصفته منهجاً خاصاً في الحياة له نظرته الخاصة إلىٰ الكون والانسان؟ ثم نرىٰ: ما هي الأدواء المشتركة بين هؤلاء مع تمسكهم بالاسلام.

يدرك الذين نظروا في تاريخ الحركات التحررية: أن أساس تحرر الامم والشـعوب مبني علىٰ تحرر حقيقي لفردٍ أو جماعة ـ ولو قليلة ـ عن قيود أرباب الدنيا ووصولهم إلىٰ درجة التحرر الكامل من هذه العلاقات ثم تنبيه هؤلاء أممهم: أن الأمم هي التي تريد أن تبقي سلطة أرباب الدنيا علىٰ رؤوسها فيظل حكمهم قائماً ،بينما هم إذا أرادوا أن يذوب أرباب القوة والثروة ذابوا كما تذوب الثلوج في المياه الحارة.

إن أساس تحرر الانسان مبني علىٰ إيمانه بحقه ،وانه مظلوم ومعتدىٰ عليه، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرىٰ إيمانه ببطلان جهاز هؤلاء الارباب وضعفهم وهوانـهم. وأي دين ومدرسة تعلم ابناءها واتباعها مباني وأصول هـذا التـحرر أوضـح وأصـرح مـن الإسلام؟ فالاسلام والتوحيد لايعني سوىٰ التحرير والانطلاق وكسر القيود وفتح الطرق والسبل أمام التكامل إلىٰ الساحة الالهية المقدسة.

إن الإسلام يقول لابنائه:إن هذا الاختلاف الذي ترونه بين أمم الأرض فـي الألوان

والعناصر والدماء واللغات والذي خلق منه الإنسان مقاييس للتفرقة والانفصال والاستقلال ليس شيئاً جوهرياً وأصيلاً وليس هناك أعز وأشرف، سوىٰ من سلك التكامل في الانسانية بسلوك سبيل الله والإسلام وأن ما تشاهدونه بين أبناء البشر من الألوان واللغات والتقاليد ليست سوىٰ صور لحقيقة واحدة هي كثرة أفراد هذا الموجود الإنساني تماماً كما ترىٰ عيناك من الاختلاف في صور الطبيعة والجمال فلكل ورد رائحة ولون وفوائد خاصة ولجميعها التقدير والتثمين في سبيل تكامل الانسان وليس لهذه الاختلافات دور في فصل الناس بعضهم عن بعض وعداء بعضهم لبعض بل لها دور (التعارف) بينهم مما يؤثر في حصول التكامل المادي والمعنوي بينهم: « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »[1].

إذن: فسبيلكم – أنتم الذين تشتركون في الإيمان بهذا الدين الحنيف من أي عنصر أو دم أو اقليم أو لغة كنتم – هو أن تحافظوا علىٰ دينكم (دين الله) بكل ماتملكون من حول وقوة وأن لا تتفرقوا في هذا السبيل وأن تتذكروا أنكم كنتم ـ من دون هذا الدين ـ أعداءً وانكم توحدتم بجوهرة التوحيد الاسلامي ،وأن ثمار هذه الوحدة كانت عالماً من العلوم والمعارف والفضائل والأخلاق اتحف المجتمع البشري: « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا، واذكروا إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته اخوان، وكنتم علىٰ شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »[2].

وانكم إن أصبحتم حماة الخير دعاة إليه، أعداء الفساد والظلم والجور، كنتم بذلك خير أُمم العالم:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتجاهدون في سبيل الله... »[3].

---

١ ـ الحجرات: ١٨.

٢ ـ آل عمران: ١٠٣.

٣ ـ آل عمران: ١١٠.

وانه ليس نتاج حياتكم الاجتماعية المادية شيئاً سوىٰ بغي بعضكم علىٰ بعض: «يا أيُّها الناس إنما بغيكم علىٰ أنفسكم متاع الحياة الدنيا... »[1] وهي ـ من ناحية أخرىٰ ـ رأسمال للتكامل الفردي والاجتماعي لكم:

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام.. »[2].

إذن: فما دامت هذه الحياة الدنيا مزيجة من الظلم والكمال، فالسبيل لايقاف الظلم عن الانتشار هو: أن تنعموا بالإيمان الكامل بحكومة الحق والعدل وان تضحّوا في سبيلها بالنفس والنفيس، كفاحاً ضد حكومة المال والثروة وحب الذات:

« يا أيُّها الذين آمنوا هل أدلكم علىٰ تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم خير لكم ان كنتم تعلمون »[3].

وعلىٰ هذا يكون بناء أمتكم والعامل الأساس في الوجدان الجماعي المشترك لكم هو: الإيمان بالله (وهو الدافع لكم) وجهادكم في سبيله (وهو الألم المشترك الذي يكون قد بلغ مرحلة الأثر العملي وهو النهوض والتضحية بالنفس):

« والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم... »[4].

راجعوا وانظروا في تاريخ الأمم السالفة والمعاصرة، ترونهم مهما كانوا ومهما أصبحوا، ليسوا سوىٰ نتائج أعمالهم ومكتسباتهم الفردية والاجتماعية، فأنتم أيضاً لم ولن تشذّوا عن هذا القانون الكوني العام والشامل:

«تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم »[5]

«وان ليس للإنسان إلّا ما سعىٰ »[6]

والنتيجة: أن مصيركم رهن بعملكم وسعيكم الذي تقومون به من أجل التكامل

---

١ ـ يونس: ٢٣.

٢ ـ يونس: ٢٤.

٣ ـ الصف: ١٠ و ١١.

٤ ـ الأنفال: ٧٥.

٥ ـ البقرة: ١٢٨.

٦ ـ النجم.

والتقرب إلىٰ ربكم الذي هو الخالق البر والجمال والمظهر الأتم بالحق والكمال:

«يا أيُّها الإنسان إنك كادح إلىٰ ربك كدحاً فملاقيه »[1]

إن الأمم الاسلامية المختلفة المنفصلة بعضها عن بعض تتلقىٰ من زاوية النظرة الكونية والانسانية والدوافع: هكذا تعاليم وتلقينات قيمة؛ وهذا ما يبني لهم ثقافتهم المشتركة ». وقد خلقت هذه الثقافة الإسلامية والتوحيدية شهداء وأبطالاً وعمالقة، وأبقت لهم ملاحم وخواطر تاريخية مهمة تشكل بمجموعها دوراً مهماً في حياكة نسيج وجدانهم الجماعي الاسلامي المشترك.

وقد بلغت هذه الاصول والدوافع التوحيدية والاسلامية إلىٰ الناس في القرون الهجرية الاولىٰ بصراحة ووضوح بحيث تقبلها كثير من أبناء تلك الحضارات المتمدنة آنذاك بكل وجدانهم وضمائرهم ومن أعماق أرواحهم، وسرعان ما تشكلت منهم أمة اسلاميه عالمية دولية. ولكنها سرعان ما تبدلت تلك الوحدة بالتفرقة. وذلك لان الآخذين بأزمة الأمور آنذاك لم يدركوا أو لم يريدوا أن يدركوا المفاهيم الواقعية والحقيقية للدوافع الاسلامية، فصنعوا من تلك الوحدة الاسلامية خلافة أو قل أمبراطورية عظمىٰ عربية أموية أو مروانية أو عباسية! وكان هذا هو الخلاف الصريح للاصول الاسلامية. ولهذا انكسرت وانثلمت تلك الوحدة الحاصلة بالاسلام ،وتبعتها تقلبات وتحولات وانحرافات أخرىٰ، ثم ضعف شديد في الوحدة حتىٰ سيطر السبات والنوم علىٰ عامة المسلمين.

وحين شمل السبات والنوم هذه الامة المسلمة تيقظ الغربيون المسيحيون وبدأوا الاستفادة الكبرىٰ من الآداب الاجتماعية والثقافية العلمية الإسلامية ،فبنوا بها حضارتهم هذه الغربية المسيحية، التي كانت تستثمر ـ بالاضافة إلىٰ الكنوز العلمية من الآداب الإسلامية ـ من عناصر حب الدنيا والمال والثروة والحكم والقوة وان كان لايحصل ذلك إلّا بالظلم القاهر! وأصبح العالم الإسلامي هدف هجومهم في سبيل استعماره وأستثماره.وبدأ الغرب بالاتيان على الوجود الثقافي والاخلاقي للمسلمين ،ثم ثنّىٰ منافعهم المادية والاقتصادية. وكان من جرّاء ذلك النوم العميق واليقظة الغربية المسيحية

---

١ ـ الانشقاق: ٦.

وماتبعها من الهجوم الاستعماري أن فقدت الأمم الإسلامية شخصيتها شيئاً فشيئاً ووقعت في أسر الغرب.

والآن، قد حظيت هذه الامم المسلمة منذ قرن من الزمان تقريباً بيقظة ووعي جديدين بسبب التطورات الثقافية والاجتماعية والسياسية في العالم ،فنظرت من ناحية نظرة جديدة إلىٰ إسلامها وتوحيدها ودوافعها الاسلامية واكتشفت فيها عالماً من الحقائق الحية والطرية كما شاهدت الحالة الحاضرة وما فيها من التفرقة والحرمان والتخلف: ألماً وأملاً جديداً مشتركاً بينها.

ونرىٰ نحن من ناحية أخرىٰ حركة ونشاطاً آخر في الدول الإسلامية الأسيرة؛ وذلك: أن الدوافع التوحيدية والشعارات الإسلامية الواقعية والمحررة لاتبعث الامم المسلمة فحسب بل كل أمة ذات الظلم وتعرفت علىٰ التعاليم الاسلامية ولهذا أصبح الإسلام في دول إفريقيا الحديثة وكذلك في الدول العربية المستعمرة ايديولوجية لنهضة المحرومين.

والحضارة الغربية التي كانت منذ القرون السابقة في حرب مع الإسلام جهراً وسراً ، حينما شاهدت هذه الظاهرة في الأمم الإسلامية تحركت، فدخلت الامبريالية الغربية المستعمرة مع المعسكر الشرقي الشيوعي الماركسي في سبل السلام والتعايش السلمي، وتآمرت مع الصهيونية العالمية فأوجدت دولة في قلب الدول الإسلامية وهي بعد في سبيل الحصول علىٰ قلوب أتباع الأديان الأخرىٰ كالبوذيين والمجوس و... وأصبحنا اليوم نرىٰ أن الغرب لايزال يوحد ويجهز جميع القوىٰ المضادة للإسلام والعدالة علىٰ الإسلام والمسلمين، ولهذا أصبحنا نكتشف كل يوم مؤامرات في سبيل التقليل من أثر الشعارات والتعاليم الإسلامية وأضعافها مع جميع الأطراف والنواحي المختلفة.

ولابأس بذلك؛ فان جميع هذه المؤامرات ستقوي احساس المسلمين بألمهم المشترك وتقوي أيضاً نسيج الوجدان القومي الجماعي للمسلمين.

وان تلك النظرة وهذا الاحساس بالآلام سيتوسّع ويستوعب وينشر ،والأمة الاسلامية اليوم في طريقها إلىٰ الظهور مرة أخرىٰ إن شاء الله. أمة قد عبرت الحدود

الموضوعة والعنصرية والقومية، وشملت جميع المسلمين بل جميع الأحرار الموحدين أمة تنفىٰ وتنكر حكومة القوميات والطبقات والأسر والعوائل ،وتجعل أركانها علىٰ أساس تحرير البشر من جميع الأغلال والقيوم الفكرية والاجتماعية والسياسية، وهدايتهم إلىٰ التقرب من ساحة رب العالمين الرحمن الرحيم.

وقد كان رجال كالسيد جمال الدين الحسيني الهمداني الأسدآبادي (الشهير بالأفغاني) ومحمّد اقبال ومحمّد عبدة، والنائيني وبشير الابراهيمي، وعبدالرحمن الكواكبي كانوا في مقدمة من أدرك هذه النظرة الحديثة في الإسلام والتوحيد، ومن أوائل من أحسّ بالالم والأمل الإسلامي الحديث والمؤسسين للأمة والتوحيدية الجديدة.

وهذه هي نغمة اقبال اللاهوري كالنسيم الندي يوقظ القلوب المتفرقة والنائمة للأمة المسلمة، ويذكرهم برسالتهم الإسلامية في سبيل خدمة الإنسانية، ويحمل لهم بشرىٰ تحرير البشرية؛ فيقول:

قم من النوم سريعاً

أيُّها المسلم قم　　لاتنم هيّا فقم

إيُّها البائت في نوم عميق　　قم من النوم سريعاً

نهبوا بيتك قم يا ذا الغريق　　قم من النوم سريعاً

قم من النوم سريعاً

أيُّها المسلم قم　　لاتنم هيّا فقم

قم من النوم بصيحات الديوك　　ومناجات السحر

وبصيحات أذان علموك　　حينما الفجر ظهر

قم من النوم سريعاً

أيُّها المسلم قم　　لاتنم هيّا فقم

قد غدا بحرك ميتاً كالقفار　　غائراً مثل الغدير

لانرىٰ موجاً به، مثل الصحارى　　لا، ولا حوتاً يسير

قم من النوم سريعاً

أيُّها المسلم قم لاتنم هيّا فقم

قـم وكـن أنت بـه التيار، نـاراً قـم وكـن مـوجاً يـثور

ثـائراً لاكـي تكـبدنا دمـاراً بـل لكـي تـبنىٰ الجسـور

قم من النوم سريعاً

أيُّها المسلم قم لاتنم هيّا فقم

فـلقد حـطم (الافـرنج) البـلاد نـاهباً كـلّ مـتاع

لابـعدوان صـريح بـالعباد بـل بـزور وخـداع

قم من النوم سريعاً

أيُّها المسلم قم لاتنم هيّا فقم

القسم الأول

الاسلام والقومية الايرانية

نحن والاسلام

كان لنا نحن الايرانيين ـ كما يشهد التاريخ ـ طول حياتنا التاريخية الممتدة عبر آلاف السنين، وفقاً للعوامل التاريخية المختلفة، ومع الأُمم والقوميات المختلفة في العالم، علاقات أخوية أحياناً وعدائية أحياناً أُخرىٰ. وقد وصلت الينا علىٰ أثر هذه العلاقات المختلفة أفكار من الآخرين وعقائد مختلفة، كما كنا قد أثّرنا بدورنا في أفكار الآخرين و عقائدهم، وقد قاومنا قوميات الآخرين حينما احتكت بنا، فلم نذب فيها، ولكنّا مع فرط علاقتنا بقوميتنا لم نتعصّب فيها الىٰ درجة العمىٰ لتصبح هذه القومية سبباً لعمىٰ عقولنا و ابعادنا عن الحقيقة وسلب قوة الادراك والتمييز عنّا وايجاد العناد فينا أمام الحقائق.

والآن قد مضىٰ علىٰ عهد الهخامنشيين ـ الذي كانت فيه ايران الحاضرة بالاضافة الىٰ مناطق من الدول المجاورة، تحت حكم واحد ـ أكثر من ألفين وخمسمائة عام، وقد قضينا ـ نحن الايرانيين ـ أربعة عشر قرناً من هذه القرون الخمسة والعشرين مع العقيدة الاسلامية، حيث كان هذا الدين من صميم حياتنا، وفي ظل آداب هذا الدين ترعرع أطفالنا وعشنا حياتنا ومارسنا عباداتنا وحتىٰ مراسم دفن موتانا فأصبح تاريخنا وادبنا، وسياستنا، وحكمنا، وثقافتنا، وحضارتنا، وشؤون مجتمعنا، بل كل شيء منّا متداخلاً مع هذا الدين ومقترناً به، ومزيجاً معه، وحسب اعتراف المطلعين، فقد خدمنا نحن في هذه المدة، الحضارة الاسلامية خدمات جليلة لاتوصف، وسعينا في سبيل تقدم هذا الدين ونشره بين سائر أُمم العالم أكثر من سائر المسلمين وحتىٰ العرب منهم، وليس لأية أُمة مثل ما كان لنا من نشاط في سبيل نشره وترويجه واشاعته وتبليغه.

أذن: فيحق لنا الآن أن نلاحظ هذ العلاقات بين الاسلام وايران من النواحي المختلفة، كي نستجلي ما كان حظّنا من الجهود المبذولة في سبيل نشره، وما كان للاسلام من آثار في تقدمنا المعنوي والمادي بشكل دقيق وكامل، وبالاستناد الىٰ المصادر التاريخية المعتبرة.

القومية اليوم

ان مسألة «القومية» من المسائل التي كثر حولها البحث والجدل في عصرنا الحاضر؛ فقد اهتم اليوم بهذه المسألة كثير من أُمم العالم - ومنهم المسلمون الايرانيون وغير الايرانيين ـ اهتماماً خاصاً، بل حتىٰ غرق بعضهم في هذه المسألة بحيث لايمكن أن نحدّد لتورّطه فيها حدّاً ولا حساباً!

والحقيقة: أن مسألة القومية قد ولّدت اليوم للعالم الاسلامي مشاكل كبرىٰ وعظمىٰ ـ هذا فضلاً عن هذه الفكرة القومية تخالف أُصول التعاليم الاسلامية؛ حيث أنّها تنصّ علىٰ تساوي جميع العناصر فينظر الاسلام ـ فهذه الفكرة تشكل عائقاً كبيراً أمام تحقق الوحدة الاسلامية الكبرىٰ «بتشكيل وحدات قومية صغرىٰ مختلفة، بل متخالفة متخاصمة».

اذن ان المجتمع الاسلامي ـ كما نعلم ـ يتشكل من أُمم مختلفة، وقد كوّن الاسلام ـ سابقاً ـ من هذه الأُمم المختلفة والمتفاوتة وحدة تسمىٰ: المجتمع الاسلامي، ولاتزال هذه الوحدة الاجتماعية باقية موجودة، أعني وجود وحدة كبرىٰ تشكل بمجموعها أكثر من سبعمائة و خمسين مليون مسلم في العالم، يسودها فكر واحد وأمل واحد وشعور واحد وروابط وعلاقات قوية ومتينة جدّاً، ومانرىٰ بينها من الفواصل، فليس من نفسها هي، بل هي من حكومات ودول وسياسات، والذي يشكل الآن العامل الأساس لهذه الفواصل انما هو تلك القوىٰ الاوربية والأمريكية والشيوعيه، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تحطم أساس هذه الوحدة، الذي تحتل الأرواح والقلوب.

وكما يقول إقبال اللاهوري:

ان دعـــوىٰ الحـق دعـوىٰ واحـدة دورنـــا شـــتىٰ، قـــلوب صـــامدة
نـــــــحن قـــــطر النـــــدىٰ فـــــــي صـــــباح واحـــــد [1]

ويشكل أفراد من هذه الوحدة مجتمعاً يقرب من مليون ونصف المليون من النفوس في كل عام في مواسم الحج.

والقومية والعنصرية فكرة تضع الأُمم وجهاً لوجه، وهي فكرة من أفكار اوربـا فـي القرون الأخيرة، ولعلها كانت فكرة طيبة هناك، لعدم وجود مدرسة فكرية تسـتطيع أن تجمع الأمم الاوربية في وحدة انسانية متسامية، وانما تسرّبت هذه الفكرة بين الأمـم الشرقية بواسطة المستعمرين، اذ لم ير المستعمر سبيلاً الىٰ تطبيق سياسته: «فرق تسد» أفضل من أن يوجه الأُمم المسلمة الىٰ قومياتها وعناصرها ويشغل أفكارها بـمفاخرها الوهمية؛ فيقول للهندي: ان لك جذوراً تاريخيه كذا وكذا، ويقول للتركي: أسّس نـهضة الشباب الاتراك والقومية التركية،ويقول للعربي ـ وهـو أسـرع الأقـوام اسـتجابة لهـذه العصبيات: اتّخذ «العروبة» سنداً وعماداً، ويقول للايرانـي: أنك مـن الجـنس «الآري» فيجب عليك أن تستقل وتفصل نفسك عن العرب فهم من العنصر «السامي».

من الممكن أن يكون لتأجيج المشاعر القومية آثار ايجابية مفيدة فيِاستقلال بعض الأُمم وحريتها من قيد الاستعمار، لكنها سببت التفرقة فيِالدول الاسلامية أكثر من ان تنتج آثاراً حسنة، ذلك ان هذه الأُمم المسلمة قد طوت هذه المرحلة باسلامها وبلغت به الىٰ مرحلة أسمىٰ منها، اذ ان الاسلام قد أوجد لها منذ قرون وحدة علىٰ أساس فكـرة عقيدة ايديولوجية واحدة،وقد وفر الاسلام في هذا القرن العشرين دوراً حـاسماً فـي الكفاح ضد المستعمرين.

وقد كان لعامل الدين الاسلامي أثر في الكفاح الذي حـققه المسـلمون فـي القـرن العشرين ضد المستعمرين والذي انتهىٰ بنجاتهم من براثن الاستعمار الكافر،وقد أثر أكثر بكثير من أثر الدافع القومي،كما في كفاح الأُمة الجزائرية، والاندونيسية،

---

١ ـ الأصل: أمر حق راحجت ودعوىٰ يكى است * خيمه هاى ماجدا، دلها يكى است.
از حجاز وچين وايرانيم ما* شبنم يک صبح خندانيم ما ـ والتعريب للمعرّب.

والدول العربية، وحتىٰ الامة الباكستانية

أجل، ان هذه الأُمم قد قدرت في نفسها منذ قرون أنها تستطيع أن تصنع وحدة لها من الدوافع الفكرية العقائدية، وعلىٰ أساس الايديولوجية المشتركة، فتقوم وتحرر نفسها من براثن المستعمرين، ولكن دوافع الشعور القومي لايمكن ان تسمىٰ بأي عنوان سوىٰ النكوص والتراجع.

وعلىٰ أي حال؛ فقد أوجدت الموجة العنصرية والقومية والوطنية، التي أسسها وأثارها الأوربيون المستعمرون، مشكلة كبرىٰ للعالم الاسلامي، وقد قيل: أن المرحوم السيّد جمال الدين الأسد آبادي كان يخفي قوميته عن الناس، لانه لم يكن يرغب في أن يعرّف نفسه الىٰ الناس منتمياً الىٰ أمة معينة من المسلمين، مخافة أن يعطي بذلك حجّة بيد المستعمرين كي يثيروا بذلك شعور سائر القوميات المسلمة ضدّه.

وبما أننا نتبع ديناً ومسلكاً صحيحاً في الحياة، وأيديولوجية باسم الاسلام لامجال للعنصرية و القومية فيها، فلا يمكن السكوت عن الافكار والايديولوجيات الاخرىٰ المتمثلة بالقومية والوطنية.

وكلنا يعلم بأنه قد بدأ بعض الافراد أخيراً حرباً ضد الاسلام باسم الدفاع عن القومية الايرانية[1] وقد أهان هؤلاء المقدسات الاسلامية بعنوان الكفاح ضد العروبة.

---

١ ـ وقد تصاعدت النعرات القومية في الدول العربية يوماً بعد يوم، حتىٰ أن عدداً غير محدود من كتّاب هذه الدول العربية أخذوا يعتمدون علىٰ عروبتهم فحسب مع أنهم مسلمون، وهذا بنفسه ـ كما نعلم ـ نوع من المقاومة أمام المقاييس الاسلامية الشاملة التي لاتعتمد إلّا علىٰ الجوانب المعنوية والانسانية في الانسان، وكما نعلم فقد عاد هذا العمل في الدرجة الأولىٰ بالضرر علىٰ انفسهم، فقد عجزوا بذلك عن مقاومة إسرائيل مع ما هم عليه من كثرة العِدّة والعُدّة، ولا شك أن لو اعتمدوا في حربهم معهم علىٰ القوىٰ الاسلامية لا العربية فحسب لما أُصيبوابهذا الفشل الذريع، وقد كتب أحد الكتّاب الباكستانيين يقول: ان حرب العرب و إسرائيل في «يونيو» غلبت القومية الدينية ـ الصهونية، علىٰ قوىٰ القومية العربية!... وهذه الكلمة وان كان فيها نوع من المبالغة اذ أنها ترىٰ لدافع الدين دخلاً كبيراً عند الصهيونيين، في حين أن للعنصرية والقومية والدم عند اليهود فضلاً أكبر، بكثير من فضل العقيدة اليهودية، لكنها كلمة صحيحة في نقدها وتخطئتها الاعتماد الفارغ و الموهوم عندالعرب علىٰ «العروبة».

وقد خطب احد العلماء العرب في «مؤتمر رابطة العالم الاسلامي في مكة في عام ١٣٨٧ هـ» يقول: «... والله لم يدخل الاسلام المعركة قط... » بل كانت «العروبة» مع «الصهيونية» ـ المؤلف.

وما نراه من آثار هذه الحرب ضد الاسلام في ايران، في الكتب،الجرائد، والمجلات الأُسبوعية،وغيرها من الصحف، لدليل علىٰ ان هذا الأمر لم يحدث صدفة، بل من تخطيط مدروس، له أبعاده وحدوده، وأهدافه، وغاياته، وأغراضه، ومقاصده، ومراميه.

وان الدعايات الزرادشتية المجوسية التي بلغت اليوم أوج كثرتها وانتشارها وأصبحت موضة جديدة من الكلام القومي والوطني المعسول، ليست إلّا نشاطاً سياسياً مدروساً ومخططاً،له حدوده وأبعاده، فالكل يدرك ان الايراني اليوم لايرجع الىٰ الزرادشتية، وأنّه لايمكن للتعاليم الزرادشتية أن تحل محل التعاليم الاسلامية، وان الشخصيات الزرادشتية المزدكية والمانوية، وكل من يقدم نفسه الىٰ الناس تحت عنوان القومية الكاذبة، والذين لايعرفون بشيء، سوىٰ انحرافهم عن التعاليم الاسلامية، سواء من أعلن نشاطه بعنوان الحرب مع الاسلام، ومن جعل عنوان مكافحة القومية العربية حجة كاذبة له ... ان هؤلاء لايستطيعون أن يحلّوا في قلوب الايرانيين اليوم محل الأبطال المسلمين أبداً...

فلا يمكن أن يحتل المقفع و سنباد وبابك خرم ومازيار في قلوب الايرانيين اليوم محل الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحسن بن علي والحسين بن علي، بل وحتىٰ محل سلمان الفارسي، يعلم بهذا الجميع.

ولكن الذي يمكن ان يقع، هو أن ان يثير هؤلاء بدعاياتهم هذا الشعور القومي العنصري والوطني للشباب العاطفي المتحمس غير المتعقل، ضد الاسلام، فيقطعوا بذلك علاقة هؤلاء الشباب بدينهم «الاسلام». أقول: أنّه وان كان لا يمكن أن تحتل عواطف دينية أُخرىٰ محل العواطف الاسلامية،ولكن يتمكن هؤلاء من أن يبدّلوا هذه العواطف الاسلامية بعواطف مضادة للاسلام، وبهذا يمكنهم ان يخدموا أسيادهم المستعمرين. ومن هنا نرىٰ أن الذين يحاربون الله والدين بصورة مطلقة، يدافعون في كتاباتهم الفارغة الجوفاء عن الزرادشتية والأوضاع السائدة في ايران قبل الاسلام، ومن هنا نعرف أهداف هؤلاء.

ونحن نريد ان نرد هذا البحث بهذا المنطق نفسه الذي يستعمله هؤلاء، أي منطق القومية والاحساس القومي، أجل، بهذا المنطق، مع انّا نعلم ان القومية ـ كما قال إقبال

الباكستاني ـ نوع من الوحشية، ونعلم أن الشعور القومي انما يحسن منه ما كان له دور إيجابي لخدمة المواطنين، وأنّه اذا أخذ الجانب السلبي وسبب التمييز في الحكم والقضاء في رؤية المحاسن والعمىٰ عن المساوىء، كان مضاداً للاخلاق والانسانية، ونعلم ان هناك منطقاً أسمىٰ من منطق الأحاسيس القومية، يكون الدين والعلم والفلسفة فوق مرتبة الأحاسيس، و ان الأحاسيس القومية اذا كانت مقبولة في مجال معين فهي غير مقبولة في الدين والعلم والفلسفة، فلا يمكننا أن نقبل مسألة علمية أو فلسفيه أو دينية بحجة أنها مسألة قومية، كما لا يمكن أن نردّها بحجة أنها أجنبية وصادرة من أجنبي عنا، ولقد صدق من قال: «لا وطن للدين والعلم والفلسفة، بل هي لكل أحد وفي كل بلد» كما أنّه لا وطن لرجال العلم والدين والفلسفة، بل هم عالميون، لهم وطن في كل مكان وإخوان في جميع البلدان.. نعم، نعلم ذلك كله...

ولكنا لندع هذا المنطق الانساني المعقول جانباً، ونرد البحث بذلك المنطق العاطفي نفسه الذي لا ينبغي إلّا لغير المتكاملين في الانسانية!

فنبحث في أنّه: أيجب علينا أن نحسب الاسلام ـ حسب المنطق القومي ـ أمراً من قوميتنا أم من الأجنبي الغريب عنا؟ وهل أن الاسلام وفقاً لمقاييس القومية يعدّ جزءاً من هذه القومية الايرانية؟ أم خارجاً عنها؟.

وعلىٰ هذا؛ فيجب أن نقسم البحث الىٰ قسمين:

الأول: في مقياس «القومية» يعني: ما هو ملاك أن نجعل الشيء داخلاً في قومية أُمة أو خارجاً عنها؟.

الثاني: هل ان الاسلام ـ وفقاً لهذه المقاييس وطبقاً للقومية الايرانية ـ شيء منها أم أجنبي عنها؟.

وبعبارة أخرىٰ: ان لبحثنا كبرىٰ وصغرىٰ، فالكبرىٰ هي القسم الأول، والصغرىٰ هي القسم الثاني.

ونقوم بمقارنة ضمنية بين الاسلام والزرادشتية من هذه الناحية نفسها؛ أي كي نعلم ـ وفقاً للمقاييس القومية ـ هل أن الاسلام أكثر انتساباً الىٰ القومية الفارسية الايرانية؟ أم الىٰ

الزرادشتية المجوسية؟!.

لفظة «الملة»

لفظة «الملة» لفظة عربية معناها: الطريقة السلوكية، وقد جاءت هذه الكلمة في القرآن الكريم بهذا المعنىٰ في (١٥) مورداً[١]، ولكن يختلف مفهومها في القرآن عمّا اصطلح عليه في الفارسية البوم:

فان «الملة» في المصطلح القرآني تعني: الطريقه السلوكية التي عرضها زعيم إلهي علىٰ البشر؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾[٢] أي طريقته وسبيله، وقوله تعالىٰ: ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾[٣]، ويقول الراغب الاصفهاني في مفرداته: «الملة: كالدّين، وهي اسم لما شرَّع الله تعالىٰ لعباده علىٰ لسان الأنبياء، ليتوصّلوا به الىٰ جوار الله، والفرق بينها وبين الدّين: أن الملة لاتضاف إلّا الىٰ النبي «عليه الصلاة والسلام» الذي تسند اليه؛ نحو: ﴿فاتبعوا ملة إبراهيم﴾[٤] و ﴿اتبعت ملة آبائي﴾[٥] ولاتكاد توجد مضافة الىٰ الله ولا الىٰ آحاد أُمة النبي صلىٰ الله عليه [وآله] وسلم، ولاتستعمل إلّا في جملة الشرائع دون آحادها؛ لايقال: ملة الله، ولا ملّتي، ولا ملة زيد، كما يقال: دين الله، ودين زيد، ولا يقال: الصلاة ملة الله، وأصل الملة: من أمللت الكتاب، قال تعالىٰ: ﴿وليملل الذي عليه الحق﴾[٦] ﴿فان كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه﴾[٧].

وتقال: «الملة، اعتباراً بالشيء الذي شرعه الله»[٨].

١ـ وهي في البقرة: ١٢٠ و ١٣٥ و ١٣، وآل عمران: ٩٥، والنساء: ١٢٥، والأنعام: ١٦١، والأعراف: ٨٨ و ٨٩، ويوسف: ٣٧، وإبراهيم: ١٣، والنحل: ١٢٣، والكهف: ٢٠، والحج: ٧٨.

٢ـ الحج: ٧٨.

٣ـ آل عمران: ٩٥.

٤ـ آل عمران: ٩٥.

٥ـ يوسف: ٣٨.

٦ـ البقرة: ٢٨٢.

٧ـ البقرة: ٢٨٢.

٨ـ مفردات الراغب: ص ٢ ـ ٤١٩ ط ـ التقدم، وأنا أرجح أن تكون الملة مشتقة من الملأ لا من الإملاء، وقد

اذن: فالملة في القرآن الكريم: هي المجموعة الفكرية والعلمية والطريقة العملية التي يجب علىٰ الناس العمل بها وعلىٰ طبقها، وعلىٰ هذا يكون الدين والملة بمعنىٰ واحد، مع فرق: ان الشيء الواحد يسمىٰ باعتبار: ديناً، وباعتبار آخر: ملة، واعتبار الملة ـ كما قال الراغب ـ هو أن يكون ذلك من أملاء الله علىٰ رسول الله لابلاغ عباد الله وهدايتهم اليه.

وقد سبق من الراغب ـ وهو عالم بفقه اللّغة ـ أن قال: «والفرق بينها وبين الدين: أن الملة لاتضاف إلّا الىٰ النبي الذي تسند اليه.. ولا تكاد توجد مضافة الىٰ الله ولا الىٰ آحاد أُمة النبي، ولا تستعمل إلّا في جملة الشرائع دون آحادها،؛ لايقال: ملة الله، ولا يـقال: ملتي، وملة زيد، كما يقال: دين الله، ودين زيد...» فكأنما قدّر في مفهوم هذه الكلمة معنى القيادة.

ولهذا فبامكاننا أن نقول: أن كلمة «الملة» قريبة من كلمة «المدرسة الفكـرية» فـي المصطلحات الحديثة، فهي أيضاً تضاف الىٰ زعيم المسلك والطريقة الخاصة، واذا أضفنا الىٰ ذلك معنىٰ الاملاء، فسيتضح قرب هاتين الكلمتين أكثر فأكثر.

كلمة «الملة» في المصطلح الفارسي الحديث

وقد اكتسبت هذه الكلمة في المصطلح الفارسي الحديث مفهوماً يختلف عن مفهومها الأصلي، وكلمة «الملة» تطلق اليوم في الفارسية علىٰ وحدة اجتماعية لها جذور تاريخية واحدة وقوانين وحكومة واحدة، وآمالٌ مشتركة، فنحن اليوم نطلق هذه الكلمة بدلاً عن كلمة الأُمة، فبدل أن نقول: الأُمة الألمانية والانجليزية والفرنسية، نقول: الملة الألمانية والملة الانجليزية والملة الفرنسية، وأحياناً لانطلق هذه الكلمة علىٰ جميع تلك الأُمة بل نقسم أفرادها الىٰ طبقتين: حاكمة ومحكومة، فنطلق علىٰ الطبقة الحاكمة كلمة: الدولة، وعلىٰ الطبقة المحكومة: كلمة: الملة.

قال الراغب في الملأ: جماعة يجتمعون علىٰ رأي، وهومن: مالأته، أي عاونته وصرت من جمعه، لا من الملل، كما قال الراغب أيضاً معرفاً الملأ: بأنهم يملأون العيون رِواءً ومنظراً والنفوس بهاءً وجلالاً وعلىٰ ما رجّحنا أيضاً تكون الملة بمعنىٰ الطريقة السلوكية ـ كما يريده الكاتب الموقَّر ـ المعرب.

وهذا المصطلح الفارسي، مصطلح جديد مستحدث،بل هو مصطلح خاطِىء مغلوط، ولم يرد بهذه الصورة حتىٰ في الفارسية من قبل مئة سنة، وأظن أنّه استحدث علىٰ عهد مطالبة الأُمة بالحكم الدستوري في ايران «المشروطة».

والعرب اليوم يستخدمون في الموارد التي نستعمل فيها كلمة «الملة» كلمة «الشعب» أو «القوم» فيقولون مثلاً: «الشعب المصري» و «الشعب الايراني»، ونحن نريد هنا بالبحث هذا المعنىٰ لا المعنىٰ السابق الأصيل لكلمة «الملة».

القومية والمجتمع

لنتجاوز البحث اللّغوي وندخل بحثاً اجتماعياً، فنقول:

ان «الاسرة» أصغر وحدة اجتماعية، وحياة الاسرة هي الحياة المشتركة المحدوده بالزوج والزوجة وأولادهما وأزواجهم وأولادهم.

وحياة الاسرة حياة قديمة جداً، بقدم الانسان، وحتىٰ الذين يعتقدون بأب حيواني للإنسان يعترفون بحياة عائلية له.

و «القبيلة» هي الوحده الاجتماعية الأكبر من وحدة الاسرة، وهي تشمل مجموعة من الأسر والعوائل التي تشترك جميعاً في الجد الأعلىٰ لها، والحياة القبلية هي مرحلة متطورة للحياة العائلية، وزعموا أن الذي ساد الحياة العائلية المنفردة للانسان الأول ـ من حيث النظام المالي والاقتصادي ـ هي الاشتراكية لا الملكية الخاصة والفردية، وقد وجدت هذه الملكية الخاصة فيما بعد.

والوحدة الاجتماعية الأكبر من هذه الوحدة القبلية والأكثر منها تقدماً وتطوراً: هي التي يصطلح عليها في الفارسية اليوم بكلمة «الملة» وهي الوحده الشاملة لمجموعة من الناس تسودهم حكومة واحدة وقانون واحد. وهذه الوحدة: «الملة» أو «الأُمة» أو «الشعب» يمكن أن تكون قد تكوّنت من مجموعة قبائل تشترك جميعها فى العرق والدم والاصل الواحد، ويمكن أن تكون هذه القبائل التي تشكل هذا الشعب لايشترك بعضها مع بعض في شيء من ذلك، ويمكن ان لاتوجد فيهم الحياة القبلية أو أن تكون عند بعضهم

دون البعض الآخر.

وقد جاء في كتاب «أُصول علم السياسة» ج ١ ص ٣٢٧ ماترجمته:

«بالنظر الىٰ الفصل المصطلح عليه في هذا القرن في الفارسية بين «الناس» و «الأُمة» تطلق لفظة «الناس» في الأكثر لغرض تعيين جماعة من المجتمع، بينما تكون كلمة «الملة : الأُمة» عندهم ذات معنىٰ يقصد به وحدة اجتماعية ذات حقوق سياسية حاكمة علىٰ قطعة من أرض دوليّة؛ وتكون هذه الوحدة فرعاً عن الوحدةالتاريخية، واللّغوية، والدينية، أو الاقتصادية، أو فيالآمال المشتركة علىٰ صعيد الوجود والبقاء، وعلىٰ هذا: فكلمة: «الناس» لها معنىٰ ذو صبغة دراسية عن المجتمعات، بينما ينظر الىٰ كلمة «الأُمة: الملة » فيالغالب من النواحي الحقوقية والسياسية الدولية او الداخلية.

أضف الىٰ ذلك: ان هذه الألفاظ تختلف مفاهيمها باختلاف الأعراف السياسية: الماركسية والليبرالية، فعلينا ان نفهم ماذا يتّبع القائل أو الكاتب من هذه الأفكار و الايديولوجيات».

تعيش اليوم في عالمنا هذا أُمم مختلفة، والذي نراه قد جعل من كل أُمة من هذه الأُمم أُمة واحدة، وشعباً واحداً: هو القانون والحكومة والحياة المشتركة، لاشيء آخر، كالعنصر والدم وغيرهما، فالجامع المشترك لهذه الوحدات هي الحكومة الواحدة التي تديرهم سياسياً، وليس لبعض هذه الأُمم والشعوب جذور تاريخية كثيرة، بل هي وليدة حادثة اجتماعية معينة،ككثير من أُمم وشعوب الشرق الأوسط التي هي وليدة الحرب العالمية الأولىٰ و الثانية وهزيمة الامبراطورية العثمانية.

ولانرىٰ اليوم أُمة في العالم يفصلها عن سائر الأُمم والشعوب دمها أو عنصرها، أيفصلنا ـ نحن الايرانيين ـ عن سائر الأُمم والشعوب المجاورة دم أو عنصر مشترك؟ أم جذور تاريخية وأوضاع حكومية وقانونية خاصة! أصحيح مايراه بعضنا: أننا من العنصر الآري والعرب من الدم السامي؟! أم ليس هناك الآن أي أثر لهذه العناصر والدماء، بعد كل هذا الاختلاط والامتزاج العجيب ...؟!

والحقيقة: ان دعوىٰ استقلال الدماء والعناصر بعضها عن بعض، ليست أكثر من خرافة

في القرن العشرين؛ إذ أن العنصر السامي والآري وغيرهما لم تكن منفصلة بعضها عن بعض إلّا فيما غَبِرَ من القرون قديماً؛ وأما الآن فقد حصل من الاختلاط والامتزاج بينها مالم يبق معه أيّ أثر من الكيان العنصري المستقل، فضلاً عن العين.

أن كثيراً من الناس في ايراننا اليوم، من الذين هم بالفعل فارسيون وايرانيون وهم معترفون بذلك، أما هم عرب أو ترك، أو مغول أو تتار أو بربر أو هنود أو زنوج أو... كما أن كثيراً من العرب الذين يتشدّقون اليوم بـ«العروبة» بحماس شديد، هم من عنصر فارسي أو تركي أو مغولي أوغيرهما من العناصر والدماء المختلفة، واذا سافرتم الىٰ المدينة المنورة او مكة المكرمة لأداء فريضة الحج فسترون ان أكثر أهاليها من أُصول هندية أو فارسية أو بلخية أو بخارائية أو من مكان آخر في العالم الاسلامي القديم، ولعل هناك الكثير من الذين هم من سلالة كوروش أو داريوش هم الآن يتعصبون «للعروبة» في بعض الدول العربية،والعكس صحيح أيضاً، فلعل هنا الكثير من الذين يتعصبون لايران من نسل أبي سفيان[1].

وقبل عدة سنين كان هناك أُستاذ في جامعة طهران يحاول أن يثبت بالدليل أن يزيد بن معاوية كان ايرانياً خالصاً! فضلاً عن أولاده وذريّته، ان كانت له ذرية.

فما نجده اليوم مما يُسمىٰ بالأُمة «الملة» هو أنّا نحن اليوم بشر نعيش في اقليم أو قطر واحد تحت لواء واحد بنظام حكومي واحد وقوانين خاصة واحدة، أما هل كان آباؤنا وأجدادنا ايرانيين أيضاً؟ أو يونانيّين أو عرباً أو من المغول أو من عنصر آخر، فهذا مالا نعلمه.

واذا أردنا أن نحكم علىٰ اساس العنصر والدم ونقول إنّ الايراني هو من ينتمي الىٰ العنصر الآري، كان علينا أن نعترف بأن أكثر الأُمه الايرانية غير ايرانيين، ونفقد بذلك كثيراً من مفاخر هذا الأُمة، وهذا يعني أيضاً إننا قد ألحقنا بالأُمة الايرانية من خلال هذه الفكرة أخطر اصابة، اذ تعيش اليوم فيايران شعوب وقبائل لايتكلمون بالفارسية ولايرون أنفسهم من العنصر الآري.

---

١ ـ أي من العرب الأقحاح.

وعلىٰ أي حال؛ فليس التبجح اليوم بالدم والاستقلال العنصري سوىٰ خرافة.

العصبيات القومية

تصحب الوحدات الاجتماعية، سواء العائلة أو القبيلة أو الأُمة أو «الملة حسب المصطلح الفارسي اليوم» أنواع من الأحاسيس والعصبيات، أعني أنّه يوجد في الانسان أنواع من التمجيد العائلي والقومي، ويمكن أن يوجد هذا الاحساس لنفسه مجالاً أوسع بكثير «كالوحدة الاقليمية والقطرية» فتشعرالأُمم في أوروبا ـ مثلاً ـ بنوع من حبّ تأكيد الذات أمام أُمم آسيا، والعكس صحيح.

ويمكن ان يكون لبعض الناس من العنصر الواحد شعور كهذا بالنسبة الىٰ ابناء أمتهم بالذات.

و «القومية» نوع من غريزة «حب الذات» ولكنها تجاوزت حدود الفرد والقبيلة لتشمل أفراد الأُمة، وتصحب هذه الغريزة ـ طبعاً ـ العُجب والعصبية، والفخر والرضا عن النفس، والعمىٰ عن عيوبها (في مقياس الأُمة).

القومية

ان الاتجاه الىٰ الدعوات القومية يسمىٰ في اللّغات اللاتينية: «الناسيوناليسم» وقد ترجمها المترجمون الىٰ ما يعني: القومية.

وهي تعتمد ـ كما سبق ـ علىٰ العاطفة والشعور القومي لا العقل و المنطق. ولانريد أن نحكم علىٰ القومية بالنفي بصورة مطلقة؛ فان اقتصر منها علىٰ الجانب الايجابي فقط، أي كان له أثر في توثيق العلاقات الحسنة وتوطيد العلاقات الأخوية والخدمات بين من نعيش معهم حياة مشتركة،لم تكن مضادة للعقل والمنطق، ولم تكن ذميمة في الاسلام أيضاً؛ بل يعترف الاسلام بحقوق قانونية أكثر لمن لهم مثل هذه الحقوق، كالاقرباء و المواطنين المجاورين.

وتصبح القومية محكومة بالنفي عقلاً اذا اتخذت جانباً سلبياً، أي أخذت تفصل بين

الافراد علىٰ أساس اختلاف قومياتهم ووجود فوارق جنسية تؤدي الىٰ غـمط حـقوق الآخرين.

والفكرة المضادة للقومية (الناسيونالية) هي: الانترناسيونالية (العالمية) فهي تنظر في القضايا بمقاييس عالمية، وتحكم علىٰ الاحاسيس القومية بالنفي المطلق، لكن الاسلام ـ كماقلنا ـ لايحكم علىٰ جميع الأحاسيس القومية بالنفي بصورة عامة، بل يحكم بالنفي علىٰ الأحاسيس القومية السلبية، لا الايجابية.

مقياس القومية

يبدو للفكر أن معنىٰ القومية ـ أومن مستلزماتها ـ هو أن تنظر أُمة تعيش فـي أرض معينة الىٰ ما انتجته تلك الأُمة التي كانت تعيش في هذه الأرض، من الفكر والابداع علىٰ أنه من تراثها القومي، والىٰ كل ما جاء من أرض أُخرىٰ علىٰ أنه أجنبي عنها.

وهذا المقياس غير صحيح؛ اذ أن الامة تتشكل من أفرادها، ومن الممكن أن يبتدع أحدهم شيئاً لايقبله سائر الأفراد ولا يستسيغه الذوق العام لتلك الأُمة، وحينئذٍ لا يمكن أن يحسب شيء كهذا علىٰ حساب تلك الأُمة بصورة عامة.

فمن الممكن ـ مثلاً ـ أن تختار أُمة نظاماً اجتماعياً خاصاً لحياتها، ويقترح لها فرد منها نظاماً مغايراً للنظام العام القائم، فلا تقبله تلك الأُمة، وحينئذٍ فلا يمكن أن نحسب هذا النظام المقترح والمردود علىٰ صاحبه، من ظواهر تلك الأُمة ومميّزاتها، بحجة أنه من مقترحات فرد من تلك الأُمة ويمكن – على عكس هذا – ان يقوم بعرض نظام اجتماعي فرد من أُمة أُخرىٰ في خارج حدود أراضي هذه الأُمة ثم تستقبله هذه الامة، وحينئذ من البديهي عدم امكان وصف هذا النظام المقبول لدىٰ هذه الامة اجنبياً عنها، بحجة أنه جاء من مكان آخر، ولايمكن أن نقول أن اولئك الذين تقبلوا هذا النظام أنهم قاموا بعملهم هذا علىٰ خلاف الاصول القومية، فاذابوا أنفسهم في أمة أخرىٰ، أو أن نقول هؤلاء قد غيّروا قوميتهم.

نعم، هناك صورة واحدة يمكن ويصح، بل يتعين أن يوصف ما جاء من خارج أراضي

أمة ما بأنه أجنبي، وان قبوله كان علىٰ خلاف الاصول القومية، بل يحسب هذا القبول نوعاً من محاولة تغيير القومية؛ وذلك: فيما اذا كان لذلك الشيء صبغة خاصة لامة معينة، بحيث كان شعاراً لها، فمن البديهي اذا قبلت أمة شعار أمة أخرىٰ، واصطبغت بصبغتها تكون قد عملت علىٰ خلاف اصول قوميتها، فمثلاً: للأمة الصهيونية والنازية الالمانية شعارات خاصة بها لها ألوان قومية معينة، فلو ارادت أمة ان تقبل هذه الشعارات والألوان تكون قد عملت علىٰ خلاف قوميتها.

أما لو لم يكن لذلك الشيء لون معين وصبغة خاصة لكانت نسبته الىٰ جميع الأُمم علىٰ السواء، وكان ذلك الشعار انسانياً عاماً؛ فلو قبلته أمة ما، لم يحسب ذلك بالنسبة اليها أجنبياً غريباً، ومضاداً لمقتضىٰ قوميتها، وقديماً قال الاصوليون «أن اللابشرط يتفق ويجتمع مع ألف شرط» أي ان الطبيعة المجردة غير ذات الصبغة الخاصة، ويمكنها أن تجتمع وتتفق مع كل صبغة وأي لون كان، أما الطبيعة المشروطة بشيء ما والتي لها لون وصبغه خاصتان فهي تجتمع مع شيء آخر له لون آخر وصبغة أخرىٰ.

وبهذا الدليل نقول: ان الحقائق العلمية تنتسب الىٰ جميع الامم والشعوب، ولايحق لأية أُمة أن تحتكر اصول الأَعداد والحساب وجدول الضرب لفيثاغورس، ولا أن تحتكر نظرية النسبية لآينشتاين، ولا يتنافىٰ انتساب هذه الامور الىٰ قومية أية أُمة أيضاً؛ ذلك أنها حقائق لا لون لها ولا رائحة ولا طعم قومية أُمة خاصة.

وبهذا الدليل نقول: ان العلماء والفلاسفة والانبياء والرسل ينتسبون الىٰ جميع أمم العالم، ولايجوز أن تُقْصَرَ افكارهم وآراؤهم وعقائدهم وآمالهم علىٰ أمة خاصة او قومية معينة.

والشمس لاتَختصُ بأُمة، ولايشعر أي قوم بانها أجنبية بالنسبة اليهم، ذلك أن الشمس تنتسب الىٰ جميع الامم بنسبة واحدة،ولا تتعلق بقوم أو أرض خاصة، وان كانت هناك أرض لايصل اليها نورها فذلك من طبيعة تلك الأرض لا الشمس، فالشمس لم تحصر نفسها في قطعة من الأرض خاصة.

اذن: فقد تبيّن أن الشيء اذا كان قائماً أو منبعثاً أو صادراً أو ناتجاً من أمة ما، لم يكن

ذلك مقياساً يعدّ ذلك الشيء من المنتجات القومية لها الخاصة بـها والمـحصورة فـيها وعليها، و كذلك اذا كان الشيء قائماً علىٰ تلك الامة من خارج اراضيها، لم يكن ذلك مقياساً لكونه اجنبياً وغريباً عنها.

كما أن الجذور التاريخية أيضاً ليست مقياساً صحيحاً للقومية، فمن الممكن أن تكون أمة ما قد قبلت نظاماً اجتماعياً خاصاً طوال قرون عديدة مديدة بعد ذلك تغيرّ من نظرتها ، فتختار لنفسها نظاماً جديداً عوضاً عن النظام السابق.

فمثلاً: كان لنا – نحن الايرانيين ـ ككثير من الدول والامم الاخرىٰ، طوال خمسة و عشرين قرناً نظام ملكي استبدادي ديكتاتوري غير دستوري، والآن وقد مضىٰ أكثر من نصف قرن منذ أن اختارت امتنا لنفسها النظام الدستوري البرلماني (المشروطة)، و لم نكن نحن قد ابتكرنا هذا النظام، وانما جاءنا من العالم الخارجي،إلّا أن امتنا قد قـبلت بـهذا النظام الخارجي، وضحت في سبيل الحصول عليه الكثير الكثير (٦٠ ألف قتيل!).

وقد قام كثير من أفراد هذه الامة بمقاومة شديدة وعجيبة، وكافحوا كفاحاً مسـلحاً أهدروا فيه دماءهم لحفظ ذلك النظام الاستبدادي السابق، إلّا أنهم حيث كانوا أقلية من الامة، وقد قبل الاكثرية النظام الجديد وضحىٰ في سبيله، فقد فشل القليل و اسـتسلم لارادة الاكثرية من الامة مضطراً الىٰ ذلك كرهاً ورغماً عنه.

والآن أَنعدُّ هذا النظام الجديد نظاماً قومياً وطنياً؟! أم نقول ان هذا النظام الجديد بعيد عنا وأجنبي وغريب، وان نظامنا القومي هو النظام الاستبدادي، حيث كان هـو نـظامنا طوال تاريخ حياتنا الاجتماعية، واننا لم نكن قد ابتدعنا هذا النظام البرلماني الدستوري، وانما اقتبسناه من بلدان أُخرىٰ؟.

وبالنسبة الىٰ لائحة حقوق الانسان، لم نكن نحن قد نظمناها ولا اشتركنا في تنظيمها، ولم يكن الكثير من موادّها مطروحاً لدينا في طول تاريخنا القومي، ولكننا قد قبلناها كما قبلها الكثير من الامم الأُخرىٰ في العالم، فماذا نقول بالنسبة الىٰ هذه اللائحة من نـظرة قومية؟ و ماذا يقول سائر الامم بشأنها وهي مثلنا لم تشترك في تنظيمها، وقد وصلت اليها من خارج أراضيها؟ فهل ان الشعور القومي يلزمها أن تقاومها بحكم أنـها جـاءتها مـن

خارج حدودها ولها جذور تاريخية مغايرة لها؛ وهي غريبة وأجنبية عنها؟ أم يجب عليها ان تحسبها حقوقاً قومية وطنية غير أجنبية، وذلك بحكم أنها لا لون ولا رائحة فيها لأُمة خاصة، ثم بحكم أن الامة قد قبلتها فهي لها ومنها.

والعكس صحيح أيضاً: فمن الممكن ان تسلك فرقة من الامة مسلكاً تتخذه ديناً خاصاً لها ثم لا يعد ذلك ديناً قومياً لتلك الامة، وذلك من حيث ان هذا الدين لم يتخذ صبغة هذه الأمة ان لم يكن ذا صبغة من أمة أخرىٰ، أو من حيث ان هذا الدين لم يقع موقع القبول لدىٰ هذه الامة التي قام هو ونشأ من بعض أفرادها، فالمزدكية والمانوية مثلاً انبثقتا في الامة الايرانية، إلّا أنهما لم تستطيعا أن تجتذب اليهما جميع الامة ولا أكثرها، ولا أن تحظىٰ بتأييدهما، وعلىٰ هذا فلا يمكننا أن نحسب هذين المسلكين من الظواهر الفكرية القومية لهذه الأمة، بل لو أردنا أن نعدّ مثل هذه الأمور من الظواهر القومية باعتبار مبتدعيها واتباعها المعدودين، نكون قد أهنّا عواطف الاكثرية من هذه الامة وأحاسيسها، إهانة كبرىٰ.

ومن مجموع ما قلنا يمكننا القول: بالنظر الىٰ العواطف والأحاسيس القومية، لا يمكننا أن نعدّ كل ما كان نابعاً من أوساط الوطن قومياً، ولا أن نحسب كل ما جاءنا من حدود أراض أخرىٰ، أجنبياً غريباً عنا، بل الاساس في المقام: أن نرىٰ ألهذا الشيء صبغة أمة خاصة، أم هو عالمي عام لا لون له؟ ثم هل ان هذه الامة المعنية قد قبلته طوعاً ورغبة، أم قبلته كُرهاً واضطراراً؟ فان حصل الشرطان في الشيء، كان ذلك قومياً وطنياً، وإلّا كان أجنبياً، سواء حصل أحد الشرطين أم لم يحصل.

وعلىٰ كل حل؛ فان «قيام الشيء من بين أمة ما» ليس سبباً صحيحاً لان نحسبه قومياً وطنياً، ولا ان نعدّه غريباً وأجنبياً.

والآن علينا أن نبحث عمّا اذا كان الاسلام بالنسبة الىٰ هذه الامة الايرانية حاصلاً علىٰ هذين الشرطين أم لا؟ فهل للاسلام لون أمة خاصة كالعرب مثلاً؟ أم أنه دين عالمي عام، لا لون له ولا صبغة، سوىٰ صبغة الخالق المطلق؟ ثم: هل ان الفرس قبلوا هذا الدين عن طوع ورغبة أم لا؟ فالذي بحثناه الىٰ هنا كان في مصطلح المنطقيين بحثاً «كبروياً» والآن يرد البحث حول «الصغرىٰ» لهذه الكبرىٰ العامة.

الاسلام والقومية

من المسلّم به أن لا إعتبار في دين الاسلام للقومية بهذا المعنىٰ المصطلح اليوم بين الناس، بل ان هذا الدين ينظر الىٰ جميع الامم والشعوب نظرةً واحدة، وان الدعوة الاسلامية لم تختص بأمة خاصة، بل لازال هذا الدين يسعىٰ ويحاول قلع جذور التفاخر القومي من أساسه بمختلف السبل والوسائل.

وعلينا هنا أن نبحث نقطتين:

الاولىٰ : في أن الدعوة الاسلامية كانت منذ ظهورها دعوة عالمية عامة.

الثانية: في ان المقاييس الاسلامية مقاييس عالمية لا قومية ولاعنصرية.

النقطة الأولىٰ: الدعوة الاسلامية دعوة عالمية

يدعي بعض المستشرقين: أن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم كان منذ صدع بدعوته يريد هداية قريش خاصة! لكنه حينما أحسّ بتقدم في دعوته صمّم علىٰ تعميم الدعوة لجميع العرب بل وغير العرب.

وليست هذه الدعوىٰ سوىٰ تهمة دنيئة، فهي ـ بالاضافة الىٰ انها لاتمتلك دليلاً من التاريخ ـ تباين ما يستفاد من الآيات الأولىٰ النازلة علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم من الاصول العامة، وغير الآيات من القرائن الاخرىٰ المرافقة لمسيرة الدعوة منذ البداية.

ففي القرآن آيات كانت من مستهلات دعوته صلىٰ الله عليه وآله في مكة منذ أوائل الزمن بعد البعثة، ولها مع ذلك صور عامة وعالمية.

فمن هذه الآيات ماجاء في «سورة التكوير» وهي من السور المكية القصار النازلة في أوائل بعثة النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم، تقول هذه الآية: ﴿**ان هو إلا ذكر للعاملمين**﴾[1].

---

١ ـ التكوير: ٢٧.

وهناك آية أخرىٰ في «سورة سبأ»: ﴿وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيراً ونذيراً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[1].

وفي «سورة الانبياء»: ﴿ولقد كتبنا في الزبور بعد الذكر: ان الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾[2].

وفي «سورة الأعراف»: ﴿يا أيّها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً﴾[3] ولا يوجد في أي مورد من القرآن الكريم حتىٰ خطاب واحد بكلمة: (يا أيّها العرب) أو (يا أيّها القرشيون) نعم قد يأتي خطاب: يا أيّها الذين آمنوا وذلك يخصّ المؤمنين الذين آمنوا برسول الله صلىٰ الله عليه وآله،ويدخل في هذا الخطاب المؤمن من أي قوم كان وأية أُمة، وقد جاء في سائر الموارد خطاب: يا أيّها الناس، وهو خطاب عام جاء فيما يعم جميع الناس.

وهنا موضوع آخر يؤكد عالمية التعاليم الاسلاميه وشمول النظر في هذا الدين؛ وهو ما جاء في آيات أُخرىٰ من القرآن الكريم تفيد نوعاً من «التعزّز» وعدم الاعتناء باسلام العرب، وان لاحاجة للاسلام بهم، وافتراض إيمان غيرهم به بملء قلوبهم وأرواحهم في صورة عدم ايمانهم به، بل تفيد هذه الآيات أنها ترىٰ روحية أولئك «القوم» غير العرب أنسب وأقرب الىٰ قبول الاسلام والايمان به بقلوبهم، وهذه الآيات تبيّن عالمية الاسلام بصورة واضحة: كما جاء في «سورة الأنعام»: ﴿فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾[4].

ويقول في «سورة النساء»: ﴿ان يشأ يذهبكم ـ أيها الناس ـ ويأت بآخرين، وكان الله علىٰ ذلك قديراً﴾[5].

---

١ ـ سبأ: ٢٨.

٢ ـ الانبياء: ١٠٥.

٣ ـ الأعراف: ١٥٧.

٤ ـ الأنعام: ٨٩.

٥ ـ النساء: ١٣٢، وقد روىٰ البيضاوي في تفسيره قال: «لما نزلت هذه الآيه ضرب رسول الله (ص) يده علىٰ ظهر سلمان، وقال: أنهم قوم هذا» ج ١ ص ٢٤٩ ط الحلبي ٢.

ويقول في «سورة محمّد»: ﴿وان تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لايكونوا أمثالكم﴾[1].

وقد روىٰ الشيخ الطبرسي في «مجمع البيان» في تفسير هذه الآية عن الامام الباقر عليه السّلام أنه قال: «ان تتولّوا ـ يا معشر العرب ـ يستبدل قوماً غيركم ـ يعني الموالي» وروىٰ عن الامام الصادق عليه السلام أنه قال: «قد والله أبدل بهم خيراًمنهم الموالي» وعن أبي هريرة: أن ناساً من أصحاب رسول الله قالوا: يارسول الله من هؤلاء الذين ذكر الله في كتابه؟ وكان سلمان الىٰ جنب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم فضرب يده علىٰ فخد سلمان، فقال: هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الايمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس»[2].

ولسنا هنا الآن في صدد أن نثبت ان هؤلاء القوم هم الفرس، أوغيرهم، بل انما نريد ان نقول: ان الاسلام كان ينظر الىٰ اسلام العرب وغيرهم نظرة واحدة، بل قد وقع العرب موقع اللوم من قبل القرآن الكريم لعدم اعتدادهم بالاسلام، واراد الاسلام بهذا ان يفهمهم بانه سيتقدم سواء آمنوا به ام لم يؤمنوا، اذ ليس الاسلام دين لفئة خاصة، أو قوم بعينهم.

والموضوع الآخر الذي يحسن هنا التنبيه اليه هو أن تجاوز فكر مسلك أو دين أو عقيدة عن حدودها المحدودة ونفوذها الىٰ شعوب وراء الحدود البعيدة عنها ليس أمراً يختص بدين الاسلام، بل ان كثيراً من الأديان الكبرىٰ في العالم تُستقبل في مواطنها الاصلية، كما استقبلت في الأراضي الاخرىٰ، فمثلاً: ولد السيّد المسيح عليه السلام في فلسطين ـ وهي منطقة في الشرق ـ وله اليوم اتباع في الغرب أكثر من الشرق، فالاكثرية العظمىٰ من الاوربيين والامريكيين مسيحيون، بينما هم أجنبيون عن السيّد المسيح من حيث المناطق و حتىٰ القارات،وعلىٰ العكس نجد ان الناس في فلسطين إما يهود أو مسلمون، ولا يوجد فيها مسيحي إلّا نادراً، فهل يشعر الاوربيون والامريكيون بالنسبة الىٰ المسيحي بالاجنبية؟!.

---

١ ـ سورة محمّد (ص) الآية الأخيرة.

٢ ـ مجمع البيان: ج ٩ ص ١٠٨ ط صيدا.

ولا أدري لماذا لايفكر الاوربيون - الذين هم يلقون هذه الافكار المفرّقة - بها في شأن أنفسهم هكذا، وانما يلقّنونها عملاءهم في أغراضهم الاستعمارية؟! فلو كان الاسلام أجنبياً بالنسبة الىٰ الايراني، فالمسيحية أيضاً أجنبية بالنسبة الىٰ الاوربيين والامريكيين.

إن السبب بيّن: فهم قد أحسوا بان الاسلام هو الوحيد الذي يهب الناس في الشرق روح الاستقلال والمقاومة كفلسفة مستقلة للحياة، ولولا الاسلام فليس هناك شيء آخر يمكنه الكفاح ومقاومة الافكار الاستعمارية السوداء والحمراء.

وقد ولد «بوذا» في «الهند» أيضاً، وقد آمن به ملايين في الصين، والاقاليم الاخرىٰ، بينما لم يبق الشعب الهندي مقتصراً علىٰ البوذية، بل اسلم الكثير منهم.

و «زرادشت» وان لم تتسع أفكارة الدينية ولم تخرج من حدود ايران، إلّا أنها شاعت في اراضي بلخ وبخارىٰ أكثر منها في آذربايجان وهي مسقط رأسه كما يقولون.

ولم يقبل أهل مكة الاسلام في بدئه ـ وهي مولد الاسلام ـ بينما استقبله أهل المدينة، وهي تبعد عن مكة مئات الكيلومترات (٥٠٠ كليومتر تقريباً).

ونترك الكلام حول الأديان والمذاهب، لننظر الىٰ مثل هذه الحالة في المسالك و المبادىء غير الدينية، وأقواها وأشهرها الشيوعية، فمن أين ظهرت الشيوعية من أي فكر وأية أُمة؟!.

ونجد الاجابة: ان «كارل ماركس» و «فردريك أنجلس» هما شخصان ألمانيّان بنيا أساس الشيوعية، وقد أمضىٰ ماركس أواخر حياته في بريطانيا، وهو يرىٰ أن الامة البريطانية الانجليزية هي أسرع الأُمم ايماناً بالشيوعية وانتماءً اليها، بينما لم تقبل أية أُمة من هاتين الأمتين الانجليزية والالمانية هذا المبدأ الجديد، بل قبلتها الامة الروسية (أو بعضها) في حين لم يكن ماركس يفكر في ان تنتشر فكرته الشيوعية في الصين أو الاتحاد السوفياتي، بدلاً من الانجليز أو الألمان.

وينبغي لنا أن نسأل هؤلاء القوميين المتطرفين: ياترىٰ لماذا لا تعتز الأمتان الروسية والصينية بقومياتها فتطرد الشيوعية الوافدة اليها من خارج أراضيها، و المضادة لقومياتها ؟! واذا قلنا لهم ذلك، فسوف يضحكون علىٰ عقولنا ويقولون: نحن بشر نقلد الآخرين

ونقتبس من أفكارهم.

وليس هذا بدعاً ان يخرج دين او نظام من محله الأول فيحل في محل آخر بأهمية أكثر و أكبر، وقد ارتأىٰ الاسلام لنفسه ذلك منذ بدئه، وبشّر الناس منذ أن ظهر بمستقبله الظافر العظيم بين سائر أُمم العالم رغم طعن الاعراب الكافرين به وبقرآنه الكريم[1].

النقطة الثانية: المقاييس الاسلامية

حينما ظهر الاسلام كان التفاخر بالعنصرية والعشيرة متفشياً بين العرب بشدة غير متناهية، ولم يكن العرب يومذاك يفخرون بعروبتهم، اذ لم تكن القومية العربية يومذاك وحدة تقابل سائر الأقوام والامم،بل كانت الوحدة التي يتعصب لها العربي هي وحدة القبيلة فقط، فكان يفخر بعشيرته وقومه فقط.

أما الاسلام فلم يترك هذه الأحاسيس المتعصبة، بل كافحها بشدة.

فقد قال القرآن الكريم بصراحة تامة: ﴿**يا أيّها الناس! إنا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[2]. فهذه الآية الكريمة و مارافقها من بيان تأكيد من رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وما عامل به القبائل المختلفة من العرب وغيرهم، قد بيّن طريق الاسلام في هذا الأمر بشكل واضح.

وحينما طرح بعض العرب مسألة العروبة علىٰ أثر سلطة الأمويين وسياستهم اللااسلامية، والتي آثارت العصبيات العنصرية والقومية، قام سائر المسلمين ومنهم الفرس الايرانيون بمقاومتها، وكان شعارهم في ذلك الآية السابقة، ولذلك كانوا يسمون أنفسهم بـ«الشعوبية» بمناسبة كلمة «شعوباً» التي جاءت في هذه الآية الكريمة، وكانوا يسمون أنفسهم أيضاً «أهل التسوية» أي أصحاب المطالبة بالمساواة بين الناس المؤمنين.

والمقصود من كلمة «قبائل» بناء علىٰ حديث الامام الصادق عليه السلام وبعض

---

١ ـ كما تقرأون بعد هذا: ان الحجاز لم يكن ـ فيما عدا القرنين الأولين من الهجرة ـ أكبر الحواضر الاسلامية،بل اخذت تتجلىٰ هذه السمة علىٰ جبين مدن كمصر وبغداد ونيشابور وما وراءالنهر وبلدان اخرىٰ، وحمل لواء الاسلام فيها امم غير العرب.

٢ ـ الحجرات: ١٣.

المفسّرين: هي الوحدات التي تشبه وحدة القبيلة العربية، والمقصود - علىٰ هذا - من كلمة «شعوباً» هي الوحدات القومية التي تجاوزت الوحدة القبلية الىٰ وحدة أكبر واكثر.

وعلىٰ هذا يكون واضحاً وجه تسميتهم أنفسهم بهذا الاسم، وهذا بنفسه يفهمنا ان النهضة الشعوبية كانت نهضة مضادة للعصبية العربية، وانها كانت نهضة للدفاع عن الاصول الاسلامية، أو كان أساسها علىٰ ما قلناه، وان كان هناك من جرّ أمره الىٰ التضاد مع الاسلام نفسه، فلايكون هذا دليلاً علىٰ أن الشعوبيين كانوا أعداء الدين[1]

وقد اعترف جميع المؤرخين بأن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، كان يكرر هذه الجمله، يقول:

«أيّها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي علىٰ عجمي إلّا بالتقوىٰ»[2].

ويشبّه رسول الله صلىٰ الله عليه وآله الفخر بالأسلاف بأكل الجيف، ومن يشتغل بذلك بالجُعل فيقول: «... ليدعن رجال فخرهم بأقوام انما هم فحم من فحم جهنّم، أو ليكوننّ أهون علىٰ الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»[3].

وقد كان صلىٰ الله عليه وآله يرحب بسلمان الفارسي أو بلال الحبشي كما يرحّب بأبي ذرّ الغفاري أو مقداد بن أسود الكندي أو عمّار بن ياسر حليف بني مخزوم، بل استطاع سلمان أن يتقدم علىٰ أولئك بمقياس الكرامة علىٰ الله: (التقوىٰ) فنال شرف الوسام النبوي الشريف: «سلمان منا أهل البيت»[4].

وكان صلىٰ الله عليه وآله يحذر كثيراً من أن تسري العصبية الىٰ قلوب المسلمين وهي تحمل لا محالة ردود فعل سيئة.

وقد روىٰ أبو داود في سننه عن أبي عقبة قال: «كان مولىٰ من أهل فارس قال: شهدت مع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم (أُحداً) فضربت رجلاً من المشركين، فقلت:

---

١ ـ وسنوضح بعد هذا شأن الشعوبيين وبعض ردود فعلهم المتطرفة ضد العنصرية العربية.

٢ ـ تحف العقول: ص ٣٤،وسيرة ابن هشام: ج ٢ ص ٤١٢.

٣ ـ سنن أبي داود: ج ٢ ص ٣٢١ ط محي‌الدين، والجعلان: جمع جُعل علىٰ وزن صُرَد، وهو دويبة تعيش في القاذورات.

٤ ـ سفينة البحار، مادة: سلم.

خذها مني وأنا الغلام الفارسي، فالتفت اليّ النبي صلىٰ الله عليه وآله فقال: «فهلا قلت: خذها مني وأنا الغلام الأنصاري»[1] ؟!.

وقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «ألا ان العربية ليست بأب والد، ولكنها لسان ناطق، فمن قصّر به عمله لم يبلغ به حسبه»[2].

وروىٰ الشيخ الكليني (رحمه الله) في «روضة الكافي» عن أبي جعفر عليه السّلام أنه قال: «كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد فاقبلوا ينسبون ويرفعون في انسابهم حتىٰ بلغوا سلمان، فقال له عمر بن الخطاب: أخبرني من أنت ومن أبوك وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبدالله كنت ضالاً، فهداني الله عزوجل بمحمّد صلىٰ الله عليه وآله، وكنت عائلاً فاغناني الله بمحمّد صلىٰ الله عليه وآله، وكنت مملوكاً فاعتقني الله بمحمّد صلىٰ الله عليه وآله.

هذا نسبي وهذا حسبي، قال: فخرج رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلمان (رضي الله عنه) يكلمهم، فقال له سلمان: يارسول الله ما لقيت من هؤلاء جلست معهم فاخذوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتىٰ اذا بلغوا اليّ، قال عمر بن الخطاب، من أنت وما أصلك وما حسبك؟ فقال: النبي صلىٰ الله عليه وآله: فما قلت له ياسلمان؟ قال:قلت له: أنا سلمان بن عبدالله كنت ضالاً فهداني الله (عز ذكره) بمحمّد صلىٰ الله عليه وآله، وكنت عائلاً فأغناني الله (عز ذكره) بمحمّد صلىٰ الله عليه وآله، وكنت مملوكاً فأعتقني الله (عز ذكره) بمحمّد صلىٰ الله عليه وآله، هذا نسبي وهذا حسبي، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله: يامعشر قريش! انّ حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله؛ وقال الله عزوجل: «انا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا؛ ان أكرمكم عند اللّه اتقاكم» ثم قال النبي صلىٰ الله عليه وآله لسلمان: ليس لاحد من هؤلاء عليك فضل إلّا بتقوىٰ الله عزوجل، وان كان التقوىٰ لك عليهم فانت أفضل.

وقد أثر هذا التأكيد من رسول الله صلىٰ الله عليه وآله علىٰ خواء العصبيات القومية

---

١ ـ سنن أبي داود: ج ٢ ص ٣٣٢.

٢ ـ لم أجده في المعجم المفهرس للحديث. / ط محي الدين.

والعنصرية آثاراً عميقة في قلوب المسلمين، وعلىٰ الأخص غير العرب منهم؛ ولهذا فقد كان المسلمون ـ العرب وغير العرب ـ يحسبون الاسلام دينهم، منهم ولهم؛ دون أن يشعروا بأنه أجنبي وغريب عنهم؛ ولهذا ايضاً لم تولّد المظالم الكثيرة الناتجة عن العصبيات العنصرية الأموية والعربية سوء نظرة عند المسلمين غير العرب الىٰ الاسلام، بل كانوا يعلمون ان لاعلاقة لاعمال هؤلاء الخلفاء الامويين بالاسلام، ولهذا فهم كانوا ينتقدون أعمال الخلفاء هذه، لخروجها علىٰ المقررات والقواعد الاسلامية.

اسلام الفرس

تبيّن مما قدمناه في المباحث السابقة، ما هو مقياس أن يكون الشيء أجنبياً أو وطنياً قومياً بالنسبة الىٰ أمة ما، وتبيّن ان الاسلام يتصف بالشرط الأول في عدّ الشيء، غير أجنبي و هو أن يكون انسانياً عاماً غير مصطبغ بلون أمة خاصة.

وعلم ان المقاييس الاسلامية مقاييس انسانية عامة لاقومية ولا عنصرية، وان الاسلام لم يحصر نفسه في حدود العصبيات القومية والعنصرية، بل كافحها.

والآن نريد ان نرىٰ هل ان الاسلام يحمل الشرط الثاني أيضاً أم لا؟ أي هل حظي الاسلام من قبل الفرس بقبولٍ وترحيب أم لم يحظَ؟ وبعبارة أخرىٰ: هل تقدم الاسلام في ايران بمحتواه الانساني العالمي العظيم، وان الايرانيين هم الذين اختاروه لذلك؟ أم ـ كما يزعم بعضهم ـ كان قد فُرض عليهم كرهاً واجباراً ؟!

ولانقصد القول ان عالمية وأُممية التعاليم الاسلامية ـ وبعبارة اخرىٰ: ان اصول المساواة والمواساة الاسلامية ـ كانت هي الدافع الوحيد لانضمام الايرانيين الىٰ هذا الدين،اذ ان الذي دفع بالامم الىٰ الانضمام الىٰ الاسلام هو سلسلة من المزايا الفكرية والعقائدية والاخلاقية والاجتماعية والسياسية، وان التعاليم الاسلامية فطرية ومعقولة مفهومة، وان للتعاليم الاسلامية جاذبية خاصة جذبت بها مختلف الامم الىٰ ظلاله، بل نقول: ان المقاييس الاسلامية العامة العالمية هي إحدىٰ تلك المزايا التي تشكل جانباً من جاذبية الاسلام للامم، ونحن لا نبحث هنا في سائر مزايا الاسلام، وانما ننظر هنا الىٰ هذا

الدافع (الجاذب) بمناسبة البحث حول القومية:

يمر اليوم زهاء أربعة عشر قرناً منذ ان ترك الايرانيون عقائدهم السالفة وقبلوا الاسلام ديناً، وفي خلال هذه القرون ولدت مئات الملايين من الايرانيين علىٰ الاسلام والفطرة، ثم قضوا حياتهم في ظل الاسلام، حتىٰ اسلموا أنفسم الىٰ بارئهم وهم مسلمون.

ولعلنا لانجد بين الدول الاسلامية اليوم ـ سوىٰ السعودية ـ دولة تصل أكثريتها المسلمة الىٰ عدد المسلمين في ايران، وحتىٰ الدولة المصرية التي تزعم أنها عاصمة الدول الاسلامية ليس فيها ما في ايران من المسلمين (نسبياً)، ولهذا يجدرأن يتضح لنا هل كان اسلام الفرس هذا طوال هذه القرون الأربعة عشر قسراً واضطراراً؟ أم هو من أعماق القلوب والأفئدة؟

ومن حسن الحظ أن تاريخ الاسلام في ايران ـ مع كل ما يحاوله المستعمرون من الدسائس ـ واضح بيّن تماماً، ولابد لنا هنا ـ كي نعرّف القراء الكرام بالحقيقة الموضوعية ـ من أن نتصفح تاريخ ايران فنلاحظ منه كيف كان دخول الاسلام الىٰ هذا الاقليم.

بدء اسلام الفرس

يشهد التاريخ: بأن رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، كتب عدّة كتب الىٰ ملوك دول العالم آنذاك يعلن لهم نبوته ويدعوهم الىٰ الاسلام، وذلك بعد سبع سنين من هجرته صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وكان أحد هذه الكتب كتاباً كتبه الىٰ ملك ايران: «خسرو پرويز» دعاه فيه الىٰ الاسلام، وكان هوالوحيد الذي كتبوا في شأنه، أنه أهان كتابه (صلىٰ الله عليه وآله) ومزّقه[1] ويمثل التمزيق هذا بدوره مدىٰ تفشي الفساد الاخلاقي في جهاز الحكومة الايرانية آنذاك،اذ لم يفعله أي رجل آخر من سائر الملوك والحكام، بل قد أجاب بعضهم كتابه (ص) بهدايا واجابة محترمة.

ثم كتب «خسرو پرويز بن هُرمز بن أنوشيروان»[2] الىٰ بادام واليه علىٰ اليمن: أن: «...

---

١ ـ الطبري: ج ٢ ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

٢ ـ الطبري: ج ٢ ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

أبعث الىٰ هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلْدين؛ فليأتياني به... ».

وحيث «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره المشركون»[1] لم يخرج رُسل بادام من المدينة حتىٰ سقط خسرو پرويز وشقّ بطنه علىٰ يد ابنه وأطّلع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله رسل بادام علىٰ ذلك فخرجوا مذهولين بالخبر الىٰ بادام، وتبيّن صدق النبأ بعد حين. فأسلم بادام ومعه كثيرون من أهل اليمن فيهم كثير من أبناء الفرس في اليمن، الذين كانوا آنذاك يعيشون هناك علىٰ أثر واقعة تاريخية تذكر. في ذلك الوقت، كان من الطبيعي أيضاً أن يسأل الناس: ما هوهذا الدين الجديد؟ وما هي أصوله وفروعه وماذا يقول؟

حتىٰ جاء دور خلافة أبي بكر وعمر، وفي أواخر عهد خلافة أبي بكر وفي طول عهد عمر تمّ فتح ايران بأيدي المسلمين، فتعرف الملايين من الفرس علىٰ المسلمين من قريب وأخذوا يدخلون في دين الله أفواجاً أفواجاً.

وهنا ندرج في كتابنا هذا مقالاً للفاضل القدير والمحقق الخبير الشيخ عزيز عطاردي[2] بعنوان: «متىٰ بدأت خدمات الفرس للاسلام»؟ وقد قسّمنا المقال الىٰ قسمين نقدم هنا القسم الأول الذي ـ يبحث حول خدمة الفرس للاسلام قبل الفتح العسكري العربي، ثم نوافيكم بالقسم الثاني منه في الجزء الثاني من الكتاب ان شاء الله تعالىٰ.

متىٰ بدأت خدمات الفرس للاسلام؟

بدأت العلاقة بين الايرانيين والدين الاسلامي من حين ظهوره، وقبل أن يأتي الىٰ ايران ـ علىٰ يد المجاهدين المسلمين ـ أسلم أبناء الفرس المقيمون في اليمن، واستسلموا لاحكام القرآن طوعاً ورغبة[3]، وسعوا في سبيل نشر الشريعة الاسلامية بملء قلوبهم

---

١ ـ الصف: ٨.

٢ ـ العطاردي؛ هو من الفضلاء القديرين والمحققين الخبراء، وقد توصل الىٰ تصوير كثير من نسخ الكتب الاسلامية الفريدة من المكتبات الهامة الهندية وغيرها، وهو الآن بصدد تحضير كتاب كبير في تراجم أعيان خراسان قد يبلغ الىٰ أربعين مجلّداً، نسأل الله له التوفيق المطّرد.

٣ ـ الطبري: ج ٢ ص ٦٥٤ ـ ٦٥٦.

وأفئدتهم، حتىٰ ضحّىٰ الكثير منهم بروحه في قتال المرتدين والمعاندين لهذاالدين.

ان موضوع خدمات الفرس في سبيل نشر الاسلام بحاجة الىٰ دراسة طويلة،وعلىٰ كل باحث وخبير في المعارف الاسلامية أن يبحث في ما يتخصص هو فيه من هذا الموضوع.

ان تاريخ الفتوحات الاسلامية في شرق العالم وغربه يحكي لنا عن جهاد جماعات من الايرانيين ضحّوا بأنفسهم في سبيل الاسلام، اخلاصاً للعقيدة ودفاعاً عنها ضد الاعداء الداخليّين والاجانب.

وان انتشار الاسلام فيالدول الشرقية والجنوبية الشرقية، كشبه القارة الهندية و باكستان وكشمير، وبنگلادش والبنگال، وتركية والبلغار والقفقاز وطاكستان و طاشقند ،والافغان والصين والتبّت وماليزيا واندونيسيا وجزر المحيط الهندي، كل ذلك من آثار النشاط الاسلامي للايرانيين الذين حملوا الاسلام معهم عن طريق التجارة والابحار الىٰ أقصىٰ نقاط آسيا، وعرّفوا الامم بالاسلام ارشاداً وتبليغاً.

وانّ لمسلمي ايران حظاً كبيراً في نشر الاسلام في الدول الافريقية الغربية و الشمالية، وفي القارة الاوربية وآسيا الصغرىٰ.

بعد ان ثار الخراسانيون وأهالي النواحي الشرقية من ايران ضد الخلافة الاموية وأسقطوا حكومتهم التي كانت تحكم المسلمين باسم الاسلام فحسب، وجلس العباسيون علىٰ كرسي الخلافة الاسلامية،تقلد الفرس وعلىٰ الأخص الخراسانيون منهم أكثر المناصب السياسية والعسكرية في الدولة الاسلامية في الشرق والغرب.

والمأمون حين رجع الىٰ العراق من مرو خراسان استصحب معه جماعات من أعيان خراسان، فأسكنهم معه في بغداد، وحيث كان متألماً مما عاملته به عائلته العباسية فقد عزم علىٰ نصب هؤلاء في المناصب الحكومية،ولهذا بعث من أعيان خراسان وسائر نواحي ايران الىٰ نواحي مصر وافريقيا الشماليّة، ليستقروا هناك ويسدّوا منافذ الطرق علىٰ المخالفين،ولاسيّما كانت الدولة الاموية الثانية قائمة في الاندلس، و كان العباسيون قلقين من وجود هؤلاء، فحاولوا أن يوصدوا عليهم كل منفذ.

وان البحث في هذه الأُسر المهاجرة التي كان أكثرها من أهالي مرو ونيشابور وهراة

وبلخ وبخارىٰ، وفرغانة، يستغرق عدّة مجلّدات، وقد ذكر بعض كتب التاريخ و التراجم شرحاً مفصّلاً عن خدمات الفرس في أفريقيا الشمالية.

ونحن نثبت هنا فهرساً موجزاً عن نشاط مسلمي الفرس في نقطتين:

الأولىٰ: في نشاطهم الاسلامي قبل دخول الاسلام الىٰ ايران.

والثانية: في نشاطهم بعددخول الاسلام الىٰ ايران، ودخول الفرس في الاسلام، واليكم الآن:

أولاً ـ في النشاط الاسلامي للفرس في اليمن[1]

حين ولد الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وآله وسلم كانت تعيش فياليمن وعدن وحضرموت وساحل البحرالأحمر جماعات من الفرس الايرانيين، وكان الحكم في هذه البقاع بأيديهم من قبل أكاسرة ايران.

ولابد لنا ـ قبل الخوض فيالموضوع ـ أن نبحث في سبب هجرة هؤلاء الفرس من ايران، واقامتهم في اليمن وما والاها، كي ندرك الموضوع بصورة أوضح:

ظهرت الحبشة علىٰ بلاد اليمن في ملك قباد أبي أنو شيروان[2] وكان سبب ظهورهم: ان ملك اليمن في ذلك الزمان: ذانواس ـ وهو الملك السابع والثلاثين من ملوك اليمن بعد الطوفان ـ كان يهودياً[3] وقد تنصّر بعض أهالي نجران، فقدم عليه يهودي من نجران وشكا

---

١ ـ رأيت التحقيق في مقال الشيخ العطاردي قليلاً، فحققت الموضوع بنفسي ـ المعرب.

٢ ـ مروج الذهب: ج ٢ ص ٧٨ وفي الطبري: ج ٢ ص ١٢٣: أن ذلك كان في زمن أنوشيروان وهذا الأصح، اذ ملك الحبشة اليمن أكثر من ثمانين عاماً، وزالوا علىٰ عهد انوشيروان لخمس وأربعين من ملكه، (المسعودي: ج ٢ ص ٨٢) فلا يصح ان يكون ظهورهم في اليمن أيضاً علىٰ عهده.

٣ ـ وقد نقل المؤرخون العرب في سبب تهود اليمنيين بعد عبادة الأصنام: ان تبّع بن حسّان الملك الحادي و العشرين من ملوكهم بعد الطوفان خرج من اليمن الىٰ الحجاز فمر بالمدينة وأراد حربها، فخرج اليه حبران من يهود بني قريظة بالتوراة وحذّراه ـ ان هو حارب المدينة ـ من عاجل العقوبة وآجلها، فوقع في قلبه كلامهما فآمن باليهودية، ثم نقلها معه الىٰ اليمن، وتحاكم مع أهل اليمن الىٰ ان يدخل الحبران النار فان لم تحرقهما آمنوا باليهودية، فدخلا النار فلم تحرقهما، فآمنوا باليهودية انتهىٰ، بينما يحكي القرآن عن بلقيس علىٰ لسان الهدهد: «اني وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله» (النمل: ٢٤) ثم يصرح القرآن الكريم بايمانها بسليمان وحكم سليمان علىٰ اليمن، وسليمان من أنبياء بني اسرائيل اليهود، ويعد

اليه أن نصارى نجران قتلوا ابنين له ظلماً، وأستنصره عليهم، فحمىٰ ذونواس لليهودية، فسار اليهم بجنوده من حمير وقبائل اليمن، فجمعهم، ثم دعاهم الىٰ دين اليهودية فخيرهم بين القتل و الدخول فيها، فاختاروا القتل، فجعل يطلب من قال بهذا الدين ويحفر لهم في الأرض حفرة الاخدود، فحرّق بالنار وقتل بالسيف ومثّل بهم كل مثلة حتىٰ قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً حتىٰ أتىٰ عليهم،وفيه قال الله تعالىٰ: ﴿**قُتل أصحاب الاخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم علىٰ ما يفعلون بالمؤمنين شهود...**﴾ (البروج: ٣ ـ ٧).

فخرج رجل من أهل نجران حتىٰ قدم علىٰ ملك الحبشة، فأعلمه ما ركبوا منهم، فكتب ملك الحبشة بذلك الىٰ قيصر، فبعث قيصر اليه بسفن كثيرة يحمل فيها رجاله الىٰ اليمن، فلما قدمت السفن علىٰ النجاشي حمل جيشه فيها من بلاد ناصع والزيلع وهو ساحل الحبشة[١] عن طريق باب المندب[٢] الىٰ بلاد غلافقة من ساحل زبيد من أرض اليمن[٣].

فتظاهر ذونواس بالاستسلام فقبلوا منه وابقوا عليه وتفرقوا في اليمن.

فكتب ذونواس الىٰ كل ناحية بقتل الاحباش فقتلوهم إلّا الشريد.

فلما بلغ النجاشي ذلك جهّز اليه أربعة آلاف[٤] عليهم قائدان أرياط وابرهة فملك أرياط عدّة سنين ثم قتله أبرهة فتملك الحكم ثم تملك بعده ابنه يكسوم، ولما هلك يكسوم ملك اليمن أخوه مسروق بن أبرهة.

فلما طال البلاء علىٰ أهل اليمن، خرج سيف بن ذي يزن واسمه: معدي كرب بن الفيّاض أبي مرة ـ من اليمن يستنجد الملوك، وكان أبوه أبو مرة من أشراف اليمن، وكانت

المؤرخون بلقيس الملكة بعد عشرة ملوك من بعد الطوفان أي قبل تبع بعشرة ملوك آخرين، اذن فاليهودية سبقت تبع بعشرة ملوك، وكانوا قبل اليهودية يسجدون للشمس لا الاصنام، وحتىٰ لو كانت لهم أصنام فهي كانت تماثيل للشمس وقوىٰ الطبيعة، والغريب ان لم يتنبّه لهذا ابن هشام ج ١ ص ٢٧ علىٰ هامش الروض الآنف للسهيلي، ولا اليعقوبي: ج ١ ص ١٧١ ولا الطبري: ج ٤ ص ١٠٧ ولا أحد المعلقين علىٰ طبعات هذه الكتب، مع وضوح الموضوع وقطعيته.

١ ـ المسعودي: ج ٢ ص ٧٧.

٢ ـ الطبري: ج ٢ ص ١٢٧.

٣ ـ المسعودي: ج ٢ ص ٧٨.

٤ ـ الطبري: ج ٢ ص ١٣٧.

أمه ريحانة ذات جمال، فانتزعها من أبيه الملك ابرهة الاشرم واستنكحها، فولدت له مسروقاً ابنه، ونشأ معدي كرب بن ذي يزن مع امه ريحانه في حجر ابرهة، وأعلمته أُمه: ان أباه أبو مرة الفيّاض، وأنه خرج من اليمن فلحق ببعض ملوك بني المنذر يستشفع به الىٰ الاكاسرة يستنصرهم، فمات علىٰ باب كسرىٰ.

فخرج ابن ذي يزن قاصداً ملك الروم وتجنب الاكاسرة لابطائهم عن نصرة أبيه، ولكنه لم يجد عند ملك الروم مايجب ووجده يحامي عن الحبشة لموافقتهم إياه علىٰ الدين. فانكفأ راجعاً[1] بعد أن أقام قبل قيصر سبع سنين[2] فخرج حتىٰ قدم الحيرة علىٰ النعمان بن المنذر فتشفع به الىٰ خسرو أنوشيروان[3] وذلك لخمس وأربعين سنة من ملكة[4] فوجه معه بأهل السجون ووجّه معهم رئيساً يقال له «وهروز»[5] فركبوا دجلة الىٰ أبّلة البصرة ومنها الىٰ اليمن في البحر[6] وكان عددهم ستمئه رجل،ولحق بابن ذي يزن بشر كثير من العرب من حمير والاعراب.

فلما قدم وهروز الىٰ البلد حارب الحبشة فقتل مسروقاً وهزم الاحباش، وأقبل حتىٰ دخل صنعاء وغلب علىٰ بلاد اليمن وفرق عماله فيها وأخرج منها الحبشة.

وكتب الىٰ انو شيروان: «... اني قد ضبطت لك اليمن وأخرجت من كان بها من الحبشة» وبعث اليه بالاموال.

فكتب اليه أنوشيروان يأمره ان يُملك سيف بن ذي يزن علىٰ اليمن[7].

فتوج وهروز معدي كرب بتاج كان معه وقفازات من الفضة ألبسه إياها ورتبه علىٰ ملك اليمن وخلّف هناك جماعة من أصحابه وخليفة له[8] وكتب انوشيروان اليه ان

١ـ الطبري: ج ٢ ص ١٤٢ ـ ١٤٤.

٢ـ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧٣ والمسعودي: ج ٢ ص ٨٠.

٣ـ الطبري: ج ٢ ص ١٣٩.

٤ ـ جاء اسمه في التواريخ العربية: وَهْرِز، وأظنه وهروز أو بهروز.

٥ ـ المسعودي: ج ٢ ص ٨٢.

٦ـ المسعودي: ج ٢ ص ٨١.

٧ـ الطبري: ج ٢ ص ١٤١ ـ ١٤٢.

٨ـ المسعودي: ج ٢ ص ٨٢.

ينصرف اليه فانصرف اليه.

وعدا سيف علىٰ الحبشة حتىٰ افناها إلّا قليلاً اتخذهم خولاً وجمّازين يسعون بين يديه بالحراب، فخرج يوماً حتىٰ اذا كان في وسطهم وجاؤوه بالحراب حتىٰ قتلوه.

فلما بلغ ذلك أنوشيروان بعث اليهم وهروز في أربعة آلاف من الفرس، فأمّره علىٰ اليمن، فكان عليها من قبله يجبيها اليه حتىٰ هلك، وأمّر خسرو بعده ابنه المرزبان بن وهْروز ـ كما في الطبري عن ابن اسحاق ـ فكان عليها حتىٰ هلك، فأمّر خسرو بعده ابنه الپنج جان بن المرزبان حتىٰ هلك، ثم أمّر خسرو بعده ابنه خور خسرو بن الپنج جان فكان عليها حتىٰ غضب عليه خسرو، فنزعه وبعث بادام[1] الىٰ اليمن، فلم يزل عليها حتىٰ بعث الله رسوله صلىٰ الله عليه وآله وسلم[2].

وعن الكلبي: أنّه لما بلغ أنو شيروان موت وهروز بعث الى اليمن أسواراً يقال له «وين» وذلك في آخر ملكه[3] وكان وين جبّاراً مسرفاً، فلما مات أنوشيروان وخلفه ابنه هرمز عزله، واستعمل مكانه المهروزان[4] فما ملك ابنه خسرو پرويز بن هرمز، كتب اليه: أن استخلف من شئت وأقبل اليّ، فاستخلف المهروزان ابنه خورخسرو علىٰ اليمن وسار فمات فيالطريق وحُمل اليه، ثم بلغه تعرّب خور خسرو وروايته للشعر وتأدبه بآداب العرب، فعزله وولي بادام، وهو آخر من قدم من ولاة الفرس[5].

اسلام أبناء الفرس في اليمن

كانت حكومة اليمن عند ظهور الاسلام بيد بادام بن ساسان الفارسي، وقد بدأت بعض حروب الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وآله وسلم مع بعض القبائل العربية علىٰ عهد هذا

---

١ ـ جاء اسمه في الطبري: باذان، وباذام ج ٣ ص ٨ ـ ٢٢٧ ورجحنا الثاني لوجوده في الفارسية دون الأول.

٢ ـ الطبري: ج ٢ ص ١٤٨.

٣ ـ وقد سبق أن دخول الفرس الىٰ اليمن كان لخمس وأربعين من ملكه، وقد ملك ثمانية واربعين عاماً كما في المسعودي ج ١ ص ٢٦٣ فيعلم أن وهروز لم يتملك أكثر من ثلاث سنين.

٤ ـ الطبري: ج ٢ ص ١٧١ جاء اسمه فيه المروزان، وأظنه: المهروزان.

٥ ـ الطبري: ج ٢ ص ٢١٥.

الرجل، وكان بادام يحكم اليمن من قبل خسروبرويز ـ كما سبق ـ فكان حاكماً على اليمن وحضرموت ومراقباً على تهامة والحجاز، ومن الطبيعي أن يكون قد أخبر برويز بما كان يقوم به النبي صلى الله عليه وآله وسلم وان كنا لا نجد فيما بأيدينا من المصادر التاريخية الاسلامية «دليلاً على ذلك».

وبعد ان توجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة الى مكة لاداء الحج وصدّه المشركون و صالحهم «صلح الحديبية» في السنة السادسة للهجرة، بدأ بارسال الرسل والكتب الى ملوك و رؤساء العالم آنذاك[1].

فبعث بكتاب الى خسرو پرويز مع عبدالله بن حذافة السهمي، يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمّد رسول الله الى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلّا الله وأني رسول الله الى الناس كافة، لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فان أبيت فعليك اثم المجوس».

أو كما عن محمّد بن اسحاق:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمّد رسول الله الى كسرى عظيم فارس؛ سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا إله إلّا الله وحده لاشريك له، وأن محمّداً عبده و رسوله، وأدعوك بدعاء الله، فاني أنا رسول الله الى الناس كافة، لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم؛ فان أبيت فان اثم المجوس عليك».

فما قرأه مزّقه، وقال: يكتب اليّ هذا وهو عبدي![2] وكان الكتاب [قدرَ] ذراع أُدُم قدّه شتوراً[3].

ثم كتب پرويز الى بادام:

«.... ابعث الى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلْدين؛ فليأتياني به... ».

فبعث بادام قهرمانه: بابويه؛ وكان كاتباً حاسباً بكتاب الفرس،وبعث معه رجلاً من

---

١ ـ الطبري: ج ٢ ص ٦٤٤.

٢ ـ اليعقوبي: ج ٢ ص ٦٧ ط نجف.

٣ ـ الطبري: ج ٢ ص ٦٥٥، وشتوراً يعني: قِطَعاً.

الفرس يقال له: خور خسرو[1]، وكتب معهما الىٰ رسول الله يأمره أن ينصرف معهما الىٰ پرويز، وقال لبابويه: أئت بلد هذا الرجل وكلّمه وآتني بخبره.

فخرجا حتىٰ قدما الطائف، فوجدا رجالاً من قريش فسألاهم عنه فقالوا: هو بالمدينة، واستبشروا بهما وفرحوا، وقال بعضهم لبعض، ابشروا فقد نَصِب له كسرىٰ ملك الملوك! كُفيتهم الرجل!.

فخرجا حتىٰ قدما علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

فكلّمه پاپويه فقال: ان شاهنشاه ملك الملوك خسرو قد كتب الىٰ الىٰ الملك بادام يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك، وقد بعثني اليك لتنطلق معي، فان فعلت كتب فيك الىٰ ملك الملوك ما ينفعك ويكفه عنك، وان أبيت فهو من قد علمت! فهو مهلكك و مهلك قومك ومخرب بلادك!.

وكاناقد حلقا لحيتيهما واعفيا شاربيهما علىٰ زي جنود الساسانيين؛ فاقبل عليهما رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وقال: ويلكما! من أمركما بهذا؟! قالا: أمرنا بهذا ربّنا (يعنيان خسرو) فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «لكن ربّي قد امرني باعفاء لحيتي و قصّ شاربي» ثم قال لهما: ارجعا حتىٰ تأتياني غداً.

وأتىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله الخبر من السماء: أن الله قد سلّط علىٰ خسروابنه شيرويه (قباد)[2] فقتله.

فدعاهما فأخبرهما: أن الله سلّط عليه ابنه شيرويه فقتله ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جُمادى الأولىٰ من سنة سبع لست ساعات مضت منها ـ كما في كتاب الطبقات الكبرىٰ لابن سعد كاتب الواقدي[3]، وفي الطبري عن الواقدي أيضاً[4].

---

١ ـ جاء اسمه في الطبري: ج ٢ ص ٦٥٥ خرخسرة، وفي المسعودي: ج ٢ ص ٨٧: خر خسرو وورد ضبط حركة:خر بضم الأول، فهو كما ذكرنا: خورخسرو،ويعني شمس الملك.

٢ ـ الطبري: ج ٢ ص ٢١٨.

٣ ـ الطبري: ج ٢ ص ٦٥٦ وهذا يعني أنه كانت المدة بين بعث كتاب الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم الىٰ كسرىٰ الىٰ حين وصول هؤلاء الرسل اليه: أربعة أشهر وبضعة أيام، من ذي الحجة بعد رجوعه من صلح الحديبية سنة ٦ الىٰ عاشر جمادى الاولىٰ سنة: ٧.

فقالا: هل تدري ما تقول؟! إنا نقمنا عليك ماهو أيسر من هذا؛ أفنكتب هذا عنك ونخبر الملك؟ قال: نعم، إخبراه ذلك عني وقولا له: ان ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرىٰ، وينتهي الىٰ منتهىٰ الخف والحافر، وقولا له: انك ان أسلمت اعطيتك ما تحت يديك وملكتك علىٰ قومك من الابناء (أبناء الفرس).

ثم أعطىٰ خور خسرو منطقة فيها ذهب وفضة كان قد اهداها له بعض الملوك فخرجا من عنده حتىٰ قدما علىٰ بادام فأخبراه الخبر، فقال: والله ماهذا بكلام ملك،واني لأرىٰ الرجل نبيّاً كما يقول: ولننظرنّ ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً ليس فيه كلام، انه لنبّي مرسل، وان لم يكن فسنرىٰ فيه رأينا.

فلم يلبث بادام أن قدم عليه كتاب شيرويه (قباد):

«... أمّا بعد؛ فاني قد قتلت خسرو، ولم اقتله إلّا غضباً لفارس لما كان استحلّ من قتل أشرافهم وتجميرهم (اي حبسهم) في ثغورهم. فاذا جاءك كتابي هذا فخذ لي بالطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذي كان خسرو كتب فيه اليك فلا تُهِجْه حتىٰ يأتيك أمري فيه».

فلما انتهىٰ كتاب شيرويه الىٰ بادام قال:«ان هذا الرجل لرسول» فأسلم واسلمت الابناء من فارس من كان منهم باليمن[1] وبعث الىٰ النّبي باسلامه واسلامهم[2].

فجمع له الرسول صلىٰ الله عليه وآله عمل اليمن كلها وأمره علىٰ جميع مخاليفها (بلدانها) فلم يزل عامل رسول الله صلىٰ الله عليه وآله أيام حياته، فلم يعزله عنها ولا عن شيء منها ولا أشرك معه فيها شريكاً حتىٰ مات بادام (رضي الله عنه) علىٰ عهده صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

فلما مات تفرّق عملها بين جماعة من أصحابه وكان ذلك في سنة عشر بعد ما حج حجة التمام (الوداع) ففرق عمله بين ابنه «شهرام بن بادام» علىٰ صنعاء، وغيره من

٤ـ الطبقات: ج ١ ص ٢٦٠.

١ـ الطبري: ج ٢ ص ٦٥٤ـ ٦٥٦ واليعقوبي: ج ٢ ص ٦١ والاصابة: ج ١ في ترجمة بابويه وباذان، والكامل: ج ٢ ص ٨١، وسيرة دحلان: ج ٣ ص ٦٥ والحلبية: ج ٢ ص ٢٨٧، والبحار: ج ٢ ص ٥٠٧ ط قديم، وراجع كتاب مكاتيب الرسول: ج ١ ص ٩٠ـ ٩٧ للعلّامة الشيخ علي الأحمدي دام ظله.

٢ـ الطبري: ج ٣ ص ١٥٨ إلّا انه ذكر ذلك في أحداث السنة العاشرة من الهجرة، وهو خطأ.

أصحابه علىٰ غيرها من بلاد اليمن وحضرموت، وهم ثمانية ما عدا شهرام[1] وستة آخرين علىٰ الصدقات[2].

ردّة العنسيّ وجهاد الأبناء ضدّه

ولما رجع رسول الله صلىٰ الله عليه وآله الىٰ المدينة بعدما قضىٰ حجة التمام (الوداع) كان قد تحلل به السير واشتكىٰ في المحرم من سنة احدىٰ عشرة،ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذبّ عن دينه، فضرب علىٰ الناس بعثاً امّر عليهم فيها أُسامة بن زيد الىٰ الشام، ولكن طارت الاخبار بتحلل السير بالنبي: أن النبي قد اشتكىٰ، فتخلف الناس عن جيش أُسامة، وأظهر مسيلمة الكذّاب أمره باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وطليحة الأسدي ببلاد أسد، وسجاح[3] في قومها من بني تميم.

وكان الأسود العنسي في مذحج، فواعدته نجران فوثبوا عليها وأخرجوا منها عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص ـ اللذين كانا عليها من قبل النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم بعد بادام ـ وأنزلوا الأسود بها[4] ورجع عمرو وخالد الىٰ المدينة[5] ووثب قيس بن عبد يغوث المرادي علىٰ فروة بن مسيك المرادي،وهو علىٰ المراد من قبل النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم فأجلاه ونزل منزله، فكتب بذلك فروة الىٰ النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ولحق به من بقي علىٰ الاسلام من مذحج فنزلوا الأحسيّة، ولم يطاردهم الأسود[6].

فبينا يعلى بن أُمية بالجَنَد من أعمال اليمن من قبل النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم ومعه عبيد بن صخر، قد أقامهم علىٰ ما ينبغي وكتب بينه وبينهم الكتب اذ جاءه كتاب من الأسود يقول فيه: «ايّها المتورّدون علينا! أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفّروا ما

١ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٢٨.
٢ـ الطبري: ج ٣ ص ١٤٧ و ٢٦٧ ـ ٢٦٨.
٣ـ الطبري: ج ٣ ص ١٨٥.
٤ـ الطبري: ج ٣ ص ١٤٧ و ص ١٨٥.
٥ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٠.
٦ـ الطبري: ج ٣ ص ١٨٥.

جمعتم، فنحن أولىٰ به، و أنتم علىٰ ما أنتم عليه.. ».

ثم خرج الأسود من نجران متوجهاً الىٰ صنعاء حتىٰ بلغ الىٰ بساتين شعوب بـظاهر صنعاء، ومعه سبعمئه فارس سوىٰ الركبان، وطابقه عوام مذحج، وقائده: قيس بن عبد يغوث المرادي.

فخرج لحربه شهرام بن بادام، فقتل شهرام (رضي الله عنه) وهزم الابناء وغلب علىٰ صنعاء، وارتد كثير من الناس، وعامل المسلمون منهم الأسود بالتقية، فأسند أمر الابناء الىٰ بيروز[١] الديلمي ودادويه الاصطخري وتزوج أرملة شهرام: آزاد[٢] وهي ابـنة عـمّ بيروز[٣] وجشيش[٤] وخرج معاذبن جبل ـ الذي كان قدأرسله رسول الله صلىٰ الله عليه وآله ذلك العام الىٰ اليمن ليكون معلماً للدين يطوف في بلدان اليمن ـ هارباً حتىٰ مرّ بأبي موسىٰ الاشعري ـ الذي كان قد أرسله رسول الله صلىٰ الله عليه وآله تلك السنة عاملاً ومعلماً علىٰ مأرب ـ فنزلا علىٰ عكاشة بن ثور الذي كان قد ارسله رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بعد حجة الوداع عاملاً علىٰ السّكاسك و السّكون مما يلي المفازة، وصاهرهم أبو موسىٰ فحدبوا له لمصاهرته لهم، وانحاز سائر أمراء اليمن الىٰ الطاهر بن أبي هالة الذي كان قد ارسله رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم عامه ذلك بعد موت بادام (رضي الله عنه) عاملاً علىٰ بلادك بحيال صنعاء والاسود غالب عليهم وهم يعاملونه بالتقية.

فبينما هم كذلك اذ جاءتهم كتب النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم يأمرهم فيها أن يبعثوا الرجال لمجاولة الأسود أو لمصاولته، ويبلّغوا ذلك عنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم الىٰ كل من يرجىٰ عنده شيء من ذلك فقام معاذ بن جبل بذلك[٥] وأرسل صلىٰ الله عـليه وآله وسلم رسلاً تسعة من أصحابه الىٰ قبائل العرب بهذا الأمر[٦].

---

١ ـ معرّبة: فيروز.

٢ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٢.

٣ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٠.

٤ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٢ وص ٢٣٤.

٥ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

٦ ـ الطبري: ج ٣ ص ١٨٧.

وكتب صلىٰ الله عليه وآله وسلم الىٰ أهل نجران الىٰ عربهم وساكنيها من غير العرب فتنحّوا عن المرتدين وانضمّوا الىٰ مكان واحد[1].

كتاب النبي الىٰ الأبناء

وبعث صلىٰ الله عليه وآله وسلم وَبَر بن يُحَنِّس الأزدي بكتاب الى بيروز وگشايش[2] الديلميين وداوديه الاصطخري ـ وهم ولاة الابناء من قبل الأسود، تقية ـ يأمرهم فيه بالقيام بدينهم و النهوض في الحرب والعمل في الأسود أن يحاولوه اما غيلة واما مصادمة، وأن يبلّغوا عنه من يرون عنده ديناً ونجدةً[3] وان يستنجدوا رجلاً قد سماهم من بني تميم وقيس. وأرسل الىٰ أولئك النفر أن ينجدوهم[4].

فنزل الرسول بالكتاب علىٰ بنات النعمان بن بزرك[5] اوادويه الفارسي الاصطخري[6] وبعث الى پيروز الديلمي، فاستسلم والي مركبود وعطاء ابنه ووهب بن منبّه فاستسملوا له[7] وفيهم الضحاك بن پيروز وگشايش الديلمي[8] وعبدالله ابنه أيضاً وقيس بن عبد يغوث المكشوح المرادي[9].

وكان الأسود قد تغير علىٰ قيس بن عبد يغوث المرادي ـ وهو قائد جنده ـ فكان فيس خائفاً منه علىٰ دمه، فدعاه الابناء وأخبروه بالشأن وابلغوه عن النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم فأجابهم.

وكاتب الابناء الناس ودعوهم، فجاءهم كتاب عامر بن شهر وذي زود وذي مرّان و

---

١ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٢.

٢ ـ ذكر اسمه بالتعريب : جشيش.

٣ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

٤ ـ الطبري: ج ٣ ص ١٨٧.

٥ ـ الطبري: ج ٣ ص ١٥٨ واللفظ: اسلموا، وقد علم ان اسلامهم كان في السنة السابعة.

٦ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٦.

٧ ـ الطبري: ج ٣ ص ١٥٨.

٨ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣١.

٩ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٦.

ذي الكلاع وذي ظليم ببذل النصر لهم في ذلك، وهؤلاء هم الذين أرسل اليهم النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم رسلاً يأمرهم بنصر الأبناء في قتال الأسود والمرتدين[١].

مؤامرة الأبناء لقتل العنسي

ودخل گشايش علىٰ ابنة عمّه آزاد فأخبرها فوافقتهم ودلتهم علىٰ أن ينقبوا بيته فيقتلوه غيلة، فتوافقوا علىٰ ذلك.

فجعلوا بينهم وبين أشياعهم شعاراً ثم أذن الفجر ثم نقبوا عليه فقتله پيروز، فلما طلع الفجر نادىٰ دادويه[٢] أو وبر بن يحنّس الازدي بالشعار ثم الاذان، ثم قالوا: ألا ان الله عزوجل قد قتل الأسود الكذّاب[٣] ـ ففزع المسلمون والكفار ـ ثم نادوا: يا أهل صنعاء! من دخل عليه داخل فتعلقوا به، ومن كان عنده منهم أحد فتعلقوا به[٤] فلما رأي القوم الذين كانوا مع الأسود ذلك اسرجوا خيولهم، ثم جعل كل واحد منهم ياخذ غلاماً من أبناء فارس معه من أهل البيت الذي كان نازلاً فيهم فيردفه خلفه رهينة لنفسه فتعلق الناس بهم فحبسوا منهم سبعين رجلا،وذهبوا هم بثلاثين غلاماً، ثم تبادلوا الرهائن ثلاثين من الأبناء بسبعين من المرتدّين[٥].

وتراجع أصحاب النّبي صلىٰ الله عليه وآله الىٰ أعمالهم، واصطلح أهل صنعاء علىٰ معاذ بن جبل فكان يصلي بهم.

وكتبوا الىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بالخبر، فأتاه الخبر بالوحي قبل وفاته .فبشر النبيّ بذلك امته وقال «قُتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين» قيل: ومن هو؟ قال «فيروز فاز فيروز»[٦] أوقال: «ان الله قد قتل الأسود الكذّاب

---

١ ـ الطبري: ج ٣ ص ١٨٧.
٢ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٥.
٣ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٩.
٤ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٥.
٥ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٩.
٦ ـ الطبري: ج ٣ ص ٥ ـ ٢٣٦.

العنسي، قتله رجل من أخوانكم وقوم أسلموا وصدّقوا»[1].

وقدمت رسل الأبناء بالبشرىٰ، وقد توفى رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم[2].

ردّة أهل اليمن ثانية وجهاد الأبناء

وكان قيس بن عبد يغوث المرادي ممن ارتد في ردة أهل اليمن الأولىٰ مع الأسود العنسي، ولكنه حينما تغيّر عليه الأسود ودعاه الابناء اليهم بدعوة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم أجاب دعوتهم وساندهم في قتل الأسود، ثم تراضوا علىٰ استعادة معاذ بن جبل ليصلي بهم، وبعثوا برسلهم الىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم بالبشرىٰ، وكان قيس بن عبد يغوث مسانداً لپيروز ودادويه وگشايش في ولاية الأمور، حتىٰ ولي أبو بكر فأمّر پيروز علىٰ اليمن وكتب بذلك الىٰ وجوه اهل اليمن.

فلما سمع بذلك قيس حسد پيروز و رجع الىٰ الردّة ودعا الناس الىٰ حرب الأبناء واخراجهم من اليمن، وأجابه الىٰ ذلك جماعة، فكانت هذه هي ردّة أهل اليمن الثانية.

وبدأ قيس بدعوة ذي الكلاع وأصحابه الىٰ ذلك بكتاب أرسله اليه قال فيه:

«ان الأبناء نزّاع في بلادكم ونقلاء فيكم وان تتركوهم لن يزالوا عليكم، وقد أرىٰ من الرأي أن أقتل رؤوسهم أخرجهم من بلادنا».

فتبرأ ذو الكلاع واصحابه واعتزلوا وقالوا: لسنا مما هنا في شيء. أنت صاحبهم وهم أصحابك.

وكان بنو لحج الذين كانوا مع الأسود، ففروا حين قتل الىٰ الصحراء بين صنعاء ونجران، يصعدون في البلاد ويصوبون محاربين لجميع من خالفهم، فكاتبهم قيس في السرّ وأمرهم أن يتعجلوا اليه ليكون معهم كي يجتمعوا علىٰ نفي الأبناء من بلاد اليمن، فكتبوا اليه بالاستجابة له، وأخبروه انهم سِراع اليه.

فاستعد قيس وتربص لقتل رؤسائهم غيلة، فلما دنا هؤلاء الىٰ صنعاء أتىٰ قيس الىٰ

---

١ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٩.

٢ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٣٦.

پيروز ودادويه وگشايش متظاهراً بالخوف منهم، يستشيرهم ليلبس عليهم فلا يتهمونه، فاطمانّوا اليه، فدعاهم الىٰ طعام من الغد.

فدخل اليه دادويه فقتله (رضي الله عنه) فلما دنا پيروز ليدخل اليه سمع أمرأتين علىٰ سطحين تتحدثان قالت أحدهما: قتل دادويه وهذا مقتول كما قتل ذاك، فرجع پيروز وكان قيس اشرف علىٰ مرتفع حتىٰ يرىٰ دنّوا للحجية الىٰ البلد فاطلع علىٰ رجوع پيروز فأمر جماعته أن يركضوا خلفه ليدركوه فيقتلوه قبل أن يلحق بگشايش فيخبره وينجوان ، فخرج جماعته يركضون خلف پيروز، وركض بيروز وتلقاه گشايش فاخبره، وكان أخوال پيروز من خولان في جبل يدعىٰ باسمهم: جبل خولان، وكان گشايش ابن عمّ پيروز[1] فتوجها الىٰ جبل خولان فانتهيا اليهم وامتنعا به، وهرب كثير من الابناء فلحقوا ببيروز وگشايش،واجتمع اليهماناس كثير، فامتنعا بهم وصاروا عزيزين.

وأتت خيول الأسود، حتىٰ دخلت صنعاء، وطابق قيساً عوام قبائل العرب، فثار بهم علىٰ صنعاء، فأخذها وجباها وجبىٰ ما حولها.

وعمد الىٰ الابناء ففرقهم ثلاث فرق: أقرّ من أقام وعياله، وفرق عيال الذين هربوا الىٰ بيروز فرقتين: فوجّه احداهما الىٰ عدن ليحملوا في البحر، وحمل الاخرىٰ في البر، وبعث معهم من يسيّرهم، فكان عيال بيروز وگشايش في البرّ وعيال دادويه المقتول في البحر.

وكتب بيروز الىٰ أبي بكر بالخبر.

فكتب أبو بكر الىٰ: عمير ذي مُرّان والي سعيد ذي زود والىٰ سَمَيفع ذي الكلاع والىٰ حوشب ذي ظليم والىٰ شهر ذي يناف[2] والىٰ طاهر بن أبي هالة ومسروق[3] كتاباً قال فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم؛ من أبي بكر خليفة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم الىٰ عمير بن افلح ذي مُرّان وسعيد بن العاقب ذي زوُد وَسَميفع ناكور ذي الكلاع وحوشب

---

١ ـ اذ ذكرنا قبل انهما كنا ابني عم آزاد أرملة شهرام بن بادام.

٢ ـ الطبري: ج ٣ ص ٣٢٣.

٣ ـ الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨.

ذي ظليم وشهر ذي يناف. أما بعد: فاعينوا الأبناء علىٰ من ناوأهم وحوطوهم، واسمعوا من فيروز وجدّوا معه، فاني قد وليته».

فأما ذو الكلاع،فقد اعتزل فلم ينصر الأبناء علىٰ قيس ولا قيساً عليهم.

وأما سائر الرؤساء فقد بقوا معتزلين أيضاً، اذ طابق عوامهم قيساً.

وقام بيروز الىٰ حربه، فأرسل الىٰ بني عُقيل وبني عكّ رسولاً يستمدهم ويستنصرهم.

فركبت بنو عُقيل وعليهم معاوية العُقيلي، وعكّ وعليهم مسروق فاعترضوا خيل قيس فقاتلوهم فقتلوهم وأنقذوا العيال من أيديهم، ثم ساروا بهم الىٰ بيروز.

فلما أتته امداداتهم، خرج بهم ومن كان اجتمع اليه قبلهم من العرب والأبناء الىٰ صنعاء، فالتقىٰ بخيل قيس خارج صنعاء، فاقتتلوا فهزم الله قيساً، فخرج هارباً في جنده، ودخل بيروز الىٰ صنعاء بمن كان معه من الأبناء وعكّ وعُقيل وغيرهم من العرب المسلمين.

وقال شعراً يذم فيه قيساً ويفخر بالاسلام يقول فيه:

فما عزّنا في الجهل من ذي عداوة ... أبىٰ الله الا أن يُعزَّ علىٰ الجهل

ولا عافنا في السِّلْم عن آل أحمد ... ولا خسَّ في الاسلام اذ أسلموا قبلي [1]

وبعث أبو بكر المهاجر بن أبي أُمية ـ الذي كان النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم عينه علىٰ بني معاوية وكندة فمرض وتخلف [2] ـ مدداً لبيروز، وأمره بمعونة الأبناء علىٰ من عاداهم من أهل اليمن [3] فكان آخر من فَضل من المدينة الىٰ اليمن لقتال أهل الردتين الأولىٰ والثانية، فأخذ علىٰ طريق مكة فمر بها فاتبعه خالد بن أسيد، ومرّ بالطائف فاتبعه عبد الرحمن بن أبي العاص، ثم مضىٰ حتىٰ لاقىٰ جرير بن عبدالله البجلي ـ وكان قد بعثه النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم الىٰ ذي الكلاع وذي ظليم في نصرة الأبناء [4] فضمه اليه.

وكان أبو بكر قد كتب الىٰ عبدالله بن ثور أصغر: أن يجمع اليه العرب ومن استجاب له

---

١ ـ الطبري: ج ٣ ص ٣٢٢ ـ ٣٢٦.

٢ ـ الطبري: ج ٣ ص ١٤٧ و ٢٢٨ وص ٣٣٠.

٣ ـ الطبري: ج ٣ ص ٢٤٩.

٤ ـ الطبري: ج ٣ ص ١٨٧.

من أهل تِهامة حتىٰ يأتيه الأمر، فحينما لاقاه المهاجر ضمّه اليه، ثم قدم نجران فانضم اليه فروة بن مسيك المرادي ـ الذي كان قد بعثه النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم علىٰ صدقات مراد ومذحج[1].

ثم سار المهاجر من نجران الىٰ اللحجية المرتدة، فلما لاقاهم وأحاط بهم دخل علىٰ المهاجر قيس بن عبد يغوث ومعه عمرو بن معدي كرب (ولعله هو ابن سيف ذي يزن) علىٰ غير أمان، فاوثقهُما المهاجر وبعث بهما الىٰ أبي بكر وكتب اليه بحالهما.

واستأمنت المرتدة فأبىٰ المهاجر أن يؤمنّهم، فافترقوا فرقتين وذهبوا مدبرين، فلقىٰ المهاجر أحداهما بعجيب فأتى عليهم، ولقيت خيوله الاخرىٰ بطريق الأخابث فاتوا عليهم، وقتل الشرداء بكل سبيل، وقبل توبة من أناب من غير المتمردة، وقتلوا من قدروا عليه منهم، وسار المهاجر من عجيب حتىٰ نزل صنعاء وكتب الىٰ أبي بكر بذلك.

وقدم الرسل بقيس وعمرو بن معدي كرب علىٰ ابي بكر، فقال: ياقيس: أعدوت علىٰ عباد الله تقتلهم، وتتخذ المرتدين والمشركين وليجة من دون المؤمنين! فانكر قيس ان يكون هو قتل دادويه، ولم يكن علىٰ ذلك بيّنه، فتجافىٰ عنه.

وقال لعمرو: أما تخزي أنك كل يوم مهزوم، أو مأسور؛ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله، فقال عمرو: لاجرم، لاقبلنّ ولا أعود، فخلّىٰ سبيلهما وردّهما الىٰ عشائرهما[2].

بينما يعلم الجميع أنهما ارتدا وقتلا جمعاً كثيراً من المسلمين[3].

هزيمة الفرس أمام الاسلام

ان مسأله الصِّدام المسلح للمسلمين مع الدولة الفارسية وانتصارهم عليها، أبرزت عظمة وواقعية الاسلام في نظر الفرس.

فكانت الحكومة الفارسية ايام حروبها مع المسلمين ـ مع تشتتها واضطرابها ـ قوية جداً، بحيث لم تكن هناك نسبة متقاربة بينها وبين المسلمين وكانت ايران احدىٰ

---

١ ـ الطبري: ج ٢ ص ١٨٥ و ٣٢٦.

٢ ـ الطبري: ج ٣ ص ٣٢٨ ـ ٣٣٠.

٣ ـ الىٰ هنا ينتهي ما اعددته من تحقيق حول أبناء الفرس المسلمين في اليمن ـ المعرّب.

الدولتين اللتين حكمتا العالم يومذاك: ايران والروم، وكانت سائر الدول تدفع لهما الضرائب والأتاوات تحت حمايتها، وكان الفرس يومذاك يفوقون المسلمين، سواء من الناحية العسكرية والنظامية أو حجم الاسلحة والمعدّات الحربية او من العدد وامكانات التغذية والاغاثة والنجدة، ولم يكن المسلمون قد عرفوا الفنون الحربية بمستوىٰ الفرس والروم، ولم يكن العرب في مستوىٰ عال من معرفة الفنون النظامية، ولهذا لم يكن لاحد أن يتنبأ بتلك الهزيمة الفارسية النكراء علىٰ يد العرب المسلمين!.

ولقائل ان يقول: ان سبب انتصار المسلمين، هو القوة الايمانية، والاهداف البيّنة، وعقيدتهم برسالتهم التاريخية، وأطمئنانهم بالظفر والانتصار، وباختصار ايمانهم الراسخ بالله و اليوم الآخر.

ولا جدال في أثر هذه الحقائق في تلك الانتصارات،اذ ان تضحياتهم وما أثر عنهم من الكلام في تلك الايام تؤكد أن ايمانهم بالله واليوم الآخر وبصدق رسالة الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وآله وسلم وبرسالتهم التاريخية، كان ايماناً لايشوبه نقص،وانهم كانوا يؤمنون بأنه لابنبغي بل لايجوز للانسان أن يعبد غير الله، وأنه يجب علىٰ الانسان ان ينقذ أخاه الانسان الذي وقع تحت نير عبودية ما سوىٰ الله علىٰ أي حال كان، وان ما قالوه من المقالات في مختلف المقامات بصدد شرح أهدافهم تؤكد انهم كانوا يتقدمون في طريقهم الىٰ الظفر والانتصار عن بصيرة ووعي ويقظة وتنبّه تام مئة بالمئة، وأنهم كانوا ذوي هدف معين يقودون حركاتهم الىٰ ذلك الهدف المنشود، وانهم كانوا كما جاء في وصف الامام أمير المؤمنين عليه السلام لأصحاب الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «وحملوا بصائرهم علىٰ أسيافهم»[1] وان كان عملاء المستعمرين يقررون هذه النهضة الاسلامية الكبرىٰ و المقدسة في عداد هجمات الروم والمغول والتتار!.

هذا صحيح؛ الا ان قوة الايمان لم تكن كافية لانجازهم هذه الفتوحات الكبرىٰ، اذ من المستحيل ان تقابل فئة قليلة بتلك الاوصاف المعروفة، الحكومة الساسانية وتزيلها من الوجود.

---

١ ـ نهج البلاغة الخطبة: ١٤٨، معبراً عن صحابة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

فقد قتل أصحاب الامام الحسين بن علي عليه السّلام، مع ايمانهم الراسخ بالله واليوم الآخر والهدف المقدس علىٰ يد عسكر عمر بن سعد، مع ماهم عليه من الخوف والطمع واللاهدف.

وقد تقدم المسلمون العرب بحروبهم في بعض نواحي القارة الاوروبية، ولكنهم حينما قوبلوا بمقاومة شديده، توقفت حركه فتوحاتهم في تلك القارة.

من هنا ندرك: ان من أسباب انتصار المسلمين هي عدم مواجهتهم مقاومة جدّية من قبل الفرس، بل ترحيبهم بهم، وذلك بما ذاقوه من القلق والاضطراب والخلل في النظام الداخلي للدول المفتوحة.

يقدر بعض المعاصرين من المؤرخين[1] عدد الافراد داخل حدود الدولة الفارسية بما يقرب من مئة وأربعين مليوناً، وقد كان عدد كثير من هؤلاء من جنود هذه الدولة المترامية، بينما لم يبلغ عدد جميع المجاهدين المسلمين في فتوح ايران والروم ستين ألفاً، وهذا يعني لو كان جنود الفرس يفرون من الكرّ عليهم، وكان المجاهدون يطاردونهم الىٰ داخل الحدود الفارسية لتاه المسلمون العرب فيها وضاعوا!، ومع هذا وجدنا أن الحكومة الساسانية قد بادت علىٰ يد هذه الفئة القليلة نسبياً نفسها.

فعلينا اذن ان نفتش عن سبب الهزيمة الفارسية في مجال آخر.

الفرس والحكم الفارسي

والحقيق هي أن أهم عوامل هزيمة الحكومة الساسانية، هو سأم الأمة من نظام الحكم وآدابه ورسومه الظالمة والقاسية.

اذن أنّ المؤرّخين الشرقيين والغربيين، يسلّمون بأن النظام الحكومي والاجتماعي والديني الفارسي يومذاك، كان فاسداً الىٰ درجة كان جميع الامة تكره استمرار الوضع القائم آنذاك.

ولم تكن هذه الكراهية والسخط بسبب حوادث السنين الأخيرة بعد خسرو پرويز، اذ

---

١ ـ هو الاستاذ سعيد نفيسي في كتابه الفارسي: تاريخ اجتماعي ايران.

لو كان الناس متفائلين متفاعلين مع اسس الحكم القائم أوالدين السائد لما سبب سخطهم المؤقت عدم المقاومة حين قابلوا العدو المشترك، بل لو كانت الروح القومية أو الدينية حيّة نابضة لكان الأمر عكس ذلك، أي لكانت الامة تجمع نفسها للمقاومة المسلحة ـ مهما كانت الاوضاع فاسدة ـ وتترك آنذاك خلافاتها الداخليه،لتكون يداً واحدة تدفع العدو عن نفسها. كما رأينا من ذلك الكثير في التاريخ.

ان من الطبيعي أن يكون هجوم العدو المشترك سبباً لاندماج الأُمة الشديد بعضها مع بعض، ولنبذ الخلافات الداخلية، ولكن يشترط في هذا أن تكون للأُمة روحٌ حيّة تنبع من دينها او حكومتها. ونرىٰ في عصرنا الحاضر: أنّ وجود اسرائيل عدوة مشتركة للأُمة العربية دفع لهذه الامة الىٰ محاولة الوحدة مهما أمكن وتجميع امكاناتها ووحدة شعور أبنائها واحساسهم علىٰ ما بينهم من كثرة الخلافات والاختلافات، والتي يضيفها المستعمرون يوماً بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة ـ وهذا يدل علىٰ وجود روح حيّة في جسد هذه الامة.

ان المجتمع الفارسي يوذاك، كان مجتمعاً طبقياً غريباً، مع كل ما لهذه المجتمعات الطبقية من الآثار والعوارض، الىٰ درجه أن كانت تختلف معابد الطبقات بعضها عن بعض، افترضوا أن تجدوا اليوم فرقاً في مجتمعاتنا بين مساجد الاغنياء والفقراء، فأيّ روح كان تحكم ذلك المجتمع الطبقي آنذاك؟!.

ولقد كانت هذه الطبقات محصورة محدودة مغلقة بعضا علىٰ بعض، فلم يكن يحق لاحد ان يخرج من طبقة ليدخل في طبقة أخرىٰ، ولم يكن القانون ـ بصفته الدّينية ـ يبيح لابناء الاسكافيّين ـ مثلاً ـ أن يتعلموا القراءة والكتابة، اذ كان حق التعليم والتعلم مقصوراً علىٰ أبناء الأعيان والمؤبدين أي رجال معابد النيران المجوسية.

وقد كان الدّين الزرادشتي ـ مهما كان في الأصل ـ قد بلغ الىٰ درجة من الفساد لم يكن يستطيع الفرس معه ان يعتقدوا به بملء قلوبهم، ولو لم يدخل الاسلام ايران آنذاك لكانت المسيحية قد سخّرت الفكر الديني للأمة الايرانية بدل الاسلام وبدل الزرادشتية ـ كما يقول الباحثون، فان المسيحيين هم الذين كانوا يومذاك يتزعمون الحركة العلمية والثقافية

في ايران لا المجوس، اذ كان الزرادشتيون متعصبين في طقوسهم وتقاليدهم الخاطئة الىٰ درجة لم يستطيعوا معها ان يفكروا في العلم ولا في الثقافة ولاالعدالة ولا الحرية.

وعلىٰ هذا نقول ان المسيحية اصيبت بدخول الاسلام الىٰ ايران بضرر أكثر من الزرادشتية، فقد فقدت الأرضية المؤاتية لانتشارها في ايران.

ان عدم رغبة الجنود الفرس في دينهم وحكومتهم حفّزهم الىٰ عدم وقوفهم في الحروب ضد العرب المسلمين برغبة وطواعية، بل مساعدتهم في كثير من الموارد[1].

يقول المستشرق: أدوارد بروان: «...لقد اثبت البروفيسور آرنولد استاذ دار الفنون في عليگره في كتابه « في التعاليم الاسلامية »: ان الفرس انما اسلموا سلماً،بصورة جيّدة يشير آرنولد في كلامه هذا الىٰ عدم اتصاف المؤبد الزرادشتي بالحلم والصبر فيقول: ان المؤبدين كانوا يتظاهرون بالتعصّب علىٰ المانويّن والمزدكيّين والمسيحّيين «الآگنوستيك» وأمثالهم، ولذلك فقد وقعوا موقع الحقد و العداء لجماعات كثيرة من الأمه الفارسية. ان سيرة المؤبدين الظالمة والقاسية بالنسبة الىٰ أتباع سائر الأديان والمذاهب تسببت في بعث الشعور بالبغض والحقد الشديدين في قلوب كثير من أبناء الأمة الايرانية بالنسبة الىٰ دين زرادشت والملوك الذين كانوا يدافعون عن ظلم هؤلاء المؤبدين للامة، وتسببت في ان يعدّوا استيلاء المسلمين عليهم نجاة وتحريراً لهم من براثن الظلم ».

وهكذا يستمر براون فيقول: «... ومن المسلّم ان اكثر الذين غيّروا عقيدتهم من

---

١ ـ يقول محمّد القزويني في كتابه الفارسي: بيست مقالة: «ان خونة الفرس من أولياء الأمور وحكام الولايات ومحافظي الحدود الايرانية حينما شعروا بتضعضع في أركان الدولة الساسانية وهزيمة الجنود الفرس أمام الاسلام مرتين، أو ثلاثاً، طرحوا بانفسهم في حجور العرب المسلمين، ولم يكتفوا بمساعدتهم في فتوحاتهم فحسب، بل دعوهم الىٰ الاستيلاء علىٰ سائر الاراضي الايرانية التي كانت تحت سلطتهم مما لم يكن العرب قد دخلوها بعد، وكانوا يقدّمون لهم مفاتيح القلاع والخزائن ازاء استمرار حكمهم علىٰ تلك النواحي التي كانت بأيديهم قبل دخول المسلمين».

وقد نقل القزويني هذه القضية ذاماً لاولئك الذين كانوا يساعدون العرب المسلمين علىٰ النظر في طرق الفتوح وسبل الوصول اليها بينما يجب علينا ان ننظر في السبب الذي كان قد دعا هؤلاءالىٰ التخلي عن الحكومة الساسانية، وانهم لماذا كانوا ينبهون الفاتحين الاجانب ـ كما يقول القوميون ـ بطرق فتح القرىٰ وسبل الوصول الىٰ المدن، فهل كان هذا لغير سخطهم وكراهتهم للدولة الساسانية والدين القائم بحمايتها؟! أم هل كان هذا من دون ايمانهم بأنهم سيجدون الراحة والحرية والخلاص باستيلاء المسلمين؟!.

المجوسية الىٰ الاسلام كانوا بإرادتهم واختيارهم وعن طيب نفس وعلىٰ سبيل المثال نرىٰ أن أربعة آلاف من الجنود الديالمة أسلموا بعد حرب القادسية والتحقوا بالمسلمين وساعدوهم في فتح جلولاء، ثم سكنوا في الكوفة. وهناك أعداد أخرىٰ اسلموا برغبتهم ورضاهم أفواجاً أفواجاً..[1].

لقد كان الدين والقانون الفارسي الايراني آنذاك علىٰ ما كان يبعث معه الأمة الفارسية الىٰ التهيؤ النفسيّ لتقبل الدين والحكم الجديد، وعندما فتح المسلمون ايران وجدناهم بالاضافة الىٰ عدم اظهارهم ردود فعل مضادة ـ قد تعبوا كثيراً في سبيل تقدم الاسلام.

ويقول الدكتور صاحب زماني:«ليس ان الأمة الفارسية لم تحسّ مواجهة في نفسها مع جاذبية الاسلام ونظرته العالمية والأُممية فقط،بل كانوا يجدون في الآمال الاسلامية ما كانوا يصبون اليه طوال قرون عديدة بالدموع والدماء والنفوس، وكانوا يحسّون في قرارة نفوسهم بالعطش الشديد اليه ويضحون في سبيل الوصول اليه بأنفسهم..»[2]

ويقول: «ليس إنَّ الامة الفارسية في صدر الإسلام لم تقابل في مواجهة آمال الدين الجديد بشعارات دعائية خدّاعة غير واقعية، ولم يكن رسول الاسلام صلىٰ الله عليه وآله وسلم قد صرح مراراً يقول: «انما أنا بشر مثلكم» و «انما أنا كأحدكم» أو «لا فضل لاحدكم علىٰ احدكم إلّا بالتقوىٰ» فقط، بل وجد الفرس سيرة الخلفاء وعلىٰ الأخص منهم الامام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ابسط مما كانوا هم يأملونه ويريدونه، كحلم من أحلام اليقظة والحقيقة...ونحن نجد احدىٰ هذه المقارنات بين السنن الساسانية والدين الاسلامي الجديد، في لقاء الامام عليه السلام في ذهابه الىٰ صفّين مع دهاقين مدينة «الأنبار» المتحررين، وقد سبب هذا اللقاء تقرير احدىٰ ابدع واوقع خطب الامام عليه السلام التي اثرت عن هذا القائد الذي لانظير له في تاريخ العالم السياسي عبرة لقوّاد العالم فيما غبر وما هو آت: جاء عليّ حتىٰ مرّ بالانبار، فاستقبله بنوخوش نوشك، راكبين علىٰ دوابّهم، فلما قابلوه نزلوا عن دوابهم واخذوا يشتدون مشياً

---

١ ـ عن الترجمة الفارسية: تاريخ أدبيات ايران: ج ١ ص ٢٩٩.

٢ ـ في كتابه الفارسي: ديباجه اى بر رهبري: ص ٢٥٥.

بين يديه الىٰ جانبيه، فقال عليه السلام: ما اردتم بهذا الذي صنعتم؟ قالوا: خلق لنا نعظم به الامراء، فقال عليه السلام: «والله ما ينفع هذا الامراء، وانكم لتشقّون به علىٰ انفسكم وأبدانكم؛ فلا تعودوا له »[1].

ثم يقول صاحب زماني: «كان الاسلام قد أحدث منعطفاً تاريخياً في فلسفة قيادة الجماهير؛ فانه يرىٰ أن «الراعي» يجب أن يكون لصيانة «الرعية» لا «الرعية» لريّ عطش «الراعي» الىٰ الدماء! وكان الاسلام بهذه الفلسفة قد أصبح نشيداً لتحرير الجماهير، كان الاسلام قد طرح سؤالاً هاماً أمام فلسفة السياسة في العالم القديم والحكومة الساسانية، هو: هل القائد للناس أو الناس للقائد؟ ولم تكن هذه المسأله الهامة مطروحة علىٰ الجماهير طوال حروب ايران والروم مدة سبعمئة سنة؛ اذ كانت سياسة كلا الامبراطوريتين سياسة واحدة هي: الناس للقائد، والجماهير للطبقة الممتازة[2] ولم يكن الموالي والفرس يسمعون بسذاجة وبساطة بلاط أمير المؤمنين عليه السلام فحسب، بل كان بلاطه عليه السلام (ان صحّ التعبير بالبلاط) في الكوفة علىٰ مرأىٰ ومسمع الفرس، فكانوا يرون سذاجته وبساطته بأُم أعينهم...ولهذا فلا عجب ولا استغراب اذا لبّت الجماهير الايرانية الفارسية المظلومة والمهضومة والكادحة هذه الدعوة.[3]

ثانياً ـ دخول الاسلام الىٰ قلوب الفرس

كلما مضت الأيام ازدادت محبة الفرس للاسلام، وتركوا أديانهم السابقة ودخلوا في دين الله أفواجاً.

وخير مثال لذلك هوالأدب الفارسي، فبمضي الأيام ومرورها ازداد أثر القرآن والحديث في الأدب الفارسي، حتىٰ نرىٰ أن تأثيرهما في نتاجات الادباء والشعراء وحتىٰ الحكماء منذ القرن السادس الهجري الىٰ ما بعد ذلك؛ أكثر و أشهر مما عند اضرابهم

---

١ ـ ديباجه اى بر رهبرى ص ٢٦٧ ـ ٢٧٠ ونقلت النص التاريخي عن كتاب وقعة صفّين لنصر بن مزاحم ص ١٤٤.

٢ ـ ديباچه اى بر رهبرى ص ٢٧٢.

٣ ـ ديباچه اى بر رهبرى ص ٣٢٣.

في القرنين الثالث والرابع، وتبدو هذه الحقيقة واضحة من مقارنة أدب فردوسي ورودكي بأدب مولوي وسعدي ونظامي وحافظ وجامي.

يقول المغفور له بديع الزمان فروزانفر في مقدمة كتابه (أحاديث مثنوي):

«ان تأثير الحديث في الشعر الفارسي محسوس مشاهد منذ أقدم القرون الهجرية» ثم يستشهد بأبيات من شعر رودكي ثم يقول:

«منذ أواخر القرء الرابع الهجري، حينما انتشرت الثقافه الاسلاميه وأُسست لذلك مدارس في مختلف نقاط بلاد ايران، وتغلبت الديانة الاسلامية علىٰ سائر الأديان ،واجهت مقاومة الزرادشتيين في ايران هزيمة مصيرية نهائية، وبدأت تتجلىٰ الثقافة الفارسية بالصبغة والصيغة الاسلاميتين وأُسست أُسس التعليم علىٰ الأدب العربي والدين الاسلامي.. حينذاك أكثر الكتاب والشعراء من نقل الالفاظ العربية، وقللوا من الكلمات والأمثال والحكم السابقة (قبل الاسلام) في النثر والشعر، ونحن نرىٰ أن حكم بوذرجمهر واوستا وزرادشت ترد في شعر الفردوسي والدقيقي وغيرهما من شعراء عهد السامانيّين وأوائل الغزنويّين أكثر منه في شعر عنصري فرّخي ومنوچهري في القرن الرابع وأوائل الخامس الهجري»[1]

ويوكد لنا التاريخ أنه كلما استقل الفرس سياسياً وادارياً اكثر فأكثر ازداد اقبالهم علىٰ واقعية الاسلام أكثر فأكثر، ولم يفكّر الطاهريون ولا آل بويه الديالمة الذين كان لهم استقلال اكثر ممن سبقهم من ملوك الفرس، في أن يبعثوا كتاب اوستا من جديد أو يجعلوه منهاجاً لحياتهم! بل كانوا علىٰ العكس من ذلك يسعون جاهدين في نشر حقائق الإسلام.

لقد شكل الفرس بعد مئه عام من الفتح الاسلامي قوة عسكرية عظيمة.. وأصبح عامة المسلمين يكرهون جهاز الخلافة الاموية لتجبره وانحرافه عن تعاليم الاسلام ـ اللهم إلّا اولئك العرب الذين كانوا متواطئين معهم علىٰ العصبية العربية الجاهلية، واستطاع الفرس أن ينقلوا الخلافة من البيت الاموي الىٰ العباسي بقدرتهم العسكرية تلك، فلو أنهم أرادوا في ذلك الوقت تأسيس حكومة سياسية مستقلة أو تجديد دينهم القديم، لكان بأمكانهم

---

١ ـ أحاديث مثنوي، لبديع الزمان فروزانفر.

ذلك، ولكنهم لم يكونوا يفكرون في ذلك الوقت في تأسيس حكومة مستقلة في مقابل الخلافة ولا في رفض الدين الجديد وتجديد الدين القديم، ولكنهم كانوا يتصورون أنهم لو غيّروا مكان الخلافة من اسرة الىٰ اخرىٰ لنالوا بذلك منتهىٰ آمالهم وهو العيش في ظل حكومة دينية اسلامية تحت ظلال القرآن الكريم.

وجاء دور بني العباس فلم يرضوا به حكماً وحاكماً، ووقع في ضمن هذا الدور حرب بين المأمون بقيادة طاهر بن الحسين مع الفرس من جهة، والأمين بقيادة علي بن عيسىٰ مع العرب من جهة اخرىٰ، ولقد برهن انتصار طاهر بن الحسين والفرس علىٰ عسكر الأمين، علىٰ ان القدرة كانت لاتزال مع الفرس آنذاك، ولكنهم مع ذلك لم يفكروا في الاستقلال السياسي ولا في رفض دين الاسلام، وانما فكر الفرس في ذلك حينما يئسوا من الحكومات العربية ان تكون اسلامية واقعية، وحينئذاك اقتنعوا بالاستقلال السياسي وبقوا علىٰ دينهم كما كانوا؛ بل اسلم أكثر الفرس في دور استقلالهم السياسي، فقد بدأ الاستقلال السياسي منذ أوائل القرن الثالث الهجري، وكان كثير من الفرس باقين الىٰ ذلك الحين علىٰ دياناتهم كالمجوسية والمسيحية والصابئية وحتىٰ البوذية، وان ماتبقىٰ من ذلك الزمان من كتب الرحلات يحكي لنا أنه «كان في ايران الىٰ ذلك الزمان كنائس وبيوت نيران كثيرة، ثم بدأ عددها يقل شيئاً فشيئاً ويتحول كثير منها الىٰ مساجد».

بل يسمي لنا المؤرخون المسلمون عدداً من الأُسر التي كانت حتىٰ القرنين الثالث والرابع باقية علىٰ مجوسيتها وزرادشتيتها، وانها كانت تعيش بين المسلمين بصورة غير طبيعية، مهانة ثم تركت دينها ودخلت في الاسلام طوعاً ورغبة.

يقولون: ان سامان جدّ السامانيين، الذي ينتسب الىٰ الملوك الساسانيين، وكان من أكابر (بلخ) قد أسلم في حدود القرن الثاني وأن جدّ أُسرة قابوس التي حكمت مدّة من الزمان، أسلم في القرن الثالث، وأن مهيار الديلمي الشاعر القدير والشهير الفارسي اسلم في أواخر القرن الرابع الهجري.

وان اكثر أهالي طبرستان وشمال ايران لم يكونوا يعرفون الإسلام الىٰ ما بعد القرن الثالث، ولذلك كانوا يحاربون عساكر الخلفاء، وبقي أكثر أهالي كرمان الىٰ ما بعد عهد

الامويين علىٰ المجوسية، وكان اكثر أهل فارس وشيراز علىٰ عهد الاصطخري[1] من المجوس.

وقد ذكر المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم)[2] مجوس فارس ونفوذهم الكبير واحترامهم الكثير عند المسلمين، وأنهم كانوا أكثر حرمة عندهم من سائر أهل الذمة، فكتب يقول: ان المسلمين وسائر الناس كانوا يشاركون المجوس في هذا البلد افراحهم بعيد النوروز والمهرجان، وكانوا يزينون لذلك اسواق البلد، ويقول عن الأديان في خراسان: «هناك يهود كثير و قليل من النصارىٰ واصناف من المجوس»[3] ويذكر المسعودي في كتابه (التنبيه والاشراف)[4] عن اسرة محترمة في اصطخر فارس، انه كان لهم كتاب جامع في تاريخ عهد الساسانيين، وأنه استفاد من هذا الكتاب كثيراً، ويذكر ضمن ذلك اسم المؤبد لمعبد النار الكبير في اصطخر، مما يدل علىٰ أنه كانت له ميزة وشخصية بحاله من اتباع من المجوسية كثيرين، ويعقد في كتابه (مروج الذهب)[5] باباً بعنوان: «في ذكر الأخبار عن بيوت النيران وغيرها» فيذكر فيه بيوت نيران المجوس، ويذكر من ذلك بيت نار كبير في (داراب جرد) ويقول: «وهذه النار تسمىٰ في وقتنا هذا ـ وهو سنة: اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ آزرجوي، وتفسير ذلك: نار النهر، والمجوس تعظّم هذه النار بما لا تعظّم به غيرها من النيران والبيوت ».

كل هذا يدل علىٰ ما قلناه من أن الفرس دخلوا في الاسلام تدريجياً، وأن الاسلام غلب علىٰ الزرادشتية تدريجياً، وخصوصاً في عهود الاستقلال السياسي،والغريب أنه كان للزرادشتيين في صدر الاسلام ـ حيث كان دور سيادة العرب ـ حرمة وحرية أكثر من الأدوار المتأخرة التي ملك الامر فيها الفرس أنفسهم، اذ كلما اسلم عدد أكثر من الفرس وقع المجوس موقعاً أقل كرامة نسبياً، اذ كان المسلمون من الفرس يبدون عصبية علىٰ

---

١ ـ صاحب كتاب: المسالك والممالك.

٢ ـ أحسن التقاسيم للمقدسي: ص ٣٩ و ٤٢٠ و ٤٢٢.

٣ ـ أحسن التقاسيم للمقدسي: ص ٣٢٣.

٤ ـ التنبيه والاشراف للمسعودي: ص ٩١.

٥ ـ مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٢٥٣.

المجوس منهم أكثر من العرب عليهم، والظاهر أن نفس هذه العصبيات الفارسية بين المسلمين والمجوس هي التي دفعت بعدد من المجوس للهجرة الىٰ الهند، حيث شكلوا الاقلية الفارسية المجوسية هناك.

ولابأس ان ننقل هنا كلام المستر فراي عن كتابه (ميراث ايران القديم)[1]:

«ندرك من المصادر الاسلامية: ان معبد اصطخر المجوسي الذي كان أحد كانوني المجوس في ايران علىٰ عهد الساسانيين (والذي كان ثانيه في شيز من بلاد آذربايجان) كان باقياً علىٰ العهد الاسلامي أيضاً وقد تقلصت شبكة معابد النيران بتقلّص عدد المجوس،ومع هذه فقد وفىٰ (جماعة من) أهل فارس لدينهم القديم الزرادشتي الىٰ القرن العاشر الميلادي، بل عاش بعد ذلك أيضاً جمع كثير من أهل فارس علىٰ المجوسية حتىٰ أوج التوسّع السلجوقي في القرن الحادي عشر الميلادي، وفي ايدينا شرح جميل عن التدافع الواقع بين المسلمين والمجوس في مدينة كازرون زمن أبي اسحاق ابراهيم بن شهريار الكازروني، مؤسس احدىٰ فرق الصوفية والمتوفىٰ ١٠٣٤ ميلادية. وقد أسلم كثير من المجوس بهداية هذا الشيخ، ولكن يظهر من هذا الكتاب (معجم البلدان) وغيره أن مكانتهم لم تزل مستمرة، والقصة: ان عامل كازرون علىٰ عهد البويهيين، الذي حكم آنذاك من هناك جميع بلاد فارس (شيراز) كان مجوسياً يسمىٰ خورشيد، وكانت له حرمة لدىٰ حاكم شيراز الىٰ درجة أنه أمر هذا الشيخ الصوفي المسلم أن يحضر لدىٰ حاكم شيراز ليسمع منه العتاب علىٰ ما سبّبه من البلبلة في البلد بين المسلمين والمجوس (ص ١١٧ ـ ص ١٢١) وكان المسلمون والمجوس هم عمدة الطوائف الفارسية، بينما كان اليهود والنصارىٰ قليلين جداً.

ويقول في (ص ٣٩٩): «كان كلما نما الفكر الاسلامي تطورت حركات مختلفة كالتشيّع[2] والتصوف، في ذلك كان يجد الفرس الذين لم يستطيعوا الاقتناع بالفكر

---

١ ـ الترجمة الفارسية ص ٣٩٦.

٢ ـ حركة التشيّع هي نفس حركة الاسلام في الواقع، ولا فرق بين الاسلام والتشيّع في الحقيقة، فالإسم الحق والواقعي هو التشيّع ـ كما نعتقد نحن الشيّعة، انظر: التشيّع والاسلام، للشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) وعلي والشيعة للمغفور له العلّامة الشيخ نجم الدين العسكري (رحمه الله) ـ المعرّب.

الزرادشتي الواطىء، متّسعاً وملاذاً، وحينما أسلم الحكام الديالمة وتشيعوا واستولوا علىٰ البلاد حتىٰ دخلوا بغداد (٣٣٤هـ = ٩٤٥م) زالت معالم المجوسية من البلاد الفارسية، فقد أسلم آل بويه واختاروا العربية علىٰ الفارسية، اذ كان للاسلام والعربية آنذاك صبغة عالمية (لا عربية ضيقة) في حين كان المجوس قد لجأوا الىٰ مواطن خاصّة بهم، ويبدو أن آل بويه كانوا يتصفون أمام سائر المذاهب بالتسامح والصبر، اذ كانوا يبقون علىٰ الخلفاء السنّة وكثير من عمالهم علىٰ اعمالهم، كما كانوا من قبل، بل كانوا يبقون ويستعملون عمالاً غير مسلمين،فقد كان عامل كازرون ـ كما ذكرنا من قبل ـ مجوسياً، وقد كانوا يظهرون الحب والتعاطف مع شعائر أهل البيت العلوي (عليهم السلام) والثقافة الاسلامية أكثر من ذلك بالنسبة الىٰ عظمة الفرس السابقة؛ ومن ذلك: ان عضد الدولة مرّ بشيراز (٣٤٤هـأي ٩٥٥م) علىٰ بقايا (تخت جمشيد أي برسبوليس) فأمر ان يحفر علىٰ صخوره كتيبة عربية (بينما كان بامكانه أن يأمر بحفرها بالفارسية،بل وحتىٰ البهلوية).

فما هو السبب الذي دفع بالفرس بعد عدة قرون من زوال السيادة العربية عنهم أن يوجهوا أنفسهم اتجاهاً أكثر الىٰ الاسلام؟ وهل يمكن ان يكون ذلك شيئاً آخر سوىٰ جاذبية الاسلام وانسجامه مع الروح الفارسية؟!.

بل كانت الحكومات الفارسية المستقلة ـ والتي كانت من حيث السياسة معادية للحكومات العربية ـ تحافظ علىٰ الاسلام وتؤيده وتنشره وتشجّع علماءه أكثر من الحكومات العربية المسلمة نفسها، وكان الفرس يساعدون العلماء في تصنيف وتأليف الكتب الاسلامية وتعليمها أكثر من غيرهم.

ان ما أبداه الفرس من النشاط للاسلام والعلوم الاسلامية طوال اربعة عشر قرناً من تاريخ الاسلام ـ وحتىٰ في القرنين الأوّلين اللذين يسميهما «السير جان ملكم»: «قرنان من الصّمت»! مما لانظير له لا عند المسلمين ولا عند الفرس أنفسهم، اما في المسلمين، فلم تقدم أية أُمة سوىٰ الفرس مثل ما قدمه هؤلاء من النشاط والحب والتعاطف والخدمة والإخلاص للاسلام؛ وأما فيالفرس فلم يقدموا في أي عهد وفي اي دور آخر ومن أجل أي هدف آخر ديني أو قومي، مثل ماقدموه من النشاط والخدمة للاسلام.

انهم كانوا يستطيعون ان يعيدوا دينهم وتقاليدهم وطقوسهم القديمة بعد استقلالهم السياسي من دون أي مزاحم او معارض،ولكنهم لم يفعلوا ذلك، بل اعرضوا عن دينهم الفارسي واقبلوا علىٰ الاسلام أكثر من ذي قبل؛ فلماذا؟! لانهم كانوا يرون الاسلام منسجماً مع أفكارهم وعقولهم وميولهم الفطرية؛ ولذلك لم يفكروا أبداً في تجديد دينهم الذي كان يسبّب لهم عذاباً روحياً طوال قرون عديدة، وهكذا بقيت الامة الايرانية بشهادة التاريخ، طوال أربعة عشر قرناً من تاريخ دخول الاسلام الىٰ هذا البلد، واذا رأيتم أفراداً معدودين مكشوفي الهوية يتحدثون اليوم عن تجديد الدين والطقوس الفارسية القديمة في هذه الايام أو قبيل هذا، فلاينبغي أن نعدّ هؤلاء علىٰ حساب الامة الايرانية كلّها أو جلّها، اذ اعلن الفرس واثبتوا مراراً أنهم كانوا ـ ولايزالون ـ يرون الاسلام أكثر انسجاماً في فكرهم و روحهم من أي فكر أو دين آخر؛ والدليل علىٰ ذلك هو تلك الخدمات المخلصة التي اسداها هؤلاء طوال أربعةعشر قرناً الىٰ القرآن والاسلام.

وسنشرح في الصفحات التالية بياناً ـ جامعاً تقريباً ـ عن بعض خدماتهم العظيمة، حتىٰ يعلم الجميع كيف ان الامة الفارسية اسلمت بملء قلوبها، حيث رأته منسجماً مع عقلها وفكرها، وأنه يشبع حاجاتها الوجدانية والفطرية.

وهذه حقيقة تذكرنا بقول الرسول الكريم صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «ليضربنكم والله علىٰ الدين عَوداً، كما ضربتموهم عليه بدءاً»[1].

* * *

١ ـ الغارات: ج ٢ ص ٤٩٩ ط الارموي، ومن حسن الحظ أن من تحدثوا عن تجديد الدين والرسوم الفارسية القديمة منذ صدر الاسلام الىٰ اليوم، قوبلوا من قبل الامة الفارسيةنفسها برد فعل عنيف؛ حتىٰ ان بهافريد، وسناباد، وبابك، ومازيار، قتلوا بأيدي أبي مسلم الخراساني وافشين الفارسي والعسكري الفارسي العباسي، ولكنّا لاندري لأي أمر تغمض عيون المستعمرين عن مكافحي الحركات الفارسية المجوسية، ولا ترىٰ سوىٰ بابك واضرابه، فلا يعدون من الفرس إلّا هذا وأشباهه دون قاتليهم ومكافحيهم من الفرس دفاعاً عن الاسلام، وبابك! هو الذي حينما فرّ الىٰ جبال أرمينية ركب اليه سهل بن سنباط صاحب المسلحة هناك، فلما رأىٰ وجه بابك عرفه وقبل يده وقال له: «.. كل من هاهنا من البطارقة انما هم أهل بيتك قد صار لك منهم أولاد» وذلك ان بابك كان اذا علم ان عند بعضهم من النساء امرأة جميلة طلبها، فان بعث بها اليه وإلّا سار اليه فاخذها ونهب ماله وعاد» (الكامل ج ٦ ص ٤٧٣) ط بيروت ٩٦٥ م.

وقد حدث في ايران أمران سبّبا مغالطة طائشة بأقلام عدد من يعلمون أو لايعلمون؛ حيث عدّوهما نوعاً من المقارنة وردّ الفعل الفارسي المعاكس أمام الاسلام او العرب علىٰ الأقل، وهما: تجديد اللّغة الفارسية، واحياء المذهب الجعفري الشيعي.

ولهذا يلزمنا أن نبحث نحن حول هاتين الظاهرتين اللتين ترتبطان بلغتنا ومذهبنا الرسميّين، بمقدار مايرتبط من البحث حولهما بما نحن بصدده.

أما اللّغة الفارسية

فهي مما احتج به بعض المغرضين علىٰ اتهام الاسلام انه دين اكره عليه الفرس الايرانيون؛ اذ قالوا: ان الفرس حافظوا علىٰ لغتهم طوال هذا التاريخ ولم يتركوها تذوب في اللّغة العربية!.

عجباً! فهل يستلزم التدين بدين معين أن يترك الانسان لغته ليتكلم بلغة ذلك الدين؟! وفي أي آية أو روايه ورد مايدل علىٰ هذا؟!.

بل لامعنىٰ لخصوص اللّغة في دين عالمي كالاسلام، ولم يكن يخطر ببال الفرس ان يكون الاسترسال والاستمرار علىٰ لغتهم مخالفاً لاصول الاسلام او فروعه، ولم يكن ينبغي أن يخطر ذلك علىٰ بال.

لو كان إحياء اللغة الفارسية من أجل مكافحة الاسلام، فلماذا اتعب هؤلاء انفسهم في إحياء اللغّة العربية ايضاً ببيان قواعدها الصرفية والنحوية والاشتقاقية، والمعاني والبيان والبديع، وفنون الفصاحة واساليب البلاغة؟ بل لم يخدم اللّغة العربية أحد كما خدمها الفرس. ولو كان احياء اللّغة الفارسية من أجل مكافحة الاسلام أو اللّغة العربية، لكان ينبغي للفرس أن يكتبوا بدل هذه الكتب الكثيرة في اللّغة العربية وقواعدها وفصاحتها كتباً للغة الفارسية، أو أن يكفوا عن نشر اللّغة العربية علىٰ الأقل.

بل أقول: ان عناية الفرس بلغتهم لم تكن للمضادّة للاسلام أواللّغة العربية، بل لم يكن الفرس يحسبون اللّغة العربية لغة أجنبية، ولم يكونوا يعدون العربية لغة العرب وحدهم، بل لغة الاسلام والمسلمين عامة، وحيث كانوا يرون الاسلام ديناً عالمياً أُممياً، كانوا يرون

اللّغة العربية أيضاً لغة اسلامية أُممية عالمية لجميع المسلمين في العالم أجمع.

والحقيقة: أنه اذا كان سائر اللّغات، كالفارسية والتركية والانجليزية والفرنسية والألمانية لغات أقوام وأُمم خاصه، فان اللّغة العربية ليست إلّا لغة كتاب عالمي فقط! اذ أن اللّغة الفارسية لغة تتعلق بأُمة خاصة، يشترك عدد غير محدود من الافراد في بقائها واستمرارها، بحيث لو لم يكن كل واحد من هؤلاء وحده لما كان يؤثر في سقوط هذه اللّغة وموتها، فاللّغة الفارسية ليست لغة أحد منهم خاصة ولا كتاب خاص وحده، فليست لغة فردوسي فحسب، ولا لغة رودكي فقط ولا لغة نظامي وحده، ولالسان سعدي فحسب، ولا لغة حافظ الشيرازي ولا أي شخص آخر، بل هي لغة الجميع.. بينما اللّغة العربية ليست إلّا لغة كتاب واحد هو «القرآن الكريم» فالقرآن وحده هو حافظ هذه اللّغة وعامل اساس في بقائها و استمرارها، وكلما كتب بعد القرآن بهذه اللّغة فانما هو في ظلال القرآن ومن أجله، فعلوم القواعد انما وجدت للقرآن ومن اجله، وكل من كتب لهذه اللّغة وكتب بها فانما هو للقرآن، وما ترجم اليها من الفلسفة والتاريخ والطب والرياضيات والحقوق فانما هو للقرآن... اذن فالحق: ان العربية لغة كتاب وليست لغة قوم أو أُمة.

واذا وجدنا في تاريخ امتنا افراداً من كبارها يقولون بحرمة أكبر لهذه اللّغة من لغتهم الأُم، فانما ذلك من أجل أنهم كانوا لايرون هذه اللّغة لغة خاصة بقوم فقط، وانما كانوا يرونها لغة دينهم وعقيدتهم، ولذلك فهم لم يحسبوا هذا الترجيح اهانة الىٰ امتهم أو قوميتهم، ان شعور افراد الامم غير العربية كان يحس بأن اللّغة العربية لغة دين، والفارسية لغة أمة وقومية.

وقد قال مولوي المثنوي في قصيدته الشهيرة شعراً بالعربية يقول فيه:

«اقتلوني اقتلوني يا ثقات ان في قتلي حياة في حياة»

ثم يقول ما معناه:

«تكلم بالفارسية، وان كانت العربية أحلىٰ، فللحبّ لغات مئات».

وانما يرجح المولوي اللّغة العربية علىٰ الفارسية لانها لغة دينه الاسلام.

وحكىٰ سعدي الشيرازي في الباب الخامس من «گلستان» محاورة له مع شاب من

«كاشغر» كان يقرأ «مقدمة الزمخشري» في النحو، يقول فيها عن الفارسية انها لغة عوام الناس، والعربية لغة أهل الفضل والأدب.

ويقول حافظ الشيرازي في غزله المعروف مامعناه:

«ان فمي مُلِيء بالعربية وان كان لساني ساكتاً، واظهار الفن عند «الخليل» من سوء الأدب».

وقد كتب المرحوم القزويني في كتابه «بيست مقاله» يقول: كان أحد الحمقىٰ المغفّلين ـ الذين لايقلون اليوم ببركة المستعمرين ـ يعتب علىٰ حافظ دائماً لشعره هـذا، حـيث حسب فيه اللّغة العربية فضلاً وأدباً وفنّاً!.

وسبق ان قلنا ان الاسلام لايختص بقوم أو أُمة معينة حتىٰ يـعترف بـرسمية لغـتها ويحذف سائر اللّغات عن ديوان الرسمية !.

وقد نقل المسعودي في (التنبيه والاشراف): ان زيد بن ثابت كان قد تعلم اللّـغات الفارسية والرومية والقبطية والحبشية ممن كان من أصحاب هذه اللّغات بالمدينة، فكان مترجماً لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم عند الحاجة[1].

ان ديناً جاء لجميع البشر لايمكنه ان يعتمد علىٰ لغة خاصة، بل لكل امة ان تـعتنق الاسلام مع الاحتفاظ بلغتها وكتابتها، من دون ان يكون ذلك مـانعاً أو رادعاً لهـا عـن دخولها في هذا الدين، وانما لغتها وكتابتها مظهر لنوع من الفكر والذوق والسليقة.

اذن: فلا عجب ولا استغراب اذا ما رأينا أن الفرس تكلّموا بالفارسية حتىٰ بعد دخولهم في الاسلام، بل لاربط لاحد هذين بالآخر ربطاً، يجعل منه المغرضون علامة علىٰ عدم علاقة الفرس بالاسلام علاقة قلبية!

وليس اختلاف اللّغات مانعاً عن اعتناق الاسلام، بل ان ذلك من سبل تقدمه؛ اذ لكل لغة امكانياتها الخاصة، في مجال خدمة الاسلام والمسلمين، لا تحصل إلّا بها، وهذا من جملة ما حصل لهذا الدين من أسباب التوفيق والاطراد والتـقدم، حـيث اعـتنقته أُمـم مختلفة بلغات وثقافات متفاوتة، فخدمه كل قوم منهم علىٰ اختلاف لغاتهم.

---

١ ـ التنبيه والاشراف ص ٢٤٦ بيروت ١٣٨٨.

ولو كانت اللّغة الفارسية منذثرة تحت اللّغة العربية، لما كان لنا اليوم من آثار قيّمة، هي قمة الأدب الاسلامي: كالمثنوي ونظامي وسعدي وحافظ، ومئات من الآثار الاخرىٰ، مما تزخر بالمفاهيم الاسلامية والقرآنية، ومما ربط بين القرآن والاسلام وهذه اللـغة ربـطاً خالداً.

وما أفضل لو كانت هناك لغة أخرىٰ ما عدا العربية والفارسية، لتستطيع أن تقوم هي أيضاً ـ بما لها من خصائص خاصة بها ـ في خدمة الاسلام.

هذا أولاً.

وثانياً: نقول ونسأل: من هم الذين احيوا الفارسية ومن أحياها؟!.

فهل اٰحيىٰ الفرس هذه اللّغة أم كانت هناك عناصر غير فارسية أثرت في ترك سائر اللّغات وترجيح الفارسية بما لا مزيد عليه! وهل كان السبب في احـياء الفـارسية هـو الشعور القومي الفارسي والوطني؟! ام هو سلسلة من العوامل السياسية لاعلاقة لها بقومية الفرس أبداً؟!

وقد كان بنو العباس ـ وهم عرب ـ يحاولون اشاعة اللّغة الفارسية أكثر من الفـرس أنفسهم،وفقاً للشواهد التاريخية؛ وذلك لان سياستهم كانت ضدّ سياسة بني أُمية التي هي سياسة عربية مبنية علىٰ أساس تفوق العرب علىٰ غيرهم. ولهذا نرىٰ أن العنصريين من العرب اليوم يجلّون سياسة بنيأُمية وفي الوقت نفسه يـنتقدون سـياسة بـني العـباس المضادة للعروبة.

كان بنو العباس ضد العروبة وكل ما يوجب تفوق العرب علىٰ غيرهم، وذلك مخالفة لبني أُمية الذين كانت سياستهم مبنية علىٰ أساس القومية والعنصرية العربية. فكان بـنو العباس يؤيدون العنصر غير العربي، وكل ما يسبّب خروجهم عن سيطرة العرب عليهم.

ولهذا فهم أخذوا ينشرون اللّغة الفارسية و يناوئون اشاعة العربية بينهم!.

فقد كتب ابراهيم الامام مؤسس الاسرة العباسية الىٰ أبي مسلم الخراساني يقول!

«ان استطعت أن لاتدع أحداً يتكلم بالعربية فافعل، بل اقتل من لم يطعك في ذلك»[1].

---

١ ـ احاله الاستاذ المؤلف علىٰ الخطط المقريزية، من دون تعيين الموضع، وأنا لم أجده في مظانّه، فراجع.

ويقول المستر فراي في كتابه: «باعتقادي أن العرب هم ساعدوا بأنفسهم علىٰ اشاعة اللّغة الفارسية في المشرق، وأن هذه المساعدة العربية الحكومية هي التي سببت سقوط اللّغة السغُدية وغيرها، من اللهجات في تلك البلاد»[1].

وكتب المرحوم العلّامة الخياباني في ريحانة الأدب يقول: «حينما دخل المأمون العباسي الىٰ خراسان سنة ١٧٠ هـ وأخذ أفاضل تلك النواحي يتقرّبون اليه بمدحةً أو خدمة له، تقدم اليه أبو العباس المروزي ـ الذي كان ماهراً في اللغتين ـ بمدحه ملّمعه مخلوطة من الفارسية والعربية، وأنشدها أمام المأمون فوقعت منه موقع القبول وأجازه بألف دينار سنوياً، فرغب الفرس في هذه الطريقة الملمّعة، وسلكوا سبل الشعر والنظم الفارسي بعد ان كانوا قد تركوها[2].

و من ناحية اخرىٰ أن هناك كثيراً من الفرس الايرانيين المسلمين الذين لم يبدوا من أنفسهم أية رغبة في الفارسية: كالطاهريين والديالمة والسامانيين، الذين لم يسعوا في سبيل تقدم اللّغة الفارسية أي سعي، بينما نرىٰ أن الغزنويّين ـ وهم غير ايرانيين ـ هم الذين احيوا اللّغة الفارسية من جديد.

يقول المستر فراي: «نحن نعلم ان الطاهريين كانوا يودّون استعمال العربية في بلاطهم في نيشابور، وان بعض اولادهم اشتهر بفصاحته فيها»[3].

وقد نقلنا قبل هذا كلام هذا المستشرق في شأن عربية الديالمة، حيث نقل ان عضد

---

١ ـ نقلاً عن الترجمة الفارسية: ميراث باستاني ايران.

٢ ـ من أبيات هذه القصيدة قوله:

اى رسانيده به دولت فرق خود بر فرقدين	گسترانيده به فضل وجود بر عالم يَدَين
مر خلافت راتو شايسته، چومردم ديده را	دين يزدان راتو بايسته، چورخ را هر دو عيْن
كس بدين منوال بيش از من چنين شعري نگفت	مرزبان فارسي راهست بااين نوع بَيْن.
ليک از آن گفتم من اين مدحت توراتا اين لغت	گيرد از مدح وثناى حضرت توزيب و زَيْن.

كما في ريحانة الأدب ج ٧ ص ١٨٩ ط ٣ للمرحوم العلّامة الخياباني.

٣ ـ عن الفارسية: ميراث باستاني ايران ص ٤٠٣.

الدولة أمر بالكتابة بالعربية علىٰ صخور (پاسارگاد: تخت جمشيد).

وكان السامانيّون ـ كما قالوا ـ من نسل بهرام چوبين القائد الساساني المعروف، وكان هؤلاء من أحسن سلاطين ايران اسلاماً وعدلاً، وكانوا يكنون محبة شديدة الىٰ الشعائر الاسلامية.

وقد نقل المرحوم القزويني في مقدمة كتابه «أحاديث مثنوي» وهو يشرح التسرب التدريجي للأحاديث النبوية في جميع الشؤون العلمية والأدبية الاسلامية، نقل عن كتاب «الانساب» للسمعاني،انه كتب بشأن اسماعيل بن أحمد الساماني مؤسس الاسرة «السامانية» يقول:: «وقصصه في الغزو والعدل وحرمة أهل العلم وتقويتهم مشهورة معروفة»[1].

لم يحاول السامانيون ـ وهم فرس أقحاح ـ ان يشوقوا الفرس ويروجوا الفارسية ابداً، ولم يبدأ أي واحد من وزرائهم أية اهتمام بالفارسية كما كان الديالمة أيضاً.

بينما ترعرعت الفارسية ونضجت في بلاط الغزنويين، وهم أتراك سنة!.

وهذا كله يؤدي بنا الىٰ القول بأن هناك عوامل أخرىٰ غير العصبية القومية تدخلت في احياء وابقاء اللّغة الفارسية.

وقد كان الصفاريون يهتمون بالفارسية أكثر من غيرهم فهل كان هذا نوعاً من العصبية الفارسية ضد العربية؟ أم شيء وأمر آخر؟.

يقول المستر فراي: «لعل الصفاريين هم أول من اهتم باشاعة الفارسية الجديدة، وذلك: لان يعقوب بن الليث الصفار لم يكن يعرف العربية فكان ـ كما يروي المؤرخون ـ يود أن يمدح بلغة يفهمها بنفسه دون مترجم».

وعلىٰ هذا يكون السبب في عناية الصفاريين بالفارسية جهلهم بالعربية.

وبعد ان يتعرض المسترفراي لنهضة فارسية جديدة ممزوجة بالعربية علىٰ عهد السامانيين يقول «.. لم ينشأ الأدب الفارسي الحديث من ثورة علىٰ الاسلام أوالعربية، وان ما تضمّن الشعر الفارسي في ذلك العهد من مضامين زرادشتية يرتبط بالاسلوب

---

١ ـ الانساب للسمعاني: ج ٧ ص ٢٥ الهند.

السائد آنذاك، ولاينبغي أن يؤخذ ذلك علامة علىٰ ايمان اولئك الشعراء بالزرادشتية فقد اسف هؤلاء على ما فات دون ان يكون ذلك نابعاً من شيء سوىٰ عواطف ذات حساسية خاصة دون ايمان بما فات فيالقديم، بل لم يكونوا يراجعوا أو يفكرون في الرجوع الىٰ ذلك القديم، ان الفارسية الجديدة آنذاك كانت تزاحم العربية كلغة اسلامية اخرىٰ لامناوئة لها، اذ لانشك في أن الاسلام استغنىٰ في ذلك الوقت عن الاعتماد علىٰ العربية،اذ كان قد دخلت في الاسلام أُمم كثيرة، وأصبح الاسلام ذا ثقافة عالمية أممية، وكان للفرس في إدارة قسم من هذه الثقافة دور كبير ».

وكتب المستر فراي تحت عنوان « بدء الحياة الحديثة في ايران » في محاولة دراسة تأثير الكلمات العربية في اللغة الفارسية يقول: «للغة في استمرار بعض الثقافات أهمية أعظم من أثر الدين أو المجتمع، كما يصح هذا الأصل بالنسبة إلىٰ الثقافة الفارسية الايرانية ، ذا لايمكن التشكيك في علاقة الفارسية الساسانية مع الفارسية الاسلامية، مع أنهما ليسا شيئاً واحداً تماماً. والفرق الكبير بين هذين، هو ورود كثير من الكلمات العربية في الفارسية الحديثة، حيث قوّت هذه الكلمات اللغة الفارسية وجعلتها أكثر عالمية بينما لانجد لها ما يشبه ذلك على عهد الفارسية الأولىٰ (البهلوية) فحق أن العربية اغنت الفارسية الجديدة غناء كثيراً، مما جعلها قادرة علىٰ إنشاء أدب متفتح وخاصة في الشعر والنظم كما رأينا أن الشعر الفارسي بلغ أوج جماله وروعته في أواخر القرون الوسطىٰ. وقد نهجت الفارسية الجديدة نهجاً كان قواده جماعة من الفرس المسلمين الذين مهروا في العربية قبل أن يدخلوا حلبة الأدب الفارسي الجديد. وقد تفتحت الفارسية الجديدة في القرن التاسع الميلادي في شرقي ايران بالحروف العربية والكلمات العربية ونضجت في بخارى عاصمة سلسلة السامانيين ».

ويقول المستر فراي في شأن تأثر الشعر الفارسي بالعروض العربي:

«وقد مزج الشعراء الفرس الجدد الطرق الشعرية الفارسية القديمة بالتفاعيل العربية فأبتدعوا منها بحوراً كثيرة. ولعل أحسن وأقدم نموذج لذلك هو «شاهنامه الفردوسي »

الذي بنىٰ شعرها علىٰ بحر المتقارب العربي »[1].

وأمّا المذهب الشيعي

أظهر الفرس منذ اختيارهم الدخول في الاسلام في سالف الأيام علاقة ومحبة لأهل البيت النبوي الطاهر، أكثر من غيرهم.

وقد حاول بعض المستشرقين أن يشككوا بصدق هذه العلاقة والمحبة، بل قالوا انها نوع من ردّ الفعل الذكي أمام الإسلام الرسمي أو قل العرب، وذلك من أجل احياء دينهم القديم!.

وقد أصبح تشكيك هؤلاء مستمسكاً جيداً لطائفتين:

١ ـ لمتعصب من المسلمين يتمسك بهذه الدعاوىٰ في اتهام الشيعة بأنها فرقة سياسية غير مخلصة للاسلام ومن هنا يتهجم علىٰ أصل مذهب التشيّع. كما فعل الدكتور أحمد أمين المصري في كتابه «فجر الإسلام» مما جعل العلّامة الفقيد الشيخ محمّد الحسين آل كاشف الغطاء يكتب «أصل الشيعة وأصولها » للردّ عليه.

٢ ـ أو لقومي عنصري ايراني، يمجد المسلمين الايرانيّين الأوائل الذين استطاعوا بانحيازهم إلىٰ مذهب مستقل أن يحفظوا استقلالهم الوطني، ومذهبهم السياسي الوراثي القديم. كما فعل الدكتور «پرويز صانعي » في كتابه «قانون وشخصيت »[2]. ففي بحثه حول جمود التاريخ في المدارس وسذاجته ضرب مثلاً يقول: «... كانوا يعلموننا أن الخلاف بين الشيعة والسنة هو في: أننا – نحن الايرانيين نؤيد علياً[عليه السلام] ونعده الخليفة الاول لرسول الاسلام بينما يعده السنة رابع الخلفاء...وان هذا التحليل للخلاف بين الشيعة والسنة يصور الخلاف بصورة غير ذات أهمية، فضلاً عن أن يكون منطقياً معقولاً!. وفي غضون سنين بعد أن تجاوزنا مرحلة الدراسة الثانوية،

وعلىٰ أثر المطالعات المختلفة، عثرت علىٰ ما أعتقد به الآن: من أن ظهور التشيع من

---

١ ـ عن الفارسية: ميراث باستانى ايران ص ٤٠٠ ـ ٤٠٢.

٢ ـ قانون وشخصيت ص ١٥٧ من منشورات جامعة طهران.

بدع الفكر الفارسي الآري الايراني! وذلك من أجل الحفاظ علىٰ استقلاله الوطني ومذهبه السياسي القديم حيث إن الامام الحسين [عليه السلام] اختار ابنة آخر ملك ايراني زوجة لنفسه، فكان ابنه علي بن الحسين عليه السلام ثم ابناؤه الأئمة من أبناء ملوك الايرانيين.. ومن هنا رضي بهم الفرس أئمة وسادة وقادة! يوالونهم ويتبرؤون من اعدائهم ! وهم بهذه العقيدة - أي الامامة - احتفظوا بحكومتهم الايرانية الملكية الوراثية ».

ومن المستشرقين: نجد الدكتور «كنت كوبينو» في كتابه الذي نشره منذ قرن تقريباً، باسم «الفلسفة والدين في آسيا الوسطىٰ » يربط عقائد الشيعة في الامامة بعقائد الفرس القديمة في ملوكهم الساسانيين، ويزعم: أن زواج الامام الحسين بن علي عليه السلام بـ«شهربانويه بنت يزدجرد الساساني » عامل مهم في دخول العقيدة الفارسية القديمة إلىٰ عقائد الشيعة في الامامة في ولد الحسين عليه السلام!.

وأيّد المستشرق الآخر: «ادوارد براون » فرضية «كوپينو» وقال: «وأنا أعتقد أن الحق مع كوپينو حيث يقول بأن الايرانيين كانوا يرون أن الملكية حق سماوي بل موهبة إلهية أودعت في اسرة الساسانيين الحاكمة. وقد كان لهذه العقيدة آثار عظيمة في مختلف أدوار التاريخ الايراني، وأخصّ بالذكر فأقول: إن مودّة الايرانيين لقربىٰ الرسول وأهل بيته والمذهب الشيعي كان من آثار هذه العقيدة؛ إذ مهما كان انتخاب الخليفة عند العربي متصفاً بالعدالة والديمقراطية، فانه غير طبيعي عند الايراني ولم يكن له أي أثر عنده إلّا النفرة من هذا الانتخاب ومن رجاله... وكان السبب في تذمّر الفرس من شخص الخليفة الثاني بالخصوص لكونه محطم الامبراطورية الفارسية العظمىٰ وبالرغم من ظهوره بمظهر التدين! ان الفرس يعتقدون أن الحسين بن علي عليه السلام تزوج شهر بانويه بنت يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين وعلىٰ هذا فهم يعتقدون بأن كلا فرقتي الشيعة (الامامية والاسماعيلية) ليستا ممثلتين لفضائل وحقوق قربىٰ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وحسب بل لهما حق الحكم أيضاً، وذلك لأن العرق الفاضل النجيب من كلا الطرفين: كسرىٰ وهاشم»[1].

---

١ ـ عن الترجمة الفارسية: تاريخ أدبيات ج ١ ص ١٩٥.

نعم؛ هكذا يحلّل بعض المستشرقين، وبعض الايرانيين المتأثرين بهم: حقيقة مذهب الشيعة وسبب ظهوره.

ان البحث حول هذا الموضوع يحتاج إلىٰ كتاب مستقل، ولكن لابد لنا هنا من ذكر بعض المطالب بالاجمال فنقول:

ان موضوع زواج الامام الحسين عليه السلام بـ«شهر بانويه» بنت يزدجر وولادة الامام السجاد عليه السلام من ملكة فارسية، وانتساب أبنائه الأئمة بها إلىٰ أسرة الساسانيين الحاكمة وفّر ـ كما شاهدنا ـ مستمسكاً بيد عدة من السوفسطائيين والمغرضين لاتهام الايرانيين بأن مودتهم لقربىٰ الرسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلم إنما هي من آثار انتسابهم إلىٰ الأسرة الفارسية الحاكمة! وأن عقيدة الشيعة بالحق الإلهي للأئمة عليهم السلام هي من بقايا العقيدة الفارسية القديمة القائلة بالجلال الرباني للملوكية الساسانية!.

ويقولون: بما أن الملوك الساسانيين كانوا يدّعون لانفسهم مقاماً سماوياً... وبما أن الائمة الأطهار عليهم السلام ينتهي نسبهم اليهم ولو من طرف الأم! وبما أن أكثر شيعتهم من الفرس، وبما أن الشيعة يعتقدون لهم بمقام إلهي سماوي... إذن: فالعقيدة بإمامة الأئمة الأطهار عليهم السلام جاءت من آثار تلك العقيدة الفارسية القديمة... وبهذه الصغريات والكبريات الصحيحة التامة مئه بالمئه! يصلون إلىٰ تلك النتيجة القطعية الصارمة.

وسنوضح هنا خواء هذه الكذبة المفتراة ببيان موجز، نقدم له فنقول:

هنا موضوعان يجب أن نفرق بينهما:

الموضوع الأول

إن من الطبيعي لكل أمة ـ ذات عقائد وأفكار دينية ـ قد غيرت عقيدتها واعتنقت عقيدة أخرىٰ: أن لاتتخلص من جميع عقائد الدين القديم وتقاليده وأن تدخل تعاليم ونزعات جديدة في دينها الجديد[1] ومن الممكن أن يكون معتنق الدين الجديد مخلصاً له غاية

---

١ ـ راجع فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٩٤ وص ٩٨ ـ المعرّب.

الاخلاص، وغير متعصب أو متعمد علىٰ الاحتفاظ بمعتقداته السابقة إلّا أنه وحيث لم ينسلخ فكره عن عقائده السابقة تماماً فانه يورد قليلاً منها أو كثيراً في مذهبه الجديد.

ولاشك في أن الامم التي أسلمت كان بعضها وثنياً والآخر مسيحياً أو يهودياً أو مجوسياً ومن الممكن أن تكون أفكارهم السالفة قد أثرت في معتقداتهم الإسلامية.

ومن المسلّم به أن الفرس أيضاً قد احتفظوا ـ لاشعورياً ـ ببعض عقائدهم القديمة بصبغة إسلامية. ومن المؤسف حقاً وجود بعض تلك الخرافات حتىٰ الآن بين بعض أوساط الفرس الايرانيين، من قبيل القفز علىٰ النيران ليلة آخر أربعاء من السنة الشمسية الفارسية والقسم بالنور الذي لاشك في أنه من بقايا آثار المجوسية القديمة.

ولاريب أن من الوظائف الإسلامية الابتعاد بالعقيدة الخالصة الإسلامية الطاهرة ـ وفق المقاييس الأساسية الإسلامية ـ عن كدر الأفكار الجاهلية.

فإذا أردنا أن نبحث في مسألة الامامة من هذه الناحية؛ كان علينا أن نرجع أولاً إلىٰ القرآن الكريم والسِنة القطعية للرسول الاكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم، لنعلم هل كان هذا الموضوع في الإسلام قبل أن تدخل فيه الأمم المختلفة؟ أم لا؟.

ونحن بالنظر إلىٰ القرآن الكريم والسنة القطعية للرسول الاكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم، نجد أنّ القرآن الكريم يؤيد صلاحية بعض عباد الله الصالحين لمنصب الامامة والولاية الإلهية... وأن الرسول الأعظم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم أكد صلاحية عترته الطاهرين لهذا المقام الأمين وعيّنه من قبل الله سبحانه لهم.

ونجد أيضاً أن لهذا كان في وعي الإسلام قبل أن يلتقي العرب المسلمون بسائر الأمم والشعوب، وقبل أن يتأثر بعضهم ببعض.

فمثلاً: هل لأحد أن يقول: إن هذه الآية الكريمة من القرآن قد تأثرت بنظرية الحق الإلهي الفارسي إذ يقول سبحانه: **﴿ان الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران علىٰ العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾**.

ولا يمكننا هنا أن نرد البحث من هذه الناحية ـ وان كان له مجال واسع ـ إذ ليس هذا من صميم موضوعنا. الذي يهمنا الآن هو التحقيق حول دعوىٰ بعض المستشرقين

وأتباعهم وأذنابهم الذين يقولون: إن مذهب الشيعة هو ردّ فعل جميل اخترعه الفرس أمام الإسلام؛ وأن الفرس إنما اختلقوا المذهب الشيعي لكي يحتفظوا تحت ستاره بعقائدهم القديمة التي كانوا يعتنقونها ويؤمنون بها.

الموضوع الثاني

ان بعض الأمم بعدما غُلب علىٰ أمرها سياسياً وعسكرياً احتفظت بعقائدها وأفكارها تحت ستاره كنوع من المقاومة ـ الفكرية ـ أمام الفاتحين.

يدّعي المستشرقون وأتباعهم وأذنابهم: أن الفرس اختاروا التشيع من مذاهب الإسلام مذهباً لأنفسهم ليحتفظوا تحت ستاره بعقائدهم القديمة. ونحن نريد أن نبحث في هـذا الموضوع من هذه الناحية بالذات... فنقول:

أوّلاً:

يرتبط هذا الموضوع بما بحثناه من قبل فيما إذا كان إسلام الفرس جـاءهم بـالرضا والرغبة أم بالعنف والجبر؟ فلو كانوا قد اجبروا علىٰ ترك عقائدهم السابقة وفرض الإسلام بدلها لكان يحق أن يقول: انهم اجبروا على ترك عقائدهم السابقة، فلا جرم انهم لجأوا الى هذه الحيلة المذهبية!. أما بعد التسليم بأنهم أُذن لهم أن يحتفظوا ببيوت نيرانهم، بل تعهد المسلمون لهم كسائر أهل الكتاب حينما دخلوا في ذمتهم أن يدافعوا عنهم ويحافظوا علىٰ معابدهم... وبعد التسليم بهذا كله فلا داعي للفرس إذن أن يتظاهروا بالإسلام نفاقاً وأن يحتفظوا بعقائدهم وأفكارهم تحت ستار التشيع أو غيره... أضف إلىٰ ذلك: إنا قد أثبتنا فيما سبق من هذا الكتاب: أن إسلام الفرس جاء بالتدريج، وأن نفوذ الإسـلام العـميق وسلطته الروحية علىٰ الفكر الفارسي كان في أدوار مـن التـاريخ حـصلوا فـيها عـلىٰ استقلالهم السياسي بالقوة.. فلا مجال إذن لهذه المفتريات والتهم.

ويعترف بهذا الأمر «ادوارد براون» نفسه في نقاط عديدة من كتابه، يقول:

«ان الفرس إنما تقبلوا الإسلام طوعاً ورغبة..» ويقول: «إن التحقيق حـول أنـتصار

الإسلام علىٰ دين زرادشت، اشكل وأصعب بكثير من التحقيق في استيلاء العرب علىٰ الأراضي من ممتلكات الساسانيّين » ثم يقول: « قد يتصور بعضهم: أن المسلمين المحاربين كانوا يخيّرون الامم المفتوحة بين اثنين: الإسلام والسيف؛ ولكن لا يصح هذا التصور الخاطِىء؛ إذ كان المجوس واليهود والنصارىٰ مسموحاً لهم الاحتفاظ بدينهم في مقابل دفع ضريبة مالية معينة تسمّىٰ «الجزية » وكان هذا في غاية العدالة والديمقراطية، إذ أنهم كانوا يعفون بازاء الجزية عن الاشتراك في الحروب والغزوات، وعن دفع الاخماس والزكوات التي كانت مفروضة علىٰ المسلمين»[1].

ثم يشرح جانباً من تدرّج انقراض المجوس في صفحتىٰ (٣٠٦ و٣٠٧) ويقول:

«ان ما وصلنا من أخبار اسلام الفرس، وان كان قليلاً، لكن الحقيقة التاريخية التي تعدّد لنا موارد متعددة من إسلام الفرس والتي تصل إلىٰ منتصف القرن الرابع الهجري، تدلّنا بوضوح علىٰ أن الفرس كانوا يتمتعون بروح التحمل والعفو عند مواجهة المسلمين الفاتحين، وهذا يدلنا علىٰ أن الفرس غيروا دينهم بالسلم والتدريج ».

ثم ينقل «ادوارد براون » عن كتاب «الإسلام » للمستشرق الهولندي الشهير «دوزي» قوله: «ان أهم أمة غيرت دينها إلىٰ الإسلام هم الفرس، فقد قوىٰ الإسلام واستقر بهم لا بالعرب! وهم الذين ظهر بينهم أحسن المذاهب الإسلامية وأجملها ».

ان ردّ فعل الفرس أمام الإسلام كان مليئاً بالاستقلال والترحيب الجميل إلىٰ حد لا يجعل مجالاً للقول بأن الشعور القومي والديني القديم جعلهم يحاولون إحياء عقائدهم القومية أو الدينية القديمة تحت ستار التشيع مثلاً.

وقد شرحنا فيما سبق عوامل هزيمة الفرس مع تلك القدرة والقوة والعظمة: فعددنا منها: كراهية شعب ايران لحكومته ودينه! نعم، إنّ شعب ايران كان قد ملّ منهم وسئم وكان علىٰ استعداد كامل للبحث عن ملجأ يلتجأ إليه من شرّ حكومته ودينه! وكان منفتحاً للاصغاء إلىٰ صوت العدالة والحقيقة ليسمعه ويسرع إليه ويتبعه. وليس التفافهم حول «مزدك» إلّا من أثر انزعاجهم وكراهيتهم لاوضاعهم وحياتهم.

---

١ ـ عن الترجمة الفارسية: تاريخ أدبيات ج ١ ص ٢٩٧.

وقد اشرنا قبل هذا أيضاً إلىٰ أن دين زرادشت كان قد بلغ في ايران من الفساد والانحراف وكراهية الناس له إلىٰ درجة بحيث لو فرضنا أن الإسلام لم يدخل ايران فاتحاً لسخرته المسيحية الرومانية.

وينقل «براون» عن المشتشرق الهولندي «دوزي» أيضاً قوله:

«كان في النصف الأول من القرن السابع الميلادي كل شيء يجري في مسيرته العادية في كلتا الامبراطوريتين العظيمتين: الروم الشرقية والدولة الفارسية، وكانت كل واحدة منهما مستمرة في نزاعها التقليدي مع الأخرىٰ حول السلطة علىٰ آسيا الغربية، وان كانت كل واحدة منهما ـ بحسب الظاهر ـ تجري في مسيرتها العادية في طريق الرقي والتقدم والعمران وتجبىٰ إلىٰ خزائن ملوك هاتين الدولتين مبالغ طائلة من المكوس والضرائب، وكان ترف كل من عاصمتي المملكتين مضرباً للأمثال، إلّا أنّ وزر الحكم الاستبدادي أثقل كاهل كل من البلدين، بحيث أصبح تاريخ ملوك كل من الدولتين مليئاً بظلم الجماهير، والاعتداء علىٰ حقوقها وكانت هذه السنة الظالمة في الدولتين نتيجة للخلافات التي تفشت بالشعبين باسم الدين!.

وفي هذه الظروف بالذات، ظهرت علىٰ مسرح الحياة أمة جديدة، كشفت محيّاها للناس من أوساط الصحاري الحجازية غير المعروفة، وهي من القبائل العديدة التي كانت حتىٰ ذلك الحين متفرقة مختلفة متحاربة فيما بينها، ولكنها تجمّعت واتحدت لأول مرة يومئذ، فبرزت إلىٰ الوجود خير أمة متحدة متفقة تحب الحرية حباً شديداًوتلبس ملابس بسيطة وتأكل مأكلاً عادياً نجيبة كريمة، نشطة ذكية، مرحة وفي الوقت نفسه كانت ذات قوة وغضب، وإذا شب نار غضبها فهي حقودة عنودة ظالمة أيضاً!

فهذه الامة هي التي أطاحت بالامبراطورية الفارسية القديمة العزيزة! ولكنّها البالية الفاسدة أيضاً وذهبت بأجمل مستعمرات خلفاء قسطنطين وحطّمت الدولة الالمانية الفتية، وهددت سائر دول أوربا القديمة وقد بلغت جيوشها الفاتحة من الشرق إلىٰ سلسلة جبال همالايا.

إلّا أن هذه الامة لم تكن تشبه سائر الأُمم الفاتحة، لانها كانت قد أتت بدين جديد

تدعو إليه الأمم، وكان هذا الدين علىٰ خلاف الثنوية الفارسية والمسيحية الرومية المنحطة كان توحيداً طاهراً خالصاً، فآمن به ملايين من شعوب الأمم المفتوحة، حتىٰ أصبح الإسلام اليوم دين عشر البشر تقريباً».

ويبحث «ادوارد براون » في كتابه حول «اوستا» وهل ان اوستا الحقيقية باقية إلىٰ اليوم أم زالت؟ فيقول:

«ان أوستا تتضمن عقائد شخصية شهيرة هي «زرادشت» وتحتوي علىٰ أحكام الدين القديم. وكان هذا الدين قد لعب دوراً هاماً في تاريخ العالم في حينه، ومع أنه لم يبق منه الآن أكثر من «عشرة آلاف في ايران » و «تسعين ألفاً في الهند » فقد كانت له في سائر الاديان الهامة آثار كبيرة وعميقة.

ومع هذا لانستطيع القول في وصف أوستا: بأنه كتاب يحظىٰ بالقبول. صحيح ان أكثر عباراته مشكوكة وأكثر تفسيراته مردّدة، ولعلنا إذا أدركنا مفاهيمها ومعانيها تجلىٰ لنا بقدر أكبر من الاهمية لكن استطيع ان اجزم: انني متىٰ طالعت القرآن الكريم أكثر، وجهدت نفسي في سبيل ادراك روح القرآن أكثر، عرفت قدره ومنزلته أكثر... بينما البحث والقراءة في اوستا مملة ومتعبة، اللهم إلّا أن يكون القارىء بصدد معرفة تاريخ الانسان واساطيره، أو امور تطبيقية أخرىٰ »[1].

ان ما يعبر «ادوارد براون » عن رأيه يجب ان يقول عن لسان جميع الفرس آنذاك أيضاً حيث تركوا أوستا قرناً فقرناً، ودخلوا في دين الله فوجاً فوجاً! ان ترك الفرس لاوستا وانضمامهم تحت لواء القرآن الكريم أمر طبيعي للغاية، ولم يكن هناك أي دافع يدعوهم إلىٰ أن يحتفظوا بما تعلموه من اوستا أو ما اعتادوه مما كانوا يقومون بها لملوكهم كرهاً، كي يعملوا بها تحت ستار من مذهب التشيع...

ثانياً:

ان «يزدجرد» حين لم يستطع مقاومة المسلمين وهو في عاصمة ملكه، خرج منها

---

١ ـ عن الترجمة الفارسية: تاريخ أدبيات ص ١٥٥.

ببلاطه وحرمه، ومعهم ألف طباخ، وألف مشاط، وألف مغَن، وألف رقاص، وجماعة كبيرة من الخدم، وهو مع ذلك حسبهم قليلين[1].

وكان يفر من بلد إلىٰ بلد ويستجير بأهل البلدان من الفرس، وهم لا يجيرونه علماً أنهم لو أرادوا أن يحموه ويقاوموا معه العسكر الفاتح لاستطاعوا حتماً... حتىٰ انتهىٰ إلىٰ خراسان، وقد خابت ظنونه وآماله فيها أيضاً. فلجأ إلىٰ طحان أو حارس الحدود فقتله!.

وهنا نقول: كيف لا يجير الفرس يزدجرد نفسه، ثم يكرمون أهل البيت عليهم السلام ويجعلونهم في شغاف قلوبهم وينشرون بين أيديهم أغلىٰ عواطفه، أكل ذلك لقرابتهم من يزدجرد الذليل المُهان المخذول، لا من رسول الإسلام؟!.

ثالثاً:

نفترض أن الفرس كانوا مجبرين ـ كما يتهمونهم ـ علىٰ كتمان عواطفهم، فكانوا يخرجونها تحت ستار التشيع. فلماذا حينما ارتفع عنهم هذا الجبر والاكراه، وحصلوا علىٰ استقلالهم السياسي بعد قرنين فقط، لم يهتكوا هذا الستار ولم يتظاهروا بعواطفهم كما يشاؤون بل هم كلما تطاول عليهم الأمد تعمقوا في الإسلام راسخين، وتناسوا عهودهم الغابرة غير آسفين؟!.

رابعاً:

يعلم الله ويعلم كل شيعي فارسي: أنه ليس لشهر بانويه عندنا مقام أرفع ولا أعلىٰ من سائر أمهات الأئمة الاطهار، وهنّ: من العرب، والروم والمغرب، البربر، وافريقية.. فأي شيعي فارسي أو غير فارسي يحس في قرارة قلبه لأم الامام زين العابدين عليه السلام كرامة أكثر من سائرهن؟! بل ان من المسلّم المقطوع به أن احترام «السيدة نرجس الرومية» أم الامام المهدي عجل الله فرجه أكثر عندنا من احترامنا لشهر بانويه الفارسية الساسانية الايرانية!.

---

١ ـ عن الترجمة الفارسية: ايران در زمان ساسانيان ص ٥٢٨ للمستشرق: كرستين سن.

خامساً:

وإذا تعمقنا في بحث قصة زواج الإمام الحسين عليه السلام بشهر بانويه من الناحية التاريخية ـ لبدت قصة مشكوكاً في صحتها من الاساس.

إن قضيّة ارجاع حب الفرس للأئمة الأطهار عليهم السلام إلىٰ انتسابهم إلىٰ أسرة الساسانيين، من الناحية التاريخية، تشبه قول من قال: افترس الذّئب الامام يعقوب علىٰ منارة في البصرة! فاجابوه: انه لم يكن يعقوب بل يوسف، ولم يكن في البصرة بل في مصر، ولم يفترسه الذّئب بل كذب عليه اخوته بذلك.

إن قصة أن يكون ليزدجرد ابنة باسم «شهر بانويه» أو أي اسم آخر، وانها تكون قد نالت فخر الزواج بالإمام الحسين عليه السلام، وولدت له الامام السجاد عليه السلام، مشكوكة من الناحية التاريخية شكاً شديداً. إذ أنّ عامة المؤرّخين لم يذكروا في هذا الصدد شيئاً قط، اللهم إلّا ما أثبته اليعقوبي فقال: «كانت أمه «حرار» بنت يزدجر كسرىٰ، وذلك أن عمر بن الخطاب لما أتىٰ بابنتي يزدجرد، وهب إحداهما للحسين بن علي عليه السلام، فسمّاها: غزالة»[1].

ولذلك نرىٰ أنه لايعتمد علىٰ هذه القصة حتىٰ «ادوارد براون» نفسه! ويشكك فيها «كريستين سن» ويعدها السيد سعيد النفيسي في كتابه، من الاساطير! وإذا فرضنا أن الفرس قد وضعوا هذه القصّة للغرض المذكور، فإنما يحتمل هذا الفرض فيما بعد مئتي سنة من أصل القضية أي فيما يقارن الاستقلال السياسي لايران من السلطة العباسية وهذا إنما كان بعد ظهور التشيع بمئتي عام أيضاً. إذاً كيف يمكن أن يكون تشيع الفرس مسبباً عن أسطورة ولادة الأئمة الاطهار من سلالة ملوك الفرس؟!.

هذا من ناحية تاريخية.

ومن ناحية الأحاديث:

فقد ورد هذا في بعض الأحاديث أيضاً:

---

١ ـ اليعقوبي ج ٢ ص ٥٠ ط نجف.

منها: ما في «الكافي»: عن إبراهيم بن إسحاق الأحمري النهاوندي، عن نصر بن مزاحم، عن عمرو بن شمر، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «لمّا أقدمت بنت يزدجرد علىٰ عمر... فقال له أمير المؤمنين عليه السلام... خيّرها رجلاً من المسلمين واحسبها بفيئه. فخيّرها، فجاءت حتىٰ وضعت يدها علىٰ رأس الحسين عليه السلام»[1].

وفضلاً عن عدم توافق مضمون هذه الرواية مع الواقع التاريخي نقول: في سند هذه الرواية رجلان لايمكن الاعتماد عليهما؛ أحدهما: إبراهيم بن إسحاق الأحمري النهاوندي، الذي اتهمه علماء الرجال في دينه، وعدّوا رواياته مما لايمكن الاعتماد عليها، فقد قال النّجاشي: «كان ضعيفاً في حديثه متهوما»[2].

والآخر: عمرو بن شمر، الذي قال فيه النّجاشي أيضاً: «ضعيف جداً، زيد أحاديث في كتب (جابر الجعفي) ينسب بعضها إليه، والأمر ملتبس»[3].

ولا أدري ما إذا كانت سائر الروايات من هذا القبيل أم لا؟ فالموضوع بحاجة إلىٰ تحقيق أكثر[4].

سادساً:

إذا كان الفرس يحترمون الأئمة الأطهار لانتسابهم إلىٰ أسرة الساسانيين، كان يجب ان يقولوا بمثله للأسرة الأموية أيضاً، إذ حتىٰ الذين ينكرون وجود ابنة ليزدجرد باسم شهربانويه يقولون: ان قتيبة بن مسلم عثر في عهد الوليد بن عبدالملك في أحد الحروب علىٰ «شاه افريد» حفيدة يزدجرد، فأسرها وبعث بها إلىٰ الوليد بن عبدالملك فتزوجها

---

١ ـ الكافي ج ١ ص ٤٤٦ ط طهران.

٢ ـ كتاب الرجال للنجاشي ص ١٤ ط الهند. وذكره العلامة الحلي (قده) في القسم الثاني من رجاله (الخلاصة) في الضعفاء فقال: «كان ضعيفاً في حديثه، متهماً في دينه، وفي مذهبه ارتفاع، وأمره مختلط. لا أعمل علىٰ شيء مما يرويه. وقد ضعّفه الشيخ في «الفهرست» ص ١٩٨ ط نجف. ـ المترجم.

٣ ـ كتاب الرجال للنجاشي ص ٢٠٤ ط الهند. وذكره العلامة أيضاً في القسم الثاني من كتابه الضعفاء، فنقل كلام النجاشي ثم قال: «فلا أعتمد علىٰ شيء مما يرويه» ص ٢٤١ ط نجف.

٤ ـ وقد كتب الدكتور السيد جعفر شهيدي كتاباً في ذلك بالفارسية «چراغ روشن در دنياى تاريك خرج من دراسته بتكذيب هذه القصه على كل الصعد – المترجم».

لنفسه، فولدت له «يزيد بن الوليد بن عبدالملك» الملقّب بالناقص. إذن فالخليفة الأموي يزيد الناقص كان ينتسب من طرف امه إلىٰ الملوك الفرس قطعاً.

فلماذا لم يتعاطف الفرس مع الوليد بن عبدالملك باعتباره صهر ملكهم، ولا مع يزيد الناقص علىٰ أساس انه وأولاده من أحفاد الساسانيّين؟ مع انهم احبّوا الامام الرضا عليه السلام ـ مثلاً ـ لانه ينتهي في جدّه السادس إلىٰ يزدجر!.

لو كان للفرس مثل هذه العواطف القومية لوجب عليهم أن يحترموا عبيدالله بن زياد احتراماً! لان عبيدالله فارسي من جهة امه قطعاً! وان كان أبوه رجلاً مجهول النسب، ولكنّ امه «مرجانة» أو «مهرگان» بالفارسية من فارس شيراز، تزوجها زياد حينما كان والياً علىٰ فارس.

فلو كان للفرس عواطف قومية بلغت بهم إلىٰ أن رفعوا الأئمة لانتسابهم إلىٰ الأسرة الفارسية الحاكمة إلىٰ ذلك المقام الرفيع ـ كما زعم هؤلاء ـ فلماذا استصغروا إلىٰ مدىٰ بعيد «مرجانة» الفارسية قطعاً وابنها عبيدالله الفارسي من جهة امه؟!.

سابعاً:

إنما تحتمل هذه التهمة إذا كان الشيعة ايرانيين فقط، أو كانت الفرقة الأولىٰ من الشيعة فارسية علىٰ الاقل، أو كان جميع الذين أسلموا من الفرس أو أكثرهم ـ علىٰ الأقل ـ اختاروا مذهب التشيع من أوّل الأمر... بينما لم نجد للفرس جذور في التشيع (سوىٰ سلمان الفارسي (ـ رض ـ) وان أكثر الذين أسلموا من الفرس ما اختاروا مذهب التشيّع من أول الأمر، بل أن أكثر علماء المسلمين الايرانيين في التفسير والحديث والكلام والادب من السنة لا من الشيعة بل لقد كان بعضهم من المتعصبين ضد التشيع بشده، وأن هذا الأمر استمر بهم إلىٰ ما قبل الدولة (الصفوية) فان أكثر بلدان ايران إلىٰ عهدهم كانوا سنة لا شيعة[1] وكان الفرس ـ كسائر المسلمين ـ يسبّون أميرالمؤمنين علياً عليه السلام

---

١ ـ الدكتور كامل مصطفىٰ الشيبي: الفكر الشيعي ص ٤١٥. والدكتور النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٢ ص ٥٤٠. والدكتور محمد العزاوي: فرقة النزارية ص ١٩٧. والدكتور علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج ١ ص ٥٩ ـ المترجم.

علىٰ منابرهم ومنائرهم بتأثير من دعايات الأمويين، حتىٰ قيل ان بعض مدن ايران قاومت منع عمر بن عبدالعزيز من ذلك فأصرت علىٰ سبّه عليه السلام[1].

وإن أكابر علماء السنة إلىٰ ما قبل عهد الصفوية كانوا من الفرس، من المفسرين و الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والادباء واللغويين والفلاسفة وغيرهم.

فكان أبو حنيفة ـ الإمام الاعظم ـ فارسياً، والبخاري صاحب الصحيح أكبر محدثي السنة فارسياً أيضاً، وسيبويه إمام النحويين فارسياً، والجوهري صاحب كتاب الصحاح في اللغة فارسياً والفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط في اللغة فارسياً، والزمخشري اكبر واقدم المفسرين فارسياً، وأبو عبيدة وواصل بن عطاء من المتكلمين كانا فارسيين... وهؤلاء كلهم من علماء السنة... وهكذا كان أكثر علماء ايران وأكثر الفرس سنة.

الإسلام يتغلب علىٰ العصبيات

ومن العجيب: ان الشعوب الإسلامية كانت ـ غالباً ـ تتبع فتاوىٰ علماء يختلفون معهم من حيث القومية! فالمصريون ـ مثلاً ـ كانوا يتبعون فتاوىٰ الليث بن سعد الفارسي! بينما كان أكثر الفرس يتبعون الشافعي العربي! وكان بعض علماء ايران كإمام الحرمين الجويني والغزالي والطوسي يتعصّبون للشافعي علىٰ أبي حنيفة كثيراً، وحينما تشيع الفرس بعد هذا تقلدوا إمامة الأئمة الاطهار عليهم السلام وهم هاشميون من قريش!.

وهكذا نرىٰ في فتاوىٰ هؤلاء العلماء ـ علماء المذهب ـ فتاوىٰ تشعر بطغيان الإسلام علىٰ العصبيات العنصرية عندهم! مما قد يوجب الحيرة بالنسبة إلىٰ العصبية القومية و العنصرية!.

فأبو حنيفة ـ مثلاً يرىٰ في باب النكاح، في مسألة الكفاءة: أن العجم ليسوا اكفاء للعرب

---

١ ـ وهذا ما يحدثنا به أبو بكر الخوارزمي في بعض رسائله التي بعث بها إلىٰ جماعة من الشيعة بنيسابور، يعدد فيها ما جرىٰ من المحن والمظالم علىٰ آل البيت عليهم السلام ويقول: ونسأل الله أن لايحشرنا علىٰ نصب اصفهاني! ولا علىٰ بغض لآهل البيت طوسي او شاشي » ـ كما في كتاب: حاضر العالم الإسلامي عن رسائل الخوارزمي ج ١ ص ١٩١ ـ المترجم.

! وان العجمي لايجوز له ان يتزوج امرأة عربية! بينما لايقول سائر الفقهاء ـ ومنهم مالك بن أنس وسفيان الثوري العربيان ـ بأي تفاوت في الكفاءة بين العرب والعجم![1].

ويروي هذا الاختلاف العلامة الحلي (قده) وهو من كبار فقهاء الشيعة في كتابه «تذكرة الفقهاء» وينقل فيه فتوىٰ أبي حنيفة، ثم يعلّق عليها فيقول «وعندنا نحن أن النسب لا اعتبار به بل يجوز لوضيع النسب أن يتزوج بشريفة، حتىٰ ان العبد يجوز أن يتزوج بالعلوية الشريفة وهو أحد قولي الشافعي ـ لعموم قوله تعالىٰ: « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » و ماروا العامة: أن سلمان الفارسي طلب إلىٰ عمر فأجابه الى ذلك، فكره ابنه عبدالله ذلك فقال له عمرو بن العاص: انا أكفيك.فلقى عمرو بن العاص سلمان فقال: ليهنك يا سلمان! فقال: وما هو؟ قال: تواضع لك أمير المؤمنين! فقال سلمان: ألمثلي يقال هذا؟ والله لانكحتها أبداً. وسلمان كان من العجم فاجابه عمر إلىٰ التزويج وابن عمر لم ينكره بل كرهه. ومن طريق الخاصة: ماروا عمار عن الصادق عليه السلام ان رسول الله زوج ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب من مقداد بن الأسود، فتكلمت في ذلك بنو هاشم، فقال رسول الله: اني إنما اردت أن تتضع المناكح. وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام: ان رسول الله زوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب، وإنما زوجه لِتَتَّضِعَ المناكح، وليتأس الناس برسول الله صلّىٰ الله عليه وآله، وليعلموا أن أكرمهم عند الله اتقاهم. مع ان ضباعة بنت عمته والمقداد بن عمر الأسود عامي اجماعاً»[2].

ان فتوىٰ أبي حنيفة غريبة، ولعلها نشأت من عدم اطلاعه علىٰ بعض الأمور. إلّا أننا نستطيع أن نفهم من تعصب علماء الفرس للشافعي العربي علىٰ أبي حنيفة الفارسي أن العصبية القومية كانت قد فقدت قوامها في تلك العصور بين علماء المسلمين.

ونقل الفقهاء، في كتب الفقه في هذا المورد قصة تحكي لنا مدىٰ عصبية العرب بالنسبة إلىٰ غيرهم من ناحية، وتغلب الإسلام عليها من ناحية أخرىٰ، فقد روىٰ الشيخ الطوسي

---

١ ـ الزيلعي ٢: ١٢٨ و١٢٩ وبداية المجتهد لابن رشد ج ٢ ص ٣ و ص ١٢ والفقه علىٰ المذاهب الاربعة ج ٤ ص ٥٥ والخلاف في الفقه ج ٢ ص ١٤٩ ـ ١٥١ ـ المعرّب.

٢ ـ تذكرة الفقهاء ج ٢ ص ٦٠٤ طبعة قديمة.

(قده) في كتاب (الخلاف في الفقه) مايلي:

«وروي: أن سلمان الفارسي خطب إلىٰ عمر فاجابه إلىٰ ذلك، فكره عبدالله بن عمر ذلك فقال له عمرو بن العاص: أنا اكفيك. فلقي عمرو بن العاص سلمان الفارسي فقال: ليهنك يا سلمان! فقال: وما هو؟ فقال: تواضع لك أميرالمؤمنين! فقال سلمان: لمثلي يقال هذا؟! والله لانكحتها أبداً. وسلمان كان من العجم فأجابه عمر إلىٰ التزويج، وابن عمر لم ينكر بل كرهه»[1].

تشيّع الفرس

إن أكثر الفرس تشيعوا منذ عهد الصفوية وما بعده، ولا أريد بهذا أن أقول إن التشيع لم يعرف في ايران إلّا في العهد الصفوي، إذ لاشك في ان ايران كانت منذ صدر الإسلام أصلح تربة لبذرة التشيع من أي مكان آخر، وأن التشيع لم يشع في أي نقطة أخرىٰ مثل ما شاع وذاع في ايران، وأنه كان كلما مرّ الزمان تهيأت الروح الفارسية لقبول التشيع أكثر من ذي قبل، وأنه لولا وجود جذور التشيع في اعماق الروح الفارسية لما استطاع الصفويون إشاعة التشيع في ايران عند تسلمهم ازمة الحكم...

والحقيقة: أن سبب اسلام الفرس وتشيّعهم هو شيء واحد فقد رأىٰ الفارسي الإسلام منسجماً مع روحه الحية، ووجد فيه ضالّته المنشودة. إنّ شعب ايران الذي كان بطبعه عاقلاً فهماً، وكانت له جذور حضارية وثقافية، اشتاق إلىٰ الإسلام أكثر من أية امة أخرىٰ فدخل فيه، بل طفق يخدمه أكبر خدمة ممكنة.

إن الحقيقة التي استطاعت أن تجتذب الروح الفارسية إلىٰ الإسلام أكثر من أي شيء آخر لهي المساواة والعدالة في الإسلام، إذ كان الفارسي قد حرُم منهما منذ قرون، فكان في انتظارهما أشد الانتظار... ولقد رأىٰ أن أعدل المسلمين العرب وادعاهم إلىٰ العدل و المساواة مع سائر المسلمين بدون أية عصبية بل بعاطفة رحيمة إنما هم أهل البيت عليهم السلام، إذ كانوا ملاذ العدل ومعهده في الإسلام وخاصة بالنسبة إلىٰ المسلمين غير العرب.

---

١ ـ الخلاف في الفقه ج ٢ ص ٣٦٨ ط دار المعارف الإسلامية، بقم المقدسة.

إننا لو ألتفتنا قليلاً إلىٰ تلك العصبية العربية التي كانت تمارس من جانب الخلافة الرسمية بين العرب وغيرهم، ودفاع الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام عن المساواة في الاسلام بين العرب وغيرهم... لتجلّت لنا هذه الحقيقة.

فقد نقل المجلسي (قده) في الجزء التاسع من «البحار» في باب أحوال سائر أصحابه عليه السلام عن «الكافي» للشيخ الكليني ٣٢٩ هـ آخر باب النوادر من كتاب المعيشة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أتت الموالي أميرالمؤمنين فقالوا: نشكوا إليك هؤلاء العرب ؛ ان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم كان يعطينا معهم العطايا بالسّوية وزوّج سلمان وبلالاً وصهيباً، وأبوا علينا هؤلاء وقالوا: لانفعل! فذهب إليهم أمير المؤمنين عليه السلام فكلمهم فيهم، فصاح الاعاريب: أبينا ذلك يا أبا الحسن أبينا ذلك! فخرج وهو مغضب يجرُّ رداءه وهو يقول: يا معشر الموالي ان هؤلاء قد صيّروكم بمنزلة اليهود والنصارىٰ؛ يتزوجون إليكم ولا يزوجونكم ولا يعطونكم مثل ما يأخذون فاتّجروا بارك الله لكم، فانّي سمعت رسول الله يقول: الرزق عشرة أجزاء تسعة اجزاء في التجارة وواحد في غيرها»[1].

وروىٰ سليم بن قيس الهلالي الكوفي التابعي في كتابه ضمن كتاب كتبه معاوية بن أبي سفيان إلىٰ زياد بن سمية ما نصّه: «... وانظر إلىٰ الموالي ومن أسلم من الأعاجم فخذهم بسنة عمر ـ فان في ذلك خزيهم وذلّهم ـ أن تنكح العرب فيهم ولا ينكحونهم و أن ترثهم العرب ولا يرثونهم، وأن تقصربهم في عطائهم وأرزاقهم،وأن يقدموا في المغازي يصلحون الطريق ويقطعون الشجر، ولا يؤم أحد منهم العرب في الصلاة ولا يتقدم أحد منهم في الصف الأول إذا حضرت العرب إلّا أن يتموا الصف، ولا تولّ أحداً منهم ثغراً من ثغور المسلمين ولا مصراً من أمصارهم، ولا يلي أحد منهم قضاء المسلمين ولا أحكامهم، فان هذه سنة عمر فيهم وسيرته... » إلىٰ أن قال: «فإذا جاءك كتابي هذا فأذلّ العجم وأهنهم

---

١ ـ البحار ج ٩ ص ٦٣٨ ط حجر. وفي فروع الكافي ج ١ ص ٤٢٢ ومرآة العقول ج ٣ ص ٤٤١ والوسائل ج ١٤ ص ٤٦ ط طهران ـ المترجم.

وأقصهم ولا تستعن بأحد منهم ولا تقض لهم حاجة »[1].

بينما نرىٰ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حينما تحتكم إليه امرأة عربية علىٰ اعجمية فيحكم بالحق للاعجمية، فيرىٰ من العربية الاستنكار! يرفع بيديه قبضتين من تراب الأرض فيتأمل فيهما ويقول: إني لا أرىٰ فرقاً بين هاتين القبضتين! يشير إلىٰ قول رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله إذ قال: «كلكم لآدام وآدم من تراب، ليس لعربي علىٰ عجمي فضل إلّا بالتقوىٰ ».

وفي كتاب «الغارات » لأبي إسحاق إبراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي المتوفىٰ سنة ٢٨٣ هـ عن عبّاد بن عبدالله الأسدي قال: « كنت جالساً يوم الجمعة وعلي عليه السلام يخطب علىٰ منبر من آجر، وابن صوحان جالس. فجاء الاشعث فجعل يتخطّىٰ الناس، فقال: يا أميرالمؤمنين! غلبتنا هذه الحمراء علىٰ وجهك! فغضب علي عليه السلام وقال: من يعذرني من هؤلاء الضيّاطرة! يقيل أحدهم علىٰ حشاياه، ويهجر قوم لذكر الله، فيأمرني أن اطردهم فاكون من الظالمين! والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لقد سمعت محمّداً صلّىٰ الله عليه وآله يقول: ليضربنّكم والله علىٰ الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً »[2].

وفيه: «كان المغيرة الضبّي (أحد الرواة) يقول: كان علي عليه السلام أحدب إلىٰ الموالي وألطف بهم، وكان عمر أشد تباعداً منهم »[3].

وفي «معاني الأخبار » للشيخ الصدوق (قده) باسناده قال: قال رجل لابي عبدالله عليه السلام: ان الناس يقولون: من لم يكن عربياً (صلباً) أو مولىٰ صريحاً فهو (سفلي)! فقال عليه السلام: وأيّ شيء المولىٰ (الصريح)؟ فقال له الرجل: من كان أبواه مملوكين. قال: ولِمَ قالوا هذا؟ قال: لقول رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله مولى القوم من أنفسهم.فقال: سبحان الله! أما بلغك ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أنا مولىٰ من لا مولىٰ له، وأنا مولىٰ كل مسلم عربيّها وعجميّها. فمن والى رسول الله أليس يكون من نفس رسول الله؟!

---

١ ـ كتاب سليم بن قيس الهلالي الكوفي التابعي ص ١٠٢ ـ ١٠٤ النجف الأشرف. ـ المترجم.

٢ ـ الغارات ج ٢ ص ٤٩٨ ط طهران بتحقيق السيد جلال الدين المحدث الارموي حفظه الله.

٣ ـ نفس المصدر.

ثم قال: ايّهما أشرف؟ من كان من نفس رسول الله أو من كان من نفس اعرابيّ جلف بائل علىٰ عقبيه؟! ثم قال: من دخل في الإسلام رغبةً خير ممن دخل رهبة، ودخل المنافقون رهب، والموالي دخلوا رغبة »[1].

وفي تاريخ الإسلام كثير من أمثال هذه القضايا، مما يوضح لنا مسيرة التفرقة القومية والعنصرية التي كانت تجري بين المسلمين العرب وغيرهم في الإسلام، وكيف أن الائمة الأطهار عليهم السلام كانوا يدافعون عنهم ويناوئون هذه السياسة الأموية الجاهلية والتي كانت تنفر الناس عنهم، والتي كان دفاع الأئمة ومعارضتهم لها أيضاً كافياً في جلب حماية الفرس وهوايتهم إليهم.

اهانة باسم الدفاع!

واعجب من ذلك ومن كل شيء: انه قد ظهرت في الآونة الأخيرة جماعة شذّاذ يوجهون إلىٰ قوميتهم الفارسية اهانة كبيرة باسم الدفاع عنها:

فتارة يقولون: ان الامة الفارسية أرادت الدفاع عن حكومتها آنذاك وسلطتها ودينها بكل جدّ!. مع أنهم يقرّرون أنهم انهزموا بمالهم من القدرة والشوكة والعدّة والعدد البالغ (١٤٠) مليوناً أمام عدد لايزيد علىٰ (٥٠) ألفاً إلّا بقليل! ياله من عار وذل وصغار!.

وتارة اخرىٰ يقولون: إن الفرس إنما غيّروا دينهم وعقيدتهم وإيمانهم خوفاً ورهبة! وهذا ان صح، فهم إذن أذل أمم العالم بما لايستحقون معه اسم الإنسانية؛ إذ أنهم لم يستطيعوا ان يحتفظوا بعقيدتهم القلبية أمام الأمة المنتصرة عليهم!.

وثالثة يقولون: ان الامة الفارسية لازالت حتىٰ اليوم تحت نير الاستعمار العربي ومعنىٰ هذا أن السيادة العسكرية وإن كانت لم تستمر علىٰ ايران أكثر من قرن واحد فقط، ولكن ظهر هذه الامة لازال منحنياً من سياط العرب منذ ذلك العهد البعيد! ويا لهذا من ضعف وهوان! ان الامم نصف الوحشية أخذت اليوم تقطّع سلاسل الاستعمار عنها سلسلة بعد أخرىٰ فتتحرّر، بعد ان كانت تحت نير هذا الاستعمار المحيط بها قروناً متطاولة... بينما

---

١ ـ معاني الأخبار للشيخ الصدوق ص ٣٨٥ ـ باب النوادر.

انهزمت امة كهذه الامة بمالها من جذور حضارية وثقافية أمام أمة بدوية صحراوية، ثم لم تدم هذه الامة المنتصرة طويلاً حتىٰ فقدت قواها، لكن لم تـزل هـذه الامـة المـنهزمة تستوحش من تلك الهزيمة النكراء! ولذلك فهي لاتزال تقتبس الفكر والأدب وكل شيء من تلك الأمة المنتصرة يوماً ما وهي مرغمة!.

ورابعة يقولون: إن الفرس إنما تشيعوا لكي يحتفظوا ـ تحت ستار التشيع ـ بمعتقداتهم و آدابهم القديمة!. ومعنىٰ هذا أنهم طوال هذه المـدة المـديدة مـن الزمـان إنـما كـانوا يتظاهرون بالإسلام رياءً ونفاقاً وخداعاً ومكراً وحيلة، انهم وإنما كانوا يدعون الإسلام حتىٰ ملأوا به تاريخهم أكثر من أية امة أخرىٰ كذباً وزوراً! وانـهم إنـما كـانوا ولازالوا ولايزالون يقولون كذباً ويكتبون كذباً ويتظاهرون بالإسلام كذباً ويـصلون ويـصومون ويحجّون البيت الحرام كذباً طوال أربعة عشر قرناً من الزمان... يالها من خسة ودناءة!.

وخامسة يقولون: لم يكن السبب في انشداد هذه الامة إلىٰ الإسلام والتـضحية فـي سبيله هو اطلاع هذه الامة علىٰ سلسلة من الحقائق والمعارف الإسلامية، حيث وجدوا في الإسلام والتشيّع ما يتلاءم وينسجم مع روحهم، بل إنما السبب فـي ذلك هـو زواج الإمام الحسين عليه السلام بابنة الملك الفارسي المنهزم! ومعنىٰ هذا: أن هذه الأمة إنما غيّرت مسيرتها في التاريخ علىٰ أثر تغيير أسرتها الحاكمة مسيرتها في التاريخ هذا الزواج المزعوم!. ياله من خواء وضياع!.

وسادسة يقولون: ان الفرس أرادوا أن يدافعوا عن حكومتهم آنذاك، ولكنهم رجحوا أن يسحبوا أنفسهم من ميدان المعركة فيقفوا إلىٰ جانب وقفة المتفرّج ليروا إلىٰ أين تـنتهي عواقب الأمور!. ياله من هوان وفقدان غيرة!.

ونحن ان وافقنا هؤلاء الكتاب المحدثين، كانت الامة الفارسية ـ كما يقول هؤلاء ـ أهون أمم العالم وشعوبه؛ وذلك لانها ـ كما يزعمون ـ تركت خطّها واتخذت الخط العربي خوفاً! واهتمت باللغة العربية أكثر من لغتها هي، فألفت لها الكتب ونظمت لها القواعـد والقوانين خوفاً! وعلمت أبناءها العربية عوضاً عن الفارسية خوفاً! وادخلت المـفاهيم الإسلامية في أدبها الفارسي خوفاً! وتركت دينها ودخلت في دين الله أفواجاً خوفاً! ولم

تدافع عن حكومتها المحبوبة لديها خوفاً! ولم تـدافـع عـن ديـنها المـحبوب خـوفاً! وباختصار: فان كل ما ظهر في تاريخ هذه الامة، طوال أربعة عشر قرناً من الزمان إنما كان ـ كما يقول هؤلاء ـ نفاقاً ورياءً وخوفاً وجبناً وخسة ودناءة! وان الشيء الذي لم يكن له أي وجود في تاريخ هذه الامة إنما هي المعرفة والاختيار وطلب الحقائق والايمان بها!.

نعم؛ هكذا يحطّم هؤلاء معنويات أمتهم من حيث يريدون ان يدافعوا عنها!.

والذي يقرأ هذا الكتاب يتبيّن له أن ما يقوله هؤلاء إنما هو افتراءات موجهة الىٰ الامة الفارسية، ويعلم أن هذه الامة إنما صنعت ما صنعت بمعرفة واختيار، وانها كانت صادقة وصريحة لا كاذبة ولا منافقة، وانها كانت شجاعة قوية لا خائفة جبانة، وانها كانت تتحرىٰ الحقائق ولا تتأثر بالحوادث العابرة، وانها كانت أصيلة لا خاوية... وأن الفارسي الايراني سيحافظ علىٰ علاقته هذه بالإسلام الصحيح، بل يحاول الانشداد إلىٰ الإسلام كل يوم أكثر من ذي قبل...

القسم الثاني

معطيات الإسلام لايران

موهبة أم فاجعة؟

في هذا القسم والذي يليه ، نبحث في معطيات الاسلام لايران والخدمات التي أسداها الفرس للإسلام.

فما هي المعطيات التي يقدمها دين او مذهب الىٰ امّة ما؟ ومن أيّ نوع هي؟

من البدهي أنها لا تكون كقضاء حاجة وقتية، كأن يرسل لها المدد في حربها مع اعدائها، أو أن يغدق عليها الطعام في قحط من السنين، او أن يؤسس لها المصانع والمعامل... بل هي من نوع الأساس بالنسبة الىٰ هذه الأمور. هي خلق ثورة مثمرة ومفيدة في افكارهم وارواحهم، وبتجديد اسلوب تفكيرهم في نظرتهم الواقعية، وبتحسين اخلاقهم وتربيتهم تربية سامية، وأن يضع عنهم اصرهم والاغلال التي عليهم من السنن والأنظمة البالية، وأن يبدلهم عنها بأنظمة حية وسنن يقظة واعية، وأن يعلمهم اهدافاً سامية وايماناً بها، وأن يوجد فيهم روح السعي وطلب العلم ونسيان الذات وخدمة الاخرين.. واذا حصل كلّ هذا فمن الطبيعي أن تتحسّن حياتهم الاقتصادية، وأن تنشط الأيدي العاملة فيهم وقواهم الانسانية، وأن تتفجّر فيهم الافكار العلمية والفلسفية والفنية والأدبية والثقافية والحضارية، وأن تتكامل الأمة في جميع شؤون ما يمكن أن يسمىٰ بالحضارة الانسانية.

واما ما يمكن أن تسديه الأمة من الخدمة الىٰ دين ما: فهو أن تسعىٰ في سبيل تبليغه والدعوة اليه ونشر ثقافته وتدوين افكاره وأن تهتم بتفهم مفاهيمه ثم بتفسيرها وتوضيحها للناس، وأن تخدم لغة ذلك الدين، وأن تعرّف سائر الأمم به، وأن تحامي عنه

بالنفس والنفيس، وأن تضحي في سبيله بكل ما تملك من حول وقوة، وأن تخلص له علىٰ جميع الأصعدة.

وسنبحث في هذا القسم من الكتاب حول القسم الأول من البحث (أي معطيات الاسلام لايران).. وسنتعرض للقسم الثاني اي (خدمات الفرس للاسلام) في القسم الثالث من هذا الكتاب.

والآن: ينبغي لنا أن نرىٰ: هل أن الإسلام خدم الأمة الفارسية الايرانية، وفقاً لما قدّمناه من المقاييس ـ أم لا؟!:

فهل أن الإسلام حرّر ايران من براثن السلطة الحاكمة الغاشمة الظالمة آنذاك، ثم نفخ روحاً حيّةً يقظة واعية في ضمير الانسان الفارسي الايراني، وغيّر مجرىٰ تاريخ ايران الىٰ مجرىٰ أحسن من سابقه، وفجّر ينابيع القوىٰ والاستعدادات الفكرية في شعوب هذه الامبراطورية؟؟

أم أن هذا الدين استعمر ايران (بالمعنىٰ المصطلح من الاستعمار) فأوقف الأفكار، وغيّر مجرىٰ تاريخ ايران، ولكن الىٰ مسيرة منحرفة عن مسيرتها الصاعدة الظافرة التي كانت من قبل، وضيّع تلك الحضارة الايرانية؟؟

وهل أن الإسلام سبّب في ظهور اعلام من ايران في عوالم العلوم والفلسفة والمعارف والفنون والصنائع والأخلاق اكسبهم سمعة حسنة وشهرة كبيرة في العالم؟

أم علىٰ العكس من ذلك كان مانعاًمن ظهور شخصيات علمية من ايران، ولو ظهر هؤلاء العلماء الايرانيون في العالم الإسلامي فليس ذلك بسبب أن الإسلام هيأ الأرضية المساعدة لتقدمهم في العلوم وظهورهم فيها، بل لم يكن للاسلام أي أثر في ظهور هذه الشخصيات من ايران، وان ظهور عظماء في ايران من امثال ابن سينا وابي ريحان البيروني والخواجه نصير الدين الطوسي، ليس إلا من اثر القريحة الفارسية الايرانية في هؤلاء، بل من تمردهم علىٰ الاسلام؟ وبالتالي هل كان الإسلام لايران موهبة أم فاجعة؟!

ممّا لاشك فيه حينما ظهر الإسلام علىٰ صعيد الحياة وشكّل تلك الحكومة الاسلامية وجمع مختلف الأمم والشعوب تحت لواء واحد باسم الإسلام، ظهرت علىٰ مسرح الحياة

حضارة عظيمة لم تكن تعرف من قبل، وقد عرفها التاريخ وعلم الاجتماع باسم الحضارة الاسلامية. وكانت تشترك و تساهم في هذه الحضارة امم مختلفة من آسيا وأفريقيا وحتى من اوربا .وكان الايرانيون من هذه الأمم المساهمة في هذه الحضارة، بل كان الحظّ الأوفىٰ والنصيب الأوفر والسهم الأكبر من هذه الأمة الايرانية، كما يتفق علىٰ هذا جميع ذوي الخبرة في هذا المجال.

فما هي الحقيقة ياترىٰ في هذه الحضارة؟ فهل هي كما يدل اسمها حضارة اسلامية؟ اي هل كان الإسلام هو العامل الأصيل والمحرك الأساس والموجد لهذه الحضارة الواسعة الأرجاء والمترامية الأطراف؟ ام هل كانت هناك عـلل وأسباب وموجبات وبواعث اخرىٰ، وأن كل امة من الأمم المساهمة فيها ـ ومنها الأمة الايرانية ـ ساهمت فيها وفي التمدن الإسلامي ببواعث ترتبط بجذورها الحضارية والمدنية في تاريخها الخاص بها؟.

ان التحقيق في هذا البحث التاريخي الاجتماعي والديني يستلزم أن نتصفح تاريخ ايران المقارن لظهور الاسلام، وان ندرس الأنظمة الفكرية والاعتقادية والاجتماعية والسياسية والعائلية والأخلاقية في ذلك العهد، فنقيس ذلك بما جاء به الإسلام وقدّمه للأمم المسلمة ومنها ايران، لنصل بهذه الدراسة الىٰ النتيجة الصحيحة.

ومن حسن الحظّ أن تاريخ الاسلام ومثله تاريخ ايران، حين ظهور الإسلام، من الوضوح بمكان يتيسر معه أن ندرك الحقيقة. وقد كثر البحث ـ كما نعلم ـ في النصف الاخير من القرن الأخير حول هذا الموضوع. وقد بدأ الأوربيون بطرح هذه المسألة لأول مرة، ولم يكن الايرانيون من قبل ـ كسائر أمم العالم ـ قد تعودوا علىٰ أن يفكروا في مثل هذه المسائل، وقد كثر البحث اليوم حول هذه المواضيع، الا أن المؤسف أن عصرنا هذا ـ أو علىٰ الأقل امتنا ـ لم تطو مراحل «الدعاية» الىٰ البحث العلمي... فهناك أناس يتحدّثون عن نعمة الإسلام لهذه الأمة كالببغاء بلا وعي؛ وهكذا في مقابل هؤلاء اناس يطرحون ما يقابل هذا المعنىٰ؛ فيقرّرون أن نفوذ الإسلام في ايران انما هو فاجعة لاموهبة! ولا يمر في هذا العصر يوم لاتكتب فيه صحيفة او مجلة او كتاب في هذا الموضوع، او لا تتحدث عنه

ابواق الراديو والتلفزيون. والأهم من هذا كله أن كتب المدارس الابتدائية والثانوية أيضاً تلقن طلبتها مطالب في هذا الموضوع!.

ونحن نريد أن ندرس هذا الموضوع دون أي تحيّز او تعصّب او تطرّف، بل بحياد علمي كامل. ونعتقد أن أرضية التحقيق في هذا البحث حاضرة وبسيطة. ومن حسن الحظّ بحث في بعض فروع هذه المسألة عدد من الاوربيين والايرانيين، ونحن نستند في كثير من كلامنا الىٰ ما بحثه وقال به اولئك السابقون.

نظريات

ومن أجل أن نعرض للقراء الكرام بعض النظريات التي وضعها اصحابها في هذا الصدد، نذكر نماذج منها:

نقل الدكتور معين في كتابه[1] عن مقال للدكتور تقي زادة بعنوان «التطورات الاجتماعية والمدنية لايران فيما مضىٰ» فقال:

«... جاء الاسلام... بدين جديد له مزايا واصول عادلة وقوانين منتظمة، وقد بعث انتشار الاسلام في ايران روحاً حيةً وقوية اثرت في حصول امرين آخرين في هذه الديار الايرانية:

احدهما: دخول اللغة العربية الثرية والغنية الىٰ اللغة الفارسية... فهذه اللغة حينما دخلت الىٰ ايران وامتزجت بالتدريج مع اللغة الآرية اللطيفة والطريفة ووجدت صيغتها الفصيحة الخاصة علىٰ لسان كبار الناطقين بها في القرون الرابعة والخامسة والسادسة الهجرية؛ توافرت لنا بذلك لغة تتّسع لبيان جميع المطالب العلمية والأدبية. وانّ سعدي وحافظ وناصر خسرو، خير مثال للناطقين بها في المجالات العلمية والأدبية.

وثانيهما: هي تلك العلوم والمعارف ونتاج الحضارات الغنية الرائعة التي انتشرت بين المسلمين العارفين باللغة العربية، ومنهم الايرانيون منذ اواسط القرن الثاني الىٰ أواخر القرن الثالث الهجري عن طريق ترجمة الكتب اليونانية والسريانية والهندية الىٰ اللغة

---

١ ـ مزديسنا وآدب پارسي، ص١٦ من الطبعة الثانية.

العربية في المشرق الاسلامي... وقلما بقي من كتب العلوم والفنون والآداب والحكمة اليونانية مما كان موجوداً في ذلك العهد ما لم يترجم الىٰ العربية...

ولقد كان من اثر هذه الترجمة العربية عن اليونانية، أن انتشرت الحكمة والعلوم والفنون بين أوساط الممالك الاسلامية خاصة ايران، مما أثّر في ظهور عشرات العلماء من أمثال ابن سينا والفارابي والبيروني والرازي وآخرون، ومعهم عشرات المئات من تأليفاتهم الهامّة (التي كان ٩٩٪ بالعربية) ومن هؤلاء تشكلت صورة الحضارة الاسلامية النيّرة منذ القرن الثاني وحتىٰ القرن السابع الهجري، التي كانت أرقىٰ وأعلىٰ حضارة في العالم بعد الحضارتين اليونانية والرومية...».

اكتفىٰ السيد تقي زادة في مقاله هذا بالقول بأن الإسلام بعث في الأمة الايرانية روحاً جديدة، ولم يبحث حول ما أخذه الاسلام من ايران وما وهبه لها حتىٰ وجدت هذه الروح علىٰ اثره في ايران. وسنحاول نحن في هذا الكتاب أن نوضّح هذا الموضوع الىٰ حدّ ما. اما السيد تقي زادة فقد اكتفىٰ بالقول بأن الإسلام «جاء... باصول عادلة وقوانين منتظمة» وهذا هو مما جاء به الإسلام ووهبه لهذه الأمة. ويصرح أيضاً: بأن الإسلام هو الذي مهّد سبل انفتاح افكار أدبية وحكمية وأخلاقية من قبيل ما نجده عند سعدي وناصر خسرو وحافظ، وانفتاح افكار فلسفية وطبية ورياضية من قبيل ما نراه عند ابن سينا والفارابي والرازي والبيروني وغيرهم.

وكتب السيد زين العابدين رهنما، في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم يقول:

«... ان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية، لمن اعظم الثورات في تاريخ الانسانية... بدأت هذه الثورة منذ أوائل القرن السابع الميلادي وشملت بالتدريج ـ في مدة قصيرة ـ جميع اراضي شبه الجزيرة العربية، ثم توجهت الىٰ الدول المجاورة لها والتي كانت تملك ارقىٰ الحضارات والمعارف الموجودة حينذاك. إنّ التغييرات والتطورات العميقة والمذهلة التي اوجدها الإسلام في مجتمعات تلك الأمم بعنوان السنن الدينية الجديدة لمن الالغاز العجيبة في حياة البشرية، فقد حطّمت كثيراً من عادات الحياة الجوفاء وخلقت عوضها علاقات حديثة كانت اقوىٰ من السلاسل الفولاذية!. انّ هذه الثورة التي

نسميها الحضارة الإسلامية لم تبدّل الجزيرة العربية والصحراء الجرداء الصامتة الهادئة ـ التي لم يكن يُعرف من رجالها الا بعدد الأنامل ـ الىٰ تلك الجزيرة الحيويّة النشطة التي عُرف منها عشرات المئات من الأعلام البارزين، والأفكار الاخلاقية العالية، اقول: لم تبدل هذه الثورة تلك الجزيرة فحسب، بل وجاءت بأفكار وفلسفات كانت حديثة حتىٰ علىٰ أمم تلك الدولتين المجاورتين (ايران والروم) حتىٰ لو كان بعض اصولها مقتبساً من حضارتيهما، كانت هذه الأفكار والفلسفات الحديثة دروساً سماوية حديثة من التقوىٰ والعدالة ضدّ الظلم والعدوان، اخذت مكانها في قلوبهم وكأنّها مياه باردة تسرّبت الىٰ اكباد ضامئة من هذه الأمم. لم يكن هذا الانتصار الفكري الاسلامي علىٰ أمم تلكم الدولتين وتأثير هذه التعاليم العادلة في تلك الأمم المهضومة التي كانت قد انقطعت عن المخلوقين، ولم يبق لها طريق الىٰ الخلاص سوىٰ الىٰ خالقها العظيم... اقول: لم يكن هذا الانتصار من قبيل انتصار المسلّحين علىٰ غير المسلّحين أو المسلّحين بسلاح حديث علىٰ المسلّحين بسلاح قديم، ولم يكن انتصار غير المسلّحين علىٰ المسلّحين والحفاة علىٰ المنتعلين وأصحاب الأخفاف الحربية... بل كان ـ كما قلنا ـ انتصاراً للفكر الحديث الذي كان يدعو الىٰ انصاف المظلومين من الظالمين، وكان بالتالي انتصاراً للمظلومين علىٰ الظالمين، كانت هذه الفكرة ـ الدعوة الىٰ العدالة ـ قد ترسخت في أفكار أمم تلك الدول فتكاتفوا مع حاملي الألوية الإسلامية في سبيل الاطاحة بحكوماتهم. وانّ آثار هذا الانتصار الفكري والمعنوي يرىٰ بالعين في بيوت كل فرد من افراد هذه الأمم المؤمنة به، وقد مضىٰ علىٰ انتصاره المسلّح اكثر من الف ونيف مئات من السنين، في حين لم يبق من ذلك الانتصار المسلّح للفاتحين العرب أيّ عين ولاأثر»[1].

يعتقد السيد رهنما أن الاسلام قد أطاح بالعلاقات والمناسبات الجوفاء، وابدلها بعلاقات فولاذية قوية، وعرض علىٰ الناس فلسفات وافكار حديثة، وأن انتصار الإسلام كان انتصاراً للعدالة والتقوىٰ علىٰ الظلم واللاقانون، وأن العامل الأصيل لانتصار الإسلام لم يكن عسكر العرب المسلمين، بل كان العامل الأصيل في ذلك نفس الجماهير الكادحة

---

١ ـ مقدمة ترجمة القرآن الكريم ـ لزين العابدين رهنما.

المحرومة والمتعطشة الىٰ العدالة والحقيقة، من نفس تلك الأراضي المفتوحة، حيث ثار هؤلاء في ظل الدعوة الاسلامية علىٰ القوات الشيطانية الحاكمة عليهم.

وكتب الدكتور عبد الحسين زرّين كوب في كتابه[1] في البحث عن عناصر الحضارة الاسلامية العظيمة يقول:

«... انّ الذي يسَّر عناصر هذا التقدم العلمي والمادّي للمسلمين، هو الاسلام في الحقيقة، فهو الذي بدل العصبيات القديمة في الأمم المفتوحة بروح التعاون والمسامحة الاخوية بينها؛ وذلك بتشويقهم وترغيبهم الىٰ طلب العلم ومزاولة الحياة بالنشاط، وسهل الاسلام سبيل اتساع العلوم والمعارف الانسانية وتطور الصناعة. بحثّ المسلمين علىٰ سلوك «الطريقة الوسطىٰ» في قبال «الرهبنة الكنسية المسيحية» التي كانت توصي بترك الدنيا واهمالها. وقد كانت روح العدالة والمسامحة الأخوية بين الأمم المفتوحة حين دخول الاسلام اليها علىٰ وشك الزوال والفناء. وقد كانت الدولة البيزنطية الغارقة في العصبيات المسيحية في طريق قطع علاقاتها بالعلوم والفلسفة يوماً بعد يوم بنفس النسبة، وان تعطيل «ژوستي نيان» لنشاط الفلاسفة كان بمثابة اعلان عن ارتباط وشيك بينهم وبين العلم والحضارة (بسبب الاسلام). وأما في ايران: فقد كان ما أبداه خسروانوشيروان من اهتمام بالفكر وحبّ المعرفة شيئاً مرتجلاً، وما يشير اليه برزويه الطبيب في مقدمة كتاب «كليلة ودمنة» من العصبيات الجوفاء كان مما يجعل نشر الفكر في ايران آنذاك غير ممكن وقد نفح الاسلام في مثل هذا العالم المكبّل بالعصبيات القومية والدينية المنحرفة، نفحات قدسية حيّة وحديثة، وعالج هذه العصبيات القومية والعنصرية الدموية بقرآن كريم، أسس به داراً للإسلام كانت تسع جميع عالم الإسلام بل العالم بأسره، ولم يكن ذلك هو الشام أو العراق في الحقيقة، وفي قبال تلك العصبيات الدينية المجوسية والمسيحية، أوصىٰ المسلمين بمعاهدة أهل الكتاب والتسامح معهم، بل وحتىٰ الاستفادة منهم في العلوم والمعارف والفنون والصناعات. وقد جاءت ثمار هذه الشجرة العجيبة، التي لم تكن شرقية ولا غربية ـ بعد انتشار الفتوحات الإسلامية في شتىٰ أرجاء العالم».

---

١ ـ بالفارسية: كارنامهٔ اسلام ص ١٣.

يعتقد الدكتور زرّين كوب: أن الإسلام قدم الىٰ عالم، كان في حالة هائلة من الجمود والركود، وأنه بتعاليمه التي كانت توصي بطلب العلوم، وترك العصبيات القوميّة والدينية، والتي اعلنت امكانية التعايش مع أهل الكتاب، بهذه التعاليم وضع عن البشرية الاغلال التي كانت علىٰ اعناقهم وايديهم وارجلهم علىٰ حدّ تعبير القرآن الكريم، وبـذلك مـهّد أرضية مساعدة لنمو حضارة انسانية عظيمة وشاملة.

وكتب البروفيسور ارنست كونل الألماني، أُستاذ الفن الاسلامي في جامعة برلين في أعوام ١٩٣٥ ـ ١٩٦٤ في مقدمة كتابه في الفن الإسلامي يقول:

«كان لاشتراك الناس في العقائد الدينية في الإسلام أثرٌ أقوىٰ مما كان له في المسيحية علىٰ المساعي الفنية والثقافية المختلفة. ان اشتراك الناس في العقائد في الإسلام بـعث المسلمين علىٰ أن يعقدوا جسراً علىٰ الاختلافات العنصرية والقـديمة، ويـعبروا هـذا الجسر وهم يقتبسون الروابط المعنوية والآداب والسنن للأمـم المـفتوحة، فـيوجّهونها الوجهة الإسلامية الواضحة والشيء الذي كان له أثر حاسم اقوىٰ من كل شيء في هذه التأثيرات والتأثرات لايجاد الوحدة المطلوبة والاجابة علىٰ جميع مسائل الحـياة: هـو القرآن، فانتشار القرآن باللغة الأصلية وسيادة اللغة العربية قد أوجد روابط ربـطت بـين جميع الأمم في العالم الإسلامي، وأصبحت هي العامل الاصيل في خلق أيّ نوع من الآثار الفنية، مما أطاح بما يعرفه الغرب من التباين بين الفن الدّيني وغير الديني، فقد زال هذا التباين في الاسلام بصورة عامة. نعم لقد تخصّصت المعابد باشكال معمارية خاصة تلائم ما يقام فيها من اعمال، إلّا ان الزينة فيها تتفق تماماً مع تلك القواعد نفسها التي كـانت تراعي في الأبنية غير الدينية أيضاً».

ويقول هذا البروفيسور أيضاً:

«... والشيء الذي يحوز هنا اهمية تامة هو أنه ما كان بين الدول الإسلامية في القرون الوسطىٰ من الصدام السياسي الشديد، كان بين جميع هذه الدول الاسلامية علاقات لم تكن تؤثر في تنشيط الحركات التجارية بينها فحسب، بل كانت تيسّر امكـانية تـبادل التطورات الثقافية أيضاً. ان كتب الرحلات العربية والسيّاح العالميين تحكي لنا كيف كان

الناس في دولة من هذه الدول يطلعون علىٰ جيمع مزايا تلك الدولة الاسلامية الاخرىٰ. وعلىٰ هذا فلا عجب اذا ما رأينا أن التطورات الفنية والاكتشافات التكنلوجية الحديثة تجد سبيلها بسهولة الىٰ كل مكان في العالم الإسلامي اليوم. فمن يكون قد تربّىٰ في مدرسة الغرب، يصور لنفسه أن العالم الإسلامي كان يسوده نظام فكري آخر، كان له أثر في خلق هذه الآثار الفنية اكثر من أي شيء آخر»[1].

ما يقوله هذا العالم الفنّي، وان كان لايخصّ ايران، ولكنه حيث يشمل جميع الأراضي التي كان يسودها الإسلام، فهو يشمل ايران أيضاً. والكلمة الجميلة في كلام هذا العالم هو أنه يقول: ان المسلمين بنوا علىٰ اختلافاتهم العنصرية جسراً، أي أن الإسلام استطاع أن يوجد ـ لأول مرة ـ وحدة سياسية واجتماعية علىٰ أساس من العقيدة والمبدأ، وأن هذا يسّر السبل المختلفة لتشكيل حضارة ومدنية عظيمة وشاملة متسعة، مترامية الاطراف.

وبامكاننا أن نجد من امثال هذه النظريات الشيء، الكثير...

وفي قبال هذه النظريات نظريات اخرىٰ ينبغي أن تلاحظ هي أيضاً؛ وهي نظريات تقول: ان انتصار المسلمين العرب علىٰ الفرس في ايران كان فاجعة تشبه فاجعة حملة الاسكندر والمغول، فكما أن حملة الاسكندر والمغول ـ وخاصة المغول ـ كانت حملة فتقت جميع منسوجات الحضارة العظيمة آنذاك، كذلك كانت حملة المسلمين العرب علىٰ ايران فهي أيضاً أطاحت بمدنية وحضارة فارسية، وتقول: وما نراه من أن رجالاً من ايران أخذوا يتقدمون في سبل العلوم والمعارف والثقافات في القرون الثالث والرابع والخامس والسادس الهجرية، فانما هو من آثار الخصائص العنصرية والجذور الثقافية قبل الاسلام في هذه الأمة، وأن تقدمهم هذا انما كان في الحقيقة نوعاً من الرجوع الىٰ الأدوار السابقة قبل الإسلام! وأن الشيء الوحيد الذي عمله الإسلام، هو انه سبب توقفاً في سبيل التقدم العلمي والثقافي لهذه الأمة طوال قرنين من الزمان! وحينما وجدت ايران استقلالها السياسي بعد هذين القرنين من السكوت المميت وخرجت من تحت نفوذ سلطة العرب ووجدت شخصيتها القديمة، سلكت مرة اخرىٰ سبيلها السابق، وهكذا استمرت الثقافة

---

١ ـ عن الترجمة الفارسية: هنر اسلامي ص٦ ـ ٨.

الفارسية الايرانية!.

ونحن لا نجد بين الباحثين ـ الايرانيين وغيرهم ـ من ينظر الىٰ هذا الأمر بهذا الشكل، وانما جاءت هذه النظريات من قبل رجال اصطبغت مقالاتهم بصبغة دعائية خاصّة وما يهمّنا منها اليوم، هو أن النظريات تكررت أخيراً، وكانت غالباً مدسوسة في عبارات أدبية مثيرة و مظلّلة:

كتب فريدون آدميت في كتابه[1] يقول:

«ان دين الاسلام كان ضرورياً لايجاد مركزية في مجتمع بدوي كشبه الجزيرة العربية، ولهذا ظهر الإسلام هناك! ولكن هذا الدين المزيج من الأفكار والأديان السابقة في تلك الجزيرة! والذى احتوىٰ علىٰ تعاليم مرنة! حينما دخل الىٰ ايران! أوجد في المسيرة الاجتماعية لهذه الدولة انحرافاً مفاجئاً فأصبح منشأً لآثار مخرّبة ضارة في ايران، بعد أن كان مفيداً ـ وبالنسبة نفسها ـ لمجتمع بدوي كمجتمع الجزيرة العربية! ولم يبق الفرس الساكتين، ولم تدم مدة الحيرة وموقف الفرجة الفجائية حتىٰ فاتت، فبدأ الفرس بالتغنّي بأصوات المعارضة من كل طرف وصوب، وكانوا يستدلون علىٰ طرقهم هذه في المعارضة بآيات من القرآن ناسخة أو منسوخة!.

... ولكن تعودت الأمة الفارسية شيئاً فشيئاً علىٰ الزهد في الحياة المادية وكان هذا علاجاً لقلقها الباحث عن علاج مستعجل، وكان ذلك من نتائج انتشار ذلك القسم من تعاليم الإسلام، التي كانت ترىٰ الدنيا جيفة فانية والدنيا سجن المؤمن، ومن شيوع الفلسفة الهندية باصولها السلبية التي تدعو الىٰ الفناء في الله وهكذا نرىٰ أن تعاليم الإسلام قد اختلطت بفلسفة الاشراق واصول التصوف التي تجلت بادئ الأمر كصورة من صور المقاومة السلبية أمام الإسلام، فتعاليم الإسلام التى كانت تعدّ جمع الثروة من الذنوب والمعاصي وتحرم الصناعات الظريفة، وترىٰ الرزق مقسوماً والمصير مقدراً محتوماً، امتزجت بفلسفة الاشراق والاصول الصوفية، فشاعت العقيدة بفلسفة «التقدير» في ايران شيوعاً عاماً، وكان من نتيجة ذلك أن اصيبت الحياة المادية في ايران بالشتات والضياع

---

١ ـ بالفارسية: امير كبير وايران ـ فريدون آدميت، ص ٧٤ ـ ٧٥.

والتحطيم. وكان الاعراض عن الدنيا والكسل والقناعة بالخربات والاستجداء.. كل ذلك كان مما أخذ من الإسلام، سواء كان صحيحاً أم غير صحيح! ولقد شاعت هذه التعاليم في ايران فمهدت الطريق الىٰ الانحطاط الاجتماعي.

يقول هذا الكاتب من ناحية: كان الدين الاسلامي ضرورياً تماماً لايجاد مركزية في جامعة ابتدائية كالجزيرة العربية. ومن ناحية اخرىٰ يرىٰ: ان الكسل والقناعة بالخربات والاستجداء هي من نتائج التعاليم الإسلامية.

ونقول: كيف يمكن لمثل هذه التعاليم أن تهب للجزيرة العربية الوحدة والقدرة؟

وثانياً: لو كان كذلك للزم أن يصاب المسلمون منذ نفوذ الإسلام فيهم بالهوان والانحطاط، وأن لا يهتموا بعمل الحياة بتأثير من فكرة أنها جيفة، وأن يحيلوا كل شيء علىٰ فكرة التقدير، وأن يقطنوا الخربات من أول أسلامهم.. والحال: يشهد التاريخ شهادة قطعية بأنه حينما ظهر الاسلام في رقعة واسعة من شمالي افريقيا الىٰ شرقي آسيا، ظهرت فيها حياة جديدة وحركة ونهضة عظيمة واسست حضارة لانظير لها من قبل، ودامت ستة قرون، ثم سادت فيهم روح الركود والجمود وسكنىٰ الخربات!.

وقد حمل هذا الكاتب ـ من حيث علم أو لم يعلم ـ حساب مكافحة الإسلام لعبودية الدنيا والثروات وأن لا تكون هي الهدف من حياة الانسان المسلم، علىٰ أنه عدّ العمل معصية والكسب ذنباً والصناعة والثروة اثماً! حتىٰ لو كان ذلك بهدف الخدمة الاجتماعية (التي طالما اوصىٰ بها الاسلام وأكّدها) فهو لا يفرّق بين الزهد بمفهومه البوذي والمسيحي الذي يربط كلاً من العمل والعبادة بعالم مستقل عن الآخر، والزهد الاسلامي الذي هو عبارة عن سمو النّظر وطهارة النفس، او لا يريد أن يفرّق بينهما، وان كان يعرف الفرق.

واعجب من كل ذلك طرحه لبحث القضاء والقدر علىٰ طاولة النقد! حيث عدّهما ـ تبعاً للاوربيين ـ عاملاً من عوامل انحطاط المسلمين... وكان الأحرىٰ به أن يترك هذا البحث ـ علىٰ الأقل ـ لمن كان له ادنىٰ تخصص فيه! وقد بحثت أنا في كتاب «الانسان والقدر»[1] حول القضاء والقدر بمفهومها الإسلامي وتأثيرهما او عدم تأثيرهما في

---

١ ـ نقل هذا الكتاب الىٰ العربية: العلامة الشيخ محمد علي التسخيري حفظه الله.

انحطاط المسلمين، بما كان يلزم من البحث حول هذه المسألة. وقد طبع ذلك الكتاب وهو في متناول قرّاء هذا الكتاب.

وفي الكتب الدراسية الابتدائية والثانوية، يدعى الىٰ هذه الفكرة أيضاً قليلاً أو كثيراً؛ وقلما نجد كتاباً كلاسيكياً دخل في هذا البحث ولم يدع الىٰ هذه الفكرة! ونحن ننقل هنا نموذجاً عن كتاب ثانوي ونكتفي به:

جاء في كتاب الجغرافيا للسنة الثانية الثانوية تحت عنوان: جغرافية ايـران البشـرية مايلي:

«انّ تأسيس كلية الطب: «مدرسة جندي شاپور» في خوزستان ايـران عـلىٰ عـهد الساسانيين، ترينا اقبال الايرانيين علىٰ المسائل العلمية جيداً. ونحن نقطع بأنه قد دوّنت علىٰ أيدي الايرانيين كتب ورسائل قيمة ثمينة اذ ذاك، ولكنها ضاعت ـ مع الأسف ـ علىٰ أثر حملة الأجانب، ولم يبق منها اليوم سوىٰ أسماء بعضها. لقد كان لسلطة العرب علىٰ ايران آثار عميقة في حياتنا العلمية والادبية؛ فانها من ناحية طغت علىٰ القسم الأكبر من آثارنا العلمية والادبية والفنية والفنون الجميلة فمحتها وافنتها، ومن ناحية اخرىٰ فرض هؤلاء الغزاة الفاتحون لغتهم وخطهم بحيث اخذ كثير من علماء ايران ينشرون كثيراً من آثارهم العلمية والأدبية باللغة العربية كابن المقفع والرازي وابن سينا والبيروني والفارابي والغزالي والخيام. وردّ الىٰ اللغة الفارسية اعتبارها حينما حصلت دولتنا علىٰ استقلالها السياسي علىٰ أثر الجهاد البطولي الذي قام به الايرانيون منذ القرن الثالث الهجري، واخذ كثير من خطبائنا وكتابنا المتكلمين يشكّلون بروافدهم الأدبية ينبوعاً فياضاً لادب العالم الانساني، من أمثال: رودكي وفردوسي وخيام ومولوي وسعدي وحافظ وسعد سلمان ومئات آخرين من الشعراء والكتاب الادباء من وطننا»[1].

وعلىٰ قول هذا الكتاب: كان للعلوم والفنون في ايران قبل الإسلام رونق ورواج كثير، وأنه كانت لسلطة العرب المسلمين آثارٌ سلبية في الحياة المعنوية لايـران، وأن العـرب فرضوا علىٰ الايرانيين لغتهم وخطهم حيث انّ رجالاً من أمثال ابن سينا والغـزالي بـعد

---

١ ـ كتاب الجغرافيا ـ للسنة الثانية الثانوية.

اربعة او خمسة قرون من غزو العرب لايران وبعد قرنين او ثلاث من استقلال ايران السياسي، اضطروا الىٰ أن يؤلفوا آثارهم باللغة العربية، وانهم انما اخذوا بالنظم والنثر الفارسي حينما نجوا و تخلصوا من أسر العرب، وأن اللغة الفارسية كانت بمثابة ردّ فعل امام المسلمين؟

وقد بحثنا نحن قبل هذا في اسطورة فرض العرب لغتهم علىٰ الايرانيين وخرجنا من البحث بنتيجة: أن وصف إشاعة اللغة الفارسية بأنها كانت ردّ فعل علىٰ الإسلام؛ انما هو دعاية مغرضة. وسنبحث بعد هذا في هذا الكتاب نفسه ان شاء الله الرحمن حول اسطورة ان العرب المسلمين محو الآثار العلمية الفارسية، ونبحث بالخصوص حول ماهية مدرسة جندي شابور ان شاء الله تعالىٰ.

وقد تجاوز بعضهم أكثر من هذا؛ وزعم أن دخول الإسلام الى ايران يساوي شقاءً دائماً للايرانيين؛ وعدّ جميع الخصائص الأخلاقية السّيئة للايرانيين اليوم من نتائج غزو العرب لايران ونفوذ الإسلام بين الايرانيين!.

ونموذجاً لهذا نذكر هنا قسماً من مقال جاء في مجلة «الفردوسي» العدد: ٧٨٧ بتاريخ: ٣ آبان ١٣٤٥ هجرية شمسية. حاول الكاتب في هذا المقال أن يردّ علىٰ كتاب السيد جلال آل أحمد[1]، إذ قال السيد آل أحمد أن فساد هذا الجيل الحاضر انما هو بانبهاره بالتقنية الغربية، ووصف المغترب منهم بقوله:

«ان المغترب لا مذهب له! ولا عقيدة! ولكنّه ليس فاقداً للعقيدة بكل شيء! انه سقط متاع! يطلب رزقه من حيث يطلبه الناس،وكل شيء له علىٰ السويّة! يهمّه أن يعبر الجسر، ثم لا يبالي أن يبقىٰ هذا الجسر لغيره او لا! لا ايمان له ولا دين لا بالله ولا بالناس! لا يتقيد بالتطورات الاجتماعية ولا حتىٰ بلادينية! فقد يذهب الىٰ الجامع والمسجد كما يذهب الىٰ ندوة الحزب أو السينما، ولكنه يقف في كل مكان وقفة المتفرّج! تماماً كأنه ذهب الىٰ التفرج علىٰ لعبة رياضية للتسلية! وهو دائماً علىٰ حذر من الورطات التكليفية، فلا تراه الا علىٰ هامش المجتمع محترزاً من التكليف، فلا يكلف نفسه حتىٰ علىٰ وسعها، وحتىٰ

---

١ ـ بالفارسية: غرب زدگي: الثقافة الغربية والا: تراب.

بدمعة علىٰ صديق، أو حالة توبة في معبد، او تفكر في ساعة وحدة، بل لم يأنس بالوحدة ابداً، فهو يفر من الوحدة اذ يستوحش حتىٰ من نفسه! وهو يحضر في كل مكان من دون أن تسمع منه نداءً او نقداً او استثناءً أو لِم أو بِمَ؟! ان المغترب رجل يطلب الراحة لنفسه، فهو يغتنم الفرصة لا بالمعنىٰ الفلسفي للكلمة بل هو بشر بلا شخصية ولا أصالة!».

ويجيب كاتب المقال في مجلة «الفردوسي» يقول:

«... هل ان هذا الذي وصفته ـ يا آل أحمد ـ هو من القرن الأخير فقط؟! كلّا! إن هكذا انسان وصفته بلا عقيدة ولا مذهب متملق كذّاب بلا أصالة ولا وطن له منذ أكثر من الف وثلاثمئه سنة قد ظهر في هذه البقعة الترابية من الأرض [ايران] منذ ذلك اليوم الأسود المشؤوم الذي صاح فيه حرس قصور مدائن [طيسفون] وهم بفناء ابواب البلد وقد رأوا العرب قد أقبلوا: «جاء الجن! جاء الجن!» انعقدت نطفة هذا الولد من حرام! ومنذ اخطأ القائد الايراني «فيروزان» حظّه فاغتر بخدعة العرب، في فرهم وكرّهم، في حرب نهاوند فخسر المعركة، ولد هذا الموجود العجيب! ولنا اليوم منذ الف وثلاثمئه عام رجال يتقون! لا يطمئنون بغيرهم بل يسيئون الظن بالناس فلا يفتحون قلوبهم علىٰ غيرهم، فلا تسمع منهم نداءً ولا نقداً ولا استثناءً ولا لِمَ ولا بِمَ..».

وكتب في العدد بعده يقول:

«... وبعد الف ونيف من السنين، منذ غزو العرب لهذه الأرض.. تغيّرت مقاييسنا الاخلاقية الروحية والقومية، وتبدلت طريقة هجماتنا وحروبنا ومقاومتنا الىٰ الضعف والفشل والهوان، والىٰ أن نطلب رزقنا من حيث يطلبه الناس، والىٰ أن نكون بلا أصالة ومنافقين... وما اكثر هذه الجراثيم التي صارت تغزونا من آثار هذا الغزو».

وكتبت هذه المجلة في عددها المرقم ٢٣ لشهر: اردیبهشت ١٣٤٧ هجرية شمسية، في مقال بعنوان: «المثالية في الشعر» تقول:

«... نحن نعلم أن غزو العرب لايران كان باهض الثمن علىٰ شعوب وطننا! وانهم حينما تقابلت الحضارتان الفارسية والعربية فشلوا في مقاومة العرب! وأن هذه الهزيمة السياسية جرت الىٰ هزيمة معنوية أيضاً!. ان العرب كانوا يستهزئون بالحضارة الفارسية، وكانوا

يدعون الفرس بينهم: موالي... وكانوا قد منعوا الفرس عن أعيادهم؛ ووصفت «البادة: الخمرة» التي كان الفرس يشربونها علىٰ الغداء والعشاء شراباً رجساً شيطانياً و حراماً، واخمدت شعل النيران في معابدها في وطننا. الا أن الفرس سريعاً ما اخذوا يقاومون هذا الغزو، وقامت الأمة الفارسية من علىٰ رماد المذلة والشقاء، واتقد ذكاء النبوغ الفارسي الايراني من عقول ونفوس علماء من أمثال: أبي ريحان البيروني والفردوسي والخيام وابن المقفع ورودكي ودقيقي والرازي والبيهقي... وهكذا ارتفع الكابوس المظلم».

وكتب السيرجان ملكم (الانجليزي) في كتابه[1] يقول:

«لقد بلغ غضب العرب اتباع النبيّ العربيّ من لجاج الفرس في الدفاع عن ملكهم ومذهبهم بحيث أنهم حينما ظفروا بهم تعرضوا لكل ما يوجب قوة للقومية الفارسية! فَدُمِّر كثير من البلدان، واحترق كثير من معابد النيران، وقتل عدد كبير من الموابدة المكلفين بمباشرة خدمات تلك المعابد والهياكل، واحرقت كتب الفضلاء، سواء كانت في المسائل الدينية او في التاريخ الفارسي الايراني أو في مطلق العلوم والمعارف والثقافات والفنون! وقتل كل من كان عنده من هذه الكتب، اذ لم يكن العرب المتعصبون اذ ذاك يعرفون كتاباً سوىٰ القرآن، ولا يريدون أن يعرفوا ما هي تلك الكتب، فهم كانوا يحسبون الموابدة مجوساً وكتبهم كتباً للسحر. ونحن نستطيع أن نقيس حال كتب الفرس علىٰ حالها عند الروم واليونان، فنعرف كم ياترىٰ بقي من تلك الكتب في مملكة كأيران»[2].

حقاً ان مايقوله هذا الذي اصطلحوا عليه «بالمؤرخ»! لحديث جديد!! إذ أننا لا نجده في اي مصدر او سند تاريخي آخر! فلا بدّ ان نفترض أنه كان قد توصّل الىٰ سند او مصدر لم تره العيون ولم تصل اليه الأيدي، ولم يكن من الصلاح أن يذيعوه علىٰ الناس! اجل لابد أن نفترض ذلك، اذ لو لم نفترض هذا كان لابدّ أن نشكك في حسن نيته وكمال صدقه، وهو ذلك المؤرخ العظيم ـ الذي لاشك أنّه لم يتلق اي أمر من قبل سفارته او وزارة الخارجية البريطانية بصدد تأليف هذا الكتاب ـ وكيف يمكن أن يكون هذا؟!

---

١ ـ تاريخ ايران ـ للسيرجان ملكم الانجليزي.

٢ ـ تاريخ ايران ـ لملكم الانجليزي ـ نقلاً عن كتاب: مزديسنا وادب فارسي ص.١٣

إنّ ما وجده هذا المؤرخ في مصادره وأسانيده التي لا ترىٰ ـ والتي لا توجد إلّا في اضبارات وزارة الخارجية البريطانية ـ هو:

اولاً ـ ان الفرس كانوا يلحّون في الدفاع عن ملكهم ودينهم القديم ـ علىٰ خلاف جميع المؤرخين ـ ولكنّهم مع ذلك اللجاج والعناد، ومع ذلك العدد الذي كان يبلغ ـ في التّخمين ـ مئه واربعين مليوناً من النفوس، ومع تلك العُدة العسكرية القوية... انهزموا أمام جماعة من العرب الحفاة، بين اربعين الىٰ خمسين الف رجل، كانوا أقل عدداً من الجنود الفرس المسلحين بنسبة العُشر، وأما من حيث العدّة فلم يقاسوا بهم، ومع أن العرب لم يكونوا يعرفون عن تلك العدّة الحربية الايرانية الشيء الكثير... وعلىٰ هذا فلا بد من أن نجعل اللّوم في هذه الهزيمة النكراء علىٰ حساب مهانة الأمة الفارسية، بدلاً من أن نحصل السبب في ذلك كراهيتهم حكومتهم ودينهم ونظمهم الداخلية، وانجذابهم الىٰ الدين والايدولوجية الجديدة باسم الاسلام.

ثانياً ـ ان المدن الايرانية دمّرت تماماً حتىٰ تساوت مع أكمات التراب!. فاين كانت هذه المدن؟ وماهي أسماؤها؟ وما هي المصادر التاريخية التي تذكر ذلك؟ يجب أن يجيب عن هذه الأسئلة السيرجان ملكم!

ثالثاً ـ أن الموابد ومباشري ادارة المعابد قتلوا، واحرقت معابدهم بالنيران!. من دون أن يبحث السيرجان ملكم فيما كتبه مؤرخون كالمسعودي والمقدّسي وغيرهما: أن المعابد كانت باقية الىٰ عهدهم (حوالي القرن الرابع الهجري)! وأن امراء المسلمين كانوا يتعهدون في ميثاق المعاهدة بحفظ معابد أهل الكتاب ومنهم المجوس، فهذا شيء لا يريد السيرجان ملكم أن يبحث فيه!.

رابعاً ـ ان الكتب العلمية والدينية الايرانية، والذين ملكوها كانوا جميعاً معرّضين للفناء والتلف!. وسنبحث حول هذا الموضوع مفصّلاً فيما يأتي ان شاء الله تعالىٰ.

خامساً ـ ان المسلمين العرب كانوا يسمون الموابدة سحرة، ويرون ان كتبهم كتب سحر وشعوذة. وهذا أيضاً شيء يجب أن نسمعه من هذا المؤرخ لأول مرة!

* * *

كان هذا هو الحديث عن نظريتين متضادتين حول الاسلام وايران.

والآن فأيّ هاتين النظريتين نقبلها نحن؟:

فهل نتقبل تلك النظريةالتي تدّعي: أن ايران وغير ايران كانت في جاهلية سحيقة، وأن العقائد والأفكار كانت قد تردّت الىٰ الحضيض، وأن الحكومات كانت قد فسدت الىٰ ما لا نهاية، وأن النظم الاجتماعية السائدة ـ ان صحّ أن يقال عنها انها كانت نظماً ـ كانت فاسدة جداً، قد فشىٰ الظلم وسخط الناس، وأن العالم كان في حاجة الىٰ تحوّل وتجديد بناء... وأن الإسلام جاء فأدىٰ رسالته في هذا السبيل، غيّر كثيراً من المقاييس، وازال الاغلال التي كانت علىٰ الأيدي والأرجل والاعناق، وايقظ الهمم، ونفث روحاً حيةً جديدة في الجسم المحتضر لكثير من الأمم، ومنها ايران.

أم نتقبل تلك النظرية التي تقول: كان لنا كل شيء؛ وجاء الإسلام فسلبنا كل شيء!؟.

وقد قلنا فيما مضىٰ أن من حسن الحظّ أن تاريخ ايران والعالم حين ظهور الإسلام تاريخ واضح بيّن، وان قراءة مختصرة في تاريخ ايران والعالم آنذاك تبيّن لنا الوضع بوضوح، ويكفينا أن نرىٰ ماذا كان يسود ايران من الأفكار والمعتقدات؟ وماذا كان لهذه الأفكار والمعتقدات من وزن ومقدار في مقياس النظام الفكري والعقائدي؟ ونرىٰ ماذا كانت هي النظم الاجتماعية والعائلية والأخلاقية والسياسية في ايران يومذاك؟ ثم نوازن بينها وبين ما يعادلها من النظم بعد الإسلام بالنظر الىٰ النصوص التاريخية، ثم نستنتج من ذلك. وهنا نبدأكلامنا حول النظام الفكري والعقائدي لايران آنذاك فنقول:

النظام الفكري والعقائدي

ونقصد بذلك استعراض الافكار والعقائد الدينية العامة السائدة بين عموم الايرانيين حين ظهور الإسلام. ولا نبحث الآن في الأفكار والعقائد الفلسفية في ذلك العصر في ايران وهل كانت في ايران علىٰ عهد الساسانيين مدرسة فلسفية ما عدا العقائد الدينية او لا، وعلىٰ فرض وجودها ماذا كانت هذه المدرسة الفكرية.. وذلك لأننا حتىٰ لو افترضنا وجود مدرسة فلسفية غير دينية ووجود فلاسفة بالمعنىٰ الواقعيّ للكلمة في ذلك العصر؛

فان ذلك لم يكن مما يؤثر في افكار عموم الناس. فنحن من أجل أن نلاحظ الأفكار والعقائد العامة، يجب علينا أن نقرأ أديان ايران في ذلك الزمان.

لا شك أن الإسلام قدّم لايران نظاماً فكرياً وعقائدياً جديداً، وقد الغىٰ الشعب الايراني ـ كما سبق ـ جميع معتقداته وافكاره السابقة وقبل الإسلام، ولم يكن هذا القبول والانتقال فورياً، بل تدريجياً، ونرىٰ أن ذلك كان في عهد استقلال الفرس عن العرب بصورة خاصة.

وجيد هذا البحث حينما نلتفت الىٰ أن هذا يعني من ناحية: أن للاسلام ميزة خاصة، حيث لم يستطع أيّ دين آخر غيره أن ينفذ معنوياً في قلوب امة مغلوبة علىٰ أمرها كما تمكن منه الإسلام.

يقول غوستاف لوبون بهذا الصدد:

«ان الشريعة الاسلامية اثرت في معتنقيها تأثيراً كبيراً، وقلما نجد ديناً آخر نفذ الىٰ قلوب اتباعه كالإسلام، بل قلما نجد ديناً آخر دام حكمه كما دام حكم الاسلام وقدرته المعنوية، حيث ان القرآن الذي هو الأصل في الإسلام تبدو آثار أحكامه وسننه في جميع افعالهم وعاداتهم العامة والخاصة»[1].

هذا من ناحية. ومن ناحية اخرىٰ: نرىٰ أن الشعب الايراني يمتاز ـ بين جميع الأمم التي اعتنقت الإسلام ـ بميزة خاصة هي: أنا لم نر أية امة تركت نظامها الفكري السابق بالسهولة التي تركته بها الأمة الايرانية، ولم تفتح ابواب قلوبها علىٰ عقائد هذا الدين الجديد وافكاره بهذا التصميم العظيم، وبهذا الصدد يقول المستشرق المعروف (دوزي):

«ان أعظم الأمم التي غيّرت دينها القديم الىٰ الاسلام هي الأمة الايرانية؛ فانهم هم الذين قووّا وأيّدوا الاسلام، لا العرب...»[2].

وعلىٰ هذا؛ يجب علينا أن نلاحظ النظام الفكري الحاكم علىٰ المجتمع في ذلك العهد، ونقيس بينه وبين الأنظمة الاسلامية الفكرية والعقائدية، كي يتبيّن لنا ماهو الذي اخذه

---

١ ـ تاريخ التمدن الإسلامي والعربي ـ عن الترجمة الفارسية ص ٥٥٢.

٢ ـ عن الترجمة الفارسية: تاريخ أدبيات، مستر براون، ج ١، ص ٣٠٣.

الاسلام من ايران من الأنظمة الفكرية وما اعطاها؟.

ومن أجل أن نصل الىٰ النظام الفكري والعقائدي لذلك العهد، يجب أن نرىٰ ماذا كان الدين الرسميّ في ايران اذ ذاك؟ بل ماذا كان في ايران من اديان ومذاهب؟

الأديان والمذاهب

لم يكن يسود ايران في ذلك العهد الدين الزرادشتي فقط، علىٰ الرغم مما يبدو في بادئ الأمر. نعم انه كان الدين الرسمي للدولة، الا أنه كانت معه أديان لأقليات اخرىٰ كثيرة، سواء الاديان التي كانت تختلف مع الزرادشتية في أصل نبوة زرادشت أو المذاهب التي كانت ترىٰ زرادشت نبياً وكانت تعدّ فروعاً ومذاهب للزرادشتية.

ويرىٰ المرحوم سعيد نفيسي: أن أهم أسباب تردّي الأوضاع الاجتماعية والسياسية في ايرانعلىٰ عهد الساسانيين، هو عامل الاختلافات الدينية والمذهبية، ويدّعي أن الاجحاف الذي كان يعمله الموابدة الزرادشتيون كان عاملاً هاماً لظهور هذه المذاهب المختلفة من الدين الزرادشتي، وظهور السخط والكراهية للدين او للمذهب الرسميّ للدولة؛ ويقول:

«... كان لرجال الدين: الموابدة والهرابدة صلاحيات مخولة غير محدودة ولاسيما الموابدة والائمة الكبار: (موبدان موبد) بناءً علىٰ المقررات السياسية لذلك العهد لدىٰ البلاط الساساني، وقد كان لهم حق النقض والنسخ والجرح والتعديل والتفسير في الأحكام المدنية أي الزواج والارث والملكية! وكان كلما ترسخت الحضارة الساسانية، يضاف الىٰ قدراتهم واختياراتهم. وكان شعب ايران حين يرىٰ ضغطاً وعدواناً يبرأ ويبتعد عن هؤلاء اكثر فاكثر، ويحاول أن يطلق كاهله من تحت هذا الحمل الثقيل مما يكرهه ويسخط عليه ولهذا ظهر أمام الطريقة (المزديسنية) الزرادشتية التي كانت الطريقة الرسمية لدين الدولة والبلاط والتي كان يقال لها (بهدين) أي: الدين الأحسن! طريقتان اخريان في الزرادشتية: احداهما: (الزروانية) واصحابها كانوا يعتقدون بأن: آهورا مزدا وأهريمن موجودان من موجود اقدم واعظم يقال له: (زروان اكرنو) اي: الزمان الأسبق.

والطريقة الاخرىٰ: (الكيومرثية) واصحابها كانوا يعتقدون بأن: أهريمن ليس له استقلال في الوجود بل انما وجد هذا حينما شك اهريمن في عمله!. وكان بين الزروانيين والكيومرثيين وبين الزرادشتيين المزديسنيين اختلاف شديد، حيث كان هذا الخلاف، قد اخذ جانب الحقد والعداء بينهم، وقد استفاد الاجانب من هذا الخلاف.

وكان في ايران اذ ذاك ـ ما عدا الزرادشتيين ـ خمس فرق اخرىٰ لم يكونوا يختلفون مع الزرادشتيين والزروانيين والكيومرثيين فحسب، بل كانوا يختلفون فيما بينهم ايضاً:

الفرقة الاولىٰ: يهود ايران، الذين كانوا قد انطلقوا من سبي بابل علىٰ اثر فتح كوروش لبابل، وقد جاءت مجموعة منهم الىٰ ايران وسكنوا في مغربها اي خوزستان واكباتان، وقد زاد عددهم علىٰ عهد الساسانيين وتوغلوا داخل ايران، حتىٰ تجمع عدد كثير منهم باصبهان.

الفرقة الثانية: نصارىٰ ايران، الذين كانوا من أوائل عهد النصرانية في دور الأشكانيين، قد اعتنقوا دين الرهبان، وهم من سكنة النواحي الغربية الايرانية ايضاً، وقد بنوا لأنفسهم كنائس فخمة في النواحي الشرقية والغربية من نهر الفرات، وقد اختاروا لانفسهم طريقة خاصة تعرف بالطريقة (النسطورية). وقد توغلوا شيئاً فشيئاً داخل ايران الىٰ اقصىٰ نواحي الشمال الشرقي مماوراء النهر وقد توغلوا من هناك الىٰ الصين...

الفرقة الثالثة: طريقة المانوية، التي ظهرت حوالي عام ٢٢٨ للميلاد، وقد تقدمت في ايران تقدماً سريعاً وكبيراً؛ حيث كانت طريقة ساذجة بسيطة لاعلائق لها ولا عوائق، وكان اكثر ما سعىٰ اليه المانويون هو تزكية النفوس وتطهيرها باطناً وظاهراً وتصفية الاخلاق، وكان للمانوية حالات عرفانية وتجريدية خاصة، وكانت المانوية اكثر الأديان القديمة عناية بالجمال والرفاه معنوياً ومادياً؛ لذلك أسرع الايرانيون الىٰ اعتناق هذا المذهب، وكان الذين يؤمنون به ذوي عقيدة راسخة فيه، بحيث لم يستطع الساسانيون اقتلاعه مع كل ما عملوه ضده من تضييق وتشديد.

الفرقة الرابعة: الطريقة المزدكية، التي اعلن عنها في ايران حوالي عام ٤٩٧ للميلاد. وبما انّ الذي بلغنا اليوم عن هذه الطريقة هو من طرق اعدائها فلا نستطيع الاعتماد علىٰ القول بأنهم كانوا يقولون بالاشتراكية في الأموال والنساء، او كانوا «اباحيين» حسب

المصطلح الاسلامي. ومع أن ملوك ايران وخاصة «انوشيروان» وقف منهم موقف التضييق والتشديد، فقد جمعهم في مكان واحد وقتلهم عن آخرهم، ومع ذلك لم ينته اتباع «مزدك» فكانوا يعيشون في ايران علىٰ تقية من دينهم.

الفرقة الخامسة: البوذائية، التي كانت تجاور ايران من نواحي الشمال الشرقي لايران، وكانت من ناحية اخرىٰ تجاور حدود الصين، وكانوا يدعون في ايران: البدهيين، هؤلاء كانت لهم عدة مراكز للتجمع، ونخص بالذكر منها: باميان وبلخ، فقد كان لهم في هذه المدن معابد للأصنام جليلة. وكان معبد «نوبهار» الشهير ـ والذي عرف في العهد الاسلامي بأنه من معابد النيران والزرادشت ـ من أهم معابد البوذيين في هذه البلاد. وان أسرة البرامكة الذين تسمنوا في تاريخ ايران الاسلامي، علىٰ عهد هارون الرشيد مناصب راقية، كانت من اعقاب رجل يُدعىٰ «برمكة» اي متولي معبد «نوبهار» للأصنام. وقد كان هؤلاء البوذائيون والمانويون الذين كانوا يسكنون نواحي الشمال الشرقي لايران حاربوا العرب عشرين عاماً، دفاعاً عن اراضيهم، علىٰ خلاف سائر الأمم الايرانية..[1]

ثم يقول سعيد نفيسي:

«وكانت أهم ناحية من نواحي الدولة الشاهنشاهية الايرانية الساسانية، ارض العراق وما بين النهرين، والتي كانت ميداناً للحرب بين الساسانيين والرومان، وكان اكثر امم هذه الأراضي من العنصر الساميّ، ويتكلمون باللغات الساميّة، وان اكبر خدمة قدمها هؤلاء لايران هي أنهم كانوا يترجمون علوم اليونان «الأوائل» الىٰ اللغة السريانية، وهم الذين اشاعوا الطب والرياضيات والنجوم والفلسفة في ايران، وقد برز من بينهم علماء كثيرون. وكانت لغتهم السريانية قد شاعت لدىٰ البلاط الساسانيّ، بعد أن كانت اللغة الآرامية هي اللغة الرسمية للدولة في ايران وخاصة علىٰ عهد الهخامنشيين. وقد كانت ديانة هؤلاء علىٰ فرق متعددة، لها عقائد خاصة بها، منهم اتباع «ابن ديصان» الذي يطلق عليه الأوروبيون: «باردسان»، وأتباع «مرقيون» الذي يطلق عليه الأوربيون: «مارسيون»

---

١ ـ الجزء الثاني من كتاب: تاريخ اجتماعي ايران ـ بالفارسية ـ ص ٢٠ ـ ٢٣.

وفرقة اخرىٰ اطلق عليهم القرآن اسم: «الصابئين»[1].

ان الذين بحثوا في الأديان والمذاهب في ايران علىٰ عهد الساسانيين، ذكروا وجود وشيوع هذه المذاهب والأديان في ايران اذا ذاك؛ فقد اشار الباحث الدانماركي الشهير: كريستن سن في كتابه «ايران علىٰ عهد الساسانيين» الىٰ هذه المذاهب التي ذكرناها آنفاً، فقد اشار الىٰ المذاهب والأديان القديمة في ايران في مقدمة كتابه، واورد فيه فصولاً بعناوين: «الزرادشتية: الدين الرسميّ للدولة» و«ماني والمانوية» و«المسيحيون في ايران» و«الثورة المزدكية» ويبحث في هذه الأديان بالتفصيل. وفي كتاب «تمدن ايران» تأليف جماعة من المستشرقين وترجمة الدكتور عيسىٰ بهنام بحوث حول الموضوع، وبامكان اي قارئ، أن يرجع الىٰ هذه الكتب وامثالها في هذا الموضوع.

والجدير بالذكر، مع أن الدين الزرادشتي كان الدين الرسمي للدولة علىٰ عهد الساسانيين، ومع ان الدولة الساسانية وأجهزتها العظيمة كانت تدافع عن هذا الدين وتؤيد وتحامي عنه بكل قوة وبدون مسامحة، مع ذلك كله لم يستطع هذا الدين أن يكسب الأكثرية الساحقة؛ حيث لم تكن المسيحية فقط تعد معادية قوية للزرادشتية، بل حتىٰ اليهودية والبوذية، بل كانت المسيحية في تقدم وانتشار. وكانت هناك اديان ومذاهب اخرىٰ تنشأ داخل ايران وفي اوساط العنصر الآري كالمانوية والمزدكية، وكانت هي الاخرىٰ أيضاً في تقدم من حيث الاتباع، والتقليل من اتباع الزرادشتية.

والاسلام ـ علىٰ طول تاريخ هذه الدولة الذي يبلغ آلافاً من السنين ـ هو الدين الوحيد الذي استطاع أن يكسب الأكثرية الساحقة تدريجيّاً؛ بحيث اقتلع علىٰ مدىٰ قرنين او ثلاثة مذاهب ماني ومزدك وبوذا من مشرق ايران وافغانستان، وجعل المسيحية واليهودية والزرادشتية في اقليات ضيقة.

ان الساسانيين كانوا قد بنوا سياستهم المدنية علىٰ أسس دينية؛ اذ كان اردشير بابكان الساساني هو من اسرة دينية بلغت الىٰ السلطان، وحيث كانت له عواطف دينية من ناحية وكان في سياسته المدنية بحاجة الىٰ اسس عقائدية، جعل يحامي عن دين الزرادشت

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٢٤.

ويدافع عنه ويحميه ويشيعه بين النـاس؛ فـهو الذي امـر بـتدوين الكـتاب المـقدس للزرادشتيين: «أقستا» وهو الذي نظم الجهاز الديني الزرادشتي، وبه بلغ رجـال الديـن الزرادشتي الىٰ قوة ونفوذ كبيرين.

يقول الدكتور محمد معين في كتابه:

«ولما انقرضت الأسرة الأشكانية، انتقلت السلطة الىٰ أردشير بابكان (٢٢٦ ـ ٢٤١ للميلاد) رأس الأسرة الساسانية. ويعدّ ظهور هذا الملك علىٰ عرش السلطة في ايـران، مقدمة في طريق السعادة لهذه الأمة! فقد وجدت هذه الأمة بـمساعيه سـمعة وشـهرة خاصة. وقد بني هذا الملك اسس سلطته وسلطة خلفائه علىٰ أسس ديـن «مـزديسنا» وكان قد ورث هذه العاطفة الدينية، فكان ساسان جده الأعلىٰ مديراً لمعبد «أناهيت» في اصطخر فارس، ولهذا اهتم وسعىٰ في سبيل احياء دين آبائه بشكل كبير؛ فامر بـضرب صورة معبد النيران علىٰ جانب من المسكوكات النقدية شعاراً قومياً! ولقب نفسه في ما كان يكتب باسمه بلقب «مزديسنا» أي: المثنى علىٰ مزدا. وقد لخص الشاعر الحكيم ابو القاسم الفردوسي الطوسي كل مانسب اليه المؤرخون بشأن تديّنه وعلاقاته السـياسية والدينية، ضمن وصاياه ونصائحه لولده شاهپور، فقال:

الديـــن والدولة فـيما أرىٰ ... كـــخيمة قـــائمة بـالعماد

لا الدين دون الحكم يـبقىٰ ولا ... حكم بلا دين يسـود البـلاد[1]

وقد دعا اردشير «تنسر: هيربدان هيربد» الىٰ بلاطه، وأمره بتنظيم كتاب «اقستا» كما يقول دينكرت»[2].

ثم يقول الدكتور معين:

---

١ ـ الأصل:

چنان دين وملت بيكديگرند ... تـو گـوئي كـه در زيـر يک

چـــــادرند ... نه بي تخت شاهي، بود ديـن

بـــــپاي ... نه بي دين بـود شـهر يـاري

بـــــجاي

٢ ـ مزديسنا وادب فارسي، ص٩، ط ٢. والتعريب للمعرب.

«كان عهد الساسانيين بصورة عامة عهد ازدهار لدين مزديسنا؛ فقد بلغ الرجال الزرادشت فيه مبلغاً كاملاً من القوة، فكانوا أحياناً يتّحدون فيما بينهم ضد الملك! وكان نفوذ الموابدة في المجتمع كبيراً فكانوا يتدخلون حتىٰ في الحياة الشخصية للملك والرعية، وكان من اللازم أن يكون الفصل في اغلب الامور بيد هذه الطبقة الدينية».

ثم ينقل عن المستشرق الشهير: كريستن سن المتخصص في دراسة ايران، قوله:

«لم يكن نفوذ الموابدة مبنياً علىٰ أساس مكانتهم الدينية والأحكام العرفية التي كانت الدولة قد وافقت علىٰ تركها لهم، ولا مقتصراً علىٰ تبريك المواليد والعرائس والتطهير وقبول القرابين فقط؛ بل ان امتلاكهم للأراضي ومنابع الثروة التي كانت ترد اليهم من طريق الغرامات الدينية والاعشار والصدقات والهدايا، كان مما قد اكد نفوذهم القوي في كل شيء؛ ولذلك كان لرجال الدين الزرادشتي نوع من الاستقلال الواسع بحيث يمكن القول أن الموابدة كانوا قد شكلوا دولة دينية ضمن دولة الساسانيين السياسية»[1].

الدين الرسمي للدولة الزرادشتية

وبما أن الساسانيين كانوا قد بنوا سياسة دولتهم علىٰ أساس ديني، واعلنوا الزرادشتية ديناً رسمياً لدولتهم، وجعلوا لرجال زرادشت امكانات غير عادية؛ لم يكن لهم سلوك حسن مع اتباع سائر الأديان والمذاهب، بل كانوا احياناً ـ وبتأثير من رجال زرادشت ـ يحملون الناس علىٰ هذا الدين بالاجبار وبقوة السلاح ويلجئونهم الىٰ ترك اديانهم ومذاهبهم، واتباع دين زرادشت.

يقول كريستن سن:

«كان رجال زرادشت متعصبين بشكل كبير، فلم يبيحوا لمواطنيهم اي دين سوىٰ دينهم، كان هذا التعصب مبنياً علىٰ عوامل سياسية؛ ولم تكن الزرادشتية ديناً تبشيرياً، ولم تكن لرؤسائه دعوة جميع البشر الىٰ الفلاح والنجاح باتباع دينهم، وانما كان لهم

---

١ ـ مزدينسا وادب فارسي، ص١١ و١٢، ط ٢. وانظر: ايران در زمان ساسانيان للمستشرق الشهير كريستن سن، ترجمة: رشيد ياسمي، ص١٣٨.

دعوىٰ السلطة المطلقة داخل الوطن الأم، حيث لم يطمئنوا الىٰ اتباع سائر الديانات من مواطنيهم، خاصة اذا كان لهم دين في سائر الممالك وله اتباع وقوة»[1].

ويقول سعيد نفيسي:

«ان من أهم أسباب اضطراب اوضاع ايران علىٰ عهد الساسانيين؛ هو انه: لم يكن جميع الايرانيين قبل حكم هذه الأسرة من أتباع دين زرادشت، وانما أخذ أردشير بابكان ينشر هذا الدين بكل الوسائل والسبل، وذلك لأنه وصل الىٰ الحكم بمعونة رجال الدين الزرادشتيين وكان هو ابن احد موابدتهم (موبد)؛ وبما أن عرش الساسانيين كان قد اسس علىٰ تأييد من الموابدة من أول يوم؛ فقد وجد هؤلاء في ايران نفوذاً قوياً، حتىٰ انهم اصبحوا أقوىٰ الطبقات في ايران اطلاقاً، فقد تفوقوا حتىٰ علىٰ الملوك انفسهم، بحيث لو لم ينتخبوا رجلاً ممن يستحق الملك بعد موت الملك فيلبسوه التاج لم يبلغ الملك حتىٰ ولو كان ولياً للعهد والعرش! ولذلك نرىٰ أن اردشير بابكان هو الملك الوحيد من هذه الأسرة استطاع أن يجعل ابنه شاهپور ولياً للعهد، ولم يكن لغيره من اسرته اختيار ولي للعهد، ولم يكن لهم وليّ معيّن للعرش من بعدهم، وذلك لأنه لم يخضع «موبد الموابدة» لحكمه لم يكن يبلغ الحكم أبداً، فكان جميع الملوك في هذا العهد الساساني ممن نصبهم «موبد الموابدة»، ومن لم يخضع منهم لحكمه، يعارضه الموبد ويتهمه بالسوء! كما حصل هذا مع يزدجرد الثاني حيث لم يخضع لحكم الموابدة بقتل المسيحيين ولم يضيق عليهم، فلقبوه بلقب «بزهكار = بزهگر» اي: الأثيم حتىٰ اضطر بعد ثمان سنين من حكمه الىٰ أن يسيء السلوك مع النصارىٰ كما كان يفعل آباؤه وأجداده»[2].

ويقول أيضاً:

«اتخذ الساسانيون سياسة العنف مع النصارىٰ في ولاية ارمنستان، التي كانت من الولايات الايرانية بلا منازع، سواء في العهد الهخامنشي او الاشكاني أو الساساني، وكان ابناء الملوك الاشكانيين قد حكموا تلك الولاية مدة من الزمان. وحاول الساسانيون نشر

---

١ ـ ايران در زمان ساسانيان ـ ترجمة: رشيد ياسمي، ص ٢٩٠.

٢ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ١٩.

الزرادشتية هناك بقوة السيف والسلاح! وكان من نتيجة خوض الساسانيين في دماء هؤلاء أن لجّوا في عنادهم، وقاوموا الدولة المركزية فأصروا وألحّوا علىٰ ما كانوا يعبدون من الاوثان بضعة قرون! ثم قرروا أن يعتنقوا الدين المسيحي حوالى سنة ٣٠٢ ميلادية، واختاروا لانفسهم طريقة خاصة في المسيحية عرفت باسم: الكنيسة الأرمنية؛ وكان من نتيجة هذا الاختلاف الديني بين ارمنستان ايران والحكومة المركزية، أن دامت الحروب بين ايران والروم، نزاعاً علىٰ هذه الولاية. ولم يؤثر هذا الخلاف وهذه الحروب في اضعاف ايران امام الامبراطورية البيزنطية وروما الصغرىٰ او الغربية والشرقية وحسب، بل يسرت سبيل الظفر لسائر الأجانب ـ ومنهم العرب ـ علىٰ ايران»[١].

ويقول أيضاً:

«بين يدينا اليوم ثلاث كتائب (نقوش): «نقش رجب وسر مشهد ولعبة زرادشت» بقيت بأيدينا من آثار «كريتر = موبد الموابدة» علىٰ عهد شاهپور الأول، تبيّن لنا جزئيات ما اقدم عليه بقوة السلاح لنشر الزرادشتية في مختلف نواحي البلاد»[٢].

ونرىٰ في الفصل الخامس من كتاب «التمدن الايراني» شرحاً لهذه الكتيبة يقول:

«ظفرت هيئة الحفريات الشرقية من شيكاغو سنة ١٩٣٩ ميلادية في موضع: نقش رستم، قرب مركز تخت جمشيد، الىٰ الشرق من البناء المسمّىٰ: كعبة زرادشت، ظفرت بكتيبة طويلة يشرح فيها «الموبد كريتر» كيف انه تدرج الىٰ الرئاسة الروحية الزرادشتية ابتداءً من عام ٢٤٢ حتىٰ عام ٢٩٣ ميلادية. وتحكي احدىٰ هذه الكتائب كيف أن هذا الموبد أخرج من ايران عدداً من المبشرين للاديان الأجنبية[٣] حينما لم ير الصلاح في بقائهم؛ كاليهود «السمنا» والبوذيين، والبراهما والمسيحيين الناصريين (النصارىٰ) و«الموكتكا» الهند ـ كما نحتمل ـ والزنادقة ـ اي اتباع ماني»[٤].

ولا نقول قطعاً بأن العهد الساساني كان علىٰ سياسة واحدة من حيث المضايقات

---

١ ـ نفس المصدر، ص٢١، وراجع بالفارسية ايضاً: ايران در زمان ساسانيان، ترجمة رشيد ياسمي، ص٣٠٨

٢ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ص٢٧.

٣ ـ أي غير الدين الرسمي للدولة.

٤ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، بقلم جمع من المستشرقين، وترجمة الدكتور بهنام ص١٧٨.

الدينية؛ كما لم تكن قدرة رجال الدين الزرادشت دائماً علىٰ شاكلة واحدة، ولم يكن ملوك ايران دائماً تحت نفوذهم؛ اذ كان لشاهپور الأول ويزدجرد الأول وانوشيروان ـ وعلىٰ الأقل في قسم من سياستهم ـ نوع من الحرية والتحرر من هذه المضايقات علىٰ أتباع سائر الأديان والمذاهب في ايران.

يقول هؤلاء المستشرقون في الفصل الخاص الذي عقدوه بعنوان «الوضع الديني في غربي ايران علىٰ عهد الساسانيين» بعد ما نقلوا موضوع كتيبة «الموبد كريتر» والمضايقات التي ارتكبت في عهده، يقولون:

«... ومن ناحية اخرىٰ نرىٰ ان «اليزة وارداپت» ينقل عن كتيبة تُنسب الىٰ شاهپور، أمر فيها بحرية المغان واليهود والمانويين واتباع الأديان والمذاهب كافة، في جميع نواحي ايران، وان لا يضايقوهم في أداء مراسيمهم الدينية. وهذه الكتيبة (الكتيبة الأولىٰ) كتيبة الحرية التي اعطيت للأقليات الدينية في ايران علىٰ عهد شاهپور الثاني بين سني ٢٢٧ و٢٩٣ ميلادية. والمرسوم الثاني أيضاً في حرية الأديان والمذاهب، وينسب الاعتزاز به الىٰ شاهپور الأول (٢٤٢ ـ ٢٧٣م)[1].

وحينما يشرح كريستن سن في الفصل السادس من كتابه اوضاع النصارىٰ في ايران، يقول عن الوضع العام لهم اذ ذاك:

«من اجل أن يتضح لنا نوع العلاقة بين المسيحية وديانة ايران الرسمية في القرنين الرابع والخامس، ننقل هنا كلاماً عن «زاخو» يقول: كانت المسيحية علىٰ عهد الساسانيين حرة، حتىٰ في أشد، أدوار التعذيب والتعدي، وان كان بعض الفرق المسيحية تتعرض الىٰ اذىٰ من قبل عمال بعض المدن والقرىٰ الايرانية. وقد قرر المسيحيون اصول ديانتهم في المجالس التي عقدوها في عاصمة ايران بين سنة ٤١٠ الىٰ ٤٢٠م بحضور رجلين ممثلين عن الامبراطورية البيزنطية: احدهما «ماروثا» اسقف ميافارقين، والآخر «آكاس» اسقف آميدا. وقد كتب «افرعت» خطبه ومواعظه في اشد أيام الظلم الذي جرىٰ علىٰ عهد شاهپور الثاني بالنسبة الىٰ المسيحيين، ومع ذلك لا نرىٰ في هذه الرسائل اثرا يحكي لنا

---

١ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص١٧٨ ـ ١٧٩.

عن عدم اجرائهم لمراسم دينهم في ذلك العهد بصورة عادية ومن دون موانع. نعم ان الضغط كان موجهاً الىٰ علماء دين المسيح، الا أنه لم يقل قائل أن ملوك ايران عذبوا عامة المسيحيين أو اجبروهم على الارتداد عن دينهم. والظاهر أن المسيحيين، سواء في ايران أو الروم، كانوا يتبعون في علاقاتهم الحقوقية فيما بينهم، القوانين السريانيه والرومية مع تعديل يناسب العرف المحلي العام. وكان باستطاعة المسيحيين العيش تحت قيادة الأساقفة والجاثليق بسلام غالباً، ولم تكن تصيبهم المذابح العامة الّا نادراً»[1].

ان الدين المسيحي كان حراً بصفته اقلية دينية، ومع ذلك يتكرّر في التاريخ ذكر الذين اصابهم الأذىٰ في فواصل زمنية مختلفة، والظاهر أن اكثر هذا الأذىٰ كانت له جذور سياسية؛ وذلك أن هذه الأقلية المسيحية الايرانية كانت تأخذ جانب أصحاب مذهبهم الرومان في الحروب الايرانية الرومانية، ولهذا وقعوا تحت غضب سلاطين ايران.

يقول كريستن سن بشأن يزدجرد الأول:

«أن السلام الذي تظاهر به يزدجرد الأول في علاقاته مع المسيحيين كان ناتجاً عن أسباب سياسية بلا ريب؛ فبتحكيمه الصلح بين ايران والروم كان بامكانه أن يبذل مساعيه في سبيل تحكيم قوته وسلطته، ولكن نضيف نحن الىٰ هذه الضرورة السياسية القول بأن يزدجرد كان بطبعه يميل الىٰ التسامح في الأمور الدينية»[2].

ويقول في شأن انوشيروان:

«واتحد خسرو مع الروحانيين الزرادشت كي يجد طريقاً يتخلص به من المزدكية. ولكنه مع ذلك لم تكن طبقة الروحانيين ولا طبقة الأشراف ترجع في عهده الىٰ ما كانت عليه من القدرة السابقة. لا شك أنّ خسرو الأول كان زرادشتياً، الا أنه كان يمتاز عن سائر الملوك الساسانيين بأنه لم يكن جامداً في امور دينه ولا متعصباً، وكان ذوقه يتسع للعقائد المختلفة والمدارس الفلسفية ايضاً، وكان يستخدم المسيحيين في المؤسسات ذات النفع العام، ولم يدخل علىٰ نفسه الشك في هذا»[3].

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٢١.

٢ ـ نفس المصدر، ص ٢٩٥.

٣ ـ نفس المصدر، ص ٤٤٧.

الدين المسيحي

ان مسألة ظهور الدين المسيحي في ايران، والضغط عليه أحياناً، ومقاومة المسيحيين، ونفوذ هذا الدين في ايران الىٰ حد التأثير حتىٰ علىٰ البلاط، وحتىٰ مال اليه بعض السلاطين الساسانيين في أواخر عهدهم، وحتىٰ اعتنقه كثير من البيوتات الزرادشتية الأصيلة والعريقة.. لهي قصص من التاريخ تستهوي الأفئدة وتستدر العبرة، وهي في الوقت نفسه دليل علىٰ ضعف دين زرادشت في أوساط الايرانيين آنذاك، علىٰ رغم سطوة رجاله في ايران.

حيث نستطيع القول بأنه لو لم يدخل الاسلام الىٰ ايران لعمت المسيحية جميع نواحي هذا البلد، ولتحطم دين زرادشت علىٰ يد المسيحية، كما أن ديني المانوية والمزدكية اللذين ظهرا في أوساط ايران كانا يعدان مناوئين شديدين لدين زرادشت. ولهذا فالزرادشتية كانوا يضمرون له حقداً شديداً، ولهذا أيضاً كان الزرادشتية يعادون المانوية والمزدكية، وحتىٰ المسيحيين اكثر من المسلمين، وكثيراً ما نرىٰ في التاريخ أن الزرادشتيين، ولا سيما رجال دينهم يساعدون المسلمين علىٰ المانويين والمزدكيين. ومن ناحية اخرىٰ كان المسيحيون في ايران يقدمون المسلمين علىٰ الزرادشتية، وذلك علىٰ أثر الأذىٰ والمذابح العامة التي اصابتهم من الزرادشتيين (علىٰ عهد شاهپور الثاني).

إن نفوذ المسيحية الىٰ ايران وانتشارها فيها كان طبيعياً؛ فقد كتب كريستن سن عن سبب ظهور المسيحية في ايران يقول:

«حينما استخلفت اسرة الساسانيين بعد الاشكانيين، كان للمسيحيين مركز تبشيري هام في بلدة «الرها» (في آسيا الصغرىٰ: تركية)... وفي الحروب الكبرىٰ التي قامت بين ايران والروم وضعت الدولة الايرانية اسراها في النواحي البعيدة عن ايران المركزية، وكان ملوك ايران حينما يجهزون جيوشهم الىٰ سورية (او تركية) احياناً يُرحّلون معهم في خروجهم من هناك أهل مدينة او قرية او ناحية بكاملها من محلهم الىٰ احدىٰ النقاط الداخلية؛ وحيث كان القسم الاكبر من هؤلاء المهجرين مسيحيين، تغلغلت المسيحية

بينهم في مختلف نواحي ايران»[1].

ويقول جماعة من المستشرقين:

«والحقيقة: ان المسيحية دخلت ايران علىٰ أيدي الآراميين الذين أقاموا في سورية، او المبشرين الذين جاءوا الىٰ ايران عن طريق مدينة «اورفة» (الرهـا ـ ادس) او عـلىٰ ايدي أسرىٰ الحروب. وكان يعيش في (اربيل) منذ المئه الاولىٰ ـ الميلادية ـ جماعات من المسيحيين، ونرىٰ اليوم في (كركوك) آثاراً لهم تعود الىٰ ١٤٨ ـ ١٩١م. ونحن وان لم نجد للمسيحية في هذه الفترة من السنين آثاراً واجهزة رسمية في ايران، الا أنها كانت قد لفتت الىٰ نفسها انظار كثير من الفرس، ونخص بالذكر منهم (ماني)»[2].

وقد كتبوا تحت عنوان: «دين المسيح في ايران علىٰ عهد الساسانيين» يقولون:

«كانت دولة الروم البيزنطية مسيحية من الامبراطور والبلاط الىٰ عموم الناس. وكانت الدولة في ايران منذ بدء العهد الساساني تدافع وتدعو الىٰ دين زرادشت بالاضافة الىٰ أن القوة كانت في الواقع بايدي هؤلاء الزرادشتيين، وان عدم وجود مظاهر التـعصب فـي ايران بالنسبة الىٰ المسيحيين لم يكن من بدء ظهور هذا الدين؛ بل كان وضع هؤلاء في ايران علىٰ عهد شاهپور الثاني في غاية الشدة والضيق؛ اذ كان شاهپور عدواً سـياسياً لقسطنطين... لقد اصاب المسيحيون في أوائل امرهم في ايران اشد الأذىٰ؛ اذ كانوا يُقتلون اما دون اية محاكمة او بعد محاكمة قصيرة، او يعذبون بطرق في غاية الشدة، وقد وصل الينا شرح انواع تعذيب المسيحيين في ايران باللغة السريانيه (السورية = الشامية) ومن خلاله عرفنا كيف كان هؤلاء المسيحيون ـ الذين لانعلم نحن اليوم أسماءهم ـ يقتلون وهم علىٰ ثبات من دينهم. وسرعان ما ادركت الجهات الرسمية فـي ايـران أن هـؤلاء المسيحيين ليسوا من الخونة من اتباع المناطق الخارجية او الفرعية، بل هم من الايرانيين الحقيقيين الذين كانوا فيما سبق يعدّون من خواص المؤمنين بزرادشت والمنتصرين له، وان بعضهم كان من الشخصيات السامية والشهيرة التي لم يشك اذا ذاك فـي قـوميتهم

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٢٩٠

٢ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص١٢٨.

ووطنيتهم، الا أنهم كانوا ثابتين علىٰ عقيدتهم. ومنذ ذلك الحين صممت القوىٰ العسكرية علىٰ العناية بهداية الضالين والمنحرفين بدلاً من تأديبهم وتعذيبهم، الا انها لم تؤدِ هذه الطريقة ايضاً اية نتيجة مفيدة.. وبعد اربعين عاماً من الأذىٰ والعذاب وجدت المسيحية في ايران موقعاً يركن اليه ويعتمد عليه ويعتد به.. وحينما انتهت ايام العذاب بسبب هجمات الهياطلة والهيونيين في المشرق، توصلت المسيحية في ايران الىٰ ايجاد الأجهزة الرسمية لنفسها واكتساب المواقف الثابتة، وتوصل المسيحيون في ايران بصورة سريعة الىٰ حياة معنوية وثقافية قوية، بحيث لم يؤثر فيهم ذلك العذاب الذي وقع عليهم في القرن الخامس، بسبب يزدجرد الثاني وبهرام الخامس اي تأثير، ولم يكسر منهم أيّ شيء. وفي هذه الفترة نجد من (طيسفون = سلوقية) ونصيبين مدارس دينية روحية كألمع مدرسة شرقية، وبعث تأسيس الصوامع علىٰ تربية عدد كثير من المعلمين لاصول الديانة المسيحية في تلك الصوامع، وصارت هذه سنّة وسيرة دائمة حتىٰ اليوم. ان الحياة الواقعية للمسيحيين في ايران تظهر لنا بوضوح من خلال نتائج تبشيرهم فيايران اذ ذاك»[1].

ثم يشير كاتب هذا المقال[2] إلىٰ حياة المسيحية في ذلك العصر والىٰ قدرة التّبشير لديهم اذ ذاك، ثم الىٰ الانكسار والهزيمة التي أصابت المسيحية في المشرق من قبل الاسلام والمسلمين.. فيقول:

«بنظرة سريعة الىٰ الخارطة التي نشرها مؤخراً الدكتور «ژ. دويليمه» استاذ كلية الحقوق بجامعة «نولوز» ضمن ما نشره من نتائج اتعابه المفيدة؛ يتضح لنا: كيف كان المبشرون يخرجون من ولاية كلدة الىٰ مدن البحر الأبيض المتوسط وبحر الصين والهند الجنوبية وتبت والمغول، وكيف انهم ادخلوا الكثير من اهل هذه المناطق في دين المسيح. ولم يكن هذا التّبشير بين الدول، بل بين الأمم الصحراوية الرحالة التي كانت كل يوم في مكان. وهكذا بقيت المسيحية في هذه المناطق النائية الىٰ ما بعد القرن الثالث عشر الميلادي، ووجود اتباع وقد شاهد وجود اتباع المسيح في هذه المناطق، مبشرو

---

١ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص٢١٦ ـ ٢١٨.

٢ ـ پ. ژ. دوميناشة.

فرانسيسكن من قبيل جان دوپلان كارپن، وروبرك، ورحالة من قبيل: ماركوپولو. وقد وجد المذهب النسطوري اتباعاً وهواة بين رؤساء طوائف المغول الرّحل الذين كانوا قد توجهوا علىٰ اثر انتصاراتهم الىٰ جهة المغرب وكانوا مترددين في اختيار واحد من الأديان المختلفة التي وجدوها في طريقهم من البوذية والمانوية والإسلام، وقد كاد هذا المذهب النسطوري أن يتغلب علىٰ سائر المذاهب آنذاك، الا أن دخول المغول في دين الاسلام شكّل هزيمة نكراء للمسيحية في هذه النواحي»[1].

وقد كادت المسيحية أن تنتصر في ايران علىٰ عهد خسرو پرويز اكثر من أي وقت آخر؛ وقد تنصّر كثير من أقرباء الملك الذين لم يكونوا الا ايرانيين أقحاحاً ونعلم أن اقحاماً خسرو پرويز اضطر الىٰ اللجوء الىٰ خصمه القوي موريكيوس قيصر الروم، علىٰ أثر ثورة القائد الايراني الشهير: بهرام چوبين، واستنصره پرويز فنصره قيصر، حتىٰ ارجعه الىٰ عاصمته.. ويقال: انه كان قد مال الىٰ المسيحية منذ أن كان هناك..

ويقول كريستن سن:

«ولم يفرح الموابدة برجوع خسرو پرويز الذي صادف عام ٥٨١ ميلاديّة؛ اذ كان يحمل معه من الروم ميلاً الىٰ خرافات وأوهام النصارىٰ، والذي كان يقوي فيه هذا الميل امرأة مسيحية تسمىٰ «شيرين» التي اصبحت ملكة البلاط الايراني فيما بعد»[2].

وقد ادعىٰ بعضهم: أن خسرو پرويز كان قد ترك دين زرادشت واعتنق دين النصارىٰ رسمياً؛ الا أن كريستن سن يقول:

«من المؤكد أن ما يقوله «اوتيكيوس»: من أن خسرو پرويز كان قد اعتنق النصرانية، لا أصل له؛ الا أنّ علاقاته الطيبة والودية مع القيصر: موريكيوس الذي كان قد نصره لاسترجاع عرشه، وزواجه بالملكة الرومية المسماة «ماريا» وغرامه بحبيبته المسيحية «شيرين» جعلته ينظر الىٰ رعاياه المسيحيين بنظر الرحمة والعطف. وأمّا هو فمن الممكن أنه اضاف بعض خرافات المسيحيين إلىٰ أوهامه الزرادشتية السابقة..»[3].

---

١ ـ بالفارسية: تمدن ايراني.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ترجمة: رشيد ياسمي، ص٤٦٦.

٣ ـ نفس المصدر، ص ٥١٠.

ثم يذكر كريستن: نفوذ فرقتين من النصارىٰ في البلاط هما: اليعقوبية والنسطورية، ويذكر بعض خلافات هاتين الفرقتين، ويذكر تنصّر بعض القواد الايرانيين من قبيل: مهران گشنسپ، الذي عمّده النسطوريون وسموه باسم: گيوركيس، وآخرين من هذا القبيل..

ويقول:

«لما اعتنق مهران گشنسپ دين المسيح ذهب الىٰ الصحراء ليتعلم حقائق الدين الجديد من الرهبان، وسأل اخته يوماً: ماذا كانوا يقولون بشأني في البلاط بعد أن أصبحتُ مسيحياً؟ فأجابته: تعال ولا تخف، ان الملك حينما سمع بك قال: لقد أسرع گشنسپ الىٰ جهنم! ثم لم يقل أيّ شيء، فتعال اليه لعله يردّ عليك أملاكك.. والتقاها بعد مدة وقد تزوجت بأحد الأشراف، فتقدم اليها ودعا لها وعظّم امرها، فقامت اليه اخته من مسندها بكل حنان ومدت يدها اليه وقالت له وهي تضحك: بشراك: لقد تنصرت انا أيضاً»[1].

ومما ذكرنا الىٰ الآن نعلم:

أولاً ـ ان المسيحية كانت في تقدم واطراد في ايران الزرادشتية بصورة طبيعية، ولو كانت الحالة باقية كما كانت، لاصبحت المسيحية خطراً كبيراً علىٰ الزرادشتية.

ثانياً ـ كان للمسيحية تبشير عالمي علىٰ خلاف الزرادشتية، اي أن المبشرين النصارىٰ لم يكونوا يعرفون حدوداً لدينهم، ولذلك كانوا يسعون جاهدين في نشر المسيحية في ايران وغير ايران، وكانوا قد توفقوا في هذا السبيل كثيراً.

ثالثاً ـ إنّ الاسلام لما قدم الىٰ ايران هزم المسيحية المنتصرة اكثر مما هزم الزرادشتية المنكسرة، ولو لا دخول الاسلام لسرت المسيحية الىٰ الشرق كله، وأن الذي منع من انتشار المسيحية في المشرق الأدنىٰ والأقصىٰ هو معنوية الإسلام العالية.

ان البابوات النصارىٰ كانوا يتألمون من انتشار الإسلام في ايران اكثر من رجال زرادشت؛ اذ كان النصارىٰ يحسون بالغبن والغبطة اكثر من هؤلاء.

ولهذا أيضاً نرىٰ أن جناب البابا يمنح الجوائز والمداليات لكاتب غير نزيه استخدم

---

١ ـ نفس المصدر، ص ٥١٢ ـ ٥١٣.

قلمه ليتهجم ما استطاع علىٰ الاسلام باسم «ايران» ويقدره ويشكره علىٰ ذلك[1] هذا وقد مضىٰ علىٰ ذلك العهد اربعة عشر قرناً من الزمان!.

دين ماني

ان دين ماني أحد الأديان التي كانت حية نابضة علىٰ عهد الساسانيين. والحديث حول العقائد، والآداب المانوية طويل، ونحن نعرف ـ بلا شك ـ أن دين ماني معقد ومبطّن، وسواء بالنظر الىٰ العقائد أو الطقوس، والمعروف أنه عبارة عن عناصر دينية زرادشتية ومسيحية وبوذية بالاضافة الىٰ بدع خاصة. يقول السيد حسن تقي‌زادة في خطابه التحقيقي الذي اورده في «ندوة التعرف علىٰ ايران»:

«وقد مال جماعة من الباحثين الىٰ القول بأنه كان لبعض العقائد الايرانية القديمة، ولاسيما الزروانية وبعض الطرق والفرق الاخرىٰ غير الرسمية والمبتدعة من الزرادشتية، في اواخر عهد الأشكانيين واوائل الساسانيين، اثر كبير في العقائد المانوية. ومن خلال البحث والتدقيق عُرف ان هذا ليس الا شبهاً ظاهراً نشأ من أن ماني كان يقتبس مصطلحات الأمم التي كان يريد نشر دعوته فيها فيصبّ عقائده وتعاليمه في قوالب تلك المصطلحات المعروفة لديهم. واهتم بعد ذلك جماعة من الباحثين بالعقائد المسيحية الموجودة بين عقائده وتبين أن ماني كان مطلعاً علىٰ الدين المسيحي اكثر من سائر الأديان والمعتقدات الايرانية والهندية، الا أنه لم يطلع علىٰ المذهب الرسمي للمسيحية، بل علىٰ الطريقة «الگنوسية» التي كانت مزيجه بالفلسفة الشرقية، متأثرة بالفلسفة اليونانية الاشراقية المتداولة في (سورية وما بين النهرين) بعد الأسكندرية والتي كانت تختلف عن الفلسفة القديمة والأصلية اليونانية، والتي قد نشأت هناك في القرون المتصلة بما قبل ميلاد المسيح، ولا سيما فلسفة «مرقيون» و«باردیصان» الگنوسيين اللذين كانت لهما عقائد ثنوية ايضاً»[2].

ويقول السيد تقي زادة ايضاً:

---

١ ـ جريدة «الاطلاعات» الايرانية، برقم: ١٢٧٤٤ وبتاريخ: ٤٧/٨/٢٨. ص ١١.

٢ ـ بالفارسية: ماني ودين او، ص ٢٨ ـ ٢٩.

«بالنسبة الىٰ عقائد الباحثين في اصول دين ماني، ينبغي أن يقال بناءً علىٰ البحث الصحيح: أن ماني وان كان قد اخذ افكاراً من جميع الأديان والمذاهب المعروفة لديه قليلاً او كثيراً (فمن البوذية قليلاً، ومن الزرادشتية والزروانية اكثر، ومن المسيحية اكثر منهما) ومن الطريقة الگنوسية اكثر من الجميع ولا سيما من فلسفة مرقيون.. الا أن دينه لم يكن تركيباً من اقتباسات فحسب؛ بل ان أُسس وروح الدين كانا من عنده وأن مؤسس هذا البناء العجيب كان هو لاغير، وأن ألوان سائر الأديان المعروفة آنذاك كانت عرضية، واساس القصد منها التسهيل لنشر دينه في سائر البلدان والمدن وبين الأمم والأقوام الهندية والزرادشتية والنصرانية»[1].

ومهما كانت محتويات دين ماني ، وايا كان شخص ماني فلا يهمّنا الآن؛ وسنشرح قسماً من عقائد وآداب وشرائع ماني في الفصول اللاحقة التي نبحث فيها في الثنوية وغيرهما.. والذي يهمنا الآن هو وضع دين مانى عند ظهور الاسلام في ايران، وكم كان عدد أتباعه آنذاك وكيف كان نفوذه ومعناه؟ وهل كان في طريقه الىٰ الزوال؟

والمؤكد أن هذا الدين كان دعوة عالمية، وأن ماني كان مدعياً للنبوة وأنه آخر الأنبياء ودينه اكمل الأديان! وكان للمانوية بعده دعاة مهرة بحيث استطاعت أن تعبر حدود ايران ـ خلافاً للزرادشتية ـ وتستوعب اتباعاً كثيرين من مدن اخرىٰ. وقد بقيت المانوية علىٰ الرغم من الضغط والمضايقة التي لاقتها من رجال زرادشت حتىٰ ظهور الاسلام، وقد أظهر المانويون أمام المسلمين مقاومة أكثر من مقاومة الزرادشتيين، وكانوا موجودين بعد العهد الاسلامي الىٰ قرون عديدة، ثم انقرضوا بعد ذلك.

كان ظهور ماني في أوائل العهد الساساني. وكانت ولادته فيما بين النهرين ولكنه من أصل ايراني. وكان قد أدرك عهد أردشير رأس الساسانيين، والظاهر أن ادعاءه للنبوة كان في عهد شاهپور الأول ابن اردشير. ويقال: أن شاهپور تأثر بدعوته وتردد في لحظة ما أن يجعل دين ماني الدين الرسمي للدولة، ولكنه ندم علىٰ هذه الفكرة[2] ويقال: ان اتباع

---

١ ـ نفس المصدر، ص٣٦

٢ ـ بالفارسية: تمدن ايراني ـ بقلم جماعة من المستشرقين، ص٢٢٢.

دين ماني بقوا حتىٰ القرن السابع الهجري. وعلىٰ هذا يكون دين ماني قد استمر من ظهوره حتىٰ انقراضه الف عام تقريباً.

ولقد حظي دين ماني في اول أمره باستقبال وانتشار سريع بين الناس؛ يقول السيد تقي‌زادة:

«ان لتاريخ المانويين ودعاتهم واتباعهم حتىٰ حملة المغول قصصاً كثيرة، واوضح فصولها. التقدم السريع لهذا الدين، حتىٰ أنه في عام ٣٠٠ ميلادية اي بعد وفاة ماني بربع قرن وصل دينه الىٰ اراضي سوريا ومصر وافريقيا الشمالية الىٰ أسپانيا وگال..»[١].

ويقول أيضاً:

«كان لدين ماني اتباع كثيرون في طغارستان ومرو وبلخ، حتىٰ أن «هوئن تسونگ» السائح الصيني في القرن السابع الميلادي يقول: إن المانوية كان الدين المطلق لايران، ويعني بذلك تلك النواحي من ايران خاصة، فقد كان لدين ماني في حدود طغارستان قوة كبرىٰ، وحتىٰ تعيين الوالي عليها في اوائل القرن الثامن الميلادي، من اتباع دين ماني..»[٢].

ويقول كريتسن سن:

«وبقي هذا الدين في ايران علىٰ الرغم من الضغط والشدّة اللذين كان رجال الزرادشتية يمارسونهما ضد هذه الفرقة المانوية، الا أنها كانت سرّية، وملتزمة جانب التقية. وفي الكتب المانوية المكتوبة باللغة القبطية روايات عما لاقاه المانويون من الأذىٰ والمطاردة علىٰ عهد نرسي وهرمزد الثاني. وكان عمرو بن عدي الملك العربى في الحيرة يدافع عن هذه الفرقة ويحميها. وكان يعيش في ولاية بابل الذي كان المنشأ الأول لهذه العقيدة، وفي طيسفون العاصمة الايرانية كثير من المانويين، الا أنهم هاجروا إلىٰ الشرق والشمال، حيث تقطن الطوائف الايرانية الأصيلة بسبب ما تعرضوا له من الضغط والعدوان من غيرهم من المعاصرين، وسكن جماعة كبيرة منهم في الصغد، الا أن هؤلاء

---

١ ـ بالفارسية: ماني ودين او، ص١٨

٢ ـ نفس المصدر، ص١٩ في الهامش.

الشرقيين، فقدوا ما يربطهم من العلاقات مع الغربيين من أهل دينهم»[1].

ان دين ماني لم يدم كثيراً، حتىٰ انقرض؛ ومن المؤكد أن الإسلام هو العامل الأصيل في هزيمة المانوية؛ حيث كانت المانوية ثنوية، ومن الطبيعي أن يفقد الشرك الثنوي مقوماته امام هذا الدين الجديد الذي كان له رصيد فطري وفكري، وكان أقدر علىٰ اجتذاب الافكار الصحيحة، ولا سيما طبقة العلماء والفلاسفة، بالاضافة الىٰ أن دين ماني كان مبتنياً علىٰ نوع من الزهد والرياضة الروحية غير القابلة للتطبيق العملي، ولاسيما ما فيه من احتقار للجنس والتناسل، واعتبارهما قذارة ونجاسة، ومافيه من تقديس للتجرد، كل ذلك كان عاملاً مهماً في انصراف الناس عنه بالفطرة، خاصة اذا واجه مدرسة تبتعد عن هذه الرياضة الروحية وهذا النوع من الزهد الرهباني، تقدس الزواج والتناسل وتحسبه سنةً دينية، مع احتوائها ـ الىٰ جانب ذلك ـ علىٰ معنوية وافرة ايضاً.

نعم؛ لو كان المسلمون يعدّون المانويّين من اهل الكتاب كاليهود والنصارىٰ والمجوس الزرادشت، ويعتبرون أن لديهم أصلاً سماوياً من قبل الله تعالىٰ، لأمكن للمانوية أن تدوم بصورة اقلية دينية كاليهود والنصارىٰ والمجوس، ولا سيما أن المانويين كانوا كثيرين حين ظهور الإسلام في منطقة نفوذه.. ولكن المسلمين حيث عدّوهم زنادقة ملحدين مشركين ثنويّين، فقد اطاحوا بكيانهم، حتىٰ بصورة اقلية دينية معاصرة.

المذهب المزدكي

والمزدكية مذهب آخر ظهر في اواخر عهد الساسانيين، ووجد له اتباع كثيرون، ويرىٰ كثيرون أن المزدكية مذهب متفرع عن دين ماني. ادعىٰ مزدك في عهد قباد ابي انوشيروان نوعاً من القيادة الدينية، واعتنق مذهبه، قباد عن عقيدة او تدبير سياسي لتحطيم طبقة الاشراف الزرادشتيين، ولهذا فقد علا كعب مزدك وذكره، الا أنه لم يمتد به الزمن حتىٰ قتل هو واتباعه في مجزرة عامة علىٰ عهد قباد او عهد انوشيروان بتدبير منه، واصبحت المزدكية مذهباً سرّياً. وقد بقي هؤلاء في العهد الإسلامي الىٰ قرنين او ثلاثة، وكانوا وراء

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٢٢٥.

كثير من الثورات الايرانية ضد الخلافة العباسية او ضد الإسلام احياناً، ولهذا ائتلف الزرادشتيون مع المسلمين ضدهم.

وقالوا: ان المؤسس الأول لمذهب مزدك رجل من أهل «فسا» من شيراز يدعى أيضاً زرادشت، وكان هذا يدعو الىٰ نوع من المانوية يخالف المانوية الرسمية، وانه صدع بدعوته هذه في اراضي الروم، ثم سافر الىٰ ايران وطفق يدعو الىٰ مذهبه، وقد عرف هذا في الروم باسم: بونديس. قال هذا كريستن سن، واضاف يقول:

«... وعلىٰ هذا فان دين مزدك هو دين: «درست دين» نفسه الذي نشره بونديس في الروم، ومن سفره الىٰ ايران بعد بدء دعوته الجديدة في الروم، نظن أن أصله كان من ايران. وكلمة «بونديس» وان كانت لا تشبه الاعلام الايرانية، الا أنّا نستطيع أن نعدها لقباً رومياً له. وليست الكتب الإسلامية التي اخذت معلوماتها حول المزدكية عن «خداي نامك» بل حتىٰ كتاب «الفهرست ـ لابن النديم» الذي له مصدر آخر، جميعاً يرون أن مؤسس المزدكية شخص آخر قبل مزدك، نفسه وقد جاء اسمه في «خداي نامك»: «زردشت» ومن هنا انتشر عنهم اسم: «زردشتكان».. وعلىٰ هذه فمن خلال البحث نستطيع أن نقول أن بوندس و زردشت اسم رجل واحد، وأن زردشت هو الاسم الأصلي لمؤسس هذا الدين، فهو مسمّىٰ باسم نبيّ مزديسنا. والنتيجة: أن فرقة المزدكية هي احدىٰ شعب المانوية وقد اسست منذ قرنين قبل مزدك في الروم، وأن المؤسس رجل ايراني باسم زرادشت بن خورگان من أهل «فسا». ... ويستفاد من محتويات الكتب العربية: أن زرادشت الفسائي كان قائداً دينياً تتسم دعوته بطابع نظري، إلا أن مزدك الذي كان رجل عمل اكثر من رجل نظر، عرف عند العوام بانه خليفة زرادشت ـ كما يقول الطبري ـ واستطاع هذا،أن يجعل اسم المؤسس الأصلي لهذا الدين تحت شعاع اسمه، ويعرف فرقته في حياته باسمه، ومن هنا توهم من بعده إنه هو المؤسس الحقيقي لفرقة المزدكية»[1].

وهنا كلام كثير حول ماهية العقائد المزدكية وعلل ظهور زرادشت الفسائي ومزدك من بعده. ومن المؤكد به أن اصول عقائد المزدكية ثنوية مشركة مثل ماني، مع التفاوت

---

١ ـ نفس المصدر، ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤.

وسنتكلم عنه في الفصل الآتي، اما من حيث الأدب والمقررات فهي تبتني علىٰ نوع من الزهد وسوء النظرة الىٰ الحياة.. ويقول كريستن سن:

«الأصل عند هذه الطائفة ـ كما في المانوية ـ هو تقليل علاقة الانسان بالحياة المادية، والحذر مما يقوي هذه العلاقة المادية. ولهذا فقد حرّموا اكل اللحوم واتبعوا في طعامهم قواعد معينة تقوم علىٰ رياضة روحية... ويروي الشهرستاني في الملل والنحل: «وحكىٰ عنه أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة...» ويمكن أن يكون المراد من هذا القتل الذي كان يأمر به مزدك هو قتل الشهوات والميول، التي هي موانع في طريق الفلاح والنجاح؛ فان مزدك كان ينهى الناس عن الخلاف والحقد والقتال، وحيث كان يعتقد أن السبب الأصيل للخلاف والحقد في البشر هو عدم التساوي بينهم في الحاجات؛ كان يقول: لابد أن تزيل عدم المساواة بين الناس كي نزيل الحقد والنفاق من بين امم العالم. وكان قد أمر «الصفوة» من اتباعه بعدم الزواج، وان لا يدّخروا اكثر من طعام يوم واحد ولباس سنة واحدة فقط. وحيث كان لدىٰ المزدكية هذا النوع من الزهد وترك الحياة، نستطيع القول بأن ما كان لدىٰ طبقة «الصفوة» من المزدكية من الأسسس، كان موجوداً لدىٰ الطبقة نفسها من المانويين أيضاً. الا أن أئمة المزدكية حيث ادركوا أن الناس العاديّين لايستطيعون أن يفلتوا من قيد الرغبة في اللذات والمتع المادية من قبيل تملك الثروة وحب النساء؛ فلا بدّ من أن يمكّنوا من اقناع او اشباع ميولهم هذه بحرية وبلا مانع! ولذلك فقد تبنّوا هذه الأفكار اسساً لعقائدهم ونظرياتهم وقالوا: ان الخالق خلق جميع وسائل العيش في الأرض لتكون في متناول البشر، فيقسّمونها بينهم بالتساوي، بحيث لايكون لاحد منهم شيء اكثر مما لسائر أبناء نوعه الانساني؛ وانما فقدت المساواة في الدنيا بين الناس، لأن كل واحد منهم اراد أن يشبع ميوله ورغباته من كيس اخيه الانسان الآخر؛ بينما ليس لأحد الحق في أن يتملك من المال والنساء وسائر الحاجات شيئاً اكثر مما لسائر ابناء نوعه؛ وعلىٰ هذا فيجب أن تؤخذ هذه الاضافات من الأثرياء لتعطى للفقراء لتسود المساواة مرة اخرىٰ بين البشر في هذا العالم»[1].

---

١ ـ نفس المصدر.

وليس فيما بايدينا اخبار صحيحة مقبولة عن شخصية مزدك ولا عن دعوته، الا شهرته هذه بافكاره الاشتراكية الشيوعية. ويدعي كريستن سن أن إصول وافكار مزدك هذه ترجع الىٰ افكار اخلاقية انسانية.

ومهما كانت دوافع مزدك، وأياً ما كان هدفه من افكاره الاشتراكية هذه؛ فما ينبغي لنا البحث حوله من ناحية تاريخية، هو البحث عن الأرضية المساعدة لقبول افكاره الاشتراكية في المجتمع الايراني يومذاك. وقد تصدىٰ كريستن سن في فصل «النهضة المزدكية» من فصول كتابه لشرح النظام الطبقي في ايران يومذاك، وأنه هو الذي هيّأ الأرضية المساعدة لتوسيع نطاق القبول العام لدعوة مزدك. وسنشير نحن في البحث حول الأنظمة الاجتماعية يومئذ، الىٰ كلام كريستن حول هذا الموضوع.

وهنا نقول: إن الأنظمة الاجتماعية في ايران يومئذ كانت او كوّنت ارضية مساعدة لنموّ امثال الأفكار الاشتراكية.

والسيد سعيد نفيسي بعدما يشرح في كتابه انظمة الارث والزواج والطلاق وحقوق المرأة في العهد الساساني، يقول:

«إن الامتيازات الطبقية التي سببت حرمان عدد كبير من الناس عن حق الملكية، كانت السبب في ايجاد اوضاع خاصة متأزمة؛ ولذلك لم يكن المجتمع الايراني في العهد الساساني ذا كلمة واحدة، بل كان يعيش فيه جماعات كبيرة من الناس في حرمان وقلق وكراهية. ولهذا فقد اندلعت في هذا العهد ثورتان كانت الاوضاع المذكورة اسباباً لهما. وكان ايصال الناس الىٰ حقوقهم الإلهية المشروعة هدفاً لها. الثورة الاولىٰ: في عام ٢٤٠ للميلاد، يوم تتويج شاهپور الأول، اي بعد مضيّ اربعة عشر عاماً من ظهور اسرة الساسانيين وتثبيتهم أساس ملكهم؛ هنا اعلن «ماني» دينه الذي كان مأوىً لهؤلاء المحرومين، وتقدم في دعوته كثيراً. والثانية: بعد مضيّ خمسين عاماً من ظهور «ماني» اعلن رجل آخر من أهل «فسا» في فارس يدعىٰ «زرادشت» اصولاً اخرىٰ لايدري كم كانت هي ايضاً اشتراكية. وحيث لم يتقدم هذا كثيراً في دعوته؛ ظهر بعد مئتي عام تقريباً «مزدك بن بامداد» وجاء الىٰ الناس تلك الاصول السابقة نفسها. وكان لابدّ أخيراً من أن

يتجه الاسلام الىٰ ايران فيحطّم هذه الأوضاع اللاإنسانية ويحقق لفقراء المجتمع ـ وهم اكثره ـ حقوقهم المشروعة، اذ كان ديناً متحرراً متطوراً رائداً للمساواة..»[1].

وعلىٰ هذا فنجد أن مذهب مزدك إنما شاع بين الناس شيوعاً عاماً لأنه كان يقف الىٰ جانب الطبقة الفقيرة في ذلك المجتمع الطبقي.. ويقول كريستن سن في هذا الصدد:

«ان دين مزدك، وان كان قد ظهر بمظهر مذهب سياسي ثوري بعد دخوله الىٰ الطبقات السفلىٰ من المجتمع الايراني الطبقي؛ لكنه كان قد بقيت فيه اصوله الدينية، ولذلك فنحن نجد له اتباعاً حتىٰ في الطبقات العليا من المجتمع. وبلغ الأمر بهم من حيث القوة أن بدأوا يرتبون لانفسهم مراتب روحية وينتخبون رئيساً روحياً»[2].

ويقال: ان مزدك وأتباعه كانوا الىٰ جانب «كاووس بن قباد» أخ «أنوشيروان»، حيث كان كاووس مزدكياً دون انوشيروان، فكانوا يحاولون أن يصلوا بكاووس إلىٰ الملك، علىٰ الرغم من أن قباد جعل ابنه انوشيروان ولياً لعهده؛ ولهذا فقد خطّط قباد وابنه انوشيروان لابعادهم عن البلاط، بل عن البلاد خطة واسعة.. يقول عنها كريستن سن:

«وهنا أيضاً عمل البلاط خطّته المجرّبة: فدعا جماعة من رجال زرادشت ومزدك واتباعه، ودعا جماعة كبيرة من الناس ليحضروا مجلس البحث العام، وكان قباد يدير المجلس بنفسه، الا أن خسرو انوشيروان، الذي عُيّن لولاية العهد ورأىٰ أن منصبه هذا اصبح في خطر مؤامرة اخيه كاووس مع المزدكيين، صرف كل همّه وجهده في أن يختم البحث بما يسبّب ضرب فرقة المزدكية ضربة مهولة.. فاختار لذلك عدداً من الذين يجادلون في المباحث العقائدية من بين الموابدة: «موبد الموابدة: گلونازس».. وكان «بازانس» اسقف المسيحيين الذي رافق الزرادشتيين في هذه الحادثة حاضراً في هذا المجتمع أيضاً، وكان بازانس هذا محترماً لدىٰ قباد، لمعرفته بالطب. وكان من الطبيعي أن غلب رجال زرادشت مزدك والمزدكيين.. وحينئذٍ هجم عليهم حرس القاعة الخاصة بهم بسيوفهم وحرابهم واسلحتهم، وقتل اندرزگر (اي: الواعظ، والظاهر انه هو مزدك).

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٤٦ ـ ٤٧.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٨٢

ولا يعلم عدد القتلىٰ في هذه الواقعة، اذ ليس للعدد الذي يذكره المؤرخون العرب والفرس اساس صحيح، الا أن الظاهر أن رؤساء الفرقة قتلوا جميعاً، حيث لم يبق للمزدكية بعد هذه الواقعة رئيس مطاع، ولذلك لم يبدوا أية مقاومة حينما صدر بشأنهم حكم القتل العام، فاضمحلّت الفرقة، واحرقت كتبهم، وصودرت املاكهم... واصبحت المزدكية بعد هذا فرقة سرّية بقيت علىٰ قيد الحياة، وظهرت في الإسلام بعد الساسانيين مراراً عديدة»[1].

تحطمت فرقة المزدكيين بالقوة العسكرية في الظاهر، ولكنها بقيت كالجمر تحت الرماد. ونقطع أن لو لم يظهر الإسلام لظهر هذا الدين المزدكي مرة اخرىٰ؛ وذلك لما فيه من خواص اشتراكية، اذ كانت تلك العلل التي سببت ظهور هذا الدين والتفاف الناس حوله بتلك السرعة لاتزال باقية. ان دين مزدك لم يكن يختلف عن دين زرادشت في شيء، من حيث الاصول الفكرية والعقائدية في خلق الإنسان والعالم، كان علىٰ نفس المستوىٰ ان لم يكن اعلىٰ، ولهذا فلم تكن جاذبيته باقل مما في الزرادشتية وسائر الأديان السائدة. أما من ناحية التعاليم الاجتماعية فقد كان دين مزدك علىٰ عكس دين زرادشت الذي كان يقف دائماً الىٰ جانب الأقوياء والمقتدرين، ولهذا فقد كان لدين مزدك بين عموم الناس جاذبية أكبر وأقوىٰ. ان اثر القوة العسكرية مؤقت لايدوم، فلا يمكن أن يكون هو العامل الأصيل في انقراض المزدكيين، بل ان العامل الأصيل في ذلك هو الإسلام بصفته ديناً توحيدياً جاء باصول ومبانٍ خاصة في خلق الإنسان والحياة والخالق، لا تقاس بأصول مزدك، وكانت تعاليمه الاجتماعية تستند الىٰ العدل والمساواة من دون أن يشتمل علىٰ ما في المزدكية من افراط متطرّف؛ ولهذا ايضاً فقد اتجه عامة الايرانيين الىٰ اعتناق الإسلام عوضاً عن المزدكية. ووجدت الأرضية المساعدة في عهد خلفاء الجور الامويين والعباسيين الذين اتخذوا سنة قيصرية وكسروية ما ساعد على بقاء المزدكية الا ان اتجاه عامة الناس الى الفصل بين حساب الاسلام وهؤلاء الخلفاء لم يفسح المجال للمزدكية. ولهذا فنحن نرى على راية أبي مسلم الخراساني ـ حين اعلن هؤلاء الايرانيون

---

١ ـ نفس المصدر، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٦.

ذوو الاعلام السوداء نهضتهم لانقاذ الاسلام من شر خلفائه الجائرين في اواخر ايام الامويين وبالضبط في يوم عيد الفطر، الاول من شهر شوال سنة ١٢٩هـ- في قرية «سفيدج» من نواحي «مرو» ـ نرى على رايتهم هذه الآية الكريمة: ﴿ **اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا، وان الله على نصرهم لقدير** ﴾[1] وتقدم سليمان بن كثير، احد قواد النهضة بأمر أبي مسلم الخراساني لاقامة صلاة الفطر والخطبة، واعلن الثورة ضد الخلفاء الامويين في خطبة صلاة العيد. فلو كان لدين مزدك عند الايرانيين اذ ذاك جاذبية، لما كانت هناك فرصة مؤاتية احسن من تلك الفرصة التاريخية لظهور الاتجاه نحو المزدكية، الا اننا حينما نلاحظ التاريخ، نجد ان ثورات التحرر الايرانية على عهد الاسلام كانت تستند الى الاسلام نفسه، لا الى المزدكية ولا الى غيرها.

والسبب في انقراض المزدكية بصورة نهائية كالمانوية، وعدم بقائها ولو بصورة اقلية دينية كالزرادشتية؛ هو ما قلناه في سبب انقراض المانويين: وهو ان المسلمين لم يكونوا يحسبون المزدكيين من أهل الكتاب ولم يعتبروا للمزدكية أصلاً سماوياً، بل كانوا يعدونها من الزندقة كالمانوية. ولهذا فلم تتمكن المزدكية من البقاء حتىٰ بصورة اقلية دينية، كالزرادشتية. من دون ان ننكر أنّ التطرف الزائد في المزدكية ـ سواء من النواحي الأخلاقية والمعنوية والروحية كالرياضة الروحية والزهد المزدكي، أو من النواحي الاجتماعية والاشتراكية الاباحية المطلقة ـ كان عاملاً آخر لانقراض هذا الدين.

الدّين البوذيّ

ولد قبل نحو ٢٥ قرناً من الزمان، في سفوح جبال الهملايا من الهند، في قوم يعرفون باسم: «سياكيا» وليد لاحد ملوكهم، كان ربيب نعمة وترف حتىٰ الثلاثين من عمره، وقد عرف في هذه المدة علوم زمانه ولا سيما تعاليم الكتاب المقدس للهنود الذي يعرف باسم: «وودا». ثم اعتزل كل هذه النعمة والترف لغرض الرياضة الروحية، علىٰ اثر ثورة روحية لديه. وكان الذي يشغل باله هو التفكير في مصدر آلام الب شرية؟ وكيف يستطاع

---

١ ـ سورة الحج: ٣٩.

التوصل الىٰ حياة سعيدة؟ وبعد سنين من الرياضة الروحية، توصل أخيراً تحت شجرة التين الىٰ اكتشاف فكرة اعتقد بأنها هي سر الحياة السعيدة، وترك بعد هـذا، الاعـتزال والخلوة وانكر الرياضة، وبدأ بتعليم الناس وارشادهم. والذي اكـتشفه ليس الا قـانوناً طبيعياً ساذجاً بسيطاً هو: أن هذا العالم يحكمه قانون الثواب والعقاب؛ وأن الخير يـولد الخير والشر يولد الشر!.

هذا الوليد الجديد لملوك الهند، الذي كان يدعى «سيداتا» وتلقب بعد دعوته باسم «بوذا» انكر بعد اكتشافه هذا القانون سنة القرابين والأدعية والبكاء والتضرّع والخضوع للالهة واثرها في مصير الانسان، بل انكر الآلهة وآمن بقدم العالم والقانون الازلي لهـذه الحياة، وانكر كتاب «وودا» الذي كان يدعو الىٰ القرابين والادعية وغيرها، والذي كان يفترض تفاوتاً بين البشر بالفطرة، وينتقد ذلك.

ان طريقة بوذا اقرب الىٰ الفلسفة من الدين، الا أن اتباعه جعلوا طريقته ديناً يعتنقونه، ورفعوه ـ وهو ينكر العبادة والدعاء ـ الىٰ رتبة إله يعبد دون الآلهة! اذ صنعوا لانـفسهم معابد اقاموا فيها تماثيل بودا، وجمعوا اقواله في كتاب سموه «سلال العلم الثلاث».

ووجد بوذا اتباعاً كثيرين وهو علىٰ قيد الحياة، اذ تبعه اهل ولايتين من ولايات الهند يومذاك، احداهما عاصمة ابيه، ثم توسع نطاق دينه بعد ذلك. واعتنق دين بوذا في القرن الرابع الميلادي احد سلاطين الهند باسم «آشوكا» أحيا تعاليمه وبنى لاتـباعه صـوامـع كثيرة، فاشتهر دين بودا وكثر اتباعه في الهند. الا أنه حينما ظهر الإسلام في الهند، بدأ هذا الدين بالتقلص من موطنه الأصلي، واخذ بالنفوذ بدل ذلك في الأمم المجاورة للأراضي الهندية. والآن دين بوذا احد الأديان العالمية الكبرىٰ وله اتباع في: سيلان وسيام وفيتنام وجزائر فرموزة وبورما وكوريا والتبت والصين واليابان ومنغوليا وغيرها..

وتسرّب دين بوذا الىٰ ايران؛ وفي هذا الصدد يقول كريستن سن:

«ونفذ دين بوذا ـ بعد حملة الإسكندر وعلىٰ عهد سلطة اليونانيين ـ في الولايـات الشرقية لايران، وارسل «آشوكا» الذيكان قد اعتنق البوذية سنة ٢٦٠ قبل الميلاد دعاة الىٰ ولاية «گنددره» (حوالي كابل اليوم) للدعوة الىٰ البوذية... فبنوا في تلك الولاية في

القرون الاولىٰ الميلادية صوامع كثيرة، وتوجد اليوم من آثار تلك المعابد البوذية هناك نقوش علىٰ الطريقة الهندية اليونانية... وفي «باميان» الىٰ الغرب من كابل تماثيل عظمية لبودا منحوتة في الجبال... ويظهر من رحلة هيون تسانگ الصيني أن الصوامع البوذية لا تزال قائمة في ايران حتىٰ القرن السابع الميلادي، ويروي أنه كانت تقيم في الولايات الشرقية من ايران جماعات من اتباع سائر الديانات الهندية»[1].

ويقول ايضاً:

«واعتنق دين بوذا في اوائل القرن الأول الميلادي وأواخر القرن الثاني «مناندر» ملك كابل وهندوستان الذي سخر قسماً كبيراً من الهند، واكتسب بذلك شهرة عظيمة بين البوذيّين»[2].

ويقول ايضاً:

«ودخل ولاية قندهار وپنجاب عام ١٢٥ للميلاد تحت قدرة ملك يدعى: «كاسنيكا» له شهرة عظيمة في الآداب البوذية، ويعد مبلّغاً كبيراً لدين بوذا»[3].

وتقلص دين بوذا من هذه المناطق المذكورة آنفاً.. وقد نقلنا سابقاً: أن البوذائيين والمانويين الذين كانوا من الأقليات الدينية في ايران قاوموا المسلمين مقاومة تذكر، واختلفوا في هذا عن الزرادشتيين الذين انهزموا أمام الإسلام، دون مقاومة تذكر. ونقلنا أيضاً: أن اسرة البرامكة كانوا قبل اسلامهم سدنة معبد بوذي في «بلخ» وماوراء النهر من خراسان.

ومع ذلك لم يتمكن الدين البوذي من المقاومة أمام الإسلام طويلاً، بل تقلص من هذه المنطقة شيئاً فشيئاً، كما تقلص عن موطنه الأصلي «الهند».

وكتب جماعة من المستشرقين بهذا الصدد يقولون:

«نقل لنا هيون تسانگ ضخامة وعظمة الأبنية الدينية في باميان (ناحية من افغانستان

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٦٠.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٤٢.

٣ ـ نفس المصدر، ص ٤٤.

قرب كابل) في القرن السابع الميلادي.. ومرّ علىٰ الناحية نفسها راهب من أهل كوريا في القرون التالية، فنقل لنا: أن الملك هناك كان رجلاً ايرانياً من أتباع مذهب بوذا، وله جيوش قوية.. وفي القرن الثالث الهجري تملك أمر تلك الناحية يعقوب بن الليث الصفار الثائر المسلم الايراني..»[1].

والخلاصة: أن الاوضاع التاريخية تدلّنا علىٰ أن دين بوذا ـ الذي دخل الىٰ ايران من الشرق أي الهند ـ تدرج في الدخول والتقدم الىٰ سائر المناطق، كما أن دين المسيح ـ الذي دخل الىٰ ايران من الغرب وبين النهرين ـ كان في تقدم واطراد؛ فكان دين بوذا يتقدم الىٰ غرب ايران، ودين المسيح الىٰ شرقها.. والدولة الايرانية ـ التي جعلت الزرادشتية ديناً رسمياً لها ودافعت عنه وخولت رجاله قدرة فائقة ـ هي التي حاولت عرقلة التقدم السريع لهذين الدينين، وكانت موفقة في ذلك الىٰ حدّ كبير.. وقد نقلنا قبل هذا كتيبة الموبد كريتر الذي كان صرح فيها قائلاً:

«.. اخرجنا عدداً من مبشري المذاهب الأجنبية الذين لم نر الصلاح في بقائهم في ايران؛ كاليهود (سمناها): (شمن‌ها) او الرهبان البوذيين، والبراهمة، والناصريين (النصارىٰ) والمسيحيين».

الا أن الذي أنهىٰ النشاط البوذي في ايران، وجعل المسيحية في اقلية قليلة، ومنع من تقدم البوذية الىٰ طرف الغرب، والمسيحية الىٰ طرف الشرق، والذي جعل القسس والمستشرقين في حسرة حتىٰ اليوم.. انما هو الإسلام..

وعلىٰ أي حال؛ فالبوذية كانت أحد الأديان الكبرىٰ آنذاك في ايران، وحيث لم يكن لها دور فعال من الناحية السياسية في ايران، كاليهودية، وعلىٰ عكس المسيحية والمانوية والمزدكية.. لم يتعرضوا لها الا قليلاً.

العقائد الآرية

اطلعنا بالاجمال علىٰ الوضع الديني لايران القديم، وعرفنا أن هناك يومذاك اديناً

---

١ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص٤٠٧.

ومذاهب مختلفة، وانه لم تكن في ايران وحدة دينية. ونحن، وان لم نقدر ذلك بنسب مئوية لكل من هذه الأديان، الا أن من المؤكد أن الأكثرية كانت من الزرادشتيين اتباع الدين الرسمي للدولة، وان كان اتباع ساير الأديان كثيرين أيضاً.

وهنا نريد أن نعرف ما الذي اخذه الاسلام من ايران، وما الذي اعطاها فكريا وعقائدياً، ولا فرق في هذا أن نعرف نسبة اتباع كل من هذه المذاهب الىٰ مجموع الأمة من حيث العدد اولا نعرف. وانما الذي يهمنا أن نعرف ماذا كان لهؤلاء من عقائد وافكار في خلق هذا العالم.

وليس بايدينا معلومات عن العقائد اليهودية في ايران آنذاك، الا أن من الطبيعي أن يكونوا كسائر اليهود اتباع التوراة والتلمود. ومهما كانت عقائدهم فهم كانوا اقلية ولم يكن لهم شأن ديني أو سياسي كبير في المجتمع الايراني يومذاك. بينما كان للمسيحية شأن عظيم، وهي - كما تعلم - كانت تقول بالتثليث وتأليه عيسىٰ بن مريم. ولا نرىٰ هنا حاجة الىٰ البحث حول التثليث المسيحي وبعده عن التوحيد؛ وذلك لوضوحه اولاً، وثانياً كانت المسيحية في ايران أقلية، وان الذين اعتنقوا الإسلام المنتقلين من المسيحية لم يكونوا كثيرين علىٰ أي حال، اذ كانت الاكثرية للزرادشتية.. وقد كانت للمانويين والمزدكيين عقائد تشبه عقائد الزرادشتيين. ولهذا نقتصر في بحثنا هذا على الكلام حول اصول عقائد الزرادشتيين وبعض عقائد المانوية والمزدكية، وبعبارة اخرىٰ نخص بحثنا بالعقائد الآرية وتطورها؛ فنتساءل: ماذا كانت عقيدة الزرادشتيين والمانويين والمزدكيين في مبدأ الوجود وعبادته حين ظهور الاسلام؟ فهل هم كانوا موحدين او مشركين ثنويين؟:

لا شك أن الزرادشتيين والمانويين والمزدكيين كانوا حين ظهور الاسلام مشركين ثنويين ، وأنهم احتفظوا بهذه الثنوية في الادوار التالية لظهور الاسلام ايضاً، وأنهم كانوا يجادلون علماء المسلمين في هذا الموضوع ويدافعون عن عقائدهم الثنوية. وادعوا عقيدة التوحيد وانكروا ماضيهم رأساً في هذا النصف من القرن الاخير.

وما اسعدنا أن يترك الزرادشتيون خرافاتهم الثنوية ويعبدوا الله وحده سبحانه؛ الا ان

من لوازم عبادةالله الالتزام بالصدق والحق، ونبذ العصبيات؛ وعلى هذا فلا ينبغي لمن يدعي عبادة الله الواحد أن ينسى ماضيه ويظهره على خلاف ما كان عليه.

ولا نريد أن ندعي أن دين زرادشت كان في الاصل ديناً ثنوياً، وأن زرادشت كان يكذب في دعواه النبوة. كلا لا ندعي نحن هذا؛ فقد تعامل المسلمون مع الزرادشتيين منذ الصدر الاول معاملة «أهل كتاب» ومعنى هذا أنهم كانوا يعترفون بأن هذا الدين كان في الاصل ديناً توحيدياً سماوياً، وأنه انما انحرف عن اصله فيما تلا عهده الاول الى الثنوية والشرك، كما انحرفت المسيحية الى القول بالتثليث والاقانيم الثلاثة. وعلىٰ هذا فنحن نقدر شخص زرادشت ونحترمه. وانما الذي ندعيه هو أن هذا الدين كان حين ظهور الاسلام ثنوياً مئه بالمئة، وانه لم يكن ديناً توحيدياً ولا منسجماً مع التوحيد، وأن هذه السيرة المشركة كانت مستمرة حتىٰ هذا النصف من القرن الأخير.

فعلينا أن نتابع بحثنا هنا ضمن فصول ثلاثة:

١ ـ ماذا كانت عقائد آريا قبل ظهور زرادشت؟

٢ ـ ماذا جاء به زرادشت من الاصلاح والتطور الاصلاحي لتلك العقائد.

٣ ـ ماذا طرأ علىٰ دين زرادشت في عهود ما بعد الإسلام من الانحراف والتغيير؟

عقائد آريا قبل زرادشت

إنّ عقائد طوائف آريا القديم قامت علىٰ نوع من عبادة ثنوية مشركة لبعض مظاهر الطبيعة؛ فقد كانت هذه الطوائف تعبد بعض ظواهر الطبيعة، سواء النافعة أو الضارة (ظاهرياً)؛ كالماء والتراب والنار، والرعد والبرق والصواعق، وبعض الحيوانات الضارية الكاسرة، تعبد الظواهر النافعة لجذب عطفها وخيراتها، وتعبد الظواهر الضارة (ظاهرياً) لتكون في أمن من شرها. وكأن هذه الطوائف الفارسية كانت تزعم أن للظواهر الطبيعية روحاً وادراكاً ومشاعر وأحاسيس. وعلىٰ أي حال؛ فالظواهر الطبيعية التي عُبدت في هذا العهد كانت علىٰ نوعين: ظواهر نافعة وعوامل ضارة (ظاهراً) والحقيقة انها كانت منذ البدء تقول بنوع من الثنوية في الآلهة، وتعبدها بغايتين.

وكانت العهود التالية تقول: ان لكل ظاهرة من هذه الظواهر رباً معيناً، فكانت تعبد هذه الأرباب عوضاً عن الموجودات الطبيعية نفسها، فتعبد رباً للنار ورباً للهواء، ورباً للمطر ورباً للصاعقة، وهكذا.. وفي هذا العهد قسمت الالهة التي كانوا يتصورونها ارواحاً وأشباحاً، الىٰ قسمين: ارباب خيّرة ونافعة، وارباب شريرة وضارة! او ارواح خيرة وارواح شريرة.. اي ان الثنوية كانت تسود عقائد آريا في هذه العهود أيضاً.

كتب الاستاذ سعيد نفيسي بهذا الصدد يقول:

«.. وبعد أن استراح الآريون الايرانيون من فترة رحلاتهم وتنقلاتهم، وبنوا بيوتاً وقرىٰ وسكنوها، أخذوا يظهرون الاعتقاد تدريجياً بعدد من الظواهر الضارة والنافعة، خيرة وشريرة، جميلة وقبيحة من مظاهر الطبيعة.. وكان أهم الظواهر الخيرة، النور والمطر، واهم الظواهر الشريرة، الظلام والشتاء والقحط والمرض والموت والآفات الاخرىٰ. فكانت تعبد الظواهر الخيرة والجميلة بالصلاة والدعاء والنذر والعهود، وتعبد ظواهر الشر للنجاة من شرها باوراد واذكار خاصة ..وتدرّج الأمر بهم الىٰ الاعتقاد بالسحر والطلسمات ، وكانت عقيدتهم بالسحر متأثرة بجيرانهم من الأمم الساميّة البابلية والآشورية وغيرها، اذ كانت هذه الأمم الساميّة البابلية والآشورية تعتقد بالسحر عقيدة راسخة ثابتة أثرت في الايرانيين ايضاً.. وهنا قام زرادشت من بين الايرانيين بوجه جميع هذه الخرافات»[1].

ويقول المستشرق كريستن سن بهذا الصدد:

«كان الدين القديم للآريين يبتني علىٰ عبادة قوىٰ الطبيعة والعناصر والاجرام السماوية، وتجد عمدة هذه القوىٰ الطبيعية آلهة لا تعدم بعض الصفات الخلقية والاجتماعية. ويبدو ان هناك بين فرعي الجنس الآري، الهندي والايراني قبل أن ينفصلا تفاوتاً في آلهتهم؛ فقد كان هناك قسم من الآلهة الطبيعية تدعي لدىٰ الهنود «دِيْوْها» اي: «الأجنة» وعلىٰ رأس هذا القسم اله يدعي «ايندرا» ويوصف بصفات حربية، وأما القسم الآخر من الآلهة فقد كان الايرانيون يطلقون عليه اسم «آهور أي آسور» وكان علىٰ رأس

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ج ١، ص ٢٧ ـ ٢٨.

هذا القسم إله يدعى «ورون» و«ميترا» ويذهب اكثر العلماء الىٰ أن «مزدا» الذي يعني لدىٰ الايرانيين: العالم، واكبر «آهورا» هو نفسه «ورون» القديم الذي نسي الايرانيون اسمه الأصيل»[1].

ان الثنوية بمعنىٰ العقيدة بمبدأين للخير والشر، كانت من فكر الآريين منذ القديم، بل ان أقدم وأهم شيء شغل بال هذا الجنس، هو ثنوية الموجودات خيرها وشرها.

ويقول الدكتور محمد معين بهذا الصدد:

«ان الايرانيين قالوا منذ القديم بمبدأين للخير والشر، قالوا بآلهة وشياطين آلهة «آهريمنان» وكانوا يعزون الأمور الخيرة، كالنور والمطر الىٰ الآلهة، والأمور الشريرة كالظلمة والجدب الىٰ «أهريمن»، وكانوا يعدون النار ـ بنت السماء بصورتها الأولية، وهي البريق السماوي ـ عاملاً مساعداً في كفاح الارواح النورانية التي تحمل النور والضياء والحرارة والحياة مع الأرواح النجسة التي تحمل الظلام والجدب».

ثم استشهد الدكتور معين بكلام المستشرق دومزيل تحت عنوان «اديان ايران القديمة»، يقول: «يقابل الله والملكوت (النار والخصب والتقدم) عالم الشر والظلام الذي (تحكمه الأجنة «ديو = دئو». ان العقيدة الثنوية من خصائص الفكر الايراني القديم. وانت لاترىٰ لديهم عالم أهريمن سوىٰ الظلام والشر والفساد والهدم..ان هذا العالم الشرير تحكمه روح نجسة يسمىٰ «أهريمن = أهرمئنيو».

وأضاف الدكتور معين يقول:

«ان ميدان هذا الكفاح بين السماء والأرض هو الجوّ؛ ان التقلبات الجوية التي لا تتجلىٰ لنا الا بصورة ظواهر فلكية لا تفكر فيها الا قليلاً، ان هذه التقلبات كانت لدىٰ الآريين القدماء ذوي الأفكار المصورة والأرواح الحساسة مظهراً لكفاح شديد يقع بين الموجودات التي تفوق البشر، والقادرة علىٰ الخير والشر للبشر. وكان هؤلاء يصوّرون هذه المشاهد بصور مختلفة علىٰ شاشات مخيلاتهم»[2].

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٥٥.

٢ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب فارسي، ص ٤٣، الطبعة الثانية.

اصلاحات زرادشت

وقبل ان نبحث في هذا الموضوع يجب أن نقول: إن الابـهام حـول زرادشت[1] نّـيّ «مزديسنا» وكتابه «آوستا» الكتاب المقدس لمزديسنا، كثير:

فهل ان زرادشت شخصية خيالية، مثل رستم واسفنديار، او شخصية واقعية؟ واذا كان شخصية واقعية فمتىٰ عاش؟

والاختلاف في زمانه يمتد من ٦٠٠ سنة قبل الميلاد الىٰ ٦ آلاف من السنين!

ومن عاصر من الملوك الايرانيين؟ هل عاصر «گشتاسب = ويشتاسب»؟

واين ولد؟: في آذربايجان او بلخ او فارس او الري او خوارزم او مـرو أو هـرات أو فلسطين؟ كما يقولون.. واين بدأ دعوته؟.

هذه أسئلة تاريخية هامة[2].

ويرىٰ اكثر الباحثين: أنه هو شخصية تأريخية واقعية، ولد في آذربايجان، حوالي ٦٠٠ سنة قبل الميلاد. كتب الاستاذ تقي‌زاده يقول:

«يظن قوياً أن زردشت عاش حوالي ٢٥٨ سنة قبل استيلاء الاسكندر عـلىٰ ايـران وقتل دارا (٣٣١ ـ ٣٣٠ق م) او ٢٧٢ سنة قبل هلاك الاسكندر (٣٢٣ ق م) والذي ينبغي أن يبحث حوله هل أن هذه الفترة هي تاريخ ميلاد زرادشت او بـدء دعـوته او ايـمان گشتاسب؟ وعلىٰ هذا فيجب أن نقرر أن ميلاد زرادشت كان فـي عـام (٥٦٨ ق م) او

---

١ ـ تلفظ هذه الكلمة فيما بعد الاسلام بالفارسية: زردُشت او زرتشت، وقد تلفظ بـصور اخـرىٰ، وتكـتب بالعربية: زرادشت. ويرىٰ الباحثون ان اصلها زرتشتر، اي صاحب الجمل الأصفر. وكتب الدكتور رضازاده شفق في الفصل الثاني ص١٣٣ من كتابه: ايران لدىٰ المستشرقين (ايران از نظر خاورشناسان) ملخصاً الفصلين السابع والتاسع من كتاب: تاريخ شاهنشاهي ايران، تأليف «المستد» د، البروفيسور في تاريخ الشرق بجامعة شيكاغو ـ يقول: «بدأ زرتشت رسالته السماوية في اواسط القرن السادس قبل الميلاد في الشمال الغربي‌من ايران. وكان اسمه: زرتُشتر بمعنىٰ صاحب الجمل الأصفر، واسم ابيه: پور وشسب اي صاحب الفرس الرمادي، واسم امه: دوغداوا اي حالبة البقر الأبيض، واسم اسرته: سبيتمه اي البـيض؛ وهذه الأسماء تحكي كلها عن حياة الرعي والأنعام ـ المؤلف.

٢ ـ انظر: مزديسنا وادب پارسي، ص٧٦ ـ ٨٩.

(٦١٨) أو (٦٣٠ ق م). واذا فرضنا أن تاريخ ٢٧٢ سنة الىٰ قبل موت الاسكندر هو الصحيح لاصبحت الارقام السابقة هكذا: ٦٣٧ و٦٢٥ و٥٩٥»[١].

والابهام حول اوستا ايضاً كثير.. فهل أن اوستا هو الكتاب المقدس لمزديسنا، وهو كتاب زرادشت؟ وهل أنه لم يكتب، بل نقل بالرواية الشفوية عن ظهر قلب، وأنهم انما كتبوه بعد دخول الإسلام الىٰ ايران، ليدخلوا انفسهم في زمرة اهل الكتاب عند المسلمين؟ أم أنه كان مكتوباً قبل هذا ومدوناً مجموعاً؟ وان كان ذلك ففي اي زمان ومكان؟..

يزعم بعضهم أن اوستا كان مكتوباً في العهد الهخامنشي، وانه تلف في حملة الاسكندر الرومي علىٰ ايران، او انه هو الذي احرقه. وهذا هو المشهور بين المؤرخين الشرقيين، الا أنه ليس مسلّماً به لدىٰ الباحثين الغربيين[٢] ويقتصر عدد منهم علىٰ القول بأن اوستا اصيب بالتلف والضياع بحملة الاسكندر. وجمعوه مرة اخرىٰ في العهد الاشكاني. الا أن من المُسلّم به أن اوستا لم يكن مجموعاً مدوناً حينما بدأ عهد الساسانيين، وأن اردشير الساساني هو الذي أمر أحد رجال الدين الزرادشت أن يرتب اوستا من جديد. ولا يعرف مما اذا كان عمل هذا الرجل مبتنياً علىٰ أساس وسند؟ ولا مدىٰ توافق اوستا الجديد مع القديم او اختلافه معه؟ الا أن من المعلوم أنه كان بينهما اختلاف كثير.. وكذلك لا يعرف لماذا لم يبق هذا الجديد سالماً وانما بقي قسم منه الىٰ اليوم؟[٣]

ويقول كريستن سن بهذا الصدد:

«قد يفكر الانسان في سبب عدم وجود اوستا الساساني في العهد الإسلامي؟ ونحن نعلم أن المسلمين كانوا يعدّون الزرادشتيين من اهل الكتاب، وعلىٰ هذا فلا نستطيع أن ننسب عدم وجود كتابهم المقدس الىٰ تعصب المسلمين.. ورأينا أن اكثر اقسام اوستا

---

١ ـ نقلاً عن مزديسنا وادب پارسي، ص٨٨

٢ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص١٨٥، نظرية گيرشمن.

٣ ـ راجع: بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص١٦٢ ـ ١٦٣ وصفحات ٤٥٩ و٥٣٨. وانظر بالفارسية ايضاً: مزديسنا وادب پارسي صفحات ١٨٠ ـ ١٨٥ وص ٢٢٤.

الساساني كان باقياً حتىٰ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) او كانت بأيديهم الترجمة البهلوية له مع تفسيره الشهير بـ«زند» اوستا ـ علىٰ الأقل.. ومن المُسلّم به أن الضيق المادي الذي كان قد أصاب الزرادشتيين في ذلك التاريخ لم يكن يسمح لهم بأن يكتبوا كتابهم المقدس جيلاً بعد آخر.. ومن هنا ندرك أيضاً لماذا بقيت متطلباتهم وحقوقهم في زوايا الاهمال والنسيان؛ اذ لم تكن اذ ذاك دولة زرادشتية تستوفي منهم هذه الحقوق المالية، فكانت عارية من الأهمية والاعتبار ودون فائدة.. اما أنهم لماذا لم يحفظوا افكارهم فيالمبدأ والمعاد والخلق والتكوين وسائر الافكار الاساسية؟ فهناك قرائن نستطيع من خلالها القول بأن الشريعة والعقيدة الزرادشتية تغيّرت بنحو من الاصلاح في القرن الاول بعد سلطة العرب (المسلمين) وأن الزرادشتيين قد رغبوا في حذف بعض القصص والأساطير الشايعة والعادية وبعض العقائد التي اثبتت في بعض فصول اوستا»[1].

وينقل كريستن سن اسطورة الخلق وفقاً للمثبت في اوستا الساساني علىٰ الشكل التالي:

«ان عمر الدنيا تبلغ الىٰ (١٢٠٠٠) عام، في الثلاثة آلاف الاولىٰ كان اوهرمزد (عالم النور والضياء) واهريمن (عالم الظلام) يعيشان بسلام جنباً الىٰ جنب. وكان هذان العالمان لا ينتهيان من ثلاثة اطرافهما، وانما كانا يتحددان من الطرف الرابع، احدهما بالآخر، كان عالم النور اعلىٰ، وعالم الظلام اسفل، والهواء بينهما. وكانت مخلوقات اوهرمزد فيهذه الثلاثة آلاف من السنين في حال الامكان، ثم رأىٰ أهريمن النور فتصدىٰ لاعدامه. فاعلن اوهرمزد الحرب معه تسعة آلاف من السنين وهو مطلع علىٰ المستقبل، ورضي اهريمن بهذا وهو غير مطلع الا علىٰ الماضي فتنبأ بان هذا الجدال سينتهي بهزيمة عالم الظلام، فاستوحش اهريمن من سماع هذا النبأ كثيراً، ورجع الىٰ عالم الظلام وبقي هناك ثلاثة آلاف من السنين دون اية حركة. وبدأ اوهرمزد في هذه المدة بخلق العالم، وحينما انتهىٰ أمر الخلق... خلق ثوراً يسمىٰ الثور الأول، ثم خلق انساناً عظيماً باسم «گيومرد أي

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

كيومرث» فكان نموذجاً لنوع الانسان. فهجم اهريمن علىٰ مخلوقات اوهـرمزد ولوّث مخلوقاته، وخلق بينها الهوام والحشرات الضارة. وحفر اوهرمزد فـي السـماء خـندقاً [لنفسه] وهجم عليه اهريمن كراراً حتىٰ قتل في النهاية الثور الاول وگيومرد، الا أنه نبت من بذر گيومرد الذي كان مخفياً في بطن التراب بعد اربعين عاماً نبات خرج منه اول زوج من البشر يسمىٰ «مشينگ وميشانگ» فبدأ عهد اختلاط النـور والظـلام الذي يسـمىٰ «گميزشن» وأصبح الانسان في هذه الحرب من اعوان النور او الظلمة بنسبة اعماله الخير اوالشر»[1].

والآن لنرجع الىٰ موضوع اصلاحات زرادشت:

يعترف جميع الذين يحسبون زرادشت شخصية حقيقية وتـاريخية بـأنه كـانت له اصلاحات اجتماعية وعقائدية واقتصادية في مجتمعه...

فمن اصلاحاته العقائدية: منعه الناس عن عبادة الجن والشياطين، ودعوته الىٰ عبادة اهورامزد، واعلانه أن الشياطين ملعونة ونجسة، وهي غير مستحقة للعبادة.

ومن اصلاحاته العقائدية الاقتصادية: منعه ذبح البقر واي حيوان للقربان.

وكتب دومزيل في مقال له في كتاب «تمدن ايراني» يقول:

«ان اصلاحات زرادشت كانت تامة وكاملة، وهو لم يـأت بـطريقة جـديدة للـبناء الاجتماعي، الا أن الجانب الاقتصادي لاصلاحاته كان قوياً جداً» ويزعم عامة الباحثين أن أصلاحات زرادشت تحققت حينما بدأت الاقوام الآرية تـنتقل مـن حـالة البـداوة الصحراوية الىٰ الحضارة المدنية والقروية، وتبدل الرعي في المراتع الطبيعية العـامة الىٰ الرعي في اراض تخص كل قبيلة، ولهذا فقد تقررت لديهم حرمة خاصة للثيران والبقر، واهتموا في بنائهم المدني والقروي الجديد بالسماد الحيواني، وحـتىٰ انـهم بـالغو فـي الاهتمام ببول البقر الىٰ درجة أن عدوه طاهراً بل مطهراً»[2].

ويقول دمزيل ايضاً:

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص١٦٨ ـ ١٦٩.

٢ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص٨٦ ـ ٨٧.

«الغىٰ زرادشت قبل المسيح بالف أو ٦٠٠ سنة ذبح الحيوان للقربان، ومنع الناس من شرب الشراب المسكر «سومه» الذي كانت له اهمية خاصة في دين الهنود القديم ولدىٰ الايرانيين ايضاً. وكانت العبادة عنده: الفكر الخير والقول الخير والعمل الخير، وكان هذا هو العامل الحيوي الذي كان يشرك الانسان في الحرب الابدية بين الخير والشر. وكان يقول: كيف يمكن لمشروب مسكر وسخ أن يعطي الخير في معترك الحياة؟! او يقول: اليس الأحسن أن يعمل ثور الفلاح القروي في الأعمال النافعة في المزارع عوضاً عن أن يقدم قرباناً لربّ غير جسم لا يحتاج الىٰ الطعام؟!»

ان شراب سوم او هوم الذي شجبه زرادشت بشدة هو عصير مسكر لنوع من النبات لم يُعرف بوضوح اي نوع كان هذا النبات، كان الايرانيون القدماء يستعملونه في بعض طقوسهم ومناسكهم الدينية..

يقول الدكتور معين:

«ان الفدية كانت في نظر الآري القديم بحكم ضيافة تهيّأ لضيوف اعزاء، والآلهة تقبل دعوة احبائها، وكما يقوى الانسان بطعامه كذلك تقوى الآلهة بهذه الضيافة؛ وان هذا الأثر يوجد بقوة في عصير نبات «سومه» او «هومه» المقدس الذي يفرح الروح ويبهجها... ان هذا النبات الجبلي «سومه» له ساق لطيف تحوطه ألياف لطيفة وله عصير ابيض بلون اللبن، ويسمىٰ في كتب الطب العربية القديمة بهوم المجوس... انهم كانوا يغلون عصير هذا النبات الىٰ أن يتلون. وكان شرب هذا الشراب عند تقديم القربان من اقدم واعظم(!) طقوس العبادة الآرية. انهم كانوا يصبّون من هذا الشراب علىٰ النار، فكانت الكحول الموجودة فيه تسبب اشتعالاً شديداً للنار. وكان رجال الدين ايضاً حينما يريدون اجراء بعض طقوس العبادة يشربون منه ما يكتفون به. ولم يكن هذا النبات محترماً ومقدساً وحسب، بل ان من غريب العقائد الآرية انهم كانوا يزعمون انه الهياً مقدساً»[1].

اما زرادشت فانه نسخ هذه الخرافة.. ولكنها اعيدت مرة اخرىٰ في العهد الساساني، بل اصبحت جزءاً من السنن الزرادشتية! فقد جاء في اوستا الساساني، في البند الثامن من

---

١ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص ٤٩ ـ ٥٠.

يسنا العاشر: «هوم يشت»:

«نعم! إنّ سائر المسكرات يعقبها غضب السلاح الدموي، الا «هوم» فانه يصحبه سكر صادق (!) ان سكر هوم يخفف اولئك الذين يلاطفونه كطفل صغير؛ ان «هوم» يهيىء نفسه ليكون بلسماً لاجسامهم».

ولنرجع مرة اخرىٰ الىٰ موضوع اصلاحات زرادشت:

كتب جان ناس في كتابه «تاريخ اديان» ترجمة الاستاذ علي اصغر حكمت الىٰ الفارسية يقول:

«إن الخير والصواب في رأي زرادشت، أن يزرع الناس الأرض وينبتوا الخضر والغلات، وأن يقتلعوا الاعشاب المضرة، وأن يعمروا بذلك الأراضي البائرة ويرووا الأراضي القاحلة. وأن يدجّنوا الحيوانات النافعة ولاسيما البقرة التي تفيد الزراعة وتنميها. والانسان الخير هو الذي يبرأ من الكذب ويصدق دائماً، والانسان الشر هو الذي يعمل علىٰ خلاف هذه الأمور ولا يحاول الزرع ابداً، فان «انگرامئنيو اي الروح الشريرة عدوة للزراعة والفلاحة..».

وكتب يقول:

كان الزرادشتيون القدماء يقولون في مناجاتهم: أنا أعادي الشيطان «دِيْوْ» واعبد مزدا، انا اتابع زرادشت رسول «يزدان» وعدو الشيطان «ديوان» انا اثني علىٰ الأرواح المقدسة «امشاسپندي» واعاهد الرب العليم أن اتعهّد الخير والعمل الصالح، واختار الصدق والحق، واتبع ببركة «ايزد» خير الأعمال، واكون رؤوفاً بالبقر الذي هو من العطاء الخير لمزدا ، واحترام قانون العدل ، وأنوار الفلك والفضاء التي هي منابع الفيض اليزداني .أنا اختار ملاك «ارمي تي = سپندار مذ» الطاهر الخير، وآمل أن يكون هولي ايضاً، واعاهد أن وامتنع عن السرقة والفساد واذىٰ الحيوان واهلاك المدن والقرىٰ منازل عباد يزدان..».

أن أهم شيء في اصلاحات زرادشت هو ما يتعلق بمسألة الخلق والخالق. فما الذي كان يتصوره زرادشت بشأن خالق العالم؟ هل كانت دعوة زرادشت دعوة توحيدية او

غير توحيدية؟. سنجيب علىٰ هذه الأسئلة في فصل خاص بعنوان «زرادشت والثنوية».

التطور في عقائد اريا بعد زرادشت

لا ينكر احد من المؤرخين والباحثين أن عقائد آريا اتجهت بعد زرادشت، ولا سيما في العهد الساساني ـ الذي نبحث فيه ـ نحو التردي والانحطاط، وأن الجوانب العالية والجميلة من تعاليم زرادشت تبدلت الىٰ افكار منحطة وقبيحة! وارتبطت بدين زرادشت في العهد الساساني آلاف الخرافات. ولا يختلف احد في هذا، بل يعرف به الجميع.

كتب «دومزيل» المستشرق المتخصص في ايران، تحت عنوان «رفورم زرتشت» يقول:

«الحق أن أفكار وتعاليم زرادشت كانت متطورة وشجاعة، الا أن دينه ابتلىٰ بعده بمصير سائر الأديان والمذاهب. وبوضوح نقول: ان تعاليم الاستاذ زرادشت تغيرت بتأثير من سنن الكون وحاجات الحياة وميول المؤمنين؛ فتبدّل التوحيد الىٰ نوع من الشرك والثنوية، واصبح اسم الملائكة المقربين يقترن بالرب الاكبر، واضيفت الىٰ طقوس القربان طقوس عجيبة، واستبدلت الاخلاق بمحاولات روحية..»[1].

وكتب المستشرق پ. ژ. دومناشه يقول:

«ان الدين الخرافيّ والقصصي الاسطوري القديم، ظهر مرة اخرىٰ علىٰ الرغم من اصلاحات زرادشت الأساسية، بل ظهر وهو يدعي أن زرادشت كان منه ومن اتباعه! والحق «گاتها = النشيد الديني الزرادشتي» الطقوس المتعلقة بـ«هئومه» مع ما كان بينها من تضاد وتنافر وتغاير! وهكذا اصطف الرب الأكبر «آهورا مزدا» مع الأرباب الخالدة ـ التي كان دين مزدا قد طردها ـ في صف ربوبي واحد»[2].

ويعترف پور داود والدكتور معين بالفرق الفاحش بين اوستا العهد الساساني مع اوستا

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ تمدن ايراني، بقلم جمع من المستشرقين، ص٩٤ بترجمة جواد محبي، وص ٨٩، بترجمة الدكتور عيسىٰ بهنام.

٢ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص١٤٤، بترجمة الدكتور بهنام.

الاصل، وأن اوستا الساساني جدد التعاليم الخرافية السابقة علىٰ زرادشت.. ويدّعون:

«يجب علينا أن نفتش عن دين زرادشت الصحيح والأصيل في «گاتاها» اذ تصرف الناس بعد زرادشت بدينه، حتىٰ بعد دين زرادشت في العهد الساساني، عن مبدئه كثيراً...»[1].

ان «گاناها» الذي يستند اليه الاستاذ پور داود والدكتور معين، هو قسم من «يسنا»، وهو جزء من خمسة اجزاء من اوستا العهد الساساني، هو من حيث نسبته التاريخية الىٰ زرادشت اقوىٰ اقسام اوستا اعتباراً، فان لدىٰ الباحثين قرائن كثيرة تدل علىٰ أنّ گاتاها ـ وهو نشيد شعر للمناجاة ـ هو نشيد زرادشت نفسه، وهو أيضاً اقرب اقسام اوستا الىٰ العقول، فليس فيه ما في سائر الأقسام من الخرافات، او هي فيه قليلة علىٰ الأقل، بل يوجد فيه احياناً ما يضاد بعض الخرافات في سائر الأقسام. وعلىٰ هذا يستند من يرىٰ أن زرادشت كان موحداً، ويرىٰ أن سائر اقسام اوستا ملحقات غير اصيلة.

وعلىٰ أي حال، فلا شك في أن دين زرادشت انحطّ بعد زرادشت ولاسيما في العهد الساساني، سواء من حيث اصول العقائد او من حيث الأحكام والمقررات. وايّ دليل ادل علىٰ هذا من أن «آهورا مزدا» وجد لنفسه في الأدوار التالية لزرادشت شمائل واشكالاً وتواجدت تماثيله في كل مكان!.

وسبق أن نقلنا شيئاً مما ينسب اليه ما يفهم منه أنه كان يقول بتجرد الرّب ولا جسميته، ولذلك فهو ينهى عن القربان يقول: «ان الرب ليس جسماً حتىٰ يحتاج الىٰ الغذاء»[2] بينما نرىٰ أن للرب في العهد الساساني شمائل واشكالاً ولحية وعصا ورداء! ان النقوش التي بقيت لنا من العهد الساساني في «نقش رجب» و«نقش رستم» و«نقش طاق بستان» نرىٰ فيها أن اهورا مزدا يهب تاج الملوكية الىٰ اردشير او شاهپور او خسرو، ان هذه النقوش ترينا كيف أن الموابدة الساسانيين، كانوا قد صنعوا من اهورا مزدا صنماً او وثناً يعبد، بعد

---

١ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص١٩٨.

٢ ـ أما القرآن الكريم فيقول أيضاً: ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوىٰ منكم﴾ و يمنع من القربان بعنوان الاطعام اذ يقول: ﴿فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر﴾ و﴿أطعموا البائس الفقير﴾ (الحج: ٣٦).

أن كان قد تجرّد في فكر زرادشت.

ويشرح لنا كريستن سن «نقش رستم» فيقول:

«نرىٰ فيه أن اهورا مزدا وضع علىٰ رأسه تاجاً ذا اضلاع، يبدو شعره المجعّد فوق رأسه من وسط فتحة التاج، له هيئة قديمة من حيث حلقات خصائل شعره ولحيته الطويلة والمربعة، ولكنه لا يختلف كثيراً من حيث الملابس مع الملك الشاهنشاه؛ فله اشرطة مجعّدة مدلّاة من تاجه كما للملك، واما السرج والعُدة (لفرس مزدا والملك) فهي سواء، الا أن اللوح الذي وضع في مقدم سرج الملك نقش عليه صور رؤس اسود بارزة، اما سرج مزدا ففيه نقشة وردة»[1].

ونرىٰ نحن الآن علىٰ لوحات بعض المؤسسات المجوسية الزرادشتية، صوراً لآهورامزدا بنفس تلك اللحية والعصا كعلامة وطنية وقومية! وليست للدلالة علىٰ الانحطاط الفكري في العهد الساساني. ان المجوس اليوم يدّعون من ناحية أنهم موحدون، ويدّعون أن أهورامزدا عندهم هو الله الذي «لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير»[2] وهم من ناحية اخرىٰ يصورون له شكلاً وتاجاً وعصا وكأنما هو صنم يعبد.

انه لمن المخجل حقاً أن يُصور ربّ له جسم وجناح ولحية لنا نحن الايرانيين بعد أن حظينا ببركة الاسلام بأسمىٰ المفاهيم التوحيدية وكتبنا ونظمنا في ذلك أجمل المقالات والقصائد، ثم يصرون علينا أن نقبل هذه الصور كأنها علامات وشارات وطنية وقومية! فان لم يكن هذا من الانحطاط والرجعية فما هي الرجعية اذن وماهو الانحطاط؟! وان لم يكن هذا من عبادة الوثن، فما هو معنىٰ عبادة الاوثان والاصنام؟!

ان الايرانيين حينما ترجموا التعابير الاسلامية الىٰ اللغة الفارسية ترجموا لفظة (الله) الىٰ (خدا) والظاهر انها مخففة عن (خودآي) أي (غير المخلوق أو واجب الوجود) ولم

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص١١٢، ويراجع ص ١١٠، بعنوان شمائل الله في نقش رجب، وص ٢٥٧، شمائل الله في نقش رستم، وص ٤٨١، شمائل الله في طاق بستان ـ تطلق كلمة: شمائل في الفارسية علىٰ التمثال.

٢ ـ سورة الانعام: ١٠٣.

يترجموا (الله) الىٰ (اهورامزدا) حيث ان هذه الكلمة تمثل شيئاً مجسماً لدىٰ المجوس، فلم يروا من المناسب أن يترجموا (الله) الىٰ (اهورامزدا).

ان احد المفاهيم الدينية في العهد الساساني مصطلح «فرّايزدي» والظاهر أنه من وضع السياسة الساسانية، وقد يبدو لاول نظرة أن هذا المصطلح مفهوم معنوي مجرد، ولكـن بالتأمل والملاحظة يظهر أن هذا المصطلح أيضاً كان قد مثل جانباً مادياً وجسمانياً:

كتب الدكتور معين بهذا الصدد يقول:

«... انهم كانوا يصورون «فره» بصورة طير (كالشاهين والعُقاب) وفقاً لما في اوستا... وصوروا ان جمشيد حينمانطق بالكذب طار عنه الفر الملوكي، في صورة طير... وصور «فر» في «كارنامه اردشير» بصورة «خروف»[1].

وهنا ينقل لنا الدكتور معين اسطورة هروب اردشير والوصيفة ومطاردة اردوان لهما فيقول:

«كان اردوان كلما سأل جماعة عنهما اجابوه: أنهم رأوهما في النقطة الفلانية يسرعون في سيرهم ورأوا خلفهما «خروفاً» يتبع اثرهم. فـتعجب اردوان مـن جـري الخـروف ورائهما ويسأل الدستور (رجل الدين الزرادشتي) عن هذا فيجيبه: ان ذلك الخروف هو (فره الرباني أي الملوكي) ولكنه لم يصل اليهما بعد، فلنذهب الىٰ صوبهما لعلنا نستطيع أن نأخذه قبل أن يصل اليهما»[2].

وفي هذا العهد الساساني أيضاً تعرف بالنار بأنها بنت الربّ اهورا مزدا[3].

وفي هذا العهد ايضاً يجعل اهورامزدا الىٰ جانب اهريمن وفي عرضه، بعد أن كان في بعض تعاليم زرادشت فوق جميع الموجودات وخالقاً للعقل المـقدس (سـپنت مـئنيو) وللروح الشريرة (انگره مئنيو اي اهريمن)! وتوجد طبقة في هذا العهد يرون بالاستناد الىٰ نفس اوستا: أن اهورامزدا واهريمن كليهما مخلوقان لمـوجود آخـر بـاسم «زروان اي

---

١ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص ٤٢٠.

٢ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص ٤٢١.

٣ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ١٦٨.

الزمان غير المتناهي = الدهر» وهكذا يقولون:

«ان زروان الرب القديم الاصيل، قدّم قرابين كثيرة جداً، عساه يلد مولوداً يسميه اوهرمزد، وبعد أن قام بتقديم هذه القرابين طوال الف عام شك حتىٰ في اقوىٰ قرابينه واحسنها، ولهذا فقد ولد في بطنه مولودان: احدهما اوهرمزد الذي كان قد قدم القرابين له، والثاني: اهريمن وليد الشك والتردد. ووعد زروان ولاية عهد العالم الىٰ من حضر لديه اولاً، فشق آهريمن بطن والده وظهر أمامه، فسأله زروان: من أنت! فأجابه اهريمن: أنا ابنك! وقال زروان: ان ابني يكون نورانياً ومعطراً وانت عفن ومظلم! وظهر هنا اوهرمزد معطراً نورانياً، فعرفه زروان واعترف ببنوته وقال له: كنت انا اقدم لك القرابين حتىٰ اليوم، ويجب عليك أن تقدم لي القرابين من هذا الحين»[1].

ان كتاب «وندیداد» الذي هو جزء من خمسة أجزاء من اوستا الساساني الموجود، يشتمل علىٰ أحكام وآداب الزرادشتية في ذلك العهد. وقسم من هذا الكتاب يشتمل علىٰ ادعية واوراد لحبس الجن والشياطين (ديوها) بل ان كلمة «وندیداد» وأصلها «وندديو داد» تعني جعل (الجن = الديو) في محكمة العدل؛ فان «وند» يعني: الجعل، والديو: الجن والشياطين بالمعنىٰ المجوسي الزرادشتي الخاص، و«داد» يعني: العدل. وتكفي هذه الكلمة بهذه المعاني مرآة لاسلوب الفكر المجوسي الزرادشتي في ذلك العهد، وان محتويات هذا الكتاب تصور لنا العقائد في ذلك العهد ايضاً، وقد بسط الباحث المتخصص في مسائل ايران المستشرق كريستن سن، بسط لنا شرحاً وافياً في موضوع العقائد والآداب الزرادشتية في ذلك العهد، في الفصل الثالث من كتابه[2] وعن مناسك تخص عبادة النار، وحول جعل الطعام والشراب للأموات علىٰ سطح البيوت، وحول احتفال «سده» وارسال الحيوانات الضارية والطيور وغير الداجنة الىٰ النار، وعن احتفائهم بالنار وشربهم الشراب الخاص «هيوم أي سيوم» ورقصهم حولها، وغيرها...

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص١٧٣، وتاريخ ايران باستان، ج٦، ص١٥٢٤، ط بالقطع الصغير، وباختلاف يسير.

٢ ـ ايران در زمان ساسانيان ـ الترجمة الفارسية نقلها عن البيروني.

وكتب هذا المستشرق الباحث في الفصل الثاني من كتابه يقول:

«وكانت لرجال الدين الزرادشت وظائف وتكاليف مختلفة، تتعلق بعلاقاتهم مع المجتمع؛ من قبيل: اجراء احكام التطهير، والاصغاء الىٰ اعترافات المذنبين والعفو عنهم، وتعيين موازين الكفارات والجرائم، وعمل بعض التشريفات للولادات والاعراس، وشد المنطقة المقدسة «كستيك» وتشييع الجنائز، والقيام بالاعياد الدينية... وكان يجب عليهم أن يثنوا علىٰ الشمس ويتضرعوا للقمر في كل يوم اربع مرات... وكان عليهم أن يتلو اوراداً خاصة حين النوم والقيام من النوم والوضوء والغسل وشد المنطقة والحزام واكل الطعام وقضاء الحاجة والعطسة وتقليم الأظفار والخصائل وايقاد السراج وامثال ذلك... ان نار الموقد يجب أن لا تنطفئ في البيت، ونور الشمس يجب أن لا يصل الىٰ النار، ولا يجوز أن يصل الماء الىٰ النار، والأواني النحاسية لا يجوز أن تصدأ إذ النحاس من انواع الفلز وهو مقدس عندهم. وكانت هناك طقوس وواجبات خاصة علىٰ من يمس جسد الميت او الحائض او النفساء، ولا سيما كان وليدها قد مات قبل الولادة، وهي طقوس متعبة جداً... ويعدّ ارداي ويراز[1] من أولياء دين زرادشت، فقد شاهد من المعذبين في جهنم، من القاتلين والفاعلين والكافرين والظالمين: وشاهد افراداً جعلوا في جنب هؤلاء فيجهنم بسبب استحمامهم في الماء الحار، وتلويثهم النار والماء بالنجاسات، والكلام في اثناء الطعام، والبكاء علىٰ الأموات، والمشي بدون نعال...»[2].

وكانت الابقار ولا سيما الثيران منها مقدسة لديهم كثيراً... وكان قبل زرادشت يذبحون هذه الحيوانات للآلهة بدون أن يقصدوا من ذلك اطعام الفقراء والمساكين، بل بقصد تقوية وتأييد الآلهة فقط، ومنعت التعاليم الاصيلة لزرادشت قرابين الأبقار وأي حيوان آخر، وقد أكّد زرادشت أن هذا الحيوان (اي البقرة) يستفاد منه للزرع اكثر من الذبح. ولعل هذه التعاليم او سوابق الفرس في عبادة مظاهر الطبيعة، سبب في تقديس البقر بعد زرادشت؛ فقد فرض في قصة الخلق الاولىٰ أن البقرة أول المخلوقات علىٰ الأرض، وأنها قتلت مع اول رجل هو «گيومرد اي كيومرث» وعدّ بول البقر من المطهّرات

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ١٤١

٢ ـ ارداي ويراز صاحب رسالة في معراجه او مكاشفته تدعي: ارداي ويرازنامه.

المقدّسة! وكما يقول كريستن سن:

«وفي كتاب «وندیداد» شرح مفصل عن الماء وتأثيره في التطهير، وعدّ بول الثور أقوىٰ تأثيراً في التطهير...»[1].

ويقول ابو العلاء المعري الشاعر العربي الشهير في شعره المعروف الذي ينتقد فيه الاسلام واليهود والمسيح والمجوس بكلمة واحدة:

عجبت لكسرىٰ وأشياعه ... وغسل الوجوه ببول البقر!

وقول اليهود: إله يحب ... رسيس العظام وريح القتر!

وقول النصارىٰ: إله يضام ... ويظلم حياً ولا ينتصر!

وقوم: أتوا من اقاصي البلاد ... لرمي الجمار ولثم الحجر![2]

وفي اوستا الساساني حكم آخر أُكد كثيراً، هو المنع عن دفن الاموات وتلويث الارض بهم، وقد أُكد هذا الحكم في كتاب «وندیداد» اكثر من ايّ حكم آخر. وكان الزرادشتيون في ايران والهند لا يدفنون موتاهم حتىٰ النصف الأخير من هذا القرن كما نعلم، بل كانوا يضعون موتاهم علىٰ برج مشيد يدعي «برج خاموشان اي برج الهامدين» لتأكلهم الطيور، ثم منعتهم الحكومات عن هذا العمل حفظاً للصحة العامة، وتيقظت وتنورت افكار كثير من شبابهم فامتنعوا عنه بل منعوه. وبقي بعض ابراجهم قائماً الىٰ الآن حوالي مدينة يزد.

ويقول الدكتور معين في هذا الموضوع:

«ونرىٰ كثيراً من المعتقدات الهندية البوذية في دين زرادشت ايضاً، والعامل الأساس هنا النار، فالنار تتقد دائماً في محرابها والهدايا المتتالية تمنع من خمودها... ومع ذلك نرىٰ أن العبادة والتضرع والخضوع تبدو في الدين الايراني اكثر واكثر، ولهذا يمنع هذا الدين من إحراق الاموات ودفنهم ايضاً، اذ تقول العقيدة: ان الميت يلوث الأرض والنار وهما طاهران، ولهذا فهم يذهبون بأمواتهم الىٰ الصحاري ويجعلونها بين يدي الريح»[3].

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص١٦٧.

٢ ـ احاله الاستاذ المؤلف على مروج الذهب بدون تعيين الموضع، ولم اجده في مظانه.

٣ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص٥٣ ـ ٥٤.

ونرىٰ هنا أن دين زرادشت توجه الىٰ طهارة الماء والتراب، ولكنه لم يلتفت الىٰ انهما طاهران، ومطهران ايضاً...

ويقول كريستن سن:

«يقول آگاتياس: ان جعل الاموات في غارة في الجبل، كان من عادات وتقاليد الفرس علىٰ عهد الساسانيين. ويشير هيون تسانگ الزوار البوذي الصيني الىٰ أن الايرانيين كانوا يعلقون امواتهم غالباً (بيل، ٢، ص٢٧٨) وكتب اينوسترا نتزف رسالة في عمل الفرس القديم بموتاهم، بالروسية»[١].

وكتب في قصة طرد القائد سياوش من بلاط قباد، يقول:

«كان من بين الجرائم الهامة التي اخذت علىٰ سياوش من قبل «انجمن بزرگ» المحكمة العالية برئاسة موبد الموابدة: أن قالوا: ان سياوش حاول أن لا يعيش كما يعيش سائر الايرانيين ويحفظ العادات والتقاليد الايرانية، فعبد ارباباً مبتدعة، ودفن زوجته المتوفاة حديثاً، علىٰ خلاف دين زرادشت حيث يقرر أن يجعل الموتىٰ في غارة في الجبل لتأكلهم الطيور الكاسرة»[٢].

ويقول الاستاذ رشيد ياسمي مترجم هذا الكتاب:

«لم يعرف أن الهخامنشيين كانوا يتبعون في جميع اعمالهم احكام زرادشت؛ ويرىٰ بعضهم أن عبادتهم لآناهيتا ودفنهم امواتهم في المقابر دليل علىٰ خلافهم لشريعة زرادشت»[٣].

وهو يحاول أن يدعي بكلامه هذا، أن منع دفن الأموات كان قد سبق عهد الساسانيين الىٰ عهد الهخامنشيين.

زرادشت والثنوية

هل كان شعب ايران عند ظهور الاسلام ثنوياً مشركاً؟ ان الاجابة المفصلة عن النظام

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٥٢، في الهامش.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٨٠.

٣ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٤٩، في الهامش.

الفكري والعقائدي الفارسي الساساني يتكفل الاجابة عن هذا السؤال، نظام المجوس الزرادشت دون الأقليات الاخرىٰ كاليهودية والمسيحية والبوذية، اذ لم تكن هذه الأقليات تعيش ضمن الأكثرية المجوسية. وعلينا أن نعرف ماذا كان وضع ايران من هذه الناحية في الأدوار السابقة للعهد الساساني.

وقد بحثنا في الفصول السابقة، حول الأدوار السابقة علىٰ زرادشت وتبيّن لنا: أن عقيدة الثنوية كانت راسخة في الروح الآرية حتىٰ في عهود عبادة الطبيعة وارباب الانواع، وكانوا، كما يقول دومزيل: «ان العقيدة الثنوية من خصائص الفكر الفارسي الايراني».

ويجب أن نعرف ماذا كان يفكر زرادشت بالنسبة الىٰ هذا الموضوع، وهو يحاول اصلاح عقائد الآريين؟ فهل كان موحداً أم ثنوياً؟:

اذا جعلنا أساسنا للحكم في ذلك كتاب اوستا الساساني، لم نشك في انه كان ثنوياً، ولكنا قلنا قبل هذا ان الباحثين يرون أن قسماً قليلاً من «گاتها» قديم ومن زرادشت نفسه ، وأما سائر الأقسام فهي جديدة، الحقت بعد زرادشت. ومحتويات هذا القسم القديم «گاتها» اقرب الىٰ التوحيد من الثنوية، وان كانت غير صريحة في ذلك.

إن التوحيد في الإسلام (والعقل) ينقسم الىٰ اربع مراتب: توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة.

فأما توحيد الذات: فهو القول بقدم الله ووجوب وجوده، وازليته وابديته وسرمديته، واستقلاله وعدم النظير له. والقول بأن ماسواه ممكن وحادث بالذات وقائم به ومحدود، سواء الماديات والمجردات... «ليس كمثله شيء» و«له المثل الأعلىٰ».

واما توحيد الصفات: فهو القول بأن صفاته عين ذاته، فهو العلم والقدرة والحياة والنور؛ إذ من لوازم وجوب وجوده وسرمديته، عدم افتراض عروض شيء عليه وعدم افتراض ثان غيره في رتبته. وبعبارة اخرىٰ: ان من لوازم كمال ذاته القول بأن صفاته عين ذاته؛ اذ القول بكون صفاته غير ذاته يستلزم محدودية ذاته، وانما يفترض القول بمغايرة الصفات للذات في الأشياء المحدودة.

وأما توحيد الأفعال: فهو القول بأن الفاعل والمؤثر الحقيقي في نظام الموجودات ليس الا هو سبحانه، وان كل فاعل انما يؤثر بفاعليته ومؤثريته ومشيئته وارادته؛ إذ لا استقلال لاي موجود مادي او مجرد، مريد او غير مريد، وان نظام العليّة هو المجرىٰ الطبيعي لارادة الله ومشيئته. فالوجود له ولا شريك له ﴿**لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً**﴾ (الاسراء: ١١١).

وأما التوحيد في العبادة: فهو يرتبط بعلاقة العبد بربه، ويعني كما أن الله واحد في ذاته وصفاته وافعاله، كذلك يجب علىٰ العبد أن لا يعبد رباً سواه ولا يستعين بسواه: ﴿**وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ (البينة: ١٥).

والذي لاشك فيه أن زرادشت كان يدعو الىٰ التوحيد في العبادة، فآهورامزدا وحده الذي يدعو زرادشت الى عبادته، وهو اسم يطلقه زرادشت علىٰ خالق الانسان والعالم وحده، وكان ينهىٰ الناس عن عبادة الجن والشياطين «ديوها» ويرىٰ نفسه رسولاً من قبل أهورامزدا فقط.

وينكر الدكتور معين أن يكون الآريون قبل زرادشت يعبدون القوىٰ الطبيعية الضارة او الجن والشياطين والارواح الشريرة «ديوها» ويدعي أنهم كانوا يعبدون في عهد عبادة الطبيعة، القوىٰ والأرواح الخيرة والنافعة لا الأرواح والقوىٰ الضارة، ويقول:

«انهم (اي الآريين) كانوا بعيدين عن عبادة الأرواح الضارة بل يلعنونها، ولم يحاولوا قط أن يطلبوا رضاها بتقديم القرابين لها ، وأن يبدلوا غضبها بالرحمة بالاوراد والعبادات المختلفة. وهذا هو احد وجوه الاختلاف الأساسية بين عقائد الأقوام الآرية وعقائد الاتراك والمغول؛ اذ كان هؤلاء الأخيرون يحاولون ارضاء القوىٰ الضارة ودفع ضررها وجلب رضاها بالعبادة وتقديم القرابين»[1].

ونحن ان قبلنا مقالة الدكتور هذه كان علينا أن نقول: أنّ زرادشت لم يحاول اصلاحاً من هذه الناحية؛ اذ لم يكن الآريون يعبدون الجن والشياطين «ديوها» حتىٰ ينهاهم زرادشت عن عبادتها. والظاهر أن الدكتور أخطأ في دعواه هذه وخالف فيها جميع

---

١ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص٣٦.

الباحثين، ومن التأكيد الشديد المنقول عن زرادشت على النهي عن عبادتها يعلم أنَّ عبادتها كانت شائعة اذ ذاك بين الآريين.

كتب جان ناس في كتابه[1] الذي ترجمه الاستاذ علي أصغر حكمت، بعد بحث حول التطور الذي طرأ علىٰ مفهوم كلمة «آهورا» وكلمة «ديو» بين الهنود والفرس، يقولُ:

«ان زرادشت... اعلن بصراحة: أن هذه «الديو» (التى كان يعبدها التورانيون والمفان) انما هي ارواح شريرة وضارة، وهي في حرب سجال مع الارواح الخيرة والنافعة. وهي رب الكذب علىٰ الأرواح الطاهرة وخداعها، وهي مصادر الشرور والقبائح، وهي التي تمنع الانسان عن عبادة آهورامزدا. فمنع عن عبادتها»[2].

ثم يلخّص جان ناس دعوة زرادشت في مايلي:

أ ـ اعلان نبوته ودعوة الناس الىٰ قبولها والاعتراف بها.

ب ـ لم يعترف الا بروح واحدة خيرة ونافعة هي آهورا مزدا ـ بين كل تلك الأرواح الشائعة اذ ذاك ـ وقال انه اكبر وأعلىٰ علىٰ الآلهة، وهو الخالق العالم واعلىٰ الارواح العلوية، وقال: إن جميع الموجودات انما خُلقت بإرادة أهورامزدا ومشيئته ـ علىٰ خلاف ما يقول به بعض الزرادشتيين المتأخرين ـ بل صرح ـ كما في الآية الأخيرة من «گاتها» ـ بأن اهورامزدا هو موجد النور والظلمة كليهما...

ج ـ ان اهورامزدا كان يفعل ما يريد بارادته العلوية المقدسة بواسطة روح مقدسة نافعة وخيره دعاها: «سپنت مئنيو اي العقل المقدس» (كما يقول قدماء الفلاسفة بالعقل الاول).

د ـ ان زرادشت كان يقول: لا شريك ولا ضد ولا ندّ لآهورامزدا، ولكنه كان يقول: ان مع كل خير شر، فالصدق والحق «اشا» يقابله الكذب «دروغ» والباطل، والحياة يقابلها الموت... وهكذا يقابل الروح الطاهرة والمقدسة «سپنت مئنيو» روح خبيثة شرور «انگرامئنيو» ... وحينما ظهرت هاتان الروحان أوجدت احدهما الحياة والاخرىٰ

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ جامع اديان، ص٣٠٦.

٢ ـ بالفارسية: تاريخ جامع اديان، ص٣٠٦.

الموت... والجنة الدائمة تكون من نصيب اصحاب الصدق والحق، والىٰ جهنم الخالدة تكون عاقبة اتباع الكذب والخداع... وقالت الروح الطاهرة الخيرة لعدوتها الاخرىٰ: اننا لن نتصالح أبداً، لا في عالم الأرواح والاجسام، ولا في الاقوال والافعال وردود الافعال.

هـ ـ أن أساس الأخلاق في دين زرادشت يبتني علىٰ قاعدة: أن نفس كل انسان هي ميدان حرب سجال دائم بين الخير والشر، وأن صدر البشر تنور نار لهذه الحرب تشتعل فيه. وان اهورامزدا حينما خلق الانسان وهبه حرية العمل والاختيار ليختار عمله بنفسه، اي جعله ذا قدرة علىٰ الاختيار والانتخاب ليختار بين طريقي الخطأ والصواب أياً شاء منهما»[1].

وليس الأمر في «گاتاها» بهذه الصراحة التي يدعيها جان ناس، فقد يفيد بعض فقراته هذا الامر وقد يفيد غيرها خلاف ذلك. مما يوجب التردد في أن يكون جميع «گاتاها» من زرادشت. والاستاذ جان ناس نفسه يتردد أخيراً: هل أن زرادشت كان يرىٰ أن أهورامزدا خالق انگرا مئنيو (أهريمن) او يراه أنه هو كاشف له لا خالق؟ ولهذا فهو يقول:

«... ان نصوص كتب زرادشت في حدود مسؤولية اهورامزدا في ايجاد الروح الشريرة (اهريمن) مبهمة كثيرة الابهام، ولا يُعلم منها: هل أن انگرا مئنيو اي الروح الشريرة وجد من اول يوم مع اهورامزدا أو أن اهورامزدا خلقه بعد؟ وبعبارة اخرىٰ: هل أن أهورامزدا هو الذي خلق الروح الشريرة (اهريمن) أو أن انگرامئنيو كان موجوداً شريراً، وأن أهورامزدا انما كشف عن وجوده، وأنه عين اشر أمام كل خير، وكل ظلمة أمام كل نور؟»[2].

ويدعي الاستاذ جوزف گير في كتابه[3]: أن زرادشت بعد أن ذهب الىٰ بلاط گشتاسپ في بلخ، ودار بحث بينه وبين علماء البلاط سألوه: من هذا الخالق الكبير؟

فأجاب: هو أهورامزدا، الرب، العالم، والحاكم الاعلىٰ علىٰ العالم.

سألوه: انت تعترف بأنه هو الذي خلق جميع اشياء العالم؟

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ جامع اديان، ٣٠٦ ـ ٣٠٨.

٢ ـ نفس المصدر، ص٣٠٨.

٣ ـ بالفارسية: دينهاي بزرگ نقلاً عن كتاب: مزديسنا وادب پارسي، ص٢٦٤.

فأجاب: انه خلق كل شيء خير؛ اذ هو لا يقدر علىٰ شيء سوىٰ الخير!

فسألوه: فالشرور والأرجاس مخلوقات من؟

أجاب: ان الشرور والأرجاس جاء بها انگر مئنيو أي أهريمن.

فقالوا: اذن فأنت تقول بإلهين للعالم؟

قال: نعم؛ ان للعالم خالقين...»

ولكن الظاهر: أن مصادر جوزف گير روايات زرادشتية غير تاريخية. واذا اردنا أن نعتمد علىٰ الروايات الزرادشتية لزمنا أن نرىٰ أن زرادشت كان ثنوياً بدون أي شك، فاي مصدر اوثق من كتاب «وندیداد» الذي هو جزء من اوستا الساساني؟ وقد جاء في هذا الكتاب حتىٰ تقسيم الارض بين الالهين، فالاراضي الخيرة والمباركة مخلوقة لآهورامزدا، والاراضي الجرداء وغير المباركة مخلوقة لأهريمن.

وبسبب اختلاف مضامين «گاتها» اختلفت انظار العلماء في توحيد زرادشت وتنويته: كتب گيرشمن المستشرق المتخصص بايران في كتابه[1] يقول:

«ان دين زرادشت لم يكن مبنياً علىٰ أساس التوحيد، الا أنه في العهد الساساني قبل التوحيد تأثراً بنفوذ الاديان الكبرىٰ كالمسيحية».

وعلىٰ العكس منه يعتقد دومزيل ـ كما قلنا سابقاً ـ أن زرادشت كان يدعو الىٰ التوحيد.

ويرىٰ الشهرستاني في «الملل والنحل»[2] ان زرادشت كان موحداً، ويفسر مسألة الخير والشر في الزرادشتية بنحو ينطبق علىٰ التعاليم الاسلامية لا الزرادشية، وذلك بتأثير من العقائد الفلسفية والكلامية الاسلامية.

والحقيقة: أنا لو نظرنا الىٰ التوحيد من جهات متعددة، لأشكل علينا كثيراً أن نحسب دين زرادشت ديناً توحيدياً.

ويبتني البحث حول توحيدية دين زرادشت وثنويته علىٰ أن زرادشت هل كان يقول

---

١ ـ بالفارسية: ايران از آغاز تا اسلام ـ نقلاً عن مزديسنا وادب پارسي، ص ٢٦٤.

٢ ـ الملل والنحل، ج ٢، ص ٧٧، ط مصر، ١٣١٧هـ.

ان اهورامزدا خالق أهريمن وأن اهريمن مخلوق له؟ او يقول بأن اهريمن ازلي وقديم ويجعله في عرض اهورامزدا؟ وافترضوا أنه اذا ثبت أن اهريمن مخلوق لآهورامزدا فقد تمّ المطلوب وثبت أن دين زرادشت دين توحيدي.

وهذا انما يصح بالنظر الىٰ توحيد الذات فحسب، ولا يصح بالنظر الىٰ التوحيد في الافعال؛ اذ من المعلوم ـ بناء علىٰ الآثار الموجودة ومنها «گاتاها» ـ أن الشرور كانت تشغل بال زرادشت كثيراً تماماً كسائر القدماء الآخرين، وان زرادشت كان يقول: ان نظام هذا العالم ليس علىٰ وفق النظام المعقول الذي يجب أن يكون، اذ نجد في هذا العالم حقائق شريرة، والوجودات المقدسة كآهورامزدا او «سپنت مئينيو» اعظم وأجل من ان ينسب اليها خلق هذه الشرور؛ إذن فلابد أن نفترض وجوداً آخر يكون شراً ذاتاً وتنسب هذه الشرور المخلوقة اليه.

وان أساس التوحيد لايستقر علىٰ هذا الاسلوب من التفكير، سواء كان أهريمن مخلوقاً لآهورامزدا ام لم يكن؛ اما اذا لم يكن فواضح، واما اذا كان مخلوقاً له فنقول:

اولاً: اذن يبقىٰ السؤال الأساس علىٰ حاله، وضعفه: اذا كان آهورامزدا يفعل الشر أيضاً فما هو الداعي لافتراض وجود «انگرمئنيو» قبال آهورامزدا أو «سپنت مئينيو» بل يُنسب الشرور الىٰ نفس آهورامزدا أو «سپنت مئنيو» باعتبار انه هو الصادر الأول عن واجب الوجود. وأما اذا كانت نسبة الشر الىٰ آهورامزدا من غير ممكنة، فكيف يمكن أن يكون آهورامزدا قد خلق اهريمن او «انگرامئنيو» الروح الشريرة ومبدأ كل الشرور؟!

ثانياً: وبعد أن افترضنا خلق «انگرامئنيو» فما دوره؟ هل يخلق مباشرة؟ او يكون منفذاً لارادة آهورامزدا ومشيئته؟. فان كان يخلق بماشرة فقد وُجد لآهورامزدا شريك في الفعل والخلق، وهذا هو الشرك عيناً. وان لم تكن له مباشرة واستقلال في الخلق، فلا أثر لافتراض وجوده في نفي نسبة الشرور الىٰ آهورامزدا.

ان جذور الثنوية نشأت من تصور البشر أن الأشياء علىٰ نوعين: خير وشر، ولهذا كان يقول بوجود مبدأ للخير وآخر للشر، ويقول: الخالق الخير بأسمىٰ الصفات والكمالات، ويبرّيه من التدخل في خلق الموجودات الضارة! وينكر أن تكون الموجودات الضارة

مخلوقة لهذا المبدأ.. وأذن لابد له من افتراض مبدأ آخر للشرور، فانكار امكان خلق مبدأ الخير للشرور، هو الذي جرّه الىٰ افتراض مبدأ آخر في عرض وجود مبدأ الخير.

أما اذا فرضنا أن المبدأ الآخر الذي خلق الشرور ليس في عرض الخالق، بل افترضناه مخلوقاً له.. فنحن وان انكرنا بذلك وجود أصل قديم قائم بذاته في قبال الخالق، الا أنه يبقىٰ الموضوع الأساس ـ وهو انكار امكان نسبة خلق قسم من المخلوقات التي تسمىٰ شرّاً الىٰ ذلك الخالق ـ علىٰ حاله. وبعبارة اخرىٰ: لم نقل بوجود شريك للخالق في عرض ذاته، الا أنا جعلنا احد مخلوقاته شريكاً له في الخالقية.

وقد برهنت الحكمة الإلهية علىٰ أن الشرك في الخلق يستلزم الشرك في الذات مآلاً، هذا بالاضافة الىٰ أنه مناقض لتعاليم جميع الأنبياء والرسل.

والحقيقة: أن هذا الاسلوب من الفكر الذي يحار في مسألة الخير والشر، ليس من شأن نبيّ بل ولا فيلسوف، وانما هو من شأن متفلسف ناقص في الفلسفة والفكر والبرهان. ان النبيّ الذي ينظر الىٰ الوجود من أعلىٰ لا يرىٰ سوىٰ النور والخير والرحمة والحكمة البالغة، التي جعلت نظام الوجود علىٰ أساس نظام العلية والأسباب... ويستحيل أن يشغل عقول الأنبياء التفكير بهذه الأمور. أما الفيلسوف الكامل: فيرىٰ الشرور اموراً عدمية واضافية نسبية، وأن نفس هذه الأمور النسبية والاضافية علىٰ حالها هذا، هي ركن من اركان النظام الأكمل، وهي علىٰ أساس حكمة بالغة إلهية، ولو لم تكن لورد النقص علىٰ نظام العالم.

ان الخالق المتعال في الدين التوحيدي: كامل مطلق، مبرأ من كل نقص، وُجدت بارادته وحكمته البالغة جميع الموجودات وهي فانية لامحال. وان ليس شيء من الموجودات خلق لغواً وعبثاً، وأن لاحقيقة لوجود الشرور، وأن كل شيء حسن وجميل: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ هو الذي ﴿يحيي ويميت ويميت ويحيي﴾ وهو الذي ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ وهو الذي ﴿خلق السموات و الارض وجعل الظلمات والنور﴾.

وقد نقلنا قبل هذا محاورة زرادشت من قول جوزيف گير في كتابه[1]، التي قال فيها:

---

١ ـ بالفارسية: دينهاى بزرگ نقلاً عن كتاب: مزديسنا وادب پارسي، ص ٢٦٤.

ان اهورامزدا خالق الخير فقط، ونسب الشرور الىٰ موجود آخر حيث لا يراها تناسب آهورامزدا. ونحن وان شككنا في صحة هذه المحاورة، الا أنها تبين اسلوب تفكير زرادشت او من ينتسبون اليه. ولنقارن هذه المحاورة بمحاورة نقلها القرآن الكريم بين موسىٰ بن عمران وبين فرعونه:

﴿قال: فمن ربكما ياموسىٰ؟

قال: ربنا الذي اعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ﴾[1].

يقول موسىٰ عليه السلام في هذه الجملة القصيرة: ان الله هو الذي خلق كل شيء وفق حكمته البالغة، ولا شيء في الوجود يخالف ما ينبغي أن يكون هو عليه، وكل شيء في حدّ ذاته حسن وجميل، وان لا واقع للشرور في العالم كي يقال: من خلق الشرور؟ نعم هذا ما يقوله الانبياء والرسل سلام الله عليهم اجمعين.

وقد علم مما قلناه: ان افتراض «انگرامئنيو» باعتباره خالق الشرور واللامعقولات في هذا العالم، مما يخالف الاصول التوحيدية ومنطق الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم اجمعين، حتىٰ وان قلنابأنه هو بدوره مخلوق لآهورامزدا.

وعلىٰ هذا ينبغي أن نقول: ان دين زرادشت ليس ديناً توحيدياً ناقصاً، كما يقول كريستن سن[2] بل هو فلسفة ناقصة؛ اذ هو اشبه بمقال متفلسف ناقصٍ في الفلسفة، لا فيلسوف كامل، فضلاً عن مقالات الأنبياء والمرسلين سلام الله عليهم اجمعين.

وينقل الدكتور محمد معين عن المستشرق پ. ژ. دومناشه قوله:

«يوجد في القرآن الكريم اشارات الىٰ منشأ ذنوب البشر ووجود الشر.. وان دين مزدا قد اجاب عن هذه المسألة اجابة بسيطة اصولية خاصة؛ اذ نسب الشرور الىٰ وجود يقابل وجود آهورامزدا ويشابهه في القدم والازلية. ولا كلام في أن الروح الشريرة لا تقابل مزدا من حيث القوة والقدرة والعظمة، بل تنهزم أمامه لا محالة؛ ولكنها مع ذلك تحدّد مجالات اعماله.. فالاجابة التي يعطيها دين مزدا لمسألة الخير والشر تبرّئ آهورامزدا من مسؤولية

---

١ ـ سورة طه: ٤٩ ـ ٥٠.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٥٠.

الشرور التي نراها في نظام هذا العالم»[1].

لا شلت يمينك! وأدام الله ظل الدكتور پ. ژ. دومناشه ودين مزدا علىٰ رأس الدكتور معين واضرابه!

لو كان دين مزدا ينكر وجود الخالق من الأساس، لكان يبرّيه عن مسؤولية الشرور التي يراها الدكتور دومناشه اكثر وابعد!. ان دين مزدا أراد أن يكحل عين مزدا فأعماها! اراد أن لا ينسب الشرور ـ التي هي سلسلة من امور اضافية ونسبية وهي في التحليل العلمي النهائي تعدّ عدمية ـ الىٰ الخالق، فعزل الخالق عن ربوبيته في نصف المخلوقات!. ان دين مزدا عمي عن الالتفات الىٰ عدمية الشرور وضرورتها، وعدم امكان انفكاكها عن طبيعة نظام هذا العالم، وعن فوائد هذه الشرور وآثارها والحكمة من وجودها. لكي ينجو من الاشكال، قطع الأصل من الأساس!

ولا نستطيع نحن هنا أن نرد موضوع ابحاث الخير والشر، العميقة والدقيقة التي غرقت فيها آلاف السفن، بحيث لم تنج حتىٰ الخشبة منها... وسفينة زرادشت هي احدىٰ السفن.

الشيطان

وهنا نقطة يجب أن نوضحها: من الممكن أن يظن بعضهم أن لا فرق بين اهريمن في دين زرادشت والشيطان في دين الإسلام، أي أنا اذا حسبنا أن أهريمن مخلوق لاهورامزدا فهذا يساوي الشيطان الذي يقول فيه الإسلام أنه مخلوق لله وهو فاعل لكثير من الشرور؟

وليس الأمر كذلك؛ اذ ليس للشيطان في الإسلام دور في خلق الشرور، بل لا ينسب الاسلام خلق أيّ شيء من الشرور الىٰ الشيطان الرجيم. بل لا توجد في الاسلام فكرة تقول بوجود موجودات غير مرغوب فيها في نظام الخلق، ويجب أن لا تكون، وحيث هي موجودة، فلا بد أن تكون من موجود رجس، غير خالق الخير، بل الاسلام يقول: ان جميع الاشياء وجدت بارادة الله تعالىٰ. وكلها خير ﴿الذي احسن كل شيء خلقه﴾[2] ﴿ربنا

---

١ ـ بالفارسية مزديسنا وادب پارسي، ص ٢٥ نقلاً عن كتاب: تاريخ تمدن ايراني، بترجمة جواد محبي.

٢ ـ سورة السجدة: ٧.

الذي اعطىٰ كل شيء خلقه ثم هدىٰ﴾[1] وان مجال تسرب الشيطان انما هو التشريع لا التكوين، يعني أن الشيطان انما يستطيع أن يوسوس لابن آدم ويرغبه في المعاصي والذنوب، ولا سلطان له علىٰ الانسان اكثر من الدعوة والدعاية ﴿وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾[2].

ومهما كانت ماهية الشيطان؛ فان انسانية الانسان انما هي بامتلاكه العقل والارادة والاختيار وانما يمكن الاختيار بعد وجود العقل والتمييز ثم وجود طريقين أمام الانسان، فان لم يكن احد هذين الركنين في الانسان لم تكن له انسانية واقعية: ﴿انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً. انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً﴾[3].

ان وسوسة النفس الأمارة، ووجود الشيطان لذلك شرط في تحقق اختيار الانسان وبالتالي انسانيته، فكما أن هناك في الانسان حالة الهام بالخير ومن الخارج الدعوة له اليه؛ كذلك يجب أن تكون وسوسة فيه للشر ليختار هو أحد هذين ،وبذلك يخطو خطوة اخرىٰ في طريق الانسانية.

«ان في الدنيا نداءين لنا ... يدعو ان الأتقيا والأشقيا
فلتكن تصغىٰ وتختار الندا ... ولتكن ترضىٰ طريق الاتقيا»[4]

إن الجن والشياطين وردت في القرآن في عداد الموجودات الطبيعية لا الملائكة؛ وان الملائكة هم رسل الله وعماله في نظام هذا العالم، بينما لا دور للجن والشياطين في امور

---

١ ـ سورة طه: ٥٠.

٢ ـ سورة ابراهيم: ٢٢.

٣ ـ سورة الدهر: ٢ ـ ٣.

٤ ـ تعريب تقريبي لبيت من المولوي المثنوي الرومي جلال الدين شمس التبريزي اذ يقول:

«درجهان دوبانگ مي آيد به ضد ... تا كدامين را تو باشيء مستعد
آن يكي بانگش نشور اتقيا ... وآن دگر بانگش نفور اشقيا»

والتعريب للمعرب.

إن في الدنيا دعوتان متضادتان لنختار احداهما تدعوان
واحدة لنشر الاتقياء واخرى لنفر الاشقياء

الخلق اطلاقاً، وهم في هذا كسائر الموجودات الأرضية... ومن هنا نعلم: أن فكرة وجود مخلوقات شريرة لاينبغي أن تكون، وأن لايكون في نظام الخلق نقص من هذه الجهة... هذه الفكرة لا مجال لها في الفكر القرآني في الاسلام.

ولا تفوتنا الفرصة هنا أن نقول: قد تترجم كلمة «الشيطان» الواردة في القرآن الكريم بالترجمة الفارسية الىٰ كلمة «ديو» أو «اهريمن». وهذه الترجمة غير صحيحة البتة؛ فلا معادل لكلمة الشيطان في اللغة الفارسية، وعلىٰ هذا يجب أن تُستخدم فيالترجمة أيضاً الكلمة نفسها او كلمة «ابليس» فمفهوم «ديو» او «اهريمن» يختلف عن مفهوم كلمة الشيطان في القرآن، بل لا وجود في الحقيقة لمفهوم هاتين الكلمتين لدىٰ القرآن الكريم اطلاقاً.

دين زرادشت في الفقه الاسلامي

وفي ختام هذا البحث يجب أن نذكر أن تشكيكنا في توحيدية دين زرادشت كان في البحث السابق من ناحية تاريخية؛ اي انا اذا جعلنا ملاك الحكم علىٰ دين زرادشت بالتوحيدية او عدمه محتويات المصادر التاريخية الموجودة لدينا الآن وقابلناها ووازنّاها بالموازين العلمية للتوحيد؛ لم نستطع في المحصلة النهائية ان نرىٰ دين زرادشت ديناً توحيدياً صحيحاً؛ اذ أن فرضية زرادشت بشأن نظام الخلق كما في المصادر والمراجع والمستندات لا ينسجم مع التوحيد، حتىٰ اذا افترضنا «انگرامئنيو» مخلوقاً لآهورامزدا...

الا انا ـ نحن المسلمين ـ نستطيع أن ننظر الىٰ هذا الدين من زاوية اخرىٰ، وأن نحكم له او عليه بملاك آخر غير ملاك المصادر والمستندات التاريخية الموجودة لدينا الآن من هذا الدين. تلك الزاوية هي زاوية الفقه والحديث الاسلاميان. وهذا الملاك الآخر هو ملاك اسلامي خاص يتميز بالجانب التعبّدي المعتبر وحجة لدىٰ المسلم المؤمن. فلا مانع من هذه الزاوية، وبهذه النظرة أن نرىٰ دين زرادشت ديناً توحيدياً، أي أن نراه ديناً كان في اصله توحيدياً، وأن نرىٰ الشرك فيه ـ بمختلف نواحيه: الثنوية والعبادية وغيرها ـ بدعاً

ألحقت به فيما بعد... ان المصادر التاريخية لو بلغ اعتبارها الىٰ مرحلة القطع واليقين لأصبحت ملاكاً فقهياً كافياً أيضاً؛ لكن عدم التوحيد في دين زرادشت ليس مقطوعاً به بموجب الأصل، ولذلك فلو ألزمتنا الموازين الفقهية بأن نحسب هذا الدين توحيدياً وأن نرىٰ الزرادشتيين من «اهل الكتاب» كما في المصطلح الفقهي الاسلامي، لم يكن هناك ايّ مانع من ذلك. والمسلمون الأوائل حيث عدوهم في عداد «أهل الكتاب» انما كانوا يستندون الىٰ هذه المصادر الفقهية. وان كان هذا من موارد الخلاف بينهم ايضاً، ولم يكن الفقهاء المسلمون الفرس أقلَّ خلافاً من غيرهم في عدّهم من أهل الكتاب. والبحث التفصيلي بشأن المدارك الفقهية والحديثية لهذه المسألة خارج عن اغراض هذا الكتاب، موكول لوقت آخر. وسنبحث فيها شيئاً عندما نبحث في «النظام العائلي» عن الزواج بالمحارم، ان شاء الله.

الثنوية الزرادشتية بعد زرادشت

والشك ان كان فانما هو في شأن زرادشت نفسه او دينه الأصلي، وأما الأدوار التي اعقبت زرادشت ولاسيما عهد الساسانيين الذي انتهىٰ بدخول الإسلام الىٰ ايران فلا مجال لأي تشكيك في ان الزرادشتية فيها كانت ثنوية قطعاً. والذين يرون أن زرادشت نفسه كان موحداً، يعترفون ويأسفون علىٰ انحراف الزرادشتية الىٰ الثنوية فيما بعد زرادشت.

يقول المستشرق جان ناس ـ وهو ممن يرىٰ زرادشت موحداً ـ:

«ان العقيدة بمبدأ للشرور وفاعل للفساد والخطأ تطوّرت علىٰ مرور الأيام حتىٰ قلبت دين زرادشت الىٰ دين ثنوي من الناحية الأخلاقية والعبادية... فقد أصبح «انگرامئنيو» علىٰ مر الأيام ابليساً قوياً يقاوم أهورامزدا، حتىٰ أصبحا في حرب علىٰ قدم المساواة. ان في قِطَع وأجزاء اوستا التي هي من آثار القرون المتأخرة عن زرادشت، يحسب «انگرامئينو» وأهورامزدا متساويين في الألوهية والشأن..»[1].

---

١ ـ تاريخ جامع اديان، ص ٣١٥.

أما الذين يرون أن زرادشت كان ثنوياً، فهم يقولون: ان الثنوية استحكمت وترسخت بعد زرادشت. يقول پ. ژ. دوميناشه :

«تبدلت الثنوية التي كانت في «گاتها» لزرادشت الىٰ ثنوية اقوىٰ تقسم جميع موجودات العالم بين آلهي الخير والشر»[1].

ان كتاب «وندیداد»، الذي هو جزء من اوستا الموجود الآن والمطبوع، يصف انگرامئينو بأنه خالق لجوانب الشر في الأرض: لصقيع الأرض في الشتاء ورمضائها في الصيف، وللأفاعي والحيات..

إن الزرادشتيين تظاهروا بعقائدهم الثنوية في العهد الإسلامي بكل حرية، وكانوا يحامون عنها ويجادلون فيها مع الأئمة الأطهار عليهم السلام وجميع علماء الاسلام ومتكلميهم، بكل صراحة ووضوح، وقد نقل الينا قسم من هذه البحوث والمجادلات، في كتب الحديث عند الشيعة: كالتوحيد للصدوق (قده) والاحتجاج للطبرسي (قده) وعيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق (ره) وبحار الأنوار للعلامة المجلسي (قده) ـ وهذا يؤيد أن الزرادشتيين كانوا في العهد الساساني ثنويين، وأنهم حافظوا علىٰ عقيدتهم هذه في العهد الاسلامي ودافعوا عنها.

يقال: «ان «دينكرد» أحد الكتب الزرادشتية الشهيرة ـ ألف في القرن الثالث الهجري ـ يشكل نصفه دفاعاً عن الثنوية امام ساير الأديان والمسيحية والإسلام»[2].

ويرىٰ كريستن سن أن العقائد «الزروانية» التي اشرنا اليها فيما قبل، ترسخت في اوساط الزرادشتيين ولا سيما في العهد الساساني[3] والعقائد الزروانية مجموعة مزيجة وخرافية.

ويرىٰ كريستن سن أيضاً، أن الزرادشتيين بعد ظهور الإسلام رفضوا المواد الزروانية من بين عقائدهم وكتبهم، وأخذوا يقولون بنوع من الثنوية فيها من الفلسفة ما يمكنهم معها

---

١ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص١٨٨، بترجمة الدكتور بهرام.

٢ ـ تاريخ تمدن ايران، بقلم جماعة من المستشرقين، وترجمة جواد محبي، ص٢٦٩ ـ ٢٧٠، وص٢٤٩ وترجمة الدكتور عيسىٰ بهنام.

٣ ـ ايران در زمان ساسانيان، الفصل الثالث.

الدفاع عن ثنويتهم. يقول:

«ان شريعة زرادشت التي كانت علىٰ عهد الساسانيين، الدين الرسمي للدولة، كانت تقوم علىٰ اصول في اواخر هذا العهد، قد خوت من كل شيء، وكان لابد لها من الانحطاط قطعاً. فلما اطاح الإسلام بالدولة الساسانية التي تبنت الدفاع عن رجال زرادشت، ادرك هؤلاء، أن لابد لهم من سعي حثيث لحفظ شريعتهم من الانحلال التام. وقد تحقق هـذا السعي الحثيث: فقد رفضوا من عقائدهم العقائد الزروانية والأساطير الصبيانية المتعلقة بها، وجعلوا سنتهم دين زرادشت دون شوائب الزروانية، وبالتالي تبدلت القصص التـي كانت ترجع الىٰ قصة خلق العالم، وألغيت عبادة الشمس، وجعلوها عندهم كما كـانت في«مهريشت» العتيق، كي يتظاهروا بالتوحيد اكثر مـن الثـنوية، وحـذفوا كـثيراً مـن رواياتهم الدينية او غيّروها، وتناسوا أقساماً من اوستا السـاساني وتـفاسيره المـزيجة بالأفكار الزروانية. وجدير بالملاحظة أن نقول: ان «يشتها» المربوطة بقصص التكوين والتي قد بقي قليل منها في «دينكرد» قد لُخّصت واختصرت واوجـزت الىٰ درجـة ان تحلل كثير منها حتىٰ لم يبق مما بقي منها سوىٰ اسطر يسيرة لا يفهم منها شيء بوضوح! وقد وقعت هذه التصرفات والتـغييرات جـميعها فـي القـرون المـظلمة بـعد انـقراض الساسانيين. ولم يصرح، بل لم يشر ايّ كتاب فارسي الىٰ هذه الاصلاحات، بل تظاهروا بما اصلحوا من دين زرادشت وكأنه هو نفس ما كان في ما سبق من الزمان»[1].

وسنقول نحن: ان خدمات الإسلام لدين زرادشت لم تكن بأقل من سائر خدمات هذا الدين الحنيف. وان هذه الاصلاحات، وان كانت بصورة غير مباشرة، لكنها اثرت اكـثر حتىٰ من اصلاحات زرادشت نفسه.

الثنوية المانوية

كان البحث الىٰ هنا في ثنوية زرادشت، وقد سبق القول أن كان اذ ذاك دينان آخران هما: دين ماني، ودين مزدك، وهما ثنويان ايضاً. ونقول: إن ثنوية ماني اصرح من ثنوية

---

١ ـ ايران در زمان ساسانيان، ص٤٥٨ وص٤٥٩.

زرادشت، وان ثنوية مزدك هي ثنوية ماني نفسها باختلاف يسير. والشهرستاني في كتابه «الملل والنحل»[1] ينسب الثنوية الىٰ ماني لا الىٰ زرادشت. وقد كتب المستشرقون في العصر الأخير بحوثاً كثيرة حول ماني ودينه. ولكي نعطي نموذجاً من هذه البحوث ننقل هنا مختصراً من كلمات الاستاذ تقي زادة أحد اوائل الباحثين في هذا الموضوع، يقول:

«... ان دين ماني يبتني علىٰ أصلين هما: الخير والشر، او النور والظلمة، وعلىٰ ثلاثة ادوار هي: الماضي والحال والاستقبال. إن اصل الوجود ومنشأهُ في هذا الدين وجودان: أحدهما النور والآخر الظلام. وقد اطلقت المصادر الفارسية علىٰ هذين الأصلين «دوبن» وكان هذان الأصلان في الأزل وقبل حدوث خلق الدنيا منفصلين ومستقلين ومنفكين احدهما عن الآخر، ويسميهما المانويون بلحاظ حالهما إذ ذاك: الماضي وكان نفوذ النور فيالعالم العلوي والىٰ الشرق والغرب والشمال، والظلمة في العالم السفلي والىٰ الجنوب، وهما وان كان بينهما حدود مشتركة الا أن بينهما فاصلاً كبيراً بحيث لم يكن بينهما اتصال ابداً. وتفيد بعض كلماتهم ان قسماً من الجنوب ايضا كان من منطقة وعلى هذا تكون منطقة نفوذ النور أوسع من الظلمة بخمسة اضعاف. وكان كل من هذين الأصلين ساكنين علىٰ حالهما في مقرهما. وكان لعالم النور جميع الصفات الحسنة، مع سيادة النظام والسلام والوئام والسعادة والثقافة. وكان يسود عالم الظلام عدم النظام والوسخ والاضطراب! ويدعونهما احياناً بالشجرتين: احداهما: شجرة الحياة، والاخرىٰ شجرة الموت. ويسود عالم النور ابو العظمة، ويسود عالم الظلام ملك الظلام. وان منطقة نفوذ النور تتشكل من خمسة نواح، هي الأعضاء الخمسة للربّ وهي: الفهم والفكر والتأمل والارادة وتسكنها موجودات خالدة هي مظاهر لوجود الرب الأكبر. وتتشكل منطقة الظلام من خمسة طوابق بعضها فوق بعض، هي: دخان ونار وريح وماء آسن وظلمات من الأعلىٰ الىٰ الأسفل»[2].

ويكفينا هذا لاثبات ما نحن بصدده من ثنوية ماني، وللمزيد يراجع الكتاب نفسه.

---

١ ـ الملل والنحل، ج ٢، ص ٥١، ص ٧٧ ط مصر ١٣١٧هـ

٢ ـ بالفارسية: ماني ودين. ص ٣٩ ـ ٤٠.

الثنوية المزدكية

عدّوا دين مزدك شعبة منشقة من دين ماني، ولهذا فان جميع الخرافات المانوية موجودة في شريعة مزدك مع اختلاف يسير.

يقول كريستن سن:

«ان شريعة بوندس ـ وهو زرادشت الفسائي ـ ومزدك انما هي في الواقع اصلاح لشريعة ماني، فانها مثلها تماماً، تبدأ الكلام حول العلاقة بين الأصلين القديمين: النور والظلام، وانما تفترق هذه عن تلك بأن بوندس ومزدك يقولان: ان حركة الظلام لم تكن عن ارادة الظلمة وعلمها المسبق بالحركة، بل كانت تتحرك عشوائياً حسب الصدفة والاتفاق، وانما كانت حركات النور ارادية وعمدية مقصودة. وعلىٰ هذا: فما نراه من الامتزاج بين الظلام والنور في هذا العالم المحسوس والمادي، ليس ناشئاً عن هندسة وتصميم مسبقين، بل عن صدفة عمياء... اذن فدين مزدك وبوندس يؤكدان تفضيل النور علىٰ الظلام أكثر من ماني...»[1].

عبادة النيران

إن من احدىٰ المسائل الهامة والتي ينبغي الاهتمام بها في شأن النظام الفكري والعقائدي والعملي للزرادشتية عن ظهور الاسلام، هي مسألة تعظيمهم وتقديسهم النار وعبادتهم لها.

ولهذا العمل عندهم جذور تاريخية منذ اقدم الادوار والمراحل، وهي باقية حتىٰ اليوم!

يقول الشيخ الرئيس ابو علي الحسين بن علي بن سينا الفيلسوف، في الفصل السابع من الفن الثاني من فنون «الشفاء»:

«.. وطبقات من القدماء المائلين الىٰ القول بالأضداد، وبأن الضدين مبدءان للكل،

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥.

والواقفين في ذلك الىٰ جنبة القول بالخير والشر والنور والظلمة.. أفرطوا في تمجيد النار وتعظيم شأنها وأهلّوها للتقديس والتسبيح، وكل ذلك لنورها واضاءتها، ورأوا أن الأرض مظلمة لا يستضيئ باطنها بالفعل ولا بالقوة فأهلّوها للتحقير والذم»[1].

ونحن اذا اعتمدنا علىٰ قول هذا الفيلسوف رأينا: أن عبادة النيران انما نشأت من فكرة الثنوية في الوجود وفلسفة الخير والشر والنور والظلمة... أما اذا قبلنا ما يدعيه الباحثون المتأخرون قلنا: ان جذور عبادة النيران ترجع الىٰ ادوار عبادة مظاهر الطبيعة، وكان الانسان اذ ذاك يعبد كل شيء مفيد كي يفده اكثر، ويعبد كل شيء مضر ليأمن من شره، وكان المعنىٰ: أن الانسان قبل أن يلتفت الىٰ مسألة الخير والشر بشكلها الفلسفي، اي قبل أن يلفت الىٰ المسألة الخير والشر بشكلها الفلسفي، اي قبل أن يرىٰ كل شيء مزيجاً من عنصري الخير والشر والنور والظلام، قبل هذا كله كان يعبد النيران، وان الانسان في تلك العهود كان يقسم جميع الأشياء الىٰ قسمين هامين: احدهما حسن جميل، والآخر: شر مضر، ويجعل لكل قسم من هذين ربّاً خاصاً: خيراً او شراً! أما أن يرىٰ أنّ كل موجود مركب من عنصرين مزيجين ضدين، فانما هذا من افكار عهود التكامل الفكري للانسان القديم... وعلىٰ أي حال؛ فمن المسلم به أن لعبادة النيران جذوراً قديمة لدىٰ الايرانيين، وأنها كانت مثار اعجابهم اكثر من اي عنصر آخر...

يقول الدكتور محمد معين:

«... ومع قطع النظر عن اوستا، ولا سيما قسم «گاتها» الذي اختلف في تاريخه من ٧٠٠ الىٰ ١١٠٠ عام قبل الميلاد... فقد بقي من الآثار الايرانية القديمة نقش قديم، من عهد قوم «ماد» في اسحاق آوند جنوب بهستان «بيستون» يدعي اليوم «دكان داود» يرجع تاريخه الىٰ عام ٨٠٠ قبل الميلاد، وهو قبر محفور في الجبل، وعليه صورة رجل واقف امام النار بخشوع. ويقول گريشمن: نحن نعرف ثلاثة قبور من عهد الهخامنشيين، احدها في «پارسارگاد» قد حُفر بأمر كورش، والثاني جزء من نقش رستم في كتيبة مقبرة داريوش، يحتمل أن يكون هو الذي أمر بحفره وصنعه. والثالث في شوش، ويظهر منه أنه

---

١ ـ الشفاء، قسم الطبيعيات، ص١٧٧ ط قديم.

من عهد اردشير الثاني...»[1].

والذي ينبغي النظر فيه، هو أن نرىٰ كيف كان موقف زرادشت من هذا العمل؟ فهل كان قد نهىٰ عنه، ولكنه عاد بعده مرة اخرىٰ حتىٰ اصبح العمل ركناً من دينه؟ او انه لم يخالف الناس في تقديسهم وتعظيمهم النار علىٰ ما كانوا عليه من ذلك؟

فاذا جعلنا اوستا والروايات الزرادشتية ملاكاً للاجابة عن تساؤلنا هذا، كان الجواب، أن زرادشت نفسه كان يوافقهم علىٰ هذا العمل...

يقول الدكتور معين:

«ان «آذر» هو اسم لأحد أرباب مزديسنا، وهو رب للنار او الملاك الخاص الموكل بها: «آذر ايزد اي ايزدان» ويدّعي في اوستا انّه: ابن آهورامزدا[2] وانما ارادوا بهذا التعبير عن عظمة النار عندهم، كما دعوا «سپندار مد» او الملاك الموكل بالأرض: ابنة آهورامزدا، نظراً الىٰ كثرة منافع الارض وطيباتها[3] وقد جاء في البند ٧ من يسنا ٢٥ من اوستا: «انا نعبد آذر ابن أهورامزدا، ونثني عليك يا آذر المقدس وابن آهورا مزدا وسيد الحق والصدق، ونعبد جميع انواع النار» وقد جعل «ايزد آذر» في البنود ٤٦ ـ ٥٠ من «زاميادشت» خصماً لآژدي هاك، اي «الضحاك» بعثه «سپنت مئنيو» عدواً علىٰ الضحاك ليحجبه عن التوصل الىٰ «فر» السلطان[4].

ولا نستطيع أن نحصل علىٰ قرائن تاريخية تفيد أن زرادشت كان مخالفاً لتعظيم وتقديس النار... بل نجد في «گاتها» الذي هو القسم الأكثر اعتباراً من اوستا الساساني من حيث النسبة الىٰ زرادشت: كلاماً عن رفع الحاجة الىٰ آلهة النار... بل ويدعي بعضهم: أن عقيدة زرادشت نفسه تختلف مع ما نراه ونجده عنه في يسناها ويشتها.

يقول جان ناس:

«لم يبق من الأعمال والعبادات والآداب والتشريفات الدينية الزرادشتية الأصيلة

---

١ ـ مزديسنا وادب پارسي، ص٢٧٨.

٢ ـ كما قالت النصارىٰ: المسيح ابن الله!

٣ ـ كما قالت العرب: الملائكة بنات الله!

٤ ـ بالفارسية: مزدَيسنا وادب پارسي، ص٢٧٦، وكريستن سن ص١٦٨.

شيء يذكر، وانما يعرف أن زرادشت قد نسخ مناسك ومراسيم الايرانيين القدماء المبنية علىٰ العقيدة بالسحر وعبادة الاوثان، والتي كانت هي قبل نسخ زرادشت في طريقها الىٰ الزوال. وانما بقي من مذهب زرادشت مرسوم عبادة واحد فقط، وهو ـ كما قيل ـ ان زرادشت قُتل وهو واقف في محراب عبادته للنار المقدسة! وقد جاء في احد اناشيد «گاتاها» أن زرادشت كان يقول: «اني حينما ارفع يد الضراعة الىٰ النار المقدسة اراني براً صحيح العمل» وقد عدّ النار في موضع آخر من عطايا «يزدان» التي وهبها «آهورامزدا» للانسان تكريماً له وتعظيماً! وليعلم أن زرادشت نفسه لم يكن يعبد النيران، بل لم يكن يعتقد فيها ما كان يعتقد به آباؤه في شأن هذا العنصر المقدس، وهو يختلف في عقيدته بشأنها مع ما يعتقده فيها عباد النار المتأخرون عنه وانما كان يرىٰ أن النار رمز مقدس وشارة ثمينة من آهورامزدا، يستطيع الانسان أن يتوصل بها الىٰ ماهية الحقيقة العلوية للربّ العليم»[1].

وسواء كان زرادشت يقدس النار ام لم يقدسها، وعلىٰ فرض تقديسه لها، فعلىٰ اي صورة كان يفعل..؟ الذي نقطع به أن تعظيم النار وتقديسها وتكريمها وعبادتها شاع بعد زرادشت بين اتباعه بحيث اصبح اكبر شعار الزرادشتية، وهو لا زال باقياً الىٰ اليوم، فبيوت النيران تبنىٰ بين المجوس، كما تبنىٰ الكنائس في النصارىٰ، والكنيست في اليهود والمساجد بين المسلمين.

وعُرف الزرادشتيون في عهد الساسانين باسم «عبدة النار» وكان النصارىٰ ـ الذين وجدوا لاقدامهم مواضع في بلاط الساسانيين ـ يجادلون هؤلاء بشأن عبادتهم النار. وكتب كريستن سن يقول: اوجب تقدم دين المسيح في اراضي الارمن اضطراباً للدولة الايرانية، فتشاور مهر نرسي ملك ايران مع علماء الزرادشتية، ثم كتب مرسوماً ملكياً دعا فيه النصارىٰ في ايران الىٰ ترك دين عيسىٰ وقبول دين زرادشت، وطلب فيه منهم أن يكتبوا له اصول دينهم. فكتبوا اليه كتاباً تجاسروا فيه عليه وذكروا فيه: «أما اصول ديننا فبالاجمال نقول: انا لسنا نعبد العناصر والشمس والقمر والرياح والنيران كما انتم

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ جامع اديان ٣٠٩ ـ ٣١٠.

تعبدون»[1].

وكتب في الفصل الثامن من كتابه يقول:

«... ان رجال دين زرادشت كانوا يتقهقرون كل يوم الىٰ الوراء، ولم يبق لهم ما كانوا يتمتعون به من القدرة في البلاط والدولة حتىٰ يستطيعوا أن يصدوا ما يحدث ضدهم من حوادث دينية مضادة، ولهذا فقد خفف ما يحمّلوه علىٰ الناس من ظلم وتجاوز باسم الدين... وتقدمت الحكمة والفلسفة في الأوساط العلمية علىٰ احكام الدين، وكلما توسع افق الفكر لديهم اتسعت الشكوك والوساوس في أذهانهم شيئاً فشيئاً... واخذت سذاجة وبساطة الأساطير القديمة التي كانت في بعض اجزاء مزديسني تقلق حتىٰ علماء الدين وتؤذيهم، ولهذا فقد اخذوا يصنعون لها تأويلات استدلالية لتوجيه لتوجيه الحكايات القصصية، وحاولوا أن يوجهوها بالطرق العقلية... يقول احد «المغان» في حواره مع «گيورگيس» المسيحي: «نحن لا نرىٰ النار إلهاً من دون الله، بل نعبدها لكي نعبد الله، كما تعبدونه انتم بواسطة (الخاج)». فاجابه گيورگيس المسيحي الذي كان أحد رجال دين زرادشت، وقد ارتد الىٰ المسيحية بتلاوة بعض العبارات من اوستا، اثنىٰ فيها علىٰ النار بما يثني علىٰ الله، فقلق ذلك «المُغْ» وحاول الاجابة، فقال: «نحن انما نعبد النار لانها وآهورامزدا من عنصر واحد» فسأله گيورگيس: «فهل في النار ما في اهورا مزدا» اجابه المغ: نعم فقال گيورگيس: ان النار تحرق الأنجاس والأرجاس والارواث وكل ما تجده، فهل ان اهورامزدا أيضاً يحرق هذه الأشياء؟! فلما بلغ الكلام الىٰ هنا، عجز المغ عن جوابه فسكت»[2].

ان المغان الزرادشتين حينما واجهوا علماء الاسلام حاولوا الدفاع عن انفسهم ايضاً، ولكنهم لم يقولوا: انا نعبد النار لانها وأهورامزدا من جنس واحد وطبيعة واحدة، بل انكروا عبادة النار رأساً، وادّعوا: انا نعبد اهورامزدا الذي هو الله المتعال، وانما نجعل النار قبلة لنا، كما يقف المسلمون حينما يعبدون الله المتعال ويصلون له الىٰ جهة الكعبة

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص٣٠٩.

٢ ـ بالفارسية: ايران در ساسانيان، ص٤٥٦ ـ ٤٥٧.

المعظمة، من دون أن يعبدوا الكعبة نفسها. ان الزرادشتيين حينما يتحدثون عن تعظيم النار وتقديسها، يأتون بلفظة العبادة «پرستش» كما كان يقول آباؤهم، ولكنهم، لكي يتخلصوا من تحامل المسلمين عليهم كانوا احياناً يبدلون كلمة العبادة بعبارة انها قبلة لنا!

فمثلاً: نرىٰ الدقيقي الشاعر المجوسي الايرانى الفارسي، الذي كان امام الفردوسي في نظم «الشاهنامه» بمعنىٰ أنه هو اول من بدأ بنظم (شاهنامة) ثم أعقبه الفردوسي وأكمل عمله وأمله! في نظمه كلام الملك لزرادشت بشأن النيران يأتي بكلمة العبادة «پرستش» حيث يقول:

«اذهب برسالتي هذه الىٰ الملك گشتاسب.

فقل له: يا ربّ الارض والزمان.

اوكلت اليك امر كل نار...

كلما رأيت منها بأي مكان كان

لا يسعون في اطفاء النيران

لابالماء اللطيف ولا بالتراب الثقيل.

وقل للموابدة ورجال الدين...

لاولئك الطاهرة قلوبهم من الهربدان

ليغلقوا المغان ويسعوا في

«عبادة» جميع النيران»[1].

وقد اتبع الفردوسي في تعبيراته هذه الطريقة الزرادشتية نفسها، وجاء بكلمة العبادة «پرستش» في كثير من موارد شعره، منها ما قاله في اسطورة كشف النار:

«ان هوشنك رأىٰ يوماً حية عظيمة او ثعباناً، فحمل حجراً كبيراً وهجم عليها ليضربها، لم يصبها بالحجر بل أصاب الحجر حجراً آخر فانقدح النار من بينهما... وهكذا اكتشف النار... يقول: بدا نور من الحجرين، وتنور قلب الحجر من النور، ولم يقتل الثعبان، ولكن ندت النار من ذلك الحجر، وكل من يضرب الحديد بالحجر تظهر منهما النار... فأخذ

---

١ ـ نقلاً عن مزديسنا وادب پارسي، ص ٢٨٣.

الملك يدعو الخالق ويحيّيه، اذ وهب له هذا النور، وجعل هذا النور قبلة لنفسه وقال: هذا نور رباني، فينبغي أن تعبده ـ أيها الانسان ـ ان كنت من اولي الالباب».

الا أن الفردوسي يقول: انه جعل النار قبلة لنفسه، بينما هو يعبّر عن تعظيم النار وتقديسها بالعبادة: «پرستش» وهذا من تلك التعبيرات التي وجدت بعد الاسلام، دفاعاً عن تعظيم النار وتقديسها.

ويعكس الفردوسي في بعض اشعاره دفاعهم عن عبادة النيران فيدعي أنها انما هي محراب لهم وقبلة لعبادتهم وليست معبوداً. فمثلاً يقول في قصة ذهاب كيكاوس وكيخسرو الىٰ معبد «آذرگشسب»:

«كانوا هناك اسبوعاً في عبادة ربهم...

ولا تتوهم أنهم كانوا يعبدون النيران نفسها...

انما كانت النار حينذاك محراباً لهم...

وهم كانوا يعبدون ربهم بعيون باكية

انما كانت النار لهم بجمالها...

كما يكون للمسلمين العرب محاريب الحجر».

هل النار محراب للعبادة أم معبود؟

ان مسألة الثنوية التي تكلمنا حولها في الفصول السابقة ترتبط بكيفية تفسير الانسان للوجود والعالم. وان الفكر الثنوي يقابل الفكر التوحيدي، سواء التوحيد الذاتي او التوحيد الأفعالي.

وان تعظيم وتقديس النار لا علاقة له بالتفسير العام لعالم الوجود، ولا بمسألة الذاتي ولا الأفعالي، بل انما ترتبط بالتوحيد العبادي. وصورة المسألة هنا أن تقول: ما هو وضع الزرادشتيين في عبادة النيران مع قطع النظر عن مسألة التوحيد الذاتي والأفعالي، ومع قطع النظر عن ثنويتهم او عدمها... وبعبارة اخرىٰ نقول: ماذا كانت سيرتهم في الشرك والتوحيد من حيث العمل، أي من حيث رد الفعل العبادي امام خالق العالم؟ فهل كان

توحيدياً او مشركاً؟

ان التوحيد في الذات والخالقية لا يلازم التوحيد في العبادة أبداً؛ فقد كان عرب الجاهلية يوحدون الله ويشركون به في العبادة: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله»[1]. ولم يكونوا يذعنون بأنها (أي الأصنام) هي خالقة السموات والأرض، وانما كانوا يخضعون لهما بالعبادة. وليس عرب الجاهلية فقط، بل اكثر عبّاد الاصنام في العالم... وعلىٰ هذا فلو افترضنا أن دين زرادشت دين توحيدي بالنظر الىٰ التوحيد الذاتي والافعالي، لم يكن معنىٰ ذلك أن نراه توحيدياً من حيث العبادة أيضاً.

إن عبادة الزرادشتيين كانت منذ أقدم الأيام في معابد النيران وفي محضرها، فما هي حقيقة هذه العبادة؟ هل أنهم يعبدون أهورامزدا في محضر النيران؟ النار نفسها؟ إن العربي الجاهلي كان يقول: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله...﴾[2]. وفي الوقت نفسه كان يقر بعبادته لها فيقول: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا الىٰ الله زلفىٰ...﴾[3].

يقول الدكتور معين:

«ان المسلمين الايرانيين كانوا يدّعون الزرادشتيين: عبدة النار، نظراً الىٰ تقديسهم النار. في حين لم تكن النار عندهم آلهة خاصة، أو ربّ نوع من ارباب الانواع، كما كان ذلك لدىٰ الفرس قبل الزرادشت. بل انما كانت النار محراباً لهم كما هي الكعبة قبلة للمسلمين»[4].

ويقول أيضاً:

«ان النار تكمن في جميع الموجودات الطبيعية، وان جوهر حياة البشر وجميع الأحياء هي تلك الحرارة الباطنية او الغريزية، وان النار هي منبع جميع النشاطات الانسانية... بل هي موجودة معنوياً حتىٰ في النباتات والجمادات أيضاً...

وقد عبر عن هذا، المولوي المثنوي الرومي اذ قال:

---

١ ـ سورة لقمان: ٢٥.

٢ ـ يونس: ١٨.

٣ ـ زمر: ٣.

٤ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي.

«ان صوت الناي من نار الغرام...

ان لون الخمر من نار الغرام..

ان صوت الناي نار لا هواء..

لا يكون من لم يكن ذا النار فيه»!

وقد أخطأ الدكتور معين هنا الخطأ نفسه الذي أشرنا اليه من قبل، إذ التبس عليه الأمر بين الشرك في العبادة والشرك في الخالق، فتخيّل، أن الذي يعبد يجب أن يكون له مقام في الخلق والايجاد، وحيث إن المجوس لا يقولون بمثل هذه المنزلة للنار، فليسوا مشركين. بينما لو كان الأمر كذلك لم يكن عرب الجاهلية أيضاً مشركين؛ اذ لم يكونوا يعملون للأصنام شيئاً سوىٰ ما ينبغي أن يكون لله أي الصلاة وتقديم القرابين، ولم يكونوا يرون أن هبل أو العزّىٰ او غيرها ارباب أنواع مستقلة في الربوبية. والخطأ الذي وقع فيه الدكتور معين هو زعمه أن الشيء لو كان مفيداً جداً لم يكن بد من عبادته وتقديسه!.

إن قياس تقديس النار، بالتوجه الىٰ الكعبة حين الصلاة قياس باطل؛ إذ ما من مسلم ـ مهما كان عامياً ـ يخطر بباله وهو يقف الىٰ الكعبة للصلاة أنه يريد أن يعظم بها الكعبة ويقدسها، والاسلام حينما قرر أن تكون الكعبة قبلة لم يقصد أن يقدّس الناس الكعبة حين الصلاة، بل الكعبة في جعلها قبلة ليست إلا مثل نقطة في الجنوب لو قيل للمسلمين أن يتجهوا اليها للصلاة، فلا مفهوم لهذا أو ذاك سوىٰ الأمر بأن يكون لهم حين الصلاة وضع واحد. وليس في الاسلام ما يشير الىٰ أن هناك بين الله والكعبة رابطة وجودية خاصة، بل قد علّم القرآن المسلمين خلاف ذلك اذ قال: ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾[1]. إذن فالوقوف باتجاه الكعبة ليس إلا لحكمة وفلسفة اجتماعية، هي: اتحاد المسلمين في الجهة التي يختارونها حين عبادتهم، وعدم تفرقهم في ذلك، وثانياً: أن تكون نقطة وحدة المسلمين، هي أوّل بيت وضع للناس للعبادة، وهذا أيضاً يرجع الىٰ تعظيم عبادة الله سبحانه.

بينما عبادة المجوس النار ليس الا تقديساً للنار نفسها، حسب اعترافهم واعتراف الدكتور المعين نفسه فكيف يمكن أن يكون تعظيم النار تعظيماً لآهورامزدا؟!

---

١ ـ سورة البقرة: ١١٥.

ان للعبادة في قاموس المعارف الإسلامية مفهوماً واسعاً؛ إذ أنّ طاعة نبعت من طاعة الله، هي عبادة في الاسلام، وكل طاعة لم تنبع من طاعة الله هي شرك بالله، وسواء كانت طاعة لانسان آخر أو حتىٰ للنفس الأمارة، الا أنه شرك ضعيف لا يستلزم الخروج عن ربقة الإسلام. أما الأعمال التي تتحقق بقصد انشاء العبادة واظهار العبودية، التي لامعنىٰ ولا مفهوم لها سوىٰ التقديس والتنزيه واظهار العبودية؛ كالركوع والسجود والتضحية وغيرها، فلا تجوز في الإسلام لغير الله قط، لا للنبيّ ولا للامام ولا للملائكة ولا لأيّ شيء، آخر سوىٰ الله سبحانه، واذا قصد شيء من هذه الأعمال لغير ذات الله، كان شركاً بالله تعالىٰ، سواء كان عن عقيدة بالشرك، أو عن عقيدة بالتوحيد توحيد الذات والصفات.

ولتوضيح هذا المعنىٰ نقول: ليس كل خضوع لأي شيء شركاً أو عبادة له. بل انما الخضوع هو الذي يحتوي علىٰ التقديس والتنزيه، اذ لو كان الخضوع نابعاً من تصغير النفس أمام الآخرين فقط، كان تواضعاً، وأما ان كان لاكرام الآخر وتعظيمه، كان ذلك اكراماً واحتراماً، وليس التواضع والاكرام عبادة للآخر. والفرق بين التواضع والتعظيم في أن معنىٰ التواضع: هو اعلان تصغير النفس فقط، وأما معنىٰ التعظيم: فهو اعلان اكرام الآخر وتعظيمه.

وأما لو كان خضوع الانسان أمام الآخر لغرض تقديسه وتنزيهه عن النقص، لكان ذلك عبادة له، وهذا الذي لا يجوز لغير الله سبحانه؛ اذ هو وحده الذي يستحق التقديس والتنزيه عن النقص فقط.

والتسبيح والتقديس نوعان: لفظي، وعملي:

فالتسبيح اللفظي كأن يقول «سبحان الله» أي اسبح الله واقدسه وانزهه وابرّيه من كل نقص، او «الحمد لله» اي انه هو الفاعل الحقيقي لجميع النعم وهو منشأ جميع الخيرات والبركات والكمالات، ولذلك فالحمد يخصه لا غير، أو «الله أكبر» أي ان الله أكبر من كل ما يتصور، بل هو أجل من أن يوصف أو يوهم. فلا يجوز مثل هذا لغير الله، سواء كان نبيّاً مرسلاً أو ملكاً مقرباً.

وأما التقديس العملي: فهو ان ينشئ الانسان عملاً يعطي معنىٰ تقديس ذلك الموجود

الخاص الذي يقدس، كالركوع والسجود وتقديم القرابين. نعم لا صراحة في العمل فالامكان أن تتحقق هذه الأعمال نفسها للتعظيم بدون تقديس، وحينئذٍ فلا تحسب هذه الأعمال عبادة بل تعظيماً وتكريماً (؟) الا أن الاعمال التى يقف بها الانسان أمام الاصنام او النيران أو غيرها، فلا يمكن ابعادها عن معنىٰ التقديس.

إن من فطرة الانسان أن يقف أمام موجود كامل مبرّأ من النقص فيقدسه، والذي يجعله يقوم بهذا العمل هو دافع فيه يبعثه علىٰ الثناء على الكامل المطلق؛ فالتقديس اذن نابع من احساس فطري في الانسان. وهو توأم فيه مع الاستشعار باستقلال ذلك المقدس في الوجود سواء شعر بذلك الانسان أم لم يشعر! وبعبارة اخرىٰ نقول: بما أن العبادة والتقديس نابعان من احساس غريزي في الانسان، فلا يلزم أن يعتقد الانسان العابد في شعوره الظاهر باستحقاق ذلك المقدس للتقديس ولا بتنزّهه عن النقائص، ولا بالاستقلال الذاتي أو الفعلي لذلك المعبود.

نعم، هذا معنىٰ التقديس، وهذا هو الفرق بين التقديس والتواضع، وهكذا الفرق بين التقديس والتعظيم العادي، وهكذا الفرق بين التقديس وجعل الشيء قبلة.

والشيء الذي يعمله المجوس في مورد النيران، هو من التقديس لا التعظيم العادي ولا التواضع ولا جعلها قبلة. والعمل اذا كان تقديساً كفىٰ في أن يعدّ عبادة للشيء سواء كان توأماً مع العقيدة الصريحة بمقام الربوبية المطلقة لذلك الشيء او ربوبية نوعية، او لا هذا ولا ذاك.

وفضلاً عن هذا، فلا يرى المجوس بان مقام النار اقل من ربوبية نوعية علىٰ خلاف ما يقول الدكتور معين، بل انهم كانوا يرون للنار قدرة خارقة وتأثيراً روحياً ومعنوياً. ولا يزالون يعتقدون بذلك. وقد نقلنا قبل هذا: أن النار لقبت في اوستا «آذر ايزد» أي أنها «ابن الله». ويقول كريستن سن في هذا الصدد: «إن النار في هذا الدين من أهم جميع سائر العناصر الموجودة»[1] ويعلق علىٰ هذا في الهامش فيقول: «يعتقد هرتل في مقالاته التي كتبها تحت عنوان «مصادر وتحقيقات الهند وايران» يعتقد: «بأن الايرانيين كانوا يرون أن

---

١ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص ٣٣٢.

عنصر النار نافذ في كل صغير وكبير في هذا العالم» ويضيف كريستن سن يقول: «وأنا أعتقد أن الذي يقوله هرتل لا يخلو من حقيقة في المقام».

وكتب الدكتور المعين نفسه بشأن معبد «آذر برزين مهر» احد معابد النيران الكبيرة والأصيلة، يقول: «جاء في البند الثامن من الفصل ١٧: أن معبد آذر برزين مهر كان قائماً حتىٰ عهد گشتاسب، وكان ملجأ للعالمين، حتىٰ آمن بزرادشت انوشيروان وگشتاسب، فحمل گشتاسب معبد آذر برزين مهر الىٰ جبل ريوند الذي يدعىٰ پشتاسپان وپشت أيضاً»[١]. وينقل عن خرده اوستا أنه يقول: «ان الفلاحين يصبحون اعلم واطهر وانقىٰ ثياباً ببركة هذه النار، وببركة هذه النار تساءل گشتاسب وتلقىٰ الجواب»[٢] ويقول بشأن «آذر فرنبغ» الذي هو الآخر احد المعابد الأصيلة للنار: «كان هذا المعبد يخص الموابدة الكبار، وقد جاء في البند الخامس من التفسير الپهلوي لنار بهرام في دعاء خرده اوستا: «ان هذا المعبد اسمه: آذر فرنبغ، وهي نار تحميها سائر النيران، وببركة هذه النار يجد الموابدة والدساتير العلم والكبر والجاه والشأن الرفيع، وهذه النار هي التي قاومت الضحاك»[٣].

وجاء في البند الثامن من الفصل السابع عشر بشأن «آذرگشنسب» التي هي ثالث المعابد الكبار والأصيلة: «كانت آذرگشنسب حتىٰ ملوكية كيخسرو ملجأ للعالمين، وحينما خرب كيخسرو بحيرة چچست، جلست هذه النار علىٰ عرف فرسه فدفعت عنه الظلام والسواد ووهبته النور والضياء، حتىٰ استطاع أن يُخرب معابد الأصنام، فبنىٰ في ذلك المحل علىٰ جبل اسنوند معبداً للنيران وجعل تلك النيران في ذلك المعبد»[٤]. وفيه: «ان المعبد آذر گشنسب هي احدىٰ ثلاث شرارات من الجنة نزلت الىٰ عالم التراب لامداد العالمين، وقد استقرت بآذربايجان»[٥].

---

١ ـ مزديسنا وادب پارسي، ص ٣٣٣.

٢ ـ مزديسنا وادب پارسي، ص ٣٣٤.

٣ ـ مزديسنا وادب پارسي، ص ٣٤٠.

٤ ـ مزديسنا وادب پارسي، ص ٣١١.

٥ ـ مزديسنا وادب پارسي، ص ١١٢.

ويقول الفردوسي بشأن ذهاب كيكاوس وكيخسرو الىٰ معبد آذرگشنسب:

«نقوم عند النار علىٰ قدم وساق...

حتىٰ يهدينا يزدان الطاهر...

فحيث يكون يزدان راقداً

يجد ممثل العدل الطريق اليه...»!

فليت شعري! أية طائفة من طوائف عبّاد الاصنام كانت تقول بأكثر من هذه القدرة المعنوية الخارقة لأرباب انواع يقولون هم بها؟!

وقد كتبت مجلة «هوخت» اللسان الناطق بلسان ندوة الزرادشتيين في طهران، مقالاً بقلم الموبد اردشير آذرگشنسب بعنوان: ردّ الاتهامات، ادعىٰ فيه الكاتب: أن الزرادشتيين لم يكونوا يعبدون النيران، ويستمر يقول: «نحن ناتي بآيات من الكتب السماوية فنثبت بها أن الله هو نور الأنوار ومنبع جميع الأنوار، ومن هناك نعلم أن الزرادشتيين باقبالهم علىٰ النار والنور في صلاتهم ودعائهم، انما هم يناجون ربهم ويستعينون به بواسطة هذه الأنوار، وأن هذا لا يخل بتوحيدهم بأي وجه من الوجوه، كما يتوجه اتباع سائر المذاهب في صلاتهم الىٰ الكعبة ولا ينبزهم بذلك أحد بالشرك وعبادة الاحجار او التراب»[1].

ثم يشرح الموبد اردشير آذرگشنسب فوائد النار الواضحة، باعتبارها عنصراً شريفاً ومقدساً، وبعد ذلك يقول: «وعلىٰ أي حال، فانما تيسر كل هذا التقدم للانسان القديم بمساعدة النيران الحمراء والمحرقة، وعلىٰ هذا فكان علىٰ حق اذ اذعن للنار واعطاها حرمه فائقة، وحسبها رسالة سماوية انزلت عليه لمساعدته، وبنىٰ لها المعابد وجعلها مشتعلة دائماً لايطفئها، ويمنع من اطفائها» (١٢٢).

ونجيب الموبد اردشير آذرگشنسب فنقول: نعم ان الله هو نور الأنوار، لكن لا بمعنىٰ أنا نقسم الأشياء الىٰ قسمين: انوار وظلمات، ونحسب أن الله هو نور الأنوار وليس نوراً للظلمات! بل ان الله نور الأنوار يعني، أن الوجود يساوي النور قياساً الىٰ الظلام الذي

---

١ ـ مجلة هوخت المجوسية الفارسية التي تصدر بطهران، العدد ٢ من السنة الثامنة، ص٢٩، اردیبهشت ١٣٤٨هـ. ش.

يساوي العدم، لهذا نقول ان الله هو نور الأنوار، ونقول: ﴿الله نور السموات والأرض﴾[1] ولا فرق في هذا بين النور المحسوس كالنار والشمس والقمر والمصباح، وبين الحجر والتراب وليس معناه أنا اذا توجهنا الىٰ النار نكون قد توجهنا الىٰ الله. واذا توجهنا الىٰ الحجر نكون قد توجهنا الىٰ غير نور الأنوار.

يقول هذا الموبد المجوسي: «ان الزرادشتيين يتوجهون الىٰ الله بواسطة النار»!

وأنا أقول: لكن التوحيد هو أن لا يجعل الانسان في علاقته بالله، واسطة بينه وبين الله اذ يقول: ﴿واذا سألك عبادي عني فاني قريب﴾[2] فلا يلزم بل لا ينبغي أن يجعل الانسان بينه وبين الله واسطة للاقبال عليه دائماً.

نعم لا بأس أن يقبل الانسان ـ بعد توجهه الىٰ الله ـ علىٰ أوليائه وعباده، يجعلهم شفعاء له الىٰ الله للدعاء والاستغفار، أي يستمد منهم ـ وهم أحياء يرزقون وعباد صالحون ـ أن يدعوا الله له ليهب له النور في بصره والبصيرة في دينه مثلاً، أو أن يغفرله ذنوبه بلطفه وكرمه.

وقلنا لا بأس بهذا؛ لأن الواسطة هنا موجود حيّ يرزق، قد طوىٰ مراحل من العبودية لله سبحانه، فهو بامكانه أن يتوجه الىٰ الله، احسن واجمل واكمل وازكىٰ وانمىٰ واطهر وأسنىٰ واكثر، فهو أقرب منا اليه سبحانه، وان كان هو اقرب الينا من حبل الوريد. ونقرأ في زيارة رسول الله (ص): «اللهم اني اعتقد حرمة صاحب هذا المشهد الشريف في غيبته كما اعتقدها في حضرته، وأعلم أن رسولك وخلفاءك عليهم السلام أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي ويردون سلامي» ونقرأ ايضاً: «اللهم انك قلت ﴿ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول، لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ واني أتيتك مستغفراً تائباً من ذنوبي، واني اتوجه بك الىٰ الله ربي وربك ليغفر لي ذنوبي».

فالتوجه الىٰ الله والتوسل اليه بأوليائه بهذا الشكل، ليس من الشرك في شيء، بل انما هو من عيون العبادات الحقة.

---

١ ـ سورة النور: ٣٥.

٢ ـ سورة البقرة: ١٨٦.

أما قياس هذا الموبد، التوجه الىٰ النار، بالتوجه الىٰ الكعبة؛ فقد بحثنا فيه قبل هـذا، وتبيّن أنه قياس مع الفارق.

ويقول هذا الموبد: إن في النار فوائد كثيرة للانسان؛ ولذلك فهو علىٰ حق لو اذعن لها واعطاها حرمة فائقة!

ونقول: هنا بيت القصيد؛ بل انما بعث الأنبياء ليعرّفوا الانسان بمنبع الخيرات والبركات والنعم والآلاء، وليعطوه بصيرة نافذة في امثال هذه الأمور، وليوجهوه من الأسباب الىٰ مسبّبها، وليفسّروا له: أن الحمد لله رب العالمين، يعني: أن كل ثناء ودعاء انما يخص ذات الله رب العالمين بالاستحقاق.

ثم نتساءل فنقول: هل ان النار رسالة سماوية نزلت لمساعدة الانسان فحسب؟! لو كان المقصود من السماء هذا الجو الذي فوق رؤوسنا، فلا شيء من النار ولا سائر العناصر تنزل من السماء، ولو كانت فليست رسالة سماوية إلهية. أما لو كان المقصود من السماء عالم الغيب والملكوت الأعلىٰ، فكل شيء نازل من السماء اذن، وعلىٰ هذا فكل شيء رسالة سماوية ولا يختص هذا بالنيران ﴿ **وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما نـنزله إلا بقدر معلوم** ﴾[1].

الرسوم والتشريفات

وليس تقديس النار وتعظيمها وعبادتها ساذجاً بسيطاً، بل لهـا تشـريفات عـجيبة وغريبة، ونحن ننقل هنا قسماً من هذه التشريفات عن كتاب «مزديسنا وادب پارسي» للدكتور معين الذي يدافع عنها او علىٰ الأقل عن تعظيمها وتقديسها، ويوجد قسم منها في سائر الكتب المجوسية والتي تدافع عنهم، وهي بعد باقية بينهم الىٰ اليوم.

يقول الدكتور معين:

«في دين مزديسنا تشريفات كثيرة، كما عند الكاثوليك، وعلىٰ خلاف الإسلام. أما التشريفات في مورد معابد النيران: فينبغي أن يكون المعبد في فسحة واسعة. ويوجد في

---

١ ـ سورة الحجر: ٢١.

كل معبد قاعة خاصة لإيقاد النيران لا يحق لأحد الدخول اليها الا للموبد المحافظ علىٰ النيران او «آتربان» وحينما يدخل «آتربان» الىٰ النيران يجب أن يكون ملثماً بلثام يُسمىٰ «پنام» كي لا تتلوث النيران من أنفاسه. وفي الطرف الايمن من مقر النيران غرفة واسعة مربعة تنقسم الىٰ أقسام متعددة متساوية، كل قسم منها لوظيفة خاصة، تسمىٰ هذه الغرفة «يزشن گاه» اي محل تشريفات العبادة... ومن مقررات شريعة زرادشت: أنه لا ينبغي أن تسطع الشمس علىٰ النار المقدسة[1] ولهذا فقد بنوا هذه الغرفة بطريقة خاصة: جعلوها مظلمة يتوسطها قاعة النيران... ويوجد في معابد النيران مشاعل مختلفة باختلاف درجات الاسر الايرانية: «آتش خانه: نار الأسرة» و«آتش قبيله: نار القبيلة» و«آتش قريه: نار القرية» و«آتش بلوك: نار الأقليم» ويسمىٰ محافظ نار الأسرة «مانبذ» وقد أنيط بصيانة النيران رجلان من رجال الدين، وبصيانة نار الأقليم هيئة روحانية برئاسة موبد من الموابدة... ومن طقوس اوستا الساساني طقس يسمىٰ «سوزگر» وقد كتب بشأنه في باب عبادة النيران تفصيل مزيج بقصص وأساطير جاء فيه: كان المعبد مليئاً من ريح الكندر وغيره من المواد العطرية، وكان عند النار رجل من الروحانيين علىٰ فمه لثام لكي لا يلوث نفسه بالنار، وبيده عود طهر طبق الآداب الدينية، يقلب به النار يوقدها. وكان هذا العود غالباً من نبات موسوم به «هدانه اپتا» اجل، كان ذلك الرجل الروحاني يقلب النار كل حين بهذا العود الذي يسمىٰ «برسمه» وقد قطع طبقاً لآداب خاصة، يشعل النار به ويدعو بأدعية خاصة، ثم ينثر سائر الروحانيين «هئومه»[2] وكانوا في اثناء تلاوة الأدعية أو أوستا يدقون اغصان نبات «هئومه» في هاون بعد تطهيرها... وكان يوجد في «يزشن گاه أي محل عمل التشريفات» آلات وادوات كل منها تختص بتشريف خاص من التشريفات، وهي كما يلي:

١ و ٢ ـ هاون ومدقّ، وهو بمنزلة ناقوس المسيحيين ويستعمل الآن عندهم كذلك،

---

١ ـ عجيب أن الزرادشتيين والمدافعين عنهم يحاولون توجيه تقديس النار بعنوان أنها من جنس النور والنور عنصر مقدس لأن الله هو نور الأنوار، وهم من ناحية أخرىٰ يرون أن سطوع الشمس علىٰ النار يسبّب تلويث النيران!!.

٢ ـ نبات هئومة نبات منع زرادشت عن استعماله وقال: انه نبات وسخ وقذر أو نجس كما سيأتي هذا.

وكان في الأصل لدق أغصان نبات هئومه .

٣ ـ برسمه، الذي كان يقطع الشجر «هدانه اپنا» وهو شجر كالرمان، واليوم يصنع من الفضة او البرنز، ويقلب به النار.

٤ ـ برسمدان أي محل عود برسمه.

٥ ـ برسمچين، وهو سكين صغير يقطع به عود برسمه من شجر «هدانه اپتا».

٦ ـ كؤوس لنبات هئوم وپراهئوم والمياه المقدسة.

٧ ـ طوس صغار من نوع الطسوت لنبات هئوم وپراهئوم، وفيها تسع ثقوب.

٨ ـ الورس، وهو حبل صغير حيك من شعر البقر، ويشد به عود برسمه.

٩ ـ حجر كبير باسم «أرويس گاه» وهو حجر مربع، توضع عليه تلك الآلات السابقة[١] .

ويقول أيضاً:

«جاء في القواميس الفارسية: برسمه: فروع رفيعة لاعقدة فيها، وهي بمقدار شبر، يقطع من شجر هئوم، هو شجر يشبه شجر «گز»، فان لم يكن «هوم» فمن الگز، وان لم يكن «گز» فمن شجر الرمان. وادب قطعه: أن يطهر برسمچين ـ وهو السكين الصغير لقطعه ـ بالماء ثم يتلىٰ عليه بعض الأدعية التي تتلىٰ حين عبادة النيران وغسل الأبدان واكل الطعام ـ ويجب أن يكون ممسكة المدية أيضاً من حديد ـ ثم يقطع بها عود برسمه»[٢] .

ثم يقول:

«حينما يشتغل موبد بقراءة الأدعية حالياً، يراقب النار موبد آخر، يأخذ بيده فروع برسمه من برسمدان، ويديرها ثم يحولها من يمينه الىٰ شماله وبالعكس ثم يرجعها الىٰ برسمدان».

ويقول:

«كتب دار مستتر في زنداوستا يقول: لنا قسمان من معابد النيران: معابد كبيرة تدعي

---

١ ـ ملخص عن كتاب: مزديسنا وادب پارسي، من ص٢٩٧ الىٰ ص٣٠٥.

٢ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص٤٠١.

«آتش بهرام» وصغيرة تدعىٰ «آدران» أو «اگباري». ويوجد الآن في بمباي، الهند ثلاثة من القسم الاول، ومئه من الثاني. والفرق بين الأول والثاني هو في كيفية تحضيرها؛ فان تحضير نار بهرام يمتد سنة كاملة، وهي تتشكل من ١٣ من انواع النيران وتعد جوهراً روحياً لجميع النيران المعبودة. وهي تستلزم تشريفات مختلفة، جاء توضيحها في «وندیداد أي احد اجزاء اوستا الساساني». وقد جرت السنّة لدىٰ المجوس، أن يكون في كل حوزة من البهدينيين أي الزردشتيين من النوع الأول، «بهرام» واحد. ويعتقد بعض رجال دينهم بأنه لا يجب أن يكون لهم أكثر من «بهرام» واحد في كل اقليم؛ اذ هو نار الملك، ولا يمكن أن يكون ملكان لاقليم واحد!... وبما أنها نار الملك، فيلزم لها اريكة ملوكية، ولذلك فهم ينظّمون لها ست قطع من خشب الصندل علىٰ صورة اريكة مدرجة»[1].

أجل؛ هذا هو قسم من مراسم وتشريفات تعظيم وتقديس النيران للزرادشتيين. ولا تعليق لي الآن حول توحيدية هذه الأعمال او شركها؟ لكني أود أن تفكر انت ايّها القارئ في هذه المراسم منطقياً وعقلياً، ثم ترىٰ هل تجد أنت اكثر خرافة من هذه الأعمال في العالم؟ ثم قسها أنت بالعبادات الاسلامية: الصلاة والأذان والجمعة والجماعة، والحج والمساجد وشعائر العبادات في الاسلام، والأذكار والأوراد والتسابيح الاسلامية، فسترى أنت بنفسك البون الشاسع بينهما، وسترىٰ هل كان يحق للأمة الايرانية حينما واجهت هذه التعاليم القيمة ان تنبذ ما كان يعبد آباؤها أم لا؟!

ولا بأس هنا أن نورد شيئاً من صدىٰ بوم من البومة، ونعرّف القراء الكرام بقيمة هذه الأصداء والنعرات...

كتب ابراهيم پور داود بشأن بيت النار ببلدة «نوساي» الهندية، التي تعرف باسم «ايرانشاه» وهي من نوع «بهرام آتش» يقول:

«مسطور في سنّة الفرس: أن الايرانيين حملوا نار بهرام معهم من ايران، ولعله حق، اذ نقرأ في تاريخ الطبري والمسعودي: أن الايرانيين كانوا يحملون نار بهرام معهم حين

---

١ ـ بالفارسية: مزديسنا وادب پارسي، ص ٣٥٥ ـ ص ٣٥٧.

هزيمتهم الىٰ مناطق أعمق في ايران وابعد عن الفاتحين، مخافة ان تقع النيران بـأيديهم فيطفئوها[1] وبيوت النار الايرانية وان خمدت تدريجياً وابدلت بمساجد، ولكنهم لم يألوا جهداً في صيانتها عن الخمود. وان يزدجرد الثالث حينما انهزم في «نهاوند» حمل معه نار «وي» المقدسة الىٰ «مرو» بشخصه. وان كان بيت نار «ايرانشاه» في «سنجان» بنيت عام ٧١٦ فمع ذلك يمضي اليوم عليها اكثر من ١٢٣٠ عاماً، وهي لا زالت تراقب عن كثب حيرة اتباعها في الاقليم الأجنبي! لكنها لم تفقد لونها الأحمر في حوادث الدهر، بل كانت تدعو اصحابها بلسانها الحارّ! الىٰ الاستقامة والحرارة. وبعد هزيمة «سنجان» اقامت في «نوساري» ٢٣٥ عاماً، الا انها خمدت عامين من عام ١٧٣٣ الىٰ ١٧٣٦... ويمضي عليها اليوم ٢٠٤ أعوام وهي تضيء، في هذه القرية، وحولها آلاف من الزرادشتيين فيهم الدساترة والموابدة والهيربدن والبهدينان، ويزورها مجوس ايران وفرس الهند، ولاسيما في أشهر اردیبهشت وآذرماه، وفي هذا البيت «ايران خديو» اي «ايرانشاه» يعلو صوت نشيد اوستا من الموابدة البيض كل صباح وضحىٰ ومساء. ان ايرانشاه تذكرنا بخدامها الذين يبلغون المئات ـ ببيوت نارشيزه وري واستخر بما كان لها من جلال الساسانيين»[2].

فهل من احد يصدق أن يتجاهل هكذا، رجل يدّعي أنه من أساتذة جامعة طهران؟! ولا أدري أهي جهالة أم تجاهل؟ اسودّت وجوه ربائب المستعمرين العملاء الخونة المجرمين!...

مزديسنا وادب پارسي

كتب الدكتور محمد معين (عفا الله عنه وعافاه) كتاباً بهذا الاسم، استفدنا نحن منه في بحوثنا هذه كثيراً. وهدف هذا الكتاب ـ كما يحكيه اسمه ومقدمة المؤلف ـ أمر علمي

---

١ ـ وهم بذلك كانوا يحملون معهم ربهم وملجأ العالم ـ كما جاء في البند الثامن من اوستا ـ من مكان الىٰ مكان!!!.

٢ ـ نقلاً عن مزديسنا وادب پارسي، ص٣٥٨ ـ ص٣٥٩.

بسيط هو: ان نرىٰ مدىٰ انعكاس اللغات المجوسية والافكار الزرادشتية في الأدب الفارسي اليوم. وهذا العمل من الناحية العلمية مفيد بل ضروري. ولكن ابراهيم پورداود ـ الذي كان الاستاذ المرشد للدكتور معين ومؤثراً فيه وفي أفكاره تأثيراً منقطع النظير ـ قد بين في تقديمه الكتاب الهدف الأصلي منه، وهو: اثبات أن روح الايرانيين كانت ولازالت في طول تاريخها الممتد آلاف السنين، بل حتىٰ في العهود الاسلامية: روحاً زرادشتية! وأنه لم يتمكن أيّ عامل من العوامل أن يجعل هذه الروح تحت شعاع نفوذه، بل ان هذه الروح هي التي أثرت في تلك العوامل وجعلتها متأثرة بها وصهرتها في نفسها:

«ان الدين الذي وصل علىٰ أيدي الفاتحين العرب الىٰ الفرس، تأثر هنا بلون ايراني يدعى «التشيع» متميزاً عن مذاهب السنة» ويرىٰ پورداود: أن الاسلام الواقعي هو اسلام السنة لا الشيعة[1]!

ان پورداود يرىٰ أن العامل الأصيل في التأثير في روحية الافراد هو الاقليم والعنصر واللغة: ثم يبني علىٰ هذا الأساس فلسفته التي تقول: ان الروح الايرانية ـ حتىٰ اليوم ـ هي الروح المزديسناوية اي المجوسية الزرادشتية! بينما كلنا يعلم أنه لم يبق الآن عنصر أو دم سالم يمكننا أن نفخر به، فقد كثر اختلاط اقوام الترك والمغول والعرب واليونان والهنود وغيرهم، وهكذا الامتزاج بسبب الزواج من الكثرة بحيث لا يمكن لأحد أن يدّعي أنه ايراني خالص أو غيره! فمثلاً لا يُعرف أن پورداود الىٰ أي دم ينتمي من هذه الدماء؟ فمن المحتمل أن يكون من قبل ابيه عربياً اموياً، ومن قبل الأم مغولياً چنگيزياً! ولا يعلمه الا الله.

واللغة كالعنصر والدم؛ ففضلاً عن اختلاط جميع اللغات، نرىٰ أن اللغة الفارسية اليوم هي لغة ناحية من ايران القديم (خراسان) لاجميع ايران، وبين هذه اللغة وأوستا بون شاسع، كما بين السماء والأرض.

اذن، فلا يبقىٰ لنا سوىٰ الاقليم والقطر، وقطرنا اليوم ـ كما يقول پورداود ـ هو قطعة من الأرض الايرانية القديمة.

---

١ ـ مقدمة پور داود علىٰ كتاب: مزديسنا وادب پارسي.

والنتيجة: أن فلسفة پورداود تقول: إن جميع المعاجز الروحية والنفسية تكمن في الماء والتراب، وإن الجنس والفصل للروح الايرانية عبارة عن هذين العنصرين لا غير! وأما أن روح اوستا يكمن في الروح الايرانية فلأن أوستا ـ بما فيه من خرافات وأوهام ـ من منتجات هذه التربة وهذا الماء.

ويقول پورداود:

«واسلوب التفكير والحياة فينا ـ تماماً كالعنصر والدم واللغة ـ انما هي من ذيول الحياة وأسلوب الفكر والعنصر واللغة لاولئك الذين يعدون أسلافنا منذ آلاف السنين»[1].

وأنا اقول: إن حياتنا واسلوب تفكيرنا ـ تماماً كالعنصر والدم واللغة، بل واكثر من ذلك ـ قد تحول تحولاً كبيراً، وأن موهبة الاستعداد الفكري الايراني رفضت الخرافات الثنوية وعبادة النيران والشمس والانسان وشرب ماء هيومه، وكثيراً من هذا القبيل، رفضاً باتاً، وذلك في ضوء التعاليم الاسلامية السامية.

ومن باب أن «الغريق يتشبث بكل حشيش» تشبّث پورداود بكلمات الشعراء والعرفاء الايرانيين الذين كانوا يتكلمون باللغة العرفانية الخاصة، والذين أطلقوا انفسهم منذ قرون متطاولة من الخرافات الدموية والعنصرية والاقليمية والقطرية، وتعودوا أن يفكروا في الوطن الاسلامي العالمي؛ فيفسّر كلماتهم العرفانية في بيوت النيران والخمرة و«المغ» علىٰ أساس انهم يتظاهرون بكلماتهم هذه، بالميل الىٰ تلك الخرافات البالية نفسها، ولذلك يقول:

«ان قلب الايراني كان بعد خمود بيوت النيران بيت نار للغرام، ويرىٰ أن بلسمه بيد «پيرمغان أي شيخ بيوت النار» الذي طالما قد نزح من هذه الديار، ولا تصل اليه ايدي المريدين».

وأنا أيضاً اقول: ان قلب الشاعر والكاتب العارف الايراني ـ كحافظ وسعدي ومولوي وجامي ومئات غيرهم من اضرابهم والذين من بعدهم ـ بيت نار للغرام، وبلسمه بيد شيخ ذلك البيت... الا أن بيت النار هذا ليس ذلك البيت الذي تعبد فيها تلك النار الطبيعية والتي

---

١ ـ مقدمة پورداود علىٰ كتاب: مزديسنا وادب پارسي.

يصاحبها برسمه وبرسمدان وبرسمچين والطست ذات الثقوب التسعة وسائر الآلات والأدوات. بل ان بيت النار هذه ليس لها اسم تدعىٰ به، وكذلك الشيخ الذي بيده بلسم الأدواء ليس ذلك الشيخ ذا الملابس البيضاء والملثم الذي بيده برسمه يقلب بها النيران والذي يصرف عمره في اتفه الامور وأشدها خرافة... بل ان الشيخ هنا هو ذلك الولي او السالك المرشد، الذي عرفه الايراني، بعد تعرفه علىٰ المفاهيم الاسلامية السامية[1].

أما الذي يعبر عنه پورداود بشيخ المغان، فقد مضت قرون طرده فيها الايراني من ايران. وأخطأت اذ قلت: ان يد الايراني لا تصل اليوم الىٰ حجر اولئك الشيوخ المجوس، بل ان ايدي هؤلاء الشيوخ المجوس لا تصل الىٰ حجر ايران والايرانيين. ولو كانت الأيدي لا تصل اليهم، فان يدي پورداود تصل اليهم قطعاً، وكان يتنعم طوال سنين مديدة بأموال اولئك الذين نهبوا اموال الهنود الفقراء بالمساومة مع الاستعمار البريطاني، وكان يطعن هذه الأمة الشريفة من خلفها ويريد أن يردّ ايديها الى الاغلال التليدة البالية: بيوت النار وبرسمه وبرسمچين وهومه وغيرها...

ومن المؤسف أن الدكتور المعين يكون قد تأثر بالدكتور پورداود، فأخذ يتبع اهدافه واحياناً يحطّ من شأن الاسلام للدفاع عن الزرادشتية... بينما كنت اجده غير بعيد عن الضمير والوجدان بل والايمان واصول الاسلام.

بحث الدكتو معين في ص٧٦ من كتابه حول حقيقة وجود زرادشت واسطوريته فقال: «وقد ابدىٰ بعض العلماء مثل هوسينگ رأيه في زرادشت يقول: انه شخصية

---

١ ـ للوليّ معنيان: وليّ من الولاية (بالفتح) بمعنىٰ المودة والمحبة، ومنه هذا الاصطلاح الذي يراد منه اولياء الله اي أحباؤه والمقربون لديه. ووليّ من الولاية (بالكسر) الذي يراد منه عند الشيعة: أن الله جعل ولاية أُمور الدين والدنيا بعد الرسل والأنبياء بيد اوصيائهم اولياء الله وحججه علىٰ عباده. والمصطلح الأول هو المعنىٰ المراد هنا.

والسالك: اسم فاعل من السلوك، اي الذي قد سلك سبيلاً يسير فيه ، ويصطلح اطلاق هذا الاسم ـ عند الصوفية والعرفاء ـ علىٰ الذي سلك سبيلاً يقتدي فيه بالمرشد .والمرشد: اسم فاعل من الارشاد ويطلق – عند الصوفية والعرفاء – علىٰ شخص يشرف علىٰ عدد من السالكين ، يرشدهم الىٰ كيفية سلوك السبيل الىٰ صفاء النفس وتزكيتها.

هذه المصطلحات استعملها الامام الراحل (قده) فلا داعي لهذا الرأي الضعيف

اسطورية تماماً مثل رستم وزال واسفنديار».

ثم يقول: «ولا يخفىٰ أن هذه النظرية ـ اي التشكيك في حقيقة وجود هذا الشخص ـ طرحت من قبل مختلف الأوساط، في كل فرد من افراد الأنبياء والرسل وأئمة الدين» ويعلق في الهامش بقوله: «حتىٰ حول عيسىٰ ومحمد» صلىٰ الله عليه وآله وسلم!.

عجيب أن يقيس مسلم يدعي الإسلام وجود الرسول المقدس بوجود زرادشت، او يقيس فرضية علمية لعالم محقق بشأن زرادشت بما قاله او يقوله شخص مزعوم بشأن رسول الاسلام للوقيعة بالمسلمين!.

.ويبحث في ص٢٧٣ حول قداسة النيران فيقول: «للنار في الأديان الآرية كالبرهمية والزرادشتية، والأديان السامية كاليهودية والمسيحية والإسلام، وحتىٰ بين الافريقيين عبّاد الأصنام... للنار في هذه الأديان جميعها اهمية خاصة».

وأنا لا أدري اين وجد هذا الرجل للنار حرمة في الاسلام، وهو رجل كاتب ومؤلف، وقد ترعرع في اسرة مسلمة اصيلة في الاسلام. انما الذي في القرآن هو: أن الجن والشياطين مخلوقون من النار، وأن الانسان من التراب، وأن الانسان الترابي تقرب الىٰ الله وأن الشيطان ابعد عن قرب الله سبحانه.

وفي ص٤١٥ وفي صدد الكلام بشأن ما يدعي (فره ايزدي) يقول: «ان فرة ايزدي كما في «زاميادیشت» نور رباني اذا اصاب شخصاً تسامىٰ في حياته، فالذي يصل الىٰ الملوكية هو الذي اصابه هذا النور، وبذلك يستحق التاج والعرش، ويصبح عادلاً قائماً بالقسط! وناجحاً في اموره، وان التكامل النفسي والروحي مستمد من هذا النور، وان النبوة والرسالة ايضاً من هذا النور»!.

ويقول في ص٤٢٠: «كانوا يتصورون (فره ايزدي) كما في اوستا زاميادشت البنود: ٣٣ و٤٠ بصورة طير أو عقاب» ثم نقل في هامش هذه الصفحة نفسها تلك القصة التي ذكرناها قبل هذا في أن (فره ايزدي) كان يطارد اردشير بصورة خروف!.

وفي ص٤١٥ يحاول تطبيق مفهوم «فره ايزدي» علىٰ مفهوم كلمة «السلطان» في القرآن الكريم، في محاولة لتوجيه هذه الخرافة الزرادشتية، في حين لا تناسب بين هذين

المفهومين ابداً؛ اذ «السلطان» في القرآن الكريم يعني: «السلطة والقدرة» او «الدليل والحجة» التي هي سبيل الىٰ القدرة والغلبة علىٰ الخصم، وقد استعمل القرآن هذا المفهوم في سلطة الشيطان علىٰ الانسان فقال: ﴿انما سلطانه علىٰ الذين يتولونه﴾[1] وهكذا في سلطان الانسان علىٰ عمله فقال: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل﴾[2] ولا علاقة بين هذا المفهوم ومفهوم «فره ايزدي» الذي يقولون عنه أحياناً: أنه نور رباني يقذفه الله في قلب من يشاء فيصل به الىٰ النبوة او الملك، وأحياناً يصورون هذا النور بصورة خروف أو عُقاب!

ألم يكن من الأفضل أن يكتفي الدكتور معين بالأدب الزرادشتي من دون الدخول في الأدب القرآني؟!.

ويصر الدكتور معين علىٰ أن يثبت أن الزرادشتيين لا يعبدون النيران، وانما هم يجعلونها قبلة لعبادتهم كما تكون الكعبة للمسلمين. في حين يعلم الله ويعلم هو وغيره: أنه ليس هناك في المسلمين من يعظم الكعبة لنفسها حينما يقف اليها للصلاة، ولا يستعين بها وليس هناك من يقول لها قدرة غير طبيعية وغيبية، بل ان المسلم حينما يصلي يقف الىٰ الكعبة ولكنه يتوجه من خلالها الىٰ ربه سبحانه لا اليها، وهو يناجي ربه في صلاته اذ يقول: ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾ وان وقوفه الىٰ الكعبة في نظره ليس الا واجباً من الواجبات، كطهارة الملابس وطهارة الوضوء والغسل، اي أنه يرىٰ وقوفه اليها أدباً من آداب الصلاة الواجبة لاهدفاً من أهدافها. بينما الآداب الزرادشتية حين وقوفهم الىٰ النيران، ليست الا تقديساً وتعظيماً للنار نفسها، مع الاعتقاد بآثارها الغيبية غير الطبيعية، ومن المؤسف أن الدكتور معين تبعاً للدكتور پورداود يحاول في فصل بعنوان «مي مغانه» أن يرىٰ أن كل ما جاء من كلمات «مي» و«مغ» وغيرها هي كناية عن علاقة الشعراء الايرانيين بالمراسم والآداب الزرادشتية القديمة، جاء في هذا الفصل في قسمٍ من ترجيعات «هاتف الاصفهاني» في «التوحيد ووحدة الوجود» وهو يؤشر علىٰ الكلمات

---

١ ـ سورة النحل: ١٠٠.

٢ ـ سورة الاسراء: ٣٣.

التي يراها دليلاً علىٰ علاقة الشاعر بالمراسيم الزرادشتية القديمة، بخطوط سوداء، منها قوله: «أنا من اسلامي في خجل»!.

بينما يدرك الدكتور معين جيداً: أن للشعراء العرفاء مصطلحات خاصة يقابلون بها المرائين والمتظاهرين بالدين، فحينما يخطئون الزهد مثلاً أو حتىٰ الاسلام (!) انما ينظرون بذلك الىٰ الزهد والاسلام الكاذب الذي لايزال في كل زمان سداً في طريق الاسلام الصادق. ولذلك فنحن نجد من هذه التعبيرات حتىٰ لدىٰ الشعراء الروحانيين بل المجتهدين المتشرعين كالشيخ البهائي العاملي المهاجر الىٰ ايران، والحاج المولىٰ أحمد النراقي، والميرزا محمد تقي الشيرازي والحاج ميرزا حبيب الرضوي الخراساني والحاج الشيخ محمد حسين الاصفهاني والسيد العلامة الطباطبائي. فأين هذا عن مدعىٰ پورداود والدكتور معين؟!.

ويصرح الهاتف الاصفهاني نفسه الذي يستشهد الدكتور معين بترجيعاته التوحيدية في هذه القصيدة نفسها: بأن العارفين يقصدون من هذه التعبيرات معاني اخرىٰ، وأنه لا ينبغي أن تحمل هذه الكلمات علىٰ مفاهيمها الظاهرة، اذ يقول:

«يا هاتف! ان ارباب المعارف..

الذين يدعون سكرانين وأحياناً عارفين..

انما يقصدون من الدف والمطرب والصنج والساقي..

ومن المدام والجام والساقي والصليب..

اسراراً..

يصرحون عنها بالايماء».

فكيف يمكننا مع هذا التصريح أن نحمل كلمات هذا الشاعر العارف نفسه، علىٰ معانيها الظاهرة[1]؟!

---

١ ـ استشهد هنا الشيخ المطهري بابيات من الشعر العرفاني للشيخ البهائي والشيخ النراقي، ونحن نترجم معانيها هنا بايجاز، أما الشيخ البهائي فيقول:

«لقد خسرنا الدين والدنيا بنظرة واحدة ونحن مع ذلك فرحون.

اجل هذا من قمار الحب وليس في قمار الحبّ ندامة...

اضف الىٰ ذلك: أن هذه المصطلحات والتعبيرات المجازية لا تنحصر في اطار المصطلحات الزرادشتية، من المدام وبيوت النار وشيخ المغان، بل قد جاء هؤلاء الشعراء العرفاء في شعرهم بكلمات من قبيل: صنم، والمسيحي، والصليب، والشطرنج، والنرد وغيرها أيضاً بكثرة، فهل يمكننا أن نحسب هذه الكلمات شارات عن علاقة هؤلاء بعبادة الاصنام او المسيحية او لعب القمار والشطرنج؟!

اجل: استدل احد الكتاب المصابين بهذه الأفكار ببيت شعر من حافظ يقول:

«كان البلبل أمس البارحة يقرأ المقامات المعنوية علىٰ منارة فهلوية».

استدل علىٰ أحاسيسه القومية، وأن الشاعر قد أبدىٰ بهذا أنه تذكر الماضي، حيث لم يكن الاسلام قد اتىٰ الىٰ ايران، وكانت اللغة الفهلوية اللغة الرسمية والدين الزرادشتي هو الدين الرسمي للدولة في ايران، وأنه قد أظهر بهذا البيت ميله الىٰ المراسيم والسنن للدين

نعم أنا اسجد الىٰ صنم، فلا تهدني طريق المساجد...

أنا كافر بسبب الغرام، فاين أنا عن الاسلام؟!

نحن لا نقصد من حبنا للحبيب سوىٰ نفس الحبيب.

فلتكن الجنان والحور لك ايها الزاهد بسخاء!

رأيت في حانوت الخمر زاهداً قد احمرّ وجهه من الخمرة..

قلت له: بارك الله فيك! أمسلم أنت أم ارمني؟

عمّر قلوبنا بكرمك، قبل أن تنهدم هذه القلوب».

ويقول الشيخ النراقي، من علماء القرن الثالث عشر الهجري، وهو يتكنّىٰ في شعره بلقب «صفائي»:

«طوبىٰ لمن خسر رأسه في طريق حبه اوفدي نفسه..

لقد فتحوا بوجهي باب حانوت الخمر عسىٰ أن يدعوني رجل من الخمارين..

ولكني لما اصبحت من مريدي الخمارين قضيت عباداتي السابقة».

ويقول أيضاً:

«مادام غلمان الدير يقيمون فيه فلي فيه مقام..

«قل لي أيها الواعظ اين من القرآن تلك الآية التي تحرم الغرام؟!

وفي أي دين يحرم الخمر الذي يهديني الي حبيبي؟!

لقد قلنا عن العشق وقالوا.. والكلام عنه بَعدُ لم يتم.

ومن بيتنا الىٰ بيت الغرام طريق قصير ليس الا خطوة او خطوتين!

وانما ذهب «الصفائي» الىٰ حانوت الخمر لأن المدارس اصبحت منازل العوام»!

هذا وهو قد كان صاحب مدرسة دينية وحوزة علمية، ومع ذلك يقول:

«أتعجب لماذا يبنون المدارس، بينما هم يستطيعون أن يبنوا حوانيت الخمور»؟*

السائد في وطنه قبل دخول الاسلام!.

وقد أجابه كاتب آخر ماديّ[1] يقول:

«لو كان كذلك، فالبيت التالي يقول فيه:

«كان يقول: إن نار موسىٰ توقدت مرة اخرىٰ.. فتعال لتسمع من الشجر مقال التوحيد» يكون دليلاً علىٰ علاقة الشاعر باليهودية أيضاً! والبيت الآخر له في هذه القصيدة نفسها، حيث يقول:

«واسمع من حظنا الساقط هذه القصة:

أن الحبيب قد قتلنا بأنفاسه المسيحية»

يكون دليلاً علىٰ علاقة الشاعر بالمسيحية»!

اجل، لاشك في أن هذه التعبيرات والمصطلحات، رموز عن سلسلة من المعاني العرفانية، ولا ربط لها بعلاقة قائلها بأديان الزرادشتية أو المسيحية او اليهودية...

ومن هؤلاء شمس الدين المغربي الشاعر العارف من القرن التاسع الهجري، وهو ممن يستخدم في شعره العرفاني كثيراً من المصطلحات، يقول في ديباجة ديوانه:

«أنت اذا رأيت في هذا الديوان من الشعر:

كلمات: الخرابات والخراباتي والخمار...

والصنم والصليب والمسبحة...

والمغ والمسيحي والمجوسي والدير...

والمدام والساقي والشمع والايوان...

وصيحة السكر والبربط ونعرات السكارىٰ...

وحانوت الخمر... والمناجات...

وصوت المزمار... والأرغنون...

والصبوح والمجلس والكأس المتتالي...

والدّن والكأس ودنان الخمار...

---

١ ـ الدكتور حسين الاراني في كراسه بالفارسية: عرفان واصول ماديّ.

والمسابقة في شرب المدام...

والسبق الىٰ حانوت الخمار من المساجد...

والمبيت في بيت الخمار...

ورهن الكأس عند الخمار لشراء الخمر...

بل ورهن الروح عليها...

والورد والأزهار والحديقة...

وأحاديث الندىٰ والمطر والضباب...

والخط والخال والقد والحواجب...

والعذار والعارض وخصال الشعر...

والشفاه والأسنان والعيون السكرىٰ...

والرأس والأقدام والخصر واليد والأصابع...

فلا تجزع من هذا المقال...

بل ادرك المقصود من هذا المقال...

اذا كنت من ارباب الاشارات...

فلا تجمد علىٰ ظاهر العبارات...

دقق النظر كي ترىٰ دقيقاً...

واعبر من القشر كي ترىٰ اللباب...

وان لم تعبر من هذه الظواهر..

فكيف تكون من ارباب السرائر..

فلكل من هذه الالفاظ روح

وبكل روح من هذه الكلمات عوالم من المعنىٰ.

فاعبر أنت جسم الكلم الىٰ أرواحها

وكن مفتشاً عن المسمىٰ واعبر الأسماء.

ولا تترك شيئاً من دقائق هذه المعاني..

كي تصبح من أرباب الحقائق».

أضف الىٰ ذلك: أن هذه التعبيرات لا تختص بالشعراء الايرانيين، بل الشعراء الفارسيين الهنود، والشعراء العرب من قبيل: ابن الفارض المصري ومحي الدين بن العربي الأندلسي، يستخدمون هذه التعبيرات والمصطلحات أيضاً، فهل يمكن لقائل أن يقول: ان تعابير هؤلاء بالمدامة وغيرها مما يذكّر بعلاقتهم بمراسيم الزرادشتيين؟!

اضف الىٰ ذلك كله: أن تشبيه الخواطر القلبية والمعارف الالهامية والبهجة الحاصلة منها بالشراب قد ورد في القرآن ونهج البلاغة؛ أما القرآن فيقول في سورة الدهر: ﴿وسقاهم ربهم شراباً طهوراً﴾ أي ان ربّ الابرار سيرويهم بشراب طهور، يقطعه عما سواه ويوصله الىٰ الله. ويصف الامام أمير المؤمنين عليه السلام أناساً، يقول فيهم كما في نهج البلاغة: «ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح» أي انهم يشربون كأساً من الحكمة في الصباح، وكأساً آخر منها في المساء، والصبوح: الخمر في الصباح، والغبوق: الخمر في المساء[1] فما هو رأي الدكتور معين؟ هل يحسب كل هذه الكلمات علامة عن علاقة قائليها بالآداب والمراسيم الزرادشتية القديمة؟!

وينقل الدكتور معين في ص١٣ من كتابه، كلام السيرجان ملكم الانجليزي البريطاني المستشرق الاستعماري المغرض اذ يقول: «إن أتباع النبي العربي (!) حطموا مدن ايران وساووها مع التراب، احرقوا بيوت النيران بنيرانها، وقتلوا الموابدة بسيوفهم، وافنوا الكتب ومن كان عنده شيء منها؛ إذ كانوا يرون الموابدة مجوساً سحرة، وكتبهم كتب سحر وكهانة»!

ان الدكتور معين مطلع علىٰ مصادر تاريخ الاسلام اكثر من السيرجان ملكم، وهو يعلم حقاً أن هذه الأراجيف من صنع شخص السيرجان ملكم، وأنها لا توجد في أي مصدر للتاريخ! فمن المؤسف حقاً أن ينقل مع ذلك هذه الكلمات التي لا يخفىٰ علىٰ احد سوء أثرها في ايجاد النظرة السيئة الى الاسلام لدىٰ الشباب غير المطلع علىٰ تاريخ الاسلام وايران.

---

١ ـ مجمع البحرين، مادة صبح.

ويحاول الدكتور معين في ص ٢٢، أن يتظلم للمجوس في العهد الاسلامي فيقول: «.. أما الطائفة الاخرىٰ التي بقيت بوطنها ايران محتفظة بدينها المزدينا؛ فإنها اضطرت الىٰ أن تتحمل السيرة الخشنة للأمة المتغلبة عليها، بل وحتىٰ من مواطنيها المسلمين، فاضحت محتقرة مهانة، ومضطرة الىٰ أن تخفي عقائدها ودينها القديم. دين آبائها وأجدادها، فلم تكن لها الحرية في إجراء مراسيم هذا الدين، وكانت تقضي حياتها ومرّةً. يقول مؤلف تاريخ سيستان: ان زياد بن ابيه عزل ربيع عن سيستان وولى عليها عبد الله بن أبي بكرة عام ٥١ هجرية، وأمره أن: اذا صرت الىٰ سيستان فاقتل جميع الهرابدة وانبذ نار المجوس». فلما اتىٰ الىٰ سيستان علىٰ هذا العهد، وعزم مجوس سيستان والدهاقين أن يعصوا الوالي فيما يأمرهم به من هذا».

ويكتفي الدكتور معين من هذه القصة بهذه القطعة، ولم ينقل بقيتها، ويستشهد هو بها علىٰ مدعاه، بأن المجوس لم تكن لهم حرية لاجراء مراسيم دينهم، وأنهم كانوا يضطرون الىٰ اخفاء دينهم دين آبائهم وأجدادهم!

اجل نقل الدكتور نفسه بقية هذه القصة في موضع آخر يقول: «.. وخالف مسلمو سيستان امر زياد هذا وقالوا: إن هذا الأمر علىٰ خلاف سيرة رسول الله صلىٰ الله عليه [وآله] وسلم والخلفاء الراشدين، والتعاليم الاسلامية. فراجعوا الخليفة في الشام فأجاب: ان المجوس معاهدون، وان انفسهم وأموالهم محترمة لدينا، ولا يحق لاحد التعرض لها»!

وينقل الدكتور معين في موضع آخر من كتابه عن تاريخ سيستان نفسه يقول: «في سنة ٤٦ هجرية (أي قبل هذه القضية بخمس سنين) جاء الىٰ سيستان ربيع الحارثي والياً، فأحسن السيرة، وأمر المسلمين أن يتعلموا القرآن وتفسيره والعلم، وأخذ بالعدل، حتىٰ أسلم كثير من المجوس من حسن سيرته»!.

اجل هكذا كان حال الزرادشتيين علىٰ عهد الخلفاء ومعاوية وفي حكومة الربيع الحارثي، وحينما يأمر زياد بن أبيه بالظلم يقابل برد فعل شديد من المسلمين، وحينما يرىٰ الخليفة الظالم معاوية ردّ فعل المسلمين ينقض حكم عامله ويؤيد نظر المسلمين.

وعلىٰ هذا فلا مجال لبكاء الدكتور علىٰ اكراه المجوس واضطرارهم الىٰ اخفاء دينهم،

ولماذا يستشهد الدكتور لذلك بنقل قسم من قطعة تاريخية ويترك بقيته؟!.

لسنا ننكر نحن ظلم الأمويين، ولكنا نقول: إن هذه المظالم بالنسبة الىٰ ما كان يـراه الايرانيون من حكامهم قبل الاسلام لم تكن شيئاً يذكر. ثم ان الأمويين كانوا قد وجهوا حدّة سيوفهم الىٰ صوب آل علي عليهم السلام الذين كانوا يرونهم المنافسين لهم في الأمر ويحسون بالخطر الشديد من ناحيتهم، وكان المجوس في هذه الحكومة أحسن حالاً من اتباع اهل البيت عليهم السلام قطعاً.

من المؤكد أن سياسة الأمويين كانت سياسة عنصرية، وأن حكومتهم كانت حكومة قومية عربية لا اسلامية، فكانوا يفرقون في حكمهم بين العـرب وغـيرهم. الا أن هـذا التفريق كان بين العرب وغيرهم حتىٰ بين المسلمين منهم، ولم يكن يـدخل فـي ذلك الدين، بل كان المجوس آمنين ما زالوا يعملون بشرائط معاهدة الذمة.

وكان للمجوس الحرية الكاملة علىٰ عهد العباسيين، وكانوا يجادلون أئمة المسلمين وعلماءهم حول الاسلام والمجوسية. وقد نقلنا في القسم الأول من هذا الكتاب: أن اسلام اكثر الفرس وترك بيوت النار وبناء المساجد بمكانها، كان علىٰ عـهد قـد اسـتقل فـيه الايرانيون سياسياً.

وقد كتب پ. ژ. مناشه في مقال بعنوان «مقاومة الزرادشتية» في كتاب «تمدن ايراني» يقول: «إن انقراض الدولة الساسانية علىٰ يد العرب المسلمين لم يصبح سبباً في اخفاق الروح الايرانية، ولا في ازالة الدين الزرادشتي بصورة قطعية. بل ان الايرانيين نقلوا في الإسلام بقايا حضارة لطيفة، ونفخ هذا الدين فيها روحاً جديدة، إن الفرس لم يسـلموا دفعة واحدة، ولانستطيع أن نغض الطرف عن مقاومة دين زرادشت للاسلام».

ثم يبحث پ. ژ. مناشه في أن المسلمين كانوا يعدون المجوس من أهل الكتاب، ثم يقول: «إن المؤرخين العرب ـ الذين هم المصدر الأساس لما نحن بصدده ـ يذكرون لنا أسماء بلدان متعددة كانت فيها بيوت نيران حتىٰ القرن الثالث والرابـع الهـجريين. واذا كانت بيوت النار الباقية، فلا بد أن يكون قد بقي فيها رجال للمراسيم الدينية بل ان حياة المجوس تستوجب بقاء رجال روحانيين يعلمونهم أصول دينهم وقوانينهم. ولهذا فـقد

بقيت الطبقات المجوسية، وسنرىٰ أن نظام الطبقات هذا اثر كثيراً في المجوس، والذي كانوا علىٰ شك في البقاء علىٰ دينهم أو الاسلام. وقد بدأ رجال زرادشت في القرن الثالث الهجري بمجادلات كلامية لفظية وكتابية».

النظام الاجتماعي

من أجل أن نرىٰ مدىٰ تأثير الإسلام في ايران، يجب علينا أن ننظر في النظام الاجتماعي الايراني يومذاك، الذي غيّره الإسلام وساد بنظامه في ايران بدلاً من ذلك النظام.

إن مجتمع ايران الساساني كان مجتمعاً طبقياً تجري فيه اصول النظام الطبقي علىٰ أشد الوجوه. ولم يكن الساسانيون هم الذين اخترعوا هذا النظام الطبقي، بل كان معروفاً في ايران منذ عهد الهخامنشيين والاشكانيين[1]، وقد ايّده السّاسانيون.

كتب المسعودي في «مروج الذهب» يقول: «ورتب اردشير المراتب فجعلها سبعة افواج»[2].

وكتب في كتابه «التنبيه والاشراف» يقول: «وكانت للفرس مراتب: اعظمها خمس، هم وسائط بين الملك وسائر رعيته، فأولها وأعلاها «الموبد»... والثاني الوزير... والثالث: الاسپهبد... والرابع: دبيربد... والخامس هو تخشه بد... وكان هؤلاء المدبرين للملك والقوام به والوسائط بين الملك ورعيته.. وللفرس كتاب يقال له «گهنامه» فيه مراتب مملكة فارس وأنها ستمائة مرتبة علىٰ حسن ترتيبهم لها وهذا الكتاب من جملة «آئين نامه» وتفسيره: كتاب الرسوم، وهو عظيم في الالوف من الأوراق»[3].

ونقرأ في كامل ابن الأثير: «فلما اصبح رستم من تلك الليلة ركب.. حتىٰ أتىٰ علىٰ منقطع عسكر المسلمين، ثم صعد حتىٰ انتهىٰ الىٰ القنطرة، ووقف علىٰ موضع يشرف منه

---

١ ـ يراجع: تاريخ ايران باستان ـ لمشير الدولة. ط القطع الصغير ج٦ ص ١٥٠٠ وج٩ ص ٢٨٤ وتاريخ ايران لمشير الدولة أيضاً ص١٦، و١٢٣، و ٢٤٠.

٢ ـ مروج الذهب للمسعودي، ج١، ص ٢٥٤.

٣ ـ التنبيه والاشراف للمسعودي، ص ٩١، ط: مصر ١٣٥٧هـ.

فتأمل المسلمين، وارسل الىٰ زهرة [بن عبد الله] فوافقه واراده علىٰ أن يصالحه ويجعل له جُعلاً علىٰ أن ينصرفوا عنه، من غير أن يصرح له بذلك، بل يقول له: كنتم جيراننا وكنا نحسن اليكم ونحفظكم... ويخبّره عن صنيعهم مع العرب...

فقال له زهرة: «ليس أمرنا أمر اولئك! انا لم نأتكم لطلب الدنيا، انما طلبتنا وهمتنا الآخرة. وقد كنا كما ذكرت الىٰ أن بعث الله فينا رسولاً، فدعانا الىٰ ربّه فأجبناه، فقال لرسوله: إني سلطت هذه الطائفة علىٰ من لم يدن بديني، فأنا منتقم به منهم، واجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به. وهو دين الحق لايرغب عنه احد الّا ذل ولا يعتصم به احد الّا عزّ».

فقال له رستم: ماهو؟

قال: اما عموده الذي لا يصلح الّا به: فشهادة أن لا إله الا الله، وأن محمداً رسول الله. قال: وأي شيء ايضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد الىٰ عبادة الله، والناس بنو آدم وحوّاء اخوة لأب وام! قال: ما أحسن هذا؟ ثم قال: أرأيت ان اجبت الىٰ هذا ومعي قومي كيف يكون أمركم أترجعون؟ قال: اي والله؟ قال: صدقتني؛ أمّا انّ أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السّفلة، كانوا يقولون: انهم اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا أشرافهم.

فقال زهرة: «نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون، بل نطيع الله في السّفلة، ولا يضرنا من عصي الله فينا».

فانصرف [رستم] عنه ثم دعا رجال فارس فذاكرهم هذا فأنفوا»[1].

ويتفق الباحثون والمؤرخون الغربيون ـ الذين استندوا الىٰ المصادر التاريخية المختلفة من يونانية ورومية وسريانية وارمنية وعربية، والذين ساعدتهم الحفريات الاخيرة مساعدة كبيرة في كشف الحقائق التاريخية ـ يتفقون على ان النظام الطبقي الايراني له جذور تاريخية قديمة. وقد بحث هذا الموضوع كريستن سن ـ الذي استند الى جمع المصادر وعمل في تاريخ ايران علىٰ عهد الساسانيين ثلاثين عاماً ـ في مقدمة

---

١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج ٢، ص ٤٦٢، ط بيروت ١٣٨٥هـ.

كتابه[1] وفي الفصل الثاني منه أيضاً[2] بحثاً مفصلاً، علىٰ الراغبين مراجعته.

ويدّعي كريستن سن: أن ما اصطلح عليه المؤرخون المسلمون العرب بعناوين «العظماء» و«الاشراف» و«أهل البيوتات» مما يطلقونه علىٰ شخصيات ذلك العهد أو الادوار التالية، انما هو ترجمة ادبية لكلمات فهلوية هي: «واسپوهران» و«بزرگان» و«ازاذان»[3]. وسنخص بحثنا هذا بشيء من التفصيل في دراسة «الانظمة الاجتماعية الايرانية الساسانية» بالاستفادة من بحوث كريستن سن وآخرين.

ويبحث كريستن سن في الفصل السابع من كتابه «النهضة المزدكية» في الحقوق المدنية والاجتماعية والاسرة ونظام الطبقات في ايران، فيقول:

«ان المجتمع الايراني كان قائماً علىٰ دعامتين: الدم، والمال. فقد كانت هناك حدود متينة جداً تفصل النجباء والأشراف عن عامة الناس، علىٰ ما في رسالة «تنسر» وقد امتاز هؤلاء باللباس والمركب والبيت والبستان والنساء والخدم والحشم و... وكان للطبقات من حيث المراتب الاجتماعية درجات داخلية أيضاً، فكان لكل شخص في المجتمع منزلة ثابتة لا تتغير. وكان من القواعد السياسية المتينة للساسانيين: أن لا ينبغي لأحد أن يطلب درجة هي فوق ما تناسبه من حيث نسبه وحسبه... وكانت قوانين الدولة تحمي طهارة الاعراق والاعراض والعناصر والدماء في الأسر والبيوتات، وتحمي أملاكهم غير المنقولة أيضاً. ونجد في «فارسنامه» عبارة يظهر أنها مأخوذة عن «آئين نامك» من عهد الساسانيين، تقول: «كان من عادة ملوك الفرس والأكاسرة أن يتزوجوا من بنات جميع ملوك الأطراف كالصين والروم والترك والهند، ولكنهم لم يعطوهم من بناتهم أبداً؛ بل كانوا لايزّوجون البنات الا من أهل بيتهم». فقد كانوا يسجلون أسماء الأسر الكبيرة في دفاتر الحكومة، وكانت الدولة تتعهد بحفظ هذه الأنساب والبيوتات. وكانوا يمنعون العامة من شراء أموال الأشراف. ومع هذه فقد انقرض بعض اسر النجباء علىٰ مرور الزمن... وكان بين طبقات العامة تفاوت بيّن؛ فقد كان لكل واحد منهم منزلة ثابتة لا تتغيّر؛ فلم يكن

---

١ ـ صفحات: ٢٩ ـ ٣٦ من الترجمة الفارسية.

٢ ـ صفحات: ١١٧ ـ ١٦١ من الترجمة الفارسية.

٣ ـ ايران در زمان ساسانيان، ص٣٣٩ ـ ٣٤١.

يتمكن احدهم الاشتغال بحرفة غير ما خلقه الله لها!»[1].

ويقول الاستاذ سعيد نفيسي:

«اذا تجاوزنا الخلافات الدينية والمذهبية؛ وجدنا أن اهم سبب لشيوع النفاق في أوساط الناس في ايران، هو التمييز الطبقي الذي أقره الساسانيون، والذي كان له جذور في الحضارات الايرانية السابقة أيضاً، وكان الساسانيون قد ضيّقوا علىٰ الناس بذلك. وكان يمتاز بالدرجة الأولىٰ سبعة بيوت من الأشراف، ثم خمس طبقات بعدهم، وعامة الناس يحرمون من هذه الميزات. فكانت الملكية الكبرىٰ تنحصر في تلك البيوت السبعة تقريباً. فايران علىٰ عهد الساسانيين التي كانت تتصل من طرف بنهر جيحون ومن طرف آخر بجبال القوقاز ونهر الفرات، كانت تحتوي ـ لا محالة ـ علىٰ زهاء مئه واربعين مليون نسمة فلو افترضنا ان عدد كل أسرة من هذه الأسر السبعمئه الف، كانوا سبعمئة الف في المجموع، ولو افترضنا عدد الدهاقين ومحافظي الحدود ـ الذين كانوا هم أيضاً يتمتعون بحق الملكية المحدودة ـ سبعمئه الف أيضاً؛ لكانت النتيجة: أن مليوناً ونصف تقريباً من مجموع مئه وأربعين مليوناً استحق الملكية فقط، وحرم منها غيرهم بالقطع. فكان لابدّ من أن يتبع هؤلاء الملايين من الناس المحرومين، أي دين جديد يزيل هذه الميزات المحرمة، ويقرر لهم المساواة والمواساة، ويمنحهم حق الملكية ويحطم نظام الطبقات»[2].

وقد جاء في شاهنامة الفردوسي ـ الذي لا يأخذ الا من المصادر الزرادشتية والايرانية فقط ـ قصة معروفة ترينا بكل وضوح ذلك النظام الطبقي العجيب، وأن طلب العلم أيضاً كان من خصائص الطبقات الممتازة..

يقول: جرّ قيصر جيشاً جراراً الىٰ الشام وهو اذ ذاك في سلطة انوشيروان، وقابلته جيوش الايرانيين، حتىٰ خلت خزائن ايران من امتداد فترة الحرب. فاستشار انوشيروان بوذرجمهر، وقرّر علىٰ أن يقترضوا من التجار... فدعا جماعة من التجار، وكان بينهم رجل

---

١ ـ ايران در زمان ساسانيان، صفحات ٣٣٩ ـ ٣٤١.

٢ ـ تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٢٤ ـ ٢٥.

يبيع أحذية، وكان من الطبقات السفلىٰ، فتقدم وقال: لا مانع لدي من أن ادفع لكم ما تريدون نقداًودفعة واحدة... علىٰ أن يباح لولدي الوحيد الحضور عند المعلمين، اذ هو يرغب في ذلك كثيراً... وقد نظم هذا المعنىٰ يقول:

قال له بائع الأحذية: أنا أعطي هذا دفعة واحدة...

اضع شكري مالاً علىٰ رأسي واقدمه.

قال له بائع الأحذية: يا حسن الوجه (ايها الرسول)!

لا تتألم من كلامي هذا وأبلغه الىٰ بوذرجمهر:

إن لي في الدهر ولداً واحداً...

لا يقل قدره علي...

فقل له: لو كان ملك العالم...

يسرني سراً...

أن أدعه لدىٰ ارباب المعارف...

فهو يطلب رأسمال العلم ويحبّه...

قال الرسول: ليس هذا من الصعب علي...

اذ قصّرت علينا السبيل الىٰ ما نريد من الذهب...

وجاء بوذرجمهر الىٰ الملك...

وقال: أيها الملك السعيد الجميل المحيّا!

لقد عَنّي علينا بائع أحذية...

لو يسمع الملك هذا الرجاء...

قال الرسول: ان هذا الرجل يقول:

ـ قرن الله ملك العالم بالعقل ـ

لي ولد واحد قد بلغ مبالغ الرجال،

وهو يفتش عن دليل الىٰ المعارف...

فلو اخذ الملك بيد هذا الولد...

حتىٰ يصبح من الكتّاب...

دعوت اله الخير له بطول عمره...

ودوام قصره.. حقاً..

قال له الملك: ايها الرجل العاقل..

ما غرّك واوقحك لتطلب هذا؟

ان الشيطان هو الذي دعاك الىٰ هذه الوقاحة...

ارجع اليه وارجع له جماله..

واياك أن تأخذ منه ذهباً ولافضة..

ان أبناءنا اذا جلسوا علىٰ هذا العرش...

كانوا بحاجة الىٰ كتاب سعداء..

فاذا اصبح ابن الكاسب كاتباً..

فنّاناً عالماً عارفاً...

اذا وجد هذا الفن بائع الأحذية..

وهب له عين بصيرة واذناً واعية..

لم يبق اذ ذاك لأولي الألباب والأسر..

الا الحسرة والندامة..

وكان علينا بعد الموت اللعنات..

اذ ان هذا هو دين هذا الزمان!.

فارجع الجمال اليه..

واطلب الذهب ولكن لا تطلبه من بائعي الأحذية.

فرجع الرسول بالمال..

وامتلأ بائع الأحذية غمّاً من دراهمه هذه»[1].

ويقول كريستن سن:

---

١ ـ شاهنامة الفردوسي ـ فارسي ـ ج٦، ص٢٠٧ ـ ٢٦٠، ط سازمان كتابهاي جيبي.

«كان الصعود من طبقة الىٰ غيرها ممنوعاً بصورة عامة. واحياناً كان مباحاً؛ وذلك فيما اذا قدّم احد الرعايا فنّاً خاصاً، وحينئذٍ كان يعرض علىٰ الملك، ثم علىٰ تجارب الموابدة والهرابدة والمشاهدات الطويلة.. فاذا رأوه أهلاً لذلك ومستحقاً، ألحق بطبقة اعلىٰ من طبقته كما يرون... علىٰ ما في رسالة «تنسر»... وكان الحال في المدينة احسن، اذ كان رجال المدن يعفون من الخدمة العسكرية، وان كانوا يدفعون الضرائب كالقرويين، وكانوا يصبحون ذوي جاه واموال عن طريق التجارة والصناعة. أما سائر الرعايا فكانوا في أسوأ حال؛ اذ كان عليهم أن يسكنوا القرية دائماً ويخدموا العَلَم. ويقول اميانوس مارسپلينوس: «كان علىٰ هؤلاء أن يطاردوا بين يدي الجنود جماعات جماعات! فكأنهم كانوا محكومين بالعبودية طول العمر بل ابد الدهر، وكانوا مع ذلك محرومين من كل اجر وعطاء» وليس لدينا اطلاع واسع علىٰ احوال الرعايا الذين كانوا في طاعة الاشراف والملاك... ويقول اميانوس ايضاً: «ان هؤلاء الاشراف كانوا يحسبون انفسهم ذوي اختيار حتىٰ في نفوس هؤلاء الغلمان من الرعايا». ولم يكن يختلف حال الرعايا عن العبيد بالنسبة الىٰ هؤلاء الأشراف والملاك... ومع هذا فمن المسلم به أن الحقوق القانونية للزراع كانت تعيّن بكل دقّة، وذلك بالنظر الىٰ الأهمية الخاصة للزراعة في دين زرادشت، وما لهذا العمل من المبالغة في الثناء عليه في الكتب الزرادشتية المقدسة، فقد كان بعض طقوس اوستا تحتوي علىٰ أحكام وقواعد تخص هذا الموضوع»[1].

ويقول أيضاً:

«ان ما نستطيع استخراجه من معلومات عن المجتمع الايراني القديم من المصادر القديمة ـ وان كانت ناقصة ومتفرقة ـ الا أنها تعرفنا علىٰ مجتمع احكم اساسه علىٰ العلاقات العتيقة التي كانت ترتبط بالعلاقة العائلية والعشائرية المتينة، فقد وضعوا القوانين لحماية الاسرة (الدم أي العنصر) والملكية، وكانوا يحاولون أن يحفظوا بهذه القوانين التمييز الطبقي مهما أمكن»[2].

ويذكر كريستن سن في الفصل الثامن من كتابه، نماذج ودلائل وقرائن علىٰ الحياة

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، صفحات ٣٤٣ ـ ٣٤٥.

الطبقية الخشنة لذلك العهد[1].

وأوضح طرفاً من هذا الموضوع دومزيل، في مقال بعنوان «الطبقات الاجتماعية لايران القديمة»[2].

وكان للروحانية الدينية والتعليمات العامة التي كانت ترتبط بالأولىٰ، اوضاع خاصة.

يقول الاستاذ سعيد نفيسي:

«كان للروحانيين اذ ذاك تفوق كامل في جميع الشؤون الاجتماعية. وكانوا ينقسمون الىٰ ثلاث فرق: الأولىٰ: الموابدة... وكان رئيس الموابدة يعرف باسم «موبدان موبد» او بعنوان «موبد موبدان» اي «موبد الموابدة» وكان يسكن في العاصمة الايرانية، وكان يعتبر الشخص الروحاني الأول للدولة، وكانت له صلاحيات واختيارات غير محدودة... والطبقة الثانية! هي طبقة الهرابدة، الذين كانت قد اوكلت اليهم وظائف التعليم والتربية، وكان التعليم والتربية مقصورين علىٰ اولاد الموابدة والنجباء، وكان تحرم منهما اكثرية الناس! والطبقة الثالثة بعد الهرابدة: طبقة: أُذربدان، الذين كانوا سدنة وخدام معابد النيران وموقوفاتها، وكانت وظيفة هؤلاء ـ أولاً ـ حفظ النار المقدسة لبيوت النيران، ثم كنسها وغسلها وما يحيط بها من الأفنية والأبنية والساحات، وادارة المراسم الدينية كالصلوات والحفلات وتطهير المواليد، والعرائس والأموات»[3].

والموضوع الآخر الذي يرتبط بالبحث عن الأنظمة الاجتماعية في ايران القديم، هو نظام حكومة الساسانيين. إن حكم الساسانيين كان حكماً دكتاتورياً إستبدادياً محضاً. فكانوا يرون انفسهم من عنصر سماوي! وأنهم مظاهر الله في الأرض! ولم يكونوا يرضون من امتهم باقل من السجود خضوعاً لهم! وكان الناس قد اعتادوا علىٰ هذا الأمر! والذين يريدون أن يقرأوا عن هذا الجانب من المجتمع الايراني القديم فبإمكانهم أن يراجعوا كتب: «تاريخ ادبيات» لادوارد براون، ج ١، ترجمة الاستاذ علي صالح پاشا[4] و«تمدن

---

١ ـ المصدر نفسه، ص٣٨٨، و ٣٩٠ و ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٥٣٢.

٢ ـ بالفارسية: تمدن ايراني، ص ٥١ ـ ٥٦.

٣ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٢٥ ـ ٢٦.

٤ ـ صفحات: ١٤٢، ١٩٢، ١٩٣.

ايراني» لجمع من المستشرقين بترجمة الدكتور بهنام[1] و«تاريخ اجتماعي ايران» للاستاذ سعيد نفيسي، ج ٢[2] ولا سيما «ايران در زمان ساسانيان» للمستشرق كريستن سن الدانماركي، ترجمة الاستاذ رشيد الياسمي[3].

ولا ارىٰ من الضروري أن أبحث هنا في هذا الموضوع بالتفصيل، وسنبحث فيه في القسم الثاني: خدمات الايرانيين للاسلام.

نظام الأسرة

«ان الموضوع الذي كان الموابدة يتصرفون فيه كثيراً بالنسخ والتغيير والتعديل هو موضوع الحقوق الشخصية، او قل قانون الأحوال الشخصية، ولا سيما احكام النكاح والارث، فانها كانت مهمة ومعقدة الىٰ درجة كان الموابدة يتصرفون فيها كيفما يشاؤون، وكان لهم في هذا الموضوع صلاحيات واسعة، لم تكن لاي رجال دين من الأديان»[4].

أما تعدد الزوجات فقد كان أمراً شائعاً في العهد الساساني، وان كان اكثر الزرادشتيين الآن يحاولون انكاره اذ ذاك الا أنه لا مجال لانكاره قطعاً، فقد كتبه كل من كتب عن هذا الموضوع من المؤرخين من هيرودوت اليوناني واسترابون في العصر الهخامنشي، وحتىٰ المؤرخين المعاصرين.

فمثلاً هيرودوت كتب عن طبقة الاشراف في العهد الهخامنشي يقول: «لكل واحد منهم عدة نساء دائمات رسميات، ولهم أزواج كثيرة غير معقودات...»[5].

وكتب استرابون عن هذه الطبقة نفسها يقول: «انهم يتزوجون كثيراً، ولهم ازواج كثيرة غير معقودات ايضاً»[6].

---

١ ـ صفحات: ١٨٩ ـ ١٩٤.

٢ ـ صفحات: ١٦ فمابعد.

٣ ـ صفحات: ٤، ١١٢، ١٤٦، ١٧٥، ٢٨٤، ٢٩١، ٣٣٠، ٤٠١، ٤٠٥، ٤٢٦، ٤٣٠، ٤٦٩، ٤٧١، ٤٨٥، ٤٩٦، ٥١٧، ٥٢٨.

٤ ـ تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٣٤.

٥ ـ بالفارسية: تاريخ ايران باستان، ج ٦، لمشيرالدولة، ط جيبي، ص ١٥٣٥.

٦ ـ تاريخ ايران باستان، ج ٦، لمشير الدولة، ط جيبي ص ١٥٤٣.

ويقول ژوستن من مؤرخي العهد الأشكاني في الأشكانيين: «ان كثرة الأزواج كانت شائعة بينهم، منذ أن امتلكوا ثروة وقدرة، ولا سيما الأسرة المالكة، وكانت حياة البداوة الصحراوية تمنعهم من قبل أن يتزوجوا كثيراً»[1].

بل ان الذي كان شائعاً بين طبقة الأشراف في ايران القديم هو أمر أكثر من تعدد الزوجات، فانه لم يكن محدوداً بحدّ كالأربعة او اقل أو أكثر، ولا مشروطاً بشرط كالعدالة وتساوي حقوق الأزواج او القدرة الجنسية او المالية، بل كما كان النظام الاجتماعي اذ ذاك طبقياً، كذلك كان نظام العائلة والاسرة ايضاً:

يقول كريستن سن:

«ان تعدد الزوجات يعتبر هو الأصل في أساس تشكيل الأسرة في ايران القديمة (لدىٰ الاشراف) وأما عدد الزوجات اللاتي كان للرجل أن يتزوج بهن فكان منوطاً بقدرته، فالظاهر، أنه لم يكن للفقراء والعاديين اكثر من زوجة واحدة بصورة عامة... وكان رئيس العائلة (كدخدا أي كدك خداي) يتمتع بحق الرئاسة علىٰ الأسرة (سرداري دودمان أي سرادريه دودك) وكانت احدىٰ الزوجات صاحبة حقوق كاملة تدعى (پادشاه زن = زن پادشاهيها) او الزوجة الممتازة، وكان ادون منها تلك الزوجة التي تلقب (چاكر زن = زن ي چگاربها) او الزوجة الخادمة. وكانت هاتان الزوجتان تختلفان من حيث الحقوق القانونية... فقد كان علىٰ الزوج أن ينفق علىٰ زوجته الممتازة ويحافظ عليها، وكان لكل بنت هذا الحق نفسه الىٰ أن تتزوج، وكذلك للولد، أما الزوجات الخادمات، فانما كان يقبل منهن أولادهن الذكور فقط! وقد عدّوا في الكتب الفارسية الأخيرة خمسة اقسام للأزواج اذ ذاك، الا أن الظاهر لم يكن في قوانين الساسانيين أكثر من القسمين المذكورين آنفاً»[2].

ولم يكن للبنت حق اختيار الزوج بالاستقلال، بل كان هذا الحق لابيها فقط، فان لم يكن ابوها حياً، انتقل هذا الحق الىٰ شخص آخر من الأسرة نفسها، فالأم اوّلاً، وان لم

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ ايران باستان، ج٩، لمشير الدولة، ط جيبي، ص٢٩٣.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.

تكن فأحد الأعمام أو الأخوال»[1].

وكان للزوج حق الولاية علىٰ أموال الزوجة، ولم يكن يحق للزوجة أن تتصرف في أموالها بدون اذن زوجها، بل ان القانون لم يعترف بالشخصية القانونية الحقوقية الا للزوج فقط[2] وكان للزوج أن يشرك زوجته في اموره وأمواله بمقتضىٰ سند قانوني، فبمقتضىٰ هذا السند تصبح الزوجة شريكة في أموال الزوج، وكان لها حينئذٍ ان تتصرف فيها كزوجها، وبهذه الصورة فقط كانت الزوجة تستطيع أن تعقد معاملة صحيحة مع شخص آخر غير زوجها[3].

اذا قال الزوج لزوجته: اذهبي فاختاري لنفسك فأنت حرة، لم تطلق الزوجة بهذا، بل كانت تؤذن بهذا أن تختار لنفسها زوجاً آخر لتكون له زوجة خادمة (چاكر زن) فاذا ولدت بعد زواجها الجديد في حياة زوجها السابق كان الأولاد لزوجها الأول، اي تبقىٰ الزوجة تابعة لزوجها الأول قانونياً ودينياً[4].

وكان يحق للزوج أن يعير لرجل آخر زوجاته حتىٰ زوجته الممتازة من دون أن تكون مقصرة في حقه شيئاً، ليستفيد هذا الرجل من خدماتها، ولم يكن يعتبر في هذا رضا الزوجة. ولم يكن لهذا الزوج الثاني أن يتصرف في أموال هذه الزوجة، والأولاد بعد هذا الزواج هم للزوج الأول... وكانوا يرون هذا من اعمال البر والخير والاحسان الىٰ اخ في الدين فقير[5].

ويقول كريستن سن:

«... ومن خصائص الفقه الساساني: زواج الإبدال، الذي شرحه تنسر في رسالته و نجد تفصيله في كتاب «الهند» للبيروني وقد أخذه عن ترجمة ابن المقفّع مباشرة، وهو: «اذا مات الرجل ولم يخلف ولداً، فلينظروا فان كانت له امرأة زوجوها من أقرب عصبة باسمه،

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥١ وتاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٤٤.
٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥٢ وتاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٤٦.
٣ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥٢ وتاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٤٦.
٤ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥٣.
٥ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥٤ وتاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٤٥.

وان لم يكن له امرأة فابنة المتوفي او ذات قرابته، فان لم توجد خطبوا علىٰ العصبة من مال المتوفى، فما كان من ولد فهو له(!) ومن اغفل، فقد قتل ما لايُحصىٰ من الأنفس، لانه قطع نسل المتوفى وذكره الىٰ آخر الدهر»[1].

ومن أحكام الأرث: أن ترث الزوجة واولادها الذكور بالتساوي، وأن يعطى للبنات غير المتزوجات نصف سهم الذكور، والزوجة الخادمة لم ترث شيئاً، وكان يحق للرجل أن يهب لاحدهم في حياته شيئاً او يوصي له بشيء[2].

ثم ينقل كريستن سن شرحاً مفصلاً عن الأولاد الأدعياء، الذين كانوا مورد الاهتمام اذ ذاك للمنع عن انقطاع ذكر الأسر[3]، ونبتعد عن ذكر ذلك خوف الإطالة.

وخلاصة القول: أن الملاك والمحور في المقررات العائلية، كان شيئين هما: المال والدم اي العنصر، وأن سائر الأحكام والمقررات كانت لصيانة هذين المحورين.

وان الزواج بالمحارم الذي كان شائعاً في ذلك العهد، كان مبنياً علىٰ هذا الأساس ايضاً، اي أن الأسر في سبيل منع امتزاج دمها بالدم الأجنبي وتوارث اموالها بين الأجانب، كانت تسعىٰ أن تتزوج باقربائها مهما امكن. وحيث كان هذا العمل علىٰ خلاف الطبع والفطرة، كانوا يحملون الناس عليه بقدرة الدين والدولة ومواعيد الثواب في الآخرة ووعيد العذاب لمن يمتنع عنه.

«وقد جاء في كتاب: ارداي ويرافنامه، المنسوب الىٰ نيك شاپور من علماء عهد خسرو الأول، وهو شرح حول معراج الروح، جاء فيه: انه رأىٰ في السماء الثانية ارواح أُناس كانوا قد تزوجوا محارمهم «خويتك دس» فكانوا مغفوراً لهم الىٰ الأبد. وأنه رأىٰ في قعر العذاب روح أمرأة مخلدة في العذاب لانها كسرت هذا الرباط المقدس (!) وأن ويراف الذي استحق المعراج، كان قد اختار سبعاً من أخواته للزواج بهن. وقد جاء فيالكتاب الثالث من كتاب «دينكرات» اصلاحات لهذه المسألة؛ منها: ما يصطلح عليه «نزد پيوند» بمعنىٰ الزواج من الأقارب، مشيراً فيه الىٰ زواج الأب بابنته والأخ باخته. وقد شرح

---

١ ـ نقلاً عن كتاب: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥٥.

٢ ـ ايران در زمان ساسانيان، ص٣٥٧.

٣ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٧.

«نوساي بزرگ» من كبار الزرادشتيين هذا القسم من الكتاب وجاء بفوائد ومنافع كثيرة لهذا الزواج وقال: إنه يجبر كبائر الذنوب»[1].

ويقول كريستن سن:

«ان الاهتمام بطهارة النسب ودم الاسرة، كان من احدىٰ الصفات البارزة للمجتمع الايراني القديم، الىٰ درجة تجويز الزواج بالاقارب المحارم واصطلحوا عليه: «خويذوگس» وفي اوستا «خوايت ودث» وكان هذا شائعاً فيهم منذ القديم وحتىٰ علىٰ عهد الهخامنشيين ولفظ: «خوايت ودث» وان كان لم يصرح بشرحه في اوستا الحالي، الا أنه لا ريب في أن المراد منه في الطقوس القديمة هو الزواج من المحارم»[2].

أما الزرادشتيون ولا سيما فرس الهند، فقد شعروا في هذا العصر الأخير، بشناعة هذا العمل، فتركوه بأنفسهم، ثم حاولوا ان يتنكروا ولا يعترفوا بمشروعية هذا العمل فتركوه بأنفسهم، ثم حاولوا، أن يتنكروا ولا يعترفوا بمشروعية هذا العمل بينهم كسنة دينية زرادشتية، وحاولوا أن يفسروا كلمة «خويتك دس» بتوجيهات وتأويلات باردة للغاية.

يقول كريستن سن:

«انّ السعي الذي يقوم به بعض الفرس الزرادشتيين في هذا العصر الأخير لانكار الزواج بالأقارب المحارم وانه لا أساس له، هو عمل صبياني مع وجود المصادر المعتبرة التي بين ايدينا من المراجع الزرادشتية، وكتب الأجانب من لدن عصر الساسانيين وحتىٰ العصر الحاضر»[3].

ويقول الاستاذ سعيد نفيسي:

«ان من البديهي المسلّم المقطوع به الذي نجده بصورة قاطعة وحيّة في مصادر ذلك العهد الايراني القديم: هو أن الزواج بالأقارب والمحارم من الطبقة الأولىٰ، كان معمولاً بل شائعاً بينهم حتماً، علىٰ الرغم من الضوضاء الحمقاء التي يفتعلها الزرادشتيون اخيراً»[4].

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٣٩.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٤٧.

٣ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٤٨.

٤ ـ بالفارسية: تاريخ اجتماعي ايران، ج ٢، ص ٣٥.

ثم يأتي الاستاذ النفيسي بالنصوص التي جاءت في كتب الزرادشتيين المقدسة، مثل كتاب «ديكرات» وغيره، ثم بالتصريحات التي اوردها الكتاب المسلمون كالمسعودي وابي حيان التوحيدي وابي علي بن مسكوية. ثم يأتي بأخبار زواج قباد بابنته او ابنة اخته، وزواج بهرام چوبين باخته، ومهران كشنسب باخته، والذي صار مسيحياً فيما بعد.

وينقل المرحوم مشير الدولة في كتابه، عن المؤرخ اليوناني القديم استرابون بشأن الهخامنشين يقول:

«إن هؤلاء (اي من كان يلقب: مغ، من شيوخ بيوت النار) كانوا يتزوجون بامهاتهم حسب عادتهم القديمة»[1].

ويقول بشأن الأشكانيين:

«ان بعض المؤرخين الاجانب، يذكرون زواج الملوك الأشكانيين بأقربائهم وارحامهم بكل كراهية، ذكر ذلك المؤرخ «هيرودوت» للملك كمبوجبه، وپلوتارك للملك اردشير الهخامنشي. ويرد بعض الكتاب الفرس الزرادشتيين هذه النسبة ويقولون: لا ينبغي أن تفهم كلمة (خواهر اي الأخت) عند الأشكانيين بمعناها الحقيقي؛ بل ان الملوك البارنيين كانوا يطلقون الاخت علىٰ جميع بنات الملوك، اذ كان هؤلاء أسرة فيهم بنات الأعمام وأحفادهم».

ويضيف مشير الدولة يقول:

«بما أنه يجب أن نتحرىٰ الحقيقة في كتابة التاريخ، نقول: ان الحق في هذه المسألة هو أن زواج الأقارب الأرحام المسمىٰ «خوتك دس» كان امراً مستحباً لدىٰ الفرس القدماء؛ والظاهر أنهم كانوا يعللون هذا الأمر بحفظ البيوت والأسر وطهارة الاعراق والعناصر والدماء»[2].

ويقول اليعقوبي المؤرخ المعتبر للقرن الثالث الهجري ـ وهو من أصل ايراني ـ:

«وكانت الفرس... وتنكح الأمّهات والأخوات والبنات، وتذهب الىٰ أنها صلة لهنّ، وبرٌ

---

١ ـ ج٦، ص١٥٤٦، من كتاب «ايران باستان».

٢ ـ نفس المصدر، ج٩، ص٢٦٩٣.

بهن، وتقرّب الىٰ الله فيهن...»[1].

ويقول كريستن سن، بشأن نصارىٰ ايران:

«لقد اعتاد هؤلاء ـ تقليداً للفرس المجوس وخلافاً لدينهم ـ علىٰ زواج الأقارب والارحام. وسعىٰ في منعهم عنه «ماربها» الذي اصبح جاثليق نصارىٰ ايران عام ٥٤٠م سعياً حثيثاً»[2].

ولقد كان هذا الأمر رائجاً بين المجوس في صدر الاسلام.

فقد روي أن رجلاً سبّ مجوسياً بحضرة أبي عبد الله عليه السلام، فزبره ونهاه عن ذلك. فقال: انه تزوج بامّه! فقال عليه السلام: أما علمت أن ذلك عندهم النكاح؟»[3].

وجاء في روايات ابواب الحدود: «عن أبي الحسن الحذّاء قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فسألني رجلٌ: ما فعل غريمك؟ قلت: ذاك ابن الفاعلة! فنظر اليّ ابو عبد الله عليه السلام نظراً شديداً، قال: فقلت: جُعلت فداك! انه مجوسي امّه اخته! فقال عليه السلام: أو ليس ذلك في دينهم نكاحاً؟!»[4].

وروى الشيخ الصدوق (ره) في كتابه (التوحيد) خبراً رواه الحرّ العاملي (قده) ايضاً في الوسائل في ابواب النكاح، ابواب ما يحرم بالنسب، الباب الثالث: تحريم الاخت مطلقاً، الحديث الثالث: «وفي الأمالي وكتاب التوحيد... عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام، في حديث: أن الأشعث قال له: كيف يؤخذ من المجوس الجزية ولم ينزل عليهم كتاب ولم يبعث اليهم نبي؟!

فقال عليه السلام: «بلىٰ يا أشعث: قد أنزل الله عليهم كتاباً وبعث اليهم نبياً. وكان لهم ملك، سكر ذات ليلة فدعا ابنته الىٰ فراشه فارتكبها. فلما اصبح تسامع به قومه، فاجتمعوا الىٰ بابه وقالوا: اخرج نطهّرك ونقم عليك الحدّ!

---

١ ـ اليعقوبي، ج ١، ص ١٧٤، ط بيروت.

٢ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٤٤٨.

٣ ـ وسائل الشيعة، ج ١٧، ص ٥٩٦، ج ٢، باب عن التهذيب، ح ٩، ص ٣٦٥، ح ٢، والاستبصار ج ٤، ص ١٨٩.

٤ ـ وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٤٣٠، ح ٣، باب عن فروع الكافي، ج ٧، ص ٢٤٠، ح ٣ والتهذيب، ج ١٠، ص ٧٥، ح ٥٣.

فقال: هل علمتم أن الله لم يخلق خلقاً أكرم عليه من أبينا آدم وحوّاء؟ قالوا: صدقت، قال: أليس قد زوّج بنيه، من بناته وبناته من بنيه؟ قالوا: صدقت، هذا هو الدين!

فتعاقدوا علىٰ ذلك. فمحا الله العلم من صدورهم، ورفع عنهم الكتاب، فهم الكفرة يدخلون النار بلا حساب... والمنافقون أسوأ حالاً منهم...»[1].

ويفهم من هذه الروايات، أن المجوس كانوا يفعلون هذا في صدر الإسلام، ولهذا فقد اصبحت هذه المسألة مورداً للبحث والتساؤل في الفقه الإسلامي، وعرضها وبحث فيها فقهاء الإسلام شيعة وسنة من ايرانيين وغيرهم، في مختلف ابواب الفقه، كمسألة حية لها مصاديق واقعية خارجية، ولقد كان اكثر هؤلاء الفقهاء ايرانيين من الفرس، بل كان آباء بعضهم من مجوس الفرس أيضاً كأبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي المجوسي الاصفهاني الذي أُسر في كابل افغانستان. ولو لم يكن هذا الأمر رائجاً بين الزرادشتيين، لم تكن تطرح هذه المسألة في كتب الفقه الإسلامي في ذلك العهد.

ولقد عرض الشيخ الكبير ابو جعفر الطوسي (قده) في كتاب «الخلاف في الفقه» كتاب الفرائض، ج ٢، مسائل ترتبط بميراث المجوس، ولاسيما حينما يكون المجوسي المسلم وارثاً بعنوانين، اي مثلاً يكون الوارث اماً للمتوفي واختاً له من ابيه، او اخت ابيه، وعرض آراء سائر الفقهاء ايضاً، من مسألة (١١٩ الىٰ ١٢٣).

ان انكار وجود هذه السنة المجوسية بين المجوس اليوم يُعدّ من قبيل انكار البديهيات، الا أن الزرادشتيين المتأخرين يحاولون أن يعيدوا النظر مرة اخرىٰ في تاريخ هذا الدين، فيجددوا بعض نظرياتهم ويصلحوها، في اصول دينهم وفروعها، ولذلك فهم قد أباحوا لانفهسم الكذب المصلحي الكثير.

التعلم والتعليم للمرأة

علىٰ الرغم من أن المرأة كانت في وضع سيء انذاك الا أننا خلال التاريخ نمرّ علىٰ حوادث وتراجم، تكشف لنا عن حصول المرأة في بعض الاحيان علىٰ منزلة شامخة من

---

١ ـ وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٧٦، ح ٣، باب ٢، عن الأمالي للصدوق ص ٢٠٦، وعن التوحيد له ص ٢٢٨ ـ ٣٢١.

التعليم العالي لذلك العهد.

ويأتي الباحثون باسم كتاب حقوقي من ذلك العهد يسمّىٰ «ماديگان هزار دادستان» ويعني: «أخبار ألف فتوىٰ للقضاء» ويوجد الآن قسم من هذا الكتاب، ترجمه ونشره بارتلمه احد الباحثين الغربيين. ونجد في هذا القسم اسماء عدد من قضاة ذلك العهد.

ولقد كان المرجع الحقوقي لذلك العهد اوستا وزند اوستا.

وقد جاء في هذا الكتاب قصّة تقول:

«بينما كان احد القضاة في طريقه الىٰ المحكمة أحاط به خمس نساء، سألته احداهن مسائل ترجع الىٰ بعض الموارد الخاصة من باب الرهن وباب الضمان، وحينما أتت علىٰ آخر سؤال لها لم يستطع القاضي اجابتها، فقالت احداهن: ايها الاستاذ! لا تتعب نفسك في هذا الباب وقل بلا خجل: لا أعرف! فإننا سنجد الإجابة، في الشرح الذي كتبه «گلوگان اندرزبذ»[1].

فهل يمكن لهذه القصة أن تكون دليلاً علىٰ تمتع نساء ذلك العهد بتعاليم عالية؟

حسب ما بحثه بارتلمه في حقوق المرأة في العهد الساساني، والذي اصبحت بحوثه أساساً لنظريات كريستن سن، نقول: إن المرأة في بعض البيوت الممتازة كانت تتمتع احياناً بتعليم عالٍ، اي ان الحياة الطبقية كانت تسودهم بهذا الخصوص أيضاً، كسائر الموارد والمواضيع. كما نجد أن بنتين من خسرو پرويز، اصبحتا ملكتين لفترة قصيرة من اواخر العهد الساساني. ولقد كان اختيارهم للحكم ، بسبب العقيدة السائدة في الفرس إذ ذاك وتتمثل بالبذرة الملوكية! إذ كانوا يتصورونهم من عنصر سماوي بل ربّاني! ولقد أوصل اردشير بابكان ـ مؤسس اسرة الساسانيين ـ نسبه بقدماء ملوك الفرس كي لا يؤخذ عليه أنه ليس من «بذرة الملوك»! ولقد ادعىٰ الملوكية في الاضطرابات بعد خسرو پرويز رجلان لم يكونا من «بذرة الملوك»، ولذلك فلم يدوما كثيراً، وانّما تمكنت بنتا خسرو پرويز في هذا العهد نفسه من الوصول الىٰ العرش؛ حيث كان ابن خسرو پرويز قد قتل جميع اخوانه السبعة عشر علىٰ عهد ابيه! فلم يبق من بذرة الملوك إذ ذاك احد، سوىٰ

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٤٤٠.

هاتين البنتين من اخواته. فلا ينبغي الخلط بين العقيدة السائدة بالدم والعنصر، ومسألة حقوق المرأة في ذلك العهد البائد؛ ولا يمكننا أن نجعل ما توصل اليه پوران وازرمي دخت، ولا المعلومات العالية لعدد من نساء الطبقات الممتازة، مقياساً نقيس به حقوق المرأة في ذلك العهد بشكل عام.

ويقول كريستن سن:

«ان ما بايدينا من المصادر التاريخية لا يعطينا شيئاً عن تعليم المرأة. ويخمن بارتلمه: أن تعليم المرأة كان اكثر ما يرتبط باصول ادارة البيت. وان كتاب «نسك بغ» يبحث حول تعليم المرأة فنون ادارة البيت. ومع ذلك كان بعض نساء البيوت الممتازة تحصل علىٰ تعليم عالٍ».

ويبحث كريستن سن في الفصل السابع من كتابه حول نهضة المزدكية فيقول:

«اننا نجد في الوصف الذي اعطيناه عن الوضع الحقوقي للمرأة في عهد الساسانيين المبني علىٰ بحوث بارتلمه تناقضاً كثيراً؛ والسبب في ذلك هو: أن الوضع القانوني للمرأة في عهد الساسانيين لقي تطوراً كثيراً وكبيراً. يقول بارتلمه: ان حقوق المرأة في هذا العهد كانت تتبع حقوق الآخرين، وبعبارة اخرىٰ يقول: انها لم تكن ذات شخصية حقوقية وقانونية مستقلة. الا أن هذا كان نظرياً فقط، وأما عملياً: فقد كانت ذات حقوق اكيدة. إن الأحكام القديمة كانت باقية في عهد الساسانيين الىٰ جانب القوانين الجديدة، ومن هنا جاء هذا التناقض الظاهر. ان المرأة في ايران قبل فتح المسلمين، كانت علىٰ أبواب الاستقلال الحقوقي والقانوني»[1].

النظام الأخلاقي

ان اردنا أن نعرف مدىٰ الأخلاق العامة لعموم الناس في ايران القديم، لم نجد مصادر مباشرة وكافية. الا أننا نستطيع أن نستنتج من مجموعة من القرائن التاريخية درجة الاخلاق العامة اذ ذاك؛ فنقول:

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٥٤.

تنقسم الاخلاق الىٰ قسمين: طبيعية واكتسابية...

أما الاخلاق الطبيعية للأمة: فهي الخصائص العنصرية والاقليمية لها؛ اذ كما أن الوراثة والمحيط الطبيعي والجغرافي تؤثر في الخصائص البشرية الجسمانية من: لون البشرة والعيون والشعر والطول والوزن، كذلك تؤثر في الخصائص الروحية والاخلاقية بفارق واحد؛ هو: أن العامل العنصري الوراثي يزول اثره بالاختلاط والامتزاج والتزاوج والانتقال والهجرة. أما العامل الجغرافي والاقليمي فانه يتمتع بنوع من الثبات والاستقرار؛ فاننا نجد أن صفات العاطفة والرحمة والشفقة وحبّ الضيف وسرعة الخاطر وصيانة العرض، من الخصائص التي كان الايرانيون ولا يزالون يوصفون بها.

ان الاخلاق الاكتسابية ترتبط بدرجة الحضارة لدىٰ الأمة، الحضارة والثقافة الانسانية والروحية المعنوية لا الفنية والصناعية. وهي ترتبط من طرف بكيفية التربية والتعليم، ومن طرف آخر بالنظام الاجتماعي والسنن السائدة في المجتمع. وان عامل التربية والتعليم له اثر مباشر أما عامل البيئة الاجتماعية فتأثيره غير مباشر. وان قسماً مهماً من الاخلاق العامة، هو رد فعل لروحية الافراد امام الحوادث التي تمر في بيئتهم ومجتمعهم، ولا سيما القوانين والسنن الحاكمة علىٰ حياتهم.

أما الايرانيون فقد كان ولا يزال لهم مقام سام، من حيث الأخلاق الوراثية والطبيعية الاقليمية؛ وقد مدحوا منذ أقدم العهود بخصائص سامية فيهم.

أمّا هيرودوت المؤرخ اليوناني الشهير في القرن الخامس قبل الميلاد، والذي يلقب «بأبي التاريخ» والذي أصله من آسيا الصغرىٰ؛ فقد وصف الفرس القدماء وصفاً شاملاً تقريباً، وصفه يشتمل علىٰ مجموعة من المحاسن والاضداد، الا انه يمكننا القول: ان المحاسن في وصفه اكثر من المساوئ[1].

وكزنفون تلميذ سقراط الذي عاش بعد قرن من هيرودوت تقريباً، هو الآخر ممن وصف الفرس القدماء، الا أنه عاصر دور الانحطاط في ايران، فأخذ يقيس أخلاق الفرس في عهده بأخلاقهم علىٰ عهد كوروش، ويشرح ما حدث من التغير في اخلاق الفرس

---

١ ـ يراجع: تاريخ ايران باستان ـ لمشير الدولة، ج٦، صفحات: ١٥٣٤ ـ ١٥٣٦.

على عهده[1].

اننا لو قارنّا بين الاخلاق الطبيعية للايرانيين، مع سائر الأمم لوجدناهم ليسوا اقلّ من سائر الأمم، ان لم يكونوا اقدم واسبق، ولكنّا نكف عن نقل خصائص الروح الايرانية ـ الحسنة والسيئة ـ خوف الاطالة.

وقد ورد الثناء في الروايات والاحاديث الإسلامية على الخلق الايراني، لا سيما من ناحتين: حب المعرفة، والتحرر الفكري فيه.

قال الله سبحانه ﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾[2].

وقال الامام ابو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام في ذيل هذه الآية: «لو نزل القرآن على العجم ما آمنت به العرب، وقد نزل على العرب فآمنت به العجم. فهذه فضيلة العجم»[3].

وقال عليه السلام: «... من دخل في الاسلام رغبة خير ممن دخل رهبة؛ ودخل المنافقون رهبة؛ والموالي دخلوا رغبة...»[4].

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم:

«رأيت غنماً سوداً دخلت فيها غنم كثير بيض. فقالوا: فما اوّلته يا رسول الله؟

قال: العجم يشركونكم في دينكم وأنسابكم. قالوا: العجم يا رسول الله؟! قال: لو كان الايمان معلقاً بالثريا لناله رجال من العجم»[5].

وقد خصص كريستن سن صفحات من كتابه بالكلام عن اخلاق الايرانيين، يقول فيه:

---

١ ـ يراجع: تاريخ ايران باستان ـ لمشير الدولة، ج٦، ص١٥٣٧ ـ ١٥٤٢.

٢ ـ الشعراء: ١٩٩.

٣ ـ سفينة البحار، ج٢، ص١٦٤، عن تفسير الصافي للفيض الكاشاني. وكلمة العجم تشمل كل غير عربي، سواء كان ايرانياً أو غير ايراني، الا أن الظاهر أن المراد من العجم في هذا الحديث هم الفرس، وعلى أي حال فهم من العجم ان لم يكونوا أول من يقصد بالعجم، في مقابل العرب بصورة مطلقة ـ المؤلف.

٤ ـ نفس المصدر، ج٢، ص٦٩٣.

٥ ـ نفس المصدر، ج٢، ص١٦٥.

«ان المجتمع الايراني ـ كما عرفه المؤرخون الغربيون من امثال اميانوس مارسلينوس[1] وبروكپيوس[2] ووصفوه لنا ـ لا نصفه نحن الا أنه مجتمع طبقي صرف، فقد كان الاشراف هم المعروفين فيه، وهم الذين كانوا يصورون وجهة الأمة الايرانية، بينما هي وجهتهم فقط».

ان الوصف الذي نقله كريستن سن عن المؤرخ اميانوس مارسيلنيوس، يرتبط بطبقة الاشراف فقط، ومن الطبيعي أن ترجح الصفات والخصائص السيئة فيهم علىٰ المحاسن، فليس فيهم صفات سامية، ولا نرىٰ من الضروري أن ننقلها هنا.

ويقول كريستن سن:

«ان المؤرخين العرب يثنون علىٰ الدولة الساسانية التي كانت نموذجهم للسياسة، ولا يذكرون الفرس الا بالعظمة» وينقل هنا نصاً عن كتاب يسميه «خلاصة العجائب(؟) يقول:

«كان العالم يذعن بتفوق الايرانيين، ولا سيما في تدبير الدولة والحروب، وفنون الصباغة، والأطعمة، والأدوية والعقاقير، والملابس، وتأسيس المدن، ووضع الأشياء في مواضعها، والشعر والنثر والخطابة والارتجال، وقوة العقل والكمال، وكمال الطهارة والتقوىٰ، والثناء علىٰ ملوكهم... فقد كان لهم تفوق في جميع هذه الأمور لدىٰ جميع امم العالم بصورة متسالم عليها. وان تاريخ هذه الأمة لعبرة لمن اراد أن يعترف كيف ينظم شؤون الدولة».

ومن العجيب من كريستن سن أنه بعد نقل كل هذا يقول:

«ان الايرانيين احتفظوا طوال قرون طويلة بمقام الامامة في الأمور المعنوية لانفسهم، الا أنهم ضعفوا في سياستهم واخلاقهم بعد سقوط الدولة الساسانية. وليس سبب هذا الضعف ـ كما تصور بعضهم ـ أن دين الاسلام ـ كان من جهة المباني الأخلاقية ـ أقل وادنىٰ من الدين الفارسي المجوسي، بل ان من احدىٰ علل انحدار الأمة الايرانية في اخلاقها هو الوضع العام للحكومة، التي قامت بينهم بالاسلام، فقد ذابت طبقة النجباء شيئاً

---

١ ـ المؤرخ الرومي المعاصر للساسانيين في القرن الرابع الميلادي.

٢ ـ المؤرخ الرومي المعاصر لقباد وأنوشيروان من الساسانيين.

فشيئاً بين سائر الطبقات العامة، وبذلك ضعفت تلك الصفات التي كانوا يمتازون بها».

وان الذي يعنيه كريستن سن من الأخلاق التي جاء بها مع السياسة، هو الأخلاق السياسية التي تختلف مع الأخلاق الانسانية الىٰ حد التناقض احياناً. وان سقوط طبقة النجباء وضعف خصائصهم التي امتلكت بها الحكومة والقدرة والثروة واستأثرت بحقوق العامة واستثمرتهم في خدمة مصالحها، والتي اقامت علىٰ هذا الأساس حكم قاهر... ان سقوط كل هذا لمن المؤسف حقاً في الأخلاق السياسية التي نظر كريستن سن هنا من زاويتها. أما في المنطق الانساني والاخلاق الانسانية فإن سقوط طبقة الأشراف وانفتاح المجال لحكم العامة لمما يبهج القلوب، لا مما يؤسف له.

وليس بأيدينا معلومات عن وضع التربية والتعليم في العهد الساساني، ومهما كان فهو لم يتحقق علىٰ أيدي «الهرابدة» فقط، وهم انما كانوا يعلمون الناس كتاب اوستا فحسب.

ان المرآة التي بامكانها أن ترينا اخلاق قدماء الايرانيين أحسن من أية مرآة أخرىٰ، هي الأنظمة الاجتماعية والعائلية لذلك العهد. ان المجتمع الحضاري الايراني وكذلك الاسرة الايرانية لم يكونا اذ ذاك متوازنين؛ وقد بحثنا قبل هذا هذين الموضوعين بشيء من التفصيل.

وفي المجتمع غير المتوازن ينقسم الناس الىٰ طبقتين: اقلية واكثرية، اقلية متنعمة ومتمتعة، واكثرية فقيرة معوزة. والطبقة المتنعمة والمتمتعة تتصف بموجب حالها بنوع من الاخلاق، والطبقة الفقيرة تتصف بنوع آخر من الاخلاق، وكلا النوعين لا يكونان من الأخلاق الانسانية المتوازنة في شيء فالطبقة المتمتعة في مثل هذه المجتمعات تكون عادة طبقة مترفة مسرفة، مبذرة خائفة، مغترة وراضية عن نفسها، تستأثر ولا تعمل، لا تقاوم ولا تصبر. كما نرىٰ هذه الأوصاف قليلاً أو كثيراً، في منقولات اميانوس مارسيلينوس بشأن النجباء. أما الطبقة الفقيرة ففي مثل هذه المجتمعات تتصف بسوء الظن والحقد والعصيان والنية السيئة بالآخرين والانتقام منهم، وتعتقد بالتنصيب والصدفة، وتنكر العدل والنظام في العالم.

ان القواعد التي تحكم المجتمعات البشرية تقتضي ما قلناه، وان لم يصف مؤرخ عامة

الناس في ايران اذ ذاك بما وصفناه.

كانت الضرائب تؤخذ في ايران علىٰ الرؤوس، لكن الطبقة التي كان يجب أن تطالب بها اكثر من غيرها كانت تعفى منها تماماً. وحتىٰ أنوشيروان الذي أعاد النظر في وضع الضرائب واصلح بعضها مع ذلك استثنىٰ منها: الكبراء والنجباء والجنود ورجال الدين والكتاب وموظفي الدولة[1].

ومن البدهي أن هذه الاستثناءات والتمييزات كانت تغضب الطبقة التي كان عليها أن تدفع الضرائب وتجرها الىٰ التمرد والعصيان.

ونستطيع أن نصل الىٰ أخلاق عامة الناس في ذلك العصر من خلال بعض الحوادث:

فقد كتب ابن الأثير يقول:

«ثم سار فنزل بكوثي، فأتي برجل من العرب، فقال له: ما جاء بكم وماذا تطلبون؟ فقال: جئنا نطلب موعود الله بملك ارضكم وابنائكم ان ابيتم أن تسلموا. قال: رستم: فإن قتلتم قبل ذلك! قال: من قتل منا دخل الجنة، ومن بقي منّا انجزه الله ما وعده، فنحن علىٰ يقين.

فقال رستم: قد وضعنا اذن في ايديكم! فقال: اعمالكم وضعتكم فاسلمكم الله بها، فلا يغرنّك من ترىٰ حولك، فانك لست تجاول الإنس، انّما تجاول القدر. فضرب عنقه ثم سار فنزل البرس، فغصب اصحابه الناس ابناءهم وأموالهم ووقعوا علىٰ النساء وشربوا الخمور، فضجّ اهلها الىٰ رستم، فقال: يا معشر فارس! والله لقد صدق العربيّ، والله ما اسلمتنا الا أعمالنا، والله أنّ العرب مع هؤلاء، وهم لهم حرب، أحسن منكم، إن الله كان ينصركم علىٰ العدوّ ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكفّ الظلم والوفاء والاحسان، فاذا تغيّرتم فلا أرىٰ الله الا مغيّراً ما بكم، وما أنا بآمن من أن ينتزع الله سلطانه منكم»[2].

أما صحيفة اعمال الاسلام في ايران

ان النظر في الصحائف السابقة اطلعتنا كيف كان وضع ايران حين قدوم الإسلام اليها،

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٣٩٠.

٢ ـ الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٥٩ ـ ٤٦٠ ط بيروت.

وكيف كان حالها، فيا ترىٰ ماذا أخذ منها وما اعطاها؟

اعيدوا النظر في ما سبق من المواضيع ترون: أن أول ما أخذه الإسلام من ايران هو: شتات من الأفكار والعقائد الدينية المختلفة، وأن اول ما أعطاها بإزاء ذلك هو: وحدة في العقيدة الصحيحة، وأن هذا الأمر تحقق لأول مرة في ايران علىٰ يد الإسلام فقط، ان الناس في وسط ايران وشرقه وغربه وشماله وجنوبه، الذين كان بعضهم من الآريين وبعضهم من الساميين، وكانوا ذوي لغات وعقائد مختلفة، وكان الرابط الوحيد الذي يجمعهم هو الحكم والقوة فقط.

... ان هؤلاء الناس، اعتنقوا لاول مرة في التاريخ فلسفة واحدة، وتبنّوا فكرة واحدة واتجهوا الىٰ أمل واحد ووجدوا لأنفسهم هدفاً واحداً، وساد بينهم شعور اخوي... وهذا وان تحقق في طول اربعة قرون، الا أنه تحقق واستمر حتىٰ اليوم شاملاً ٩٨ بالمئة من هذه الأمة. بينما حكم النظام الموبدي في ايران هذه المدة نفسها، وهو يسعىٰ دائباً في سبيل ايجاد وحدة عقائدية علىٰ أساس الزرادشتية، ولكنه لم يوفق قط في حين حصل الإسلام علىٰ هذا التوفيق بما فيه من قوة اقناعية في محتواه وقوة مغناطيسية في روحانيته ومعنويته، وان كان الحكم الإسلامي العربي قد انحسر عن ايران بعد قرنين من الزمن.

إن الاسلام اصبح سدّاً أمام توسع المسيحية في ايران وانتشاره في الشرق بصورة عامة. ونحن لا نستطيع أن نقول الآن كيف حال ايران لو دخلت المسيحية، الا أننا نتمكن من التخمين بأن حالها هو حال سائر الأمم والدول التي اعتنقت المسيحية. اي في ظلمات القرون المسيحية الوسطىٰ. إن ايران أصبحت ببركة اسلامها من حملة مشعل حضارة عظيمة اسمها الحضارة الاسلامية أو التمدن الاسلامي، في حين كانت الأمم المسيحية تغطّ في ظلمات القرون الوسطىٰ.

وهنا تساؤل يطرح نفسه علىٰ الفكر يقول: لو كان هذا من خصائص الاسلام وذاك من خصائص المسيحية فلماذا نرىٰ الأمر اليوم علىٰ العكس تماماً؟!

الجواب واضح: انهم تركوا المسيحية منذ سبعة او ثمانية قرون، ونحن تركنا الإسلام!

إن الاسلام كسر الحصار الديني والسياسي الذي كان قد فرض علىٰ ايران، فلم يكن

يقدر الايراني علىٰ ابراز استعداداته الفكرية بين سائر الأمم، ولم يكن يبيح لهذه الأمة أن تستفيد من نتائج افكار سائر الأمم المجاورة فضلاً عن البعيدة... وفتح الإسلام ابـواب سائر امم الأرض علىٰ ايران والايراني، وابواب ايران علىٰ حـضارات وثـقافات سـائر الأمم. وحصلت للايرانيين من هذه الأبواب المفتوحة نتيجتان:

احدهما: أنهم تمكنوا من أن يثبتوا للآخرين لياقتهم واستعداداتهم الفكرية، الىٰ درجة أن قبلهم العالم بالامامة في كثير من العلوم والفنون والصناعات.

وثانيتهما: انهم استطاعوا باطلاعهم علىٰ الثقافات والحضارات الاخرىٰ أن يسـهموا اسهاماً عظيماً في تكميل ونشر حضارة وثقافة انسانية عالمية باسم الإسلام.

ولهذا فنحن نرىٰ ـ من ناحية ـ لأول مرة في تاريخ هذه الأمة: أن الايرانـي اصـبح مرجعاً دينياً لغير الايراني؛ فمثلاً نرىٰ ليث بن سعد الايراني اماماً للمصريين، وأبا حنيفة الايراني اماماً أعظم لا نظير له بين أئمتهم؛ وابا عبيدة معمر بن مثنىٰ وواصل بن عـطاء وأمثالهم أئمة في الكلام والجدل والعقيدة، وسيبويه والكسائي امامي الصـرف والنـحو وآخرين أئمة في اللغة والبلاغة والأدب والتفسير والحديث واصوله والفقه واصولهَ وسائر الفروع الإسلامية.

ولا بأس أن ننقل هنا هذا الخبر:

روىٰ الشيخ محمد ابو زهرة في كتابه «ابو حنيفة حياته وعصره» يقول: «جاء في العقد الفريد لابن عبد ربّه ما نصه: قال لي ابن ابي ليلىٰ: قال لي عيسىٰ بن موسىٰ وكان دياناً شديد العصبية: من كان فقيه العراق؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن. قال ثم مـن؟ قـلت: محمد بن سيرين. قال: فما هما؟ قلت: موليان. قال فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء ابن ابي رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسلمان بن يسار. قال: ما هؤلاء؟ قلت: موال. قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن نجيح. قال: فـمن هؤلاء؟ قلت: موال. فتغير لونه ثم قال: فمن افقه اهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي وابن ابـي الزناد. قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي. فاربدّ وجهه ثم قال: فمن فـقيه اليـمن؟ قـلت: طاووس وابنه وابن منبه. قال: فمن هؤلاء؟ قلت: من الموالي. فانتفخت اوداجه وانتصب

قائماً وقال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت:عطاء بن عبد الله الخراساني. قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولىٰ فازداد وجهه تربّداً واسود اسوداداً حتىٰ خفته، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول قال : فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولىٰ فتنفّس الصعداء ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عتبة وحماد بن سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: ابراهيم النخعي، والشعبي، قال: فما كانا؟ قلت: عربيان فقال: الله أكبر! وسكن جأشه. وقد جاء مثل ذلك في «مناقب أبي حنيفة للمكي» في حديث جرىٰ بين عطاء وهشام بن عبد الملك وهذا نصه: «قال: دخلت علىٰ هشام بن عبد الملك بالرصافة، فقال: يا عطاء! هل لك علم بعلماء الانصار؟ قلت: بلىٰ يا أمير المؤمنين! فقال: من فقيه أهل المدينة؟ قلت: نافع وهل نافع مولى ام عربي : هو مولى ، قال: فمن فقيه أهل مكة؟ قلت: عطاء ابن ابي رباح. قال: أمولىٰ أم عربي؟ قلت: لابل مولىٰ. قال: فمن فقيه أهل اليمن؟ قلت: طاووس بن كيسان. قال: مولىٰ أم عربي؟ قلت: لا، بل مولىٰ. قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟ قلت: يحيىٰ بن كثير. قال: مولىٰ أم عربي؟ قلت: لا، بل مولىٰ. قال: فمن فقيه أهل الشام؟ قلت: مكحول. قال: مولىٰ أم عربي؟ قلت: لا، بل مولىٰ. قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهمان. قال: مولىٰ أم عربي؟ قلت: لا، بل مولىٰ. قال: فمن فقيه خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم. قال: مولىٰ أم عربي؟ قلت: لا، بل مولىٰ. قال: فمن فقيه أهل البصرة؟ قلت: الحسن وابن سيرين. قال: موليان أم عربيان؟ قلت: لا بل موليان. قال: فمن فقيه أهل الكوفة؟ قلت: ابراهيم النخعي قال: مولىٰ أم عربي؟ قلت: عربي قال: كادت تخرج نفسي ولا يقول واحد عربي»[1].

---

١ ـ ابو حنيفة حياته وعصره، ص١٤ ـ ١٥، والخبر الأول في العقد الفريد ج٢، ص٢٦٢، ط الأزهرية. والخبر الثاني في مناقب أبي حنيفة للمكي، ص٦، ط استانبول. لكلمة المولىٰ في اللغة العربية معان متعددة بل اضداد؛ فمثلاً: يطلق المولىٰ علىٰ السيد المطاع، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» وكذلك يطلق علىٰ العبد المطيع. والمعنىٰ الجامع له هو القرب والصلة ومن موارد اطلاقه: ولاء العتق، فكان يطلق المولىٰ علىٰ العبد المحرر بل وعلىٰ اولاده ايضاً، كما كان يطلق علىٰ مولاه المحرر (بالكسر) وكان يطلق ايضاً علىٰ من كان يتحالف مع القبائل العربية من العرب وغيرهم حلفاً تتعهد بموجبه القبيلة العربية بحمايته والدفاع عنه كأحد افرادها.
وأطلق المولىٰ علىٰ العجم الايرانيين لأن اجداد بعضهم كان عبداً محرراً، او كان متحالفاً مع العرب، وسرىٰ هذا

فمتىٰ اتيحت الفرصة هكذا للشخصية الايرانية أن تجد فخر الامامة الدينية لمختلف الدول من الحجاز والعراق واليمن والشام والجزيرة ومصر وغيرها؟ وقد توسعت منطقة هذه الامامة فيما بعد هذه الفترة.

والعجيب أن السيرجان ملكم الانجليزي، يطلق علىٰ هذه القرون الاسلامية الاولىٰ: قرون جمود الايرانيين وركودهم وخمودهم، بينما هي قرون تفتحت فيها ذهنية الايرانيين العلمية والمعنوية بعد ركود طويل!

ان السيرجان ملكم يريد أن ينظر الىٰ القضايا بنظارة العصبيات العنصرية والسياسية التي كان يدعو اليها المستعمرون في القرن التاسع عشر للميلاد: فالذي يحكم له او عليه السيرجان ملكم هو أن يرىٰ من الذي يحكم الأمة ومن أي عنصر أو دم؟! أما الذي لا يحسب له حساباً فهو حالة الأمة ووضعها، وما الذي خسرته وما ربحته بازائه.

ان السيرجان ملكم واضرابه لا يأسفون ان يروا الحجاج يقتل الناس ويظلمهم؛ وانما يأسفون ـ بل يتظاهرون بالأسف ـ فيما اذا كان هذا الحجاج عربياً، فيتأسفون لماذا لم يكن هذا ايرانياً، او لماذا لم يفعل هذه الافعال نفسها رجل من ايران بمكانه!

ان النظر في تاريخ ايران بعد الاسلام رائع جدّاً؛ اذ يرينا تلك الثورة التي ظهرت بين الايرانيين في النواحي العلمية والثقافية والحضارية، حيث كانوا كالعطاشيء المحرومين من الرواء يغتنمون الفرص المتاحة للانتهال من زلال العلوم، واستطاعوا بالتالي أن يظهروا استعداداتهم، ولاول مرة قبلت الأمم امامتهم عليها، وقد استمرت هذه الامامة في الجوانب العلمية والدينية والفقهية عند العلماء الايرانيين حتىٰ القرنين السادس والسابع الهجريين.

هذا كله من ناحية...

ومن ناحية اخرىٰ: فقد سببت هذه الابواب المفتوحة في فتح السبيل لدخول الثقافات اليونانية والهندية والمصرية وغيرها الىٰ هذه الأمة، بالاضافة الىٰ الثقافة والعلوم

فاطلق المولىٰ علىٰ جميع الفرس. أما ادعاء بعضهم من أن العرب كانوا يطلقون كلمة الموالي علىٰ الايرانيين لأنهم كانوا يرونهم عبيداً طلقاء، فهذا خطأ قطعاً ـ المؤلف.

الاسلامية العربية، مما وفّر للأمة بناء حضارة وثقافة اسلامية عظيمة، وهيأ لها ارضية مساعدة لانفتاح ذهنية مئات من العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخين والرّحالة والرياضيين والأطباء والطبيعيين، كأبي علي بن سينا والفارابي وأبي ريحان البيروني والخواجة نصير الدين الطوسي وصدر الدين الشيرازي والخيام الطوسي وغيرهم...

ومن المضحك أن يقول پورداود:

«... انه لو لم تدخل الثقافة العربية الىٰ امتنا مع الحملة العربية (!) وكان علماؤنا كالخيام وأبي علي يكتبون كتبهم علىٰ نهج كتاب «دانشنامه » لأبي علي وكتاب «نوروزنامه» لكانت اللغة الفارسية اليوم اغنىٰ واوسع»[1] !

وأنا اقول: لو لم تكن حملة هؤلاء العرب (علىٰ قول الخصم) واستمر ذلك الحصار الذي جرّه الموابدة علىٰ الاستعدادات الايرانية، فهل كان يظهر بين هؤلاء العجم(!) كالخيام وأبي علي، حتىٰ يكتبوا «دانشنامه» و«نوروزنامه» ومئات من الكتب الاخرىٰ؟! ان هذه الآثار التي خلفها هؤلاء العلماء الايرانيون وقدموها الىٰ العالم بالعربية والفارسية، انما هي من آثار تلك الحملة العربية نفسها(!) التي كان من أثرها كسر ذلك الطوق المفروض علىٰ الأمة من الموابدة والهرابدة، والتي اطلع علىٰ أثرها الايرانيون علىٰ ثقافة دينية غنية ترىٰ طلب العلم فريضة علىٰ الأمة.

ان مقال پور داود يشبه أن نقول: لو لم تسطع الشمس علينا في النهار وتؤذينا بحرارتها لكنا نعمل براحة أكثر! في حين لو لم تطلع الشمس فلا نهار أيضاً.

ان فتح ابواب الثقافة الإسلامية وابواب سائر الثقافات، لم يكن من نتاج كسر القلاع الخارجية المضروبة علىٰ هذه الأمة فقط، بل كان هناك عامل آخر هو رفع المانع عن طلب العلم الذي كان قد وضعه النظام الموبدي الطبقي سداً أمام افراد هذه الأمة. اذ لم يكن الإسلام يعرف شرفاء وأعيان ممتازين عن غيرهم بخصائص خاصة، ولم يكن يقصر طلب العلم والمعرفة علىٰ طبقة رجال الدين أو أية طبقة اخرىٰ، فقد كان الإسلام يرىٰ للاسكافي والكواز الحق في طلب العلم بالمقدار نفسه، الذي يراه لابناء الأئمة والملوك

---

١ ـ نقلاً عن جريدة اطلاعات في العدد: ١٢٧٤٥، بتاريخ ٢٩ آبان ١٣٤٧هـ. ش.

.بل ان النوابغ غالباً يظهرون من بين ابناء الاسكافيين والكوازيين اكثر من ابناء الملوك والقصور. ان رفع هذا المانع من الداخل وكسر ذلك الطوق من الخارج تسبّبا في احراز الايرانيين مكانتهم السامية في بناء حضارة اسلامية عالية، وفي امامة الأمة في الفقه والعلم والدين.

ان الاسلام عرّف الايراني بنفسه وبالعالم، وتبيّن للعالم خطأ ما كان يقال عن الايراني أن لاذوق له في المسائل العلمية وانما هو رجل حرب وسياسة... فقد تبيّن للعالم أن تأخره عن بعض العلوم في بعض الادوار التاريخية، لم يكن من نقص في استعداده، وانما كان ذلك من حصره في النظام الموبدي؛ ولهذا فانه كشف عن نبوغه العلمي في العهد الإسلامي الىٰ أبعد الحدود.

ان النظام الموبدي الذي خنق الافكار قبل الإسلام، جعل بعض الغربيين يخطئون فيرون أن ذلك من قصور في الفكر الفارسي؛ يقول غوستاف لوبون:

«ان أهمية الايرانيين في سياسة العالم كانت اهمية عظمىٰ، لكن ليست لهم أية اهمية في تاريخ التمدن والحضارة الانسانية(!) انهم اوجدوا امپراطورية عظمىٰ في قرنين من الزمن علىٰ القسم الأعظم من العالم، لكنهم لم ينشئوا ايّ شيء في العلوم والصناعات والفنون والأدب، ولم يضيفوا ايّ شيء إلىٰ كنوز العلوم والمعارف التي توارثوها من الأمم المفتوحة لهم... ان الايرانيين لم يكونوا مبدعين وانما كانوا يحملون حضارة خاصة اقتبسوها من غيرهم، ولهذا فان اسهامهم في ايجاد الحضارة العالمية قليل»[1].

ويقول المؤرخ الفرنسي كلمان هوار:

«ان ايران كانت مملكة عسكرية وكان من المحال أن توجد فيها علوم وفنون وصناعات، والطبيب اليوناني الذي تربّىٰ في مدارس مناطق البحر الأبيض المتوسط كان المثل الوحيد للعلم في ايران (!) كما أن اصحاب الفنون الأجانب من اليونانيين والليديين والمصريين كانوا ممثلين لصناعاتهم في ايران، كما أنّ أصحاب الحساب في ايران كانوا

---

١ ـ نقلاً عن كتاب «خلقيات ما ايرانيان ص٩٣» للسيد محمد علي جمال‌زاده عن كتاب «تمدنات قديمي» لغوستاف لوبون ـ بالترجمة.

آراميين وكلدانيين وساميين»[1].

ويقول ژ. راولينسون في كتابه:

«ان قدماء الايرانيين لم يسدوا اية خدمة في سبيل تطوير العلوم والمعارف؛ فلم يكن بين هذه الأمة والبحوث التي تستلزم الصبر والتأني والتعب الذي يكون منشأ لتقدم العلوم، أية رابطة أو علاقة... ان الايرانيين كانوا من اول ملكهم الىٰ آخره لا يهتمون بطلب العلوم، وكانوا يتصورون أن بناء قصور في شوش وتخت جمشيد، يكفي لتثبيت قوتهم التي كانت تسيطر علىٰ العالم..»[2].

لاشك في أن هذه الافكار تنشأ من سوء النظر الىٰ الأمة الايرانية؛ اذ لا ينبغي أن يروا النقص ناشئاً من نقص في استعداد هذه الأمة، وأن لا يلقوا بتبعة النظام الموبدي علىٰ عاتق الايراني واستعداداته الذاتية. هذا فضلاً عن أن وصف الامة الايرانية بهذه الاوصاف انما هو مبالغة. وسنبحث فيما بعد عن أصالة الحضارة الفارسية الايرانية.

والدليل علىٰ أصالة هذه الحضارة والثقافة، هو أن هذه الأمة جهدت نفسها للاسهام في تنمية الثقافة والحضارة في العهد الإسلامي الىٰ أعلىٰ المستويات.

وغوستاف لوبون وكلمان هواروراولينسون انفسهم يعترفون بهذا، الا أنهم يطلقون علىٰ ما حصل في هذا المجال: الحضارة العربية، في حين أن الحضارة الإسلامية كما أنها ليست ايرانية ولا هندية كذلك هي ليست عربية.

إن الإسلام اثبت أن هذا التصور بشأن الايرانين تصور خاطئ، فقد اظهر الاسلام استعداد الايرانيين لانفسهم وللعالم، وبعبارة اخرىٰ نقول: ان الايراني كشف عن نفسه بسبب الإسلام ثم عرّفها الىٰ العالم ايضاً.

وإلّا، فلماذا لم يصبح بعض الايرانيين قبل الاسلام، أئمة روحيين من امثال: ليث بن سعد ونافع وعطاء ويحيىٰ ومكحول ومئات آخرين من شعوب مصر والعراق والشام واليمن والحجاز والمغرب والجزائر وتونس والهند وپاكستان واندونيسيا وحتىٰ أسپانيا

---

١ ـ نفس المصدر، ص١٠٨.

٢ ـ نفس المصدر، ص ٨٢.

والاندلس وأقسام من اوروبا؟ ولماذا لم تظهر بينهم اذ ذاك شخصيات علمية امثال: محمد بن زكريا الرازي والفارابي وابن سينا وغيرهم؟

ان الإسلام حينما دخل الىٰ ايران شكل بالنسبة الىٰ عموم الأمة الايرانية ثورة بيضاء بما لهذه الكلمة من معنىٰ وخصائص، وان كان هو بالنسبة الىٰ القوىٰ السياسية والدينية الحاكمة حملة عسكرية فاتحة قاهرة.

ان الاسلام غيّر من وجهة النظر الايرانية الىٰ العالم: فقد ابصر عن فكره جميع الخرافات الثنوية، وما كان ينشأ عنها من سوء النظرة والتشاؤم، تلك الثنوية التي كانت تعد من خصائص الفكر الفارسي الايراني، والتي مضىٰ عليها عند الايراني آلاف من السنين كما يقولون، والتي حاربها زرادشت نفسه فانهزم دينه امامها، بل وتلوث دينه بعده بها... اجل ان الإسلام أخرج هذه الثنوية من فكر الايرانيين وغسل أدمغتهم منها.

وماذا تأتي به ثورة مباركة؟ اليس اسمىٰ ما تقوم به هو أن تغير من وجهة النظر الىٰ العالم ما هو سيِّيء مقيت، وتعطي للانسان عوضها هدفاً وبرنامجاً وايدولوجية، وتغيّر من أفكاره وعقائده الباطلة، وتقلب المقاييس الاجتماعية الخاطئة، وأن تكون كما عبّر القرآن عن القيامة ﴿خافضة رافعة﴾ فتخفض المتعالي بالباطل وترفع المتسافل ظلماً الىٰ الأعلىٰ، وتغير الاخلاق الىٰ صورة مؤثرة نابضة بالحياة والنشاط، وتنفث روح العصيان أمام المخلوقين بطاعة الخالق، وتخلق فيهم ثورة الايمان بالحق الصراح، وتجري في عروق الامة دماً جديداً... اليس كل هذه من خصائص الثورة المباركة؟. اليس جميع هذا جاء بالاسلام في ايران؟!

يقولون: السيف! أجل السيف! أما ماذا صنع سيف الإسلام؟! ان سيف الإسلام كسر ظهر السلطات الشيطانية في ايران، وقصم ظهر النظام الموبدي المشؤوم، ورفع الاغلال عن ما يقارب من مئه واربعين مليوناً من البشر المستعمرين بها، واعطاهم الحرية... اجل ان سيف الاسلام كان ينزل علىٰ رؤوس الظالمين، دفاعاً عن المظلومين وقطع ايدي الجبارين... نعم ان سيف الاسلام كان في خدمة المظلومين والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء

والولدان﴾[1].

ان الإسلام الغىٰ من ايران الثنوية وعبادة النيران والشمس والنجوم، واعطاها: التوحيد وعبادة الله، وان خدمة الإسلام لايران كانت اكثر من خدمته للعرب بهذه النظرة؛ اذ كان العرب مشركين في العبادة فقط، أما شرك ايران قد كان شركاً حتىٰ في الخالقية، لا في العبادة فحسب.

ان الإسلام بدّل فكرة الخالق ذي القرون والاجنحة واللحية والشوارب والعصا والرداء، ذي الشعر المجعّد والتاج المقرنس، بفكره: ﴿الله لا اله الا هو الحي القيوم﴾[2].

والذي نزّهه عما يصفون فقال: ﴿وسبحان ربك رب العزّة عمّا يصفون﴾[3]، ﴿الذي لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾[4] والذي قال عنه: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم... وهو معكم أينما كنتم﴾[5].

ان الإسلام علّم الناس التوحيد في الذات وفي الصفات وفي الأفعال في اسمىٰ صوره وأشكاله، وجعل التوحيد هو الأصل الاول والأساس والقاعدة الاولىٰ، وبنىٰ لاصله هذا فلسفة عالية تحرك الفكر الانساني نحو كل جمال وحق.

وأخرج الإسلام من حياة الايراني الفكرية والعملية ، مئات الخرافات من أمثال: صراع أهورامزدا واهريمن طوال تسعة آلاف من السنين، والقرابين التي قدمها زروان طوال الف عام ليحصل علىٰ ولد، وتوليده لاهريمن علىٰ أثر شكه في قبول قربانه ونذره، وادعية سجن الجن والشياطين، والطقوس العجيبة لعبادة النيران، وتقديم الشراب والطعام للأموات علىٰ سطح البيوت، وسوق الحيوانات الوحشية والطيور في النار، وعبادة الشمس والقمر اربع مرات، ومنع سطوع الشمس علىٰ النار، ومنع دفن الاموات، والطقوس الكثيرة العسيرة عند مس الحائض والأموات، والمنع عن الاستحمام بالماء الحار، والتبرك بالاغتسال ببول البقر، و...و

---

١ ـ سورة النساء: ٧٥.

٢ ـ سورة البقرة: ٢٥٥.

٣ ـ سورة الصافات: ١٨٠.

٤ ـ سورة الأنعام: ١٠٣.

٥ ـ سورة الحديد: ٣ ـ ٤.

واقرّ الإسلام عوضاً عن الوقوف امام الشمس أو النار والتمتمات غير المفهومة وعوضاً عن تقليب النيران والتلثم بالپنام، وعوضاً عن الركوع أمام النار والطست ذي الثقوب التسعة(!) اقرّ عبادة في منتهىٰ الحكمة والمعقولية والمعنوية والكمال واللطف... وان الأذان والصلاة والصوم والحج والجماعة والجمعة والمسجد والذكر والدعاء المليء بالمعارف والحكم، لشواهد حية علىٰ ما ندعي ونقول.

ان الإسلام ألغىٰ التفرقة بين سعادة الروح والبدن، وردّ التضادّ بين عمل الدنيا والآخرة، وفنّد الفلسفات المبنية علىٰ الرياضة والأعمال الشاقة، وابطل تقديس حالات التجريد ـ الموجود في المسيحية والمانوية والمزدكية ـ الذي كان منتشراً في ايران اذ ذاك، وذمّ الابتعاد عن النعم الطيبة الطاهرة فقال: ﴿**قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده، والطيبات من الرزق**﴾[1]؟ وفي الوقت نفسه أكد تزكية النفس وتطهيرها فقال: ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها**﴾[2].

إن الإسلام حطّم أساس المجتمع الطبقي، الذي كان له تاريخ طويل، وكان قائماً علىٰ عمادي: المال والعنصر، والذي كانت القوانين والآداب والمراسيم تدور حول مدار هذين الأصلين، وبنىٰ مجتمعاً، استثنىٰ من بنائه هذين العنصرين، واقامه علىٰ عمادي: العلم والعمل والتقوىٰ.

إن الإسلام محا نظام رجال الدين الطبقي والمتوارث والمحترف، وأخرج الروحانية عن الاختصاص بطبقة خاصة، وجعلها علىٰ أصول الطهارة والعلم، من أي طبقة كان الشخص.

إن الإسلام قلع جذور فكرة ربوبية الملوك وسماويتهم الىٰ الأبد، يقول كريستن سن:

«ان ملوك الساسانيين كانوا يطلقون علىٰ أنفسهم عندما يكتبون: عبدة مزدا (مزديسين) وفي الوقت نفسه كانوا يلقبون أنفسهم بأنهم (بغ ربانيين من عنصر يزدان) اله الخير»[3].

ويقول:

وكتب خسرو پرويز عن نفسه يقول: رجل من بني آدم لكنه من بين الآلهة، وإله جليل

---

١ ـ سورة الأعراف: ٣٢.

٢ ـ سورة الشمس: ٨.

٣ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٢٨٤.

بين بني آدم»[1].

ويقول ادوارد براون:

«يحتمل أن لانجد في التاريخ اصلاً يذعن بموجبه للملوك بحقوق سماوية، اكثر أتباعاً من هذا الأصل في تاريخ ملوك ايران... ويقول نولدكه: ان الذي لا يكون من اسرة مالكة ـ مثل بهرام چوبين الذي كان من النجباء وطغىٰ، أو مثل شهر براز ـ اذا غصب السلطة كان يكاد أن لا يصدّق عمله، واذا تحقق فلم يكن يحمل الا علىٰ الشر وفقدان الحياء! اذ كان الناس قد اعتادوا علىٰ أن يروا أن الملوكية لا تصلح الا في الأسرة المالكة فقط».

ثم يستشهد ادوارد براون علىٰ ذلك بقصة فرار بهرام چوبين ولقائه بالعجوز والحوار معها وتخطئتها له فيما يدعي من الملوكية، مع اعترافه بانه ليس من الأسرة المالكة.

وكتب الدكتور محمود صناعي، حينما جاء بنظرية بعض الفلاسفة الاوربيين في السياسة، بأنها تبتني علىٰ حقوق الهية، يقول: «وليست هذه النظريّة جديدة بل يجب أن نفتش عن جذورها في تاريخنا نحن الايرانيين؛ ويكشف هذا المعنىٰ ما كان يعتقده الايرانيون القدماء: «فرهٔ ايزدي»[2].

ان الإسلام حطّم هذا الأصل، فلم يبق مع الاسلام مجال لمثل هذا الكلام، حتىٰ جعل لابناء الصفارين وصيادي الأسماك والعبيد والموالي والدراويش حقوقاً في الملوكية في ايران، اذ أعلىٰ الإسلام في الهمم وصعد بها الىٰ أسمىٰ المراتب[3].

وأصبح اعتماد الملوك في العهد الإسلامي علىٰ استعداداتهم، لا علىٰ عناصرهم ودمائهم.

ان الإسلام كما أخرج فكرة اختصاص روحانية الدين بطبقة خاصة من ذهن الايراني، كذلك اخرج منه فكرة اختصاص الملوكية باسرة خاصة، إن الإسلام الغىٰ فكرة الحكم الارستقراطي وحكم الاشراف عن الفكر الايراني، وخلق عنده فكرة اخرىٰ، ترجع اصولها الىٰ حكم ديموقراطي، او قل حكم الشعب بالشعب.

---

١ ـ بالفارسية: ايران در زمان ساسانيان، ص ٢٨٤.

٢ ـ آزادي فرد وقدرة، ص ٥.

٣ ـ كان الصفاريون ابناء صفار، والديالمة ابناء صياد أسماك، والغزنويون أبناء الموالي والعبيد، والصفويون أبناء درويش.

ان الاسلام منح المرأة شخصية حقوقية قانونية. وأبطل تعدد الزوجات غير المشروط وغير المحدود، واذا أباحه فبشروط تبتني علىٰ تساوي حقوق النساء وامكانيات الزوج، وفي حدود معينة، يراعىٰ فيها الضرورة الاجتماعية. ومنع اباحة بضعها للأجنبي واعارتها له، واستلحاق ولدها مع الاباحة، والزواج النيابيّ، والزواج بالمحارم من الأقارب، والولاية المطلقة للزوج علىٰ المرأة... ولم يكن الإسلام بركة للمسلمين فقط، بل اثر في الزرادشتية وأوجب اصلاحها:

فقد قال كريستن سن:

«حينما اطاح الإسلام بالدولة الساسانية التي كانت وراء رجال الزرادشتية، أدرك هؤلاء أن عليهم السعي لحفظ شريعتهم من الزوال الكامل، وتحقق هذا السعي: فقد طرح هؤلاء العقيدة بالزروان والأساطير الصبيانية المحيطة بالزروان جانباً، والغوا عبادة الشمس والقمر، وغيّروا كثيراً من أحاديث دينهم، بل حذفوا كثيراً منها، وتناسوا أقساماً من اوستا الساساني وتفاسيره المزيجة بالافكار الزروانية، او افنوها...»

ولا تقتصر معطيات الإسلام لإيران والفرد الإيراني علىٰ ما قدمه لهما في القرن الاول، بل دفع الإسلام ولا يزال، يدفع كل خطر أحدق او يحدق بهذا الوطن، منذ أن أطل عليه، فالاسلام هو الذي صهر المغول في بوتقته، وصنع منهم ـ وهم الوحوش الكاسرة ـ أناساً يحبون الانسان وثقافته وحضارته، فقد صنع من السلطان الجايتو: محمد خدابنده، وصنع من الاود تيمور، الأمير حسين بايقرا وبايسنقر وشاهرخ وگوهرشاد وغيرهم...

والإسلام اليوم، هو الذي يقف أمام الفلسفات الغربية المحطمة، وهو الذي جعل هذه الأمة تشعر بالشرف والعزة والكرامة وتحسّ بالاستقلال، وان الذي تفخر به هذه الأمة وتباري به الآخرين، هو القرآن ونهج البلاغة، لا الاوستا ولا الزند.

الىٰ هنا نختم الكلام حول معطيات الاسلام لايران.

وسنوضح في القسم الثالث خدمات الايرانيين للإسلام، ان شاء الله.

القسم الثالث

خدمات الايرانيين للإسلام

كثرة الخدمات وسعتها:

في هذا القسم نعرض للخدمات التي قدمها الايرانيون للاسلام. وقد قلنا في أول القسم الثاني: إن خدمة الامة لدين من الاديان هي أن تجعل قواها وطاقاتها وإمكاناتها المادية والمعنوية واستعداداتها الفكرية في خدمة ذلك الدين وأن تخلص له في ذلك كله.

وإن الايرانيين وضعوا ما يملكون من طاقات وامكانات في خدمة الإسلام أكثر من أية أمة أخرىٰ واثبتوا من أنفسهم الاخلاص في هذا السبيل أكثر وأظهر من أية أمة أخرىٰ وان أية أمة أخرىٰ لم تبلغ ما بلغه الايرانيون من الخدمة والاخلاص للإسلام وحتىٰ من العرب الذين ظهر الإسلام بين ظهرانيهم وعلىٰ أيديهم. ونهدف في هذا القسم من الكتاب إلىٰ أثبات هذه الدعوىٰ ولاسيما اخلاصهم له.

والكلام حول خدمة الايرانيين للاسلام كثير،إلّا أنهم قلما يلتفتون إلىٰ نقطة أن الايرانيين إنما أوجدوا عبقرياتهم في ظله وفي سبيله، وأن الذي يخلق العبقريات ليس إلّا الإيمان والاخلاص. والحقيقة أن الإسلام هو الذي نفث في الايراني روحاً جديدة وبعثه من جديد ودفع باستعداداته إلىٰ الحياة، وإلّا فلماذا لم يبد الايرانيون واحداً بالمائة من هذه الخدمة في سبيل دينهم القديم؟!.

وكما أن الإسلام دين يشمل مختلف جوانب الحياة البشرية وجميع نواحيها كذلك نرىٰ أن خدمة الايرانيين للإسلام خدمة تشمل جميع جوانب الإسلام وانها قد تحققت في مختلف الجوانب والصعد. وسنشير في هذا المختصر إلىٰ جميع هذه الجهات والجوانب في حدود اطلاعنا عليه، ولو بالاجمال والاختصار.

إن أولىٰ الخدمات التي ينبغي أن نذكرها هنا هي خدمة الحضارة الايرانية العريقة والقديمة للحضارة الإسلامية الجديدة فقد قدّمت تلك الحضارة القديمة لهذه الحضارة الحديثة خدمة كبرىٰ. وهذا المعنىٰ ـ وان كان خارجاً عما نهدف إليه هنا من بيان خدمة الايرانيين المخلصة للإسلام؛ إذ ان عطاء الحضارة القديمة للحضارة الحديثة التي هي في دور النمو والصعود أمر طبيعي وحتمي - إلّا أن بين هذين الموضوعين من العلاقة والارتباط ما إذا لم يذكر أحد هذين مع الآخر بدا وكأن فيه نقصاً. أضف إلىٰ ذلك انا قد عنونّا الكتاب بعنوان: «الخدمات المتقابلة بين الإسلام وايران»[1] ولهذا فعلينا أن نذكر ما يرتبط بايران مماله علاقة بالاسلام من ناحية أخرىٰ سواء كان من خدمة الايرانيين للإسلام أم لم يكن. وان القارئ بودّه أن يطلع علىٰ هذا الموضوع هنا أيضاً.

وبعد هذا نصل إلىٰ خدمات الايرانيين للإسلام. وقد تحقق هذا في مختلف الجوانب:

في جانب التبشير بالإسلام وتبليغه ودعوة الامم إليه.

وفي جانب الجندية والعسكرية.

وفي ناحية العلوم والثقافات.

وفي الصناعات والقضايا الذوقية والفنون...

والآن نبدأ كلامنا حول ما قدمته الحضارة الايرانية القديمه إلىٰ الحضارة الاسلامية الحديثة، فنقول:

الحضارة الايرانية العريقة

لاتطلبوا منا أن ندخل في دراسة الحضارة الايرانية وقيمتها الحقيقية وما حدث لها من تطور منذ العهد الهخامنشي حتىٰ العهد الساساني؛ لأني أولاً: لست متخصصاً في هذا الموضوع لأبدي وجهة نظري فيه. وثانياً: ان الموضوع خارج عن مجال بحثنا ولايعدو ان يكون هامشياً وإنما لنستمر هنا في هذا البحث بالاستفادة من مسلمات التاريخ والمقبول منه لدىٰ أصحاب الاختصاص وبالاعتماد علىٰ منقولاتهم فيه. وعلىٰ هذا فما نقوله هنا

---

١ - هذا هو العنوان الكامل للكتاب، ونحن اختصرناه بعنوان: الإسلام وايران.

إنما هو ما يقوله الكتّاب والباحثون. ومن المؤكد هنا أمران: الأول: أن ايران كانت لها قبل الإسلام حضارةعريقة وقديمة وذات جذور تاريخية طويلة مشرقة والثاني: أن هذه الحضارة أثرت في الحضارة الإسلامية يقول پ. ژ. مناشه:

«إن الايرانيين قدّموا للإسلام بقايا حضارة مهذّبة، نفث فيها الإسلام روحاً جديدة فوجدت حياة جديدة »[1].

أما القسم الأول: أي تمتع ايران قبل الإسلام بحضارة قديمة وعريقة، فهو وإن كان لايحتاج إلىٰ بيان وتوضيح إلّا أن شرحه بشيء من الاختصار، لايخلو من فائدة هنا، فنقول:

جاء في الكتاب «روزگارباستان » تأليف «برمستد» بشأن النظم الادارية لايران علىٰ العهد الهخامنشي يقول:

«إن إدارة الدولة الايرانية الشاهنشاهية التي امتدت من بحر الجزائر إلىٰ نهر السند ومن المحيط الهندي إلىٰ بحر الخزر، لم يكن أمراً هيناً، ولم تكن قد قابلت مثل هذه الوظيفة الخطيرة أية حكومة قبل حكومة الهخامنشيين التي بدأها كوروش واستمر بها داريوش الكبير (٥٨٥ ـ ٥٢١ ق. م). وبالامكان أن نحسب مثل هذه الادارة الحكومية التي ظهرت لأول مرة في التاريخ إحدىٰ مراحل التاريخ التي ينبغي الاهتمام بها...».

وفيه أيضاً بشأن القوة البحرية لايران علىٰ العهد الهخامنشي يقول:

«كان لايران علىٰ عهد خشايارشا بن داريوش، مئات من السفن في البحر الأبيض المتوسط وكانت ايران إذ ذاك أقوىٰ قوة بحرية ».

وكتب يقول أيضاً:

«وفي عهد داريوش أُمِرَ أحد رجال الدين المصريين من الأسرىٰ أن يذهب إلىٰ مصر ليؤسس فيها مدرسة طبية وجراحية... ».

وكتب بشأن الصناعات في العهد الساساني يقول:

«للصناعات علىٰ عهد الساسانيين أهمية خاصة في تاريخ الفنون في ايران، إذ كان

---

١ - نقلاً عن كتاب (تمدن ايراني) بقلم مجموعة من المستشرقين وترجمة الدكتور (عيسىٰ بهنام).

الفن المعماري قد تطور تطوراً نرىٰ عظمته فيما بقي لنا حتىٰ اليوم من بقايا أنقاض القصور والمساكن والمعابد والقلاع والسدود والجسور.. في فيروزآباد وشاهپور وسروستان فارس و طيسفون (المدائن) وقصر شيرين... »[1].

ويقول الجاحظ في كتابه «المحاسن والاضداد »:

«كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون، مثل بناء اردشير وبناء اصطخر وبناء المدائن والسدير والمدن والحصون، ثم ان العرب شاركت العجم في البنيان و تفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار »[2].

ويقول بشأن العلوم والمعارف والثقافات في ذلك العهد:

«إن اللغة الفهلوية ـ اللغة الرسمية لايران والهند وأوربا علىٰ عهد الآشكانيين ـ كانت رائجة علىٰ عهد الساسانيين أيضاً، وقد بقي لنا حتىٰ اليوم من تلك اللغة ستمائة كلمة كلها تتعلق بأمور الدين الفارسي القديم. ونعلم أن ذلك الادب كان أوسع من هذا بكثير إلّا أن الموابدة الذين كانوا النقلة الوحيدين المحافظين علىٰ هذه اللغة بالكتابة اهملوا الآثار غير الدينية، وكان ملوك الساسانيين حماة الآداب والفلسفة، وقد تفوق في هذا أنوشيروان أكثر من غيره، فقد أمر بترجمة آثار افلاطون وارسطو إلىٰ اللغة الفهلوية وتدريسها في مدرسة جندي شاپور »[3].

وقد أسست مدرسة جندي شاپور في ذلك العهد، علىٰ أيدي مسيحيي ايران، وأصبحت من المراكز الثقافية في العالم. وقد استمر هذا المركز في عمله في العهد الإسلامي أيضاً ولم يتوقف عن العمل وإن الأطباء المسيحيين الذين يذكرون في بلاط الخلفاء العباسيين من خريجي هذه المدرسة من قبيل ابن ماسويه وبختيشوع وآل نوبخت. لما أصبحت بغداد مركزاً للثقافة في العالم الاسلامي أصبحت مدرسة جندي شاپور علىٰ صلة ببغداد وهكذا انقرضت تدريجياً. فجندي شاپور نفسها هي من أحد

---

١ - (تمدن ايراني) ص: ٢٠.

٢ - المحاسن والاضداد ـ للجاحظ ص: ٤٠.

٣ - نقلاً عن الترجمة الفارسية لتاريخ التمدن لويل دورانت ج ١ ص ٢٣٤.

المراكز التي امدّت الحضارة الإسلامية بالثقافة والعلم وخدمتها وساعدتها.

ويقول ويل دورانت بشأن الفن في العهد الساساني:

«... ولم يبق من جلال شاپور وقباد والاكاسرة شيء سوىٰ بقايا فنون العهد الساساني ويكفي هذا للاعجاب باستمرار الفن الايراني وتفاعله المتبادل منذ عهد داريوش الكبير وپرسپوليس وحتىٰ عهد الشاه عباس الكبير واصفهان... »[1].

وبشأن النسيج في العهد الساساني يقول:

«لقد استفادت صناعة النسيج في العهد الساساني من نقوش الاصنام والتماثيل وفسيفساء القاشاني وسائر الاشكال البديعة. فكانوا ينسجون الأقمشة من الحرير والقز والابريسم في أشكال: المطرّز، وديبا، والدمشقي، والفرش والبسط والستر وأقمشة الكراسي والمظلات والأخبية بدقة متناهية ومهارة كافية ثم يصبغونها بالالوان الصفراء والزرقاء والخضراء والسماوية... »[2].

وبشأن صناعة القاشي والخزف والسفال من الطين يقول:

«لم يبق بأيدينا من الخزف الساساني سوىٰ قطع من الخزف العادي المصنوع للاستعمالات اليومية، وكانت هذه الصناعة قد تطورت منذ العهد الهخامنشي والظاهر أنها تقدمت علىٰ عهد الساسانيين أيضاً وتكاملت علىٰ عهد المسلمين »[3].

ويقول ويل دورانت:

«وعلىٰ كل حال؛ فإن الفنون علىٰ عهد الساسانيين تبدو وكأنها تطور جديد بعد أربعة قرون من التقهقر علىٰ عهد الاشكانيين، ولكنا إذا أردنا أن لانبالغ في الحكم لها ينبغي أن نقول انها لم تبلغ في العظمة والكمال إلىٰ رتبة الفنون علىٰ العهد الهخامنشي ولم تصل ـ من حيث الابداع والدقة والذوق والفن ـ إلىٰ رتبة الفنون الايرانية بعد الاسلام... ».

ويقول ويل دورانت في آخر هذا الفصل من كتابه:

---

١ - المصدر السابق ص ٢٥١.

٢ - تاريخ التمدن لـ(ويل دورانت) ج ١ ص ٢٥٤.

٣ - المصدر نفسه ص ٢٥٥.

«إن الفن الساساني قد ادىٰ ما عليه من الاسهام في الحضارة البشرية بإشاعة اشكاله في الهند والصين وأراضي الاتراك في المشرق وآسيا الصغرىٰ وسورية والقسطنطينية و مصر والبلقان واسبانيا ولعل اثره في الفن اليوناني ساعده علىٰ التطور من صوره الكلاسيكية القديمة إلىٰ أسلوب التجميل البيزنطي. وكذلك ساعد الفن المسيحي اللاتيني علىٰ التطور من السقوف الخشبية إلىٰ الاواوين والقباب الحجرية أو الآجرية (الطابوقية) وقد انتقل الفن المعماري الساساني في بناء القباب الكبيرة والابواب الكبيرة للمدن إلىٰ المعابد والمساجد والقصور في الإسلام. ولاشيء يضيع في التاريخ فكل فكرة فيه سوف تجد لنفسها الفرصة فتتطور وتتقدم وتنمو فتهب الحياة وتضيف إليها شرارة وحرارة وحركة أخرىٰ... »[1].

وينقل الدكتور رضا شفق في الفصل الثالث من ترجمته الفارسية لكتاب: «ايران عند المستشرقين » بعنوان: «منابع الفنون الإسلامية » عن كتاب بعنوان: «الأيدي في الفن الاسلامي » للدكتور ديمند رئيس قسم الفنون الشرقية في متحف «متروپل » أنه يقول:

«... لم يكن للعرب علىٰ عهد محمّد [صلّىٰ الله عليه وآله وسلم] فنون وصناعات وإن كانت فهي كالعدم وإنما اقتبسوا فنون ما بين النهرين ومصر وسورية وايران. ونجد في صحف الصين: أن الخلفاء الأمويين كانوا يطلبون أساتذة الفنون من جميع الولايات التي فتحوها ويستخدمونهم في بناء المدن والقصور والمساجد فقد طلبوا أساتذة بيزنطينيين في صناعة القاشاني والفسيفساء المعرّف لتجميل مساجد دمشق وجعلوا عليهم أساتذة ايرانيين وكانوا يستخدمون لأبنية مكة صنّاعاً من مصر والقدس ودمشق وقد استمر هذا حتىٰ عهد العباسيين أيضاً. ويقول الطبري في تاريخه: انهم استخدموا لبناء بغداد اساتذة ايرانيين وسوريين وموصليين وكوفيين. وهكذا نشأ اسلوب إسلامي جديد جاء نتيجة الخلط بين المصادر الشرقية المسيحية والايرانية... »[2].

ويقول أيضاً:

---

١ - المصدر نفسه: ص ٢٥٦.

٢ - بالفارسية: ايران از نظر خاور شناسان، ترجمة الدكتور رضا زاده شفق ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

«ان أثر الفن الساساني في الفن الإسلامي وإن كان قد توصل إليه بعض القدماء من الباحثيين إلّا أنه بدا واضحاً أخيراً علىٰ أثر الحفريات في طيسفون قرب بغداد وكيش في ما بين النهرين، ودامغان ايران، حيث اكتشفوا كميات كبيرة من المواد الانشائية ولاسيما النقوش البنائية في الجصّ وقد بدت فيه نماذج الفنون المعمارية الإسلامية بشكل واضح»[1].

وكتب يقول:

«ان الفن الساساني استمر حتىٰ انتهىٰ إلىٰ الفن الإسلامي حيث اقتبسه الفنانون المسلمون فقلدوه أو غيّروا فيه مما أدىٰ إلىٰ أسلوب خاص في الإسلام»[2].

وكتب نهرو في الجزء الثاني من كتابه «نظرة في تاريخ العالم» فصلاً بعنوان «استمرار السنن الايرانية القديمة» وحاول ان يثبت استمرار روح الفنون والثقافات الايرانية منذ ألفي عام وحتىٰ الآن قال:

«ان للفن الايراني سنناً ظاهرة، وقد استمرت هذه السنن مدة أكثر من ألفي عام (بعد الآشوريين إلىٰ الآن) وقد تغير في ايران: الحكم والملوك والمذاهب؛ إذ استولىٰ علىٰ ايران حكام منها ومن غيرها ودخلها الإسلام فغيّر كثيراً من أمورها ومع ذلك فقد استمرت سنن الفنون الايرانية ولازالت مستمرة..»[3].

ويقول:

إن جيش المسلمين العرب حينما تقدم في نواحي آسيا المركزية وفي شمال افريقيا لم يكن يحمل معه دينا جديداً فقط، بل وحضارة حديثة نامية ولذلك فقد اقتبست هذه الحضارة الفتية حضارات ما بين النهرين ومصر وسوريا فأصبحت العربية لسانهم الرسمي والعادي واختلطوا بالعرب وامتزجوا معهم وتشبهوا بهم وأصبحت بغداد ودمشق والقاهرة مراكز للحضارة والثقافة العربية الإسلامية وقامت فيها بنايات جميلة وكثيرة علىٰ أثر

---

١ - المصدر نفسه ص ٢١.

٢ - المصدر نفسه ص ٢٠٢.

٣ - بالفارسية: نگاهى بتاريخ جهان، ترجمة: محمود تفضلي ج ٢ ص ١٠٣٨.

الحركة الحضارية الحديثة... وايران وإن لم تشابه العرب ولم تذب فيهم إلّا أن الحضارة والثقافة العربية (الإسلامية) أثرتا في ايران تأثيراً بالغاً وأحدثتا في ايران ـ كالهند ـ حياة جديدة في مجال النشاط العملي والفني الإسلامي، وتأثرت هي بنفوذ الحضارة والثقافة الفارسية »[1].

وقد ترجم إلىٰ اللغة العربية فيما ترجم ـ كما نعلم ـ بعض الكتب الايرانية علىٰ عهد الخلفاء الامويين والعباسيين، وهذه الكتب وان لم تكن تضاهي ما ترجم إلىٰ العربية من سائر مصادر المعرفة البشرية إلّا أن بإمكاننا أن نعدّها نوعاً من أنواع الاسهام الايراني في الحضارة والثقافة الاسلامية وسنبحث في هذه الترجمات بحثاً موجزاً فيما يأتي إن شاء الله.

لقد اقتبس المسلمون نظامهم الاداري من النظام الاداري الايراني إذ نظمت الدفاتر والدواوين منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب علىٰ طريقة الدفاتر والدواوين الايرانية القديمة بل كانت لغة الدواوين أحياناً لغة فارسية أيضاً، وفضّل المسلمون الفرس فيما بعد أن يترجموها إلىٰ العربية بأنفسهم:

فقد قال ابن النديم في كتابه «الفهرست »:

«كان خالد بن يزيد بن معاوية... خطر بباله الصنعة فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللغة اليونانية والقبطية الىٰ اللغة العربية وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلىٰ لغة».

ثم يقول: « ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلىٰ العربية في أيام الحجاج و الذي نقله صالح بن عبدالرحمن مولىٰ بني تميم، وكان أبو صالح من سبي سجستان وكان يكتب لزادان فرخ بن بيري كاتب الحجاج، يخطّ بين يديه بالفارسية والعربية، فخفّ علىٰ قلب الحجاج. فقال صالح لزادان فرّخ. انك أنت سبي إلىٰ الأمير، وأراه قد استخفني، ولا آمن أن يقدمني عليك وأن تسقط منزلتك. فقال: لا تظن ذلك، هو إليَّ أحوج مني إليه، لانه لا يجد من يكفيه حسابه غيري. فقال: والله لو شئت أن احوّل الحساب إلىٰ العربية لحوّلته، قال:

---

١ - المصدر نفسه ص: ١٠٤٢.

فحوّل منه أسطراً حتىٰ أرىٰ ففعل، فقال له: تمارض! فتمارض فبعث الحجاج إليه (بياد روس) طبيبه، فلم يربه علة. وبلغ زادان فرّخ ذلك فأمره أن يظهر... واتفق أن قتل زادان فرّخ في فتنة ابن الأشعث... فاستكتب الحجاج صالحاً مكانه. فاعلمه الذي كان جرىٰ بينه وبين صاحبه في نقل الديوان، فعزم الحجاج علىٰ ذلك وقلده صالحاً. فقال له مردانشاه بن زادان فرخ: كيف تصنع «بدهويه وششويه »؟ قال: أكتب عشراً ونصف عشر، فقال: فكيف تصنع «بويد » قال: أكتب: وأيضاً... فقال له: قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية! وبذلت له الفرس مائة ألف درهم علىٰ أن يظهر العجز عن نقل الديوان، فأبىٰ الانقله، فنقله »

ويقول ابن النديم: «... فأما الديوان بالشام فكان بالرومية... ونقل الديوان في زمن هشام بن عبدالملك »[1].

هذا ما يتعلق ببلاط الخلفاء وحكّامهم.

وكان السلاطين المسلمون في ايران بعد الاستقلال يكتبون الدفاتر والدواوين باللغة الفارسية وأعادها الغزنويون الافغانيون إلىٰ العربية مرة أخرىٰ، وله قصة ليس هذا محلها.

وقد قلنا سابقاً أنا لسنا بصدد بيان ما قدمته الحضارة الايرانية القديمة إلىٰ الحضارة الاسلامية الحديثة وان هذا ليس من صلاحياتنا ولا من اختصاصنا. بل اننا نهدف من نقل ما نقلناه من مسلمات التاريخ التأكيد علىٰ أمرين فقط:

احدهما: أن ايران كانت لها قبل الإسلام حضارة وأن هذه الحضارة أصبحت من احد عناصر الحضارة والثقافة الإسلامية.

وثانيهما: أن هذه الحضارة التيكانت في طريقها إلىٰ التقهقر وجدت بالاسلام روحاً جديدة وحياة أخرىٰ وصورة حية نابضة.

وليس هذان الامران موضع انكار أو تردد.

وبامكان الراغبين الرجوع إلىٰ المصادر المتوافرة كل من هذين الموضوعين.

---

١ – الفهرست لابن النديم ص: ٣٥٢ الاستقامة ـ الجزء الرابع ـ المقالة السابعة: مقالة الفلاسفة ـ الفن الأول الحكاية الرابعة.

اخلاص الايرانيين للاسلام

والآن ندخل في صلب الموضوع وهو أن الايرانيين خدموا الإسلام خدمة كبرىٰ وأن هذه الخدمة جاءت عن إيمان وإخلاص ومن الصميم. ونبحث أولاً حول إخلاص الايرانيين ثمّ نشرح خدماتهم للإسلام.

ولانريد أن نبالغ في إخلاص الايرانيين؛ فلا ندّعي أن جميع الايرانيين كانوا مخلصين لهذا الدين، وأن كل ما تحقق منهم من خدمة له كان عن كامل الصفاء ومن صميم الإيمان به. بل كل ما ندعيه هو أن أكثرية الايرانيين كانوا مخلصين لهذا الدين وأنه لم يكن لهم أي دافع لخدمته سوىٰ خدمته. وأنه لم تبلغ اية أمة أخرىٰ من سائر الأمم المسلمة عرباً وغير عرب ما بلغه الايرانيون في هذا السبيل ولعلنا نستطيع القول بأن الايرانيين لامثيل لهم في هذا السبيل؛ أي ان أية أمة أخرىٰ لم تخدم أي دين من الأديان ولم تخلص له كما خدم الفرس الإسلام واخلصوا له.

فبالامكان أن تجعل أمة من الامم تطيع بالقوة وليس بالامكان أن تخلق فيها الايمان والحركة والنشاط بالقوة والقهر والاكراه فان منطقة نفوذ الأموال والقدرات محدودة بحدود واضحة وان عبقريات البشرية لم تنشأ إلّا من الإيمان والاخلاص فحسب.

وقد يدعي بعضهم بأن دافع الايرانيين لحركتهم ونشاطهم الكثير في سبيل الثقافة و المعارف الإسلامية كان ردّ فعل لهم عن هزيمتهم العسكرية أمام العرب في ميادين القادسية وجلولاء وحلوان ونهاوند وغيرها، فقد عرف الايرانيون أن الهزيمة العسكرية ليست الهزيمة النهائية. بل ان الهزيمة النهائية هي الهزيمة القومية والثقافية. وأن الايرانيين إنما نشطوا في مجال المعارف الإسلامية بأثر من شعورهم القومي ليثبتوا وجودهم أمام الامم ولاسيما العرب أنفسهم، ولكي يحفظوا ضمناً أفكارهم وآدابهم بصبغة إسلامية. وبعبارة أخرىٰ يقولون: إن الايرانيين وحيث لم يتمكنوا من رفض الإسلام كحقيقة واقعية ، فكروا في سبيل أن يجعلوا الإسلام ايرانياً ولم يجدوا لهذا سبيلاً سوىٰ طريق السيطرة علىٰ الشؤون العلمية الإسلامية.

وباعتقادنا أن هذا التفسير بعيد عن الواقع مائة بالمائة وذلك:

أولاً ـ قد بيّنا قبل هذا أن جذور الخدمات الايرانية للاسلام تصل إلىٰ ما قبل الهزيمة العسكرية وأن ما قام به الايرانيون من خدمة للاسلام بعد الهزيمة له نظائر عندهم من قبل الهزيمة العسكرية.

وثانياً: لو كان الدافع رد فعل للهزيمة، لما استمر أربعة عشر قرناً من الزمان. ولو كان بالامكان تفسير الحركات المؤقتة بدوافع انية فليس من الصحيح تفسير الحركات التي تدوم قروناً بمثل هذه الدوافع الزمنية.

وفضلاً عن مرور قرون علىٰ هذه الحركة والنشاط، فان كيفية العمل أيضاً ليس مما تصح فيه مثل هذه التوجيهات والتأويلات. وسنرىٰ في الفصول التالية أن كيفية العمل الايراني في المجالات الإسلامية يبدو منها الإيمان والإخلاص واضحاً جلياً.

ولو كان الايرانيون يهدفون من خدمتهم للاسلام جبر الكسر العسكري الذي اصيبوا به فلما ذا أصبحوا من جملة هذا الدين بين سائر الامم ما دخل اضعاف اعدادهم من الامم في الاسلام؟ ولماذا ضحّىٰ الايراني بنفسه جندياً في سبيله مع المخاطر من دون أن يكون هناك أي خطر يهدد القومية الايرانية؟ ولماذا تظهر هذه الامة حين شيوع المنكرات والبدع ردود فعل أكثر وأشد من سائر الأمم المسلمة؟

وسنوضّح في البحوث الآتية جميع هذه النقاط.

والآن نقدم بحثاً عاماً حول العوامل التي دفعت الامم الاسلامية إلىٰ الحركات العلمية و الثقافية:

دوافع الامم الاسلامية

يلزمنا هنا أن نلقي نظرة عامة علىٰ العالم الاسلامي من حيث الدوافع والمحركات. فنقول:

ظهرت في عالم الإسلام حركة علمية وثقافية اشترك فيها العرب والفرس والهنود والمصريون والجزائريون والتونسيون والمغربيون والسوريون وحتىٰ الاوربيون

والاسبانيون، فامتدت هذه الحركة وتواصلت من أقصىٰ نقاط المشرق الاسلامي إلىٰ أقصىٰ نقاط المغرب الاسلامي وكذلك من شماله إلىٰ جنوبه. فمثلاً اشترك في هذه الحركة سيبويه وابن سينا الايرانيان من ناحية وابن مالك وابن رشد الاندلسيان من ناحية أخرىٰ. فماذا كان دافع هذه الحركة العظيمة؟.

هناك نظريات نشير إليها:

١ ـ ظهرت في جميع هذه الامم روح عربية فانبثقت منها جميعاً حركة متوازنة متفقة متحدة تحت عنوان «العروبة».

وليس هذا الامر مقطوعاً به وإن كان بعض العرب المعاصرين يحاولون أن يحرفوا التاريخ علىٰ هذه الصورة المنحرفة.

ويذكر بعض الاوربيين الحضارة الاسلامية بعنوان الحضارة العربية؛ ليزيدوا من الغرور العربي من ناحية فيعتمدوا علىٰ قوميتهم ويفضلوا أنفسهم عن العالم الإسلامي أكثر من ذي قبل، ولكي تنزعج سائر الأمم المسلمة من العرب الذين يصدقون هذه الفرية من ناحية أخرىٰ.

٢ ـ إن الامم الاسلامية إنما نشطت بفعل شعورها القومي والوطني الخاص فكان دافع كل أمة أحاسيسها القومية الخاصة.

وبطلان هذه النظرية من الوضوح بمكان لا نحتاج معه إلىٰ تأكيد فساده. وقد بحثنا في القسم الأول من الكتاب في هذا الموضوع بما فيه الكفاية. فالأمم الاسلامية ضربت جسراً علىٰ قومياتها عبرت عليه إلىٰ سائر الأمم الاسلامية ولهذا كان المسلم الايراني أو الهندي يشعر بالاخوة مع المسلم الافريقي أو الاسباني...

٣ ـ أن هذه الامم كانت تعيش داخل الحدود العقائدية والفكرية الإسلامية فكانت دوافعها نابعة من الاسلام ديناً وعقيدة وفكراً، ومن تعاليمه العالمية والإنسانية التي تسموا علىٰ القوميات والعنصريات؛ وكان يؤيد هذا روح العلم العالمية والإنسانية أيضاً.

وان الشواهد والقرائن التاريخية تؤيد هذه النظرية بصورة قاطعة.

وان الطريق إلىٰ معرفة الدوافع في الامة أو في الافراد في أية حركة تاريخية، هو النظر

في كيفية العمل عند الفرد أو الأمة. وما نأتي به في الفصول التالية يكفي للتعريف بدوافع الايرانيين في هذه الحركة التاريخية...

وهنا نأتي بقسم آخر مما كتبه الشيخ العطاردي بعنوان:

النشاط الإسلامي الايراني

إن حوادث اليمن وتضحية أبناء الفرس المسلمين فيها في سبيل الإسلام لهي من أكبر الشواهد علىٰ طواعية قبول هذه الامة للاسلام، وعلىٰ أنها لم تألُ جهداً في سبيل نشره والدعوة إليه والدفاع عنه. فالذين كتبوا ان هذه الامة حملت علىٰ الإسلام بقوة السلاح إما انهم يجهلون تاريخ هذه الأمة في إسلامها، أو يحملهم الشعور القومي والعصبيات العنصرية علىٰ القول بهذه الفرية الكبرىٰ.

كتب المؤرخون جميعاً: أن الإسلام تقدم في ايران بسرعة عجيبة، أن هذه الامة استقبلته من دون حروب كثيرة ولا جدال عنيف، وأنه شمل هذه الامة من ساحل الفرات إلىٰ نهر جيحون ومن نهر السند إلىٰ بحيرة خوارزم في فترة لاتزيد علىٰ عشرين عاماً فقط ! وإذا قرأنا أن بعض الحروب في بعض الموارد حدثت بين العرب المسلمين وأنباء هذه الامة، فإنما هي مع الموابدة والطبقات الممتازة التي كانت تسعىٰ للحافظ علىٰ مصالحها بسد طريق الإسلام.

بعد أن فتح المسلمون الدولة الايرانية لم تمضِ مدة طويلة حتىٰ دخل أكثر الناس من هذه الدولة في دين الإسلام باستثناء جبال مازندران وديلمان، ثم بدأ نشاط هؤلاء الناس في سبيل نشر الإسلام وتحكيم قواعده ومبانيه المقدسة. ولقد سعت الأمة الايرانية في طول القرون الثلاثة الأولىٰ التي كانت ايران فيها تحت نفوذ حكم الخلفاء الأمويين والعباسيين في سبيل شرح أحكام الإسلام السياسية والاجتماعية والقضائية والأخلاقية سعياً حثيثاً، وعرضت مسائل مهمة ووضحتها ونظمتها.

وهكذا أسست علوم الأدب والفقه والحديث والتفسير والكلام والفلسفة، والتصوف (!) في القرون الإسلامية الأولىٰ وتصدرت الامة الايرانية هذه الحركة و أصبحت مدارس

نيشابور وهرات وبلخ ومرو وبخارىٰ وسمرقند وري وأصفهان، وسائر مدن ايران مراكز للنشاط العلمي الدائب. وتربّىٰ فيها مئات الرجال من أعاظم المسلمين الذين نشروا الثقافة والحضارة الإسلامية في شرق العالم وغربه.

وكان علم الحديث أحد الموضوعات الهامة التي توجهت إليها الانظار في ايران ولا سيما في خراسان ويلزمنا أن نعترف هنا بأن الايرانيين كان لهم حظ وافر في تدوين الأحاديث بل يجب أن نعدّهم مؤسسين لمدرسة علم الحديث. فقد كان جماعة من أهل الحديث يسافرون أسفاراً كثيرة ليسمعوا الأخبار والروايات من مشايخ الحديث بأسماعهم فيدونوها في صحاحهم ومسانيدهم. وبلغت أهمية مدرسة الحديث في خراسان يومئذٍ مرتبة كبيرة حتىٰ أن كثيراً من طلاب الحديث كانوا يهاجرون إليها من مصر وافريقيا والحجاز والعراق والشام للاستفادة من مشايخ الحديث بها فيقيمون سنين في نيشابور ومرو وهرات وبلخ وبخارىٰ.

والذين اطلعوا علىٰ كتب الحديث من الصحاح والمسانيد وأحوال الرجال ومشايخ الرواية يدركون أن جميع أصحاب الصحاح الستة للسنة وكذلك مؤلفي الكتب الاربعة الشيعة ايرانيون ستة منهم من خراسان؛ هم: الشيخ الطوسي، ومحمد بن اسماعيل البخاري و مسلم بن الحجاج القشيري النيشابوري، وأبو عبدالرحمن النسائي وأبو داود السجستاني و الترمذي والبيهقي. والشيخ محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق من قم، والشيخ محمّد بن يعقوب الكليني من قرية كُلين من الري وابن ماجة من قزوين ومئات من المشاهير غير هؤلاء كانوا من ايران.

فكبار الفلاسفة المسلمين والمتكلمين والمؤرخين واللغويين والشعراء و المفسرين والسياسيين والملوك والقادة الفاتحين كثير منهم كانوا من ايران أليس البرامكة والنوبختيون والقشريون والصاعديون والسمعانيون من ايران؟ أليس خواجة نظام الملك الطوسي والشيخ الطوسي والخواجة نصير الدين الطوسي من ايران؟ أليس الملوك الطاهريون والسامانيون وآل بويه والغزنويون، والغوريون و السربداريون، وعشرات الأسر غير هؤلاء ممن سعوا في سبيل نشر الإسلام وحضارته كلهم من ايران؟

واثنان من الأئمة الاربعة للسنة، ايرانيان خراسانيان هما: أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي الكابلي أو النسائي [1] و أحمد بن حنبل المتولد بمرو خراسان وإن كان قد نشأ أحدهما في الكوفة والآخر ببغداد، العراق.

وبصورة عامة نقول: إن الايرانيين اسهموا كثيراً في توطيد أصول وقواعد الادب والثقافة والفكر الإسلامي في القرون الإسلامية الأولىٰ، مما فتح الطريق أمام الأجيال التالية. ولوضوح هذا الموضوع نتوقف عن التفصيل فيه.

وفي أوائل القرن الرابع الهجري فتح المسلمون طبرستان وگيلان. وفي هذا القرن بالذات استقل الايرانيون سياسياً؛ فقد قطع السامانيون علاقتهم بالخلافة في بغداد واستقلوا بالسلطة في خراسان والنواحي الشرقية من ايران ولم يكونوا حتىٰ في فهمهم للمباني والمعاني الدينية بحاجة إلىٰ مركز الخلافة.

النشاط الإسلامي للايرانيين في الهند

ان الغزنويين هم أول أسرة ايرانية دخلت بالاسلام إلىٰ الهند عن طريق نهر السند وقد كانت مقاطعة «پنجاب» الكبيرة علىٰ عهد الغزنويين بأيديهم وجعلوا «لاهور» وهي إحدىٰ المدن الكبيرة في هذه الناحية مركزاً لحكومتهم. وعلىٰ عهد هؤلاء سافر جماعة من علماء ايران إلىٰ الهند منهم أبو ريحان البيروي العالم والفيلسوف الايراني الخراساني والغزنويون وإن كان همهم القتل والنهب أكثر من تبليغ الإسلام إلّا أنهم اثروا كثيراً في تحطيم الموانع السياسية والعسكرية في شبه القارة الهندية أمام تبليغ الإسلام وفتحوا الطريق أمام القادمين.

... والغوريون

والغوريون كانوا من الغور في هرات وينتهي نسبهم شخص يُدعىٰ «شنسب» كان قد أسلم علىٰ عهد أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ففوض إليه الامام إمارة

---

١ - نسّا:منطقة في محافظة خراسان، والآن تسمىٰ (درگز)

ناحية الغور. وكتب بعض المؤرخين يقول: حينما كان بنو أُمية يسبون علياً عليه السلام علىٰ المنائر والمنابر، وكانوا يكرهون الناس علىٰ ذلك،لم يتحمل حكام غور هذا الأمر من بني أمية و لم يسيئو الأدب إلىٰ علي عليه السلام.

وكان أول ملك مسلم سار بجيوشه إلىٰ الهند وفتح دهلي وجعلها عاصمة له هو السلطان محمد سام الغوري ومنذ ذلك أصبحت دهلي عاصمة دولة إسلامية ولازالت عاصمة للملوك المسلمين حتىٰ استعمرها الانجليز. وقد قدّم الغوريون إلىٰ الهند خدمات مهمة وهاجر علىٰ عهدهم علماء كثيرون من ايران واستوطنوا الديار الهندية وبدأ التبليغ بالاسلام في الهند علىٰ عهد هؤلاء الحكام الغوريين وأسس الكثير من المساجد والمدارس الإسلامية علىٰ عهدهم.

وكان أحد كبار العلماء الايرانيين الذين هاجروا علىٰ عهد الغوريين إلىٰ الهند الخواجة معين الدين الششتي، وقد خدم هذا الهند كثيراً وتتلمذ عليه جماعة كثيرة اصبحوا بعده قادة وعلماء دين. ومدرسته قائمة الآن بعد مئات السنين وقبره يزار في «اجمير».

... والتيموريون

وسار بجيوشه إلىٰ الهند أيضاً «ظهير الدين محمد بابر » من أحفاد الأمير تيمور وجعل دهلي مركزاً لامارته، واستمر بعده في الحكم مجموعة من أولاده إلىٰ أربعة قرون، وكانت المناصب الحكومية والدينية علىٰ عهدهم بيد الايرانيين وكانت العلاقات بين التيموريين والصفويين في ايران علاقات طيبة، وهاجر علىٰ عهدهم جماعة كثيرة من ايران إلىٰ الهند من الفقهاء والمجتهدين والشعراء والعرفاء وعمل هؤلاء علىٰ نشر الإسلام في الهند كثيراً.

وكان أحد هؤلاء الذين خدموا الهند علىٰ عهد جهانگير «اعتماد الدولة ميرزا غياث بك » وكان هذا حاكم مرو من قبل شاه طهماسب الصفوي وغضب عليه الصفوي وصادر أمواله فسافر الحاكم حتىٰ وصل إلىٰ بلاط جلال الدين الاكبر في الهند وزوّج ابنته نور جهان من جهانگير وأصبحت ملكة الهند.

وتزوج شاه جهان بانوبيگم حفيدة ميرزا غياث بك، وأصبحت ملكة الهند أيضاً وإن

بناية تاج محل التي تعدّ اليوم إحدىٰ الابنية التاريخية المهمة التي ليس لها مثيل في العالم هي مقبرة هذه السيدة الايرانية ملكة الهند.وعلى عهد نورجهان وبانوبيگم ممتاز محل، صاحبة مقبرة تاج محل هاجر جماعة من ايران إلىٰ الهند وخدموا الإسلام نشراً وتبليغاً وكانوا من الشيعة.

والقطب شاهيون

ولد محمد علي قطب شاه في همدان وسافر في أيام الشباب إلىٰ الهند ولازم خدمة حكام دكن، واستزاد في العزة والمقام يوماً بعد يوم لما كان يتمتع به من النشاط حتىٰ لقب بعد مدة بلقب «قطب الملك» وأصبح عام ٩١٨ للهجرة حاكم منطقة دكن، وكان قطب شاه من تلامذة السيد الشيخ صفي الدين الاردبيلي الموسوي، وحينما أعلن الشاه إسماعيل المذهب الجعفري مذهباً رسمياً للدولة في ايران، تبعه في ذلك قطب الملك في الهند وعمل علىٰ نشره والتبليغ عنه.

وسعىٰ القطب شاهيون في دكن في سبيل تبليغ الإسلام والمذهب الشيعي سعياً بليغاً و هاجر علىٰ عهدهم جماعة من ايران إلىٰ ناحية دكن من الهند، وعملوا علىٰ نشر الإسلام والمذهب الشيعي. وكان أحد كبار الشخصيات العلمية التي هاجرت إلىٰ الهند علىٰ عهد القطب شاهيين هو المير محمّد مؤمن الاسترآبادي واستمر هذا العالم مدة خمسة وعشرين عاماً في منصب «وكيل السلطنة» يعمل في سبيل نشر الإسلام والتشيع الكثير، و كان يعدّ متبحّراً في أكثر العلوم العقلية والنقلية علىٰ عهده بل أعلم العلماء في عصره. واستمر القطب شاهيون في الحكم علىٰ هذه المنطقة قرنين من الزمن، ولهم تاريخ في ذلك طويل ومفصّل.

... والعادل شاهيون

ومؤسس هذه الاسرة يوسف عادل شاه الايراني الساوجي، فقد ولد في مدينة ساوة قرب قم، وسافر إلىٰ الهند في عنفوان الشباب ودخل في خدمة حكام بيجاپور وتسلم

السلطة في هذه الناحية بعد مدة وعرف باسم يوسف عادل شاه الساوجي. وكان العادل شاهيون شيعة، ولم مساعٍ كبيرة في سبيل تبليغ الإسلام ونشر التشيع في الهند، وفتح علي عادل شاه كثيراً من مناطق الهند المركزية التي كانت بأيدي الوثنيين،ونشر فيها الإسلام و المذهب الشيعي.

وكان في جيشه باستمرار جماعة من العلماء الأعلام من ايران والعراق وحتىٰ من المدينة المنورة وكان هؤلاء يشرفون علىٰ الأمور الدينية في العسكر والبلاط، وكان أكثر الأمور الحكومية والسياسية بأيدي الايرانيين ولهؤلاء الملوك الهنود المسلمين تاريخ طويل ذكرته في كتابي: التاريخ الاسلامي للهند.

... والنظام شاهيون

ومؤسسس الأسرة رجل هندي باسم تيمابهت وكان أسيراً لدىٰ المسلمين علىٰ عهد السلطان أحمد شاه البهمني وقد وجده السلطان ذا ذكاء وفطنة ودهاء واستعداد وقريحة فوهبه لابنه محمّد شاه وبعثه معه إلىٰ المدرسة للدراسة، فتعلم هذا الهندي الخط العربي واللغة الفارسية في مدة قليلة ولُقب بالملك حسن البحري. وأخيراً وصل إلىٰ الحكم في قصة يطول ذكرها. وتشيّع بعد تملكه السلطة وسعىٰ في نشر التشيع وتبليغ الإسلام سعياً بليغاً.

وكان أكثر رجال بلاطه وحكومته وأكثر الشخصيات الدينية لدولة النظام شاهيين من الايرانيين وكان الايرانيون يديرون الامور السياسية والدينية في الدولة. والملك شاه طاهر الهمداني الدكني، سافر علىٰ عهد هؤلاء إلىٰ الهند وكان هذا من مؤيدي شاه إسماعيل الصفوي فخالفه وكاد أن يقتل علىٰ ذلك فتخفّىٰ ودخل الهند هارباً من الصفويين، وعاش في بلاط النظام شاهيين معظماً محترماً حتىٰ وصل إلىٰ الحكم بنفسه.

وقد خدم هذا الرجل «شاه طاهر» في الهند خدمة كبيرة؛ فقد تربّىٰ علىٰ يديه علماء كثيرون في مختلف الفنون والفروع الإسلامية، وكانت حوزته العلمية من إحدىٰ كبريات الحوزات العلمية في الهند. وله خدمات قيمة يستحق أن يكتب بشأن هذا الرجل المجاهد

وخدماته وجهاده كتاب مستقل مفصّل. وللنظام شاهين أيضاً تاريخ مفصّل يستحق أن يكتب فيه كتاب كبير.

... والملوك الأوديّون

وعلىٰ عهد السلطان حسين الصفوي هاجر السيد محمد أحد علماء نيشابور إلىٰ الهند وأقام بدهلي، ودخل أولاده في سلك مناصب الدولة، واهتمت الدولة بهم كثيراً حتىٰ أصبح أحد أحفاد السيد محمّد باسم السيد برهان الملك حاكم، صوب أود، من بلاد الهند واستقل هذا هناك بعد مدة وقطع علاقاته بدهلي واستمر أولاده ملوكاً بتلك الناحية.

وهاجر إلىٰ الهند علىٰ عهد هؤلاء الملوك النيشابوريين جماعة كثيرة من نيشابور و (مشهد الإمام الرضا عليه السلام) وسائر المدن الخراسانية وقطنوا في لكهنو، وكان كل أو جلّ رجال الدين والسياسة لهؤلاء الملوك خراسانيين منهم السادة النقوية النيشابورية. وقد كان المرحوم مير حامد حسين النيشابوري صاحب «عبقات الأنوار » في ظل هؤلاء. وقد كتب لهؤلاء تواريخ فارسية في الهند منها كتاب «تاريخ شاهيّة نيشابورية ».

وحكمت طبقات أخرىٰ غير من ذكرنا هنا في مقاطعات وولايات الهند: بنگاله، وبيهار، وكجرات وبرار وپنجاب وغيرها وبذلت كل أسرة منها في سبيل نشر الإسلام و تبليغ التشيع جهداً كبيراً. وللاسلام في الهند تاريخ طويل ينبغي أن تتفرّغ للعمل و التحقيق فيه لجنة من العلماء والباحثين، ومن حسن الحظ، توافر مصادر كثيرة من كتب المكتبات الهندية والباكستانية الكثيرة.

الإسلام في كشمير

كتب المؤرخون المسلمون أن الإسلام لم يدخل كشمير حتىٰ عام ٧١٥ الهجري وفي هذا العام دخل كشمير رجل ايراني عليه بزّة الدراويش «القولوندريين » وأخذ يسعىٰ ويعمل في هذا المقاطعة في سبيل نشر الإسلام وتبليغه. وابدىٰ الكشميريون والهنود عاطفة خاصة واخذوا يحيطون به ويحوطونه بهالة من الكرامة.

وجاء في تاريخ «فرشته»: كان هذا الرجل يدعىٰ: شاه ميرزا، دخل إلىٰ مدينة «سري نگر» علىٰ عهد سيه ديو حاكم كشمير، واقبل علىٰ خدمة هذا الحاكم (راجه) وأخذ شاه ميرزا ينفذ إلىٰ قلب الحاكم شيئاً فشيئاً حتىٰ توفي سيه ديو وملك الحكم بعده ابنه رنجن فجعل شاه ميرزا وزيراً مستشاراً لديه، وهكذا صعد الميرزا حتىٰ استقل أولاده بالسلطة لأنفسهم.

وتوفي رنجن بعد مدة وملكت بعده زوجته، وخالفها شاه ميرزا وأولاده، حتىٰ تزوجها، وقبلته زوجاً وحاكماً وأسلمت علىٰ يديه ودعىٰ سلطان كشمير وخطب باسمه و تلقّب بلقب «شمس الدين».

وقد نشر هذا الرجل الإسلام في الهند وسعىٰ كثيراً في تبليغه وإرشاد الناس إليه وأسلم علىٰ يده وبعده أكثر أهالي كشمير.

وممن خدم الإسلام في كشمير، السيد مير علي الهمداني، وهو رجل كبير من مفاخر المسلمين وقد تتلمذ علىٰ يديه ألوف من الطلبة أصبح كل واحد منهم أستاذاً يدرس الآخرين. وله الآن في كشمير مزار محترم يزار ويكرم، وحينما تمر مواكب عزاء الإمام الحسين عليه السلام علىٰ مزاره تنكّس أعلامها احتراماً لهذا السيّد ناشر الإسلام والتشيع.

الإسلام في الصين

لا يعرف بشكل دقيق متىٰ دخل الإسلام إلىٰ تخوم أراضي الصين، إلّا أن من المسلم به أنه دخل إليها علىٰ أيدي تجار خوارزم وسمرقند وبخارىٰ في القرون الإسلامية الأولىٰ. وزاد تردد الايرانيين إلىٰ الصين علىٰ عهد خوارزمشاه وخاصة علاء الدين محمّد خوارزمشاه الذي استولىٰ علىٰ تركستان. وسكن الصين بعد حملة المغول وتسلطهم علىٰ ايران جماعة كبيرة من الايرانيين، ولما دمر جنگيزخان مدن خراسان أمر أن يذهبوا بأرباب العلوم و المعارف وأصحاب الحرف والصنائع إلىٰ الصين ومغولستان (منغوليا) كي يعلّم هؤلاء أهل الصين مما يعرفون من الفنون في ايران فعلّم الايرانيون أهل الصين الدين والصناعة، وهكذا وصل الإسلام إلىٰ الصين علىٰ أيدي الايرانيين عن طريق الوعظ

والإرشاد والنصيحة. ويدل علىٰ هذا أن جميع كتب الإسلام في الصين كانت باللغة الفارسية فقط.

الإسلام في جنوب شرقي آسيا وافريقيا الشرقية

ووصل الإسلام عن طريق الهند وموانئ الخليج وبحر عمان إلىٰ دول جنوب شرقي آسيا و افريقيا الشرقية وجزر المحيط الهندي. ولجماعة من التجار والبحّارة الايرانيين سهم كبير في وصول الإسلام إلىٰ هذه المناطق. فبعد أن هجم المغول علىٰ ايران وأبادوا المدن العامرة لهذه البلاد وهاجر منها جماعة من العلماء والتجار، فالذين كانوا في شرقي ايران هاجروا إلىٰ الهند وتوابعها، والذين كانوا في جنوب ووسط ايران فرّوا عن طريق البحر إلىٰ حيث انتهىٰ بهم المسير، واضطر رجال الجنوب من ايران والخليج وبحر عمان الذين كانت لهم معرفة بالطرق البحرية إلىٰ أن يختاروا العيش برؤوس أموالهم في إحدىٰ النقاط النائية، أو أن يفروا بفقرهم وفاقتهم إلىٰ دول جنوب آسيا. وان الايرانيين المقيمين بافريقيا الشرقية واندونيسيا أكثرهم من أهالي فارس (شيراز) والجنوب، وعلىٰ أي حال فقد انتشر الإسلام علىٰ أيدي هؤلاء المهاجرين من المدن البائدة عن طريق الخطابة والوعظ والارشاد ولهؤلاء آثار محفوظة في جنوب شرقي آسيا وأفريقيا الشرقية بعد مرور قرون وسنين. وللتحقيق نحن بحاجة إلىٰ كتاب مستقل.

الإسلام في المغرب وشمال أفريقيا

لقد أطاح أهالي خراسان بنهضتهم البطولية بالبلاط الأموي وحينما استقر العباسيون علىٰ أريكة الخلافة ابعدوا العرب عن مناصب الحكومة باستثناء عددٍ قليلٍ من الخواص، اشركوهم في امور دولتهم الجديدة، وحيث كان ظهور دعوتهم من خراسان وعلىٰ أيدي الخراسانيين فقد أوكلوا الولاية في أكثر البلاد إلىٰ رجال خراسان وأمّروهم في شرق العالم آنذاك وغربه.

وحينما رجع المأمون من خراسان إلىٰ العراق رافقه جماعة من أشراف ورجال

خراسان فأوكل المأمون إليهم الحكم في كثير من مدن البلاد. وكـان المـغرب الأقـصىٰ وشمال أفريقيا من المناطق التي يخافون منها علىٰ أنفسهم إذ كانت حكـومة الانـدلس بأيدي الامويين فكانوا يتخوفون من خطرهم من تلك الناحية. ولذلك كـانوا يـختارون حكام مصر وأفريقيا من بين رجال خراسان الذين كانوا أعداء بني أمية الالداء والاشدّاء. وذلك منذ عهد المهدي العباسي وما بعده وعلىٰ هذا العهد زاد نفوذ الخراسانيين ورجال شرقي ايران في مصر ومناطق أفريقيا الشمالية وأصبح حفظ الحدود والثغور الإسلامية بتلك النواحي بأيدي الخراسانيين وكان أمر الجهاد والصلح بأيديهم. فسعت هذه الأُسر الايرانية في المغرب الأقصىٰ وجزر البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرىٰ في سـبيل تبليغ الإسلام سعياً حثيثاً. والآن نذكر أسماء الحكام من هؤلاء من زمن المهدي العباسي حتىٰ ظهور الفاطميين في مصر وأفريقيا وإليك أسماءهم:

١ ـ يحيىٰ بن داود النيشابوري.

٢ ـ مسلمة بن يحيىٰ الخراساني.

٣ ـ عبّاد بن محمّد البلخي.

٤ ـ سري بن حكم البلخي.

٥ ـ محمّد بن سري البلخي.

٦ ـ عبدالله بن سري البلخي.

٧ ـ عبدالله بن طاهر البوشنجي.

٨ ـ عمير البادغيسي الهروي.

٩ ـ إسحاق بن يحيىٰ السمرقندي.

١٠ ـ عبدالواحد البوشنجي.

١١ ـ عنبسة بن إسحاق الهروي.

١٢ ـ يزيد بن عبدالله.

١٣ ـ مزاحم بن خاقان.

١٤ ـ أحمد بن مزاحم.

١٥ ـ ارخوز بن اولغ.

١٦ ـ أحمد بن طولون الفرغاني.

١٧ ـ خمارويه بن أحمد الفرغاني.

١٨ ـ جيش بن خمارويه الفرغاني.

١٩ ـ عيسىٰ النوشهري البلخي.

٢٠ ـ هارون بن خمارويه الفرغاني.

٢١ ـ شيبان بن أحمد الفرغاني.

٢٢ ـ محمّد بن علي الخلنجي.

٢٣ ـ محمّد بن طغبج الفرغاني.

٢٤ ـ انوجور بن اخشيد الفرغاني.

٢٥ ـ علي بن اخشيد الفرغاني.

٢٦ ـ أحمد بن علي بن اخشيد.

٢٧ ـ شعلة الاخشيدي.

٢٨ ـ حسن بن عبيدالله الاخشيدي.

٢٩ ـ فاتك الاخشيدي أمير الشام.

٣٠ ـ حسين بن أحمد بن رستم.

هؤلاء الثلاثون كلهم خراسانيون، وكانوا يحكمون طوال مائتي سنة علىٰ مصر وشمال أفريقيا والمغرب الأقصىٰ وسواحل البحر الأبيض المتوسط وسائر الأراضي الإسلامية في نواحي الغرب وسواحل المحيط الاطلسي، وكان نشر الشريعة والدفاع عن حدود بلاد الإسلام وثغور الاراضي المفتوحة في بعض نواحي الاندلس وأوربا بأيدي هؤلاء الخراسانيين وعلىٰ عهد هؤلاء الحكام هاجر من خراسان وسائر مدن إيران عشرات من الفقهاء والمجتهدين والمفسرين والمحدثين والقضاة والأمراء والكتاب والسياسيين إلىٰ تلك المناطق الغربية وشيّدوا هناك قواعد العقائد والمباني الإسلامية ممن سجّلتهم كتب العلوم والأدب والتاريخ الإسلامي لشمال أفريقيا والاندلس في بطونها.

وسنذكر هذه الأمور بالتفصيل إن شاء الله عن المصادر المعتبرة المحفوظة في مكتبات تونس ومراكش والتي جاء في الفهرس المخطوط عنها في كتاب «تاريخ خراسان ـ الكبير»[1].

ردود الفعل*

من أجل ان نكتشف مدىٰ إخلاص الايرانيين للإسلام فإن لنا مقياساً حسناً، وهو أن نرىٰ كيف كانت ردود الفعل عند الايرانيين في الحركات التي ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري في مخالفة الاصول الإسلامية؟ فهل أن الايرانيين أيدوا المخالفين أم قاوموهم وثاروا عليهم؟.

فالذي نراه في ذلك العصر من الحركات المخالفة للإسلام ثلاثاً:

أولاها: حركة الزنادقة التي ظهرت في أوائل القرن الثاني الهجري وكانت تخالف أساس التوحيد وسائر الاصول الاسلامية وكانت تسعىٰ جاهدة للتشكيك في مباني العقائد الإسلامية.

وثانيتها: حركة القومية العربية التي حرّكها الامويون والتي سحقت تحت قدميها أهم الاصول الاجتماعية في الإسلام وهي قوله سبحانه ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

---

١ – هذا آخر ما نقلناه عن مخطوطة الشيخ عزيزالله العطاردي حفظه الله ومصادر المقال هي: ـ
١ ـ سنا ملوك الأرض والأنبياء ـ لحمزة الأصفهاني.
٢ ـ كامل التواريخ ـ لابن الأثير الجزري.
٣ ـ تاريخ فرشته ـ محمّد قاسم فرشته الاسترابادي.
٤ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ لابن تغري بردي.
٥ ـ شاهيه نيشابوريه ـ لقاسم علي الهمداني ـ مخطوط.
٦ ـ ولاة مصر ـ للكندي.
٧ ـ طبقات شاهجاني ـ لمحمّد صادق ـ مخطوط.

* – هذا آخر ما عرَّبته من الكتاب علىٰ عهد الاستاذ الشهيد العلّامة الشيخ المطهري (أعلىٰ الله مقامه الشريف) حيث اغتيل برصاص الغدر في ظلام الليل بعد خروجه من جلسة الشورىٰ مع أعضاء (مجلس قيادة الثورة الإسلامية) المنعقدة في بيت الاستاذ المهندس يدالله سحابي، ليلة الأربعاء الخامس من شهر جمادىٰ الثانية عام ١٣٩٩ هـ فإنا لله وإنا إليه راجعون، ولاحول ولاقوة إلّا بالله العلي العظيم.

وثالثتها: إشاعة الفحشاء والمنكر والغناء واللهو والطرب بين الناس والتي قام بها الامويون أيضاً وتوسعت علىٰ عهد العباسيين.

هذه الحركات الثلاث ترتبط بالاصول العقائدية والاجتماعية والاخلاقية العملية في الإسلام فإن كان للايرانيين في هذه الحركات دور. فما هو هذا الدور؟

يدور المؤرخون الاجتماعيون حول حركة الزندقة في القرن الثاني الهجري من جوانب مختلفة!

فهم يبحثون أوّلاً حول كلمة الزندقة ما هي، وماهي أصولها؟ فهل أن كلمة «الزنديق» معرب «زنديك »؟ أم أن أصلها شيء آخر وعلىٰ الحالين فمن هم الزنادقة؟ فهل أن الزنادقة هم أتباع ماني؟ أم يقصد بالزنادقة الايرانيون الباقون علىٰ دينهم القديم سواء كان الزرادشتية أو المانوية أو المزدكية؟ أم أن المقصود بها طبقة منكري ماوراء الطبيعة الذين كانوا بالطبع ينكرون جميع الاديان بما فيها المانوية؟.

ومن المؤكد أن الكلمة كانت تطلق علىٰ جميع من سبق وصفهم بل حتىٰ علىٰ مجموعة من المسلمين المتجاهرين بالفسق والفجور المعلنين بهما الذين لايبالون بما قيل فيهم وما يقال والذين كانوا يسخرون أحياناً من المتدينين وينشرون كلاماً في ذلك يعد إهانةً للدين نفسه.

... فما هي جذور الزندقة بين العرب؟ ومتىٰ ظهرت هذه الكلمة بينهم؟ فهل أنهم عرفوا الزندقة بعد اختلاطهم بالامم ولاسيما الايرانيين؟ أم أنهم كانوا يعرفونها حتىٰ قبل ظهور الإسلام؟.

يعتقد الباحثون أن المعنىٰ الاصيل لهذا الكلمة هو ما كانت تستعمل فيه بادئ الأمر وهي المانوية، ثم استعملت بشأن المجوس فالدهريين، ثم في كل مرتدّ عن الإسلام داخل فيه بالاسم والرسم فحسب.

ومن حيث القدم يقال ان هذه الكلمة كانت موجودة قبل الإسلام بين العرب ففي كتاب «المعارف لابن قتيبة » و «الاعلاق النفيسة لابن رسته »: أن قريشاً كانت قد عرفت هذه الكلمة ومعناها عن طريق عرب الحيرة قبل الإسلام.

وعلىٰ أي حال فهناك قائمة أسماء من القرون الأولىٰ الإسلامية بعضها عربية وأخرىٰ ايرانية يتهم أصحابها بالزندقة، من قبيل:

أبو شاكر الديصاني، أبو نؤاس، أبو مسلم الخراساني، ابن الراوندي، ابن مناذر، البرامكة، افشين بشار بن برد، حماد عجرد، حماد الراوية، حماد بن زبرقان، حسين بن عبدالله ابن عبيدالله بن العباس، داود بن علي. صالح بن عبدالقدوس، عبدالكريم بن أبي العوجاء، عبدالله بن المقفع، علي بن الخليل، عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، مطيع ابن اياس، يونس بن أبي فروة، يحيىٰ بن زياد، يزيد بن الفيض، يعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن المطلبي، الوليد بن يزيد بن عبدالملك بن مروان بن أبي العاص بن امية.. بعض أصحاب هذه الأسماء ـ كعبد الكريم بن أبي العوجاء ـ كانوا ينكرون ماوراء الطبيعة قطعاً، فلاشك في أن هذا الرجل ـ حسب أحاديث الشيعة في محاجته مع الأئمة الاطهار وأصحاب الأئمة عليهم السلام ـ كان ينكر ماوراء المادة والطبيعة فلاشك في زندقة بعض هؤلاء ولنا شك قوي في زندقة آخرين منهم.

والقرائن تدلنا علىٰ ان ظهور جماعة من الزنادقة بمعنىٰ المانوية والثنوية القائلين بوجود إلهين اثنين: نور وظلمة، أو بمعنىٰ الدهريين ومنكري ماوراء المادة والطبيعة؛ أصبح مستمسكاً لرجال السياسة وبعض أصحاب النفوذ كي يحطّموا أعداءهم بهذه الحجة الدينية ولهذا فلايمكن الاعتماد علىٰ زندقة جميع من اتهم بها ولاسيما ونحن نرىٰ بين المتهمين من يعرف بالبر والزهد والوفاء للإسلام، أن بينهم من هو من شيعة أهل البيت وأعداء الخلفاء ومن الطبيعي أن يتهم هؤلاء بكل شيء من قبل جهاز الخلافة.

وبين هؤلاء من اتهم بالزندقة لاشتغاله بالعلوم العقلية: فقد قال ابن النديم في الفهرست في ترجمة أبي زيد أحمد بن سهل البلخي: «وكان يُرمىٰ أبو زيد بالالحاد» ثم يروي عن أحد أصدقائه أنه كان يقول فيه: «هذا الرجل مظلوم ـ يعني أبا زيد ـ وهو موحد أنا أعرف به من غيري وإنا نشأنا معاً وإنما أتىٰ من المنطق وقد قرأنا المنطق وما ألحدنا بحمد الله»[1].

---

١ ـ الفهرست: ص ١٩٨. ط مصر.

وفي الاغاني لابي الفرج الاصبهاني في ترجمة حميد بن سعيد المعتزلي المعاصر لابن أبي داود قاضي القضاة علىٰ عهد المعتصم «كان حميد بن سعيد وجهاً من وجوه المعتزلة فخالف أحمد بن أبي داود في بعض مذهبه فاغرىٰ المعتصم بأنه شعوبي زنديق»[1].

«ويروىٰ عن رجل في ابن مناذر أنه كان ذكر ابن مناذر في حلقة يونس فقدح فيه أكثر أهل الحلقة حتىٰ نسبوه إلىٰ الزندقة فلما صرت في السقيفة التي في مقدم المسجد سمعت قراءة قريبة من حائط القبلة فدنوت فإذا ابن مناذر قائم يصلي فرجعت إلىٰ الحلقة فقلت لا علاقة للرجل بما قلتم وها هو قائم يصلي حيث لا يراه إلّا الله»[2].

واتهم افشين بالزندقة ويرىٰ بعض المؤرخين أن الزندقة كانت تهمة الصقها به نظراؤه السياسيون.

وعادىٰ ابن المقفع كل من الخليفة العباسي المنصور الدوانيقي وحاكمه علىٰ البصرة سفيان بن معاوية المهلبي وأخيراً قتله سفيان بأمر سري من الخليفة باتهامه بالزندقة وكان ابن المقفع عالماً نقل كتب ماني وغيره إلىٰ العربية ويبدو من بعض ما كتبه أنه كان قد اخلص للاسلام. ومن الواضح أن نقل كتب ماني إلىٰ العربية أو حتىٰ الاشتراك والحضور في بعض حلقات المانويين لا يصبح دليلاً كافياً علىٰ زندقة ابن المقفّع.

يقال: ان الاصمعي كان يمدح البرامكة ويثني عليهم أيام عزتهم فلما أفل نجم البرامكة هجاهم واتهمهم بالزندقة.

ويعتبر المهدي العباسي بطل مكافحة الزندقة فهو الذي قتل عدداً كبيراً منهم و ادّعىٰ أنّ جدّه العباس بن عبدالمطلب أمره في الرؤيا بقتلهم. وكان بشار بن برد في بلاط المهدي وصديقاً له، ومع اشتهاره بالزندقة عن عمر ناهز الثمانين لم يتعرض المهدي له بسوء بل حاول تأويل أقاويل شاعره العزيز حتىٰ دخل بشار في حريم سياسة المهدي و هجاه في رباعية خاطب بها بني امية وحينئذٍ ثارت غيرة المهدي علىٰ زندقة ابن برد وأمر أن يجلد بالسياط فجلد حتىٰ مات!.

---

١ - الأغاني: ج ١ ص ١٧.

٢ - الاغاني: ج ١٧ ص ٢٩.

والآن لنر ما هي ردود الفعل لدىٰ الايرانيين المسلمين أمام حركة الزندقة و الزنادقة؟

للاجابة نقول: إن حركة الزندقة كانت تنسب إلىٰ عدد من الايرانيين المتظاهرين بالاسلام، ومع ذلك فلا نرىٰ أنها فاشية بين الايرانيين بل نرى أن الايرانيين قاوموها أشد مقاومة في ناحيتين: كلامية من قبل متكلمي المسلمين الايرانيين وفقهية من قبل فقهاء المسلمين الايرانيين أيضاً.

فالعراق كما نعلم كان المركز الاكبر لتجمع الايرانيين المسلمين وفقهائهم وكانت ردود فعل فقهاء العراق علىٰ الزندقة والزنادقة أشد من سائر الفقهاء[1].

فقد كان أبو حنيفة وأصحابه ايرانيين علىٰ خلاف الشافعي وأصحابه وكانت فتوىٰ الشافعي بشأن الزنادقة أقل وطأة من فتوىٰ الاحناف ففي باب قبول المرتد مسألة اختلف فيها الفقهاء فمنهم من لا يفرق بين المرتد والزنديق في قبول توبتهما والشافعي من هؤلاء والفريق الآخر يقول بعدم قبول توبة المرتد، وأبو حنيفة من هؤلاء في أحد قوليه و قيل ان أصحاب أبي حنيفة كانوا يفتون بعدم قبول توبة الزنادقة جازمين بذلك أقوىٰ جزم من فتوىٰ شيخهم أبي حنيفة. وعرفت هذه الفتوىٰ ردّ فعل شديد من قبل الايرانيين بالنسبة إلىٰ الزنادقة المنسوبين إليهم.

أما الحركة الثانية أي التمييز العنصري والمفاخرات القومية التي كانت ضد أصل المساواة الإسلامية؛ فقد وجدت هذا التحريف علىٰ أيدي العرب إذ كانت سياسة الامويين مبنية علىٰ أصل تقدم العرب علىٰ غيرهم في الدولة الاسلامية!.

---

١ - نقصد بالفقهاء هنا فقهاء السنة. ولقد كان رد الفعل عند علماء الشيعة الايرانيين شديداً أيضاً فالشيخ الطوسي محمّد بن الحسن الخراساني المتوفىٰ ٤٦٠ هعنون هذه المسألة في كتاب المرتد من المجلد الثاني من كتاب «الخلاف في الفقه» وهو يفرق بين المرتد والزنديق ويقول في الفرق بينهما: (الزنديق: هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر. فإذا تاب وقال تركت الزندقة روىٰ أصحابنا: أنه لاتقبل توبته: لانه دين مكنوم...) وما أظهره من التوبة لم يدل دليل علىٰ اسقاط القتل عنه ـ فإن قتله بالزندقة واجب بلا خلاف ـ وأيضاً فإن مذهبه إظهار الإسلام فإذا طالبته بالتوبة فقد طالبته بإظهار ما هو مظهر له، فكيف يكون إظهار دينه توبة له؟ والمرتد علىٰ ضربين: أحدهما ولد علىٰ الفطرة الاسلام من بين المسلمين فمتىٰ ارتد وجب قتله ولاتقبل توبته. والآخر: كان كافراً فأسلم ثم أرتد: فهذا يستتاب فإن تاب، وإلّا وجب قتله...) (الخلاف: ج ٢ ص ٤٣٤).

وكان معاوية قد كتب إلىٰ عماله يأمرهم بأن يفضلوا العرب علىٰ غيرهم في كل شيء. فكانت هذه السياسة ضربة قاضية للهيكل الاسلامي، إذ أصبحت هي أساس انقسام الدولة الإسلامية الكبرىٰ إلىٰ دويلات صغار، فالامم لم تتحمّل تفوق امة أخرىٰ وقيمومتها عليها. وكان الايرانيون قد قبلوا الاسلام ديناً لهم ولم يقبلوا العرب أسياداً عليهم بل إنما كانت الامم ترحب بالاسلام ـ بالاضافة إلىٰ سائر مزاياه ـ لتجرّده من أيلون قومي أو صبغة عنصرية، فهو بذلك كان ديناً إنسانياً عالمياً. ولم يكن الايرانيون وسائر المسلمين ـ يقبلون سيادة العرب عليهم أبداً.

وكان أول ردّ فعل أبداه الايرانيون أمام هذه التمييزات ردّاً إنسانياً منطقياً؛ إذ انهم دعوا العرب إلىٰ العمل بكتاب الله، وصدق رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم إذ قال: «ليضربنّكم والله علىٰ الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدءاً»[1].

إن الدعوة التي قام بها الايرانيون في صدر الإسلام كانت دعوة إلىٰ المساواة الإسلامية لاتفضيل العجم علىٰ العرب كما يقال.

كما أن ثورة أصحاب الرايات السود الخراسانية ضدّ الظلم والتمييز الأموي بدأت باسم الإسلام والعدالة الإسلامية لاباسم آخر فدعاة ونقباء العباسيين الذين كانوا يدعون الناس سراً كانوا يدعونهم إلىٰ الرضا من آل محمّد وإلىٰ العدالة الإسلامية والراية التي وصلت إلىٰ الخراسانيين من قبل صاحب الدعوة كانت سوداء كتب عليها هذه الاية المباركة ﴿اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله علىٰ نصرهم لقدير﴾.

وكانت الدعوة قد بدأت دون شعار سوىٰ الشعارات الإسلامية المقدسة ومن دون أي اسم سوىٰ عنوان أهل البيت وآل محمّد والقرآن والإسلام، وبدون أن يكون هناك تصريح باسم آل العباس أو حتىٰ باسم أبي مسلم الخراساني أو القومية الايرانية أو أي اسم آخر، ثم جعل أبو مسلم إماماً عليهم من قبل إبراهيم، ففي أحد أسفار الدعاة العباسيين إلىٰ مكة بعنوان الحج ولقائهم بإبراهيم الإمام، عين أبو مسلم إماماً لأهل خراسان من دون أن يعلم

---

١ – كتاب «الغارات» لابي إسحاق ابراهيم بن محمّد الثقفي الكوفي المتوفىٰ ٢٨٣ هـ ص ٤٩٩ ج ٢. بتحقيق المتحدث الأرموي.

من هو؟ ومن أين هو؟ وهل هو عربي أم ايراني؟ ولكنه لظهوره في خراسان لقب بالخراساني.

أجل حاول بعض المؤرخين الايرانيين أن يحسبوا التقدم والموفقية التي حصلت لثورة أصحاب الرايات السود رهناً لشخصية أبي مسلم الخراساني. ونحن لانشك في أن أبا مسلم كان قائداً محنكاً لائقاً إلّا أن الذي مهّد الارضية لم يكن هو أبو مسلم بل هو ما قلناه. ولهذا يروىٰ أن أبا مسلم حينما عاتبه المنصور أخذ يتكلم عن خدماته في سبيل استقرار الخلافة العباسية وحاول أن يهدّئ المنصور بتذكيره بخدماته في هذا السبيل. فأجابه المنصور: لو كان الداعي إلىٰ هذا الأمر أمة من الاماء لأجيبت، ولو كنت أردت أن تدعو الناس أنت وحدك إلىٰ هذا الأمر لما كان يجيبك إليه أحد! وكلام المنصور هذا وإن كان فيه شيء من المبالغة إلّا انه حقيقة علىٰ أي حال، وليس أدل علىٰ هذا مما فعله المنصور به إذ قتله وهو في قمة أنتصاراته ولم تقم لقتله أية قائمة!

إن العباسيين إنما أصبحوا قادة ثورة الايرانيين بما كانوا يؤججون فيهم من الروح الإسلامية وحينما كانوا يتلون آية ﴿اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا﴾ فيعدّدون مظالم بني‌أمية كانوا يحدثونهم عن ظلمهم لآل محمّد أكثر من أن يذكروهم بظلمهم للايرانيين!

وفي سنة ١٢٩ ويوم عيد الفطر أعلن أصحاب الرايات السود ثورتهم اعلنوها ضمن خطبة صلاة العيد وقد صلاها بهم رجل يدعىٰ سليمان بن كثير وكان عربياً من دعاة بني العباس وكان شعارهم يوم ذاك هذه الآية الكريمة ﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ فكانت هذه الآية تبين شطراً من أهدافهم. ولوجود كلمة «شعوباً» في هذه الآية وكونها ـ كما قال المفسرون ـ تعني المجتمعات غير القبلية، سمي الايرانيون الدعاة إلىٰ المساواة الاسلامية ونبذ التمييزات، سموا «شعوبيين».

إن ردّ الفعل هذا لتلك التحريفة العربية كان رداً إسلامياً مائة بالمائة، وكان هذا علامة علىٰ علاقة الايرانيين الصادقة بالإسلام ديناً وعقيدة إذ لو لم يكونوا مخلصين للإسلام لكفاهم الاعتماد علىٰ قوميتهم وتاريخهم كالعرب ولو فعلوا هذا لتقدموا في دعواهم علىٰ

أخوانهم العرب قطعاً إذ أن ما تفخر به العنصرية الايرانية أكثر من العرب قطعاً. ولكنهم لم يفعلوا هذا بل لجأوا من ضيم القومية العربية إلىٰ ظل الإسلام العادل لا إلىٰ أي شيء آخر.

ولاننكر أن حركة الشعوبية انحرفت عن مسيرتها الأولىٰ الصحيحة وأنها وقعت فيما دفعت فيه القومية العربية من حبائل الشيطان أي في مجرىٰ المفاخرات القومية والعنصرية وأن العنصر الايراني يفضل العناصر الاخرىٰ ولا سيما العربية بل تجاوزت (الشعوبية) أحياناً هذه الحدود العنصرية إلىٰ حد الزندقة والالحاد.

لكن ما أن بلغت الشعوبية هذه المرحلة حتى انفصلت عنها عامة المسلمين الايرانيين بما فيهم بعض العلماء الاتقياء وحكمت عليها بالانحراف واستنكرتها وهذا يعني أننا نواجه هنا من الايرانيين في وقف أما هذا الانحراف ـ الذي لم يكن من قبل ـ بردّ فعل إسلامي يتبرأ من هذا الانحراف عن الإسلام. ولقد كان هذا الرد العنيف هو السبب في هزيمة هذه الحركة الشعوبية ولو حافظ الايرانيون علىٰ المسيرة الصحيحة لهذه الحركة لخدموا بدعوتهم تلك أنفسهم خاصة ومسلمي العالم عامة.

وقد اسف بعض الايرانيين من هذا التحريف في دعوة الشعوبية ورآه خطراً علىٰ الإسلام حتىٰ انه برغم قوميته الايرانية أخذ يتعصب للعرب كردّ فعل للتحريف! وهذا من عجائب التاريخ ومن علائم تأثرهم العميق بالإسلام.

فلقد كان الزمخشري صاحب كتاب «الكشاف » من أكابر علماء ايران ومن نوادر الايام وكان أصله من أهل خوارزم بخراسان وإنما لقب «جارالله » لجواره بيت الله الحرام ونراه يبدأ كتابه «المفصّل في الصرف والنحو» بخطبة يقول فيها:

«الله أحمد علىٰ أن جعلني من علماء العربية وجبلني علىٰ الغضب للعرب والعصبية و أبىٰ لي أن اتفرد عن صميم انصارهم وامتاز وانضوي إلىٰ لفيف (الشعوبية) وانحاز، و عصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم إلّا الرّشق بالسنة اللاعنين والمشق بألسنة الطاعنين)

ومن العبارة الاخيرة نعرف ان الشعوبية أصبحت مردودة بنظر الايرانيين انفسهم إلىٰ درجة أن لم يكن يحصل الداعي إليها علىٰ شيء سوىٰ اللعن والملام!

والثعالبي النيسابوري صاحب كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أدباء أهل العصر» المتوفىٰ ٤٢٩ هجرية وهو من أكابر مفاخر العلماء الايرانيين، نجده في مقدمة كتابه «سر الادب في مجاري كلام العرب» يكرّس قلمه في شعارات وهتافات لحماية العرب ضد الشعوبية ويتكلم عن تقدم العرب علىٰ غيرهم كعربي متعصب تماماً، فبعد الحمد والثناء علىٰ الله والرسول يقول: «فان من أحب الله تعالىٰ أحب رسوله محمداً المصطفىٰ صلّىٰ الله عليه وآله، ومن أحبّ الرسول أحبّ العرب ومن أحبّ العرب أحبّ اللغة العربية التي نزل بها أفضل الكتب علىٰ أفضل العرب والعجم، ومن أحب اللغة العربية عُني بها وثابر عليها وصرف همه إليها، ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان وآتاه قوة بصيرة وحسن سريرة فيه اعتقد أن محمداً صلوات الله عليه خير الرسل، والإسلام خير الملل والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والالسنة»[1].

وان نظرة الثعالبي في تقديم العرب علىٰ غيرهم في الإسلام نظرة خاطئة؛ إذ لا ملازمة بين الإيمان بالاسلام ديناً وبين تقديم العرب قومياً، بل العكس هو الصحيح، إذ أن هذه الفكرة تنافي الإيمان بالإسلام فالملازمة الصحيحة هي بين الإيمان بالاسلام والإيمان بعدم تقدم أي قوم علىٰ أي قوم آخرين مهما وكيفما كانوا؛ فان الفضل بحكم القرآن إما بالعلم لقوله سبحانه: ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾ أو بالتقوىٰ لقوله سبحانه: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ أو بالجهاد والعمل في سبيل الله لقوله سبحانه: ﴿فضّل الله المجاهدين علىٰ القاعدين أجراً عظيماً﴾. والحب للعربية ليس فرعاً لحبّ العرب علىٰ رغم دعوىٰ الثعالبي وصغراه وكبراه؛ بل هو في العلاقة بالقرآن الكريم والرسول العظيم... ولكن هذه المبالغة الثعالبيةإنما هي ردّة فعل المبالغة الشعوبية.

وأبو عبيدة معمّر بن المثنىٰ المتكلم المعروف في القرن الثاني الهجري،ايراني يتعصّب للعرب وينتقص العجم، وله كتاب يدعىٰ «مقاتل فرسان العرب».

ويعارضه علي بن الحسين المسعودي المؤرخ العربي الشهير صاحب كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتاب «التنبيه والاشراف» من أحفاد عبدالله بن مسعود

---

١ - سر الارب في مجاري كلام العرب للثعالبي النيسابوري ط. طهران ١٢٧٢ هـ

الصحابي الجليل، والمتوفىٰ في أوائل القرن الخامس اي في ٤٣٦ هـ يعارض ابا عبيدة في كتابه «مقاتل فرسان العجم» ويقول في كتابه «التنبيه والإشراف» في ذكر ملوك ساسان: «... وقد أتينا علىٰ خبره وسبب مقتله ومقتل غيره من فرسان الفرس وشجعانهم علىٰ طبقاتهم من الملوك وغيرهم، ممن أجمع علىٰ تقدمه وفضله وشجاعته ومقاماته المشهورة و أيامه المذكورة في كتاب لنا ترجمناه بكتاب (مقاتل فرسان العجم) معارضه لكتاب أبي عبيدة معمر بن المثنىٰ في (مقاتل فرسان العرب)»[1].

فالمسعودي العربي يرى أن أبا عبيدة لم ينصف العجم ولذلك يردّه بكتاب! او هذا ايضاً من عجائب الاسلام. وليس هدفنا هنا البحث الكامل في ماهية الشعوبية وردود الفعل الموافقة والمخالفة التي ظهرت وانقرضت، فلهذا العمل فرص أخرىٰ. بل نهدف أن نقول: ان الشعوبية كانت ـ ابتداءً ـ نهضة نظيفة ورد فعل جميلاً من الايرانيين أمام التمييز العنصري العربي فلما انحرفت عن مسيرتها الاصلية بأقاويل اقلية ايرانية واصطبغت بصبغة قومية ايرانية بل تلونت أحياناً بصبغة الزندقة ولون الالحاد عوضاً عن الإسلام، حكم عليها بالرد والاستنكار من قبل عامة الايرانيين وعلمائهم المتقين، وقد انقرضت منذ ألف سنة مضت! وإن كان الاستعمار الكافر اليوم يحاول إحياء هذا الميت! ولكنه لن يوفق إن شاء الله!.

وثالثة الحركات المنحرفة ضدّ الإسلام في الصدر الأول التي قاومها الايرانيون أكثر من سائر الأمم الإسلامية الاخرىٰ؛ هي حركة اشاعة الفحشاء والمنكر والغناء والبغي.

وقد كان للغناء والموسيقىٰ في ايران سابقة عهد طويل، وكان للايرانيين ولع شديد باللهو والطرب. فقد كتب مشير الدولة في كتابه «تاريخ ايران» يقول: «ان بهرام غور جاء من الهند باثني عشر ألف مغنية وراقصة ومطربة...» ونقل الدكتور أحمد أمين في «فجر الإسلام» عن تاريخ حمزة الاصفهاني: أن بهرام غور كان قد أمر الناس أن يعملوا نصف النهار ويقضوا النصف الآخر في العيش والطرب وأن يشربوا الخمور ويعزفوا أنغام الموسيقىٰ! و لهذا فقد علا مقام المغنّين. فقد مرّ يوماً بجماعة يتعاطون الخمرة دون مغنٍ

---

١ - التنبيه والاشراف للمسعودي: ص ٨٩ ـ ٩٠ ط. بيروت ١٣٨٨ هـ

لهم فسألهم: أين المغني؟ فقالوا: طلبناه فلم نجده لغلائهم. فكتب بهرام إلىٰ ملك الهند يطلب منه المغنّين، فجاءه اثنا عشر ألف مغنٍ وراقص ففرّقهم بهرام في بلدان ايران!...

ولم يعرف العرب من الغناء والموسيقىٰ إلّا صوره البسيطة الساذجة، ولكنهم بعد اختلاطهم بإخوانهم العجم انتشر فيهم الغناء واللهو بشكل سريع، حتىٰ أن الحجاز تقدم في كثرة تعاطيه علىٰ العراق والشام حتىٰ أصبح الحجاز في النصف الثاني من القرن الأول الهجري مركز الفقه والحديث واللهو والموسيقىٰ! وذلك لأن الأمراء والحكام و أصحاب النفوذ الامويين كانوا يشيعون الفاحشة هذه بشكل فاضح! وخالفهم أئمة أهل البيت عليهم السلام مخالفة شديدة، انعكست آثارها في آثارهم من الحديث والفقه! واذا تجاوزنا الائمة عليهم السلام، واردنا أن نحقق الموضوع علىٰ مستوىٰ عامة الناس، رأينا أن عامة المسلمين الايرانيين والعلماء الايرانيين مع ما كان لاسلافهم من سوابق في تعاطي الغناء والطرب قد قاوموا انتشار هذا الانحراف وخالفوه أكثر من عامة العرب وعلمائهم!

فقد كتبوا بشأن مالك بن أنس الإمام المعروف لمذهب المالكية ـ وهو عربي في حسبه ونسبه ـ انه أراد أن يشتغل بالغناء والطرب فمنعته امه وقالت: «يا بني! ان المغني اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت الىٰ غنائه! فدع الغناء وأطلب الفقه فانه لايضر معه قبح الوجه » يقول مالك: «فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي ما ترىٰ »[1].

وكتب أحمد أمين يقول: «والحق أن الحجاز كان غنياً بفنّي الغناء والمنادرة، كما كان غنياً بالفقه والحديث، كان أكثر المغنّين في قصور أمراء بني أمية وخلفائهم ممن تخرّجوا في مدرسة الحجاز. وليس عجيباً أن يكثر الفقه والحديث في الحجاز، لما بيّنّا، إنما كان عجيباً أن يبزّ الحجاز والعراق والشام في الغناء وما إليه، فقد كان أقرب إلىٰ الذهن أن يكون العراق وارث المدنيات المتتابعة، أو الشام وقد تحضّر بحضارة الرومانيين، أسبق من الحجاز في اجادة الغناء وما يحيط به من لهو ومجون والحجاز ـ كما قدّمنا ـ أقرب إلىٰ البداوة، وهو إذا قورن بالعراق أو الشام كان فقيراً مجدباً، فما السر في ذلك؟ » ثم قال:

---

١ - بالفارسية (تاريخ ايران) لمشير الدولة: ص ٢٠١.

«حتىٰ لقد كان فقهاء الحجاز أوسع صدراً وأكثر تسامحاً في الغناء والمجون من أهل العراق. وقد رأينا قبلاً أن ما لأهل العراق من تشدد في الدين كان وليد الفرس»[1].

والذي يدعو للتأمل هو أن الايرانيين كانوا أهل غناء وطرب ولهم في الموسيقىٰ سابقة عهد طويل وهذا الحال يقتضي أن يكونوا هم الذين يحاولون تأويل حرمة الغناء أو أن يتسامحوا في ذلك؛ هذا أولاً. وثانياً: إن الغناء واللهو إنما انتشرا في الحجاز علىٰ أيدي المغنين الايرانيين، فأكثر المغنين المعروفين لذلك العهد كانوا من الايرانيين[2] ومع ذلك نرىٰ أن الايرانيين كانوا أورع من غيرهم عن الطرب ما عدا هؤلاء المطربين المأجورين!

وبالطبع كان هذا يتبع الاجواء الدينية للكوفة إذ ذاك وإلّا فقد كان للاجواء غير الدينية كبلاط هارون الرشيد والبرامكة شأن آخر.

تبليغ الإسلام ونشره

إن مسألة انتشار الإسلام في العالم إسبابه وكيفياته، لهي مسألة مهمة وجديرة بالاهتمام. ومن البدهي أن فطرية هذا الدين ومطابقته للمنطق ومواكبته لسنن الحياة كانت عوامل أساسية في انتشار الإسلام.

ويتشبّث المبشرون المسيحيون بحروب صدر الإسلام، فيعلنون أن عامل التوسع في الإسلام هو الاجبار والاكراه! ونحن نعلم أن لو لم يكن في جوهر دعوة دينية القدرة علىٰ الاقناع فمن المحال أن تكون القوة قادرة علىٰ خلق الايمان والاحساس الديني. أجل لقد وقعت حروب في صدر الاسلام فالاسلام دين اجتماعي لم يتعهد بسعادة الفرد فقط، بل تعهد بسعادة الدنيا والآخرة للمجتمع البشري ولذلك فهو يرىٰ أن شعار «مالقيصر

---

١ - فجر الإسلام: ص ١٧٧.

٢ - يعلم هذا بمراجعة موسوعة (الاغاني) لأبي فرج الاصبهاني، وللمثال نأتي بأسماء بعض مشاهيرهم: ابن مزن المدني (الأغاني ١: ١٥٧) وحنين الحجازي، وأبو منبه الشامي (الأغاني ٢: ١١٩) وداود بن سلم (الاغاني ٥: ١٣٧) وإسحاق الموصلي وابنه إبراهيم.
ومن الفقهاء والمحدثين بالحجاز المتعاطين له: عبدالله بن المبارك، وابن جريح (الأغاني ١: ١٥٧) وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة أحد الفقهاء السبعة (الأغاني ١٧: ١٢١). وسعيد بن المسيب وعبدالله بن المبارك ينكران علىٰ أهل العراق تشددهم في الغناء وتجويزهم للحداء والرجز (الأغاني ١: ١٥٧ و ١٧: ١٢١).

لقيصر وما لله لله » شعار خاطئ ولهذا فقد قرّر الجهاد. ولكن ينبغي لنا أن نرىٰ ما هو هدف الإسلام من الجهاد؟ ومن الذين حاربهم المسلمون في صدر الإسلام؟ وأن تلك الحروب من اطلقت؟ ومن قيّدت أو اسقطت؟

وإلىٰ أين تقدم المجاهدون بجهادهم؟ وما هي تلك المناطق التي تصل إليها خيل ولا ركاب ولا حراب؟ فما أكثر تلك المناطق التيلم تحصل فيها الحرب وان أكثر البلاد الاسلامية التي يعيش فيها المسلمون اقلية لم تطأها أقدام جنود الإسلام.

إن انتشار الإسلام تحقق بصورة طبيعية وعادية. وقد شرحنا في القسم الأول من الكتاب كيف ان الايرانيين قبلوا الدخول في الاسلام بصورة تدريجية ولاسيما بعد أفول سيادة العرب السياسية علىٰ ايران وأن الزرادشتية إنما انكسرت وانهزمت أمام الإسلام في قرون كان الايرانيون قد استعادوا استقلالهم السياسي، فلم تكن هناك أية قوة قادرة علىٰ قسر الايرانيين بترك دينهم السابق.

والمسألة المهمة التي تميز انتشار الدعوة الاسلامية عن المسيحية والمانوية وسائر الدعوات التي انتشرت سريعاً هي أن الذي قام بتبليغ الإسلام، هم عامة المسلمين وليس جهازاً خاصاً للدعاية فعموم المسلمين، وبتأثر من البواعث الوجدانية قاموا بنشر الإسلام وتبليغه، من دون أن يكون ذلك تكليفاً مفروضاً عليهم من قبل جهاز ديني أو غير ذلك. وهذا هو الذي يمنح الإسلام ميزة خاصة فائقة، حتىٰ لايبقىٰ نظير له في هذه الناحية.

ونحن لانستطيع هنا أن نعدّ الاراضي الاسلامية واحدة واحدة فنبحث في كيفية عوامل نشر الإسلام فيها فهذا العمل خارج عن أهداف الكتاب أولاً، وهو يحتاج إلىٰ فرصة للتتبع أكثر أيضاً. بل نحن هنا نبحث في دور الايرانيين في تبليغ الإسلام ونشره وهو دور كبير يصلح ان يكون نموذجاً جيداً لنشر الإسلام في العالم.

يقرب عدد المسلمين اليوم طبقاً للاحصائيات الاخيرة إلىٰ تسعمائة مليون مسلم[1] ويقرب عدد الايرانيين إلىٰ خمسة وعشرين مليوناً[2] وهؤلاء الذين هم الآن أقل من

---

١ - والاحصائية الأخيرة تبلغ بهذا العدد إلىٰ المليارد من النفوس ـ المعرّب.

٢ - والاحصائيات الاخيرة تبلغ بهذا العدد إلىٰ أكثر من خمسة وثلاثين مليوناً ـ المعرّب.

ثلاثين مليوناً[1] لهم الأثر الأكبر في إسلام أكثر من نصف مسلمي العالم ولا أقل من أن تكون إحدىٰ مقدمات ومبادئ إسلامهم دعوة إسلامية من المسلمين الايرانيين.

فاليوم يعيش أكثر من نصف مسلمي العالم في الهند وباكستان واندونيسيا ونتساءل: كيف أسلم أهالي تلك البلاد النائية وهل للايرانيين نصيب في إسلام هذه المناطق؟ ولنبدأ من اندونيسيا:

كتب صاحب كتاب نهضة اندونيسيا في فصل «الدين في اندونيسيا» يقول: «وقد تحقق نفوذ الإسلام في اندونيسيا بالطريقة نفسها التي بيناها لسائر الأديان (البوذية والهندوكية) غير أن انتشار الإسلام قد تحقق لأول مرة علىٰ يد تاجرين عربيين من عنصر ايراني باسم عبدالله العريف وبرهان الدين الشاگردوي، اللذين كانا من التجار المقيمين بكجرات في الجنوب الغربي من الهند فهذان التاجران اللذان كانا يترددان إلىٰ جنوب شرقي آسيا هما اللذان نشرا معارف الإسلام وثقافته العالية في منطقة عملهما»[2]

وكتب يقول: «ان السعي العلني للمسلمين في سومطرة والذي سرىٰ إلىٰ جاوة وكاليمنتان أدّىٰ إلىٰ اختلاف شديد بين المسلمين والحكومة الدينية البوذية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين[3] وأدت هذه الاختلافات أخيراً إلىٰ سقوط امبراطورية «موچوپا هيت» وعرفت اندونيسيا مركزاً لتبليغ الإسلام في جنوب شرقي آسيا لمدة قرن من الزمان. وكان هذا من أثر الاصول الاخلاقية والروحية الإسلامية المبنية علىٰ المحبة والامانة والعدالة والاخوة والمساواة وسائر الاخلاق الفاضلة وكانت هذه الخصائص ملائمة لطبيعة الناس المحليين وعاداتهم القديمة، فكان أن استقبلوا هذا الدين الجديد برحابة صدر، بعد أن كانوا أتباع بوذا مئات الأعوام! وعلىٰ أثر تقدم الإسلام تقهقرت المذاهب و المعارف البرهمية إلىٰ المناطق الجبلية والقرىٰ والارياف في شرقي جاوه، وهنا امتزجت العقائد والتقاليد البوذية بعقائد وتقاليد أهالي هذه الأماكن إلّا أن

---

١ – بل اليوم هم أقل من اربعين مليوناً بقليل – المعرّب.

٢ – بالفارسية: رستا خيز اندونيسيا: ص ٣٠.

٣ – كان أكثر الناس في اندونيسيا من القرن السابع إلىٰ القرن الرابع عشر الميلادي بوذيين والحكومة بوذية.

الإسلام كان في تقدم دائم لا يعرض في مكان إلّا ويحتوي سائر المذاهب المحلية ويجعلها تحت نفوذه[1].

وكتب المؤلف يقول: «ان الدكتور سو كارنو كان يقول في خطابه: ان الشرف و الصدق والمساواة والأمانة.. هي الخصال التي جاء بها الإسلام هدية لشعب اندونيسيا »[2].

وجاء في كتاب «الإسلام صراط مستقيم » بقلم جماعة من علماء مختلف الدول الاسلامية مقال بعنوان «الإسلام في اندونيسيا » بقلم ب. ا ـ حسين جاجا ونينگرات استاذ العلوم الإسلامية بكلية الآداب في اندونيسيا يقول:

«ان أقدم سند تاريخي موجود بأيدينا يذكر فيه انتشار الإسلام في اندونيسيا هو خواطر وذكريات رحلة ماركوپولو حيث توقف ـ أثناء رجوعه في عام ٦٩٢ للهجرة من بلاط «قوبلاى » الصيني إلىٰ «فينيسيا» ايطاليا ـ في نواحي پالارك (شمال سواحل سومطرة فشاهد أن كثيراً من أهالي تلك المناطق اعتنقوا الإسلام تأثراً بدعوة التجار القادمين إليهم من «ساراسين»..

والرحّالة المغربي الشهير ابن بطوطة المتوفىٰ ٧٧٩ هـ في طريقه إلىٰ الصين عام ٧٤٦ هـ زار «سومطرة» وكان ملكهم إذ ذاك الملك ظهير ابن الملك صالح... يقول: «.. ويمضىٰ علىٰ استقرار الدين الإسلامي رسمياً في تلك الديار إذ ذاك قرن من الزمان تقريباً.. » وكتب في كتابه أحاديث عن تواضع وزهد وديانة هذا السلطان الشافعي وأنه رتب مجالس للبحث والجدل في المواضيع الدينية وقراءة القرآن بمحضر العلماء والمتكلمين وأنه كان يذهب لصلاة الجمعة مشياً علىٰ الارض حافياً وكان يجاهد الكفار في حوزته أحياناً... »

ثم يتحدث في مقالة بشأن الرجال التسعة المعروفين بالمقدسين التسعة الذين قاموا بنشر الإسلام في ربوع اندونيسيا، ويقول: إن أحدهم واسمه «سه سيتى جنار » كان يحمل عقائد تشبه عقائد الحلّاج فكان مورداً للطعن من قبل الآخرين ثم يقول:

«ان عقائد «سه سيتى» تشبه عقائد الحلّاج تماماً إلّا أن هذا لايصبح دليلاً علىٰ أن

---

١ - رستاخيز اندونيسيا ـ بالفارسية ص: ٣١ ـ ٣٢.

٢ - بالفارسية: رستاخيز اندونوزيا ص: ٢٨.

الإسلام قدم إلىٰ اندونيسيا عن طريق ايران فقط، إلّا أن من المسلم به أن الإسلام قدم من ايران إلىٰ الهند الغربية ثم إلىٰ سومطرة ثم إلىٰ جاوة، ويمكن تأييد المدعىٰ هذا بمؤيدات كثيرة؛ من قبيل أن الشيعة يجلسون للعزاء في اليوم العاشر من المحرم يوم شهادة الحسين بن علي عليه السلام، وفي اندونيسيا أيضاً يقدم بعضهم إلىٰ بعض طعاماً مطبوخاً باسم «بوبود سورا» الاسم الذي نرجح أن تكون «سورا» هي مصحفة كلمة «عاشوراء» كما يسمون المحرم في جاوه بهذا الاسم «سورا» وبالامكان مشاهدة النفوذ الشيعي في ناحية «أتجه» الواقعة في شمال سومطرة وهم يسمون شهر محرم «شهر الحسن والحسين». ومما يمكن ان يستدل به علىٰ تلقّي اندونيسيا الإسلام عن طريق ايران هو أن القراء حين يتعلمون كيفية قراءة الحروف والاصوات العربية الصحيحة يستعملون المصطلحات الفارسية لا العربية... وهناك علامات أخرىٰ من آثار الثقافة الفارسية تجدها من خلال المطالعات المختلفة للآثار الاندونيسية »[1].

والبروفيسور إسماعيل يعقوب رئيس جامعة سورابای اندونيسية الذي اشترك في المؤتمر الالفي للشيخ الطوسي (قدس سره) في الأيام الأخيرة من عام ١٣٨٨ أو أوائل ١٣٨٩، في حديثه بعنوان «دور العلماء الايرانيين في الثقافة والمعارف الإسلامية والتراث العلمي للعالم » قال – وأنا حاضر:

«إن اسم فارس الذي جاء في الحديث النبوي والذي يعرف اليوم بايران معروف بين مسلمي اندويسيا بشهرة تامة؛ فنحن نعرف ان الدين الإسلامي دخل إلىٰ اندونيسيا علىٰ لسان المبلغين القادمين إلىٰ اندونيسيا من خارجها ولاسيما من ايران فقد قدم هؤلاء إلىٰ اندونيسيا ونشروا الإسلام في جميع ربوعها حتىٰ أصبحت اليوم تشتمل علىٰ مائة وعشرة ملايين نسمة تسعون مليوناً منهم مسلمون »[2]

ولقد كان انتشار الإسلام في الهند وباكستان رهين مساعي المسلمين الايرانيين إلىٰ حد كبير. وقد نقلنا قبل هذا مقالاً للشيخ العلّامة عزيزالله العطاردي بعنوان «النشاط

---

١ – بالفارسية: إسلام صراط مستقيم ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

٢ – الذكرىٰ الألفية للشيخ الطوسي، بالفارسية ج ١ ص ١٥٩.

الإسلامي الايراني » وبالامكان التوصل مما بحث فيه إلىٰ معرفة مدىٰ أثـر المسـلمين الايرانيين في انتشار الإسلام في الهند وباكستان وكانت أكثر هذه المساعي من المتصوفة الايرانيين أو غير الايرانيين.

والاستاذ مظهر الدين الصدّيقي الاستاذ المساعد ورئيس دائرة التاريخ الاسلامي في جامعة السند في حيدرآباد باكستان في مقال بعنوان «الثـقافة الاسـلامية فـي الهـند و باكستان » من كتاب «الإسلام صراط مستقيم » كتب يقول:

«كانت للعرب علاقات تجارية بالهند الجنوبية من قبل ظهور الإسلام واستمرت هذه العلاقات التجارية عن طريق البحر بعد ظهور الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم مع التبليغ بالاسلام حينما أصيبت الهند بالاضطرابـات السـياسية والنـزاعـات المـذهبية اغـتنم المسلمون العرب هذه الفرصة فهاجروا إلىٰ سواحل مالابار وأقاموا فيها. وأثرت سماحة الاسلام ووضوح عقائده في أفكار الهنود أثراً بالغاً حتىٰ اعتنق فيمدة الخمس والعشرين سنة كثير منهم الإسلام بما فيهم سلطان مالابار. واستمرت تجارة العرب مع الهند عـن طريق البحر، إلّا أن الإسلام تقدّم إليهم في الاكثر عن طريق البر أي ممالك ايران وآسيا المركزية.

وكتب يقول: «كان الصوفيون أحب إلىٰ الناس والدولة من علماء الدين وذلك لانهم كانوا يجتنبون التدخّل في الأمور السياسية بينما كان علماء الدين أحياناً يفرضون قيوداً علىٰ أعمال السلاطين لذلك كان أمراء دهلي من هواة الصـوفية. وقـد دعـا الشـيخان الصوفيان سالار مسعود غازي وإسماعيل في القرن الخامس الهجري إلىٰ الإسلام آلافاً من الهنود علىٰ الرغم من الحكام غير المسلمين. وقد بنىٰ الصوفي الكبير مـعين الديـن السمرقندي الذي جاء إلىٰ الهند قبيل اسرة الغوريين بنىٰ هذا الشيخ الطـريقة الصـوفية الجشتية التي لازالت من إحدىٰ كبريات الطرق الصوفية في باكستان والهند، وقبره في اجمير يزار من قبل المسلمين الهنود. ووجدت طريقة السهروردية في الهند بعد الطريقة الجشتية وكانت تخالف الجشتية من حيث التأكيد الشديد علىٰ العمل بالأوامر الدينية وملاحظتها إذ كانت السهروردية تخالف ما تداول في سائر فرق الصوفية من أنواع الرقص

والسماع الخاص بالذكر والابتهال! أضف إلىٰ ذلك طريقتين معروفتين باسم القادرية والنقشبندية اللتين كانتا قد قدمتا إلىٰ الهند من قبل المغول ووجدتا لنفسيهما مجالاً للنفوذ كبيراً»[1].

وكان عموم أو غالبية هؤلاء الصوفية الناشرين للإسلام في تلك المناطق ايرانيين.

ولمعرفة معين الدين الجشتي المذكور سابقاً والاثر الكبير الذي كان لهذا الرجل الايراني العارف في نشر الإسلام في القارة الهندية ننقل هنا نصّ ما كتبه العالم المتتبّع المحقق الشيخ عزيزالله العطاردي، خصيصاً لهذا الكتاب شاكرين له ذلك. وهو يذكر مع معين الدين عارفاً ايرانياً آخر باسم نظام الدين الاولياء، مصرحاً بانه كان له أثر عظيم في إسلام القارة الهندية فأتىٰ به هنا أيضاً، قال الشيخ العطاردي:

«ولد الخواجة معين الدين الجشتي الهروي في القرن السادس الهجري في سيستان[2] وبدأ هناك بتحصيل العلوم ثم هاجر إلىٰ «هرات» فاشتغل فيها بالرياضة في ناحية يقال لها «جشت» ومن هنا قيل له: «جشتي». وبعد إقامة مدة في جشت عزم علىٰ السفر إلىٰ طوس وأقام هناك في طابران في خانقاه الخواجه عثمان الهاروني أحد كبار مشايخ الصوفية بخراسان واشتغل هناك بتكميل مقاماته العرفانية والروحية حتىٰ أصبح من مريديه بل أصبح خليفة له بعده في طريقته. ثم سافر من طوس إلىٰ بغداد وأقام بها مدة مستفيداً من مشايخها وهي إذ ذاك من المراكز المهمة للعلوم الإسلامية. حتىٰ أصبح فيها مدرساً ومرشداً يستفيد منه جماعة من مريديه ثم طاف مدة في الحرمين الشريفين ومصر والشام واستجازه خلق كثير من تلامذته ومريديه واستفادوا من مجالسه العلمية والعرفانية.

وفي مفتتح القرن السابع الهجري جرّ السلطان شهاب الدين الغوري عسكراً جرّاراً من موطنه الاصلي في «فيروزكوه» بين الجبال الغورية في شرقي هراة إلىٰ الهند وبعد أن

---

١ - المصدر السابق ص: ٣٦٥.

٢ - قرأنا في مقال مظهرالدين صديقي أن ولادته كانت في سمرقند، ولايصحح هذا العلّامة الشيخ العطاردي بل يرىٰ أن ولادته كانت في سيستان ومهما كان فهو ايراني سيستاني أو سمرقندي.

اخرج لاهور من أيدي اسلاف الغزنويين توجه إلىٰ دهلي ففتحها بعد مدة وجعلها عاصمة له وبعد أن تصرف المسلمون في البنجاب وأستقر الحكم وانتشر الاسلام في ربوعه هاجر مجموعة من العلماء والقادة المسلمين لتبليغ الدين الإسلامي إلىٰ البنجاب وراجستان واستقلوا بالنشاط الديني. وفي هذه الاثناء هاجر الخواجه معين الدين مع السلاطين والأمراء الغوريين إلىٰ الهند وسكنوا في بلدة أجمير من منطقة راجستان. وأسس الخواجة مؤسسات إسلامية في اجمير وبنىٰ مدارس ومساجد كثيرة واشتغل بتبليغ وتدريس أسس الإسلام في تلك البلاد.

وكان الخواجه معين يلقىٰ مواضيعه الدينية عن طريق العرفان والتصوف الذي كان يتلاءم والافكار الهندية، اشتهر في مدة قليلة شهرة عظيمة واهتم به الناس من كل حدبٍ وصوب واستفادوا منه أكبر استفادة.

وكان يحترمه الملوك والأمراء المسلمون احتراماً كبيراً، وتهيأت له جميع وسائل التقدم والاطراد من كل ناحية، وتمكن من هداية الملايين من عبدة الاصنام إلىٰ التوحيد وتقدم الإسلام ببركته إلىٰ غرب الهند وشماله. وأدب معين الدين تلامذة كثيرين وأصبح كل واحد منهم في منطقته مصدراً لخدمات قيمة فكان قطب الدين بختيار وفريد الدين گنج شكر من تلامذته والمتربين علىٰ يديه وقد أصبحا مصادر لآثار وخدمات جليلة.

وتوفىٰ خواجه معين الدين بعد فترة من النشاط وتأسيس المؤسسات الثقافية والدينية في مدينة اجمير فبنىٰ المسلمون له مقبرة جليلة وعظيمة لازالت قائمة بعد ثمانية قرون وهي من أكبر مزارات المسلمين الهنود وقد اسهم في مقبرته سلاطين الهند المسلمون من عهد ناصر الدين الخلجي حتىٰ عهد نظام حيدرآباد، وقد كتب علىٰ كتائب الأيوان والاروقة وداخل المقبرة أبيات كثيرة باللغة الفارسية ـ اللغة الرسمية لمسلمي الهند ـ منها الأبيات التالية:

شريف الشرفاء معين الدين.

أشرف الأولياء فوق الأرض.

ليس في كماله أو جماله أي كلام!.

كان مبيناً للدين وحصناً حصيناً.

قلتُ في صفاته أبياتاً.

كان في العبادة دراً ثميناً.

يا من كان بابه قبلةً لأهل اليقين.

ويا من كان القمر يقبل اعتابك!.

ويا من كان مئات الملوك من رتبة ملوك الصين...

يسحقون وجوههم علىٰ أعتاب أبوابك..

ويا من يخدم أبواب بيتك الملائك...

ويا من روضته من رياض الجنان...

ويا من ذرات ترابك من العنبر.

ويا من قطرات المياه في بيتك ماء معين.

كان سلاطين التيموريين الهنود يقصدون معين الدين بكل ارادة واحترام، حتىٰ أن جلال الدين أكبر، جاء إليه مرة زائراً ماشياً من عاصمته اگره إلىٰ اجمير. وله في قلوب المسلمين الهنود من الشيعة والسنة حب عظيم، ويقيمون في شهر رجب من كل عام لذكراه مجلساً عظيماً يشترك فيه مئات الالوف من الاطراف والنواحي، كي يكرموا معين الدين ويشكروا له خدماته وأتعابه في سبيل الإسلام. وقد جاءت ترجمته في عددٍ من المذكرات التاريخية.

نظام الدين أولياء

ولد محمّد بن أحمد بن نظام الدين في الهند، وهاجر أبوه من بخارىٰ موطنه الاصلي إلىٰ الهند وأقام في لاهور ثم سكن في بدايوان. وهنا ولد نظام الدين وفقد أباه في الخامسة من عمره فتولت أمه تربيته، وكانت أمرأة صالحة طاهرة زاهدة فبذلت جهوداً كبيرة في تربية ولدها. وبدأ نظام الدين أولياء بدراسة مقدمات العلوم بدايوان. وانتقل بعد مدة مع أمه إلىٰ دهلي واشتغل هناك بتكميل معارفه لدىٰ شمس الدين الدامغاني وعلاء الدين

الاصولي وفريد الدين مسعود واجازه هذا الأخير.

وكان نظام الدين أولياء في أول حاله فقيراً مضطراً، ومع ذلك كان عزيزاً لايقبل من أحد شيئاً. وبعد أن طار صيته في الهند أقبل عليه الكبار وامراء المسلمين من كل حدب وصوب وطلب منه الملوك المسلمون منهم السلطان جلال الدين الخلجي أن يلاقوه. وتعلق به الأمير خسرو الدهلوي السمرقندي أحد الشعراء المعروفين ونظم فيه أبياتاً من الشعر.

وقد بذل نظام الدين في سبيل نشر المعارف الإسلامية جهوداً كثيرة واشتغل كل واحد من تلاميذه في منطقة من مناطق الهند بتبليغ الإسلام. منهم الخواجة نصير الدين الذي خلف في رودوگجرات والپنجاب آثاراً روحانية مذهبية. ومنهم سراج الدين الذي نشر العلوم الإسلامية في بنگاله وبهار واسام. ومنهم برهان الدين الذي كان يرشد الناس في منطقة دكن ونواحي الهند المركزية. وبصورة عامة نقول: إن انتشار المعارف الإسلامية في مختلف مناطق الهند كان من حسن عناية نظام الدين أولياء وتلامذته وخلفائه.

وتوفىٰ نظام الدين أولياء عام ٧٢٥ في دهلي ودفن هناك ولايزال قبره إلىٰ اليوم مزاراً للمسلمين ويجلسون المجالس ويتجمع لذكراه آلاف من المسلمين ويخطب فيهم العشرات.

وللبحث في أحوال معين الدين الجشتي ونظام الدين أولياء يراجع «تاريخ فرشته» تأليف هندوشاه الاسترابادي[1].

أجل؛ لا جدال في الأثر العظيم لايران المسلمة في إسلام القارة الهندية. وهذا تماماً عكس ما كان لايران قبل الإسلام؛ فقد قرأنا في القسم الثاني من هذا الكتاب أن دين القارة الهندية (البوذية) كان متجهاً إلىٰ جهة الشرق، وأن قسماً كبيراً من ايران كان قد تأثر بالدين الهندي، نعم، ان دين بوذا كان قد قدم من الهند إلىٰ ايران وقبل في الأوساط الايرانية و من المسلم به إن لو لم يظهر الاسلام ويصل إلىٰ ايران لحظت البوذية بالقبول والتقدم أكثر من قبل... ولكن بعد أن ظهر الإسلام ووصل إلىٰ ايران فقد اجرىٰ دماً جديداً

---

١ - هذا آخر مقال الاستاذ الشيخ عزيز الله العطاردي الخراساني المقيم بطهران.

في عروق الحياة المعنوية والروحية لهذه الامة، فانعكس الأمر حتىٰ اثرت ايران في الهند نفسها بدينها الجديد وازاحت البوذية حتىٰ عن الهند نفسها...

إن الإسلام هو الذي حمل الفارسية إلىٰ الهند فإشاعة الفارسية في الهند لم تكن إلّا عن طريق التعاليم الإسلامية، حتىٰ أصبحت الفارسية في مقاطع من تاريخ الهند وجغرافيته لغة رسمية ولم تحض علىٰ الرسمية إلّا باستخدامها وسيلة لمعرفة الإسلام.

وقد اشاع الفارسية أخيراً في الهند شعراء من قبيل العلّامة محمد اقبال الباكستاني بتأثير من الأحاسيس والعواطف الإسلامية. وقد حاول أخيراً بعض المدعين لحب الوطن ان يشيعوا اللغة الفارسية في بعض الدول المجاورة مع قطع النظر عن الإسلام ولم يوفقوا ولن يوفقوا للسبب نفسه الذي ذكرناه من ارتباط الفارسية بالتعاليم الإسلامية.

تقدم الإسلام في الصين

إن الاحصائيات تدل علىٰ وجود أكثر من خمسين مليون مسلم اليوم في الصين. وان تقدم الإسلام في الصين إنما تحقق عن طريق تبليغ الاسلام والدعوة إليه من قبل المسلمين المسافرين إلىٰ تلك الديار والمقيمين فيها. وللايرانيين من هذه الناحية حظ وافر.

وتجد البحث عن ذلك في مقال عن مبدأ تقدم الإسلام وتطوره وضعفه في الصين بعنوان «الثقافة الإسلامية في الصين» في كتاب «الإسلام صراط مستقيم»[1].

وينقل هذا المقال في مبدأ دخول الإسلام إلىٰ الصين تاريخاً عن مصادر صينية خاصة لم يذكر شيء منه في سائر المصادر الإسلامية يقول:

«إن التاريخ القديم لاسرة «تانك» يقول: جاء في السنة الثانية من سلطة يونك وي فيما يقارب عام ٣١ للهجرة، رسول من الحجاز بهدايا إلىٰ بلاط الخاقان، وقال: ان دولتهم

---

١ - كتب هذا المقال السيد داود سي تينك، وهو ـ كما في مقدمة الكتاب ـ عضو القنصلية التابعة لجمهورية الصين في بيروت، وهو قبل أن يخرج إلىٰ تايوان كان زعيم المسلمين في منطقته وكان من خريجي جامعة الأزهر وقد تقلد عدة مناصب سياسية مهمة في دولة الصين. وهو اليوم من خطباء المسلمين والناطق الرسمي باسمهم في الصين.

قد اسست منذ اثنين وثلاثين عاماً... وبعد ن اطلع الخاقان علىٰ معلومات عن الدين الإسلامي المقدس رآها توافق تعاليم كنفوشيوس وتصدقها فأيّد الإسلام وصدّق به، واستثقل ما قرره الاسلام من الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان. وأذن لسعد[1] ومن معه في نشر الإسلام في الصين ووافق علىٰ تأسيس أول مسجد للصلاة في مدينة چانكان، وهكذا تظاهر بتعاطفه مع الدين الجديد. ويعتبر تأسيس هذا المسجد في الصين حدثاً مهماً في تاريخ الإسلام حيث بقيت اثار بنائه حتىٰ اليوم بصورة مجللة في «سيان الجديدة»[2].

إن صحّ هذا دل علىٰ أن مبدأ دخول الإسلام إلىٰ الصين كان علىٰ يد المسلمين العرب الاوائل. وان قطعنا النظر عن هذا فقد تقدم الإسلام في الصين علىٰ يد التجار المسلمين بما كان فيهم من أكثرية من الايرانيين. يقول في المصدر السابق:

«وازدادت رحلات التجار المسلمين إلىٰ الصين في عصر خلافة بني أُمية وبني العباس وعرف العرب الداخلون إلىٰ الصين في خلافة بني أُمية بلقب: العرب ذوو الملابس البيضاء وحيث توسعت العلاقات الودية بين الامبراطورية الإسلامية والصين علىٰ عهد بني العباس هاجرت إليها وفود كثيرة من العرب الذين عرفوا بلقب: العرب ذوو الملابس السوداء»...

وفي قرن ونصف من الزمان أي في الفاصلة بين سنة ٣١ هـ إلىٰ ١٨٤ هـ دخل إلىٰ الصين عدد يعتدّ به من التجار العرب والايرانيين من طريق البحر وأقام كثير منهم في ساحل «كوانگ چو» وتقدموا من هناك في امتداد السواحل ودخلوا إلىٰ مدن مهمة ووصلوا إلىٰ أقصىٰ المناطق الشمالية حتىٰ مدينة «هانگ چو»... وازداد عدد التجار العرب والايرانيين في هذا العصر في النواحي الجنوبية وصاهروا الصينيين وقطنوا معهم. وكانت لهم مجامع خاصة وحياة مستقلة عن سائر الصينيين ولهم تقاليدهم الخاصة في مراسيم

---

١ - صرَّح هنا أن سعدا هذا هو سعد بن أبي وقاص الصحابي والقائد المشهور، ولايطابق هذا ما في المصادر الإسلامية عن وفاة ابن أبي وقاص ودفنه في المدينة. وعلىٰ فرض صحة المصدر الصيني يمكن ان يكون سعداً آخر غير ابن أبي وقاص المعروف.

٢ - بالفارسية: إسلام صراط مستقيم ص: ٤٢٠ ـ ٤٢٣.

الاعراس والاعمال اليومية مما يراعون فيه أحكام الإسلام المقدسة. حتىٰ كانت لهم محاكم خاصة تحكم بينهم في مسائل الزواج والطلاق والارث وغيرها طبق الفقه الاسلامي. واستقلال المسلمين هذا، دليل آخر علىٰ قدرة الإسلام إذ ذاك في الصين »[1].

وكتب يقول: «كان التجار العرب والايرانيون يتاجرون بالابريسم والحرير والبضائع الصناعية والأواني الصينية وسائر الأمتعة التجارية من الصين إلىٰ الشرق الاوسط وأوربا ويرجعون بالنباتات الطبية والادوية واللؤلؤ وسائر محاصيل تلك النواحي إلىٰ الصين. وكان هؤلاء التجار في الحقيقة وسائط للتجارة وتبليغ الاسلام وكانوا بتجارتهم الرابحة هذه يجتذبون سائر المسلمين للتجارة ونشر الإسلام في الصين، كلما كانت ترد إلىٰ الصين وفود جديدة من المسلمين، يزداد عددهم في الشمال الغربي والجنوب الشرقي من البلاد »[2].

ويقول: «وكان حمل ونقل البضائع التجارية في مناطق الشمال علىٰ الاغلب تحت اختيار المسلمين وتنقل بقوافل من الجمال والبغال والحمير، فكان حمل البضائع في امتداد سواحل نهر «يانگ تسر» و «هوايهو» ومزارع الرزّ علىٰ شواطئ الجداول المتفرعة من تلك الأنهار يتم علىٰ يد المسلمين، والمصطلحات والأرقام الفارسية المستعملة اليوم في معاملات التجارية دليل بارز علىٰ تفوّق المسلمين في هذه التجارة في النواحي الصينية »[3].

ويقول: «وينقسم المسلمون في الصين إلىٰ قسمين: قسم يصطلح عليهم بلقب: سيكيانگ أي أصحاب العمائم الذين يشبهون بالسيك الهنود. وقسم خاص آخر يسمون «هان» وهؤلاء يتداولون في أمورهم الدينية كلمات عربية وفارسية في تركيبات خاصة»[4].

ويقول: «ويلقب رئيس الروحانيين في المساجد: آخوند أو آخونگ بمعنىٰ العالم أو

---

١ - المصدر السابق ص: ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

٢ - المصدر السابق ص: ٤٢٤.

٣ - المصدر نفسه: ص ٤٣٢.

٤ - المصدر نفسه: ص ٤٣٧.

المعلم للاحكام الدينية ويعتبر أئمة الجماعة في المساجد مساعدين للآخوند الاعلىٰ[1] وكانت طريقة التعليم القديمة في الصين مقتبسة مما كان متداولاً بين المسلمين العرب والايرانيين في الصين من الدراسات »[2].

نقل الدكتور السيد جعفر شهيدي الاستاذ بجامعة طهران في مقالة بعنوان: «أثر الايرانيين في نشر الإسلام في العالم »الذي قدمه بمناسبة الاحتفال بالذكرىٰ الالفية للشيخ الطوسي في مشهد والذي نشر في المجلد الأول من كتاب الذكرىٰ نقل بصدد بيان تقدم الاسلام في الصين عن كتاب «جهانگشا عطاء الملك الجويني » يقول:

«وما يمكن أن نصل إليه عن طريق العقل[3] وليس بعيداً عن الأفهام والاوهام شيئان: الأول ظهور النبوة والثاني الكلام المعجز. والمعجزة الأقوىٰ منها هي أن نرىٰ تحقق حديث «زويت لي الارض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوىٰ لي منها » مثلاً بعد ستمائة ونيف من السنين... وهكذا ترتفع راية الإسلام وتعلو أنواره فتشع علىٰ ديار لم يصل إليها عطر الاسلام قط، ولم يحل فيها صوت الأذان في آذانهم ولم تطأ أراضيهم إلّا أقدام عبَدَة اللات والعزىٰ. فكم قد اقبل اليوم علىٰ ديار الشرق في الصين من مؤمن موحد بلغ إلىٰ أقصىٰ ديار المشرق بل سكنها وقطنها من يخرجون عن حدود الاحصاء والحصر فبعضهم سيق إلىٰ هناك حشراً[4] بعنوان أصحاب الحرف والمهن مما وراء النهر وخراسان، وطائفة كثيرة منهم ممن طافوا أقصىٰ المغرب والعراقين والشام وغيرها من بلاد الإسلام على سبيل التجارة والسياحة، وبلغوا كل حدب وصوب وبلد ومدينة وبنوا لأنفسهم صوامع للصلاة ومدارس في مقابل بيوت الاصنام للعبادة واشتغل فيها العلماء بالافادة والاستفادة. حتىٰ كأنما الحديث يشير إلىٰ ابناء هذا الزمان إذ يقول:

---

١ – المصدر نفسه: ص ٤٤٢.

٢ – المصدر نفسه: ص ٤٥٦.

٣ – لاثبات النبوة.

٤ –شرح ناشر الكتاب هذه الكلمة في الهامش فقال: (الحشر في اللغة المغولية بمعنىٰ الافراد الذين كانوا يختارون من بين أصحاب الصنعة والعمال من الامم المفتوحة عنوة لتشغيلهم في أعمالهم نفسها في البلادالمفتوحة).

«اطلب العلم ولو بالصين»[1].

إن عطاء الملك الجويني يرىٰ أن ذهاب المبلغين المسلمين الايرانيين وغير الايرانيين إلىٰ الصين ودعوتهم أهلها إلىٰ الاسلام بعد ستمائة سنة من الهجرة النبوية هي إحدىٰ معجزات خاتم الأنبياء صلّىٰ الله عليه وآله وسلم.

الجندية والتضحية

إن جندية الايرانيين في سبيل الإسلام ـ سواء ما بلغ منها إلىٰ نتائجها الايجابية وما لم يصل منها إلىٰ النتائج علىٰ الرغم من المساعي والجهود الخالصة ـ لهي إحدىٰ الصفحات البيضاء في العلاقة بين الإسلام وايران.

وقد قرأتم قبل هذا، المساعي المخلصة للمسلمين الايرانيين المقيمين في اليمن. وان قيام الايرانيين بوجه الحكومة الأموية الذي انتهىٰ بظهور الدولة العباسية كان نوعاً من هذه الخدمات للامة الاسلامية، إذ أن هذا القيام المسلح ـ كما سبق ـ كان لإقامة الشعائر الاسلامية وإرجاع المسلمين إلىٰ صراط الدين. وإن كان قيامهم هذا مع انتصاره المسلح لم يكن موفقاً توفيقاً تاماً وذلك لان الأسرة التي تسنمت الحكم لم تكن أحسن من سابقتها الاموية. ولقد قامت في ايران في القرن الثاني والثالث الهجريين ثورات غير إسلامية واحبطت من قبل الايرانيين أنفسهم وان الدقة في التاريخ تكفلت لنا ببيان أن الذين احبطوا هذه الثورات كانوا من الايرانيين أنفسهم دون العرب.

فلولا الجنود والقواد المسلمون الايرانيون لكان من المحال أن تحبط الدولة العربية تلك الثورة التي قادها في آذربايجان بابك خرّم دين، مع كل ما قدمت هذه الحروب إذ قدمت مما يقرب من مائتين وخمسين ألفاً من الضحايا... وهكذا سائر الثورات التي كان يقودها المقنّع أو السنباد أو ستادسيس أو غيرهم.

وكان السلطان محمود الغزنوي قد صبغ حروبه في الهند صبغة إسلامية، فكان الجنود المسلمون الايرانيون يتقدمون فيها بإندفاع إلىٰ الجهاد الإسلامي المقدس. وكذلك كان

---

١ - الذكرىٰ الالفية للشيخ الطوسي: ج ١ ص ١٧٩، باللغة الفارسية.

الأمر في الحروب الصليبية حيث إن سلاطين ايران صدوا حملة الصليبيين الغربيين باسم الإسلام وبفعل الشعور الإسلامي.

وإن الجنود المسلمين الايرانيين هم الذين ذهبوا بالإسلام إلىٰ آسيا الصغرىٰ لا العرب ولا غيرهم. ولنستمع هنا إلىٰ مقال الدكتور السيد جعفر شهيدي في كتاب الذكرىٰ الالفية للشيخ الطوسي (قده) يقول:

إن كلمة «بلاد الروم» في عرف المسلمين كانت عبارة عن ممالك الروم الشرقية كما كانوا يلقبون بالبحر الابيض المتوسط ببحر الروم وعلىٰ هذا فهم كانوا يسمون آسيا الصغرىٰ: بلاد الروم وحينما فتح المسلمون أراضي الشام رأوا أن من الضروري أن يفتحوا آسيا الصغرىٰ أيضاً. واراد معاوية الهجوم عليها ولكنه فوجئ بمخالفة الخليفة عمر بن الخطاب. إلّا أنه تحققت أمنيته هذه وتقدم في الحرب حتىٰ عمورية. ولا زالت هذه الاراضي علىٰ عهد خلافتي الأمويون والعباسيين مجالاً للأخذ والرد، وكانت مدن وقلاع تلك المنطقة تتناولها الايدي وتتداولها من يد إلىٰ أخرىٰ. ويشهد التاريخ أنه لم يتمكن الخلفاء الامويين ولا العباسيون أن يمكنوا الإسلام ويرسوا دعائمه في جميع ارجاء هذه المنطقة... حتىٰ تأتىٰ حكومة السلاجقة فتغير أوضاع هذه المنطقة،وتحكم هذه الاسرة جميع مناطق آسيا الصغرىٰ، وتبدأ رسالة تبليغ الاسلام فيها ونشر معارفه باللغة والأدب الفارسي المنظوم والمنثور، وبلغ الأمر إلىٰ أن طلع علينا من تلك المنطقة في سماء العرفان ، جلال الدين فاضاء منطقته أولاً، ثم سرت أنواره مع اللغة الفارسية حيثما كانت. وننقل عن كتاب «مسامرة الأخبار» للقسرائي في تاريخ آسيا الصغرىٰ عبارة ترينا وجهة النظر عند القادة المسلمين والامة الايرانية إلىٰ الأراضي المفتوحة: لو كان غرض خلفاء الإسلام من فتح العراق أو الأراضي الغربية أخذ الجزية وزيادة الخراج و الفيء وعمران بيت المال فانه لم يكن ينظر قادة الفتوحات الشرقيون، إلّا إلىٰ نشر الإسلام فقط يقول القسرائي:

« قصد ارميانوس ملك الروم مع مائة وعشرين ألفاً من الجنود بلاد الإسلام وتوجه إلىٰ دانشمند » ملك نكيسار وسيواس وتوقات وابلستان وغيرها. فبعث الملك دانشمند رسلاً

إلىٰ ملوك الإسلام خلفه حرضهم علىٰ مقابلة عساكر الكفار ووعد «قلج ارسلان» أن إذا حصل الظفر وصله بمائة ألف دينار ولّاه ملك ابلستان.

واتفق قلج ارسلان مع سائر ملوك تلك النواحي لصيانة الدين وحماية الاسلام، واجتمعوا وعزموا علىٰ غزو الكفار ووهب الله لهم النصر وانهزم ارميانوس بعد حروب ومقابلات كثيرة، ولم ينج من الكفار الّا قليلون. وأرسل الملك دانشمند مائة ألف درهم إلىٰ قلج ارسلان وتوقف عن توليته علىٰ ابلستان فلما سمع قلج ارسلان بهذا ردّ عليه المائة ألف درهم قال: «أنا إنّما أتيت إلىٰ الحرب لحماية الإسلام ولا حاجة بي إلىٰ الدراهم والدنانير»[1].

وكتب في هذا الكتاب نفسه عن مساعي المسلمين العسكرية في الهند، يقول:

«حمل علىٰ أراضي نواحي السند لأول مرة في سنة ٤٣ هجرية عبدالله بن سوار العبدي الذي جعله عبدالله بن كريچ علىٰ ثغور السند من قبل البصرة. وفي سنة ٤٤ هـ حمل عليها المهلب بن أبي صفرة. وفي سنة ٨٩ هـ قتل محمّد بن قاسم ملك السند في حرب دارت هناك وبقتله حكم المسلمون أراضي السند دون أي مانع يذكر. وأما انتشار الإسلام في معظم شبه القارة الهندية فكان علىٰ يد الايرانيين أيضاً.

وهنا نرجع إلىٰ سند من التاريخ. كتب الجرفاد قاني في مبدأ أمر ناصر الدين سبكتكين يقول: « ثم توجّه إلىٰ جهاد الكفار وقمع أعداء الدين وجعل ناحية الهند ومعبد الأوثان ومسكن أعداء الإسلام جبهة القتال والغزو ».

وكتب عن أحوال السلطان محمود الغزنوي يقول: «إن السلطان يمين الدولة وأمين الملة حينما أخذ نواحي الهند وبلغ في أقاصي هذه الولاية إلىٰ أماكن لم تكن تصلها قبل ذلك اليوم راية للإسلام ولا من الدعوة المحمدية معجزة ولا آية، وطهّر تلك البقاع من ظلمات الكفر والشرك وأنار مشاعل الشريعة في تلك الديار والأمصار وبنىٰ وشيّد المساجد و أعلن الاذان وشعائر الإيمان وتلاوة القرآن ودراسته في تلك النواحي....

إن سيرة السلطان محمود الغزنوي في جانب المشرق ليست غريبة في الشبه عن سيرة

---

١ - كتاب الذكرىٰ الالفية للشيخ الطوسي. بالفارسية ص: ١٧٦.

عبدالرحمن الأول حاكم اسبانيا والفاتح الاسلامي في المغرب، ولايفوتنا أن بين الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب تفاوتاً كبيراً فان المسلمين العرب استطاعوا أن يبلغوا بفتوحاتهم تخوم أوربا الغربية، إلّا أن كثيراً من تلك المناطق خرجت في طول التاريخ عن حوزة المسلمين وخرج المسلمون عنها وخرجت هي عن الاسلام. بينما نجد أن الحضارة والثقافة الإسلامية التي بنيت في النواحي الشرقية علىٰ يد المسلمين الايرانيين بقيت ثابتة ومستقرة لا زال معها الناس في هذه المناطق بعد مرور قرون عديدة يصلّون إلىٰ قبلة الإسلام ويتلون كتاب الله إن لم يكونوا عرباً. والعجيب أنه قارن احتلال قسم من أراضي المسلمين في ناحية الشمال من شبه الجزيرة العربية اعلان دولة قوامها تسعون مليوناً من المسلمين في الجانب الشرقي من ايران اعلنت عن وجودها باسم دولة باكستان الإسلامية »[1].

في هذه الفتوحات وان كانت أسماء قلج ارسلان وسبكتكين والغزنوي أسماءً تركية إلّا أن هؤلاء ـ كما ذكر الدكتور شهيدي ـ كانوا إذ ذاك حكام أراضي ايران باسم الإسلام وجنودهم كانوا من هذه الامة الايرانية بشكل أكيد دون غيرها.

العلوم والثقافة

إنّ ميدان العلوم والثقافة من أوسع الميادين التي أدّىٰ فيها الايرانيون خدمات جُلّىٰ للإسلام.

إنّ سرعة التطور والتقدم والنفوذ، والشمول والكلية والجامعية، واشتراك مختلف طبقات المجتمع بل اشتراك مساعي امم مختلفة.... كل ذلك مما أثار إعجاب الجميع بشأن الحضارة والثقافة الإسلامية... يقول جرجي زيدان بهذا الصدد:

«يلاحظ أيضاً أن العرب نقلوا من علوم تلك الامم في قرن وبعض القرن مالم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون، وذلك شأن المسلمين في أكثر أسباب تمدنهم العجيب »[2].

---

١ - الذكرىٰ الألفية للشيخ الطوسي: ص ١٨٠ ـ ١٨٢، بالفارسية.

٢ - تاريخ التمدن الإسلامي ـ لجرجي زيدان ج ٣ ص ١٨٣ ط، د. حسين مؤنس.

إنّ المسلمين ابدعوا واخترعوا العلوم التي احتاجوا إليها لفهم القرآن الكريم والسنة الشريفة كالقراءة والتفسير والكلام والفقه والحديث والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والسيرة وغيرها وان اقتبسوا شيئاً فذلك قليل لا يذكر. ما كان من العلوم حصيلة تمدن وجهود واتعاب سائر الأمم من الطبيعيات والرياضيات والنجوم والطب والفلسفة وغيرها فهم ترجموها ونقلوها إلىٰ لغتهم واضافوا إليها الكثير. يقول جرجي زيدان:

«كان من جملة أفضال التمدن الإسلامي علىٰ العلم أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية إلىٰ العربية وزاد فيها ورقّاها...»[1].

ويقول جرجي زيدان أيضاً:

«إن المسلمين نقلوا إلىٰ لغتهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة والطب و النجوم والرياضيات والادبيات، عند سائر الامم المتمدنة في ذلك العهد، ولم يغادروا لغةً من لغات الامم المعروفة إذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية و الفارسية والهندية. فأخذوا من كل أمة أحسن ما عندها، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة والموسيقىٰ والمنطق والنجوم علىٰ اليونان، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقىٰ علىٰ الفرس وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقىٰ والاقاصيص علىٰ الهنود، وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم علىٰ الانباط والكلدان، وفي الكيمياء والتشريح علىٰ المصريين فكأنهم ورثوا أهم علوم الآشوريين والبابليين والمصريين والفرس والهنود واليونان. وقد مزجوا ذلك كله وعجنوه واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامي الدخيلة»[2].

أول حوزة علمية

نمت واثمرت العلوم والثقافات والتمدن والحضارات الإسلامية بصورة عامة كأي موجود حي يظهر خلية واحدة وينمو تدريجياً، تبعاً لاستعداد الحياة فيه، يتفرع فروعاً

---

١ - تاريخ التمدن الإسلامي ج ٣ ص ١٣٣ ط، د. حسين مؤنس.

٢ - تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان: ج ٣ ص ١٨٢ د. حسين مؤنس.

وأغصاناً وأقساماً مترابطة.

وكذلك بدأت الحركة العلمية الإسلامية من نقطة إنطلاق معينة، وموضوع خاص علىٰ يد أشخاص معينين. فلنر ما هي تلك النقطة المعينة؟ وأين هو المكان الذي انطلقت منه؟ وأين أسست أول حوزة علمية للمسلمين؟

أجل: بدأت الحركة العلمية الإسلامية في المدينة المنورة وأول كتاب استقطب أفكار المسلمين وسعوا إلىٰ درسه وفهمه وادراكه هو القرآن الكريم ثم الحديث الشريف وهكذا عرف عرب الحجاز لأول مرة في المدينة التلمذة والجلوس في مجالس الدرس والحفظ والضبط والكتابة والاستماع إلىٰ الاساتذة استماع تعلم ودراسة فكان المسلمون يجتمع بعضهم إلىٰ بعض ليتعلموا ويحفظوا بحرص وولع كثير ما كان ينزل تدريجياً علىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله من آي الذكر الحكيم، وكانوا يسألون مالا يعلمون أهل الذكر ممن كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله يأمرهم بكتابة الآيات وعُرفوا فيما بعد بكتّاب الوحي. ويتعلمون أيضاً أحاديث الرسول التي كانت تبيّن سنته الشريفة وأحكام الشريعة. وهذه الحلقات كانت تعقد في مسجد الرسول ويتعلم فيها المسلمون المسائل الدينية في أثناء البحث والكلام. وقد دخل الرسول صلّىٰ الله عليه وآله يوماً إلىٰ مسجده ورأىٰ فيه حلقتين إحداهما للعبادة والاخرىٰ للتعلم، وبعد أن أجال ببصره عليهما قال: «كلاهما علىٰ خير، ولكن، بالتعليم ارسلت » ثم ذهب وجلس إلىٰ الحلقة العلمية[1].

وبعد المدينة أصبح العراق محطّاً للحركة العلمية ومنه المصران العراقيان البصرة والكوفة. وبعد بناء بغداد أصبحت مركزاً علمياً للخلافة العباسية وفي بغداد ترجمت العلوم إلىٰ العربية.

وبعد بغداد صار كل من ري وخراسان وماوراء النهر ومصر والشام والاندلس و غيرها مراكزاً لحوزات علمية.

وبعد أن يذكر جرجي زيدان أن تشجيع الامراء والحكام المسلمين كان عاملاً مؤثراً في انتشار العلوم؛ يقول:

---

١ - منية المريد في آداب المفيد والمستفيد للشهيد الثاني (قدس سره): ص ٥.

«فلا عجب ـ والحالة هذه ـ إذا كثر المؤلفون وتعددت مؤلفاتهم واتسعت مباحثهم وكان منهم الملوك والأمراء والوزراء والأغنياء والفقراء وفيهم العرب والفرس والروم واليهود السريان والهنود والترك والديلم والقبط وغيرهم من الملل الخاضعة للإسلام في أنحاء العالم المتمدن يومئذٍ في الشام ومصر والعراق وفارس وخراسان وما وراء النهر والهند وفي المغرب والاندلس وغيرها. وقد حوت مؤلفاتهم البحث في كل ما انتجته قريحة الإنسان إلىٰ ذلك الزمان، من الطبيعيات والالهيات والعقليات والرياضيات و النقليات. ودعت ابحاثهم الواسعة إلىٰ تشعب العلوم وتفرّعها»[1].

وفي بدء حركة العلوم كان أكثر العلماء من المسيحيين ولاسيما السريانيين، إلّا أن المسلمين شغلوا أماكنهم الشاغرة بعدهم تدريجياً. يقول جرجي زيدان:

«ان بذور العلم التي ألقاها خلفاء النهضة العباسية في بغداد ظهرت ثمارها في خراسان والري وخوزستان وآذربايجان وما وراء النهر وفي مصر والشام والاندلس وغيرها. وظلت بغداد مع ذلك حافلة بالعلماء بقوة الاستمرار وبما فيها من أسباب الثروة ولانها مركز الخلافة. فنبغ فيها جماعة من أهل العلم المسلمين، فضلاً عن الاطباء النصارىٰ الذين كانوا يخدمون الخلفاء في التطبيب والترجمة. علىٰ أن أكثر العلماء غير المسلمين الذين نبغوا فيها بعد تلك النهضة كانوا يتقاطرون إليها من أنحاء جزيرة العراق وغيرها لخدمة الخلفاء. أما المسلمون فالغالب أن يكون ظهورهم خارج العراق، ولاسيما أن أكثر ملوك الدول الجديدة التي تفرعت من الدولة العباسية اقتدوا بخلفاء النهضة العباسية في ترغيب أهل العلم واستقدامهم إلىٰ عواصمهم في القاهرة وغزنة ودمشق ونيسابور واصطخر وغيرها فالرازي من ري وابن سينا من بخارىٰ في تركستان، البيروني في بيرون من بلاد السند وابن جلجل النباتي من أهل الاندلس، كذلك ابن ماجة الفيلسوف وابن زهر الطبيب وأقاربه آل زهر وابن رشد وابن الرومية النباتي وكلهم من الاندلس»[2].

فأول خلية للثقافة والعلوم الإسلامية ظهرت إلىٰ الحياة في مدينة الرسول صلّىٰ الله

---

١ - تاريخ التمدن الإسلامي. جرجي زيدان: ج ٣ ص ١٩٣ ط، د. حسين مؤنس.

٢ - المصدر نفسه: ص ١٨٩.

عليه وآله، وهي أول نقطة بذرت فيها بذرة الحضارة الإسلامية.

فما هو الموضوع الأول؟

وأما أوّل موضوع استقطب إهتمام المسلمين وبدأ المسلمون حركتهم العلمية منه، فهو القران الكريم؛ فالمسلمون بدأوا علومهم وتحقيقاتهم، بحوثهم في معاني ومفاهيم آيات القرآن الكريم، ثم الحديث، الشريف ولهذا كانت مدينة الرسول صلّىٰ الله عليه وآله أول مدينة ظهرت فيها الحركة العلمية وأول مركز علمي للمسلمين هو مسجد الرسول وأول موضوع علمي هو ما يتعلق بالقران والسنة وأول معلم هو الرسول الاكرم صلّىٰ الله عليه وآله سلم. والقراءة والتفسير والكلام والحديث والرجال واللغة والصرف والبلاغة والتاريخ والسيرة وغيرها مما يعد من العلوم الاسلامية الاولىٰ إنما وجدت لحفظ القرآن والسنة.

ويقول ادوارد براون: «اثبت لنا البروفيسور دخويه، المستشرق المستعرب الكبير، فيما كتبه في الطبري وقدماء المؤرخين العرب للمجلد الثالث والعشرين من دائرة المعارف البريطانية بصورة تستحق الثناء والتقدير أثبت كيف أن العلوم المختلفة ولاسيما التاريخ الإسلامي تطورت في ظل القرآن الكريم وكيف أن هذه العلوم تمركزت حول الحكمة الالهية.

قال: إن العلوم اللغوية كانت في الدرجة الاولىٰ طبعاً وما أن أقبل الاجانب علىٰ قبول الاسلام حتىٰ أحسوا بالحاجة الفورية الىٰ علوم الصرف والنحو واللغة وذلك أن القرآن الكريم كان بلغة العرب ولشرح معاني الكلمات النادرة والغريبة (نسبياً) احتاجوا إلىٰ تتبع الاشعار العربية القديمة بقدر الامكان... ولفهم معاني هذه الاشعار أحسوا بضرورة علم الأنساب والاطلاع علىٰ أيام وأخبار العرب بصورة عامة. ولتكميل الاحكام النازلة في القرآن الكريم، لامور الحياة لزمهم السؤال من الاصحاب والتابعين، عن أقوال وأفعال النبي صلّىٰاللّه عليه وآله في مختلف الاحوال والاوضاع وهكذا ظهر في النتيجة علم الحديث ولمعرفة اعتبار الاحاديث لزم الوقوف على أسناد الأحاديث وللتحقيق في

حقيقة الاسناد كان من الضروري الوقوف علىٰ التواريخ والسير وأوصاف وأحوال هؤلاء الاشخاص وجرّ هذا إلىٰ مطالعة أحوال مشاهير الرجال وترتيب علم الوقائع والأزمنة. ولم يكن تاريخ العرب كافياً لفهم معاني كثير من الاشارات الموجودة في القرآن بل ان تواريخ جيران العرب من الايرانيين واليونانيين والحميريين والحبشيين وغيرهم كان إلىٰ حد ما ضرورياً لفهم تلك الاشارات. ولنفس هذا السبب ولجهات علمية أخرىٰ كانت ترتبط باتساع رقعة الاسلام، عدّوا علم الجغرافيا أيضاً واجباً إلىٰ حدّ ما »[1].

وجرجي زيدان أيضاً يبني نظره علىٰ هذا الأساس فيقول: إن إهتمام المسلمين بالعلوم بدأ من القرآن الكريم فالمسلمون اعجبوا بالقرآن واهتموا بتلاوته تلاوة صحيحة فالقرآن ضمن لهم دينهم ودنياهم ولذلك وجهوا جميع جهودهم في سبيل فهم أحكام القرآن. ان احساس المسلمين بالحاجة إلىٰ فهم ألفاظ ومعاني القرآن سبب في نشوء مختلف العلوم الإسلامية. وخلاصة القول ان الخلية الحية التي ظهرت في المجتمع الاسلامي ونمت وتكاملت حتىٰ أوجدت ذلك التمدن الاسلامي العظيم؛ هي تلك العلاقة بين المسلمين والقران التي وصلت بهم إلىٰ حدّ الاعجاب. وبشأن هذا الاعجاب العظيم بالقرآن الذي أصبح سبب اقبال المسلمين علىٰ فتح أبواب العلوم يقول جرجي زيدان: «وقد عنىٰ المسلمون في كتابة القرآن وحفظه عناية ليس بعدها عناية فكتبوه علىٰ صفائح الذهب والفضة، وعلىٰ صفائح العاج وطرزوا آياته بالذهب والفضة علىٰ الحرير والديباج وزيّنوا بها محافلهم ومنازلهم ونقشوها علىٰ الجدران في المساجد و المكاتب والمجالس ورسموه بكل الخطوط وأجملها علىٰ كل أصناف الرقوق والجلود و الكواغد بالادراج والكراريس والرقاع بأصناف المداد وألوانها وملأوا مابين الكلمات بالذهب. وكان الخلفاء والأمراء والسلاطين يتبركون بكتابة المصاحف بأيديهم ويختزنونها في المساجد أو نحوها. وفي دار الكتب الخديوية (المصرية) بالقاهرة أمثلة كثيرة من المصاحف المخطوطة بمعظم الاشكال المذكورة من القلم الكوفي الخالي من الشكل والاعجام إلىٰ اتمام الاعجام والشكل وما بينهما. وقد ضبطوا عدد سور القرآن وآياته

---

١ - بالفارسية: تاريخ أدبيات ايران: ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

وكلماته وحروفه وعدوا ما فيه من الالفات والباءات إلىٰ الياءات »[1].

ويقول: «... وارتسمت عباراته علىٰ ألسنة أدبائهم، وأصبح هو المرجع في الشرع و الدين واللغة والانشاء وفي كل شيء فاقتبسوا أساليبه في خطبهم وكتبهم، وتمثلوا بآياته في مؤلفاتهم وظهرت آدابه وتعاليمه في اخلاقهم واطوارهم مع تباعد الامم التي اعتنقت الإسلام في أصولها ولغاتها وبلادها. واستشهدوا بأقواله ونصوصه في علومهم اللغوية فضلاً عن العلوم الشرعية فقد كان في كتاب سيبويه وحده ٣٠٠ آية من القرآن وأصبح أهل البلاغة لاتروق لهم الكتابة أو الخطابة إلّا إذا رصّعوها بشيء من آي القرآن »[2].

ويقول جرجي زيدان: « كان في المكتبة التي أسسها العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين، بمساعدة وترغيب وزيره يعقوب بن كلس، عند استيلاء صلاح الدين الايوبي علىٰ مصر ٣٤٠٠ ختمة قرآن بخطوط منسوبة، محلاة بالذهب »[3].

وإن جناح المصاحف الموجود الآن في متحف الروضة الرضوية بما يشتمل عليه من مصاحف مذهبة منقشة بنقوش جذّابة علامة بارزة علىٰ حب هذه الامة لهذا الكتاب المقدس.

إن الحركة العلمية والثقافية الإسلامية بدأت علىٰ النحو الذي ذكرناه.

والآن لنبحث بشأن المشتركين في هذه الحركة العلمية والثقافية.

إن أكثر الآثار العلمية التي نقلت وترجمت من خارج العالم الاسلامي وإن كانت من غير ايران إلّا أن أكثر الآثار الإسلامية سواء في العلوم الدينية أو غيرها كانت من جهود المسلمين الايرانيين وهذا هو فخر وميزة المسلمين الايرانيين في العهد الاسلامي.

يقول ادوارد براون: « نحن إذا اخرجنا ما كتبه الايرانيون مما عرف باسم العرب والعلوم العربية من التفسير والحديث والالهيات والفلسفة والطب واللغة وتراجم الرجال وحتىٰ الصرف والنحو، إذا اخرجناه من سائر ما كتبه غيرهم، نكون قد اخرجنا أحسن ما كتب من هذه العلوم »[4].

---

١ - تاريخ التمدن الاسلامي: ج ٣ ص ٦٩ ـ ٧٠.

٢ - المصدر السابق: ج ٣ ص ٦٨.

٣ - المصدر السابق: ج ٣ ص ٢٣١.

٤ - بالفارسية: تاريخ أدبيات ايران: ج ١ ص ٣٠٣.

لانريد أن نبالغ ونغض الطرف عن حقوق غير الايرانيين فالتمدن والثقافة الإسلامية ليست ملكاً لقومية خاصة بل هي لعامة المسلمين ولا يحق لأية أُمة ـ من العرب وغيرهم ـ أن يسجلوها باسمهم ولكن كما قلنا سابقاً يحق لأية أمة أن توضّح ما اسهمت به في هذه الثقافة والحضارة.

متىٰ بدأ التدوين والتأليف؟

لايدّعي المستشرقون واتباعهم واذنابهم عدم شيوع التدوين والتأليف في صدر الاسلام علىٰ عهد الخلفاء الاوائل بل يدعون أن ذلك كان ممنوعاً (شرعاً!) ويستندون في ذلك إلىٰ كلمات كانت تروىٰ عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في المنع عن الكتابة والتأليف وأن ذلك إنما شاع بعد توسّع الإسلام إنهم رووا في ذلك أحاديث توصي بالتأليف والتصنيف عن النبي الكريم.

يقول جرجي زيدان:

«إن الخلفاء الراشدين كانوا يخافون الحضارة علىٰ العرب لئلا تذهب بنشاطهم و بداوتهم. ولذلك منعوهم من تدوين الكتب لان علومهم في أوائل الاسلام كانت قاصرة علىٰ القرآن والتفسير ورواية الاحاديث، ونظراً لقلة الاختلاف ولسهولة المراجعة والاستفتاء من ثقات الصحابة والتابعين، لقرب عهدهم من صاحب الشريعة كانوا في غنىٰ عن تدوين تلك العلوم... فلما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الاقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوىٰ والرجوع إلىٰ الكبراء واضطروا إلىٰ تدوين الحديث و الفقه وعلوم القرآن، واشتغلوا في النظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط، وتمهيد القواعد والاصول وترتيب الابواب والفصول، فرأوا ذلك مستحباً فعمدوا إلىٰ التدوين ورجعوا إلىٰ حديث رواه انس بن مالك وهو قوله: «قيدوا العلم بالكتابة » وقوله: « العلم صيد والكتابة قيد »[1]...

ان ما ينسبه جرجي زيدان إلىٰ الخلفاء الراشدين كذب محض، فلم يكن هناك خوف

---

١ - تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٣ ص ٥٥ ـ ٥٦ ط. د. حسين مؤنس.

من التمدن والحضارة ولا خوف من الكتابة والتدوين التي اعتبرها جرجي زيدان جزءاً من ذلك. وإنما الذي كان، هو منع صحابة الرسول عن الخروج من المدينة واستيطانهم في بلد آخر، ومنعهم عن كتابة الاحاديث النبوية فحسب. وهذان هما من الخليفة الثاني عمر لامن جميع الخلفاء الراشدين كما يقول. وقد ذكر في أقدم كتب التاريخ ـ كما نعلم ـ اختلاف وجهة نظر الامام علي عليه السلام وآخرين من الصحابة

من جانب عمر وآخرين من الصحابة من جانب آخر، حول مسألة كتابة الحديث. وسنتكلم في هذا الموضوع فيما يأتي انشاء اللّه تعالى.وقد نقض الامام علي عليه السلام منع عمر للصحابة عن الخروج من المدينة بخروجه هو عليه السلام من المدينة إلىٰ الكوفة واستيطانه بها مع جماعة كثيرة من الصحابة معه. وعلىٰ هذا فلا أساس لكلام جرجي زيدان أصلاً ولا فرعاً.

ويدّعي ادوارد براون أن القرن الأول الهجري قد مضىٰ علىٰ المسلمين ـ مع اشتياقهم العلمي ـ ولم يدونوا كتاباً لهم، انما كانوا ينقلون معلوماتهم بالحديث المحفوظ الملفوظ سلفاً إلىٰ الخلف وان القرآن الكريم هو الاثر النثري الوحيد الذي كان يكتب بينهم ويحافظ عليه مكتوباً. يقول:

«إن طلب العلم إنما تحقق في القرن الاول الهجري بالرحلات والاسفار التي

كانوا يقومون بها لطلبه وقد كان لكل رحلة في المرحلة الأولىٰ دواع وأسباب، حسب مقتضيات الأوضاع والاحوال، إلّا أن الرحلة لطلب العلم أصبحت رسماً جارياً، بل حتىٰ انها تبدّلت إلىٰ نوع من الجنون والغرام الفارغ وأصبحوا يستدلون لرحلاتهم بأمثال هذا الحديث « من سلك سبيلاً يطلب فيه علماً سلك الله به سبيلاً إلىٰ الجنة » وان مكحولاً كان عبداً مملوكاً في مصر فلما اعتق لم يخرج منها حتىٰ طلب كل ما كان متداولاً من العلوم في مصر علىٰ عصره ولما رافقه التوفيق لاستيفاء هذا الطريق رحل إلىٰ الحجاز والعراق والشام لعله يعثر علىٰ حديث معتبر في تقسيم الغنائم »[1].

ولا أساس لهذه النظرية فإننا بالنظر الدقيق في الآثار الإسلامية لصدر الإسلام نعلم أن

---

١ - بالفارسية: تاريخ أدبيات ايران: ج ١ ص ٣٩٦.

الكتابة والمذكرات كانت موجودة علىٰ عهد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وانها استمرت من بعده ولنا لاثبات هذا وثائق وأسانيد كثيرة وقد نقل المترجم لكتاب براون إلىٰ الفارسية كلاماً في هامش الترجمة عن الكتاب «مصنفات الشيعة الامامية في العلوم الإسلامية» للعلامة الفقيد شيخ الاسلام الزنجاني لرد هذه النظرية واثبات خلافها[1] وكذلك اثبت زيف هذه النظرية العلّامة الجليل المرحوم آية الله السيّد حسن الصدر أعلىٰ الله مقامه في كتابه النفيس «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» وسننقل شيئاً منه في ضمن المباحث الآتية، وخوفاً من إطالة الكلام لاننقل شيئاً منه هنا[2].

عوامل التقدم السريع

من عوامل سرعة تقدم المسلمين في العلوم، انهم لم يتعصبوا في أحد العلوم والفنون والصناعات وإنما كانوا ينتفعون بما يجدونه من ذلك في أي مكان ومن أي كان، وكانوا يتسامحون في سبيل ذلك في علاقاتهم مع من سواهم.

وكما نعلم أن أحاديث الرسول الكريم، كانت قد لفتت انظار المسلمين إلىٰ أن ينتفعوا بالعلم والحكمة اينما وجدوها وفي يد أي أحد فقد قال صلّىٰ الله عليه وآله «كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها »[3] وفي نهج البلاغة «الحكمة ضالة المؤمن

---

١ - يراجع هامش المجلد الأول من الترجمة الفارسية لتاريخ أدبيات ايران لادوارد براون: ص ٣٩٢ ـ ٣٩٦.

٢ - وراجع كتاب: النبي الأمي ـ للمؤلف ـ تعريب الشيخ التسخيري. ولايقصد المرحوم المؤلف بقوله (المباحث الآتية) بحثاً مستقلاً حول هذا الموضوع وإنما قال في ضمن المباحث الآتية) ثم لم يأت في ضمن المباحث الآتية إلّا ـ كما قال ـ بشيء مما جاء به المرحوم العلّامة السيد الصدر في كتابه (تأسيس الشيعة) ولم يعقد المرحوم الصدر في كتابه هذا بحثاً خاصاً لتزييف أو رد نظرية تأخر عامة المسلمين عن الكتابة كراهة أو تحريماً من جانب الخلفاء أو من الخليفة الثاني فقط، وإنما أثبت سبق الامام أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه وشيعته إلىٰ رواية وتدوين الأحاديث والأحكام والفقه وأسماء الرجال وتاريخ الحروب وتأليف الكتب وتصنيفها.

وقد وعد المؤلف قبل هذا بقوله (وسنتكلم في هذا الموضوع بعد هذا فيما يأتي إن شاء الله تعالىٰ) وليته كان يفي بوعده هذا لكنه لم يتكلم في هذا الموضوع بعد هذا أبداً. وعسىٰ الله ان يوفقني لاتمام مسودات لي في هذا الموضوع وانجازها واخراجها ـ المعرّب.

٣ - بحار الأنوار: ج ٢ ص ٩٩ ط جديد.

فخذوا الحكمة ولو من أهل النفاق »[1] ومن كلمات الرسول القائد أيضاً قوله: «خذ الحكمة ولو من المشركين »[2] وروىٰ الأئمة عليهم السلام عن السيد المسيح انه كان يقول: «خذو الحق من أهل الباطل ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق، وكونوا نقاد الكلام »[3] ان هذه الروايات هي التي وفرت الأرضية المساعدة لسعة النظرة وشمولها وعدم تعصب المسلمين في تلقي العلوم والمعارف من غير المسلمين، وهي التي خلقت في المسلمين روح المسامحة والتساهل و عدم الكسل في تعلم العلوم والصناعات من غير المسلمين فكانوا ينظرون إلىٰ ما يأخذون ولاينظرون إلىٰ من يأخذون منه ولا يهتمون لذلك، بل كانوا يرون أنفسهم ورثة الكتاب و الحكمة وأصحابها الاصليين في العالم كما تعلموا ذلك من قائدهم العظيم الرسول الكريم بل كانوا يرون الحكمة عند غيرهم عارية يجب أن تؤخذ منه كما قال العارف المولوي في شعره:

... ان الحكمة عارية لديك يا أخي

... كما أن الجارية عارية لدىٰ النخاسين

بل كانوا يعتقدون بأن العلم والإيمان يجب أن لانفصل أحدهما عن الآخر، وأن الحكمة في البيئة غير المؤمنة غريبة يجب أن تنقذ، وأن وطن الحكمة هو قلوب أهل الإيمان ولاشك في فهم هذه المعاني من هذا الحديث: «كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ولذلك فقد كان هم المسلمين أن يصلوا إلىٰ علوم العالم ومعارفه.

يقول جرجي زيدان بشأن عوامل سرعة تقدم التمدن والحضارة الإسلامية:

«ومن العوامل الفعالة في سرعة نضج العلم في النهضة العباسية، وكثرة ما ترجم في تلك المدة القصيرة، ان الخلفاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال في سبيل نقل الكتب ويرغبون النقلة وغيرهم بالبذل والاكرام والمحاسنة، بقطع النظر عن مللهم أو نحلهم أو أنسابهم، وقد كان فيهم النصراني واليهودي والصابئي والسامري

---

١ - نهج البلاغة: الحكمة ٨٠.

٢ - بحار الأنوار: ج ٢ ص ٩٧، ط جديد.

٣ - بحار الأنوار: ج ٤ ص ٩٦.

والمجوسي. فكان الخلفاء يعاملونهم كافة بالرفق والاكرام مما يصح أن يكون مثالاً للاعتدال والحرية وقدوة لولاة الامور في كل العصور »[1].

ثم ينقل جرجي زيدان قصة رثاء السيد الشريف الرضي لأبي إسحاق الصابئي و يقول: «ولم يمنعه شرفه في الإسلام من هذا الرثاء »! ويدلك ذلك علىٰ أن التعصب أو التساهل إنما يكون مصدرهما من صاحب الامر والنهي فإذا كان الأمير معتدلاً أو متعصباً كانت رعيته مثله، ولذلك فقد كان التساهل في عصر النهضة العباسية شاملاً علىٰ الخصوص الخلفاء وأهل الوجاهة والعلم ولم يكن العالم المسلم يستنكف أن يأخذ العلم عن نصراني حتىٰ الفارابي الفيلسوف الكبير فقد أخذ بعض علمه عن أحد نصارىٰ نجران »[2].

... الا أن هذا النتيجة غير صحيحة عندنا... فالسيد الشريف الرضي لم يكن يتبع في فكره وفعله هذا أحداً من الخلفاء بل لم يكن تابعاً للخلفاء اطلاقاً فهو لم يتعلم سعة الصدر والنظر من الخلفاء بل من شريعة الإسلام ومبلغه واحترامه للعلم والعلماء علىٰ أي حال ولذلك فقد أجاب السيد من اعترض عليه في ذلك بقوله: «اني رثيت علمه لاشخصه »!

والدكتور زرين كوب في كتابه يعدّ روح التسامح وعدم التعصّب في المسلمين عاملاً مهماً في سرعة تقدم المسلمين.[3]

والعامل الآخر المؤثر في اقبال المسلمين علىٰ طلب العلوم هو حث الإسلام الاكيد علىٰ ذلك. وجرجي زيدان مع ما فيه من التعصب للمسيحية حسب ما يبدو جلياً في بعض الموارد واحياناً يصر علىٰ أن المسلمين كانوا يخالفون كل كتاب سوىٰ القرآن... مع ذلك نراه يعترف بأن حث الإسلام في طلب العلم كان عاملاً مؤثراً في ذلك... يقول:

«ولما اتسع سلطان المسلمين وفرغوا من إنشاء العلوم الإسلامية ـ وقد تأيدت دولتهم و ذهبت عنهم السذاجة والغفلة عن الصناعات وأخذوا في أسباب الحضارة بالحظ الوافر و تفننوا في الصناعات والعلوم ـ تشوّقوا إلىٰ الاطلاع علىٰ العلوم الفلسفية

---

١ - المصدر السابق: ج ٣ ص ١٨٣.

٢ - تاريخ تمدن الإسلامي: ج ٣ ص ١٨٥.

٣ - بالفارسية: كارنامة اسلام: ص ١٣ ـ ١٦.

بما سمعوه من الأساقفة والقساوسة وهان عليهم ذلك بالاسناد إلىٰ الحديث النبوي القائل: «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها ممن سمعها ولايبالي من أي وعاء خرجت » وقوله: «خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين » و «طلب العلم فريضة علىٰ كل مسلم ومسلمة » و« اطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد » و «واطلبوا العلم ولو بالصين »[1].

ويقول الدكتور زرّين كوب:

«ان التشويق الأكيد الذي قام به الإسلام في التوجه إلىٰ العلم والعلماء كان من أكبر العوامل في تعرف المسلمين علىٰ الثقافة والعلوم الإنسانية؛ ان القرآن الكريم كان يدعو الناس مكرراً إلىٰ التفكر والتدبّر في أحوال الكائنات والتأمل في أسرار آيات التكوين وكثيراً ما كان يشير إلىٰ تفضيل أهل العلم ودرجاتهم وقد عدّ في بعض من آياته شهادة «أولي العلم » تاليةً لشهادة الله والملائكة، وقد قال الإمام الغزالي: كفىٰ بهذا في نبل العلم و فضل أهله. اضف إلىٰ ذلك أن هناك أحاديث تروىٰ بمختلف الاسانيد تحكي عن تكريم العلماء وأهل العلم، فهذه الاحاديث وان كانت مورد بحث واختلاف سنداً ودلالة ولكنّها لاشك كانت من الامور التي عززت رغبة المسلمين في العلم والثقافة ودفعتهم إلىٰ التأمل والتدبر في أحوال الكون والتفكر والفحص عن أسرار الكائنات اضف إلىٰ ذلك أن رسول الإسلام كان يرغب المسلمين في طلب العلم عملاً، فضلاً عن القول فقد حرّر كل من علّم عشرة من أبناء المسلمين في المدينة القراءة والكتابة وهو الذي أمر زيد بن ثابت بتعلم العبرية أو السريانية أو كليهما، فهذا الترغيب، هو الذي أوجب إقبال أصحابه علىٰ طلب العلوم، فقد درس ابن عباس كتب التوراة والانجيل علىٰ ما هو مشهور والمَّ عبدالله بن عمرو بن العاص بالتوراة ووقف علىٰ السريانية. ان تأكيدات النبي [صلّىٰ الله عليه وآله] هي التي زادت في حب المسلمين للعلوم، وهي التي أكرمت العلماء وأهل العلم بين المسلمين وعظمتهم »[2].

والآن لنرد البحث حول الدور المهم والمؤثر للايرانيين في العلوم والثقافات الإسلامية.

---

١ - تاريخ التمدن الاسلامي: ج ٣ ص ١٥٣.

٢ - بالفارسية: كارنامة اسلام: ص ١٧ ـ ١٨.

ان هدفنا في هذا الكتاب هو توضيح الدور المؤثر للايرانيين في تكوين وتدوين العلوم والثقافات الإسلامية. وما ذكرناه هو من باب المقدمات الضرورية... ولانريد قطعاً أن نسلك سبيل المبالغة ونغض النظر عن حقوق سائر الافراد والأمم الذين قد يكون لهم في هذا المضمار حظ عظيم؛ فان التمدن الإسلامي ـ كما كررنا ـ لايأتي من مآثر قومية خاصة بل هو من الإسلام والمسلمين، ولايحق لأية امة ان تسجله باسمها الخاص عربيةً أو غيرها... إلّا انه يحق لكل أمة أن تعين وتشخّص حظّها من ذلك.

القراءة والتفسير

إن أول علم تكوّن من العلوم الإسلامية هو علم القراءة ثم التفسير فالقراءة ترتبط بكيفية التلفّظ بالفاظ وكلمات القرآن والتفسير بمفاهيم ومعاني كلام الله المجيد.

ففي القراءة تبيّن أصول وقواعد الوقف والوصل والمد والتشديد والادغام وغيرها اضف إلىٰ ذلك أن بعض كلمات القرآن قرئت باشكال مختلفة فتبيّن تلك الاشكال في علم القراءة.

ان الصحابة تعلموا قراءة القرآن من النبي الأعظم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وكان الرسول الكريم يباشر تعليم بعضهم ثم يأمرهم بتعليم الباقين. وكان التابعون الذين لم يدركوا عصر الرسول الكريم يتلقون قراءة القرآن من قراءة الصحابة. وهكذا ظهرت جماعة تخصصوا في قراءة القرآن بصورة صحيحة وتعليمها للآخرين، وقد أقبل المسلمون علىٰ هؤلاء القرّاء المتخصصين بحرص وولع شديدين في تعلّم القراءة الصحيحة للقرآن الكريم وكان هؤلاء القراء المتخصصون يروون قراءتهم عن النبي أو صحابته وكان لكل واحد منهم تلامذة متخصّصون، ترجم لهم أصحاب المعاجم والتراجم.

وأما ما هو السبب في اختلاف القراءات؟ وهل كانت هذه القراءات المختلفة موجودة حتىٰ علىٰ عهد الرسول الكريم أم لا؟ وعلىٰ الأول فهل كان ذلك باذنه صلّىٰ الله عليه وآله؟ وبعبارة أخرىٰ: هل كانت هذه الكلمات أوحيت إليه صلّىٰ الله عليه وآله كما هي عليه الآن باختلاف القراءات؟ أم ان سبب اختلاف القراءات هو ما يظهر في سائر الكتب

من اختلاف نقل الرواة؟... فهذا موضوع يجب أن يبحث علىٰ حدة. والذي يسلم به المسلمون هو أنهم كانوا يبذلون منتهىٰ مساعيهم ليقرأوا القرآن كما يقرأه الرسول الكريم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم، ولذلك فهم كانوا يتعلمون قراءته عند من تعلّمه عند الرسول مباشرة أو بالواسطة.

بدأ القرّاء بتعلم فنّ القراءة من اساتذتهم ومعلميهم، شفاهاً وحفظاً في الصدور ويعلمونه تلاميذهم كذلك ثم كتبوا كتباً في ذلك.

وادّعىٰ بعضهم أن أول من ألف كتاباً في علم القراءة هو أبو عبيد قاسم بن سلام المتوفىٰ في ٢٢٤ هجرية. وهذا مردود؛ فان حمزة بن حبيب من القراء السبعة وهو من الشيعة كان يعيش قبل أبي عبيد بقرن، وقد ألّف كتاباً في فنّ قراءة القرآن الكريم... كما حقق ذلك العلّامة الكبير آية الله المرحوم السيد حسن الصدر واستشهد لذلك بكلام ابن النديم في الفهرست وكلام النجاشي في الفهرست. بل ان أول من دون علم القراءة كما ذكر هؤلاء هو أبان بن تغلب من أصحاب الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

ويثبت المرحوم السيد الصدر أن أول من جمع القرآن وكتبه هو أمير المؤمنين علي عليه السلام وأن أول من نقط المصحف (ولم ينقط قبله) هو أبو الأسود الدؤلي من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام وأن أول من صنف كتاباً في علم القراءة هو أبان بن تغلب وهو أول من كتب كتاباً في معاني غريب القرآن وأن أول من كتب كتاباً في فضائل القرآن هو الصحابي الشهير أُبي بن كعب المعروف بولائه لعلي عليه السلام، وأن أول من ألف كتاباً في مجازات القرآن هو الفراء النحوي المعروف الشيعي الايراني وأن أول من كتب كتاباً في أحكام القرآن هو محمّد بن السائب الكلبي الشيعي الكوفي وأن أول من صنف كتاباً في التفسير هو سعيد بن جبير التابعي الذي قتله الحجاج علىٰ ولائه لعلي عليه السلام[1].

وعلىٰ أي حال فقد عرف من بين التابعين وتابعي التابعين الذين عاشوا في القرن الأول والثاني من الهجرة عشرة منهم باعتبارهم متخصصين في فن قراءة القرآن عرف

---

١ - تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٣١٦ ـ ٣٢٢.

سبعة منهم بعنوان «القراء السبعة » وهم: نافع بن عبدالرحمن، وعبدالله بن كثير، وأبو عمرو بن العلاء، وعبدالله بن عامر، وعاصم بن أبي النجود، وحمزة بن حبيب، وعلي الكسائي.

أربعة من هؤلاء السبعة ايرانيون وثلاثة منهم غير ايرانيين ومن كل من الأربعة و الثلاثة اثنان من الشيعة وما عداهما من غير الشيعة. فقد روىٰ العلامة الجليل المرحوم السيد حسن الصدر في كتابه «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام »[1] عن الشيخ عبدالجليل الرازي: ان أكثر أئمة القراءة من العدلية (المعتزلة أو الشيعة) وعلىٰ أيّ حال فان أربعة منهم ايرانيون وهم:

١ ـ عاصم بن أبي النجود وكان من الموالي العجم وقد تتلمذ في القراءة علىٰ أبي عبدالرحمن السلمي وكان تلميذ علي عليه السلام وقد عرفت قراءته أنها أجود القراءات. فقد جاء في «ريحانة الأدب » ما نصه: « ان أصول المصاحف كتبت علىٰ موافقة قراءة عاصم وكتب سائر القراءات بخط أحمر في الهوامش »[2] عاش عاصم في الكوفة وتوفي فيها. وقد صرّح بتشيعه القاضي نور الله التستري في كتابه «مجالس المؤمنين » والعلّامة السيد حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة[3] وتوفي في حدود عام ١٣٠ هـ

٢ ـ نافع بن عبدالرحمن، وقد صرح ابن النديم في كتابه «الفهرست » بأنه أصبهاني الاصل سكن المدينة. وجاء في «ريحانة الادب»: أن نافعاً كان شديد السمرة وفي القراءة إمام أهل المدينة وكانوا يعتمدون علىٰ قراءته ورأيه، وقد أخذ القراءة من يزيد بن القعقاع أحد القرّاء العشرة. ومات نافع سنة ١٥٩ أو ١٦٩.

٣ ـ عبدالله بن كثير؛ قال ابن النديم: قيل ان ابن كثير كان من أبناء الفرس الذين بعثهم انوشيروان إلىٰ اليمن، كي يأخذوا الحكم فيها من الحبشة ويرجعوه ليد سيف بن ذي يزن اليمني... وقد بيّنا سابقاً الدور المهم لهؤلاء في نشر الإسلام في اليمن. وجاء في «ريحانة الادب »: ان ابن كثير كان قد أخذ أصول علم القراءة من مجاهد عن ابن عباس عن علي عليه السلام. وتوفىٰ عام ١٢٠ هـ

---

١ - المصدر السابق: ص ٣٤٦.

٢ - ريحانة الأدب: ج ٤ ص ٤٢٦، ط ٢.

٣ - تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام: ص ٣٤٦.

٤ ـ علي بن حمزة الكسائي، وحمزة أبوه ـ على ما جاء في الفهرست لابن النديم ـ هو ابن عبدالله بن بهمن بن فيروز. وقد كان الكسائي من مشاهير الادب العربي ومن أكابر النحويين، وكان معلم أبناء هارون الرشيد وكان معه في سفره إلىٰ خراسان ومات بالرّي ودفن مع محمّد بن الحسن الشيباني الفقيه وقاضي القضاة في يوم واحد بالرّي، فقال هارون: لقد دفنا اليوم الفقه والعربية بالرّي. مات أواخر القرن الثاني للهجرة. وكان الكسائي يتشيّع.

أما التفسير

فقد كان المسلمون علىٰ عهد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله يسألون ما يشكل عليهم من معاني ومفاهيم آيات القرآن. وقد كان لبعض صحابته بصيرة، فائقة في فهم معاني القرآن، ولذلك فقد عرف هؤلاء بـ«المراجع» في التفسير فمن هؤلاء عبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود، وكان لابن عباس شهرة أكثر في ذلك، ولذلك فقد نقلت آراؤه في كتب التفسير كثيراً. وكان ابن عباس تلميذ الإمام علي عليه السلام وكان يفخر بهذا. ابن مسعود أيضاً كان من شيعة علي عليه السلام وتلاميذه. وتذكر كتب التفسير اسم كتاب لابن عباس في ذلك ويدعىٰ بعضهم وجود نسخة من هذا الكتاب اليوم في المكتبة الملكية بالقاهرة[1] وكان ابن عباس مع علمه الجم في التفسير إذا سئل عن علمه قياساً بعلم علي عليه السلام يقول: علمي من علم ابن عمي علي عليه السلام كقطرة أمام بحر لُجّيّ!

ويدّعي جرجي زيدان أن التفسير كان حتىٰ أواخر القرن الأول الهجري يروىٰ «وكانوا يتناقلون التفسير شفاهاً إلىٰ أواخر القرن الأول. فكان أول من دوّن التفسير في الصحف مجاهد المتوفي سنة ١٠٤ هـ ثم اشتغل فيه سواه وهم كثيرون حتىٰ انتهىٰ ذلك إلىٰ الواقدي المتوفىٰ سنة ٢٠٧ والطبري المتوفىٰ ٣١٠ هـ وغيرهما»[2]

---

١ ـ كما جاء في كتاب: مفسران شيعه، من منشورات جامعة طهران صحفة: ٤٦.

٢ ـ تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٣ ص ٧٠.

ولاتصح هذه النظرية قطعا؛ فإن ابن عباس وحتىٰ سعيد بن جبير،كانا قد كتبا في التفسير قبل مجاهد. بل ان هذه النظرية لجرجي زيدان هي فرع نظرية عامة تدعىٰ أن المسلمين في القرن الأول لم يؤلفوا شيئاً. وسنبطل هذه النظرية في الفصول التالية.

وكما اهتم الايرانيون بفنّ القراءة كذلك اهتموا بفنّ تفسير القرآن، بل ان اهتمام الايرانيين بالقراءة والتفسير والفقه والحديث والعلوم التي تتعلق بمصادر الإسلام كان أكثر من أي إهتمام لهم في أي مجال آخر. ولايمكننا هنا أن نعرّف بجميع المفسرين الايرانيين، ففي كل قرن منهم العشرات بل المئات ممن كتب في ذلك وألف وصنّف، والتحقيق بشأن جميع هؤلاء وفصل الايرانيين منهم عمّن عداهم يحتاج إلىٰ عمر مديد، ولكن لكي نقدم نموذجاً من خدمات الايرانيين في التفسير لابأس من النظر إلىٰ أهم التفاسير وأشهر المفسرين والمعروفين بين المسلمين، وسنرىٰ أن أكثرهم كانوا ايرانيين. ونختار هؤلاء من بين من يذكر اسمه ورأيه كثيراً في كتب التفاسير لانه من كبار القدماء أو ممن خلفوا كتباً معروفة في التفسير.

أما الطبقة الأولىٰ أي المفسرين الأوائل الذين تنقل آراؤهم في كتب التفسير كثيراً فبعضهم من الصحابة وبعضهم من التابعين وبعضهم من تابعي التابعين، كابن عباس وابن مسعود وأبي بن كعب، والسدي ومجاهد ومقاتل وقتادة والكلبي والسبيعي والثوري والزهري والاعمش وعكرمة وعطاء والفراء، وغيرهم.

فبعض هؤلاء شيعة وبعضهم غير شيعة وبعضهم ايرانيون وبعضهم غير ايرانيين، وان تراجم جميع هؤلاء خارج عن طبيعة هذا الكتاب. وبدهي أن الاكثرية في هذه الطبقة لغير الايرانيين، إنما المعدود منهم عجم ايرانيون هم مقاتل والاعمش والفراء.

فمقاتل بن سليمان من أهل خراسان أو الري، كان يعيش في القرن الثاني للهجرة مات عام ١٥٠ هـ وكان من العامة. ويبالغ الشافعي فيه فيقول: «ان الناس في التفسير عيال علىٰ مقاتل».

وأما سليمان بن مهران الاعمش فهو ـ على ما في ريحانة الادب[1] ـ من أهل دماوند

١- ج ١ ص ١٥٤، ط ٣.

ولد بالكوفة وسكن بها وتشيع لعلي عليه السلام واثنىٰ عليه علماء العامة. وكان يعرف باللطائف والطرائف وتنقل عنه أمور من ذلك. مات حوالي ١٥٠ هـ

وأما الفراء فهو يحيىٰ بن زياد الاقطع من مشاهير اللغويين والنحويين، وله ذكر واسع في كتب الادب العربي وكان الفراء تلميذ الكسائي ومعلماً لابناء هارون من بعده، وقد صرح صاحب «رياض العلماء» و «تأسيس الشيعة» بتشيعه، وهو ايراني وكان أبوه زياد الاقطع في وقعة فخ المعروفة مع شهيد فخ الحسين بن علي بن الحسن المثنىٰ، فقطعت يده عقوبة له ولذلك عرف بالاقطع مات الفراء عام ٢٠٧ أو ٢٠٨ هـ

وإذا تجاوزنا هذه الطبقة، نصل إلىٰ طبقة المؤلفين في التفسير. وقد قلنا سابقاً إن أصحاب التفاسير من الشيعة والسنة كثيرون، بل يخرجون عن حدّ الحصر والاحصاء، وسنكتفي هنا بذكر أشهر التفاسير المعروفة اليوم بين السنة والشيعة، ونبدأ البحث في تفاسير الشيعة فنقول:

إن المفسرين الشيعة ينقسمون إلىٰ: المفسرين علىٰ عهد الأئمة عليهم السلام والمفسرين في عصر الغيبة، فقد كان لكثير من أصحاب الأئمة عليهم السلام تفاسير، من قبيل أبي حمزة الثمالي وأبي بصير الأسدي ويونس بن عبدالرحمن وحسين بن سعيد الاهوازي وعلي ابن مهزيار ومحمّد بن خالد البرقي القمي وفضل بن شاذان النيسابوري. وكثير منهم ايرانيون.

والمفسرون الشيعة في عصر الغيبة أيضاً كثيرون؛ وهنا نكتفي بذكر نماذج من كتب التفسير المعروفة بين الشيعة، لنعرف من خلالها أن أكثر تفاسير الشيعة كتبها ايرانيون.

١ ـ تفسير علي بن إبراهيم القمي؛ وهو من أشهر تفاسير الشيعة والكتاب مطبوع وإبراهيم بن هاشم أبو علي كوفي انتقل إلىٰ قم وهو من مشايخ الشيخ الكليني. وكان علي حياً حتىٰ عام ٣٠٧.

٢ ـ تفسير العيّاشي؛ العيّاشي هو محمّد بن مسعود السمرقندي، وكان عامياً فتشيّع وكان معاصراً للشيخ الكليني وقد ورث من أبيه ثلاثة آلاف دينار صرفها جميعها في النسخ والمقابلة والاستنساخ واقتناء الكتب، حتىٰ أصبح بيته مثل المدرسة ففيه جمع من

هل العلم، كل في شأن من الشؤون العلمية، يصرف عليهم العيّاشي من أرث أبيه. وكان له ـ فضلاً عن الحديث والفقه والتفسير ـ يد في الطب والنجوم. ذكره ابن النديم في الفهرست وعدّد له كتباً كثيرة وادعىٰ أنها كانت كثيرة الانتشار في خراسان وما والاها. وكان لعياشي ايرانياً والظاهر أنه كان من أصل عربي، قال ابن النديم: قيل انه تميمي. وهو من علماء المائة الثالثة.

٣ ـ تفسير النعماني؛ وهو أبو عبدالله محمّد بن إبراهيم النعماني، وكان يكنىٰ عنه أحياناً بابن أبي زينب. وهو من تلامذة الشيخ الكليني. ويقول صاحب «تأسيس الشيعة»: ان لديه نسخة من تفسير النعماني. وهو من علماء المائة الرابعة من العراق أو مصر. وله ابن خت يدعىٰ أبا القاسم الحسين بن المرزبان الوزير المغربي[1] وهو ينتسب إلىٰ يزدجرد لساساني، بلغ الوزارة عدّة مرّات فلقب بالوزير المغربي. وكان قد حفظ القرآن قبل أن يكمل الخامسة عشرة من عمره، وكان ماهراً في النحو واللغة والحساب والجبر والهندسة والمنطق وبعض الفنون الاخرىٰ، وكان أديباً قديراً، وله كتاب بعنوان «خصائص القرآن» مات سنة ٤١٨ أو ٤٢٨ وأوصىٰ أن ينقل جثمانه من بغداد إلىٰ النجف الاشرف ليدفن عند أميرالمؤمنين علي عليه السلام.

٤ ـ تفسير التبيان: لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن بن علي الطوسي الخراساني، الإمام في الفقه والحديث والتفسير والكلام، ولد سنة ٣٨٥ ولذلك فقد احتفلت جامعة مشهد في العام الماضي[2] بالذكرىٰ الألفية له (قده) واشترك في الاحتفال عدد كبير من العلماء المسلمين وغيرهم من شيعة وسنة. وتوفي سنة ٤٦٠ هـ وكان قد هاجر من خراسان إلىٰ العراق في الثالثة والعشرين من عمره وحضر محضر الشيخ المفيد والسيد المرتضىٰ علم الهدىٰ ثم أصبح إمام الشيعة علىٰ عهده بعدهما، ولازال إماماً يعد في الرعيل الأول من علماء الشيعة في زمن الغيبة. وانتقل في أواخر عمره من بغداد إلىٰ النجف الأشرف علىٰ أثر حوادث جرت هناك فأسس الحوزة العلمية للشيعة في جوار

---

١ - راجع: تأسيس الشيعة: ص ٣٣٦، وريحانة الادب: ج ٨ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

٢ - أي عام ١٣٨٥ هـ فالمؤلف كتب هذا عام ١٣٨٦ هـ

مرقد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، الحوزة العلمية النجفية التي لازالت مصدر إشعاع علمي للشيعة بعد مرور ألف عام.

٥ – مجمع البيان: للشيخ المفسّر الفضل بن الحسن الطَّبرسي (بفتح الطاء) وسكون الباء وكسر الراء أي معرّب: تفرش ـ علىٰ الوزن نفسه، وهي مدينة قرب قم إلىٰ اراك، وقد فرغ من تحرير هذا التفسير في شهر ذي القعدة الحرام عام ٥٣٦ هوكتابه أحسن التفاسير من حيث الأدب وحسن التصنيف والتأليف والتحرير، ويعني به الشيعة والسنة وقد طبع مراراً في ايران ومصر وبيروت. وله تفسير مختصر آخر يدعىٰ «جوامع الجامع ». وقد كتبه بعد فراغه من مجمع البيان عندما عثر علىٰ «الكشاف» للزمخشري ووجد فيه نكاتاً أدبية فاتته في مجمع البيان، فألف «جوامع الجامع» استدراكاً لما فاته من ذلك.ويجد أهل الفن في مجمع البيان من الامور الادبية ما لايوجد في الكشاف، وإن كان في الكشاف من البلاغة ماليس في مجمع البيان.

٦ ـ روض الجنان: للشيخ المفسر أبي الفتوح الرازي الطهراني، فارسي. وهو من أغنىٰ تفاسير الشيعة، ويرىٰ البعض أن الطبرسي المذكور آنفاً والشيخ فخر الدين الرازي قد انتفعا من هذا التفسير كثيراً. وكان أبو الفتوح نيسابورياً يسكن بالري، وهو من أصل عربي ينتهي إلىٰ عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، من أصحاب أميرالمؤمنين عليه السلام في صفين عاصر أبو الفتوح الشيخ الطبرسي والزمخشري وقد قرأ علىٰ تلامذة الشيخ الطوسي (قده) وعاش في القرن السادس الهجري. وقبره اليوم بري يزار ويكرم في جوار مرقد السيد عبدالعظيم الحسني والسيد حمزة بن موسىٰ بن جعفر عليهما السلام في واجهة القبلة.

٧ ـ تفسير الصافي: وهو للمولىٰ محسن الفيض الكاشاني، من مشاهير علماء الشيعة في القرن الحادي عشر الهجري فقيه محدث ومفسر حكيم عارف، وكان كثير البركة في عمره تأليفاً وجودة في التأليف. أقام مدة بقم في المدرسة المعروفة المنسوبة إليه: «الفيضية» ثم سافر إلىٰ شيراز وقرأ الحديث علىٰ السيد ماجد البحراني، والفلسفة والعرفان لدىٰ الحكيم الالهي صدر المتألهين الشيرازي وصاهره. ومات في كاشان في

سنة ١٠١٩ هـ

٨ ـ تفسير المولىٰ صدر الدين الشيرازي: كان معروفاً بالفلسفة والعرفان بل هو صاحب مدرسة فلسفية خاصة ألّا أن له يداً طولىٰ في تفسير القرآن وشرح الأحاديث، فقد شرح كتاب الاصول من الكافي، وسورة البقرة إلىٰ الآية الخامسة والستين: ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت...﴾ وسور السجدة ويس والواقعة والحديد والجمعة والطارق والاعلىٰ والزلزال، وآيات الكرسي والنور، وآية ﴿وترىٰ الجبال تحسبها جامدة﴾ فتفسيره وإن لم يكن كاملاً، إلّا أنه مفصّل تفصيلاً يقرب من نحو تفسير الصافي، وقد طبع مراراً في ايرن وقد اتفقت وفاته في البصرة في طريقه إلىٰ الحج عام ١٠٥٠ هـ

٩ ـ منهج الصادقين: وهو تفسير فارسي طبع في ثلاثة مجلدات كبار في تبريز، وكان إلىٰ فترة قريبة هو التفسير الفارسي الوحيد تقريباً. مؤلفه المرحوم المولىٰ فتح الله الكاشاني من علماء كاشان في المائة العاشرة، وأكثر كتبه بالفارسية منها شرح نهج البلاغة بالفارسية.

١٠ ـ تفسير شبر: وهو السيد عبدالله شبر المعاصر للشيخ جعفر كاشف الغطاء والمولىٰ الميرزا القمي صاحب القوانين كان عالماً عابداً متتبعاً متبحراً، له كتب كثيرة في الفقه والاصول والكلام والحديث والرجال والتفسير. توفي في ١٢٤٢ هـ ودفن بالكاظمية.

١١ ـ تفسير البرهان: ومؤلفه المولىٰ المرحوم السيد هاشم البحراني المحدث المتتبع الشهير وقد كتب هذا التفسير علىٰ مبنىٰ الاخباريين الذين يفسرون القرآن بالحديث فحسب بدون أي توضيح آخر بل حتىٰ بدون توضيح لتلك الاخبار والاحاديث وكيفيتها في تفسير الآية، بل إنما بنقل الاحاديث المرتبطة بتلك الآية فقط. مات هذا العالم عام ١١٠٧ أو ١١٠٩ هـ

١٢ ـ نور الثقلين: مؤلفه أحد علماء الحويزة في شيراز معاصر للمرحوم المجلسي والحر العاملي، وقد عنىٰ في تفسيره هذا بنقل الاخبار فقط، وهو المرحوم الشيخ عبدالعلي بن جمعة، ولا يعلم وفاته بالضبط.

هذه التفاسير هي أشهر تفاسير الشيعة حتىٰ القرن الثالث عشر الهجري المطبوع منها والمتداول في أيدي أهله، وإذا أراد غير الشيعة أن يراجعوا تفاسير للشيعة راجعوا هـذه التفاسير وقد كتب في هذا القرن الرابع عشر عدة من التفاسير القيمة أو هي فـي حـال التأليف أمسكنا عن ذكرها.

ومن أراد الحصول علىٰ إحصاء لكل تفاسير الشيعة، فعليه مراجعة الكتاب الجـليل «الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة» تأليف العلّامة الجليل المرحوم الحاج الشيخ آقا بـزرگ الطهراني أعلىٰ الله مقامه الشريف.

ونعرف من هذه النماذج التي ذكرناها أن مؤلفي أكثر التفاسير المعروفة اليوم للشيعة أما هم من الشيعة الايرانيين أو العرب المستعجمين في ايران أو من عرب الخـليج الذيـن سكنوا ايران.

أما تفاسير السنة

١ ـ جامع البيان في تفسير القرآن، المعروف بتفسير الطبري وهو المؤرّخ والمحدث والفقيه الشهير وهو من علماء الدرجة الاولىٰ بين علماء أهل السنة كان إماماً في أكـثر علوم زمانه. وكان في الفقه عيالاً علىٰ الشافعي أول أمره ثم بنىٰ مدرسة فقهية مسـتقلة واجتهد ولم يقلد أحد الأئمة الاربعة، بل أيا من أئمة الفقه السني. وكان لمذهبه أتباع إلىٰ فترة من الزمن ثم انقرضوا بعد حصر المذاهب في الأربعة. ويذكر ابن النديم في الفهرست عدّة من الفقهاء الذين كانوا يتبعون مذهب الطبري في الفقه.

والطبري نسبة إلىٰ طبرستان وهي مازندران وهو من آمل، ولد بها سنة ٢٢٤ هـ ومات ببغداد سنة ٣١٠ هـ طبع تفسيره في القاهرة. وترجم إلىٰ الفارسية بأمر نوح بـن مـنصور الساماني من ملوك السامانيين قام به وزيره البلعمي العربي في أصله ونسـبه وطـبعت الترجمة أخيراً بطهران.

٢ ـ الكشّاف: وهو من أشهر واتقن تفاسير أهل السـنة، ويـمتاز مـن حـيث الادب ولاسيما البلاغة. مؤلفه أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي الملقب جارالله

، وكان من أكابر علماء الإسلام وقد ألف كتباً كثيرة في الادب والحديث والموعظة. ولقبَ جارالله لمجاورته سنين مكة المكرمة وإن كان هو من أهل شمال بلاد ايران الباردة، وإنما تحمّل ذلك الجو الحجازي الحار تيمناً وتبركاً وطلباً للآثار المعنوية الكثيرة في المجاورة هناك. والظاهر أنه كتب تفسيره الكشاف أيام مجاورته بيت الله الحرام.

وفي الجزء الثالث من الكشاف بذيل الآية السادسة والخمسين من سورة العنكبوت: ﴿يا عبادي الذين آمنوا ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون﴾ يقول: «معنىٰ ان المؤمن إذا لم يتسهل له العبادة في بلد هو فيه ولم يتمش له أمر دينه كما يحب فليهاجر إلىٰ بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً وأصح ديناً وأكثر عبادة وأحسن خشوعاً. ولعمري ان البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير، ولقد جربنا وجرب أوّلونا فلم نجد ـ فيما درنا وداروا ـ اعون علىٰ قهر النفس وعصيان الشهوة وأجمع للقلب الملتفت وأضم للهم المنتشر واحث علىٰ القناعة و اطرد للشيطان وأبعد من كثير الفتن واضبط للامر الديني في الجملة من سكنىٰ حرم الله وجوار بيت الله، فلله الحمد علىٰ ما سهّل من ذلك وقرب ورزق من الصبر واوزع من الشكر. وعن النبي صلّىٰ الله عليه وسلم «من فرَّ بدينه من أرض إلىٰ أرض ـ وإن كان شبراً من الأرض ـ استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمّد... »[1].

وفقد الزمخشري إحدىٰ رجليه في أحد أسفاره العلمية في شتاء خوارزم الباردة وكان بعد ذلك يتّكىء علىٰ عصا ورجل خشبية، ومع هذا الحال قام برحلات طويلة وجاور بيت الله الحرام مدة. ولد عام ٤٦٧ ومات سنة ٥٣٨ هـ

٣ ـ مفاتيح الغيب: أو التفسير الكبير لمحمّد بن عمر بن حسين بن حسن بن علي المعروف بالإمام فخر الدين الرازي. وهو من مشاهير علماء الإسلام فهو وكتبه وآراؤه وأفكاره في الفلسفة والكلام والتفسير معروفة بين الشيعة والسنة، وله مختلف المؤلفات في مختلف الموضوعات. ولد بمازندران وسكن بالرّي وسافر إلىٰ هرات وخوارزم وبلغ إلىٰ منزلة كاملة من الاحترام والشهرة في عصره. ولد سنة ٥٤٣ ومات عام ٦٠٦ في هرات.

---

١ - الكشاف: ج ٣ ص ٢١٠ تفسير سورة العنكبوت آية: ﴿يا عبادي إن أرضي واسعة فاياي... ﴾

٤ ـ غرائب القرآن: المعروف بتفسير النيسابوري وهو من تفاسير الدرجة الأولىٰ عند أهل السنة. مؤلفه الحسن بن محمّد بن حسين المعروف بنظام النيسابوري أو الاعرج و كان من أهل قم ولكنه سكن نيسابور وكان رجلاً جامعاً لأطراف الكمال، وله مؤلفات في الرياضيات والآداب. مات حوالي عام ٧٣٠ هـ

٥ ـ كشف الاسرار: وهو فارسي في عشرة مجلدات طبع قبل أعوام بطهران ومؤلفه أبو الفضل رشيد الدين الميبدي اليزدي الذي عاش في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس. ولهذا التفسير مكانة بين أهل الفضل لابأس بها.

٦ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المعروف بتفسير البيضاوي وهو عبدالله بن عمر بن أحمد المعروف بالقاضي البيضاوي نسبة إلىٰ بيضاء من فارس. وتفسيره تلخيص لتفسير الكشاف ومفاتيح الغيب. وقد استفاد منه الفيض الكاشاني في تفسيره الصافي وللشيخ البهائي هوامش عليه وتعليقات وتحقيقات. وكان البيضاوي معاصراً للمحقق الطوسي والعلّامة الحلي، مات في أواخر القرن السابع الهجري.

٧ ـ تفسير ابن كثير: وهو ابن كثير المؤرخ المعروف بكتابه «البداية والنهاية» وهو أبو الفداء القرشي الشامي تلميذ ابن تيمية. طبع تفسيره بالقاهرة. وتوفي هو في عام ٧٧٤ هـ

٨ ـ الدر المنثور، لجلال الدين السيوطي من أعمق وأكثر علماء الإسلام تأليفاً، وبعضها من النفائس كالاتقان في علوم القرآن و الدر المنثور تفسير بالمأثور أي تفسير للآيات بالاخبار والروايات والاحاديث، وهو مما لانظير له في هذا الباب، وهو عند السنة كتفسير البرهان عند الشيعة. وكان السيوطي، مصرياً قيل انه حفظ القرآن ولم يكمل السابعة من عمره![1] وقد عدّ له صاحب «ريحانة الادب» تسعة وسبعين كتاباً. مات عام ٩١٠ هـأو ٩١١ هـ

٩ ـ تفسير الجلالين: وهو من سورة الحمد إلىٰ سورة الكهف لجلال الدين محمّد بن أحمد بن إبراهيم المحلي اليمني الشافعي من أكابر علماء الشافعية مات عام ٨٦٤ ولم يوفق لاتمامه. فكمله له من سورة الكهف إلىٰ آخر القرآن بنفس الاسلوب جلال الدين

---

١ ـ ريحانة الأدب: ج ٣ ص ١٤٨، ط ٣.

السيوطي و لذلك عرف بتفسير الجلالين. طبع عدة مرات في ايران ومصر والهند، كما في ريحانة الادب ج ٥ ص ٢٥٠ ط ٣.

١٠ ـ تفسير القرطبي: وهو أبو بكر صائن الدين يحيىٰ بن سعدون الاندلسي وهو من أكابر علماء عصره في الحديث والنحو واللغة والتجويد والقراءة والتفسير بل وكان مرجع الاشياخ في عصره. وهو من أهل قرطبة بالاندلس (أسبانيا) مات عام ٥٦٧ هـ

١١ ـ إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود وهو لأبي السعود من أكابر علماء الدولة العثمانية في القرن العاشر، وقد كرّمه السلطان بايزيد الثاني لتأليفه هذا التفسير تكريماً كثيراً اشتغل بالقضاء وأصبح قاضي القضاة ثم نصب مفتياً عاماً وشيخاً للإسلام عام ٩٥٢ هـ طبع تفسير أبي السعود، بالقاهرة مراراً، وأنا لم أر هذا التفسير إلّا أن بعض المحققين من شيوخ الدرجة الأولىٰ من المفسرين يرىٰ لهذا التفسير قدراً جليلاً. مات أبو السعود سنة ٩٨٢ هـ

١٢ ـ روح البيان: وهو فارسي عربي، وفيه أبيات عرفانية فارسية كثيرة. مؤلفه الشيخ إسماعيل الحقي من علماء الدولة العثمانية اشتغل في استانبول بالوعظ والارشاد ثم سافر إلىٰ مدينة بورسه من بلاد تركية. كان صوفياً وتفسيره مليء بالذوقيات والعرفان، ولهذا فهو لم يسلم من أذىٰ معاصريه لعقائده الصوفية. مات عام ١١٢٧ هـ

١٣ ـ روح المعاني: للسيد محمود بن عبدالله البغدادي الحسني الحسيني الآلوسي الشافعي، كان شافعياً ولكنه في كثير من المسائل يتبع فتوىٰ الفقه الحنفي! وله شرح علىٰ القصيدة العينية لعبد الباقي العمري الموصلي في مدح أميرالمؤمنين عليه السلام يباري به شرح السيد كاظم الرشتي المعروف بشرح القصيدة. وهو من أهل العراق وقيل ان آلوس نقطة علىٰ شاطيء الفرات [1] مات الآلوسي سنة ١٢٧٠ هـ

١٤ ـ فتح القدير: للشوكاني محمّد بن علي بن محمّد بن عبدالله الشوكاني اليمني، كبر في بلدة صنعاء اليمن وبلغ إلىٰ رتبة التدريس والإفتاء. وله كتاب باسم «نيل الاوطار من أسرار منتقي الأخبار» به عرف الشوكاني. مات عام ١٢٥٠ هـ

---

١ - ريحانة الادب: ج ١ ص ٥٩، ط ٣.

والظاهر أن هذه التفاسير الاربعة عشر التي ذكرناها آنفاً هي أشهر تفاسير أهل السنة وأكثرها تداولاً بينهم حتىٰ القرن الثالث عشر الهجري وقد كتبت في القرن الرابع عشر بين أهل السنة تفاسير هامة في مصر وسائر البلاد الإسلامية امسكنا عن ذكرها. وستة من هؤلاء المفسرين الاربعة عشر - كما رأينا - من ايران، وبعض هؤلاء من الدرجة الاولىٰ من المفسّرين قبل القرن السابع الهجري، واثنان منهم من اليمن واثنان منهم من استانبول وواحد منهم من الاندلس (اسبانيا) وواحد من الشام وواحد من مصر وآخر من العراق.

ونلاحظ أن السهم الأوفر في هذه الخدمة الثمينة للإسلام أي القراءة والتفسير للايرانيين، وان الايرانيين هم أكثر كل الامم المسلمة إيماناً وإخلاصاً ونشاطاً في خدمة الإسلام.

الرواية والحديث

ان من ميادين خدمة الايرانيين للإسلام علىٰ صعيد العلم والثقافة موضوع الأحاديث أي قراءة الرواية واستماع الحديث وجمعه وضبطه ونقله عن النبي وآله. وهو كالتفسير ينقسم إلىٰ أحاديث الشيعة والسنة. وكان باعث المسلمين علىٰ جميع الاحاديث ونقل الأخبار حاجة المسلمين إليها في أمور دينهم، بالاضافة إلىٰ أن الرسول الكريم نفسه ـ حسب الاحاديث القطعية بين الشيعة والسنة ـ كان يكرر تشويق الناس إلىٰ أن يثبتوا ما سمعوه منه وينقلوه لمن يليهم من الغائبين.

ولهذا فقد ابدىٰ المسلمون منذ صدر الإسلام شوقاً شديداً إلىٰ ضبط أحاديثه صلّىٰ الله عليه وآله ونقلها. وبعد أن انتشر الإسلام ودخل فيه الناس افواجاً، وجد أصحابه المتشرفون بالحضور لديه وحفظ بعض الاحاديث والقضايا عنه قدراً وأهمية خاصة لدىٰ سائر المسلمين، فكان أصحاب الشوق إلىٰ أحاديث النبي (ص) يسافرون من بلد إلىٰ آخر ومن نقطة إلىٰ أخرىٰ ليسمعوا الحديث من الصحابة أو التابعين وكثيراً ما كان أحدهم يسافر للتحقيق في صحة حديث أو سقمه أو سماع حديث من صحابي معتبر، عشرات الفراسخ أو مئات الكيلومترات ليصل إلىٰ ذلك المحدث ويسمع منه ما قد رغب فيه.

ويقول جرجي زيدان: «لما اشتغل المسلمون بتفهم معاني القرآن، كان من جملة ما افتقروا إليه في تفهمها أقوال النبي وهو ما عبروا عنه بالاحاديث النبوية. وأقدم من سمعها الصحابة وحفظها، فكانوا إذا أشكل عليهم فهم آية واختلفوا في تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بتلك الاحاديث علىٰ استيضاحها. فلما كانت الفتوح تفرق الصحابة في الأرض وعند كل منهم بعض الاحاديث قد يتفرد بعضهم بأحاديث لم يسمعها سواه، فأصبح طالب الحديث إذا كان من أهل دمشق مثلاً لايستو فيه إلّا إذا رحل في طلبه إلىٰ مكة والمدينة والبصرة والكوفة والري ومصر وغيرها. وكذلك المقيم في أحد هذه البلاد فانه لايستطيع استيفاء الحديث مالم يطلبه من البلاد الاخرىٰ. وهذا ما يعبّرون عنه بالرحلة في طلب العلم»[1].

إن شوق المسلمين إلىٰ استماع أحاديث النبي وضبطها ونقلها بدأ من عهده هو صلّىٰ الله عليه وآله وسلم وحيث كثر الطلب علىٰ حديثه كثر عرضه، وكلما كان كذلك دخل فيه الغل والغش، وكذلك كان، فقد روىٰ جماعة من ضعفاء الإيمان علىٰ عهده أحاديث عنه لا أساس لها من الصحة حتىٰ قام هو صلّىٰ الله عليه وآله بتكذيبها وتحذير الناس منها ومن أصحابها، فاعلن عن ظهور الكذابين والوضّاعين عليه أو في أحاديثه، ولكي يجعل لهم مقياساً يقيسون عليه صحة أحاديثه وسقمها، عين لذلك القرآن الكريم.

ومع أن الاهتمام بالاستماع ونقل أحاديث الرسول الكريم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم كان مشتركاً بين عامة المسلمين، وخاصة أهل بيته عليه السلام الّا أنه كان هناك اختلاف أساسي في القرن الأول الهجري بين عامة المسلمين وخاصة أهل البيت عليهم السلام وهو أن عامة المسلمين في هذا القرن تبعاً لامر الخليفة الثاني وآخرين من الصحابة كرهوا كتابة الحديث لكي لا يختلط الحديث بالقرآن الكريم، أو لئلا يستقطب الاهتمام بالحديث مكان الاهتمام بالقرآن الكريم. بينما كان اتباع أهل البيت عليهم السلام يعتنون بكتابة الاحاديث كما كانوا يعنون بنقلها.

وأما عامة المسلمين فقد تنبهوا للخطأ في أوائل القرن الثاني، وكسر هذا السد الذي بناه

---

١ - تاريخ التمدن الإسلامي: ج ٣ ص ٦٥ ط الهلال ـ الاولىٰ.

عمر بن الخطاب، عمر بن عبدالعزيز الخليفة الاموي الزاهد من أسباط الخليفة الثاني. ولهذا فقد تقدمت شيعة أهل البيت في كتابة وتدوين الحديث قرناً من الزمان.

وقد روىٰ العلّامة الجليل والمحقق المتتبع المرحوم السيد حسن الصدر في كتابه النفيس: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام عن صحيح مسلم وفتح الباري لابن حجر في المقدمة انهما قالا: «ان السلف اختلفوا في كتابة الحديث، فكرهها طائفة منهم عمر بن الخطاب و عبدالله بن مسعود، وأبو سعيد الخدري، في جماعة آخرين من الصحابة والتابعين. واباحها طائفة أخرىٰ، كأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وابنه الحسن، وانس وعبدالله بن عمرو بن العاص ثم أجمع أهل العصر الثاني علىٰ جوازها... إلىٰ آخر كلامهم»[1].

أما أول وثاني كتاب للحديث فهو كتاب الجفر وهو كتاب في جلد مطوي بخط علي عليه السلام كان عند الأئمة الاطهار عليهم السلام وكانوا يطلعون عليه أحياناً بعض شيعتهم أو ينقلون عنه لهم. ثم مصحف فاطمة عليها السلام.

وإذا تجاوزنا هذين الكتابين، فكتاب أبي رافع مولىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم في السنن والأحكام والقضايا. وكان أبو رافع قبطياً اعتقه رسول الله (ص) وكان هو وابناه علي وعبيدالله من شيعة علي عليه السلام، وكان عبيداللّه كاتب علي عليه السلام وصاحب خزانته. وقد عدّه أصحاب كتب الرجال من الشيعة كالنجاشي في الفهرست: أول مصنف في الشيعة[2].

وسلمان الفارسي هو الكاتب الآخر للاحاديث وله أثر في شرح وتوضيح حديث الجاثليق الرومي[3] الذي قدم المدينة بعد وفاة الرسول (ص) لغاية التحقيق[4].

وبعد سلمان يأتي ذكر أبي ذر الغفاري والأصبغ بن نباتة وآخرين، ومن التابعين سليم

---

١ - تأسيس الشيعة: ص ٢٨٤.

٢ - المصدر نفسه: ص ٢٨٠، ورجال النجاشي: ص ٥.

٣ - الجاثليق: معرّب كاتوليك. فهو لقب وليس اسماً له.

٤ - وردت مقاطع من هذا الحديث في أماكن متفرقة من كتاب «التوحيد» للصدوق ط. مكتبة الصدوق عام ١٣٨٧ هـ في الصفحات: ٢٨٢، ٢٨٦، ٣١٦. فليراجع هناك.

بن قيس الهلالي وله كتاب باسمه مطبوع.[1]

وفي طبقة التابعين يأتي ذكر «الصحيفة السجادية» للامام السجاد زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، توفي في أواخر القرن الأول وعرفت صحيفته هذه بزبور آل محمّد، وكان الناس يتداولونها منذ أواسط القرن الثاني للهجرة.

وكانت هذه المدة أي عهد الامامين الباقر والصادق عليهما السلام فترة التقية وحصول شيء من الحرية للشيعة ولذلك فقد كانت هذه الفترة هي أكثر الادوار رواية كتابةً وضبطاً ونقلاً للحديث عندهم فقد روىٰ الحسن بن علي الوشا قال: أدركت في المسجد الجامع بالكوفة أربعمائة شيخ كل يقول: حديثني جعفر بن محمّد، بل يذكر اسم أربعة آلاف رجل كانوا يحضرون مجالس الامام للعلوم والاحاديث، وكان قد ألف اربعمائة من هؤلاء أربعمائة كتاب للحديث عرفت بالاصول الأربعمائة، وكان هؤلاء من مختلف القوميات والجنسيات.

وراج في العهد الذي تلاه أي في أواخر القرن الثالث بل أوائل القرن الرابع الهجري تأليف جوامع حديث الشيعة، وقد انحصرت كتب الاحاديث الموجودة اليوم بين السنة والشيعة في هذه الجوامع، وهذا العهد الذي ظهر فيه نبوغ الايرانيين واخلاصهم وتصميمهم في خدمة الإسلام بصورة واضحة.

وواضح أنا لانتمكن من أن نذكر جميع الايرانيين في مختلف طبقات أهل الحديث حيث إن هذا وحده يستلزم تأليف مجلدات من الكتب، بل إنما نذكر هنا أكثر كتب الحديث اعتباراً وشهرة بين الشيعة والسنة ليتبيّن أن أكثر كتاب هذه الجوامع لحديث الشيعة والسنة كانوا من ايران وما والاها، ومبدأ الحديث عن جوامع حديث الشيعة:

١ ـ الكافي: لثقة الإسلام شيخ المحدثين أبي جعفر محمّد بن يعقوب الكليني الرازي.

وهذا الرجل الكبير هو من قرية تدعىٰ «كُلَين» من قرىٰ «الرّي» من أطراف طهران. وكانت أسرته في هذا القرية من محدثي الشيعة وكان أبوه يعقوب وخاله علان يعيشان في هذه القرية بالذات (وقبر يعقوب بها، وهو يزار ويتبرك به، علىٰ يمين الخارج من طهران

---

١ - تأسيس الشيعة: ص ٢٨٠.

إلىٰ قم قرب حسن آباد) وتعلّم الكليني الحديث منذ صغره في كلين نفسها، ثم رحل إلىٰ الرّي، وهو من أهل «الرّحلة» في طلب الحديث لجمعه وادراك شيوخه والاخذ عنهم و قضىٰ العشرين عاماً الأخيرة من عمره ببغداد، وتوفي فيها (ودفن قرب الجسر بها إلىٰ جنب المدرسة المستنصرية في زقاق، وقبره معروف يزار ويتبرك به) وقد ألف كتابه (الكافي) في هذه المدة ببغداد، ومنها انتشر واستنسخ وتناولته أيدي طلّابه.

كتاب الكافي دورة من حديث الشيعة من الاصول والاخلاقيات والفروع في مجموع ستة عشر ألف حديث، وهو أكثر كتب الحديث اعتباراً عند الشيعة.

٢ ـ كتاب من لايحضره الفقيه: لأبي جعفر محمّد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالصدوق كان هو وأبوه من كبار علماء الشيعة وأسرة ابن بابويه اسرة علمية معروفة. وللشيخ الصدوق ما يقرب من ثلاثمائة أثر ولعله أخذ اسم «من لايحضره الفقه » عن «من لايحضره الطبيب » لمحمّد بن زكريا الرازي الطبيب والحكيم المعروف. وقد جمع الصدوق في هذا الكتاب (خمسة آلاف وتسعمائة وعشرين حديثاً).

وكان الشيخ الصدوق من أصحاب الرحلة في طلب الحديث أيضاً، فقد سافر في شبابه إلىٰ بغداد فحضر لديه جماعة من مشايخ الحديث فأفادهم أكثر مما أفادوه ولذلك فقد خرجوا من عنده بالاعجاب ورجع الشيخ الصدوق إلىٰ خراسان وسافر إلىٰ نيسابور وطوس وسرخس ومرو وبخارا وفرغانه، ويشير في كتابه (من لايحضره الفقيه) إلىٰ بعض هذه الرحلات. مات الشيخ الصدوق عام ٣٨١ هـ ودفن في مقبرة عرفت باسمه فيما بعد «مقبرة ابن بابويه » قرب قبر السيّد عبدالعظيم الحسني بالرّي.

٣ ـ تهذيب الاحكام: لشيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (قده) وقد مرّ ذكره الخير في عداد المفسرين. كان هذا الرجل الكبير أكبر رجال الإسلام في الادب والكلام والتفسير والفقه والحديث والرجال. وهو أول من أدخل الفقه إلىٰ مرحلة جديدة بتأليف كتابه «المبسوط ». وقد جمع الشيخ الطوسي في كتابه «تهذيب الأحكام» ثلاثة عشر ألفاً وخمسمائة وتسعين حديثاً كلها في فروع الفقه.

٤ ـ الاستبصار فيما اختلف من الأخبار: له أيضاً وهو يشتمل علىٰ خمسة آلاف

وخمسمائة واحد عشر حديثاً. توفي الشيخ الطوسي عام ٤٦٠ هـ

وتعرف هذه الكتب الاربعة عن الشيعة بعنوان «الكتب الأربعة» وهي أكثر كتب الحديث اعتباراً عند الشيعة. ومؤلفو هذه الكتب معروفون بالمحمّدين الثلاثة: محمّد بن يعقوب، ومحمّد بن علي، ومحمّد بن الحسن. وثلاثتهم يكنون بأبي جعفر.

وللشيعة بعد هذه الكتب الاربعة ثلاثة كتب أخرىٰ هي أشهر جوامع الحديث للمتأخرين:

١ ـ بحار الأنوار في أخبار الأئمة الاطهار عليهم السلام: لشيخ الإسلام علّامة المحدثين محمّد باقر بن محمّد تقي المجلسي. وهذا الكتاب هو أجمع كتب الحديث علىٰ الاطلاق فقد جمع فيه المجلسي (قده) ما تفرق في سائر كتب الاحاديث، وكان هدفه الاكبر هو المحافظة عليها من الضياع والتلف، ولذلك فقد جمع السليم والسقيم والصالح والطالح. مات (ره) عام ١١١١ هـ في اصفهان ودفن بها.

٢ ـ الوافي بأحاديث التهذيب والاستبصار والفقيه والكافي: للحكيم العارف والمحدث الشهير محمّد بن المرتضىٰ المعروف بالمولىٰ محسن الفيض الكاشاني.

وهذا الكتاب يجمع الكتب الأربعة بحذف المكرّرات. وللفيض ما يقرب من مائتي كتاب له في مختلف الفروع والفنون. وكانت وفاته ـ كما سبق ـ عام ١١٩١ هـ في كاشان.

٣ ـ وسائل الشيعة إلىٰ تحصيل مسائل الشريعة: للمحدّث المتبحّر محمّد بن الحسن الشامي المعروف بالشيخ الحر العاملي. وقد روعي في هذا الكتاب مراجعة الفقيه للفروع الفقهية، وكان سعي العاملي فيه متجهاً إلىٰ ترتيب الكتاب علىٰ أبواب تتناسب والمسائل المعنونة في كتب الفقه وتتبعها، ولذلك فقد قطع المؤلف هنا الاحاديث قطعة قطعة وأتىٰ بكل قطعة من الخبر في المحل المناسب له. كان الحر معاصراً للمجلسي

ويروىٰ أحدهما عن الثانيأي يتبادلان الرواية. مات الشيخ الحر العاملي في جوار مرقد الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه الصلاة والسلام حيث كان يقيم في المشهد المقدس عام ١١٠٤ هـ وقبره اليوم في صحن الشمالي للإمام عليه السلام.

ويعرف مؤلفو هذه الكتب المتأخرة بالمحمّدين الثلاثة: محمّد باقر المجلسي، ومحمّد

محسن الفيض، ومحمّد بن الحسن الحر (ره).

وإذا تجاوزنا هذه الجوامع السبعة رأينا جوامع قيّمة أخرىٰ من قبيل: عوالم المعالم لعبدالله بن نور الله البحراني، وجامع المعارف والأحكام للسيد عبدالله شبر، ومستدرك وسائل الشيعة للمرحوم الحاج الشيخ ميرزا حسين النوري المازندراني النجفي، وهذا الأخير لم يمض علىٰ تأليفه أكثر من قرن واحد ومع ذلك فقد وجد لنفسه مكانة لائقة.

وهكذا علم أنّ خمسة من المحدّثين الستة الكبار للشيعة من ايران وواحداً من جبل عامل، وأن واحداً من الثلاثة الآخرين من ايران واثنين من البحرين وعرب ايران (خوزستان).

أما أحاديث السنة: فإنّ أوّل من دوّن الحديث منهم هو عبدالملك بن جريح في المائة الثانية، وهو مولىٰ مات عام ١٤٤ هـ ولا يعلم أصله، ولا يوجد اليوم كتابه.

وأوّل من جمع الحديث من أهل السنة هو مالك بن أنس في كتابه «الموطأ» ومالك عربي من أئمة المذاهب الأربعة للسنة. وكتابه موجود مطبوع يعتمد عليه.

وللسنّة ستة من كتب الحديث عرفت بالصحاح الستة، ولكي نأخذ نموذجاً لاشتراك الايرانيين في تدوين كتب الحديث عند أهل السنة نستعرض هذه الصحاح ومؤلفيها.

١ ـ صحيح البخاري، وهو محمّد بن إسماعيل البخاري وهذا الكتاب وهو أكثر كتب الحديث عند السنة اعتباراً ألفه مؤلفه في ستة عشر عاماً. وقد روىٰ ابن خلكان في «وفيات الاعيان» * وعنه المحدّث القمي في «الكنىٰ والالقاب» عن البخاري أنه كان يقول: اني لم أكتب حديثاً في كتابي هذا حتىٰ اغتسلت وصلّيت ركعتين ثم أوردت الحديث وقد قيل عن ذاكرته اشياء. والبخارى نسبه الىٰ بخارىٰ وقد رحل في طلب الحديث إلىٰ خراسان والعراق والحجاز والشام ومصر وبغداد وفي بغداد اعجب به أهل العلم والفضل. مات عام ٢٥٦ هـ في إحدىٰ قرىٰ سمرقند باسم «خرتنگ».

٢ ـ صحيح مسلم، وهو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري وهو أكثر كتب الحديث اعتباراً عند السنة بعد صحيح البخاري وقد يفضله بعضهم حتىٰ علىٰ صحيح

---

* ـ ج ٣، ص ٣٣٠.

البخاري. وقد رحل مسلم في طلب الحديث إلىٰ العراق والحجاز ومصر والشـام ولازم البخاري بنيسابور مدة من الزمان. ومات بنيسابور في «نصرآباد» عام ٢٦١ هـ والظاهر أنه ايراني خراساني من أصل عربي.

٣ ـ سنن أبي داود: وهو سليمان بن اشعث المعروف بأبي داود السجستاني نسبة إلىٰ سجستان وهي سيستان اليوم، رحل في طلب الحديث إلىٰ مختلف البلدان وكان معاصراً لأحمد بن حنبل. والظاهر أنه ايراني من أصل عربي مات عام ٢٧٥ هـ

٤ ـ جامع الترمذي: وهو محمد بن عيسىٰ الترمذي من تلامذة البخاري مات عام ٢٧٩ هـ والترمذي نسبة إلىٰ ترمذ من بلاد ما وراء النهر.

٥ ـ سنن النسائي: وهو أبو عبدالرحمن أحمد بن علي بن شعيب النسائي الخراساني. رحل في طلب الحديث عدداً من الرحلات إلىٰ مختلف البلدان ولما بلغ إلىٰ الشام رآهم منحرفين عن علي عليه السلام، فكتب هناك كتاب «خصائص الإمام علي عليه السلام» في فضائله وأهل بيته، وروىٰ في هذا الكتاب أكثر ما رواه عن أحمد بن حنبل وكان من عادته أن يصوم يوماً ويفطر يوماً. وكتب ابن خلكان يقول: سئل في دمشق عن فضائل معاوية فأجاب: لا أعلم له فضلاً إلّا ما روىٰ: «أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم دعاه فقيل: يأكل، فقال: لا أشبع الله بطنه» فضربه أهل الشام ضرباً مبرّحاً. قيل انه مات علىٰ أثر ذلك الضرب راحلاً من الشام إلىٰ مكة المكرمة والنساء من توابع خراسان. مات النسائي سنة ٣٠٣ هـ

٦ ـ سنن ابن ماجه: وهو محمّد بن يزيد بن ماجة القزويني رحل في طلب الحديث إلىٰ العراق والحجاز ومصر والشام. ومات عام ٢٧٣ هـ

كما رأينا أن مؤلفي الكتب الاربعة في الشيعة التي هي أكثر كتب حديثهم اعتباراً هم ايرانيون، كذلك نرىٰ أن مؤلفي الصحاح الستة في أهل السنة التي هي أيضاً أكـثر كـتب حديثهم اعتباراً أيضاً ايرانيون اقحاح أو ايرانيون من أصل عربي.

وبالاضافة إلىٰ مؤلفي الصحاح الستة هناك علماء آخرون معروفون بعنوان «الحافظ» (لهم كتب في الحديث مهمة قيمة اعرضنا عن ذكرها) بينهم ايرانيون كثيرون اعرضنا عن

ذكرهم خوف الاطالة المملة.

الفقه

والفقه من أهم علوم الإسلام وهو فن استخراج واستنباط الاحكام من مصادرها: الكتاب والسنة والاجماع والعقل. وهو علم نظري خلافاً للحديث فهو علم حفظي لفظي.

مارس المسلمون الاجتهاد منذ القرن الأول والاجتهاد بمفهومه الصحيح من لوازم دين كالاسلام وهو دين عام لايختص بقوم أو منطقة خاصة أو عنصر خاص ولابزمان دون زمان وهو خاتم الشرائع والاديان وهو حاكم في مختلف أوضاع العالم البشري.

وقد يظن بعضهم: أن الاجتهاد ظهر في أهل السنة في القرن الأول أما في الشيعة فقد ظهر في القرن الثالث ويرون أن ذلك يرجع إلىٰ استغناء الشيعة عن الاجتهاد لحظور الائمة عليهم السلام. ولكنّي اثبت خطأ هذه النظرية في مقالتي «الاجتهاد في الاسلام»* و«من وحي شيخ الطائفة»** . وكتب المرحوم العلّامة السيد حسن الصدر يقول: «إن أول من دوّن علم الفقه علي بن أبي رافع مولىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله، كان من فقهاء الشيعة وخواص أميرالمؤمنين وكاتبه، وشهد معه كل حروبه...»*** .

ويدعي أهل السنة أن أوّل من اجتهد من أصحاب رسول الله، هو معاذ بن جبل في سفره إلىٰ اليمن.

وعلىٰ أي حال فإن الفقه بمعنىٰ الاستنباط وتطبيق الجزئيات علىٰ الكليات والاصول كان موجوداً منذ الصدر الأول بين الشيعة والسنة، مع اختلاف اساسي بين الفريقين من حيث المصادر والاعتماد علىٰ الرأي والقياس والاستحسان والمصالح المرسلة.

ويذكر ابن النديم في الفهرست اسم عدد من الكتب الفقهية للشيعة من أصحاب الأئمة عليهم السلام تحت عنوان «فقهاء الشيعة» وبعضهم ايرانيون إلّا أنهم أقل من غيرهم.

---

* – المنشور في الكتاب السنوي: مكتب التشيع ـ العدد ٢ ـ بالفارسية.

** – كتاب الذكرىٰ الألفية للشيخ الطوسي ج ٢، وذكرىٰ الشيخ الطوسي ج ٣.

*** – تأسيس الشيعة: ص ٢٩٨ ط. بغداد.

وبصورة عامة نقول: إن أكثرية فقهاء الشيعة في عصر حضور الأئمة أو غيبتهم حتىٰ القرن السابع الهجري غير ايرانيين، وان أكثر قدماء فقهاء الشيعة الذين لازالت كتبهم تقرأ وتدرس غير ايرانيين.

نرىٰ من الايرانيين في الطبقة الاولىٰ من القدماء: الصدوق الاول علي بن الحسين بن بابويه القمي والصدوق الكبير محمّد بن علي بن الحسين، بل كل آل بويه من قبيل الشيخ منتجب الدين الرازي من أحفاد الحسين بن علي بن بابويه القمي وهكذا شيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي والشيخ سلّار بن عبدالعزيز الديلمي صاحب كتاب «المراسم» وتلميذ الشيخ المفيد والسيد المرتضىٰ، وابن حمزة الطوسي صاحب كتاب «الوسيلة» والعياشي السمرقندي الذي سبق ذكره آنفاً في عداد المفسرين، وقلنا ان ابن النديم ذكر له كتباً فقهية كثيرة وقال انها شائعة في خراسان.

وأمام هؤلاء نرىٰ عدداً أكبر من فقهاء السنة حتىٰ القرن السابع الهجري غير ايرانيين كابن الجنيد، وابن أبي عقيل والشيخ المفيد والسيد المرتضىٰ علم الهدىٰ والقاضي عبدالعزيز بن البراج، وأبي الصلاح الحلبي، والسيد أبي المكارم ابن زهرة، وابن ادريس الحلي، والمحقق الحلي والعلّامة الحلي والشهيد الأول والشهيد الثاني.

وسبب ذلك واضح فالشيعة في ايران إذ ذاك كانوا أقلية، بل الظاهر أن شيعة لبنان وحلب والعراق، كانوا أكثر من شيعة ايران أو كانوا في حالة أفضل منهم في ايران.

وبعد القرن السابع ولاسيما في هذه القرون الاخيرة يشكل الايرانيون أكثرية فقهاء الشيعة ولاحاجة إلىٰ ذكرهم هنا لكثرتهم. وفي الوقت نفسه برز بعض فقهاء الشيعة من غير الايرانيين ولاسيما عرب العراق وممن لهم مقام شامخ في العلمية والمرجعية كالشيخ جعفر كاشف الغطاء والشيخ محمّد حسن صاحب جواهر الكلام رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن المناسب أن نذكر هنا تاريخاً مختصراً من الفقه والفقهاء من زمن الغيبة الصغرىٰ حتىٰ العصر الحاضر، كي يتضح حظ الايرانيين منهم في خدمة فقه الشيعة ويتضح تسلسل هذه الحلقة الثقافية الاسلامية وانها استمرت بدون وقفة في طول ألف ومائة عام

تقريباً.

علم الفقه،أي الفقه المدوّن في مؤلفات خاصة لازالت باقية ولها تاريخ ألف ومائة عام أي أن الحوزات العلمية الفقهية لازالت مستمرة منذ أحد عشر قرناً حتىٰ اليوم فقد ربّىٰ الاساتذة تلامذة أصبحوا أساتذة ربّوا بدورهم تلامذة، وهكذا حتىٰ العصر الحاضر ولم تنقطع هذه الرابطة حتىٰ اليوم.

نعم هناك علوم كالفلسفة والمنطق والرياضيات والطب لها تاريخ أطول وكتب أقدم إلّا أنها لم تكتب لها حياة مستمرة ومتصلة دون توقف أو انقطاع بين الاساتذة والطلاب وعلىٰ فرض وجوده فلا توجد هذه الحياة المستمرة إلّا للعلوم في ظل الإسلام وسنبحث فيما بعد استمرار حياة الفلسفة في الإسلام ولو بصورة مختصرة.

ومن حسن الحظّ ان ما أهتم به علماء المسلمين هو بيان طبقات أرباب العلوم، وقد تحقق هذا لأول مرة بالنسبة لعلماء الحديث ثم لعلماء سائر العلوم، ولنا كتب كثيرة بعناوين: طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، وطبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة وطبقات النحويين وطبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي.

وحسب علمي ان كل ما كتب في طبقات الفقهاء هو لأهل السنة، ولم يكتب في طبقات فقهاء الشيعة كتاب خاص، وللكشف عن طبقات فقهاء الشيعة لابد من مراجعة كتب التراجم أو الاجازات أو كتب طبقات الرواة*.

وهنا لانريد أن نفصل طبقات فقهاء الشيعة بل إنما نريد أن نذكر شيئاً عن شخصيات مهمة من فقهائهم الذين لازالت آراؤهم موضع بحث ودراسة مع ذكر كتبهم الفقهية، وفي ضمن ذلك نشير إلىٰ شيء من طبقاتهم.

ونبدأ بتاريخ فقهاء الشيعة من زمن الغيبة الصغرىٰ (٢٦٠ ـ ٣٢٩) بدليلين:

١ ـ إن عصر ما قبل الغيبة الصغرىٰ عصر حضور الأئمة الاطهار عليهم السلام وفي

---

* ـ كتب المرحوم العلّامة آقا بزرگ الطهراني كتاباً في عدة مجلدات بعنوان: طبقات أعلام الشيعة، إلّا أن الكتاب ـ كما يحكي العنوان ـ غير خاص بطبقات الفقهاء خاصة من أعلام الشيعة. وقد كتب المغفور له السيد محسن الامين العاملي كتاباً آخر في مجلدات بعنوان: الذريعة إلىٰ أعيان الشيعة، ولكنه ـ كما يحكي العنوان ـ يعنىٰ بتراجم أعيان الشيعة وليس خاصاً بتراجم طبقات أعلام وفقهاء الشيعة ـ المترجم.

عصر حضورهم وإن كان الفقهاء، أي المجتهدين وأرباب الفتوىٰ موجودين وكانوا عليهم السلام يحثونهم علىٰ الفتوىٰ والاجتهاد إلّا أنهم كانوا تحت شعاع وجود الأئمة عليهم السلام أي أن الرجوع إليهم كان في صورة عدم إمكان الوصول إلىٰ الأئمة عليهم السلام وكان الناس يحاولون الوصول إليهم عليهم السلام مهما أمكن ذلك. والفقهاء أنفسهم كانوا يراجعون الأئمة في كثير مما كان يشكل عليهم من الفقه والفتوىٰ.

٢ ـ ان فقهنا المدوّن ينتهي إلىٰ زمن الغيبة الصغرىٰ فيما نرىٰ علىٰ الأقل أي ليس بأيدينا اليوم أثر فقهي من قبل دور الغيبة الصغرىٰ من فقهاء الشيعة أو لم نجد شيئاً منه علىٰ الأقل.

وعلىٰ أي حال فقد كان للشيعة فقهاء كبار في عصر الأئمة الاطهار عليهم السلام يعرف مستواهم بقياسهم إلىٰ الفقهاء المعاصرين لسائر المذاهب الإسلامية. وقد خصص ابن النديم الفن الخامس من المقالة السادسة من كتابه النفيس «الفهرست» لفقهاء الشيعة، ويذكر بعد التنويه بأسمائهم بعض كتبهم في الفقه أو الحديث. ويقول بشأن الحسين بن سعيد الاهوازي وأخيه: «أوسع أهل زمانهما علماً بالفقه والآثار والمناقب » ويقول بشأن علي بن إبراهيم القمي: «من العلماء الفقهاء » وبشأن محمّد بن الحسن بن الوليد القمي يقول: «وله من الكتب كتاب: الجامع في الفقه ».

والظاهر أن كتبهم الفقهية كانت مبوّبة علىٰ بعض أبواب الكتب الفقهية يذكرون في كل باب منها ما كانوا يعتبرونه ويعملون به من الروايات والأخبار والأحاديث، فكان الكتاب كتاب أحاديث في الأحكام مع العمل بها.

ويقول المحقق الحلي (قده) في مقدمة المعتبر بهذا الصدد: «الفصل الرابع في السبب المقتضي للاقتصار علىٰ من ذكرناه من فضلائنا: لما كان فقهاؤنا رضوان الله عليهم من الكثرة إلىٰ حد يتعسر ضبط عددهم ويتعذر حصر أقوالهم لاتساعها وانتشارها وكثرة ما صنفوه، وكانت مع ذلك منحصرة في أقوال جماعة من فضلاء المتأخرين؛ اجتزأت بايراد كلام من أشتهر فضله وعرف تقدمه في نقل الأخبار وصحة الاختيار وجودة الاعتبار. واقتصرت من كتب هؤلاء الأفاضل علىٰ ما بان فيه اجتهادهم وعرف به اهتمامهم وعليه

اعتمادهم. فممن اخترت نقله: الحسن بن محبوب، ومحمّد بن أبي نصر البزنطي، والحسين بن سعيد، والفضل ابن شاذان، ويونس بن عبدالرحمن، ومن المتأخرين: أبو جعفر محمد بن بابويه القمي «رض» ومحمّد بن يعقوب الكليني. ومن أصحاب كتب الفتاوىٰ: علي بن بابويه، وأبو علي بن الجنيد، والحسن بن أبي عقيل العمّاني، والمفيد محمد بن محمد بن النعمان: وعلم الهدىٰ، الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي «ره» *.

فالمحقق مع أنه يرىٰ الجماعة الأولىٰ من المتأخرين من أهل النظر والاجتهاد والانتخاب مع ذلك لايراهم من أصحاب الفتوىٰ، وذلك لان كتبهم وإن كانت مظهر آرائهم الاجتهادية، ولكنها لم تكن بصورة الكتب الفقهية الاجتهادية،بل كانت بصورة كتب الاحاديث والاخبار لاالفتوىٰ وإظهار الآراء والافكار وهنا نبدأ بحثنا الآن عن المفتين الاوّلين في الغيبة الصغرىٰ.

١ ـ علي بن بابويه القمي المتوفىٰ عام ٣٢٩ هـ والمدفون بقم. هو أبو الشيخ محمّد بن علي بن بابويه المعروف بالشيخ الصدوق المدفون قرب الرّي،الابن كان محدثاً أكثر مما كان فقيهاً بينما كان الاب فقيهاً صاحب فتوىٰ. ويعرفان أحياناً بالصدوقين الاب والابن.

٢ ـ العياشي السمرقندي صاحب التفسير المعروف كان أحد الفقهاء المعروفين في ذلك العهد، معاصراً للشيخ علي بن بابويه القمي بل متقدماً عليه قليلاً. كان رجلاً جامعاً و إن كان اشتهاره بالتفسير أكثر، له كتب كثيرة في علوم مختلفة منها في الفقه. ويقول ابن النديم في «الفهرست »: كتبه كثيرة شائعة في أهل خراسان. ولم نر شيئاً من آرائه ينقل في الفقه، و لعل كتبه بادت.

وكان العياشي عامياً ثم تشيع. وقد ورث من أبيه أرثاً كثيراً، صرفه جميعه في استنساخ الكتب واستكتابها واقتنائها وشرائها وتجميعها والتعلم والتعليم، كل ذلك في داره ببغداد.

وقد عدّ بعضهم جعفر بن قولويه شيخ الشيخ المفيد، قريناً لعلي بن بابويه في الفقه،

---

* – «المعتبر» للمحقق الحلي: المقدمة ص ٧.

وعلىٰ هذا فقد عدّه هؤلاء من فقهاء الغيبة الصغرىٰ، وقالوا: إن جعفر بن قولويه كان تلميذاً عند سعد بن عبدالله الاشعري المعروف.* ولايمكن الموافقة علىٰ ذلك إذ هو شيخ الشيخ المفيد، وقد توفي ٣٦٨ أو ٣٦٧، وعلىٰ هذا فلا يمكن أن يعد معاصراً لعلي بن بابويه، بل المعاصر هو أبوه محمّد بن قولويه.

٣ ـ ابن أبي عقيل العماني: وقيل اليماني، وعمان من سواحل بحر اليمن، ولايعرف تأريخ وفاته. عاش في الغيبة الصغرىٰ. قال السيد بحر العلوم: انه كان شيخ جعفر بن قولويه، هو شيخ الشيخ المفيد. وهذا أقرب إلىٰ الحقيقة من القول السابق الذي عد جعفر بن قولويه قريناً لعلي بن بابويه. وتنقل آراء ابن أبي عقيل في الفقه كثيراً.

٤ ـ ابن الجنيد الاسكافي: هو أيضاً من شيوخ الشيخ المفيد، قيل: توفي في عام ٣٨١ هـ وقيل: ان آثاره بلغت الخمسين. ويذكر الفقهاء ابن الجنيد وابن أبي عقيل بعنوان: القديمين، وتذكر آراء ابن الجنيد في الفقه كثيراً.

٥ ـ الشيخ المفيد: اسمه محمد بن محمد بن النعمان. متكلم فقيه. يذكره ابن النديم في الفن الثاني من المقالة الخامسة من «الفهرست» في متكلمي الشيعة بعنوان «ابن المعلم» و يثني عليه ـ ولد عام ٣٣٦ وتوفي في عام ٤١٣ هـ كتابه المعروف في الفقه يدعىٰ «المقنعة»، موجود مطبوع. كان الشيخ المفيد ينام قليلاً من الليل ثم يقضي بقيته في الصلاة والقراءة والمطالعة والشيخ المفيد من تلامذة ابن أبي عقيل.

٦ ـ السيد المرتضىٰ المعروف بعلم الهدىٰ: ولد عام ٣٣٥ هـ وتوفي في سنة ٤٣٦ هـ لقبه العلّامة الحلي بمعلم الشيعة الامامية. كان رجلاً جامعاً أديباً متكلماً فقيهاً يعنىٰ بآرائه الفقهاء كتابه المعروف في الفقه: الانتصار وجمل العلم والعمل. تتلمذ هو واخوه السيد الرضي (جامع نهج البلاغة) علىٰ الشيخ المفيد (قده).

٧ ـ الشيخ أبو جعفر الطوسي المعروف بشيخ الطائفة: من النجوم اللامعة في سماء الإسلام، له مؤلفات كثيرة في الفقه والاصول والحديث والتفسير والكلام والرجال. والطوسي نسبة إلىٰ طوس خراسان ولد عام ٣٨٥، هاجر إلىٰ بغداد مركز علوم الإسلام

---

* ـ الكنىٰ والالقاب. للشيخ عباس القمي (قده).

آنذاك عام ٤٠٨ وله ثلاثة وعشرون عاماً وبقي في العراق إلىٰ آخر عمره. وانتقلت إليه بعد استاذه السيد المرتضىٰ الرئاسة العلمية والمرجعية. درس علىٰ الشيخ المفيد خمس سنين ، واستفاد مدة مديدة من محضر ابرز تلامذة شيخه السيد المرتضىٰ، حتىٰ توفي هذا الآخير عام ٤٣٦ هـ وبقي هو علىٰ قيد الحياة بعد استاذه السيد أربعة وعشرين عاماً بقي منها في بغداد اثنىٰ عشر عاماً ثم هجرها إلىٰ النجف الأشرف اثر حوادث جرت إلىٰ نهب بيته ومكتبته، فأسس في النجف الأشرف حوزة علمية، وتوفي فيها عام ٤٦٠ (ودفن في بيته إلىٰ جنب مسجده إلىٰ جوار مرقد مولانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام،خلف جامع عمران بن شاهين المبني علىٰ عهد الدّيالمة البويهيين، ثم وسع المسجد فيما بعد فدخل قبره في المسجد المعروف باسمه، يزار ويتبرك به).

وللشيخ الطوسي (قده) كتب في الفقه منها كتاب باسم: «النهاية في مجرد الفقه والفتاوىٰ » وقد أصبح كتاب التدريس علىٰ عهد الشيخ وبعده إلىٰ مدة مديدة وكتاب آخر باسم: «المبسوط» وقد دخل بالفقه في كتابه هذا إلىٰ مرحلة جديدة، وكان أوسع كتاب للفقه الشيعي علىٰ عهده وكتاب آخر باسم: «الخلاف في الفقه » ذكر فيه اراء فقه الشيعة مقارناً إياها بآراء غيرهم (مشيراً إلىٰ وجه الاستدلال غالباً) وله في الفقه كتب أخرىٰ أيضاً. وكان القدماء حتىٰ قبل هذا القرن إذا أطلقوا كلمة «الشيخ» قصدوا بها الشيخ الطوسي، وإذا اطلقوا «الشيخان» قصدوه هو وشيخه الشيخ المفيد (كما سبق من المحقق الحلي في مقدمة كتابه «المعتبر») بل ان الشيخ الطوسي هو أعرف الوجوه التي تذكر آراؤهم في مختلف الكتب والأبواب الفقهية. وكان ابنه الشيخ أبو علي أيضاً فقيهاً مرجعاً للشيعة بعد أبيه، يلقب بالمفيد الثاني جليل القدر، وقد نقل المرحوم الميرزا حسين النوري في كتابه (مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٤٩٧): أن له كتاب «الآمالي» وشرحاً علىٰ كتاب «النهاية» لوالده الشيخ الكبير. ونقل الشيخ الدرازي آل عصفور البحراني في كتابه «لؤلؤة البحرين»: أن بنات الشيخ أيضاً كنّ فاضلات بل فقيهات. وكان للشيخ أبي علي بن الشيخ ولد خلفه في مرجعية الشيعة ورئاسة الحوزة العلمية، اسمه الشيخ أبو الحسن محمد بن الشيخ أبي علي بن الشيخ الطوسي. وقد قال ابن العماد الحنبلي في كتابه

(شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٤ ص ١٢٦): «... رحلت إليه طوائف الشيعة من كل جانب إلىٰ العراق وحملوا إليه. وكان ورعاً عالماً كثير الزهد. واثنىٰ عليه السمعاني وقال العماد الطبري: لو جازت علىٰ غير الأنبياء صلاة صليت عليه » * توفي سنة ٥٤٠ هـ

٨ ـ القاضي عبدالعزيز الحلبي المعروف بابن البرّاج: تلميذ السيد المرتضىٰ والشيخ الطوسي، بعثه الشيخ الطوسي إلىٰ موطنه من بلاد الشام فاستمر قاضياً في طرابلس الشام عشرين عاماً. مات سنة ٤٨١ هـ وأكثر ما يذكر من كتبه: المهذّب، والجواهر.

٩ ـ الشيخ أبو الصلاح الحلبي الشامي: تلميذ السيد المرتضىٰ والشيخ الطوسي عمّر مائة سنة. وكتب صاحب «ريحانة الأدب» يقول: كان تلميذ الشيخ سلّار بن عبدالعزيز. ولو كان هذا صحيحاً لأوجب أن يكون تلميذاً لثلاث طبقات من الشيوخ! وكتابه المعروف في الفقه يسمىٰ «الكافي» مات عام ٤٤٧ هـ ولو كان عمره مائة سنة وكان قد توفي في ٤٤٧ لكان أكبر من كلا شيخيه. وكان المرحوم الشهيد الثاني يلقبه: «خليفة المرتضىٰ في البلاد الحلبية».

١٠ ـ حمزة بن عبدالعزيز الديلمي: المعروف بسلّار الديلمي المتوفي بين عام ٤٤٨ وعام ٤٦٣ هـ وهو تلميذ الشيخ المفيد والسيد المرتضىٰ: كان ايرانياً توفي في خسروشاه تبريز. كتابه المعروف في الفقه يسمىٰ «المراسم ». وان سلّار وإن كان من طبقة الشيخ الطوسي وليس من تلامذته مع ذلك نرىٰ المحقق الحلي يعبر عنه مع ابن البراج وأبي الصلاح ـ في مقدمة كتابه «المعتبر» ـ بعنوان: «اتباع الثلاثة» أي يحسبهم من الاتباع، والظاهر أنه يقصد من هذا أن هؤلاء الثلاثة اتباع للشيوخ الثلاثة: الشيخ المفيد والسيد المرتضىٰ والشيخ الطوسي.

١١ ـ السيد أبو المكارم ابن زهرة: يروي بواسطة واحدة عن أبي علي ابن الشيخ الطوسي، وهو في الفقه تلميذ الشيخ الطوسي بوسائط. كان من أهل حلب توفي في عام ٥٨٥ هـ كتابه المعروف في الفقه يسمىٰ «الغنية» وحينما يطلق: «الحلبيان » يقصد به: أبو الصلاح الحلبي وابن زهرة الحلبي. وحينما يطلق: «الحلبيون » يقصدون به بالاضافة

---

* – مقدمة العلّامة السيد محمّد صادق بحر العلوم علىٰ رجال الشيخ الطوسي: ص ١٢٢، ط. النجف.

إليهما ابن البرّاج فهو أيضاً من حلب. وجاء في (مستدرك الوسائل ج ٣ ص ٥٠٦) في أحوال الشيخ الطوسي: ان ابن الزهرة قرأ كتاب «النهاية » للشيخ الطوسي علىٰ أبي علي الحسن بن الحسين المعروف بابن الحاجب الحلبي، وهو قرأ الكتاب علىٰ أبـي عـبدالله زينوباري في النجف الأشرف وهو قرأ الكتاب علىٰ الشيخ رشيد الدين علي بن زيـرك القمي والسيد هاشم الحسيني، وهما قد قرءا الكتاب علىٰ الشيخ عبدالجبار الرازي، وهو من تلامذة الشيخ الطوسي، وعلىٰ هذا يكون ابن زهرة تـلميذ الشـيخ الطـوسي بأربـع وسائط.

١٢ ـ ابن حمزة الطوسي: المعروف بابن عماد الدين الطوسي وهو من طبقة تـلامذة الشيخ الطوسي. ولم يعرف تاريخ وفاته بصورة دقيقة توفي في حدود مـنتصف القـرن السادس الهجري. وهو من أهل خراسان. كتابه المعروف يسمىٰ «الوسيلة».

١٣ ـ ابن ادريس الحلي: من فحول علماء الشيعة، وهو عربي والشيخ الطوسي جدّه الاعلىٰ لأمه. كان معروفاً بالتحرر الفكري، فقد كسر طوق هيبة جدّه الشيخ وانتقد سائر العلماء والفقهاء انتقاداً فقهياً علمياً لاذعاً يقرب من التوهين بمكاناتهم تهجم. توفي في عام ٥٩٨ وله خمس وخمسون سنة. كتابه المعروف في الفقه يسمىٰ «السرائر» وقد قيل إن ابن ادريس كان من تلامذة السيد أبي المكارم بن زهرة، بينما لا تبيّن تعبيراته عنه في كتابيه: الوديعة والسرائر سوىٰ أنه كان شيخاً من معاصريه وكان يكاتبه في بعض المسائل الفقهية.

١٤ ـ الشيخ أبو القاسم جعفر بن الحسن بن يحيىٰ بن سعيد الحلي، المعروف بالمحقق الحلي. له كتب كثيرة في الفقه منها: شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام، والمعارج، والمعتبر والمختصر النافع من كتاب الشرائع. كان بينه وبين ابن ادريس وابن زهرة واسطة واحدة في المشيخة والتلمذة. وقد كتب المحدث القمي عن أحوال ابن نما فـي كـتابه «الكنىٰ والألقاب » يقول: «قال المحقق الكركي في وصف المحقق الحلي: ان اعلم اساتذة المحقق في فقه أهل البيت هو الشيخ محمّد بن نما الحلي، وأجل اساتذته هو ابن ادريس الحلي (ره) والظاهر أن مقصود المحقق الكركي هو أن أجل اساتذة ابن نما هو ابن ادريس

، إذ انه توفي في ٥٨٩، والمحقق توفي في ٦٧٦، فمن المقطوع به أن المحقق لم يكن ليدرك مجلس درس ابن ادريس.

وكتب في «ريحانة الادب» يقول: «إن المحقق الحلي كان تلميذ جده وأبيه والسيد فخار بن معد الموسوي وابن زهرة» وهذا خطأ، إذ أن المحقق لم يدرك ابن زهرة المتوفي في سنة ٥٨٥ هـ نعم لا يبعد أن يكون أبو المحقق من تلامذة ابن زهرة.

وهو شيخ العلامة الحلي (قده) ولا يقدّم عليه أحد في الفقه. وإذا اطلق الفقهاء لقب المحقق بصورة مطلقة كان المقصود هو هذا الشيخ الكريم. وكان قد التقاه في الحلة الفيلسوف والرياضي الكبير الخواجة نصير الدين الطوسي وقد حضر مجلس درسه في الفقه. وكتب المحقق في الفقه كانت ولا تزال كتباً دراسية ولاسيما «شرائع الاسلام» وقد شرح كتبه وعلق عليها كثير من الفقهاء بعده.

١٥ ـ الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي: المعروف بالعلامة الحلي. كان من أعاجيب الرجال الأفذاذ. كتب كثيراً في الفقه والاصول والكلام والمنطق والفلسفة والرجال وغيرها، يوجد الآن من كتبه ما يقرب من مائة كتاب مطبوع أو مخطوط، يكفي بعضها كتذكرة الفقهاء ليكون مرآة لنبوغ هذه الشخصية الفقهية النابغة. له كتب كثيرة في الفقه شرحها وعلق عليها كثير من الفقهاء بعده. كتبه الفقهية المعروفة هي: الارشاد تبصرة المتعلمين، القواعد تذكرة الفقهاء، مختلف الشيعة، المنتهىٰ، له اساتذة كثيرون، كان في الفقه تلميذ خاله المحقق الحلي، وفي الفلسفة والمنطق، تتلمذ علىٰ الخواجة نصير الدين الطوسي وقد درس الفقه السني لدىٰ علماء أهل السنة! ولد عام ٦٤٨ وتوفي ٧٢٦ هـ

١٦ ـ فخر المحققين: محمّد بن الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلي ابن العلّامة. ولد عام ٦٨٢ وتوفي في ٧٧١. ذكره العلّامة الحلي في مقدمة كتابيه القواعد وتذكرة الفقهاء ذكراً جليلاً، بل تمنىٰ في آخر القواعد أن يكون الولد مكملاً لما لم يتمه والده العلّامة. له كتبااسماه«ايضاح‌الفوائد في شرح مشكلات القواعد» يعني الفقهاء بآرائه في هذا الكتاب.

١٧ ـ محمّد بن مكي الجزيني العاملي: المعروف بالشهيد الأول، تلميذ فخر المحققين وهو من أعاظم فقهاء الشيعة بل هو من طراز المحقق والعلامة. من أهل «جبل عامل» في

جنوب لبنان، وهي من أقدم مراكز الشيعة ولازالت. ولد الشهيد الأول عام ٧٣٤ واستشهد عام ٧٨٦ بفتوىٰ فقيه مالكي وتأييد فقيه آخر شافعي! وهو من تلامذة العلامة ومنهم فخر المحققين. كتبه المعروفة في الفقه هي: اللمعة الدمشقية، التي ألفها في مدة قليلة في السجن نفسه الذي أودىٰ بحياته أي نقل منه إلىٰ المشنقة العثمانية ومن الغريب أنه قد شرح هذا الكتاب بعد قرنين من الزمان فقيه كبير كتب له مصير المؤلف الأول نفسه أي أنه استشهد أيضاً ولقب بالشهيد الثاني. والشرح هو «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية» الذي كان ولا يزال من الكتب الدراسية للطلاب. سائر كتبه هي: الدورس، الذكرىٰ، البيان، الالفية، القواعد وجميعها من نفائس الآثار الفقهية. وقد شرح هذه الكتب وعلق عليها بعد مؤلفها جماعة من الفقهاء.

إن كتب هؤلاء الثلاثة: المحقق الحلي والعلامة الحلي، والشهيد الأول، من علماء القرنين السابع والثامن أصبحت من متون الكتب الفقهية حيث شرحها وعلق عليها كثير من الفقهاء بعدهم، ولانرىٰ بين فقهاء الشيعة من عنىٰ الفقهاء هكذا بآثارهم كهؤلاء حتىٰ اضيف رابع إلىٰ هؤلاء الثلاثة في القرن السابق وهو الشيخ مرتضىٰ الانصاري التستري بكتابيه: الرسائل والمكاسب يمضي اليوم علىٰ وفاته أكثر من مائة وثلاثة عشر عاماً.

أسرة الشهيد الأول كانت من بيوتات العلم والفضل والفقه في الشيعة وقد تمتعت بهذا الشرف أجيالاً متعاقبةً فان للشهيد الأول ثلاثة أبناء كلهم من العلماء والفقهاء، بل كانت زوجته أم علي وابنته أم الحسن أيضاً فقيهتين بل كان الشهيد (ره) يرجع بعض النساء في بعض المسائل الفقهية إلىٰ هاتين السيدتين يقول في «ريحانة الأدب»: «لقب بعض الاكابر فاطمة بنت الشهيد بالشيخة أو «ست المشايخ» أي «سيدة المشايخ».

١٨ ـ الفاضل المقداد السيوري: من أهل سيور من قرىٰ الحلة، كان من التلاميذ المبرّزين للشهيد الأول. كتابه المعروف في الفقه والمطبوع هو «كنز العرفان في فقه القرآن» وهو من كتب آيات الاحكام، أي انه في تفسير الآيات القرآنية الكريمة التي يستنبط منها مسائل فقهية. وقد كتب في آيات الأحكام كتب كثيرة من الشيعة والسنة وكنز العرفان للفاضل المقداد من أجود ما كتب في هذا الموضوع توفي الفاضل المقداد

سنة ٨٢٦ فهو من القرن التاسع.

١٩ ـ جمال السالكين أبو العباس أحمد بن الفهد الحلي الأسدي: ولد عام ٧٥٧ وتوفي في ٨٤١، وهو من طبقة تلامذة الشهيد الأول وفخر المحققين، ومشايخه في الحديث هم: الشيخ الفاضل المقداد والشيخ علي بن الخازن الفقيه والشيخ بهاء الدين علي بن عبدالكريم[1] والظاهر أن هؤلاء هم شيوخه في الفقه أيضاً. له مؤلفات فقهية مهمة من قبيل: المهذب البارع في شرح المختصر النافع للمحقق الحلي، وشرح إرشاد العلّامة باسم «المقتصر» وشرح ألفية الشهيد الأول. وأشتهر ابن فهد بالاخلاق والسلوك أكثر من الفقه، وكتابه المعروف في الدعاء «عدّة الداعي».

٢٠ ـ الشيخ علي بن هلال الجزائري: الزاهد المتقي جامع المعقول والمنقول. شيخه في الرواية ابن فهد الحلي ولا يبعد أن يكون شيخه في الفقه أيضاً. قيل كان في عصره شيخ الإسلام ومرجع الشيعة العام. وكان المحقق الكركي من تلامذته وقد وصف شيخه هذا بالفقه وأنه كان شيخ الإسلام. وقد تتلمذ لديه ابن أبي جمهور الاحسائي أيضاً. ولم يعرف تاريخ ولادته ووفاته بالضبط.

٢١ ـ الشيخ علي بن عبدالعالي الكركي: المعروف بالمحقق الكركي أو المحقق الثاني. كان من فقهاء جبل عامل، وهو من أكابر فقهاء الشيعة. أكمل دراسته في الشام والعراق ثم جاء إلىٰ ايران (علىٰ عهد الشاه طهماسب) ففوض إليه منصب «شيخ الإسلام» لأول مرة في ايران، ثم فوّض بعده تلميذه الشيخ علي المنشار أبي زوجة الشيخ البهائي، ثم فوّض بعده إلىٰ الشيخ البهائي، والقرار الذي كتبه طهماسب باسم المحقق الكركي وفوّض إليه فيه اختيارات تامة،بل اعلن فيه أن المحقق هو في الواقع صاحب الاختيار، وإنما الملك هو وكيل للمحقق ونائب عنه في إدارة شؤون البلاد السياسية والاجرائية، قرار معروف مشهور. كتابه المعروف الذي يذكر في الفقه كثيراً هو «جامع المقاصد في شرح القواعد» شرح لقواعد العلّامة الحلي، وله حواش وشروح علىٰ المختصر النافع والشرائع للمحقق وكتب أخرىٰ للعلّامة وكتب للشهيد.

---

١ ـ الكنىٰ والالقاب: ج ١ ص ٣٨١.

إنّ مجيء المحقق الثاني إلىٰ ايران وتأسيسه الحوزة في اصفهان وتربيته تلامذة مبرّزين في الفقه اعطىٰ لايران صفة مركزية للشيعة. وقد توفي المحقق فيما بين أعوام ٩٣٧ إلىٰ ٩٤١ هـ وهو من تلامذة علي بن هلال الجزائري وابن فهد الحلي، وكان ابن فهد تلميذ تلامذة الشهيد الأول من قبيل الفاضل المقداد السيوري، وعلىٰ هذا يكون بينه وبين الشهيد الأول واسطة أو واسطتان. وكان ابن المحقق: الشيخ عبدالعالي بن علي ابن عبدالعالي أيضاً من فقهاء الشيعة، وله شرح لارشاد العلّامة وألفية الشهيد.

٢٢ ـ الشيخ زين الدين الجبعي العاملي: المعروف بالشهيد الثاني. هو من أعاظم فقهاء الشيعة، كان رجلاً جامعاً وكانت له يد في مختلف العلوم في عصره،وهو من أهل «جبل عامل » جده السادس «صالح » كان من تلامذة العلّامة الحلي (ره) والظاهر أنه كان في الأصل من أهل طوس خراسان ولذلك كان الشهيد الثاني يوقع أحياناً: «الطوسي الشامي». ولد سنة ٩١١ هـ واستشهد عام ٩٦٦ هـ له أسفار كثيرة واساتذة كثيرون، فقد سافر إلىٰ دمشق وبيت المقدس ومكة ومصر والعراق وتركيا واستفاد من أسفاره، نرىٰ في قائمة مشيخته اثني عشر شيخاً من العامة، ولذلك كان رجلاً جامعاً مطلعاً علىٰ الفلسفة والعرفان والطب والنجوم بالاضافة إلىٰ الفقه والاصول. كان متقياً زاهداً، كتب تلامذته بشأنه: كان يذهب في الأمسيات يحتطب لأهله لقوتهم، ويجلس في الصباح للدرس، و كان في بعلبك يدرس مدة من الزمان علىٰ المذاهب الخمسة: الحنبلي والحنفي والجعفري والشافعي والمالكي. وله مؤلفات كثيرة أشهرها شرحه علىٰ اللمعة الدمشقية للشهيد الأول باسم «الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية » ثم «مسالك الأفهام إلىٰ شرح شرائع الإسلام » للمحقق الحلي (ره). وكان الشهيد الثاني من تلامذة المرحوم المحقق الكركي قبل مجيئه إلىٰ ايران، وهو لم يأت إلىٰ ايران. ابنه الشيخ حسن صاحب «معالم الدين » من مشاهير المجتهدين عند الشيعة.

٢٣ ـ الشيخ أحمد بن محمّد الاردبيلي: المعروف بالمقدس الاردبيلي ضرب به المثل في الزهد والتقوىٰ وهو من محققي فقهاء الشيعة. سكن المحقق الاردبيلي في النجف الأشرف وكان معاصراً للشاه عباس الصفوي الكبير، وأصر الشاه علىٰ مجيئه إلىٰ اصفهان

ولم يرض بذلك وكان الشاه عباس يحب أن يراجعه الشيخ المقدس في حاجة ليخدمه فيها، حتىٰ اتفق ان فرّ رجل مقصّر من عقوبة الشاه إلىٰ النجف الأشرف وطلب من المقدس الاردبيلي أن يشفع له عند الشاه عباس، فكتب الشيخ إلىٰ الشاه يقول:

«ليعلم صاحب الملوكية العارية عباس: أن هذا الرجل وإن كان ظالماً سابقاً إلّا أنه يبدو الآن مظلوماً، فلو عفوت عن تقصيره عسىٰ الله أن يغضي عن بعض تقصيراتك. عبد صاحب الولاية: أحمد الاردبيلي ».

فكتب الشاه عباس جوابه يقول فيه:

«اعرض عليكم: ان عباساً قدّم ما أمرتم به من الخدمة ممنوناً لكم، والرجاء أن لاتنسوا هذا المحب من دعاء الخير ـ كلب الحضرة العلوية: عباس ».

إن إباء المقدس الاردبيلي عن الذهاب إلىٰ اصفهان كان السبب في إحياء صورة النجف الأشرف بعنوان مركز علمي آخر للشيعة بعد اصفهان، كما أن امتناع الشهيد الثاني وابنه الشيخ حسن صاحب «المعالم » وسبطه السيد محمّد صاحب «المدارك » عن الذهاب من الشام وجبل عامل إلىٰ اصفهان كان هو السبب في دوام تلك الحوزة هناك وعدم انقراضها، وقد بلغ امتناعهم عن الانتقال من الشام وجبل عامل إلىٰ درجة أنّهم انصرفوا عن زيارة حضرة الإمام الرضا عليه السلام مع شدة اشتياقهم إليها مخافة أن يضطروا إلىٰ الاجابة فيما إذا دعوا من قريب!.

ولم أقف لحدّ الآن علىٰ مشيخة وأساتذة المقدس الاردبيلي، إلّا أنا نعلم أنه تلقىٰ الفقه لدىٰ تلامذة الشهيد الثاني وأن ابن الشهيد حسن بن زين الدين صاحب «المعالم» وسبطه السيد محمّداً صاحب «المدارك » كانا من تلامذة المقدس في النجف الاشرف. وقد كتب الفاضل الشيخ علي دواني يقول: «إن المولىٰ أحمد الاردبيلي، والمولىٰ عبدالله الشوشتري والمولىٰ عبدالله اليزدي، والخواجه أفضل الدين تركه، والميرزا فخر الدين هماكي، والشاه أبا محمّد الشيرازي، والمولىٰ الميرزاجان، والميرزا فتح الشيرازي كانوا من تلامذة الخواجة جمال الدين محمود وكان هو من تلامذة المحقق جلال الدين الدواني »[1]

---

١ - حياة جلال الدين الدواني:تأليف علي الداواني

والظاهر أن تلمذته لدىٰ المحقق الدواني كانت في العلوم العقلية فقط وقد توفي المقدّس الاردبيلي في النجف الأشرف عام ٩٩٣ هـ له كتابان معروفان في الفقه أحدهما «شرح الارشاد» والثاني «زبدة البيان في أحكام القرآن» وله نظريات دقيقة يعنىٰ بها الفقهاء».

٢٤ ـ الشيخ بهاء الدين محمّد العاملي المعروف بالشيخ البهائي: وهو أيضاً من أهل جبل عامل توجه في صباه مع والده الشيخ حسين بن عبدالصمد ـ من تلامذة الشهيد الثاني ـ إلىٰ ايران. كان رجلاً جامعاً له مؤلفات متنوعة، سافر إلىٰ مناطق مختلفة وادرك مختلف الشيوخ في مختلف الفروع والفنون، وكان ذا ذوق وفكر نابغ، وكان أديباً وشاعراً وفيلسوفاً ورياضياً ومهندساً وفقيهاً ومفسّراً وله المام بالطب أيضاً. وهو أول من كتب رسالة عملية فقهية غير استدلالية ودورة كاملة من الفقه عرفت باسم «الجامع العباسي» نسبة إلىٰ الشاه عباس الصفوي.

وحيث لم يكن الشيخ البهائي متخصّصاً في الفقه فلم يُعد من الرتبة الأولىٰ من الفقهاء إلّا أنه ربّىٰ تلامذة كثيرين، منهم المولىٰ صدرالدين الشيرازي والمولىٰ محمّد تقي المجلسي الأول والمحقق السبزواري والفاضل الجواد صاحب كتاب «آيات الأحكام». وكما قلنا سابقاً، كان منصب «شيخ الإسلام» قد انتهىٰ بعد المحقق الكركي إلىٰ الشيخ علي المنشار أبي زوجة الشيخ البهائي ثم إلىٰ الشيخ البهائي. وكانت زوجة الشيخ البهائي بنت الشيخ علي المنشار امرأة فاضلة فقيهة. ولد الشيخ البهائي سنة ٩٥٣ ومات عام ١٠٣٠ أو ١٠٣١ هـ وقد سافر إلىٰ آذربايجان وهرات والشام وفلسطين والعراق ومصر.

٢٥ ـ المولىٰ محمّد باقر السبزواري المعروف بالمحقق السبزواري: نسبة إلىٰ مدينة سبزوار الخراسانية، وتربّىٰ في مدرسة الحوزة العلمية باصفهان واحاط بالعلوم العقلية والنقلية فأصبح جامع المعقول والمنقول. يذكر في الفقه كثيراً، له في الفقه كتابان معروفان أحدهما: «الذخيرة» والآخر «الكفاية» وله حواش علىٰ قسم الإلهيات للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن علي بن سينا. مات عام ١٠٩٠ هـ كان من تلامذة الشيخ البهائي والمجلسي الأول.

٢٦ ـ السيد حسين الخونساري، المعروف بالمحقق الخونساري: وهو أيضاً ممن تربّى

في مدرسة الحوزة العلمية باصفهان وأحاط بالعلوم العقلية والنقلية فهو أيضاً جامع المعقول والمنقول وهو زوج أخت المحقق السبزواري. كتابه المعروف في الفقه يدعىٰ «مشارق الشموس في شرح كتاب الدروس » للشهيد الأول. كان من معاصري المحقق السبزواري والمولىٰ محمّد محسن الفيض الكاشاني والمولىٰ محمّد باقر المجلسي. وقد سبق أن ذكرنا أن المحقق الخونساري توفي في سنة ١٠٩٨ هـ

٢٧ ـ جمال المحققين: المعروف بالسيد جمال الخونساري بن السيد حسين الخونساري. وهو أيضاً جامع المعقول والمنقول، له حاشية معروفة علىٰ «شرح اللمعة » وحاشية مختصرة علىٰ قسم الطبيعيات من كتاب «الشفاء» للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن علي بن سينا طبعت في هامش الطبعة الحجرية في طهران.

وهو من شيوخ السيد إبراهيم القزويني وهو شيخ ابنه السيد حسين القزويني وهو شيخ السيد مهدي بحر العلوم.

٢٨ ـ الشيخ بهاء الدين الاصفهاني: المعروف بالفاضل الهندي، شرح كتاب «القواعد» للعلّامة سماه «كشف اللثام عن قواعد الإسلام» ولهذا يدعىٰ: كاشف اللثام، له في الكتاب آراء ونظريات يعنىٰ بها الفقهاء. مات الفاضل الهندي سنة ١١٣٧ في فتنة الافغان. وكان جامع المعقول والمنقول.

٢٩ ـ الشيخ محمّد باقر بن محمّد أكمل البهبهاني: المعروف بالوحيد البهبهاني كان من تلامذة السيد صدرالدين الرضوي القمي شارح «الوافية» وهو مُن تلامذة السيد جمال الخونساري المذكور آنفاً. عاش بعد الصفوية، وقد سقطت حوزة اصفهان عن مركزيتها بعد انقراض الصفوية، فهاجر بعض العلماء والفقهاء منهم السيد صدر الدين الرضوي القمي استاذ الوحيد البهبهاني إلىٰ العتبات المقدسة في العراق، فاستقر الوحيد البهبهاني مع استاذه بكربلاء المقدسة وربّىٰ تلامذة عديدين منهم السيد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء والميرزا أبو القاسم القمي صاحب كتاب «القوانين » والحاج المولىٰ مهدي النراقي والسيد علي صاحب الرياض والميرزا مهدي الشهرستاني والسيد محمّد باقر الشفتي الاصفهاني المعروف بحجة الإسلام والميرزا مهدي الشهيد المشهدي والسيد

جواد صاحب «مفتاح الكرامة» والسيد محسن الاعرجي.

وفوق هذا أنه جاهد جهاداً متواصلاً في الدفاع عن الاجتهاد ومكافحة الاخبارية التي كانت قد راجت في ذلك العهد وان هزيمة الاخباريين وتربية جماعة من المجتهدين البارزين كان السبب في تلقيب هذا الشيخ بلقب «استاذ الكُلّ». كان في التقوىٰ إلىٰ حد الكمال. وكان تلامذته يكنون له احتراماً فائقاً. وهو ينتسب إلىٰ المحدّث المجلسي الأول فهو من أسباطه (بوسائط) وان ابنة المجلسي الأول (آمنة بگم) كانت زوجة المولىٰ صالح المازندراني صاحب الحاشية علىٰ «معالم الدين» في الاصول وهي فاضلة فقيهة تحل أحياناً ما يشكل علىٰ زوجها الفاضل. وهي جدّة الوحيد البهبهاني.

٣٠ ـ السيد محمّد مهدي بحر العلوم: التلميذ الأكبر والاكرم للشيخ الوحيد البهبهاني وهو من كبار الفقهاء، له منظومة في الفقه معروفة، وله آراء في الفقه يعنىٰ بها الفقهاء. يحترمه علماء المذهب حتىٰ أن بعضهم عدّه تالي تلو المعصومين عليهم السلام لما كان له من المكانة المعنوية والاخلاقية العالية، حتىٰ كان الشيخ جعفر كاشف الغطاء الكبير ـ كما يقال ـ يمسح نعال السيد بحنك عمامته! ولد بحر العلوم عام ١١٥٤ وتوفي سنة ١٢١٢ هـ

٣١ ـ الشيخ جعفر كاشف الغطاء: كان تلميذ الوحيد البهبهاني وتتلمذ عليه السيد مهدي بحر العلوم. وكان فقهياً ماهراً له كتاب في الفقه معروف يدعىٰ «كشف الغطاء» وهو عربي عاش في النجف الأشرف وقد ربّىٰ تلامذة عديدين منهم الشيخ جواد صاحب «مفتاح الكرامة» والشيخ محمّد حسن صاحب «جواهر الكلام» كان له ثلاثة أولاد كلهم فقهاء. وكان كاشف الغطاء معاصراً للشاه فتح علي القاجاري، وقد اثنىٰ عليه في مقدمة كشف الغطاء. توفي في عام ١٢٢٨ هـ له في الفقه نظريات دقيقة وعميقة، تذكر مقرونة بتعظيم مقامه العلمي.

٣٢ ـ الشيخ محمّد حسن: صاحب «جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام» يمكن أن يوصف بأنه دائرة معارف للفقه الشيعي، فليس اليوم فقيه يستغني عنه، وقد طبع مراراً علىٰ الحجر، وأخيراً طبع علىٰ الحروف بالقطع الوزيري يقع في ٤٠ مجلداً كل مجلد يشتمل علىٰ ٤٠٠ صفحة أي يشكل الكتاب عشرين ألف صفحة كل سطر منه فيه معنىٰ

وبحث حول الفقه، مطالعة الكتاب تستغرق مدة من الزمان، فكم صرف علىٰ تحضيره وتأليفه من الجهد والوقت؟ انه صرف ثلاثين عاماً من عمره الشريف حتىٰ أوجد هذا الاثر العظيم. إن هذا الكتاب مظهر عظيم من مظاهر الإيمان والرغبة والهمة والنبوغ والصبر والاستقامة علىٰ العمل والمثابرة. كان صاحب الجواهر من تلامذة كاشف الغطاء وهو شيخ استاذ السيد جواد العاملي صاحب «مفتاح الكرامة» وكانت له حوزة درس كبيرة وتربّىٰ لديه تلامذة كثيرون وكان عربياً وأصبح مرجعاً علماً للشيعة في عصره توفي أوائل ملك الشاه ناصر الدين عام ١٢٦٦ هـ

٣٣ ـ الشيخ مرتضىٰ الانصاري: من أحفاد جابر بن عبدالله الأنصاري من صحابة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم. ولد في دزفول ودرس لدىٰ والده حتىٰ العشرين من عمره ثم سافر إلىٰ النجف الأشرف فلما رأىٰ علماء النجف نبوغه الخارق للعادة طلبوا من والده أن لايرجع به إلىٰ بلده، وقبل والده ذلك فتركه في النجف الأشرف وبقي الشيخ الانصاري في النجف أربع سنين مستفيداً من بحوث العلماء الاعلام، ثم رجع إلىٰ بلده علىٰ أثر حوادث مؤلمة، ومكث في دزفول عامين، ثم رجع مرة أخرىٰ إلىٰ النجف وحضر مجالس الدروس عامين ثم عاد إلىٰ ايران. وصمم علىٰ الاستفادة من محاضر علماء ايران وفي طريق مشهد الإمام الرضا عليه السلام ألتقىٰ في كاشان الشيخ المولىٰ أحمد النراقي صاحب كتاب «مستند الشيعة» و «معراج السعادة» وهو ابن الشيخ المولىٰ مهدي النراقي المذكور آنفاً فعزم علىٰ الاقامة في كاشان وحضر ابحاثه ثلاث سنين. ثم رحل إلىٰ مدينة مشهد الامام الرضا (ع) وتوقف فيها خمسة أشهر. ثم سافر إلىٰ اصفهان وبروجرد وكان هدفه التقاء الاساتذة والاستفادة منهم. ورجع مرة أخرى الىٰ النجف الاشرف عام ١٢٥٢ و ١٢٥٣ وأخذ يدرس هناك حتىٰ اصبح مرجعاً عاماً للشيعة بعد الشيخ محمّد حسن النجفي صاحب «الجواهر».

لقّب الشيخ الانصاري: بخاتم الفقهاء والمجتهدين، وهو يكاد أن يكون عديم المثيل في الدقة وعمق النظر ادخل أصول الفقه والفقه في مرحلة جديدة، له في الفقه والاصول آراء جديدة لم يسبقه إليها أحد حتىٰ أن كتابيه «الرسائل» و«المكاسب» أصبحا كتابين

دراسيين.والعلماء بعده من تلامذته واتباعه، وقد علقوا علىٰ كتبه حواشي متعددة، وهو الوحيد بعد المحقق الحلي والعلامة الحلي والشهيد الاول الذي، علق العلماء بعده علىٰ كتبه وشرحوها كثيراً، وكان يضرب به المثل في الزهد والتقوىٰ وتنقل عنه أمور، توفي في سنة ١٢٨١ في النجف ودفن فيها.

٣٤ ـ السيد ميرزا محمّد حسن الشيرازي: المعروف بالميرزا الشيرازي الكبير المجدد. درس في اصفهان أولاً ثم رحل إلىٰ النجف الاشرف وحضر بحث صاحب الجواهر ثم دروس الشيخ مرتضىٰ الانصاري وأصبح من تلامذته المبرّزين، وأصبح بعد مرجع الشيعة العام طوال ٢٣ عاماً. وهو الذي ألغىٰ بتحريم التبغ معاهدة التبغ الانجليزية الاستعمارية «رژى». وتربّىٰ لدى تلامذة كثيرون كالشيخ الآخوند المولىٰ محمّد كاظم الخراساني والسيد محمّد كاظم الطباطبائي اليزدي والشيخ الحاج آقا رضا الهمداني والحاج ميرزا حسين السبزواري والسيد محمّد الفشاركي الاصفهاني والميرزا محمّد تقي الشيرازي وغيرهم. لم يخلف أثراً مكتوباً إلّا أن آراءه الفقهية تنقل شفوياً ويعنىٰ بها الفقهاء. مات عام ١٣١٢ هـ

٣٥ ـ الشيخ الآخوند المولىٰ محمّد كاظم الخراساني: ولد في مشهد الامام الرضا عليه السلام من عائلة فقيرة غير معروفة سنة ١٢٥٥، وهاجر إلىٰ طهران وعمره ٢٢ عاماً واشتغل فيها مدة قليلة بالفلسفة ثم هاجر إلىٰ النجف الاشرف فادرك درس الشيخ الانصاري عامين وكان أكثر درسه لدىٰ السيد الميرزا الشيرازي ورحل السيد الشيرازي من النجف إلىٰ سامراء واتخذها محلاً لاقامته عام ١٢٩١، فبقىٰ الشيخ الآخوند في النجف الأشرف وشكل حوزة خاصة لدرسه، وكان أكثر المدرسين توفيقاً واطراداً، فكان يحضر مجلس درسه أكثر من ألف طالب، مئتان منهم بلغوا رتبة الاجتهاد. وكان أكثر الفقهاء في هذا العصر الاخير من تلامذته كالسيد أبي الحسن الموسوي الاصفهاني والمرحوم الحاج آقا حسين البروجردي والمرحوم السيد حاج آقا حسيني القمي والمرحوم آقا ضياء الدين العراقي وغيرهم. وكان الآخوند شهيراً بالاصول، وكتابه «كفاية الاصول» أصبح كتاباً دراسياً مهماً، شرحه وعلق عليه جماعة من العلماء. وآراؤه في الاصول تنقل في

الحوزات العلمية ويعنىٰ بها الفقهاء الاصوليون. وهو الذي افتىٰ بضرورة التزام السلطة في ايران بالنظام الدستوري «المشروطة» توفي عام ١٣٢٩ هـ ودفن في النجف الأشرف.

٣٦ ـ الشيخ الحاج ميرزا حسين النائيني: كان من أكابر الفقهاء والاصوليين في القرن الاخير، درس لدىٰ السيد محمّد الفشاركي والميرزا الشيرازي المذكور آنفاً وأصبح من أعلىٰ المدرسين منزلة وعلماً وكان أكثر اشتهاره في علم الاصول، عارض في آرائه آراء استاذه الشيخ الآخوند الخراساني وادخل آراءً جديدة في الاصول، وأكثر فقهائنا المتأخرين من تلامذته. له كتاب نفيس في مباني الحكومة في الاسلام والدفاع عن النظام الدستوي القانوني اسماه «تنبيه الأمة في وجوب حكم المشروطة» توفي عام ١٢٥٥ هـ ودفن في النجف الأشرف.

الخلاصة والنتائج

عرفنا هنا ستةً وثلاثين وجه من وجوه الفقهاء المعروفين من زمن الغيبة الصغرىٰ أي من القرن الثالث حتىٰ القرن الرابع عشر، ولهذه الوجوه شهرة تامة في علمي الفقه وأصوله، أي انهم وآراءهم لازالت تذكر في الفقه وكتبه ودروسه. ومما ذكرناه نصل إلىٰ أمور:

أ ـ إن الفقه لازال حيّاً منذ القرن الثالث الهجري وحتىٰ اليوم ولم تنقطع حياته المستمرة، وأن الحوزات الفقهية لازالت نشطة من دون توقف طوال هذه القرون الاحد عشر، ولم تنقطع في هذه المدة علاقة الشيوخ والاساتذة بالتلامذة والمتعلمين. فمثلاً لو بدأنا من استاذنا الكبير المرحوم آية الله البروجردي بتعداد المشايخ إلىٰ الوراء لاستطعنا أن نصل بهم إلىٰ عصر الأئمة الاطهار عليهم السلام. ولا نجد هكذا حياة مستمرة لثقافة من الثقافات طوال أحد عشر قرناً من الزمان، بل لا يمكن أن نجد استمراراً ثقافياً بالمعنىٰ الحقيقي وبروح وحياة واحدة بدون أي انقطاع تتوالىٰ وتصل بالطبقات، طوال هذه القرون المتمادية إلّا في الحضارة والثقافة الإسلامية، أجل نرىٰ في سائر الحضارات والثقافات سوابق أطول ولكنها تنقطع وتتوقف ثم تجد حياتها مرة أخرىٰ.

وذكرنا قبل هذا، أنا لم نبدأ بالفقه من القرن الثالث المقارن للغيبة الصغرىٰ بمعنىٰ أن

الفقه الشيعي بدأ من القرن الثالث، بل من حيث ان فقه الشيعة قبل هذا كان في عصر حضور الأئمة الاطهار عليهم السلام فلم يكن الفقه مستقلاً وكان فقهاء الشيعة منضوين تحت شعاع أنوار الأئمة عليهم السلام، وإلّا فان الفقه والكتاب الفقهي في الشيعة بدأ من عهد الصحابة، فقد كتب أول كتاب في ذلك علي بن أبي رافع أو عبيدالله بن أبي رافع صاحب بيت المال وكاتب أمير المؤمنين عليه السلام.

ب ـ إن معارف الشيعة، ومنها فقههم لم ينظم ولم يدوّن بأيدي الشيعة الايرانيين فقط ـ كما زعم بعضهم ـ بل اسهم فيه الايرانيون وغيرهم، بل كان الغالب منهم قبل الصفوية في القرن العاشر الهجري من غير الايرانيين وإنما بدأ دورهم من أواسط عهد الصفويين.

ج ـ لم يكن مركز الفقه قبل الصفوية ايران، بل بدأ الفقه الشيعي نضجه في بغداد ثم رحل إلىٰ النجف الاشرف، ثم انتقل إلىٰ جبل عامل، ثم عاد إلىٰ الحلة الفيحاء في العراق ثم رجع إلىٰ حلب في سورية ثم انتقل إلىٰ اصفهان علىٰ عهد الصفوية، ثم رجع إلىٰ النجف الاشرف علىٰ عهد المقدس الاردبيلي وغيره واستمر حتىٰ اليوم. وكانت مدينة «قم» من المدن الايرانية التي عدّت من مراكز الحوزات العلمية للشيعة منذ القرون الأولىٰ علىٰ يد فقهاء قدماء من قبيل الشيخ علي بن بابويه والشيخ محمّد بن قولويه، وعادت إلىٰ الحياة علىٰ عهد القاجار بيد الشيخ الميرزا أبي القاسم القمي صاحب كتاب «قوانين الاصول» ثم حددت حياتها علىٰ يد الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي عام ١٣٤٠ هـ ولازالت هي إحدىٰ الحوزتين الكبيرتين للشيعة،بل أكبر الحوزات.

وعلىٰ هذا فقد كان مركز النشاط الفقهي بغداد حيناً والنجف الاشرف وجبل عامل وحلب والحلة واصفهان وقم أحياناً أخرىٰ. وكانت قد تشكلت حوزات محلية قبل الصفوية، ولاسيما بعدها في مدن أخرىٰ من قبيل مشهد وهمدان وشيراز ويزد وكاشان وتبريز وزنجان وقزوين وتون (فردوس) إلّا أنها لم تصبح مركزاً للفقهاء،ولاحوزة من الدرجة الأولىٰ إلّا في اصفهان وقم وكاشان وخير، دليل علىٰ النشاط العلمي والفقهي لهذه المدن وجود المدارس التاريخية في جميع هذه البلدان المذكورة.

د ـ لقد كان لفقهاء جبل عامل دور مهم في الخطوط العامة للدولة الصفوية الشيعية،

فالصفويون ـ كما نعلم ـ كانوا صوفيين، فلو لم يعتدل خط الصفوية الصوفي الدروشي بسيرة فقهية عميقة من قبل فقهاء جبل عامل، ولو لم تؤسس علىٰ أيديهم حوزة فقهية عميقة في ايران،لانتهىٰ خط الصفوية إلىٰ ما انتهىٰ إليه العلويون في الشام أو تركية. وكان لهذا العامل أثر كبير في صيانة السيرة العامة للدولة والامة الايرانية من تلك الانحرافات في الصوفية، وتعديل العرفان والتصوف الشيعي. ومن هنا نقول ان لفقهاء جبل عامل،من قبيل المحقق الكركي والشيخ البهائي والآخرين بتأسيسهم الحوزة الفقهية في اصفهان حقاً كبيراً علىٰ ذمة هذه الامة.

هـ ـ إن التشيع في جبل عامل مقدم من حيث الظهور والزمان علىٰ التشيع في ايران ـ كما قال شكيب ارسلان[1] وهذا دليل قاطع علىٰ رد النظرية التي تقول بأن الشيعة هم الذين ابتدعوا التشيع. ويذهب جماعة إلىٰ أن التشيع ظهر في جبال بني عاملة علىٰ أثر إقامة أبي ذر الغفاري مدة في أراضي الشامات التي كانت يومئذٍ تشمل جبال عاملة أو ما يقاربها. فكان إلىٰ جانب مقاومته ونهيه لمنكرات معاوية وتكاثره في اكتناز ثروات الأمة ومع سائر الامويين يدعوالناس إلىٰ مشايعة علي عليه السلام ومتابعته وولايته ومحبته[2].

أما فقهاء أهل السنة، فينبغي أن اذكر قبل ذكرهم مقدمة:

كان الفقهاء العرب غير الشيعة يؤيَّدون من قبل الامويين، أما علىٰ عهد العباسيين فقد كان الفقهاء غير العرب من غير الشيعة يلقون الدعم والتأييد.

يقول جرجي زيدان بشأن الخلفاء الأمويين:

«قد علمت مما فصلناه في الجزأين الماضيين من هذا الكتاب: ما كان من تعصب بني‌امية للعرب واحتقارهم غير العرب من المسلمين وغيرهم، وأهل المدينة مع تحيزهم لاهل البيت وانكار الخلافة علىٰ بني امية كان الامويون يسعون في ارضائهم واكرامهم، وخصوصاً أهل الورع من الخلفاء كعمر بن عبدالعزيز، فانه كان لايقطع أمراً مهمّاً إلّا بعد

---

١ - يراجع كتاب: «جبل عامل في التاريخ».

٢ - يراجع كتاب: «جبل عامل في التاريخ».

مشورتهم. فلما افضىٰ الامر إلىٰ بني العباس اراد المنصور تصغير أمر العرب واعظام أمر الفرس لانهم أنصارهم وأهل دولتهم، كان من جملة مساعيه في ذلك تحويل انظار المسلمين عن الحرمين، فبنىٰ بناءً سمّاه (القبلة الخضراء) حجاً للناس،وقطع الميرة عن المدينة وفقيه المدينة يومئذٍ الامام مالك الشهير فاستفتاه أهلها في أمر المنصور فافتىٰ لهم بخلع بيعته فخلعوها وبايعوا محمّد بن عبدالله من آل عليّ. وعظم أمر محمّد هذا، وحاربه المنصور ولم يتغلب عليه إلّا بعد العناء الشديد. فرجع اهل المدينة الىٰ بيعة المنصور قهراً وظل مالك ينكر حق البيعة لبني العباس، فعلم أمير المدينة يومئذٍ وهو جعفر بن سليمان ـ عم المنصور ـ بذلك فغضب ودعا بمالك وجرّده من ثيابه وضربه بالسياط وخلع كتفه»[1].

وينقل ابن النديم في «الفهرست » في ترجمة محمّد بن شجاع المعروف بابن الثلجي من الفقهاء؛ قصة يكشف لنا سياسة الخلفاء العباسيين بشأن الايرانيين (غير الشيعة): يقول: «قرأت بخط ابن الحجازي أن: قال محمد بن شجاع [الثلجي] قال لي إسحاق بن إبراهيم المصعبي ـ وكان لي [أي الثلجي] صديقاً: دعاني أمير المؤمنين فقال لي: اختر لي من الفقهاء رجلاً قد كتب الحديث وتفقه به مع الرأي، وليكن مديد القامة جميل الخلقة خراساني الاصل من نشأة دولتنا ليحامي علىٰ ملكنا حتىٰ اقلده القضاء. فقلت: لا أعرف رجلاً هذه صفته غير محمّد بن شجاع، وأنا افاوضه ذلك. قال: فافعل، فإذا أجابك فصر به إليّ. فدونك يا أبا عبدالله. فقلت: أيها الأمير! لست إلىٰ ذلك بمحتاج، وإنما يصلح القضاء لاجل ثلاثة: لمن يكتسب مالاً، أوجاهاً، أو ذكراً. فأما أنا فمالي وافر وأنا غني... والذكر فقد سبق لي عند من يقصدنا من أهل العلم والفقه بما فيه كفاية... وتوفي سنة ٢٥٦ هـ»[2].

وبين فقهاء أهل السنة ـ كما نعلم ـ أربعة يعرفون بأنهم أصحاب مذاهب وان عامة أهل السنة يتبعون أحد هؤلاء الاربعة؛ أبا حنيفة، ومحمد بن ادريس الشافعي، ومالك ابن انس، وأحمد بن حنبل. وإن كان حصر المذاهب في مذاهب هؤلاء؛ ظهر في القرن السابع الهجري، وأما قبل ذلك فكانوا علىٰ أكثر من عشرة مذاهب.

---

١ – «تاريخ التمدن» لجرجي زيدان: ج ٣ ص ٧٩ ط، د. حسين مؤنس نقلاً عن ابن خلكان: ج ١ ص ٤٣٩.

٢ – الفهرست: ص ٢١٩، ط. بيروت.

ونحن نقسم بحثنا بشأن فقهاء أهل السنة إلىٰ ثلاثة أقسام: قبل الأئمة،وعصر الأئمة، وفي غيبة الامام.

وأما قبل هؤلاء الأئمة فكان دور التابعين الذين لم يدركوا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله،ولكن ادركوا صحابته. فمن هؤلاء كان في المدينة سبعة وهم:

١ ـ أبو بكر عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي المتوفي ٩٤ هـ ٢ ـ سعيد بن المسيب المخزومي القرشي أيضاً العابد الزاهد الذي قيل أنه أحيا خمسين عاماً ليله إلىٰ الصباح وكان يصلي الصباح بوضوء العشاء الآخرة. وقيل انه كان يتشيع. وعدّه العلامة المرحوم السيد حسن الصدر في «تأسيس الشيعة »[1] من الشيعة، مات عام ٩١ هـ

٣ ـ القاسم بن محمّد بن أبي بكر، حفيد الخليفة أبي بكر وجدّ الامام الصادق عليه السلام لامه وقد صرح السيد الصدر بتشيعه[2] وأم القاسم إحدىٰ بنات يزد جرد الملك الساساني،فهو من قبل أبيه قرشي، ومن قبل أمه ايراني. توفي بين المئة والمئة وعشرة.

٤ ـ خارجة بن زيد بن ثابت الانصاري المتوفي في حدود ٩٩ هـ وهو ابن زيد بن ثابت الانصاري المعروف.

٥ ـ سليمان بن يسار، هو مولىٰ، والظاهر انه ايراني، مات عام ٩٤ هـ

٦ ـ عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، المتوفي في حدود عام ٩٨ هـ وهو ابن أخي عبدالله بن مسعود الصحابي المعروف.

٧ ـ عروة بن الزبير المتوفي في حدود ٩٤ هـ وهو ابن الزبير بن العوام الصحابي المعروف، عُرف مما سبق أن واحداً من هؤلاء السبعة يحتمل فيه ان يكون ايرانياً،والآخر من طرف امه، والآخرون عرب أما مكيون أو مدنيون. وهناك فقهاء غير هؤلاء السبعة بعضهم ايرانيون، منهم «ربيعة الرأي » الفقيه المعروف وهو استاذ مالك بن انس إمام المالكية وهو الذي ابتدع العمل بالقياس.

وأما أئمة المذاهب الاربعة فهم:

---

١ - تأسيس الشيعة: ص ٢٩٨.

٢ - المصدر نفسه.

١ ـ أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، أو النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان، المتوفي في عام ١٥٠ هـ هو ايراني عدّ أعظم أئمة أهل السنة ولم يكرم عند أهل السنة بعد النبي والخلفاء الراشدين والحسنين عليهما السلام أحد كما كرم أبو حنيفة، يقلده اليوم من السنة أكثر من مئة مليون مسلم، وإن كان مقلدوه في ايران قليلين.

٢ – محمّد بن ادريس الشافعي المتوفي في سنة ٢٠٤ هـ وهو عربي قرشي ومن حيث التقليد والاتباع لا يقل عن أبي حنيفة لو لم يكن أكثر منه في ذلك.

٣ ـ مالك بن أنس المتوفي سنة ١٧٩ هـ وهو عربي قحطاني يتبعه أهل المغرب.

٤ ـ أحمد بن حنبل الشيباني،المتوفي في عام ٢٤١ هـ وهو عربي أيضاً إلّا أن أسرته سكنت في «مرو» خراسان، قال ابن خلكان: خرجت أمه من مرو وهي حامل به ووضعته في بغداد. وعلىٰ هذا فهو ايراني من أصل عربي. وعلىٰ هذا فليس من هولاء الأئمة الاربعة ايراني في الاصل إلّا أبا حنيفة، والآخرون عدناني وقحطاني وشيباني.

وهناك أئمة مذاهب انقرضوا وانقرض اتباعهم من قبيل: محمّد بن جرير الطبري المتوفي في عام ٣١٣ هـ وداود بن علي الظاهري والاصفهاني المتوفي ٢٧٠ هـ وهو مؤسس المذهب الظاهري وهو مذهب حرفي جامد علىٰ ظواهر الأخبار فقط وكان ابن حزم الاندلسي ـ الاموي النزعة والهوىٰ، والذي لا يخلو من عداء لأهل البيت الطاهر عليهم السلام يتبع في الفقه داود الظاهري. وكلاهما ايرانيان من حيث المنشأ أو حتىٰ الاصل.

وهناك من أهل السنة فقهاء آخرون كبار: بعضهم أرباب مذاهب وبعضهم لا... بعضهم ايرانيون وبعضهم لا. ومن أجل أن نقدم نماذج تبيّن مدىٰ اسهام الايرانيين في الفقه ـ السنّي ـ نذكر عدداً منهم:

١ ـ محمّد بن الحسن الشيباني الدمشقي تلميذ أبي حنيفة المتوفي في عام ١٨٩ هـ هاجر من العراق مع هارون الرشيد إلىٰ إيران فلما بلغ الري مات ودفن بها.

٢ ـ القاضي أبو يوسف، تلميذ أبي حنيفة. تقلد منصب قاضي القضاة للمهدي والهادي وهارون الرشيد وتوفي في سنة ١٩٢ هـ كان من أولاد الانصار.

٣ ـ زفر بن الهذيل المتوفي في سنة ١٥٨ هـ وهو عربي عدناني من أتباع أبي حنيفة.

٤ ـ ليث بن سعد الاصفهاني، فقيه مصر المتوفي في سنة ١٧٥ هـ وهو إمام مذهب وإن كان يتبع في الفقه أبا حنيفة كما قيل.

٥ ـ عبدالله بن المبارك المروزي، نسبة الىٰ مرو خراسان، تلميذ ابي حنيفة ومالك والثوري، توفى في سنة ١٨١ هـ

٦ ـ أبو عمر عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي الشامي،المتوفىٰ في عام ١٥٧ هـ تلميذ الزهري وعطاء بن ابي رباح. كان امام أهل الشام في مذهبهم،ولا يعلم أهو عربي يمني أم حليف أم مولىٰ.؟

هؤلاء هم مشاهير فقهاء أهل السنة، وأما الفقهاء غير المعروفين فلا يحصون كثرة وفي المشاهير ايرانيون وغير ايرانيين.

فطاووس بن كيسان مولىٰ معتق معاصر للفقهاء السبعة في القرن الأول، وكذلك ربيعة الرأي الفقيه المعروف وشيخ مالك بن أنس وأول من أسس القياس والرأي، واليه نسب فقيل: ربيعة الرأي مات عام ١٣٦ هـ وعكرمة مولىٰ ابن عباس البربري نال مقام الفقه والتفسير. وسليمان بن مهران الأعمش فقيه ايراني من القرن الأول.

وفي القرون التالية، فقهاء ايرانيون نذكر منهم: ابن السريج الشافعي وابا سعيد الصطخري وابا اسحاق المروزي في القرن الرابع، وأبا حامد الاسفرائيني وابا اسحاق الاسفرائيني وأبا اسحاق الشيرازي وامام الحرمين الجويني والامام محمد الغزالي وابا المظفر الخواني،وكياالهراسي في القرن الخامس، وأبا اسحاق العراقي الموصلي في القرن السادس، وابا اسحاق الموصلي في القرن السابع، والامام الشاطبي الاندلسي في القرن الثامن.

وأما في القرون الاخيرة فكان فقهاء ايران من الشيعة،لتشيع أكثر الايرانيين.

وأما في فنون الآداب

ونعني بها هنا: النحو والصرف واللغة والبلاغة والشعروالتاريخ، فقد اسهم في هذا

القسم الايرانيون بخدمات كثيرة.ان خدمات الايرانيين للغة العربية أكثر من خدمة العرب أنفسهم لها وأكثر من خدمتهم للغتهم انفسهم! فقد اهتم الايرانيون بخدمة العربية بدوافع دينية مقدسة، فلم يكن الايرانيون ـ كسائر المسلمين ـ يحسبون اللغة العربية لغة القومية العربية،بل لغة القرآن واللغة الاسلامية الأممية، ولهذا فقد طفقوا يتعلمونها ويضبطونها ويدونونها من دون أية عصبية، بل بكل جد ونشاط!.

ان علوم الادب العربي تبدأ من قوانين اللغة العربيه أي النحو،وقد اتفق بل أجمع المؤرخون المسلمون علىٰ أن الامام أميرالمؤمنين علياً عليه السلام، هو ا لذي ابتكر علم النحو، وقد ذكر العلّامة الجليل المرحوم السيد حسن الصدر، في كتابه النفيس «تأسيس الشيعة» دلائل لذلك وشواهد لاترد[1] فقد علَّم عليه السلام اصول النحو لكاتبه أبي الأسود الدؤلي الشيعي، وأمره أن يفكر فيما اعطاء وينحو نحوه، فعمل بما أمره سيده وزاد عليه أشياء ولذلك سمي العلم نحواً، لانه كان ينحو نحو أمير المؤمنين عليه السلام، وعلم ماتعمله وعلمه لولديه عطاء بن أبي الاسود وابي الحرب بن ابي الاسود ويحيىٰ بن يعمر وميمون الاقرن ويحيىٰ بن النعمان وعنبسة الفيل. وقد قيل أن الاصمعي وابا عبيدة الأديبين، كانا من تلامذة عطاء بن أبي الأسود.

ونرىٰ في الطبقة التالية لهؤلاء أسماء: أبي اسحاق الحضرمي وعيسىٰ الثقفي وأبي عمرو ابن العلاء الشيعي القاريء المعروف الجليل القدر، وهو لغوي عارف باللغة والأدب ولاسيما أشعار العرب. كان من أدبه انه لاينشد شعراً في شهر رمضان المبارك. ولما حج أتلف شعره لانه كان من الشعر الجاهلي فكرهه، وهو يذهب الىٰ ربه. وكان الاصمعي ويونس بن حبيب النحوي وأبو عبيدة سعدان بن المبارك من تلامذته.[2]

ونجد في الطبقة التالية من هذه الطبقة: الخليل بن أحمد الفراهيدي العروضي الشيعي، صاحب الرأي والنظر في اللغة والأدب، بل يعد من النوابغ في ذلك، وكان سيبويه المعروف من تلامذة الخليل، والاخفش من تلامذة الخليل وسيبويه.

---

١ - تأسيس الشيعة: ص ٤٠ ـ ٦١.

٢ - ريحانة الادب: ط ٣، ج ٢، ص ٢١٣.

ثم انقسم النحويون بعد هذا الىٰ فرقتين: أهل الكوفة وأهل البصرة، فالكسائي المعروف وتلميذه الفراء وتلميذه ثعلب، وتلميذه ابن الانباري من الكوفيين، وسيبويه و تلميذه الاخفش وتلميذه المازني وتلميذه المبرد وتلميذه الزجاج وتلميذه الفارسي وتلميذه ابن جنّي وتلميذه الجرجاني كانوا من البصريين.

وبعض هؤلاء ايرانيون منهم:

١ ـ يونس بن حبيب، المتوفىٰ في سنة ١٨٣ هـ يقول عنه ابن النديم: اعجمي الأصل[١]، قيل أنه لم يتزوج واوقف نفسه لمعاطاة العلم، له كتاب في «معاني القرآن الكريم».

٢ ـ أبوعبيدة المعمر بن المثنىٰ المتوفىٰ ٢١٠ هـ هو أيضاً ايراني كما قال ابن النديم[٢].

٣ ـ سعدان بن المبارك الضرير، جاء في «ريحانة الأدب» أنه من أهل طخارستان[٣]

٤ ـ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر،المعروف بلقب «سيبويه» المتوفىٰ في حدود عام ١٨٠ هـ وهو من أهل فارس (شيراز) ولد في البيضاء ودرس بالبصرة وسافر الىٰ بغداد، وحدثت له قصة مع الكسائي عرفت بالمسألة «الزنبورية» وعاد الىٰ فارس ومات له أربعون عاماً، ودفن في مسقط رأسه، عرف كتابه فيالنحو المعروف باسم «الكتاب» انه أحسن الكتب في فنّه وانه من قبيل كتاب المنطق لارسطو والمجسطي لبطليموس في الهيئة، طبع مراراً في باريس ولندن وبرلين وكلكته ومصر، قال السيد بحر العلوم وغيره: ان العلماء كانوا عيالاً عليه في النحو واسستشهد في كتابه هذا بثلاثمئة آية من القرآن للشواهد النحوية،ولذلک لم يرض المازني أن يدرسه لبعض أهل الذمة لئلا تمس يدالذمي آيات القرآن الكريم، وان كان بذله له جزيلاً في ذلك.

٥ ـ سعيد بن سعدة،المعروف بالأخفش الاوسط،وهو من أكابر النحويين، وله كتب عديدة في النحو،وله زيادة بحر في العروض عىٰ ما وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي وهو من أهل «خوارزم» ويقال هو «مجاشعي» وعلىٰ هذا فهو ايراني المنشأ عربي

---

١ – الفهرست: ص ٦٩.

٢ – الفهرست: ص ٧٥.

٣ – ريحانة الأدب: ج ٨ ص ١٨٩.

الأصل، أو أنه مولىٰ أو حليف، مات عام ٢١٥ أو ٢٢١ هـ

٦ ـ علي بن حمزة الكسائي القاريء، الذي سبق ذكره في القراء هو ايراني جده فيروز، كان مع هارون الرشيد في سفره الىٰ مرو خراسان،فمات بالري في حدود سنة ٢٠٠ هـ

٧ ـ الفراء النحوي القاريء الذي سبق ذكره في القراء ايضاً.

٨ ـ محمد بن قاسم الانباري، المعروف بابن الانباري،نسبة الىٰ الانبار التي سميت أنباراً لانها كانت محزن الحبوب علىٰ عهد الساسانيين، كان تلميذ ثعلب النحوي، مات ٣٢٧ هـ

٩ ـ أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن سري بن سهل المعروف بالزجاج،كان تلميذ المبّرد وثعلب النحويين، وكان يخرط الزجاج والبلور،يعيش علىٰ ذلك فلقب بالزّجاج، قيل: كان يعطي كل يوم درهماً لشيخه المبّرد علىٰ حق التعليم، مات عام ٣١٠ هـ

١٠ ـ أبو علي الفارسي، وهو من أهل «فسا» من فارس، وكان معاصراً للديالمة البويهيين، ولد عام ٢٨٨، ومات سنة ٣٧٧، لقّبه بعضهم «خاتم النحويين» ونقل السيد الصدر في «تأسيس الشيعة»[1] عن كتاب «المصباح» لسلامة بن عياض الشامي انه كان يقول: «فتح النحو بفارس وختم بفارس» يعني سيبويه والفارسي، ولاشك في أن هذا الكلام فيه مبالغة كثيرة.

١١ ـ عبد القاهر الجرجاني، أديب نحو لغوي بلاغي معروف، وأكثر شهرته في البلاغة، ويعدّ من كبار النحويين، له كتب نفيسة في البلاغة لازالت تحتفظ بقيمتها من قبيل: اسرار البلاغة ودلائل الاعجاز واعجاز القرآن وغيرها توفى عام ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ

وهناك غير هؤلاء الذين ذكرناهم جماعة آخرون من كبار النحويين،ايرانيون؛ ففي القرن الثاني: خلف الأحمر، مولىٰ أعجمي وغيره.

وفي القرن الثالث: ابو حاتم السجستاني، وابن السكيت الاهوازي الشيعي، وابن قتيبة الدينوري، أصحاب الكتب النفيسة: ادب الكاتب، والمعارف وعيون الأخبار، و غيرها،وابو حنيفة الدينوري النحوي الحكيم الرياضي المؤرخ،وابو بكر ابن الخياط

---

١ ـ تأسيس الشيعة: ص ٥١.

السمرقندي وغيرهم.

وفي القرن الرابع: الحسن بن عبدالله المرزبان السيرافي الشيرازي المجوسي الأصل، ويوسف بن الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي، وأبو بكر الخوارزمي الطبرستاني الأصل.

وفي القرن الخامس: ابن خالويه الهمداني وأبو مسلم الاصفهاني.

ومن القرن السابع: نجم الائمة الاسترآبادي المعروف بالرّضي الشيعي.

وهناك جماعة من علماء البلاغة ايرانيون، من قبيل: عبدالقاهر الجرجاني المذكور آنفاً ومحمّد بن عمران المرزباني الخراساني الشيعي المتوفىٰ في حدود ٣٧١ هالذي قيل عنه انه واضع علم البيان وليس عبدالقاهر الجرجاني. والزمخشري المذكورة آنفاً والصاحب بن عباد الطالقاني المتوفي في ٣٨٥ هوالسكاكي الخوارزمي المتوفي في ٧١٠ ه والتفتازاني النسائي أو السرخسي المتوفي ٧٩١ ه والسيد مير شريف الجرجاني المتوفي في سنة ٨١٦ ه

وفي اللغويين جماعة منهم ايرانيون، من قبيل: الجوهري النيسابوري صاحب «صحاح اللغة » المتوفي في حدود النصف الثاني للقرن الرابع، والراغب الاصفهاني المتوفي في سنة ٥٦٥، ومجد الدين الفيروزآبادي صاحب «قاموس اللغة» المتوفي في ٨١٦، والميداني النيسابوري صاحب «السامي في الأسامي» و «مجمع الأمثال » المتوفي في ٥١٨ هوغيرهم.

كما أن جماعة من المؤرخين ايرانيون، من قبيل: أبي حنيفة الدينوري السابق الذكر وابن قتيبة الدينوري السابق الذكر والطبري السابق الذكر، والبلاذري المتوفي في ٢٧٩ ه وأبي الفرج الاصفهاني الاموي الاصل المتوفي في ٣٥٦ وحمزة الاصفهاني المتوفي في سنة ٣٥٠.

والمؤرخون المسلمون كثيرون، بل لعل أكثر الفنون تأليفاً فن التاريخ،قال جرجي زيدان:

«تقدم المسلمون في التاريخ وكتبوا فيه أكثر من أي أمة أخرىٰ (ماعدا العصر الحديث

) حتىٰ ذكر «كشف الظنون» اسم ألف وثلاثمئة كتاب في التاريخ الاسلامي. هذا عدا ما كتب فيه من شروح لكتب التاريخ أو تلخيص لها، أو الكتب المفقودة التي لم يأت بذكرها في كشف الظنون... وقد ذكر المسعودي في مقدمة كتابه «مروج الذهب» اسم عشرات من الكتب التاريخية التي كانت علىٰ عهده...».

وقد شاركت في تدوين التاريخ الاسلامي أمم إسلامية مختلفة من الايرانيين والعراقيين كالخطيب البغدادي وعبدالرحمن بن الجوزي، وسبطه وشمس الدين أبي المظفر الجوزي، وابن خلكان الاربلي (وعلي بن عيسىٰ الاربلي صاحب كشف الغمة) وهما ايرانيا الاصل من مواليد أربيل بالعراق. والدمشقيين،كالصفدي وابن عساكر، والمصريين كالقفطي والمقريزي، والتونسيين كابن خلدون، والاندلسيين كابن عبدالبر وابن آبار وابن بشكوال.

وأما أنواع كتابة التاريخ: فمن السيرة وتواريخ الاشخاص، كالسيرة النبوية وتواريخ بعض الملوك إلىٰ تواريخ بعض المدن وبعض البلدان والدول كتاريخ مصر وتاريخ دمشق وتاريخ العلوم أي تاريخ أهل الفن الواحد، ككتب طبقات الحكماء وطبقات الاطباء وطبقات الحفاظ. والتواريخ العامة كتاريخ اليعقوبي وتاريخ الطبري.

وفي الكتاب المسلمين الايرانيين من كتب في الجغرافيا: كالمقدسي صاحب كتاب «أحسن التقاسيم» والاصطخري الفارسي الشيرازي صاحب كتاب «صور الاقاليم» و «مسالك الممالك» ويعتقد جرجي زيدان ـ تبعاً للسيوطي ـ أن أول مؤرخ للإسلام هو محمّد بن إسحاق المطلبي الشيعي المولىٰ، من عين التمر بالعراق والثاني عروة بن الزبير بن مصعب بن الزبير بن العوام بن عبدالمطلب الصحابي المعروف.

الا أن السيد الصدر أثبت أن أول تاريخ للاسلام هو ما كتبه عبيدالله بن أبي رافع القبطي المصري مولىٰ أمير المؤمنين وكاتبه وخازنه علىٰ بيت المال. وكتابه بشأن أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام من صحابة الرسول الاكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلم.

ولو كان محمد بن إسحاق (كاتب السيرة النبوية التي رواها ابن هشام فنسبت إليه خطأً) ايرانيا ـ كما هو معروف من كلمة «المولىٰ» ولاسيما في «عين التمر». بالعراق التي

كانت إلىٰ ما قبل الفتح الإسلامي تحت سيطرة الفرس ـ لوجب القول بأن من أوائل من تصدىٰ لكتابة التاريخ ـ بعد ابن أبي رافع القبطي المصري ـ شخصين، أحدهما عربي وهو «عروة» والآخر ايراني وهو «ابن إسحاق» مع فارق أن كتاب ابن اسحاق موجود في متناول اليد وان كتابيهما مفقودان.

ويذكر ابن النديم في الفهرست أسماء جماعة من المؤرخين الأوائل من الموالي ،والمولىٰ غير عربي ولا أعلم ـ بشكل قاطع ـ هل كان يطلق المولىٰ علىٰ الايراني فقط أم عليه وعلىٰ غيره من غير العرب أو حتىٰ علىٰ العرب المتحالفين؟ الا أنه يصرح في بعضهم أنه ايراني، منهم:

١ ـ محمّد بن عمر الواقدي، المؤرخ المعروف المتوفي في ٢٠٧ هـ

٢ ـ أبو القاسم حماد بن سابور الديلمي، المتوفي في ١٥٦ هـ

٣ ـ أبو جناد بن واصل الكوفي.

٤ ـ أبو الفضل محمّد بن أحمد الكاتب.

٥ ـ علان الشعوبي.

٦ ـ الكليني الرازي... وغيرهم.

ولاتجوز المبالغة أو الغفلة أو الزعم بأن الادب العربي دوّن بأيدي الايرانيين ففي أرباب الادب العربي من سائر القوميات من كان متفوقاً علىٰ العرب أنفسهم والاندلسيين والمصريين والشاميين والاكراد والاتراك والرومان. ولقد اشرنا إلىٰ هذا سابقاً ولا نطوّل عليكم هنا أكثر من هذا.

وفي المصادر الادبية العربية أربعة كتب تعد من أركان الادب العربي هي: أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، والنوادر لابي علي القالي. ومؤلفو هذه الكتب عرب سوىٰ واحد منهم وهو ابن قتيبة. فأما المبرد فهو أزدي وأما الجاحظ فهو كناني، وأما القالي فهو من ديار بكر من وائل.

وقد نقل أحمد أمين في «ضحىٰ الإسلام» عن كتاب «المزهر» للسيوطي أنه قال: برز في القرن الثاني الهجري ثلاثة رجال عدّوا أئمة الشعر والادب ولغة العرب،لم يسبقهم

سابق ولم يلحقهم لاحق، وكل ما للعرب من الشعر والادب واللغة فمن هؤلاء الثلاثة، وهم:

١ ـ أبو زيد الانصاري الخزرجي المتوفي ٢١٥.

٢ ـ الاصمعي الاديب اللغوي المعروف، المتوفي في حدود ٢١٥ أيضاً.

٣ ـ أبو عبيدة المعمر بن المثنىٰ المتوفي في حدود ٢١٠ هـ

وأبو عبيدة ايراني الاصل وأبو زيد خزرجي، وأما الاصمعي فباهلي.

وأما في علم الكلام

علم الكلام علم إسلامي مئة بالمئة، والغرض منه البحث في أصول العقائد الإسلامية والدفاع عنها، سواء كانت العقيدة عقلية كالتوحيد وصفات الله،أو نقلية كالامامة عند الشيعة،لما له من التأثير في مصير الأمة. ولذلك فالكلام ينقسم إلىٰ قسمين: عقلي ونقلي.

وإن ظهور علم الكلام في دين كالاسلام الذي طرح علىٰ البشرية مسائل كثيرة حول المبدأ والمعاد والإنسان والعالم، وفي مجتمع كالمجتمع الإسلامي في القرون الأولىٰ التي كان يسودها نشاط علمي قوي... كان طبيعياً وضرورياً.

إن القرآن الكريم يستدل لبعض المسائل العقائدية، كالتوحيد والمعاد والنبوة ويقيم عليها البراهين ويطالب المخالفين بالحجج والبراهين، فيقول مثلاً: «قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ».

وأول من بدأ بطرح المسائل العقلية العقائدية في الإسلام علىٰ طاولة التحليل كمسألة الحدوث والقدم والمتناهي وغير المتناهي والجبر والاختيار والبسيط والمركب وأمثالها ،هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. ولهذا السبب تقدمت شيعته علىٰ غيرهم من المسلمين في المسائل العقلية الإسلامية.

ونحن نبدأ بحثنا حول خدمات الايرانيين للاسلام في موضوع علم الكلام من الشيعة الايرانيين:

١ ـ إن أوّل متكلم مسلم ألف كتاباً في مسائل علم الكلام هو علي بن إسماعيل بن

ميثم التمار. وكان جده ميثم من أصحاب سر الامام أمير المؤمنين عليه السلام وخطيب الشيعة ومتكلمهم. وهو هجري من البحرين وحيث إن البحرين كانت تحت حكم الساسانيين فهو إذن كان ايرانياً. وحفيده علي بن إسماعيل بن ميثم كان معاصراً لضرار بن عمرو وأبي الهذيل العلاف وعمرو بن عبيد من مشاهير المتكلمين في القرن الثاني الهجري وله معهم كلام ومباحثات.

٢ ـ هشام بن سالم الجوزجاني، كان من مشاهير أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. وفي أصحابه عليه السلام من لقبه بالمتكلم،كما جاء ذلك في كتاب الحجة من الكافي[١] من قبيل: حمران بن أعين، ومؤمن الطاق، وقيس بن الماصر، وهشام بن الحكم وغيرهم... وقد قيل في قيس بن الماصر أنه تعلم الكلام من الامام زين العابدين عليه السلام[٢].

٣ ـ الفضل بن أبي سهل النوبختي، من آل نوبخت. وقد ذكر ابن النديم بأن آل نوبخت معروفون بالتشيع وفيهم فضلاء معروفون نبغوا بينهم طوال ثلاثة قرون لامجال للكلام عنهم هنا. «ونوبخت هو منجم كان في بلاط المنصور، ذهب يوماً بولده أبي سهل إلىٰ بلاط المنصور ليعرفه به، فسأله المنصور عن اسمه فقال: «خورشيد ماه، طيماذاه ما بازاردباد، خسرونه شاه » فقال المنصور: أهذا أسمك كله؟ قال: نعم، فضحك المنصور وقال: ماذا فعل أبوك! اختصر اسمك فإما أن تختار «طيماذ » أو انتخب لك كنية «أبو سهل» فرضي أبو سهل بهذه الكنية[٣] وعُرف بها ».

وفي اسرة «نوبخت » كثير من متكلمي الشيعة، من قبيل: الفضل بن أبي سهل بن نوبخت الذي جعله هارون الرشيد علىٰ «بيت الحكمة» وهو من المترجمين علىٰ عهد هارون والمأمون. وكذلك إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت وابنه إسماعيل بن إسحاق ابن أبي سهل بن نوبخت وابنه الآخر علي بن إسحاق وحفيده أبو سهل إسماعيل بن علي بن إسحاق، الملقب عند الشيعة بشيخ المتكلمين، والحسن بن موسىٰ النوبختيابن أخت أبي

---

١ - أصول الكافي: ج ١ ص ١٧١، ط. آخوندي.

٢ - تأسيس الشيعة: ص ٣٥٨.

٣ - المصدر السابق: ص ٣٦٣ بتصرف.

سهل إسماعيل بن علي، وآخرون غيرهم ايرانيون[1].

٤ ـ الفضل بن شاذان النيسابوري عاش في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث وقد سبق ذكره قبل هذا. كان من أصحاب الأئمة الرضا والجواد والهادي عليهم السلام، وله كتب كثيرة في الكلام.

٥ ـ محمد بن عبدالله بن مملك الجرجاني الاصفهاني معاصر الجبائي، في القرن الثالث.

٦ ـ أبو جعفر بن قبة الرازي في القرن الثالث الهجري، كانت بينه وبين أبي القاسم الكلبي البلخي مباحثات ومناظرات كتابية في مسائل الامامة.

٧ ـ أبو الحسن السوسنگردي، معاصر ابن قبة الرازي. قيل انه كان من غلمان أبي سهل إسماعيل بن علي النوبختي، وأنه حج خمسين حجة ماشياً علىٰ قدميه.

٨ ـ أبو علي ابن مسكويه الرازي الاصفهاني، من أعاظم المتكلمين والحكماء والاطباء المسلمين ـ له كتب مطبوعة منها «الفوز الاكبر» و «الفوز الاصغر» وله كتاب «طهارة الاعراق في علم الاخلاق » من أهم الكتب الاخلاقية في الاسلام. عاصر أبا علي الحسين بن علي بن سينا الحكيم والطبيب الإسلامي المعروف. مات عام ٤٣١ هـ

إن متكلمي الشيعة الايرانيين وغيرهم كثيرون. وقد ذكرنا هؤلاء نموذجاً من الشخصيات الفائقة من القرن الثانيإلىٰ القرن الرابع الهجري. وأما في القرون الأخيرة فقد قامت أركان علم الكلام علىٰ متكلمي الشيعة وحدهم.

وبعد ظهور الخواجة نصير الدين الطوسي،الحكيم والمتكلم والرياضي والسياسي المعروف، وتأليفه كتابه «تجريد الاعتقاد» وجد علم الكلام في الشيعة أهمية أكثر بحيث أصبح كتابه هذا،محور الابحاث الكلامية عند الشيعة والسنة أكثر من أي كتاب آخر.

أما متكلمو السنة

فكثير منهم ولعل أكثرهم ايرانيون. أقدمهم الحسن البصري ثم تلميذه واصل بن عطاء

---

١ – راجع: تأسيس الشيعة: ص ٣٦٢ ـ ٣٧٥ بتصرف، وكتاب: «خاندان نوبختى» للاشتياني.

عطاء الغزّال وكلاهما من الموالي العجم بل الفرس، كان الحسن البصري يعيش في النصف الثاني من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثاني للهجرة، مات عام ١١٠ هـ[١] وتليمذه واصل الذي انفصل واستقل عنه واتخذ طريقة جديدة اسسها، فعرفت بالاعتزال واتباعه بالمعتزلة، مات عام ١٨١ هـ[٢].

٣ ـ أبو الهذيل العلّاف، من الموالي العجم، عدّ من مؤسسي المدرسة العقلية في علم الكلام في الاسلام، كان ماهراً خبيراً بكتب الفلسفة،وكان له كاتب مجوسي يدعي «ميلاس» جمع يوماً عدداً من المجوسيين مع شيخه أبي الهذيل، في مجلس واحد، فتباحثوا في التوحيد والثنوية فافحمهم أبو الهذيل، وأسلم ميلاس، بل كتب شلبي النعمان يقول: اسلم علىٰ يد أبي الهذيل بضعة آلاف من المجوس[٣] وكان يحذر مناقشته كل من يعرفه، لقوته في الحجاج، له مناظرة معروفة مع صالح بن بعد القدوس الشكاك، والزنديق المشهور، نقلها ابن النديم في الفهرست[٤] والمتكلم الوحيد الذي كان أبو الهذيل يهابه، هو هشام بن الحكم التكلم الشيعي المعروف من أصحاب الامام الصادق عليه السلام[٥].

٤ ـ ابراهيم بن سيار المعروف بالنظّام، المتوفىٰ ٢٢١ هـ كان من أهل «بلخ» كما ذكر ذلك ابن خلكان في الجزء الثالث من كتباه، في ذيل ترجمة محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، له نظريات معروفة في الكلام وشيء منها في الفلسفة، كان قد لقىٰ هشام بن الحكم وأفاد منه.

٥ ـ عمرو بن عبيد بن رباب، كا أبوه من اسرىٰ كابل، وكان هو من شرطة البصرة، ولد عام ٨٠ هـ وما قبل عام ١٥٠ هـ

كان يميل الىٰ قول الخوارج، ويعرف بمناعة طبعه. كان صديقلله للمنصور الدوانيقي قبل خلافته، دخل عليه يوماً في خلافته فأكرمه المنصور، وطلب اليه ان يعظه، فقال له

---

١ ـ ريحانة الأدب : ج ١ ص ٢٦٩.

٢ ـ ابن خلكان في وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٦٠.

٣ ـ تاريخ علم الكلام: ص ٢٩ ـ عن الترجمة الفارسية.

٤ ـ الفهرست: ص ٢٥٢.

٥ ـ تاريخ علم الكلام ـ شبلي النعمان ص ٣١ ـ عن الترجمة الفارسية.

عمرو: «ان هذا الأمر الذي أصبح في يدك لو بقىٰ في يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل اليك، فاحذر ليلةً تمخض بيوم لا ليلة بعده! فلما أراد النهوض، قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم، قال: لاحاجة لي فيها، قال: والله تأخذها، قال: لا والله لا آخذها، وكا المهدي ولد المنصور حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟! فألتفت عمرو الىٰ المنصور وقال: مَن هذا الفتىٰ؟! قال: هو وليّ العهد إبني المهديّ! فقال: أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار، وسميته باسم ما استحقه، ومهدت له أمراً امتع ما يكون به اشغل ما يكون عنه، ثم التفت عمرو الىٰ المهدي فقال: نعم يا ابن اخي اذا حلف أبوك أحنثه عمك، لان أباك أقوىٰ علىٰ الكفارات من عمك، فقال له المنصور: هل من حاجة؟ قال: لاتبعث اليّ حتىٰ آتيك! قال: اذاً لاتلقاني؟! قال: هي حاجتي! ومضىٰ، فاتبعه المنصور طرفه وقال:

كلكم يمشي رويدْ كلكم يطلب صيْد

غير عمرو بن عبيدْ[1]

وعمرو بن عبيد هذا هو الذي دخل عليه هشام بن الحكم وعمرو لايعرفه، فسأله مسائل فيالامامة حتىٰ أفحمه، فِظّن عمرو أنه هو هشام بن الحكم فسأله: أأنت هشام؟ قال: نعم، فلما عرفه أحترمه وأكرمه.[2]

هؤلاء الذين ذكرناهم، هم من الطبقة الأولىٰ والثانية من المتكلمين الايرانيين من أهل السنة، وقد ظهر بين الايرانيين فيالقرون التالية متكلمون من السنة كثيرون، نأي هنا بأسماء عدد منهم علىٰ ترتيب القرون والطبقات:

ففي القرن الثالث: أبو الحسين أحمد بن يحيىٰ بن اسحاق الراوندي الكاشاني، وابن المنجم نديم الموفق والمكتفىٰ بالله، وكان من أحفاد يزدجرد الساساني، وأبو القاسم الكعبي البلخي، وابو علي الجبائي الخوازستاني، وابنه أبو هاشم الجبائي.

وفي القرء الرابع: أبو منصور الماتريدي السمرقندي، وابن فورك الاصفهانط

---

١ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج ٣ ص ١٣١.

٢ ـ اصول الكافي: ج ١ ص ١٧٠.

النيسابوري، وأبو اسحاق الاسفرائيني.

وفي القرن الخامس: أبو اسحاق الشيرازي، واما الحرمين الجويني، والامام محمد الغزالي.

وفي القرن السادس: فخر الدين الرازي، وابو الفضل ابن العراقي، ومحمد الشهرساني، وغيرهم.

الفلسفة والحكمة

أما الفلسفة؛ فقد بدأت لأول مرة، بعد ترجمة كتب اليونانيين والايرانيين والهنود وغيره، وقد كان ذلك في القرن الثاني الهجري، وهنا كلام كثير في مبدأ الترجمة ونقل علوم الآخرين الىٰ لغة الاسلام من الطب والرياضيات والفلسفة وغيرها، فبعض يقول: بدأ هذا العمل لأول مرة علىٰ يد خالد بن يزيد بن معاوية.

قالوا: ان خالد بن يزيد هو أول من «أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كا ينزل مدينة الاسكندرية فى مصر وقد تفصّح بالعربية، وأمرهم، بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الىٰ العربي، وهذا أول نقل كان في الاسلام»[1].

أما كتب الفلسفة فلاشك أنها بدأت في زمن بني العباس، كما هو شأن كثير من العلوم والفنون الاخرىٰ وكثير من الآداب والأخلاق.

ولم يترجم من ايران أي كتاب فلسفي، وانما ترجم من الكتب الايرانية الىٰ العربية ما كان في الأدب والتاريخ والنجوم والطبيعيات.

وابن النديم يذكر في مواضع متعددة من الفهرست اسماء مختلف الكتب الايرانية المترجمة الىٰ العربية، وليس فيها شيء من الفلسفة.

والكتاب الفلسفي الوحيد المعرّب من اللّغة الفهلوية هو قسم من منطق ارسطو، المنقول سابقاً من اليونانية الىٰ الفهلوية، والمترجم هو عبدالله بن المقفّع.

ويقول ابن النديم في الفن الأول من المقالة السابعة (مقالة الفلاسفة):

«... وكانت الفلسفة ظاهرة في اليونانيين والروم قبل شريعة المسيح عليه السلام، فلما

---

١ ـ الفهرست: ص ٣٣٨ ط مصر ـ الرحمانية.

تنصّرت الروم منعوا منها وأحرقوا بعضها وخزنوا البعض،ومُنِعَ الناس من الكلام في شيء من الفلسفة، اذ كانت بضدّ الشرائع النبوية، ثم ان الروم ارتدت عائدة الىٰ مذاهب الفلاسفة، وكان السبب في ذلك، أن ليوليانس ملك الروم، وكان ينزل بأنطاكية، وهـوالذي وزر له ثامسطيوس مفسر كتب ارسطاليس.. »[1].

ثم يذكر ابن النديم قصة حرب سابور ذي الأكتاف مع امبراطور الروم، وان سابور أُسر وسُجن ثم فرَّ من السجن وقتل الأمبراطور وأخرج الرومان من ايران، بـل تـدخل فـي شؤون الروم وجعل قسطنطين امبراطوراً لروما، وهنا ترجع الروم الىٰ المسيحية وتـمنع دراسة الفلسفة، ثم يقول:

«وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الىٰ اللّغة الفارسية، فنقل ذلك الىٰ العربية عبدالله بن المقفّع وغيره.. »[2]

وكما لم يترجم شيء من الفلسفة عن ايران، كذلك لم يكن أحد من مترجمي المنطق و الفلسفة عن السريانية واليونانية ايرانياً، ولكن بما أن ترجمة الكتب الفارسية الىٰ العربية هي احدىٰ صور خدمة الايرانيين للحضارة والثقافة الاسلامية لذلك نـحن نـذكر هـنا أسماء المترجمين عن الفارسية الىٰ العربية، نقلاً عن ابن النديم في الفهرست، ولو لم يكن كلهم ايرانيين، وهم:

عبدالله بن المقفّع مترجم منطق ارسطو و «خداينامه» الذي هـو الأصـل والمـصدر الرئيسي «للشاهنامه» للفردوسي، و «كليلة ودمنة» من الكتب الهندية المـترجـمة الىٰ الفهلوية علىٰ عهد أنوشيروان[3].

وأبو سهل الفضل بن نوبخت المتولّي «لبيت الحكمة» عـلىٰ عـهد هـارون الرشـيد والمأمون[4] والحسن بن موسىٰ النوبختي، وأحمد بن يحيىٰ البلاذري المؤرخ المعروف،

---

١ ـ الفهرست: ص ٣٣٧ ط مصر ـ الرحمانية.

٢ ـ الفهرست: ص ٣٣٧ ط مصر ـ الرحمانية.

٣ ـ الفهرست: ص ١٧٢ ط مصر.

٤ ـ الفهرست: ص ٣٨٢ ط مصر، وجاء في كتاب تأسيس الشيّعة: ص ٣٦٢ مايلي: «قلت وابو سـهل هـذا الفضل بن أبي سهل بن نوبخت صاحب دار الحكمة للرشيد».

وموسىٰ بن خالد، ويوسف بن خالد (كنا عند داود بن عبدالله بن حميد بن قحطبة) وعلي بن زياد التميمي، والحسن بن سهل، وجبلة بن سالم كاتب هاشم بن عبدالملك، واسحاق بن بزيد مترجم «اختيارنامه» ومحمد بن جهم البرمكي، وهشام بن القاسم وموسىٰ بن عيسىٰ الكردي، وزادويه بن شاهويه الاصفهاني، ومحمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني، وبهرام بن مردانشاه، وعمرو بن الفرخان [1] وسالم ـ أو سلم ـ متولي بيت الحكمة [2] وصالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج ومترجم الداواوين الفهلوية الىٰ العربة [3] وعبدالله بن علي مترجم بعض الكتب الهندية من الفارسية الىٰ العربية [4].

والآن لنتكم عن الفلاسفة في العهد الاسلامي من الايرانيين، فنقول:

إن اسهام الايرانيين في الفلسفة الاسلامية أكثر من أي فرع علمي آخر.

وهنا نرىٰ أن نذكر طبقات فلاسفة العهد الاسلامي من المصدر الأول حتىٰ اليوم، كما ذكرنا طبقات فقهاء الشيعة باختصار، ولم نر كتاباً في هذا الموضوع حتىٰ اليوم.

وهذا العمل وان كان ليس بالسهل اليسير، إلّا أني بالنظر الىٰ علاقتي بالفلسفة و شغفي للوقوف علىٰ مسيرة الفلسفة في الاسلام فقد قمت باعمال في هذاالموضوع، وان كنت أراها ناقصة لم تكمل بعد ولايتيسّر البحث في تاريخ الفلسفة في الاسلام، دون معرفة طبقات الفلاسفة من حيث الترتيب الزمي، ونذكر هنا طبقات الفلاسفة باختصار حسب المشيخة و التملذة، والمعاصرون لكل طبقة اما مساهمون في التعليم لمن بعده أو غير مساهمين، ولكنهم تلامذة لمن قلبهم أو معاصرون فقط.

ونعني بفلاسفة العهد الاسلامي: الفلاسفة الذين اشتغلوا بالفلسفة في جوّ اسلامي، وقد نجد أفراداً منهم ـ ولا سيما في العهود الأولىٰ ـ ليسوا مسلمين بل يهوداً ومسيحيين أو ملحدين ـ في نظر بعض العلماء علىٰ الأقل ـ وبعد ان نذكر جميع الطبقات من الصدر الأول حتىٰ يومنا هذا نستعرض بعض النتائج.

---

١ ـ الفهرست: ص ٣٤٢ ط مصر.

٢ ـ الفهرست: ص ١٧٤ ط مصر.

٣ ـ الفهرست: ص ٣٣٨ ط مصر.

٤ ـ الفهرست: ص ٤٢١ ط مصر.

الطبقة الأولىٰ:

تبدأ الفلسفه الاسلامية بأبي يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي المعروف بـفيلسون العرب، وهو عربي خالص، كان معاصرالله للمأمون والمعتصم بالله العباسي، ومن معاصريه من المترجمين الرسميين، الحسين بن اسحاق، وبعدالمسيح بن ناعمة الحمصي، وقد جاء في مقدمة كتاب «اثولوجيا» ما نصه: «ترجمة عبد المسيح وهذبه وأصلحه أبو يـوسف يعقوب الكندي» وقد شكك بعهم في ان يكون مترجماً مستقلاً، بينما يروىٰ عن تلميذه أبي معشر البلخي ان الكندي كان أحد المترجمين الأربعة الرسميين.

أجل كان عهد الكندي عهد الترجمة والتعريب، إلّا أن الكندي كان فـيلسوفاً قـديراً صاحب رأي: ينسب اليه زهاء مئتين وسبعين كتاباً ورسالة، وقد قام ابن النديم بفهرسة كتبه المختلفة في المنطق والفلسفة والنجوم والحساب والهندسة والطب وحتىٰ في اصول العقائد الدينية، وقد عُثر أخيراً علىٰ بعض مخطوطات الكندي وطبعت، وعرف من هذه الكتب أن الكندي أعظم مما كان في الحسبان، فهو من نوابغ التاريخ ومن نـجوم العـهد الاسلامي الأول، بل عدّه بعض الاوربيين واحداً من أنثي عشر رجلاً عقلياً عملاقاً، كان لهم اثر كبير في تاريخ العقل البشري[1].

كان الكندي رجلاً صنيع نفسه، ولم يقدم التاريخ في طبقته، أو فيالطبقة المـتقدمة عليه فيلسوفاً صاحب نظر ورأي مسلماً وغير مسلم غيره.[2]

كتبوا أنه درس في البصرة وفي بغداد، ونحن نعلم أنه لم يوجد فيلسوف آنذاك في أحد هذين البلدين، ولهذا فهو رأس سلسلة الفلاسفة في العهد الاسلامي من دون أن ينتمي الىٰ طبقة أو حلقة قبله.[3]

كتب الدكتور تقي زاده في كتابه[4] والپروفيسور كوربن أيضاً فيكتابه أن الكندي تنبأ

---

١ ـ انظر: هنري كوربن في (تاريخ فلسفهٔ اسلامي) ص: ١٩٩، والدكتور السيد حسين نصر، في: (سه حكيم مسلمان) ص ١٦، وكتب ص ١١٦ يقول: «عدّه كاردانوس في عداد أرخميدس وارسطوا واقليدس ».

٢ ـ تاريخ علوم در اسلام ـ فارسي.

٣ ـ تاريخ فلسفهٔ اسلامي ـ فارسي.

٤ ـ بالفارسيه (تاريخ فلسفهٔ اسلامي) ص: ١٩٩.

في رسالة له بأمد الامبراطورية العربية (الخلافة العباسية) مما طابق أو قرب مما حدث وتحقق، يقول كوربن:

«ان هذا الفيلسوف تنبأ في رسالة بامد الامبراطورية العربية عن طريق الحسابات الرياضية الفلكية التي كان قد اقتبسها من العلوم اليونانية منها النجوم، ومن تفاسير النصوص القرآنية... أنها تنتهي زهاء عام ٦٩٣»[١].

ولا يصح ما كتبه بعضهم يقول: «ان تعرف المسلمين علىٰ الفلسفة اليونانية بدأ بترجمة آثار حكماء اليومان والاسكندرية وتفاسيرهم وشروحهم، وبدراسات جماعة كالقويري ويوحنا بن حيلان، وأبي يحيىٰ المروزي (المرورودي السُرياني) وأبي بشر متى بن يونس وأبي زكريا يحيىٰ بن عدي»[٢] اذ أن تعرف المسلمين علىٰ الفلسفة اليونانية بل حتىٰ ظهور الفيلسوف صاحب الرأي والنظر بينهم كان قبل دور هؤلاء بكثير، بل ان الفلسفة الاسلامية بدأت من ظهور أبي يوسف يعقوب الكندي واستمرت عند تلامذته، وهؤلاء الذين ذكرهم هذا الكاتب ليسوا حتىٰ من معاصري الكندي، بل بعضهم (كابراهيم القويري و ابراهيم المروزي ويوحنا بن حيلان وابن كرنيب) من معاصري طبقة تلامذة الشيخ الكندي، وآخرون منهم انما هم في الطبقة الثالثة، بل الرابعة كما سنذكر ذلك فيما يأتي، وسنوضح هذا الموضوع أكثر وسنبيّن مدىٰ تأثير هؤلاء في تقدم الفلسفة في الاسلام.

الكندي كان فيلسوفاً قديراً، وفي الوقت نفسه مسلماً متصلباً طاهر العقيدة، بل مدافعاً عنها، وله كتب كثيرة في الدفاع عن الاسلام، وقد قال بعضهم انّه كان يتشيّع.

كان في المسألة التي يتعارض فيها رأي فلسفة ـ آنذاك ـ مع الاسلام، يأخذ جانب الاسلام، كما يظهر ذلك من رأيه الخاص بشأن مسألة الحدوث الزمني للعالم، ومسألة حشر الأجساد يوم المعاد، وكان يسعىٰ جاهداً للجمع والتوفيق بين الاصول الفلسفية والمعارف الاسلامية، بل بدأ هذا بالكندي واستمر حتىٰ اليوم والغريب ما زعمه بعضهم من أنّه كان يهودياً، لكون اسمه واسمه أبيه: يعقوب بن اسحاق، وكنيته: أبا يوسف! والأبعد

---

١ ـ بالفارسية (تاريخ علوم عقلي در اسلام) للدكتور: ذبيح الله صفا، ص ١٦١.

٢ ـ انظر كتاب «الكندي» للسيد محمّد بحر العلوم، وكتاب «فلاسفة الشيّعة» للشيخ عبدالله نعمة.

من ذلك ما في بعض الروايات المردودة الموضوعة من أنّه حاول الرّد علىٰ القرآن !.

وقد ظهر أخيراً بفضل البحث أن قيمة الكندي العلمية والفلسفية، هي أعظم بكثير مما كانت عليه في تصور الكثيرين عنه، وأنّه كان مسلماً معتقداً مدافعاً عن الاسلام بل أنه كان شيعياً، وأنه كان يُحسد علىٰ موقعه العلمي والاجتماعي المرموق، وان هذه التهم و النسب انما هي من آثار ذلك الحسد.

وقد قلنا آنفاً ان الكندي، كان الوحيد في طبقته، فلا نجد فيسلوف آخر معه مسلماً أو غير مسلم، توفىٰ الكندي عام ٢٥٨ تقريباً.

الطبقة الثانية:

تتشكل هذه الطبقة من فريقين مختلفين: فريق تلامذة الكندي، وفريق آخر لا يرتبط بمدرسة الكندي، أمّا الفريق الأول:

١ ـ أبو العباس أحمد بن الطيب السرخسي، أكبر تلامذة الكندي، ولد عام ٢١٨ وقتل عام ٢٨٦ علىٰ يد القاسم بن عبيدالله وزير المعتضد بالله العباسي، ويذكر ابن أبي اصيبعة أنه ألف أربعة وخمسين كتاباً ورسالة لاتوجد اليوم نسخة منها، منها كتاب «المسالك والممالك» في الجغرافيا، ولعله هو أول جغرافي في الاسلام، وله كتاب آخر في الفرق بين النحو والمنطق، وكتاب آخر في ارتباط اصول وأركان الفسلفة بعضها ببعض، وكتاب آخر في قوانين الجدل الدياليكتيكي.

كتب هنري كوربن الألماني عنه يقول: «انه أخترع الفباء ذات صوت اكملها حمزة الاصفهاني» ويقول ايضاً:«انه قدم معلومات قيمة في موضوع الاسامي التي اطلقوها في العربية علىٰ الرواقيين بحيث لو لم يكن ما كتب لبقي الرواقيون في التاريخ خلف ستار الابهام». ولم يحرم هذا الرجل من حظّ التكفير.

٢ ـ أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، كان أديباً وفيلسوفاً، ذكره ابن النديم ضمن الأدباء والكتاب، وذكر كتبه الفلسفية ضمن كتبه الأدبية [١] ويذكر عنه شيئاً ضمن ترجمة محمد

---

١ ـ الفهرست: ص ٢٠٤.

بن زكريا الرازي (ضمن الأطباء) وأنه درس الفلسفة عند البلخي، من دون توضيح آن البخلي هو أبو زيد البلخي نفسه، أو هو شخص آخر، ويقول انه شاهد كتباً كثيرة بخط ابن البلخي في علوم كثيرة، كلها كانت مسودات ناقصة لم تكمل بعد.[1]

وعُدّ البلخي ـ بالاضافة الىٰ مكانه في الفلسفة ـ من الدرجة الأولىٰ من الأدباء المسلمين، حتىٰ عدّه بعضهم في رتبة الجاحظ، بل فضّله عليه آخرون.

وقد عدّ ابن النديم له بالاضافة الىٰ سائر كتبه، كتباً بعناوين: شرائع الأديان، ونظم القرآن، وقوارع القرآن، وغريب القرآن، وفضائل مكة، مات عام ٣٢٢ هـ

ولم يأتِ في فهرست ابن النديم ولا في تاريخ الحكماء لابن القفطي ذكر عن تلمذة البلخي علىٰ الكندي، إلّا أن المتأخرين اتفقوا علىٰ هذا والظاهر أنهم استندوا جميعاً الىٰ ما ورد في «معجم الأدباء» لياقوت الحموي[2]، ولكن اذا كان تاريخ وفاة البلخي عام ٣٢٢، كان ذلك من البعيد جداً؛ اذ أن الكندي مات في حدود عام ٢٥٨، وبين هذين التاريخين أربعة و ستون سنة، الا أن نفترض أن البلخي عمّر أكثر من مئة عام، بينما يصرح «معجم الادباء» أنه عاش ٨٧ أو ٨٨ سنة فقط، فلو كانت وفاته سنة ٣٢٢، كان عمره يوم وفاة الكندي ١٣ أو ١٤ عاماً، وهَذا عمر لايناسب التملذة لدىٰ الكندي، ولعلّه كان تلميذه بالواسطة.

ومن المحتمل أن يكون البلخي شيعياً ايضاً، ورمىٰ بالكفر والالحاد أيضاً.

قيل: ان من تلاميذه ابا الحسن العامرط الفيلسوف المعروف، وسنذكره، ونحن نستبعد ذلك.

٣ ـ أبو معشر جعفر بن محمد البلخي، كان من اصحاب الحديث ويعادي الكندي وطريقته، فاحتال الكندي حتىٰ استدر عطفه علىٰ الفلسفة والفلاسفة والنجوم والرياضيات، بل جعله يميل الىٰ تعلمها واستراح من أذاه، بل ذكر ابن النديم أن أبا معشر دخل في حلقة تلامذة الكندي[3] عاش ابو معشر أكثر من مئة عام ومات سنة ٢٧٢، وهو

---

١ ـ الفهرست: ص ٢٣٠.

٢ ـ معجم الادباء: ج ١ ص ١٤٥ ط مصر ١٩٢٣ م.

٣ ـ الفهرست: ص ١٧٩.

مؤرخ ومنجم أكثر من أن يكون فيلسوفاً.

ويذكر ابن النديم اسماء حسنويه ونفطويه وسلمويه، وشخصاً آخر، وأنهم من تلامذة الكندي، وليس بأيدينا عن هذا غير ما ذكره ابن النديم، إلّا انا نعلم أن طبيباً بأسم سلمويه بن بنان كان معاصراً للكندي وكان الطبيب الخاص للمعتصم بالله العباسي، وقد تكلم عنه ابن النديم وابن أبي اصيبعة بالتفصيل، وهو نصراني سُرياني [1]، ولكن هل سلمويه هذا هوالذي عدّه ابن النديم من تلامذة الكندي، أو هو غيره؟ لانعلم ذلك.

ومن جملة تلامذة الكندي رجل يدعى « دبيس محمّد بن يزيد» ذكره ابن النديم بالاجمال [2] ورجلاً آخر باسم «زرنب» ويذكر ابن أبي اصيبعة ضمن رسائل الكندط «رسالة الىٰ زرنب تلميذه في أسرار النجوم».

وأما الفريق الثاني: أي لم يتتلمذ علىٰ الكندي، فهم:

أبو اسحاق ابراهيم القويري، يذكره ابن النديم في الفهرست بعد أبي العباس السرخسي ويقول في القويري: هو «ممن أخذ عنه المنطق، وكان مفسّراً» أي مفسراً لكلمات الفلاسفة القدماء، ويحتمل في كلمة «أخذ» أن تقرأ معلوماً أو مجهولاً أي مبنياً للمفعول، وعلىٰ احتمال قراءتها معلوماً أي مبنياً للفاعل يكون معناه أن القويري ممن أخذ المنطق عن الكندي، ولم نر من استفاد هذا من كلام ابن النديم.

ويذكر ابن أبي اصيبعة في عيون الأنباء ضمن ترجمة الفارابي قصة علىٰ لسان الفارابي عن كيفية ظهورالفلسفة في اليونان ثم في الاسكندرية، وجاء فيها اسم القويري، ويقول فيها:

«الىٰ أن كان الاسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية الىٰ انطاكية وبقىٰ بها زمناً طويلاً، الىٰ ان بقي معلم واحد، فتعلم منه رجلان وخرجا ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل خرّان والآخر من أهل مرو، فاما الذي من أهل مرو فتعلّم منه رجلان: احدهما ابراهيم المروزي والآخر يوحنّا بن حيلان، وتعلّم من الحرّاني اسرائيل

---

١ ـ الفهرست: ص ٤٢٦ وعيون الانباء: ج ٢ ص ١٠٥ ـ ١١٤.

٢ ـ الفهرست لابن النديم: ص ٥٢٠.

الاسقف و القويري، وسارا الىٰ بغداد، فانشغل اسرائيل بـالدين وانشـغل القـويري فـي التعليم.. وتعلم أبو بشر متى من ابراهيم المروزي»[1]

ويظهر من كلام الفارابي أن التعليم التعلم في المدارس العلمية المسيحية في انطاكية، كان محصور بحدود المنطق الىٰ آخر الاشكال الوجودية، وقال الفارابي عن نفسه أنه قد تعلم المنطق عند يوحنا بن حيلان، ويقول: حينما انتقل التعليم الىٰ المسلمين الغوا تحريم بقية المنطق الذي كانت تحرمه الكنيسة المسيحية.

ويقول المسعودي في كتابه «التنبيه والاشراف»:

وقد ذكرنا في كتاب (فنون المعارف، وما جـرىٰ فـي الدهـور السـوالف) الفـلسفة وحدودها.. ولأي سبب انتقل التعليم في أيام عمر بن عبدالعزيز مـن الاسكـندرية الىٰ انطاكية، ثم انتقاله الىٰ حران في ايام المتوكل، وانتهى ذلك في أيام المعتضد الىٰ القويري ويوحنا بن حيلان وكرنيب وأبي بشر متى بن يونس تلميذي ابراهيم المروزي.. ثم الىٰ أبي نصر الفارابي تلميذ يوحنا بن حيلان»[2].

وكان القويري شيخ أبي متّى، كما قال ابن النديم.

٢ ـ أبو يحيىٰ ابراهيم المروزي، المذكور آنفاً، هو أيضاً شيخ أبي بشر متّى، ويقول ابن النديم بشأنه: انه رجل فاضل إلّا أنه كتب ما كتب في المنطق بالسُريانية[3].

٣ ـ يوحنّا بن حيلان، هو الذي ذكرناه في ترجمة ابراهيم القريري، وقلنا أنه كان شيخ الفارابي في المنطق، ولايعرف متىٰ واين درس الفارابي المنطق علىٰ يوحنا هذا، فقيل ان الفارابي سافر اليه الىٰ حرّان بالشام[4] ويصرح ابن القفطي أن ذلك، كان في بغداد[5] بينما يظهر من كلام الفارابي المنقول في «عيون الانباء» أن يوحنا لم يأت الىٰ بغداد.

٤ ـ أبو العباس محمد بن محمد النيسابوري الايرانشهري، وليس بأيدينا مـعلومات

---

١ ـ عيون الانباء: ج ٣ ص ٢٢٥ ط بيروت دار الفكر.

٢ ـ التنبيه والاشراف ص: ١٠٤ ـ ١٠٦ ط مصر ١٣٥٧ ـ الصاوي.

٣ ـ الفهرست: ص ٣٨٢ وتاريخ الحكماء للقفطي: ص ٤٣٥.

٤ ـ وفيات الأعيان لان خلكان في ترجمته.

٥ ـ تاريخ الحكماء للقفطي: ص ٢٧٧.

صحيحة عنه. ذكره أبو ريحان البيروني في كتابه «الآثار الباقية» وناصر خسرو في كتابه «زاد المسافرين» وقيل: ان الافكار الفلسفية لمحمد بن زكريا الرازي المتعلقة بقدم المكان والهيولىٰ مأخوذة عنه، وقيل أنه كان يدعي النبوة للعجم [1] ويعترف هل هو من تلامذة واتباع الكندي أو من مجموعة القريري وان حيلان المروزي؟ أو هم مستقل عن كل هؤلاء أو هو مرتبط بغير هؤلاء؟.

والىٰ هنا عرف أنه الىٰ حدود أوائل القرن الرابع، كانت للفلسفة طريقتان، طريقة بدأت بالكندي، وكانت تشمتل علىٰ المنطق والفلسفة والطب والنجوم والموسيقىٰ وغيرها، والطريقة الاخرىٰ هي طريقة الحرّانيين التي لم تكن تتجاوز المنطق بدائياً.

الطبقة الثالثة:

وفي هذه الطبقة خمسة معروفون يذكرون:

١ ـ أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، الذي اشتهر بلّقب «جالينوس العرب» وأكثر تخصصه واشتهاره بالطب، بل أنه في فن الطب يحسب الأول في التاريخ، ويفضّله بعضهم حتىٰ علىٰ ابن سينا، ولد عام ٢٥١ ومات عام ٣١٣، وقد قلنا سابقاً ان ابن النديم عدّه من تلامذة البلخي والمحتمل المفضّل أن ابن البلخي هذا هو أبو زيد البلخي تلميذ الكندي، وعلىٰ هذا يكون الرازي تلميذ الكندي، ولنا قرائن أخرىٰ توید ان استاذ الرازي هو أبي زيد البلخي نفسه. [2]

ولد أبو زيد سنة ٢٤٣ أو ٢٤٤، فهو أكبر من تلميذه الرازي المولود سنة ٢٥١ بسبع أو ثماني سنين، وهذا ليس ببعيد، ولا سيما مع الالتفات الىٰ أن الرازي اشغل بالدراسة في سن عالية، وقد بقىٰ أبو زيد حيّاً بعد تلميذه الرازي تسع سنين، واستاذه الآخر هو ابو العباس الايرانشهري الذي ذكرناه سابقاً، وليست بأيدينا معلومات صحيحة عنه.

---

١ ـ الدكتور مهدي المحقق في مقدمة ترجمته للسيرة الفلسفية للرازي.

٢ ـ المصدر السابق: ص ٧.

كان للرازي أفكار فلسفية خاصة فلم يستسلم لفلسفه ارسطو، ففي تركيب الاجسام يقول بوجود «الأجزاء الذرّية» وله نظرة خاصة معروفة بشأن القدماء الخمسة تطرح في كتب الفلسفه للبحث، وقد ردّها الفارابي وابو الحسين الشهيد البلخي وعلي بن رضوان المصري وابن الهيثم البصري.

وقد جاء في فهرست كتب الرازي، كتاب في «النبوات» سماه بعضهم تهكّماً بنقض الأديان، وله كتاب آخر في «حيل المتنبئين» سمّاه بعضهم تهكماً بمخاريق الأنبياء، وهذه الكتب لا توجد اليوم، وقد أتىٰ المتكلمون الاسماعيليون كأبي حاتم الرازي وناصر خسرو في كتبهم بمواضيع تفيد أن الرازي كان منكراً للنبوات، وان كان أبو حاتم لم يصرح باسم الرازي، وانما عبّر عنه بكلمة «ملحد» ويقصد به الرازي.

وليست تلك الكتب الآن بايدينا حتىٰ ننظر فيما قيل من هذا القبيل، ولكن بالنظر الىٰ مجموعة من القرائن نستطيع أن نستنتج أن الرازي لم يكن منكراً للنبوة، بل كان يحارب المتنبئين، أن مباحثات الرازي مع أبي حاتم الاسماعيلي في بيت أحد أكابر الرّط بمحضر من أكابر البلد وعلىٰ رؤوس الاشهاد يستحيل أن تكون في انكار أو إبطال النبوة ثم يعيش محترماً مكرماً، وأما ما ادّعاه بعضهم من أن أبا ريحان البيروني نسب الىٰ الرازي هذين الكتابين: «نقض الأديان» و «مخاريق الأنبياء» [1] ... فهو غير صحيح قطعاً، بل ان أبا ريحان يذكرهما هكذا: « في النبوات » والاخرىٰ « حيل المتنبئين» ثم هو يأتي مع اسم كل واحد من هذين بكلمة «يُدعى» التي تفيد أن هذا الاسم أطلقه عليه غير المؤلف، وابن أبي اصيبعة ينكر نسبه هكذا كتاب الىٰ الرازي، ويحتمل أن يكون بعض الاشرار قد صنع كتاب «مخاريق الانبياء» و نسبه الىٰ الرازي بدافع من العداء، بل يصرّح أن هذا الاسم اطلقه عليه علي بن رضوان المصرط، وكان يعادي الرازي! ويظهر من كلام ابن أبي اصيبعة ان أن كتاب «المخاريق» غير كتاب «النبوات» و «حيل المتنبئين»، وأن لاغموض في شأن هذين الكتابين.

أضف الىٰ ذلك أن الرازي كان شديد التمسك بعقيدة التوحيد والمعاد وبقاء الروح

---

١ ـ الدكتور المحقق في مقدمة ترجمة السيرة الفلسفية: ص ٥٦.

واصالتها في الانسان، وله كتاب «في أن للانسان خالقاً متقناً حكيماً»[1] وآخر «في الردّ علىٰ سيسن الثنوي»[2] أي الردّ علىٰ المانوية، وكتاب «الىٰ علي بن شهيد البلخي في تثبيت المعاد»[3] ويحكي ابن أبي اصيبعة أنه في هذا الكتاب يرد علىٰ منكري المعاد، وكتاب «في أن النفس ليس بجسم»[4] وكيف يمكن ان يقبل ويعتقد شخص باصول المبدأ والمعاد و الروح والنفس، ثم هو ينكر النبواة والشرائع؟!.

أضف الىٰ ذلك أن له كتاباً «في آثار الامام الفاضل المعصوم»[5] والاحتمال القوي هو أن يكون الكتاب في الامامة علىٰ طريقة الشيعة الامامية،وكتاباً باسم «النقض علىٰ الكيّال في الامامة»[6] وكتاباً بعنوان «كتاب الامام والمأموم المحقين»[7] وكل هذه الكتب تحكي ان فكرة الامامة كانت قد شغلت باله، وبديهي ان منكر النبوات لا تكون له حسّاسية في الامامة.

ولا يبعد أن يكون الرازي كان يفكر تفكير الشيعة في الامامة كما قال بعضهم[8]، و كل من كان يفكر بهذه الفكرة من المفكرين كان يرمىٰ من قبل اعداء الشيعة بالكفر و الزندقة.

ثم أن الاستدلال الذي ينسب الىٰالرازي في انكار النبوة من الضعف بدرجة ان يبعد جدّاً أن يكون ذلك من مفكر كالرازي، من قبيل: أن لو كان علىٰ الناس أن يهتدوا فلماذا لم يكونوا كلّهم أنبياء؟!.

والذي يمكن أن يقال هنا هو أن للرازي أخطاء وانحرافات، لاتصل قطعاً الىٰ حدّ انكارالشرائع والنبوات، وانما نقل كلماته في ذلك اعداؤه بالمعنىٰ، فصاغوها بصيغه التردد أو الانكار، وقد رأينا في عصرنا هذا، كتباً لاتخلوا من الاخطاء والانحرافات إلّا أن

---

١ ـ عيون الأنباء: ج ٢ ص ٣٥٢.
٢ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٥٢.
٣ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٥٩.
٤ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٥٨.
٥ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٥٩.
٦ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٥٨.
٧ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٥٩.
٨ ـ فلاسفة الشيعة، لعبدالله نعمة.

مخالفيها حملوها علىٰ وجوه لو لم ير القارىء تلك الكتب، لما كان صدّق أن تكون هذه المقالات النقدية أو الرسائل تردّ علىٰ ذلك الكتاب مثلاً، من حيث البعد بين الأصل والرّد.

وكان للرازي نوعان من المخالفين: مخالفون ردّوا علىٰ بعض آرائه الفلسفية كالفارابي والشهيد البلخي وابن الهيثم وآخرين، ومخالفون ردّوا علىٰ بعض أفكاره الدينية، وهؤلاء هم الذين وصفه بالالحاد وأثروا في تصور غيرهم عنه، وهم الاسماعيلية الذين رماهم التاريخ بلّقب «الملاحدة» وملاحدة عصرنا يـويّدون أولئك المـلاحدة الاسـماعيليين القدماء فينسبة الالحاد الىٰ الرازي لالكي يسقوه عن الاعتبار، بل لكي يرفعوا من شأن أنفسهم ويقولوا بأنهم لو لحدوا فقد وافقهم في ذلك بعض فلاسفه المسلمين.

وهنا شيء ينبغي تأكيده وهو أن الرازي مع تخصصه ونبوغة في الطب كان ضـعيفاً فيافكاره الفلسفية، وهنا نعطي الحق لابن سينا أن يقول بشأن الرازي في معرض جوابه عن اسئلة أبي ريحان البيروني:«المتكلف الفضول، المتكلم بما لايعنيه».

٢ ـ أبو الحسين شهيد بن الحسين البلخي،كان حكيماً شاعراً بالعربية والفارسية، بل هو من أقدم الشعراء الفرس، وكأن ابن النديم لم يكن يعرف شهيداً البـلخي اذ يـذكره بعنوان «رجل يعرف بشهيد بن الحسين البلخي ويكنىٰ أبا الحسن»[1] ثم يأتي بعبارة تفيد ظاهرها أن يكون شهيد تلميذ أبي زيد البلخ،وان لم نر من استطهر هذا المعنىٰ من كلام ابن النديم، ويقول ابن النديم ان لشهيد كتباً وله مع الرازي مناظرات.

ويردّ شهيد نظرية الرازي في مسألة «اللذّة» التي تعرض في كتب الفلسفة كالاسفار وغيرها، وكذلك نظريته المعروفة في القدماء الخمسة، مات شهيد عام ٣٢٥ هـ

٣ ـ أبو أحمد حسين بن أبي الحسين اسحاق بن ابراهيم بن زيد الكاتب المـعروف «بابن كزنيب» كان من أفاضل المتكلمين المسلمين ومن الحكماء الطبيعيين (بمعنىٰ العلم بحكمة الطبيعة، لاالقول باصالة الطبيعة» علىٰ خلاف أخيه أبي الحسين ابن كرنيب وابن أخيه أبي العلاء ابن أبي الحسين، اذ كانا من اصحاب الريـاضيات لا الطـبيعيات، وقـد ذكرهما ابن النديم في عداد الرياضيين أيضاً، كان أبو أحمد بن كرنيب متكلماً و فيلسوفاً

---

١ ـ الفهرست: ص ٤٣٠.

وطبيباً، وكان يدرّس الكلام والفلسفة، وله تلامذة في ذلك ويعدّ في كليهما من البارزين، كما جاء ذلك في كتاب «نامهٔ دانشوران» ويقول ابن النديم: «كان في منتهىٰ الفضل والمعرفة بالعلوم الطبيعة القديمة»[1] وعنه أخذ هذا المعنىٰ واللفظ ابن القفطي في «تاريخ الحكماء» وابن أبي صيبعة في «عيون الانباء» ورأينا ان المسعودي عدّه في طبقة أبي بشر متّى وبعد القويري المروزي،ولا يبعد أن يكون قد درس عندهم، وان كان يقال ان أبا بشر متّى قد درس عند ابن كرنيب، ولا يعلم تاريخ ولادته ووفاته ولا اساتذته ومشايخه وتلاميذه بالضبط، ويحتمل أن يكون من الطبقة الثانية.

والكتاب الذي ينسب اليه، كتاب في ردّ ثابت بن أبي قرة في مسألة فلسفيه معروفة هي: «لزوم أوعدم لزوم تخلّل سكون بين حركتين متضادتين» وهي تعرض حتىٰ الآن في كتب الفلسفة، وقد جاء في «تاريخ الحكماء» لابن القفطي و«عيون الانباء» لابن أبي أصيبعة وتبعهما «نامهٔ دانشوران»: «حركتين متساويتين» وهو غلط البتة، والصحيح هو ما جاء في «الفهرست»: «حركتين متضادتين».

٤ ـ أبو بشر متّى بن يونس (يونان) النصراني البغدادي المنطقي، يقول ابن النديم في الفهرست: هو يوناني من أهل «ديرقني»، وقد جاء في «نامهٔ دانشوران» أن «ديرقني»هي «ديرمرماري» ويطلق عليه أيضاً «اسكول مرمامري» أو «مدرسة مرماري» وهي قرب بغداد، ويقول ابن النديم: ان زعامة المنطقيين انتهت في عصره اليه،ويقول: ان أبا بشر درس عند ابراهيم القويري وابي أحمد بن كرنيب وآخرين هما (روفيل) و (بنيامين)، وقد ذكرنا قبل هذاأن أبابشر كان قد درس عند يحيىٰ المروزي أيضاً، ويقول ابن أبي اصيبعة، ضمن ترجمة الفارابي: «درس أبو بشر متّى الايساغوجي (المنطق) عند نصراني (هو بنيامين السابق كما فيالفهرست) والقاطيغورياس (المقولات) عند وربيل والقياس عند ابي يحيىٰ المروزي».

وكان أبو بشر مترجماً وفيلسوفاً، والواقع أنه كان منطقياً لا فيلسوفاً حسب المصطلح اليوم، ولكن كانت كتبه في المنطق وشروحه علىٰ الكتب المنطقية لارسطو

---

١ ـ الفهرست: ص ٣٨١.

مدار التدريس و التعليم.[1]

كان حياً حتىٰ أعوام ٣٢٠ ـ ٣٣٠ كما عن ابن القفطي، وكتب ابن أبي اصيبعة انه مات عام ٣٢٨، فما في «نامهٔ دانشوران» من أنه مات عام ٣٠٨ خطأ من الناسخ.

٥ ـ أبو نصر محمد بن محمد بن محمد بن طرخان الفاراي، هو غني عن التعريف، وبحق هو «المعلم الثاني» و «فيلسوف المسلمين من غير مدافع»[2] كان من المنطقة التركية، ولا يعلم هل هو تركي ايراني أو ايراني تركي؟ كان يتلكم باللّغتين،ولكنه عاش دائماً بالزيّ التركي، كان رجلاً قنوعاً متحرّراً، وكان يعيش غالباً علىٰ ضفاف الأنهار والجداول والحدائق والبساتين، وكان تلاميذه يصلون اليه ويدرسون عنده هناك، أكمل نقائص أفكار الكندي في المنطق، ويقال أنه هو الذي أضاف كثيراً الىٰ فن التحليل والأنحاء التحليلية والتعليمية المنطقية التي لم تترجم الىٰ ذلك اليوم، ووالذي عيّن الصناعات الخمس وموارد الافادة من كل صنعة منها، انه من الرجال الذين ادّت عظمتهم الىٰ صنع شخصية خيالية، حتىٰ ادّعىٰ له انه كان يعرف سبعين لغة! وهو لم يرا استاذاً قديراً يذكر، نعم كان استاذه يوحنّا بن حيلان، فعنده درس المنطق، كتب المتأخرون عموماً يقولون: انه بدأ الدرس في بغداد عند أبي بشر متّى ثم رحل الىٰ حرّان فدرس عند يوحنّا بن حيلان المنطق.[3]

والظاهر أن مصدر هذا هو كلام بن خلكان، فهو الذي صرّح بها دون أن يذكر مصدراً لذلك، ويعلم من كلام ابن القفطي وابن أبي اصيبعة أن الفارابي كان معاصراً لأبي بشر بل كانت شخصيته اكبر من ابي بشر، يقول ابن القفطي: «وكان أبو نصر معاصراً لأبي بشر متّى بن يونس إلّا انه كان دونه في السن وفوقه في العلم» وكلام ابن أبي اصيبعة أيضاً قريب من هذا، أضف الىٰ ذلك ان من المستبعد ان يكون الفارابي بعد ادراكه درس أبي بشر متّى في بغداد والاستفادة منه قد ذهب الىٰ حرّان ليدرس عند يوحنا بن حيلان المنطق، وأما

---

١ ـ راجع الفهرست: ص ٣٨٢، والتنبيه والاشراف: ص ١٠٥، وتاريخ الحكماء: ص ٣٢٣، وعيون الانباء: ج ٢ ص ٢٢٧.

٢ ـ تاريخ الحكماء لابن القفطي: ص ٢٧٧.

٣ ـ «تاريخ علوم عقلي در اسلام» ص ١٨٢ و (سه حكيم مسلمان» ص ١٩.

الفارابي نفسه، فقد ذكر يوحنا بن حيلان باعتباره معلماً ويدعى ابن القفطي ان الفارابي درس عند يوحنا في بغداد.

ولد الفارابي عام ٢٥٧، اي بعد ست سنين بعد ميلاد الرازي وقبل عام من وفاه الكندي، ومات الفارابي عام ٣٢٩ وعاش اثنين وثمانين عاماً.

كان الفارابي من المشائين، إلّا انه لم يخل في الوقت نفسه عن ذوق في الاشراق، كما يحكي عن ذوقه الاشراقي هذا كتابه «فصوص الحكم» وكان رياضياً موسيقاراً، وله آراء ونظريات سياسية خاصة بشأن «المدينة الفاضلة» لافلاطون، ولقد أنسىٰ من قبله من الفلاسفة، وتلا في الشهرة ارسطو ولّقب بالمعلم الثاني.

الطبقة الرابعة:

ولانعرف من هذه الطبقة أفراداً كثيرين، إلّا أنا نستفيد من المنقولات أن الفارابي وابا بشر وابن كرنيب كان لهم تلامذة لاريب، إلّا أنا لم نقف علىٰ معلومات صحيحة عنهم. ومن هؤلاء:

١ ـ يحيىٰ بن عدي المنطقي النصراني، كان معاصراً لابن النديم، وكان هذا الأخير معجباً بكثرة اشتغاله بالعلوم، وقد كتب كل من ابن النديم وابن القفطي وابن ابي اصيبعة بالاتفاق أن يحيىٰ كان من تلامذة الفارابي وأبي بشر متّى، وقد ذكر ابن القفطي وغيره كتباً كثيرة له، أكثرها في المنطق وفيها مسائل من الفلسفة الأولىٰ، مما لم يكن يشاهد قبل الفارابي، ولاسيما بين المسيحيين، وقد كتب ابن النديم وتبعاً له ابن القفطي وابن أبي اصيبعة: أن رئاسة المنطقيين في عهده انتهت اليه، مات سنة ٣٦٣أو ٣٦٤، وله ٨١ عاماً.

٢ ـ اخوان الصفا وخلّان الوفا، وهم جمعية سرية حالوا إخفاءها وعدم الاعلان عنها ولكنهم اثبتوا أنهم فلاسفة متدينون ملتزمون، وكان هدفهم الجميع بين الدين والفلسفة في سبيل اصلاح المجتمع، وقد شكلوا لذلك جمعية سرية كالحزب، كان لها شرائط وآداب خاصة يلتزم بها اعضاؤها، وقد صنّفوا اثنتين وخمسين رسالة ضمنّوا فيها آيديولوجيتهم و نظرتهم الىٰ الحياة والكون، وهي أثر اسلامي خالد، ينبغي أن يعد بحق دائرة لمعارف

عصرهم في مصرهم بغداد، ولاريب أنهم كانوا متأثرين بمن قبلهم، ولاسيما الفارابي ولاشك أنهم أثروّا فيمن بعدهم، وهذا مما يحتاج الىٰ بحث طويل خارج عن حدود بحثنا هنا.

والظاهر لنا من أسمائهم، هو ما كشف عنها معاصرهم أبو حيان التوحيدي وهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني وأبو أحمد المهرجاني العوفي وزيد بن رفاعة.

وقد زاد بعضهم أسماء أفراد آخرين من قبيل: ابن مسكويه الرازي المتوفى ٤٢١ هـ وعيسىٰ بن زرعة المتوفى ٣٩٨ المترجم، الفيلسوف، وابو الوفاء البوزجاني الرياضي النابغة المعروف المتوفى ٣٨٧.. وبعض هؤلاء من أوائل القرن الخامس، بينما انشكف أمر اخوان الصفا في النصف الثاني من القرن الرابع بنشر رسائلهم، حيث ان أبا حيان التوحيدي عرض عىٰ وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة البهويهي عام ٣٧٣ عقائد وسيرة الاخوان، وقال له: انه عرض هذه الرسائل علىٰ استاذه أبي سليمان المنطقي السجستاني و أبدىٰ رأيه بشأنهم، وعلىٰ هذا يجب ان تكون هذه الرسائل قد نشرت في حدود النصف الثاني من القرن الرابع.. وعلىٰ هذا يجب ان نعدّهم من الطبقة الرابعة أي من طبقة تلامذة الفارابي، وان لم يكن بأيدنا تاريخهم.

إنّ اخوان الصفا الذين جمعوا بين العقل والدين والفلسفة والشريعة وأروا كلاً منهما مكمّلاً للآخر، كانوا في سيرتهم في الفلسفة يميلون الىٰ الطريقة الفيثاغورية، لانهم كانوايستندون كثيراً الىٰ الاعداد، وفي الدين يميلون الىٰ علي عليه السلام وشيّعته.

الطبقة الخامسة:

١ ـ أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، المعروف بأبي سليمان المنطقي، كان تلميذ يحيىٰ بن عدي المنطقي، وعلىٰ نقل ابن القفطي، كان يدرس عند أبي بشر أيضاً، والظاهر أن بدء دراسته كانت عند أبي أبي بشر ثم استمر في الدراسة عند يحيىٰ بن عدي.

ولأبي سليمان تلميذ يدعىٰ أبا حيان التوحيدي كان من الفضلاء والأدباء و الكتاب المعروفين في الاسلام، وله كتب نفيسة، منها: الامتع والمؤانسة، والصديق و الصداقة، وقد ذكر استاذه أبا سليمان فط كتبه كثيراً، ونقل كثيراً من افاداته.

وذكر ابا سليمان، كل من ابن النديم وابن القفطي وابن أبي اصيبعة مختصراً وكان ابن القفطي أكثر تفصيلاً منها، وأجمع بحث حول أبي سليمان هو بحث المرحوم محمد القزويني في الجزء الثاني من «بسيت مقالة»[1].

وكأن بيت أبي سليمان مجمع الحكماء والفضلاء وكان هو رئيسهم، وكان تطرح في مجالسه ـ التي هي في الواقع ندوات فلسفية ـ مسائل الفلسفة والعلوم، يستفيد منها الحاضرون والمشتركون، وبتعبير أبي سليمان: كان يقتبس بعضهم من بعض أو يتقابسون، وقد جمعها أبو حيان في ١٠٦ مجالس سمّاها «المقابسات».

ولا يعلم تاريخ ولادته ووفاته بشكل دقيق، إلّا أن من المسّلم أنه كان في النصف الثاني من القرن الرابع، شخصيته ممتازة معروفة، ويحدس المرحوم القزويني ان تكون **ولادته فيحدود عام٣٠٧ووفاته في حدود عام ٣٨٠،ويحتمل أن يكون قد عاش الىٰ ٣٩٠هـ**

والحكماء والفضلاء الذين كانوا يشتركو في محفل أبي سليمان، كانوا غالباً من تلامذة يحيىٰ بن عدي وتلامذته هو، من قبيل أبي محمد العروضي، أبي بكر القومسي، وعيسىٰ بن زرعة.

٢ ـ أبو الحسن العامري النيسابوري ليست لدينا معلومات عن هذا أيضاً، ولم يذكره ابن النديم وابن القفطي وابن أبي اصيبعة، وانما ذكره ياقوت في معجم الأدباء.

وقال بعض الكتاب «للعامري كتابان أحدهما في الاخلاق باسم «السعادة والاسعاد» والآخر في الفلسفة باسم «الأمد الىٰ الأبد» وله كتاب آخر في الدفاع عن الاسلام وتفوقه علىٰ ساير الأديان باسم «الاعلام بمناقب الاسلام» وكما كان يميل الىٰ الفلسفة اليونانية كان يميل الىٰ الفلسفة السياسية الساسانية، و هو من تلاميذ أبي زيد البلخي»[2].

---

١ ـ بالفارسية: بست مقالة: ص ١٢٨ ـ ١٦٦.

٢ ـ بالفارسية: سه حكيم مسلمان.

وادّعىٰ بعضهم ان هناك رسائل تبودلت بن العامري وابن سينا، ولكن نحن لانحتمل ذلك، لان ابن سينا كان عمره حين وفاة العامري أحد عشر عاماً.

قيل: ان العامري كان تلميذ أبي زيد البلخي، وهذاأيضاً من المستبعد، فبعيد أن يكون العامري تلميذ البلخي بلا واسطة، لان البلخي مات عام ٣٢٢ ومات العامري عام ٣٨١ وعلىٰ هذا تكون الفاصلة بين الاستاذ والتلميذ ٥٩ عاماً.

٣ ـ أبو الخير حسن بن سوار، المعروف بابن الخمّار، حكيم طبيب مترجم من السريانية الىٰ العربية، إلّا أنه طبيب أكثر من كونه فليسوفاً أو مترجماً، كان تلميذ يحيىٰ بن عدي المنطقي المذكور سابقاً، وقد ربّى تلامذة كثيرين، وكان نصرانياً أسلم في أواخر عمره، كما في كتاب «نامهٔ دانشوران».

عدّه معاصره ابن النديم من الأذكياء الفطنين جداً، ويذكر صاحب كتاب «نامهٔ دانشوران» أنه عمّر طويلاً، ولكنه لم يصرح بتاريخ وفاته، ويذكر المرحوم محمد القزويني في كتابه «بيست مقالة» في المقالة بشأن «صوان الحكمة ـ ج ٢ ص ١٤١» أن وفاة أبي الخير كانت في سنة ٤٠٨ هـ

قيل: أن أبا علي سينا الذي لم يكن يعتد بمعاصرته كان يذكر أبا الخير بالخير، وأنه قال فيه: «لاينبغي ان يعد أبو الخير في عداد الآخرين، رزقنا الله لقاءه»[١].

٤ ـ أبو عبدالله الناتلي درس لديه ابن سينا في بادىء امره قسماً من المنطق والرياضيات، وقد اشتهر من هذا الطريق وإلّا فلا شخصية له مستقلة، وكان الناتلي طبيباً أيضاً، فقد عدّه ابن أبي اصيبعة في ترجمة أحوال أبي الفرج بن الطيب، فيعداد الأطباء المعاصرين لأبي الفرج، وقد ادّعىٰ بعضهم ان الناتلي كان تلميذ أبي الفرج بنالطيب، مستنداً الىٰ ابن أبي اصيبعة[٢] وهذا خطأ، فان ابن أبي اصيبعة ذكر الناتلي في عداد معاصري أبي الفرج لا تلميذه، بل ان ابن أبي اصيبعة بعد أبا الفرج من معاصري ابن سينا الذي هو بدوره تلميذ الناتلي، فكيف بالناتلي يكون تلميذ أبي الفرج؟.

---

١ ـ بالفارسية: نامهٔ دانشوران: ج ١ ص ٨٤.

٢ ـ بالفارسية: تاريخ علوم علقي در تمدن اسلامي: ص ٢٠٤.

الطبقة السادسة:

وهذه الطبقة يجب ان نلقبّها بطبقة النوابغ، فليست أية طبقة من طبقات الفلاسفة فيها أكبر وأكثر من هذه الطبقة السادسة.

١ ـ أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه الرازي، أصله من أهل الرّي، وعاش مدة مع أبي ريحان البيروني وابن سينا وأبي الخير وأبي سهل المسيحي وأبي نصر العراقي في بلاط خوارزمشاه، مات في اصفهان عام ٤٢٠ ولا يعرف تاريخ ولادته، ويقال انه عمّر طويلاً.[١]

ونقل عن أبي حيان التوحيدي أن ابن مسكويه تتلمذ مدة لدىٰ أبي الخير[٢] وقال بعضهم ان ابن مسكويه درس عند العامري أيضاً[٣] وهذا ينافي ما جاء في «معجم الأدباء» أن أبا الحسن العامري اقام في الري خمسين عاماً وكأن بينه وبين ابن مسكويه سداً، فلم يذهب اليه.[٤]

ومن القصص المعروفة عن ابن مسكويه: ان ابن سينا حضر مجلس ابن مسكويه و طرح اليه جوزة وقال: عيّن مساحه هذه الجوزة، فوضع ابن مسكويه كتابه في الاخلاق «طهارة الاعراق» بين يدي ابن سينا وقال: أنت الىٰ اصلاح أخلاقك أحوج مني الىٰ تعيين مساحة هذه الجوزة!.

وكان أبو علي ابن سينا لا يعظّم أحداً من معاصريه إلّا قليلاً ولا يعتد بهم، وقال في ابن مسكويه: طرحت عليه مسألة، وكلما حاولت ان أعلّمه بها لم يفهم.

وكان ابن مسكويه هو أو أبوه مجوسياً زرداشتياً أسلم، بل قال بعضهم أنه تشيّع، والمسلّم به أنه كان ذا ميول شيعية، ومن أشهر كتبه «تجارب الأُمم» في التايخ، «الفوز الأصغر» في الفلسفة، و«طهارة الاعراق» في الاخلاق.

---

١ ـ بالفارسية: نامهٔ دانشوران: ج ١ ص ٨٣.

٢ ـ بالفارسية: بيست مقالة: للقزويني: ج ٢ ص ١٤٥.

٣ ـ بالفارسية: سه حكيم مسلمان: ص ٢٧.

٤ ـ بالفارسية: فلاسفة ايراني: ص ١٨٢.

٢ ـ أبو ريحان محمد بن أحمد البيروي الخوارزمي، كان من شخصيات الدرجة الأولىٰ في الثقافة الاسلامية، بل قال بعض المستشرقين في حقه أن لانظير له في الاسلام، كما متخصصاً في الرياضيات والنجوم والهيئة والادوية والتاريخ والأديان، ألّف وصنّف عدداً من الكتب النفيسة، اعجب بها العالم والىٰ اليوم، من قيل: تحقيق ما للنهند من مقولة، الآثار الباقية، القانون المسعودي، وغيرها، ولد عام ٣٦٢ ومات في سنة ٤٤٢، كان يتكلم بالخوارزمية (وهي لغتة الأُم) والفارسية والعربية واليونانية والسُريانية، ولكنه كان يكتب بالعربية ويراها أصلح اللّغات للعلوم، وكان مؤلفاً بالعربية، حتىٰ أنه كان يقول: الشتم بالعربية أحب اليّ من الثناء بغيرها من اللّغات.

ولم تعرف له مشيخة سوىٰ شخص واحد باسم أبي نصر بن علي بن عراق، والظاهر انه هوأبو نصر العراقي الذي كان ببلاط خوارزمشاه السلجوقي، وكذلك لم يعرف له تلامذة أيضاً.

عمّر وعاش طويلاً (ما يقارب الثمانين عاماً) واوقف عمره للعلم لا لغيره، وكان يقف عن طلب العلم والاشتغال به في العام يومين فحسب.

والتقىٰ أبو ريحان ابن سينا في خوارزم في حدود عام ٤٠٠ هـ وكان أبو يحان أكبر من ابن سينا بعدّة سنين، وسأل ابن سينا واخشن له في الكلام [١] ولكن يقول الباحثون إن هذه الاسئلة طرحها البيروني بعد رجوع ابن سينا من خوارزم، ويشير أبو ريحان البيروني في كتاب «الآثار الباقية» الىٰ أسئلة ابن سينا يقول «.. الفتى الفاضل».

كان البيروني قوي الاعتقاد بالاصول الاسلامية، يذكر عن الاسلام في كتاباته كلها كأي مؤمن صادق،ويذكر الآيات القرآنية بالمناسبة،وكان مخالفاً للشعوبية وأفكارهم وقد ابدىٰ استنكاره لهم في بعض كتبه [٢] ويحتمل قوياً أن يكون شيعياً في مذهبه.

٣ ـ أبو علي الحسين بن عبدالله بن سينا، اعجوبة الدهر ونادرة العصر، نحتاج في

---

١ ـ حققت القسم الفلسفي من هذه الأسئلة الىٰ سائر الأسئلة التي يحتمل كونها من البيروني وطبعت ونشرت باسم (بررسيهائى در بارهٔ أبو ريحان بيروني) في منشورات كلية الإلهيات ـ المؤلف.

٢ ـ راجع: (بررسيهائى در بارهٔ أبو ريحان بيروني) للمؤلف، و(نظرمتفكران اسلامي در بارهٔ طبيعت) للدكتور السيد حسين نصر.

التعرف عليه والتعريف به الىٰ كتاب ضخم، أملىٰ بعض أخبار حياته الىٰ الخامسة والثلاثين من عمره علىٰ بعض تلاميذه بطلبه في گرگان، وأكمل هذه الامالي تلميذه الشهير أبوعبيد الجوزجاني الىٰ آخر حياته، وباستطاعتنا أن نقف علىٰ حياته العادية والعلمية والسياسية من هذه الامالي، كانت حياته مضطربة مليئة بالحوادث، ولم تطل كثيراً، ومع ذلك فانه خلّف آثاراً علمية عجيبة، وهذا أمر عجيب.

ومن العجيب أيضاً أن ابن أبي اصيبعة وابن القفطي قد نقلا نص هذا التقرير عن حياة الشيخ الرئيس ولم يختلفا في ذلك، ولكنهما اختلفا في آخر جملة تتعلق بطول عمره حيث كان عمره علىٰ نقل ابن أبي اصيبعة ٥٤ عاماً وعلىٰ نقل ابن القفطي ٥٨ عاماً، وأحتمل صحاب كتاب «نامهٔ دانشوران» أن يكون عمر الشيخ قد بلغ الىٰ ٦٣ عاماً، حسب بعض القرائن.

والنقطة التي ينبغي الالتفات اليها، هي أن شخصية ابن سينا غطّت علىٰ سائر حكماء الاسلام من قبله، وجعلتهم تحت شعاعها، وأصبحت كتبه مدار بحث وتحقيق وشرح وكتابه التعليقات والحواشي، سواء في الطب اوالفلسفة.

والنقطة الأخرىٰ: هي أن بغداد كانت قبل ابن سينا مركز الطب والفلسفة، ولم يذهب ابن سينا الىٰ بغداد، بل كان أبوه من بلخ وأمه من بخارىٰ، وقضىٰ النصف الأول من عمره في تلك المناطق، ثم توجه بأسباب الىٰ خراسان وجرجان، وتوقف في بعض المدن حتىٰ انتهىٰ به المطاف في اصفهان وهمدان، والأكثر في همدان، فكان شهرته العلمية يجتذب اليه طلّاب العلم والحكمة من كل حدب وصوب، ولقد ربّى تلامذة كثرين، ان شخصية ان سينا في حياته وذيوع كتبه بعده ـ وقد اصبحت محور الابحاث بين اهل الفضل ـ ووجود العدد الأكثر من المتخصصين في دراسة تلك الكتب في ايران، سبب في انتقال مركز ثقل الفلسفة والطب من بغداد الىٰ ايران.

٤ ـ أبوالفرج الطيّب البغدادي (ظاهراً) الطبيب الفيلسوف، إلّا أنه في الطب أقوىٰ واشهر منه في الفلسفة، بحيث يثني علىٰ طبه معاصره ابن سينا، وهو لا يعتد به في الحكمة والفلسفة[1]

---

١ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٢٣٥.

بل ان ابن سينا لم يكن يعتد بأحد من معاصريه في الفلسفة بصورة عامة ومطلقة، وقد جاء في «تتمة صوان الحكمة» أن ابن سينا كان يقول بشأ كتب أبي الفرج الفلسفية: «ينبغي أن ترد تصانيفه علىٰ البائع ويرد ثمنها أيضاً»[1] وكتب يقول: (حينما أدّى البحث بين ابن سينا وأبي ريحان البروني الىٰ خشونة في الكلام والمكاتبات، وبلغ ذلك الىٰ أبي الفرج قال: «كما تدين تدان» وأا ابن القفطي، فانه بعد ان ينقل كلام ابن سينا في أبـي الفـرج البغدادي يقول: «أما أنا وكل منصف فلا نقول إلّا أن أبا الفرج أحيا علوم السابقين وأظهر ماخفي منها».

كان أبو الفرج مسيحياً ومن تلاميذ أبي الخير، وقد استفاد من دروسه جماعة.

يقول ابن القفطي: كان حياً الىٰ عام ٤٢٠ وقيل انه توفي في سنة ٤٣٥ هـ

٥ ـ أبوالفرج ان هندو، كان في الطب والحكمة تلميذاً لأبي الخير، بل من أفضل و أكبر تلامذته، وكان أديباً شاعراً متكلماً.

٦ ـ أبو علي الحسن بن الحسن (أوالحسين) بن الهيثم البصري، الفيلسوف والطبيب و الفيزيائي والرياضي، له شهرة عالمية في الفيزياء والرياضيات، كان له أثـر فـي تـقدم الرياضيات في العالم، ولد عام ٣٥٤ ومات عام ٤٣٠[2] وجاء في «تتمة صوان الحكمة»: « أنه صنع هندسة للاستفادة من ماء النيل حين هبوط الماء فيه، وذهب بذلك الىٰ الحاكم بالله الفاطمي فلم يقع منه موقع القبول، بل غضب عليه، ففر منه الىٰ دمشق» وجاء فـيه ايضاً «كان متشرع عباداً يعظم الشريعة» ثم يذكر اقباله علىٰ الله وتوجهه اليه حين موته، قد قضىٰ شطراً من عمره في المغرب[3].

ويقول المرحوم السيد حسن تقي زادة في كتابه: «له مؤلفات كثيرة كأنه اشتغل بها طول عمره، ويقول سارتون: ان ابن الهيثم أكبر علماء المسلمين في الفيزياء، بل هو من أكبر أرباب هذا الفن فيطول التاريخ،وقد أثر كتابه العروف في «علم المـناظر» تأثـيراً

---

١ ـ تتمة صوان الحكمة: ص ٢٤.

٢ ـ بالفارسية: تاريخ علوم در تمدن اسلامي: ص ٢٩٣.

٣ ـ بالفارسية: تاريخ علوم در تمدن اسلامي: ص ٢٩٣.

عظيماً في تقدم العلوم في الشرق والغرب، وقد استفاد منه كل من الفيلسوف الكبير روجر بيكون و وكبلر مؤسس القوانين الحديثة لعلم الفلك، وقد قام ابن الهيثم ببحوث دقيقة وعالية في قوانين الضوء والظاهر أنه هو أول من قام بتجربة (الغرفة المظلمة) في التجارب الضوئية وهو الذي حلّ المعادلات ذات الأربع درجات، وحاول أن يعيّن عمق كرة الهواء»[1].

ومع هذه الطبقة من الفلاسفة ظهر أصحاب الرتبة الأولىٰ من الرياضيّين الكبار، من قبيل أبي الوفاء البوزجاني النيسابوري وعبدالرحمن الصوفي الرازي، وأبي سهل الكوهستاني الطبرستاني وغيرهم، ولكن ينبغي ترجمة هؤلاء في فصل خاص.

الطبقة السابعة:

هذه الطبقة فريقان: فريق تلامذة ابن سينا، وأخرىٰ ليست من تلامذته، أما الفريق الأول:

١ ـ أبو عبدالله الفقيه المعصومي، قال الشيخ الرئيس بشأنه: هو لي مثل ارسطو لافلاطون، وقد كتب الشيخ «رسالة العشق» حسب طلب تلميذه هذا وباسمه، وهو الذي توسط في اسئلة أبي ريحان واجوبه ابن سينا، فلما كتب أبو ريحان كلماته الخشنة الىٰ الشيخ أبىٰ الشيخ أن يكتب اليه جواباً وأحال ذلك علىٰ تليمذه هذا، فكتب اليه هذا يلومه يقول: « لو كنت اخترت في خطابك مع الحكيم كلمات غير هذه لكلان أولىٰ عقلاً وعلماً»[2] و يذكر البيهقي أن الفقيه المعصومي كتب كتاباً في «المفارقات وعدد العقول والأفلاك وترتيب المبدعات» أصبح مورد اهتمام الحكماء، ولكنه مفقود الآن، ولايعلم تاريخ ولادته ووفاته، ويحتمل أن تكون وفاته في حدود ٤٥٠[3].

---

١ ـ نقلاً عن كتاب: «تاريخ علوم اسلام» للمرحوم تقي زاادة، ونأسف ان لم يتم طبع هذا الكتاب بصورة مستقلة، وانما طبع في كرّاسات مسلسلة بعنوان (مقالات وبررسيها) من العدد الثاني الىٰ الثامن، والمقاطع المذكورة من العددين السابع والثامن: ص ١٦٤.

٢ ـ تتمة صوان الحكمة ـ المترجمة: ص ٦٠.

٣ ـ مقدمة عبدالرحمن بدوي علىٰ تعليقات ابن سينا: ص ٨.

٢ ـ أبو الحسن بهمنيار بن مرزبان الآذربايجاني، كان مجوسياً فاسلم، وهو من أشهر تلامذة ابن سينا، ومن أسباب شهرته أسئلته الكثيرة من شيخه وأجوبة الشيخ له، وأكثر كتاب المباحثات للشيخ أجوبة علىٰ أسئلة بهمنيار، والعامل الآخرلشهرة بهمنيار كتابه المعروف «التحصيل» الذي يُذكر كثيراً في كتب الفلسفة، نقل عنه صدر المتألهين في كتاب «الأسفار» مطالب متعددة في مواضع عديدة، وموضوعين عن كتابه الآخر «البهجة و السعادة» وقد طبع كتابه «التحصيل» أخيراً ضمن منشورات كلية الإلهيات والمعارف الاسلامية،بتحقيقي وتعليقي، توفي بهمنيار عام ٤٥٨ هـ

٣ ـ أبو عبيد عبدالواحد الجوزجاني، تلميذ وملازم الشيخ الرئيس طوال عشرين أو خمسة وعشرين عاماً، وهو الذي أكمل مذاكرات حياة الشيخ.

وكان الشيخ لايهتم بحفظ آثاره، فكان يكتب رسائل مختصرة أو مطوّلة، حسب مختلف المناسبات ويعطيها الىٰ من يطلبها من دون أن يستنسخ منها، ولعل أكثر مابقي من آثار الشيخ يكون من اهتمام أبي عبيد بذلك، وهو الذي أكمل قسم الرياضيات من كتاب «النجاة» وكتاب «دانشنامهٔ علائي»[1] ولم نطلع عن حياة أبي عبيدة علىٰ أكثر من هذا.

٤ ـ أبو منصور حسين طاهر بن زيلة الاصفهاني، جاء في «تتمة صوان الحكمة» أنه اختصر «الشفاء» للشيخ الرئيس، وشرح رسالة حي بن يقطان، وألّف كتاباً في الموسيقىٰ، وكان ممن لامثيل له في عصره في الموسيقىٰ، مات عام ٤٥٠ هـ أي بعد اثنين وعشرين عاماً من وفاه استاذه، وهو ممن سأل الشيخ اسئله أجاب عنها الشيخ، وقيل: «ان أصل كتاب «المباحثات» هو مجموعة أسئلة بهمنيار، وقليل من أسئلة ابن زيله وقليل من آخرين»[2].

وكان لابن سينا تلامذه آخرون نعرض عن ذكرهم.

وأما الآخرون من هذه الطبقة من غير تلامذة الشيخ:

١ ـ علي بن رضوا المصري، كان طبيباً وحكيماً، وهو ممن اشترك في الرّد علىٰ نظرية

---

١ ـ رسالة السيد حسن الأحمدي علون آبادي للسنة الأولىٰ لدورة الدكتوراه من كلية الالهيات في طهران.

٢ ـ ارسطو عند العرب: لعبد الرحمن بدوي.

محمّد بن زكريا الرازي، وكان رجلاً كريماً، ولكنه كان كريه المنظر، وله كتاب في اثبات نبوة خاتم الانبياء صلىٰ الله عليه وآله وسلم بما جاء في التوراة والأنجيل والقواعد الفلسفية، علىٰ ما جاء في كتاب «نامهٔ دانشوران» مات عام ٤٥٣ ولانعرف شيئاً عن أساتذته وتلامذته.

٢ ـ أبو الحسن مختار بن حسن بن عبدان بن سعدان بن بطلان البغدادي النصراني المعروف بابن بطلان، هو تلميذ أبي الفرج الطيب النصراني المذكور آنفاً، وكان ابن بطلان كاستاذه طبيباً وفيلسوفاً، إلّا أنه طبيب اكثر من أن يكون فيلسوفاً، وكان ينافس و يعارض علىٰ بن رضوان المذكور آنفاً، وكان يعيّره بقبح منظره ويلقبّه تمساح الجن [1] وسافر الىٰ مصر والتقاه وفارقه متألماً منه، وسافر الىٰ حلب والقسطنطينية، وكان أعزب حتىٰ مات سنة ٤٤٤.

٣ ـ أبوالحسن الانباري، لم نعرف شيئاً عن أحواله، إلّا أنا نعرف أنه ـ كما جاء في «تتمة صوان الحكمة» [2] ـ كان فيلسوفاً رياضياً، وكان رياضياً أكثر من أن يكون فيلسوفاً وان الحكيم عمر الخيّام درس الرياضيات لديه.

الطبقة الثامنة:

هذه الطبقة هم من تلامذة تلامذة ابن سينا، أعم من أن يكونوا من تلامذة تلامذته أو معاصرين لهم، وهم:

١ ـ أبو العباس فضل بن محمد اللوكري المروي، كان فيلسوفاً وأديباً، وقد يعبّر عنه بالاديب أبي العباس اللوكري، كان من تلامذة بهمنيار، له كتاب معروف باسم «باين الحق بضمان الصدق» لم يطبع بعد وان كانت نسخة متوافرة، وكان موضع عناية الفلاسفة بعده، وجاء ذكره في قسم الالهيات من كتاب الاسفار، عرف بتربية طبقة من التلاميذ، وقال البيهقي في «تتمة صوان الحكمة»: «انتشرت الفلسفة علىٰ يديه في خراسان».

---

١ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٢٤٠.

٢ ـ تتمة صوان الحكمة.

يقول الاستاذ محمود الخضيرط من استاتذة الجامع الأزهر في مقال له طبع بمناسبة الذكرىٰ الألفية لابن سينا في بغداد في «الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لابن سينا ص ٥٥»: «عمّر أبو العباس طويلاً، ولم أجد تاريخ وفاته إلّا أظن أنه توفي أواخر القرن الخامس الهجري».

والاستاذ عبد الرحمن البدوي في مقدمة كتاب «التعلقيات لابن سينا ص ٨» ينقل عن بروكلمن أنه ذكر وفاة اللوكري في عام ٥١٧، أي أوائل القرن السادس الهجري، ويقول الاستاذ البدوي: لا أدري من أين أخذ بوركلمن.

٢ ـ أبو الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين، يقول ابن أبي اصيبعة: كان ممتازاً في الطب وفاضلاً في الحكمة، كان من تلامذة أبي الفضل كثيفات وعبدان الكتاب [١] وهما من تلامذة أبي الفرج ابن الطيب السابق الذكر [٢] وكان لايسمح للمسحيين واليهود أن يدخلوا في زمرة تلامذته ويحضروا درسه، وكان ابو البركات اليهودي البغدادي صاب الكتاب المعروف بـ«المعتبر» يحتال للاستفادة من درسه فيجلس عند عتبة الباب يصغي الىٰ أبي الحسن سنة كاملة، فلما اطلع علىٰ ذلك أبو الحسن بعد عام ترحم عليه وسمح له بالحضور.

يقول ابن أبي اصيبعة: قرأ أبوالبركات كتاب «التخليص النظامي» من تأليف الشيخ عنده، ولا أدري هل هو في الطب أم الفلسفة، مات سعيد سنة ٤٩٥ هـ

٣ ـ حجة الحق أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيامي النيسابوري المعروف بالخيّام، الفيلسوف والرياضي الكبير ويحتمل أن يكون شاعراً أيضاً، وله شهرة عالمية، إلّا أن شهرته ـ مع الأسف ـ بالشعر المنسوب اليه لا بالفلسفة والرياضيات اللتين هما فضله الحقيقي، ان هذا الشعر المنسوب اليه والذي أكثره ليس منه علىٰ الأقل قد صوره بصورة مختلفة عن صورته الواقعية، صورة انسان مشكك فارغ يغتنم الفرص للشهوات ولايحس بأية مسؤولية، وان ترجمة الشاعر الانجليزي فيترجوالد لرباعيات الخيّام (ومع

---

١ ـ عيون الأنباء: ج ٢ ص ٢٥٩.

٢ ـ عيون الأنباء: ج ٢ ص ٢٣٦.

تغيير وتحريف كما يقول تقي زادة) بلغة فصيحة هي التي سببت هذه الشهرة الكاذبة.

أثرت عن الخيّام رسائل فلسفيه توضّح لنا اسلوبه الفكري الفلسفي، احداها رسالة بعنوان «لكون والتكليف» في جواب سؤال أبي نصر محمد بن عبد الرحيم النسوي قاضي نواحي فارس، كان قد سأله عن حكمة الخلقة والغرض منها وفلسفه العبادات، وكان قد مدحه بأبيات من الشعر بالعربية لم يبق منها سوىٰ هذه الأبيات الأربعة:

ان كنت ترعين يـا ريـح الصـبا ذمـمي ... فارقي الـسـلام عـلىٰ العـلّامة الخـيمي

بـموسىٰ لديـه تـراب الأرض خـاضعة ... خضوع من يجتدي جدوىٰ من الحكـم

فـهو الحكـيم الذي تسـقىٰ سـحائبه ... مـاء الحـياة رفـات الأعـظم الرمـم

عن حكمة الكون والتكـليف يأت بـما ... تـغني بـراهـينه عـن أن يـقال: لِـمِ

وقد أجاب الخيّام عن هذا السؤال أجابة حكيم علىٰ مباني شيخه ابـن سـينا (او شـيخ شيخه) وكل من يحيط علماً بالمباني الفلسفية لابن سينا يعرف مدىٰ احاطةالخـيّامبها، ويذكره الخيّام بعنوان «المعلم» وأجاب أيضاً عن «سـر التـضاد فـيالعـالم» و «مسألة الشرور» كفيلسوف قطعي ويقول: «لقد حققت أنا وشيخي ابن سينا وقد اقتنعنا بـوجهة النظر هذه تماماً، وقد يحمل هذا الآخرون علىٰ ضعف نفوسنا، إلّا أنها بنظرنا مقنعة تماماً».

وقط طبعت هذه الرسالة مع رسائل اخرىٰ في روسية، وطبعت قبل ذلك فـي مـصر ضمن مجموعة باسم «جامع البدائع»، وقد ادعىٰ الناشر الروسي ان الناشر المصري أخطأ اذ جعل رسالة «التضاد» رسالة مستقلة في حين هي تكملة رسالة الكـون والتكـليف وجزء منها.

وما يبديه الخيّام في هذه الرسالة بصوره جزمية، هو مضمون ما نسب اليه من الأبيات التي تبدي التحير والتردد في فلسفة الكون والتكليف، ولهذا فقد نفىٰ بـعض البـاحثين الايرانيين والاوربيين صحة نسبة هذه الأبيات اليه، وقد رأىٰ بعظهم بالاستناد الىٰ بعض القرائن ان هناك شخصين معاصرين أو متقاربين، احدهما شاعر والآخر حكيم فيلسوف، كان الشاعر يلّقب بالخيّام، وكان الحكيم والرياضي يلّقب بالخيّامي، ورأىٰ بعض آخر [1]

---

١ ـ راجع البحث التحقيقي للسيد محمد محيط الطباطبائي في مجلة (گوهر) السنة الأولىٰ العدد : ٦.

ان الشاعر هو علىٰ الخيّام والحكيم الرياضي عمر الخيامي.

ولايصح ماادّعاه بعضهم أن الخيامي هو اللفظ العربي للخيام النيسابوري[1] اذ يقول هو في مقدمة رسالته الفارسية فيالوجود: «هكذا يقول أبو ا لفتح عمر ابراهيم الخيامي»[2].

ولعل من المسلّم به، أنه كان يمازح ويزاحم المتعبدين القشريين بكلماته تلك،وهذا الامر هو الذي أحدث له هذه الضجة والزحمة، مع كمال ايمانه واعتقاده بمباني الدين كما يظهر ذلك من جميع كتبه، حتىٰ نوروزنامة المنسوب اليه، شأنه في ذلك شأنأكثر العلماء مثله.

كتب البيهقي بشأنه أنه كان يتلو تلو ابن سينا في العلم، إلّا انه كان في خلقه ضيق، و له ضنة فيالتعليم والتصنيف.. دخل يوماً الىٰ حضرة شهاب الاسلام الزير عبدالرزاق بن الفقيه، وكان عنده امام القراء ابو الحسين الغزالي، فتباحثوا حول اختلاف القرآن في آية، فلما حضر الامام (الخيّام) قال شهاب الاسلام: علىٰ الخبير سقطنا.. فبين الخيّام وجوه اختلاف القراء وذكر لكل وجه علة وسبباً، فقال الامام أبو الفخر: كثر الله مثلك في العلماء[3].

لايعرف تاريخ ولادته، وقيل ان تاريخ وفاته عام ٥١٧ أو ٥٢٦ والمؤكد أنه عاش طويلاً، يقرب من تسعين عاماً[4] ولكنه بعيد أن يكون قد ادرك دروس ابن سينا، فلو عبّر الخيّام عن ابن سينا بالمعلم، فانما هوبلحاظ أنه من تلامذة مدرسته لانفسه، والظاهر أنه كان قد درس علىٰ تلامذة الشيخ.

٤ ـ أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد، الغزالي الطوسي، وان كان عدّه في عداد الفلاسفه ـ بالمعنىٰ المصطلح ـ ليس صحيحاً، فهو لايعد نفسه فيلسوفاً، بل يخالف

---

١ ـ علي أصغر الحلبي فيكتابه:فلاسفة ايراني: ص ٤٠٨.

٢ ـ مجموعة رسائل الخيّام الطبعة الروسية.

٣ ـ ترجمة تتمة صوان الحكمة: ص ٧١ ـ ٧٢.

٤ ـ «مقالات وبررسيها» بالفارسية، العددان: الخامس والسادس: ص ٢٤٢.

الفلسفة والفلاسفه، ولاسيما ابن سينا، ولم يدرس الفلسفة علىٰ شيخ، بل تفرغ لقرءة الفلسفه ثلاث سنين ثم كتب كتابه الشهير «مقاصد الفلاسفة»، وبعده كتابه الآخر «تهافت الفلاسفة» الذي يعدّ من الكتب المهمة في العصر الاسلامي.

كان الذين ضد الفلسفة كثيرين في العالم الاسلامي، إلّا انه لم يكن أحدهم من القدرة العلمية ما كان للغزالي، ولو لم يظهر بعده بقليل، علماء فلاسفة كالسهروردي والخواجة نصير الدين الطوسي للف الغزالي الفلسفة بستار الاهمال والنسيان والضياع[1].

ولكن بما أن نظرياته السلبية والايجابية احياناً، كان لها دور كبير في تطور الفلسفة لذلك ذكرناه في عداد الفلاسفة.

أشهر كتاب له كتاب «احياء علوم الدين) وهو من جملة الكتب المعدودة التي اثرت في المسلمين.

ولد الغزالي عام ٤٥٠ وتوفى في ٥٠٥ هله تاريخ معروف.

وينبغي ان يذكر في هذه الطبقة محمد الشهرستاني وابو حاتم مظفر الاسفرازي وميمون بن نجيب الواسطي، إلّا أن الأول متكلم اكثر من كونه فيلسوفاً والثاني والثالث كان رياضيين أكثر من كونهما فيلسوفين.

الطبقة التاسعة:

١ ـ شرف الدين محمد الايلاقي، تلميذ أبي العباس اللوكري وعمر الخيّام، كا فيلسوفاً طبيباً، قيل انه قتل في حرب قطوان في سنة ٥٣٦[2] وقد عدّه بعضهم تلميذ بهمنيار، وبالنظر الىٰ تاريخ وفاتهما يتضح فساد هذه النظرية، وهو استاذ القاضي زين الدين عمر بن سهلان الساوجي صاحب كتاب «البصائر النصيرية» مات الايلاقي عام ٥٣٦ هـ

٢ ـ أبو البركات هبة الله بن علي (أو يعلى) ملكا البغدادي، كان يهودياً فأسلم، و

---

١ ـ للاطلاع علىٰ فكر وتاريخ الغزالي راجع كتاب (غزالي نامه) للاستاذ جلال همائي وكتاب (فراراز مدرسة) للدكتور عبد الحسين زرين كوب استاذ جامعة طهران.

٢ ـ كراسة الاستاذ أحمدي نقلاً عن النص العربي لصوان الحكمة، والترجمة الفارسية ناقصة هنا، وهي ناقصة بصورة عامة،بل هي تلخيص وليست ترجمة كاملة.

اختلفوا في سبب اسلامه،وقد ذكرنا تتلمذه علىٰ هبة الله بن سعيد، كتابه المعروف «المعتبر» وحقاً انه من الكتب المعتبرة في الفلسفة، كان أبو البركات فيلسوفاً صحاب نظر، وكان امثال صدر المتألهين يعتنون بكتابه، كان مخالفاً في فلسفته لمدرسة ابن سينا، تصل سلسلة اساتذته الىٰ الفارابي مباشرة، اذ هو تلميذ سعيد بن هبة الله وهو تلميذ أبي الفضل كثيفات وعبدان الكاتب وهما تلميذا أبي الفرج ابن الطيب، وهو تلميذ أبي الخير حسن بن سوار وهو تلميذ يحيىٰ بن عدي المنطقي وهو تلميذ أبي نصر الفارابي، أكثر آحاد سلسلة اساتذته غير مسلمين.

قيل: قيل للحكيم عمر الخيّام: ان أبا البركات البغدادي يرد ابن سينا قال: انه لافهم مايقول ابن سينا فضلاً عن أن يرده.[1]

كان شيخ والد عبد اللطيف البغدادي ـ صاحب الاشاعة الشهيرة بشأن احراق المسلمين الفاتحين لمكتبة الاسكندرية ـ وابن الفضلان وابن الدهان المنجم ومهذب الدين النقاش، وقد عمى في آخر عمره، فكان يملى علىٰ تلامذته هؤلاء.[2]

٣ ـ محمد بن أبي طاهر الطبسي المروزي تلميذ اللوكري،كانت أمه من أهل خوارزم وأبوه من حكام بعض اقسام مرو، مات في سرخس بعد مرض الفالج عام ٥٣٩ هـ[3]

٤ ـ أفضل الدين الغيلاني عمر بن غيلان، كان من تلامذة اللوكرط، ليس بايدينا ترجمة صحيحة له، إلّا أن من المعلوم أنه كان من تلامذة اللوكري، وهو شيخ صدر الدين السرخسط، وفقاً لما نقله محمود محمد الخضيري، وقد ذكره الامام فخر الدين الرازي المتوفىٰ في ٦٠٦ في كتاب (المحصل) وترحم عليه[4]، قيل ان افكاره كانت تخالف أفكار ابن سينا، كتب رسالة في حدوث العالم، وكان عام ٥٢٣ مشتغلاً بالتحصيل في المدرسة النظامية في مرو.

٥ ـ أبو بكر محمد بن يحيىٰ بن الصائغ الاندلسي المعروف بابن باجة، كان من أعاظم

---

١ ـ بالفارسية: «تاريخ علوم عقلي در اسلام» نقلاً عن النص العربي من تتمة صوان الحكمة: ص ١١٠ ـ ١١١.
٢ ـ عيون الأنباء: ج ٢ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.
٣ ـ كراسة الاستاذ الأحمدي نقلاً عن النص العربي من تتمة صوان الحكمة.
٤ ـ المهرجان الالفي لذكرىٰ ابن سيناء: ص ٥٦.

الفلاسفة، ألف كتاباً كثيرة في الفلسفة، وقد طبعت أخيراً رسالة في «النفس» بعسي الدكتور محمد صغير حسن معصومي استاذ جامعة داكا (في باكستان الشرقية) مات عام ٥٣٣، كان شيخ ابن رشد الفيلسوف الاندلسي المعروف[١].

٦ ـ أبو الحكم المغربي الاندلسي، كان شاعراً حكيماً طبيباً، إلّا أنه كان شاعراً أكثر من كونه فيلسوفاً وطبيباً، وكان هازلاً أكثر من كونه جاداً، كان عربياً باهلياً، انتقل من المغرب الىٰ الشرق، فعاش في حدود مصر والشام، ومات عام ٥٤٩، كان شيخ ابن الصلاح، وهو شيخ استاذ شهاد الدين السهروردي.

الطبقة العاشرة:

١ ـ صدر الدين بو علي محمد بن علي بن الحارثان السرخسي،كان تلميذ أفضل الدين الغيلاني واستاذ فريد الدين داماد، وشيخ استاذ الخواجة نصير الدين الطوسي، ليس لدينا اطلاع واسع عنه، جاء ذكره مختصراً في تتمة صوان الحكمة،وقد نقل محمود محمد الخضيري عن صاحب «خريدة القصر» أنه ألف كتباً في الفلسفة والمساحة والحساب، وكان مقيماً مدة في بغداد ولاقاه أبو منصور الجواليقي المتوفىٰ ٥٣٩ رجع من بغداد الىٰ سرخس، وتوفى في عام ٥٤٥ ولعله كان شاباً[٢].

٢ ـ أبو بكر محمد بن عبدالملك بن طفل الاندلسي، من حكماء الاندلس المعروفين كان تلميذ ابن الصائغ (حسب الظاهر) أكثر شهرته بكتابه المعروف «حي بن يقظان» الذي اقتبسه من رسالة (حي بن يقظان) لابن سينا، إلّا ان كتاب ابن طفيل أكمل وأشمل، ترجم هذا الكتاب المرحوم بديع الزمان فروزان فر، وطبعه ونشر (بنگاه ترجمه ونشر كتاب) عمّر طويلاً ومات عام ٥٨١ هـ

٣ ـ القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الاندلسي، كان فيلسوفاً وطبيباً وفقيهاً، وله كتب متعددة في جميع هذه الفروع المختلفة، كتابه المعروف هو شرحٌ كتبه علىٰ كتاب «مابعد الطبيعة» لارسطو، وهو مطبوع، وكتابه الفقهي المعروف هو «بداية

---

١ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ١٠٢.

٢ ـ الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لذكرىٰ ابن سينا: ص ٥٧.

المجتهد» مطبوع أيضاً، وقد طبعت مجموعة رسائله الفلسفية في بمبي، يتعرف له الاوربيون بمكانة الفلسفة في درجة ابن سينا، بينما لاقيمة لآرائة بين الفلاسفة المسلمين، أحد كتبه المعروفة «تهافت التهافت» ردّ فيه علىٰ تهافت الفلاسفة للغزالي، وهو كتاب لاقيمة له، يتعصب لارسطو كثيراً وهو لذلك يخالف ابن سينا الذي لايتعصب لارسطو كثيراً، بل يدلي بآرائه امام آراء ابن سينا، وقد كتب الفيلسوف الفرنسط المعروف ارنست رونان ـ الذي كان معارضاً المرحوم السيد جمال الدين الاسدآبادي، اعمالاً كثيرة بصدد التعريف بابن رشد، مات ابن رشد عام ٥٩٥ هـ

٤ ـ مجد الدين الجيلي، ليست بايدينا معلومات كثيرة عن، إلّا أنا نعلمأنه كان يدرس في مراغة، وأن من جملة الذين درسوا عنده هو الامام فخر الدين الرازي [١] وكذلك درس عنده الشيخ شهاب الدين السهروردي في مراغة أو عمره [٢]، كان حكيماً متكلماً و فقيهاً اصولياً، يصفه ياقوت الحموي في «معجم الأدباء ضمن ترجمة الشيخ السهروردي، بالفقيه والاصولي المتكلم [٣].

٥ ـ القاضي زين الدين عمر بن سهلان الساوجي المعروف بابن سهلان، ولد في ساوة، وكان يعيش في نيسابور عن طريق استنساخ الكتب للناس، عبّر عنه «صوان الحكمة» أنه «نظّم الحكمة والشريعة في عقد واحد» كان تلميذ شرف الدين الايلاقي المذكور آنفاً [٤] قيل انه كتب شرحاً علىٰ رسالة «الطير» لابن سينا [٥]، كتابه المعروف «البصائر النصيرية» الذي طبع قسم المنطق منه في مصر، وهو من أحسن كتب المنطق، احترقت جميع كتبه ماعدا كتابه «البصائر» في حريق كما جاء في «تتمة صوان الحكمة» ان ابن سهلان من اولئك النفر الذين يتمتعون بذكرٍ نابضٍ في الفلسفة الاسلامية، فقد ذكر آراءه فيها [٦]،

---

١ ـ عيون الانباء: ج ٣ ص ٣٤.

٢ ـ معجم الادباء: ج ٧ ص ٢٦٩.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ رسالة الاستاذ أحمدي نقلاً عن النص العربي لتتمة صوان الحكمة ، ص ١٢٧ .

٥ ـ تاريخ علوم عقلي در اسلام، بالفارسية، ص ٢٢٩.

٦ ـ راجع: الاسفار ـ مبحث الجواهر والاعراض.

ولايُعرف تاريخ وفاته.

٦ ـ أبو الفتح نجم الدين أحمد بن محمد السري المعروف بابن الصلاح، قيل: ان اصله من همدان (المدينة الايرانية) وقيل هو عراقي من أهل سميساط (في حدود حلوان قرب الفرات) هاجر الىٰ بغداد ودرس عند أبي الحكم المغربي السابق الذكر، وتوفى في سنة ٥٤٨ أي قبل عام من وفاة شيخه [١] ولايعرف له تاريخ ولادة، ويمكن أن يعد من الطبقة التاسعة، كان شيخه أبو الحكم المغربي يعترف بفضله عليه، قيل انه شرح الشفاء لابن سينا و الفوز الاصغر لابن مسكويه [٢].

٧ ـ محمد بن عبد السلام الانصارط الماردي (الماردیني) كا يعد وحيد زمانه في علوم الحكمة بل علّامة أوحيدياً [٣] ولد في فلسطين أو القدس منه بالذات وآباؤه كانوا يعيشون بها، والظاهر أن جده الأعلىٰ كان من الانصار، كان شيخه في الفلسفة ابن الصلاح المذكور آنفاً، شرح القصيدة العينية المعروفة لاب سينا [٤] ودرس عنده الشيخ شهاب الدين السهروردي شيئاً من الفلسفة [٥] كان متعبداً متشرعاً للغاية، مات بروح دينية بل روحانية خاصة عن عمر يناهز الثمانين عاماً سنة ٥٩٤ [٦].

الطبقة الحادية عشرة:

١ ـ فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي المعروف بالامام فخرالدين الرازي، كان فقيهاً متكلماً فيلسوفاً مفسراً خطيباً طبيباً، وكان ذا ذهنية وقادة، قليل النظر في تبحره في مختلف الفنون والعلوم، اسلوب تفكيره كلامي أكثر منه فلسفي، مع علمه بالفلسفة وتأليفه الكتب القيمة فيها، بل له حملات علىٰ الفلاسفة وتشكيك حتىٰ في

---

١ ـ نامهٔ دانشوران، ج ١ ص: ٢٥١ ـ ٢٦٠.

٢ ـ ريحانة الأدب: ج ٨ ص ٦٨.

٣ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٢٨.

٤ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٢٧.

٥ ـ تاريخ الحكماء لابن القفطي: ص ٢٩٠.

٦ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٢٨.

مسلّمات المسائل الفلسفية، كان حسن السليقة في تنظيم وتبويب وتقرير المسائل، افاد منه المولىٰ صدر الدين الشيرازي كثيراً، أهم كتبه الفلسفة «المباحث المشرقية» وأكثر شهرته بكتابه «مفاتيح الغيب» في تفسير القرآن الكريم الذي اعطاه مقاماً لائقاً بين كتب التفسير، لانعرف له شيخاً في الفلسفة سوىٰ الشيخ مجد الدين الجيلي المذكور آنفاً، ولعله اطلع علىٰ أكثر مسائل الفلسفة مطالعة لادراسة، له تلامذة كثيرون، ابرزهم شمس الدين الخسروشاهي و قطب الدين المصري وزين الدين الكشي وشمس الدين الخوئي، وشهاب الدين النيسابوري.

ولد الفخر الرازي في سنة ٥٣٤ ومات عام ٦٠٦ هـ[1].

٢ ـ الشيخ شهاب الدين يحيىٰ بن حبش بن ميرك السهروردي الزنجاني المعروف بشيخ الاشراق، لاريب انه كان من أعاجيب زمانه، له ذهنية وقادة مبتكرة، ان الاتجاه الىٰ الاشراق في الفلسفة كان موجوداً قبله حتىٰ لدىٰ الفارابي واب سينا، إلّا أن هذا الرجل العظيم هو الذي أسس مدرسة الاشراق وأبان طرقها في كثير من المسائل ووضّح الفرق بينها وبين مدرسة المشائين، ان جميع المسائل الفلسفية - تقريباً ـ التي تعرف اليوم بعنوان أنها من نظريات الاشراقيين في قبال المشائين التي يظن بعضهم أنها من مسائل الخلاف بين افلاطون وارسطو، انها من نتائج أفكار السهروردي نفسه، جاء يقابل بها أفكار المشائين ولاسيما المسلمين منهم، تتلمذ لدىٰ مجد الدين الجيلي في (مراغة) وظهير الدين القاري (في اصفهان ـ ظاهراً) وفخر الدين المارديني (في العراق) ولازمه مده، وكان المارديني يقول: لم أرّ مثله في الذهن والذكاء وحدّة النظر وأخفاف عليه من ذلك[2]، وقيل انه انه درس (البصائر النصيرية) لابن سهلان لدىٰ ظهير الدين القارى.

إنّ السهروردي كان نابغة في سائر العلوم أيضاً، ومنها في الفقه، رحل الىٰ حلب و الشام وشارك في دروس الفقه في المدرسة الحلاوية بحلب لدىٰ الشيخ افتخار الدين، فبان تفوقه واصبح مقرّباً لدىٰ شيخ، وقربته شهرته من الملك الظاهر بن صلاح الدين

---

١ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٢٨.

٢ ـ معجم الادباء: ج ٧ ص ٢٦٩.

الأيوبي، وكان يناظر الفقهاء والمتكلمين فيغلبهم، فحسده ناس وسعوا فيه الىٰ صالح الدين فأمر ابنه بقتله، فقتله عام ٥٨٦ أو ٥٨٧ وله ستة وثلاثون [١] أو ثمانية وثلاثون عاماً [٢].

قالوا أنه كان معاصراً لفخر الدين الرازي، بل مشتركاً معه في كثير من دروسه، ولما أعطىٰ فخر الدين بعد موته نسخة من كتابه (التلويحات) قبّله واسبل دمعه لذكرىٰ أيام مشاركته إيّاه في درسه [٣].

لم يكن السهروردي يمتنع أو يتحفظ من مناظرة الفقهاء والمتكلمين بل كان حتىٰ في اسرار الحكمة لايعمل بما أوصىٰ به ابن سينا في آخر (الاشارات) من التحفظ وعدم اظهارها للجميع، ولعل ذلك لشبابه، ومن هنا كان الواعون يظنون أنه سيلاقي حتفه، ولما بلغ نعيه الىٰ شيخه فخر الدين الماردیني قال: وقع ما كنت أخافه عليه، ولهذا كان يقال فيه: ان علم شهاب الدين أكثر من عقله!.

٣ـ أفضل الدين المرقي الكاشاني المعروف بلقب (بابا أفضل) له شخصية بارزة ولكنه ليس بايدينا تاريخ واضح عنه، له كتب كثيرة بالفارسية والعربية طبع لها فهرس [٤] وقيل أنه كان خال الخواجة نصير الدين الطوسي، ولكنه بعيداً جداً.

جاء في (دائرة المعارف) الفارسية ـ من منشورات فرانكلين ـ «بابا أفضل، شهرته أفضل الدين، محمد بن حسين الكاشاني، الشاعر والعارف الايراني، قيل انه ولد في حدود ٥٨٢ هـ أو ٥٩٢ هـ في قرية (مرق) من قرىٰ كاشان وتوفىٰ بعد عام ٦٥٤ أو ٦٦٤ وقيل في أوائل القرن السابع، كان من أصحاب نصر الدين المقربين» وجاء في (لغت نامه) وكذلك في (عزالي نامه) [٥] أن وفاته كانت عام ٧٠٧ وقيل بل كانت عام ٦٠٦ وقيل بل كانت في سنة ٦٦٧ هـ

---

١ ـ وفيات الاعيان: ج ٥ ص ٣١٦.

٢ ـ عيون الانباء: ج ٣ ص ٢٧٤.

٣ ـ بالفارسية: سه حكيم مسلمان: ص ٧٦.

٤ ـ بالفارسية: «فهرست مصنفات أفضل الدين الكاشاني» للدكتور يحيىٰ مهدوي ومجتبىٰ مينوي.

٥ ـ بالفارسيه: غزالي نامه، ص ١٠٦ ط ٢.

وقد نقل الاستاذ محمود الخضيري في مقال له في كتاب (دعوة التقريب) بعنوان «أفضل الدين الكاشاني فيلسوف مغمور» عن نسخة مخطوطة من كتاب «مختصر في ذكر الحكماء اليونانيين والمللّيين» من مكتبة اسكوريال اسبانيا: أن وفاة بابا أفضل كانت في سنة ٦١٠ هـ[١]

وقد استدل في كتاب (فلاسفة ايراني) بترحم الخواجة في (شرح اشارات) الشيخ الرئيس ابن سينا عليه، بقوله «رحمه الله» حيث أن تأليف (شرح الاشارات) كان فيما بين أعوام ٦٢٤ الىٰ ٦٤٤ هـ[٢] علىٰ أن وفاة أفضل الدين كانت قبل ٦٦٧ هـ ومع الاستفادة لذلك جاء في مقال الخضيري ومقدمة الاستاذ المرحوم النفيسي.

وقد نقل الاستاذ محمد المدرسي الزنجاني في كتابه عن حياة الخواجة نصير الدين الطوسي[٣] عن كتاب الخواجة في السير والسلوك الىٰ الله أنه كتب يقول «ان أبي كان يرغبني في تحصيل فنون العلم والاستماع الىٰ كلام أرباب المذاهب والمقالات، حتىٰ صادف ان مرّ بديارنا رجل من تلامذة أفضل الدين الكاشاني رحمه الله تعالىٰ، يقتل له كمال الدين محمد الحاسب، وكان له تقدم في أنواع الحكمة ولاسيما الرياضات، وكان له صداقة سابقة و معرفة مع والدي، فأشار علىّ والدي بالاستفادة منه والتردد عليه والحضور بخدمته، فدرست عليه في فنون الرياضيات».

ويتضح من هذا المقال أن الخاجة نصير الدين كان تلميذ افضل الدين، وأنه لم يكن أفضل الدين من أصحاب الخواجة نصير الدين، كما جاء في دائرة المعارف الفارسية، بل كان في طبقة اساتذة اساتذة الخواجة، وعلىٰ هذا فلو حسبنا أن وفاة افضل الدين كانت في سنة ٦٠٦ أو ٦١٠ هـ« أو قريباً منها كان أقرب احتمالاً مما جاء في (لغت نامه) أو (غزالي نامه) و أن ميلاده لم يكن في أواخر القرن السادس كما جاء في مقدمة الاستاذ سعيد النفيسي لرباعيات بابا أفضل، وفي (تاريخأدبيات ايران) للدكتور ذبيح الله صفا، بل

---

١ ـ دعوة التقريب: ص ١٨٥.

٢ ـ قال في روضات الجنات: «ان شرح الاشارات تم عام ٦٤٠ هـ».

٣ ـ بالفارسية: سرگذشت وعقائد فلسفي خواجة نصير الدين طوسي.

كان في أواسط هذاالقرن.

وقد نقلوا عن الخواجة نصير الدين بيتين في مدح أفضل الدين بالفارسية معناهما: لو عرض الفلك إلّا علىٰ فضل الفضلاء، وفضل أفضل الدين، لترك الملائكة تسبيحهم ونادوا: ان أفضل الدين هو الأفضل!.

الطبقة الثانية عشرة:

١ ـ فريد الدين داماد النيسابوري، ليس بايدينا تاريخ واضح عن هذا الرجل إلّا أنا نعلم انه كان من شيوخ الخواج نصير الدين الطوسي، وان الخواجة درس الاشارات علىٰ هذا الرجل [١] وكان فريد الدين من تلامذة صدر الدين السرخسي المذكور آنفاً، والخواجة يتصل من طريق فريد الدين في سلسلة أساتذته بابن سينا، هكذا: الخواجة لدىٰ فريد الدين لدىٰ فريد الدين لدىٰ أفضل الدين الغيلاني لدىٰ أبي العباس اللوكري لدىٰ بهمنيار لدىٰ شيخه ابن سينا، ولانعرف عام وفاته.

٢ ـ شمس الدين عبدالحمى بن عيسىٰ خسروشاهي المعروف بلقبه، لشمس الدين الخسروشاهي، يذكره ابن أبي اصيبعة بعنوان: امام العلماء سيد الحكماء قدوة الأنام شرف الاسلام [٢] كان بارزاً في الطب والفلسفة والعلوم الشرعية، وكان من ابرز تلامذة فخر الدين الرازي،لخص (كتاب الشفاء) إلّا أن شهرته في مجال الفلسفه انما هي بعد أجوبة فلسفية سألها منه الخواجة نصير الدين الطوسي وردت في كتب الفلسفة [٣].

٣ ـ قطب الدين ابراهيم بن علي بن محمد السلمي المعروف بقطب الدين المصري، كان هاذ أيضاً من التلامذة البارزين لفخر الدين الرازي، يقول ابن أبي اصيبعة: إن أصله كان من بلاد المغرب وانتقل الىٰ مصر واقام مدة بها ثم سافر الىٰ ايران فدرس لدىٰ فخر

---

١ ـ روضات الجنات: ص ٥٨٢.

٢ ـ عيون الانباء: ص ٣ ص ٢٨٣.

٣ ـ كما في الاسفار: ج ٤ ط حجرية، ص ٩٥، وفي تعليقة صدر المتألهين علىٰ الشفاء، ص ١٧٠، ولم يرها كافية فألف رسالة مستقلة في جواب هذه الأسئلة طبعت في هامش كتابيه (المبدأ والمعاد) و (شرح الهداية).

الدين الرازي، كان يفضل شيخه فخر الدين علىٰ ابن سينا في الفلسفة وابا سهل المسيحي علىٰ ابن سينا في الطب، قتل في نيسابور في حملة المغول [1] وكان هذا من شيوخ الخواجة أيضاً [2] وعلىٰ هذا يكون الخواجة تلميذ تلميذ فخر الدين الرازي.

٤ ـ كمال الدين يونس (أو ـ ابن يونس) الموصلي المعروف بابن منعة، عبر عنه معاصره ابن أبي اصيبعة بقوله: قدوة العلماء وسيد الحكماء [3].

اشغتل في مدرسة الموصل بتدريس علوم الفلسفة وله فيها تلامذة، وقد درس لديه الخواجة أيضاً كما جاء في (ريحانة الأدب) [4] فقد قال فيه: «هو من أكابر الحكماء من علماء العامة، كان وحيد عصره في النحو والصرف والفقه والحديث والتفسير والطب والتاريخ والموسيقىٰ والهندسة والحكمة والهيئة،اشتهر شهرة فائقة في فترة قصيرة، واصبح مرجعاً للفضلاء،فقد كانوا يحضرون درسه في البلدان البعيدة.. توفى عام ٦٣٩هـ».

الطبقة الثالثة عشرة:

١ ـ الخواجة نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي، لقبوه: استاذ البشر، ولا حاجة الىٰ التعريف به، ان تثمين أعماله الفلسفية ودوره في تحول الفلسفة بحاجة الىٰ كتاب خاص، يعدّ في الرياضيات من القلة المعدودين في تاريخ العالم، شكك في أساس الهيئة البطليوسية وأعدّ أفكاراً للهيئة الجديدة، فقد ذكر تقي‌زادة أن ملاحظات الخواجة في كتابه (التذكرة) علىٰ هيئة بطليموس كان مقدمة لاقتراحات كوبرنيك في الهيئة الجديدة للعالم. [5]

---

١ ـ عيون الانباء: ج ٣ ص ٤٥ ـ ٤٦.

٢ ـ ريحانة الأدب: ج ٢ ص ١٧٧.

٣ ـ عيون الانباء: ج ٢ ص ٣٣٧.

٤ ـ ريحانة الأدب: ج ٢ ص ١٧٧.

٥ ـ بالفارسية: «مقالات وبررسيها» العددان: ٨ وو ٩، ص: ١٦٢ ـ من منشورات كلية المعارف الاسلامية بطهران.

كان للخواجة حاية صاخبة كابن سينا، وقد أبدىٰ شكواه من حياته في آخر اشاراته بصورة مؤلمة، ومع ذلك: فقد ألّف عدداً كبيراً من الآثار وربّي عدداً كبيراً من التلامذة، ولد عام ٥٩٧ ومات عام ٦٧٢ هـ

٢ ـ أثير الدين مفضل بن عمر الأبهري، كتابه المعروف (الهداية) في الطبيعيات و الإلهيات فقد فتح لنفسه مجالاً لائقاً، وقد شرحه القاضي حسين الميبدي وصدر المتألهين الشيرزاي، وهذا الشرح الأخير أثر كثيراً في التعريف بالكتاب ومؤلفه.

قال العلّامة الحلي في كتابه (الجوهر النضيد) ص ٧٨ في باب العكوس في عكس السالبة الجزئية التي يتفق المنطقيون علىٰ ان لاعكس لها، يقول العلّامة: باستثناء القضية المشروطة الخاصة والعرفية الخاصة، ثم يقول: هذا مما وقف عليه أثير الدين مفضل بن عمر الأبهري.

٣ ـ نجم الدين علي بن عمر الكاتبي القزويني المعروف بلقب: دبيران، كان من أكابر الحكماء والمنطقين والرياضيين، كتابه المعروف (حكمة العين) الذيكُتبت له شروح عديدة وكتابه المعروف في المنطق: (الشمسية) كتبه باسم الخواجة شمس الدين صاحب الديوان الجويني، وشرحه قطب الدين الرازي، وأصبح الكتاب مع شرحه من الكتب الدراسية المتداولة بين طلاب العلوم الدينية الىٰ هذه الاواخر، كان الكاتبي القزويني من استاذة العلّامة الحلي وقطب الدين الشيرازي، ومصاحباً معاصراً للخواجة نصير الدين الطوسي في بناء رصد مراغة، مات ٦٧٥ هـ

الطبقة الرابعة عشرة:

تتشكل هذه الطبقة من تلامذة الخواجة نصير الدين الطوسي:

١ ـ الحسن بن يوسف بن المطهر الحلي المعروف بالعلّامة الحلي وان كانت شهرته فيالفقة إلّا أنه رجل جامع وله في المنطق والفلسفة مهارة كاملة ومؤلفات قيمة، ذكرناه في طبقات الفقهاء، وأنه من نوابغ رجال الاسلام، كان عربياً من تلامذة الخواجة

والكاتبي، ولد عام ٦٤٨ وتوفى في سنة ٧١١.

٢ ـ كمال الدين ميثم بن ميثم البحراني المعروف بابن ميثم البحراني،كان أديباً فقيهاً فليسوفاً، درس الفلسفة لدىٰ الخواجة نصير الدين، قيل: ا الخواجة أيضاً درس لديه الفقه[١]، شرح نهج البلاغة وقد عُدّ شرحه أحسن الشروح من حيث المباحث الفلسفية، طبع في خمسة مجلّدات،توفى في ٦٧٨ أو ٦٧٩ أو ٦٩٩ كما حقق ذلك صاحب الذريعة[٢].

٣ ـ قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الشيرازي المعروف بقطب الدين الشيرازي، كان في المنطق تلميذ الكاتبي القزويني وفي الحكمة والطب تلميذ الخواجة نصير الدين الطوسي، شرح كتاب (القانون) لابن سينا و (حكمة الاشراق) للسهروردي، وكتب بالفارسية كتاباً في أنواع الحكمة طبع باسم (درة التاج) وكل كتبه الثلاثة قيمة ثمينة، إلّا أن أكثر شهرته في الفلسفة جاءت من شرحه حكمة الاشراق، كان مساعداً للخواجة في بناء رصد مراغة، توفى في عام ٧١٠أو ٧١٦[٣].

٤ ـ الحسن بن محمد بن شرف شاه العلوط الحسيني الاسترآبادي، المعروف بابن شرفشاه، ادرك محضر الخواجة في مراغة ودرس لديه ولازمه، وبعد وفاة الخواجة رحل الىٰ الموصل واشتغل بتدريس الحكمة (في المدرسة النورية) علق علىٰ (تجريد الاعتقاد) للخواجة وشرح (قواعد العقائد) له وتوفىٰ في سنة ٧١٥أو ٧١٧أو ٧١٨.[٤]

الطبقة الخامسة عشرة:

١ ـ قطب الدين محمد بن محمد بن أبي جعفر المعروف بقطب الدين الرازي، من مشاهير علماء الاسلام، كا حكيماً منطقياً وفقيهاً، درس لدىٰ العلّامة الحلي وأجازه للحديث، لاقاه الشهيد الأول واستجازه لرواية الحديث ووجده بحراً لاينضب، شرح

---

١ ـ روضات الجنات: ط حجر،ص: ٥٨٢.

٢ ـ ريحانة الأدب: ج ٨ ص ٢٤٣.

٣ ـ ريحانة الأدب: ج ٤ ص ٤٧١.

٤ ـ ريحانة الأدب: ج ٨ ص ٥٣ ـ ٥٤.

(الشمسية) للكاتبي القزويني وأصبح شرحه كتابة عوّل عليه طلاب العلوم الدينية حتىٰ هذه الأواخر، كتب كتاباً آخر اسماه (المحاكمات) قضىٰ فيه بين شارحين كبيرين لكتاب الاشارات: فخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي، وشرح كتاب (مطالع الأنوار) للقاضي سراج الدين الأرموي في المنطق، كان يدرس أحياناً في الحوزات العلمية الدينية، وقد طبع أخيراً بعنوان شرح المطالع، اشتهر الرازي بكتبه هذه الثلاثة، وان كان له كتب اخرىٰ، توفى في سنة ٧٦٦ هـ[1].

٢ ـ شمس الدين محمد بن مبارك شاه المروي المعروف بلّقب: ميرك البخارائي، شرح كتاب (حكمة العين) للكاتبي القزويني، يذكر في كتب الفلسفة بعنوان: شارح الحكمة، وقد علق السيد مير شريف الجرجاني علىٰ شرح حكمة العين، ولايعرف تاريخ وفاته.

٣ ـ القاضي عضد الدين عبدالرحمن الايجي الشيزاري، كان حكيماً متكلماً اصولياً، له نظريات تدرس في علم الاصول وبعض المسائل الفلسفية والكلامية، كتابه المعروف (المواقف) الذي يعد من كتب علم الكلام، ولكنا نعلم ان الكلام أقترب كثيراً من الفلسفة بعد دور الخواجة نصير الدين الطوسي، وتأليفه كتابه (تجريد الاعتقاد) اذ أنه في كتابه هذا أخذ يوجه الاهداف الكلامية وجهة فلسفية وان كثيراً من مسائل الفلسفة بالمعنىٰ الأخص و الالهيات أخذت تعرض في كتب الكلام، المواقف موضع يليق به بهذا الصدد، شرح هذا الكتاب السيد مير شريف الجرجاني وطبع مع أصله مراراً عديدة، وكان يدرّس في الحوزات العلمية، وقد ربّىٰ القاضي العضد تلامذة كلتفتازاني وشمس الدين الكرماني وسيف الدين الابهري ولد عام ٧٠٠أو ٧٠١ وتوفي عام ٧٥٦أو ٧٦٠.

الطبقه السادسة عشرة:

١ ـ سعد الدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني المعروف بالمولىٰ سعد التفتازاني، أكثر شهرته بالكلام وعلوم البلاغة، إلّا أنه كان رجلاً جامعاً لم يخل من الاطلاع علىٰ العلوم العقلية والفلسفية، ألّف رسالة موجزة في المنطق باسم (تهذيب المنطق) لازالت

---

١ ـ ريحانة الأدب: ج ٤ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٧.

تدرّس في الحوزات العلمية، ألّف التفتازاني كتباً كثيرة، ويذكر بعضهم أن التفتازاني اعاد للمعارف الاسلامية بحسن بيانه، حياة جديدة بعد ويلات حروب المغول، ولم نقصد بطبقات الفلاسفة أولي النظر في الفلسفة فقط، بل كل من حمل هذا الفن من المعارف الانسانية وتوسط في انتقاله من قبله الىٰ من بعده، ولا أقل من ثبوت هذا الشأن للتفتازاني، ولد عام ٧١٢ أو ٧٢٢ هـ في قرية قرب بلدة نساء وتوفي في ٧٩١ أو ٧٩٢ أو ٧٩٣ في سرخس، وقيل: في سمرقند ودفن في سرخس[1].

٢ ـ السيد علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف الجرجاني او سيد مير شريف، ودُعي بحق: المحقق الشريف، فهو معروف بدقة نظره وتحقيقه، اشتهر بالأدب و الكلام، إلّا أنه كان جامعاً، كانت له حوزة تدريس للفلسفة، وقد ربّى فيها تلامذة كثيرين، وله في حفظ ونقل العلوم العقلية الىٰ الاجيال المتعاقبة دور موثر، له مؤلفات وآثار كثيرة إلّا أن اكثرها شروح وتعاليق قيمة، ويقول القاضي نور الله: ان علماء الاسلام بعده عيال عليه ومتطفلون، تعاليقه: تعليقة علىٰ شرح حكمة العين في الفلسفة، وأخرىٰ علىٰ شرح المطالع في المنطق، وأخرىٰ علىٰ الشمسية في المنطق أيضاً،وأخرىٰ علىٰ المطول للتفتازاني في الفصاحة و البلاغة، ولهشرح علىٰ كتاب مفتاح العلوم للسكاكي في الفن نفسه، وتعليقة علىٰ الكشاف للزمخشري، وهو تفسير يعني بالجوانب البلاغية للقرآن، وشرح لكتاب المواقف للعضد في الكلام، ومن كتبه المعروفة: التعريفات، يعرف باسم: تعريفات الجرجاني، ومنها كتابه:

الكبرىٰ في المنطق بالفارسية كتبه للمبتدئين، والآخر: صرف مير، بالفارسية في فمن الصرف، كان ولا يزال كتاباً دراسياً للطلاب المبتدئين.

كان من تلامذة قطب الدين الرازي المذكور سابقاً، وهو من أهل جرجان (گرگان) ونقل صاحب روضات الجنات عن مجالس المؤمنين: انه لما قدم الشاه شجاع بن مظفر الىٰ جرجان والتقىٰ السيد، نقله معه الىٰ شيراز وفوّض اليه التدريس في مدرسة (دار الشفاء) التي كان قد اسسّها هو بشيراز، ولما دخلها الأمير تيمور أخذه معه الىٰ سمرقند،

---

١ ـ ريحانة الأدب: ج ١ ص ٣٤٠.

وهناك التقىٰ التفتازاني وله معه مناظرات، ولما مات الأمير تيمور رجع المير الشريف الىٰ شيراز فعاش بها حتىٰ مات.

اشتغل السيد الشريف منذ العشرين من عمره بالتدريس والبحث ولاسيما في الفلسفة والحكمة، وكانت له حوزة من الفضلاء حوله، قيل: ان الحافظ الشيرازي كان ممن يحضر درسه، فكان السيد الشريف اذا تناشد طلابه الشعر، قال لم: اشتغلوا بالحكمة والفلسفة عوضاً عن هذه الأباطيل، إلّا أنه اذا رأىٰ الحافظ قال له: ماذا ألهمت جديد؟ أنشدني غزلك، فكان طلابه يعترضون عليه: ما هذا السر؟ تنهانا عن تناشد الشعر وأنت تبدي الرغبة للاستماع الىٰ شعرالحافظ؟ فكان يقول: ان شعر الحافظ احاديث قدسية ودقائق قرآنية والهامات ربانية![1].

ولد السيد مير الشريف في جرجان عام ٧٤٠ وتوفىٰ في شيراز عام ٨١٦[2]

الطبقة السابعة عشرة:

هذه الطبقه أكثرها من تلامذة المحقق الشريف وناشري أفكاره.

١ ـ محي الدين گوشكناري، كان هذاالرجل من تلامذة السيد مير شريف واستاذ جلال الدين الدواني، ولامعرفة لنا بميلاده ووفاته.

٢ ـ الخواجة حسن شاه المعروف بالبقال، كان هذا الرجل أيضاً من تلامذة السيد مير الشريف واستاذه الدواني، وقد نقل الفاضل المعاصر الشيخ علي الدواني في كتابه في حياة جلال الدين الدواني عن كتاب (حبيب السير): ان الخواجة حسن شاه ومحي الدين گوشكناري قاماً بالتدريس في شيراز علىٰ عهد الميرزا محمد بايسقر.

٣ ـ سعد الدين اسعد الدواني أبو المحقق جلال الدين الدواني، هو أيضاً من تلامذة السيد مير الشريف.

٤ ـ قوام الدين الكربالي، شيخ السيد صدر الدين الدشتكي وجلال الدين الدواني، هو

---

١ ـ انظر مقدمة الانجوي لديون حافظ نقلاً عن الدكتور محمد معين في كتابه (حافظ شيرين سخن).

٢ ـ روضات الجنات: ص ٤٧٦.

ايضاً من تلامذة السيد مير الشريف الجرجاني.

ولانعرف في هذه الطبقة أحداً سوىٰ هؤلاء الذين ذكرناهم، وفي هذا العهد الذي كانت حملة المغول قدبدت آثارهامن القتل والنهب في جميع المجالات، وزادت في العلة مجازر الأمير تيمور الگوركاني، لاندري هل كان قد بقيت في غير شيراز حوزة للدراسة أم لا؟.

الطبقة الثامن عشرة:

١ ـ سيد الحكماء محمد بن ابراهيم الحسيني الدشتكي الشيرازي المعروف بالسيد صدر الدين الدشتكي والسيد السند، كان من اعاظم الحكماء ومن اولي النظر منهم، وكانت آراؤه ونظرياته ومعاصره الشهير جلال الدين الدواني حتىٰ عهد السيد ميراماد، موضع دارسة وملاحظة بين الفضلاء والطلاب، بل لازال بعض آرائه وأفكاره موضع نظر بين الفلاسفة المسلمين وبعضها مقبولة حتىٰ بعد أفكار المولىٰ صدرا، ولد سنة ٨٢٨ وتوفى في ٩٠٣ هـ كان قد درس العلوم العقلية لدىٰ قوان الدين الكربالي تلميذ السيد الشريف، ورجل آخر يدعوه السيد الفاضل الفارسي.

٢ ـ العلّامة جلال الدين محمد بن أسعد الدين الدواني الصديقي المعروف بالعلّامة الدواني والمحق الدواني، كان صاحب نظر في المنطق والفلسفة والرياضيات، وله آراء في أفكار لازالت تدرس في كتب الفلسفة، وهو من تلامذة قوام الدين الكربالي ومحيي الدين گوشكناري وحسن شاه المعروف بالبقال واوالد أسعد الدين الدواني (وكلّهم من تلامذةالسيد الشريف).

وقد زعم صاحب روضات الجنات [١]، وكذلك صاحب ريحانة الأدب [٢] أن الدواني من تلامذة السيد مير الشريف نفسه بصورة مباشرة، وقد اوضح خطأهم الفاضل المعاصر الشيخ الدواني في كتابه النفيس [٣] واثبت أن العلّامة لم يدرك حياة السيد مير الشريف بل

---

١ ـ روضات الجنات: ص ٤٧٦ ط،ق.

٢ ـ ريحانة الأدب: ج ٣ ص ٢١٤.

٣ ـ بالفارسية: شرح زندگاني جلال الدين دواني.

كان تلميذ تلامذته.

كان العلّامة الدواني ممن أحدث ضجة علمية في حياته وبعد موته، وله مشاجرات كثيرة شفوية، وكاتبية معروفة مع السيد صدر الدين دشتكي، وكانت كتبه بعده محطّ أنظار الفضلاء ونقض بعضهم وردّ بعضهم الآر ودفاع آخرين، فمثلاً نقل صدر المتألهين في المجلّد الثالث من كتابه (الأسفار ص ١٤ ـ ١٦ ط ق) نظريه للعلّامة الدواني في ثلاث صفحات ثم ردّها وقال: «واعلم أنا انما تعرضنا لكلام هذا العلامة النحرير في هذا الموضع بالجرح والتوهين لما أكبّ عليه أكثر الناظرين وتلقوه بالقبول والاستحسان، زعماً منه ومنهم ان فيه اثباتاً للتوحيد الخاص، الذي ادركه العرفاء الشامخون فضلاً عن توحيد الواجب الذي اعتقده المسلمون»[١].

ومن هنا يعلم مدىٰ نفوذ أفكار الدواني فيمن تأخر عنه

وكانت مدينة شيراز علىٰ عهده مركزاً للعلوم الفلسفية علىٰ اثر صيته وشهرته بها، وكان طلاب الفلسفة يتجهون الىٰ شيراز من خراسان وآذربيجان وكرمان وحتىٰ بغداد والروم وسائرالمناطق التركية[٢] ولد عام ٨٣٠ هـ وتوفى في ٩٠٣ أو ٩٠٨.

٣ ـ علي بن محمد السمرقندي القوشجي، المعروف بالمولىٰ علي القوشجي صاحب الشرح المعروف علىٰ كتاب (تجريد الاعتقاد) لنصير الدين الطوسي.

كان متكلماً ورياضياً، قيل: أن زيج ألغ بيك الذي بدأه القاضي زادة الرومي (شيخ القوشجي) وغياث الدين جمشيد الكاشاني الرياضي النابغة،ولم يوقف لاتمامه، اتمه القوشجي بأمر الغ بيك بن شاهرخ بن أمير تيمور الذي كان رياضياً ماهراً واستاذاً للقوشجي.

سافر الىٰ تبريز وديار العثمانين وأقام عندهم وتوفى لديهم عام ٨٧٩ هـ[٣].

وشرحه علىٰ تجريد الاعتقاد للخواجة نصير الدين الطوسي من الكتب التي كانتولا

---

١ ـ الاسفار: ج ٣ ص ١٤ ـ ١٦ ط، ق.

٢ ـ يراجع بالفارسية: «شرح زندگان جلال الدين دواني» للشيخ علي الدواني.

٣ ـ ريحانة الأدب: ج ٤ ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

تزال محطّ انظار الفضلاء ولهم عليه تعاليق كثيرة قيمة،ولشرح القوشجي دور فعال في تاريخ الفلسفة الإلهية.

الطبقه التاسعة عشرة:

وهم تلامذة السيد صدر دشتكي العلّامة الدواني:

١ ـ غياث الدين منصور الدشتكي ابن السيد صدر الدين دشتكي، كان من أعاظم الحكماء.

قيل: فرغمن علوم زمانه فيالعشرين من عمره، كانت له رئاسة الوزارة علىٰ عهد الشاه طهماسب، ثم استقال ورجع الىٰ شيراز وأسس فيها مدرسة عرفت باسم (المدرسة المنصورية) لاتزال قائمة حتىٰ اليوم، تابع عمل والدة في ردّ نظريات العلّامة الدواني وكان أحياناً يحضر المناظرات الشفوية بين والده والدواني، له عدة كتب فلسفية من قبيل : اثبات الواجب، ضرح هياكل النور للسهروردي، حواشي علىٰ شرح الاشارات للخواجة ، وحواشي علىٰ الشفاء لابي علي ابن سينا، المحاكمات بين والده والدواني في حواشيهما علىٰ تجريد الاعتقاد.

ذكره صدر المتألهين في إلهيات الاسفار بعنوان: «سرابية المقدس المنصور المؤيد من عالم ملكوت السماء غياث أعاظم السادات والعلماء »[1] توفي غياث الدين دشتكي عام ٩٤٠أو ٩٤٨ هـ

٢ ـ محمود النيريزي، التليذ الآخر للسيد صدر الدين دشتكي، قالوا: شرح عدة كتب لجلال الدين الدواني ودافع فيها عن آراء استاذه صدر الدين حاملاً علىٰ جلال الدين[2].

٣ ـ القاضي كمال الدين الميبدي اليزدي، شهرته بشرحه (الهداية) لإثير الدين الابهري، المعروف بشرح الهداية للميبدي، وله شرح للديوان المنسوب الىٰ أمير المؤمنين عليه السلام، له به شهرة أيضاً، وله كتاب آخر في الفلسفة بالفارسية باسم

---

١ ـ الأسفار: ج ٣ ص ١٨ ط، ق.

٢ ـ بالفارسية: شرح زندگاني جلال الدين دواني: ص ١٢٦.

(جام گيتي نما)[1].

٤ ـ جمال الدين محمود الشيرازي، هو الي اشغل كرسي درس جلال الدين بعد وفاته وَفَدَ اليه طلاب العلم من الاطراف، والاكناف، منهم المولىٰ أحمد الاردبيلي المعروف بالمقدس الاردبيلي، والمولىٰ عبدالله الشوشتري، والمولىٰ عبدالله اليزدي صاحب الحواشي المعروفة علىٰ (تهذيب المنطق) والمولىٰ ميرزاجان الشيرزاي المعروف بالفاضل الغنوي[2].

٥ ـ المولىٰ حسين الإلهي الاردبيلي بن الخواجة شرف الدين عبد الحق الاردبيلي، كان من تلامذة العلّامة الدواني والأمير غياث الدين، وكان شيعياً، وعاصر الشاة اسماعيل الصفوي وكتب بعض رسائله باسمه واهدي بعضها اليه، سافر لكسب الفيض والفضيلة الىٰ مختلف البلاد منها شيراز وهرات، وله كتب وآثار مختلفة في المنطق والكلام والفلسفة والهندسة والهيئة علىٰ عادة عصره بصورة حواشٍ وتعاليق علىٰ واضافات، من قبيل: حواشي استاذه العلّامة الدواني علىٰ شرح التجريد، وتعاليق علىٰ حاشية السيد الصدر علىٰ ذلك الكتاب، وشرح الچغميني، وشرح تذكرة الخواجة في الهيئة، وتحرير الاقليدس في الهندسة، و(بيست باب اصطرلاب): (عشرون باباً في علم الاسطرلاب)، ولانعرف تاريخ وفاته[3].

الطبقة العشرون:

١ ـ المولىٰ عبدالله اليزدي صحاب الحاشية المعروفة علىٰ منطق التهذيب، المعرفة بحاشية المولىٰ عبدالله، الكتاب الدراسي لطلاب المنطق في الحوزات العلمية، وقد ادّعىٰ بعضهم أنه كان جاهلاً بالأمور الشرعية، وعلىٰ العكس من ذلك نقول: كان فقيهاً من أهل العقول ولاسيما المنطق، تتلمذ في شيراز لدىٰ جمال الدين محمود المذكور سابقاً والأمير

---

١ ـ بالفارسية: شرح زندگاني جلال الدين دواني: ص ١٠٨.

٢ ـ بالفارسية: شرح زندگاني جلال الدين دواني: ص ١١٠.

٣ ـ روضات الجنات: ص ١٨٥ ـ ١٨٦.

غياث الدين دشتكي، وفي آخر عمره ذهب الىٰ العراق وجاور العتبات المقدسة، حتىٰ توفىٰ فيها عام ٩٨١ هـ[1].

٢ ـ المولىٰ حبيب الله الباغ نوي الشيرازي المعورف بالمولىٰ ميزراجان والفاضل الباغ نوى، من تلامذة جمال الدين محمود، كتب عدة تعليقات وهوامش علىٰ عدة شروح و حواشٍ للعلّامة الدواني، توفى في عام ٩٤٤ هـ جاء ذكره في الطبيعيات من شرح المنظومة للسبزواري بعنوان الفاضل الباغ نوى.

٣ ـ شمس الدين محمد الخفري الشيرازي، تلميذ الأمير غياث الدين منصور، والظاهر أنه أدرك دروس العلّامة الدواني واليد صدر الدين دشتكي، له حواش علىٰ شرح التجريد وشرح حكمة العين ورسالة بعنوان: اثبات الواجب، كان دقيق النظر، وقد نقل صدر التألهين عنه في المجلّد الأول من الاسفار عدة مطالب وبحث حولها، ويمكن أن يعد من الطبقة التاسعة عشرة، فهو من شباب تلك الطبقة وكبار طبقة العشرين، مات عام ٩٥٧ أو ٩٣٥ هـ

٤ ـ الخواجة أفضل الدين تركة، من تلامذة جمال الدين محمود[2] قال صاحب روضات الجنات: الفاضل الحكيم الخواجة افضل الدين محمد حبيب الله المعروف بـ(تركة) كان شيخ الشيخ أبي القاسم الحكيم الكازروني الامامي المعروف بـ(نصر البيان) وقال نصر البيان فط كتابه (سلم السماوات) في تاريخ الحكماء بشأن استاذه (تركه): ان شهرة هذا الاستاذ وبزوغه كان مابين سنين ٩٧٠ ـ ٩٩٠ في خراسان والعراق.

٥ ـ الحكيم داود بن عمر الانطاكي المصري، رأينا ذكره في (نامهٔ دانشوران)، كان من أجلاء الأطباء الفضلاء والحكماء في أواخر المئة العاشرة واوائل الحادية عشرة، وجان فيما املاه من أحواله ولد أعمىٰ في انطاكية، وكان حتىٰ السابعة من عمره مفلوجاً، ومع ذلك حفظ القرآن وتعلم المقدمات، وكان يسأل الله عزوجل الشفاء والتوفيق، حتىٰ عالجه رجل من العجم اسمه محمد شريف فشفي، وعلّمه الانطاكي في أن يتعلم منه

---

١ ـ روضات الجنات: ص ٣٥٨.

٢ ـ بالفارسية: شرح زندگاني جلال الدين دواني: ص ١١٠.

الفارسية فيقول له محمد شريف: الأولىٰ أن تتعليم اليونانية،وليس في هذه الديار أحد يعرف اليونانية مثلي!.

وسافر داود الىٰ القاهرة، فرآهم غير آبهين بالعلوم العقلية، فذهب الىٰ الحج وجاور مكة وتوفى في سنة ٩٠٨ هـ له مؤلفات منها رسالة فيالعشق العرفاني ذكرت في (نـانئ دانشوران)[1] وتذكر له قصص عن حفظه ومهارته في المتون الفلسفية والطبية كالقانون والشفاء والاشارات والنجاة والتعليقات والمحاكمات والمطارحات والحكمة الشـرقية ورسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء.

الطبقة الحادية والعشرون:

١ ـ المير محمد باقر داماد، أشهر من أن يعرّف.

لا أعرف حوزة علمية تذكر بعد حملة المغول غير حوزة فارس (شـيراز) لاسـباب ليست بينة حتىٰ الآن، نعم كان بعض العلماء في هرات وسمرقند، وأماكن أخرىٰ، ولكن حوزة يمكن ان تمسىٰ حوزة كانت في شيراز فقط.

وحوزة شيراز كانت ـ مع الأسف ـ جدلية،فق كانت الجهود فيها فـي طـول قـرنين ونصف قرن تصرف للمجادلات، يكتب أحدهم كتاباً أو رسالة، فيشرحها الآخر، ويعلق عليها الثالث، ويكتب عليها الرابع هوامش، وحواشي علىٰ الحواشي، وهـوامش عـلىٰ الهوامش... و مع ذلك كان دور شيراز دوراً تحصيرياً.

وعلىٰ عهد الشاه عباس الكبير ظهر شيوخ، كالسيد ميرداماد والشيخ البهائي والمير فندرسكي، فاصبحت اصفهان مركزاً للعلوم العلقية الاسلامية، حتىٰ ان السيد صدر الدين هاجر من وطنه شيراز الىٰ اصفهان لكسب الزيادة في العلم.

كما ان الحوزة الفقهية كذلك قويت بهجرة جماعة من علماء جبل عامل الىٰ اصفهان من قبيل المحقق الكركي وغيره.

ومن خصائص الحوزة الفلسفية في اصفهان، ان لم يكن فيها أي شيء من الابحاث

---

١ ـ بالفارسية: نامهٔ دانشوران: ج ٩ ص ٨٩ ـ ٢٠٤.

والجدليات غير المفيدة، فقد اصطبغت الفلسفة بسبب السيد ميرداماد بلون آخر، لامجال هنا للبحث فيه.

السيد ميرداماد ان لم يكن من الطراز الأول من حكماء الاسلام، فليس أقلَّ من أن يعدّ علىٰ رأس الطراز الثاني منهم، كان بالاضافة الىٰ الفلسفة، فقيهاً رياضياً وأدبياً رجالياً جامعاً، يلّقب أحياناً بالمعلم الثالث، او كان يلّقب نفسه بذك.

شكّل حوزة دراسية مباركة جليلة، وسنعرّف في الطبقة الثانية والعشرين بعض تلامذته، ولانعرف بالضبط شيوخ واستاذة السيد ميرداماد في الفلسفة، نعرف منهم: الشيخ عبدالعالي العاملي الكركي، السيد نور الدين العاملي، تاج الدين حسين الصاعد الطوسي، فخر الدين السماكي الاسترآبادي، وهذا الأخير هو استاذه في المعقول، والآخرون في الفقه.

قال السيد علي البهبهاني في مقالة بعنوان «فلسفة وترجمة ونقد آثار السيد ميرداماد»: «كتب اسكندربيك: ان فخر الدين محمداً الحسيني الاسترآبادي معاصر الشه طهماسب (٩١٨ ـ ٩٨٤) كان من كبار بلدة سماك من مقاطعة استرآباد، ويستفاد من فحوىٰ كلام هذا الرجل أن السيد ميرداماد أدرك مجالس دروس السيد فخر الدين الحسيني، إلّا أنه من حيث العمر لم يكن بذلك المستوىٰ (؟) وكان السيد فخر الدين يلّقب بالمحقق الفخري في مقابل المحقق الخفري[1].

والمحدث القمي في كتابه «الكنىٰ والالقاب» يذكر السيد فخر الدين بعنوان أحد شيوخ السيد ميرداماد، وكذلك صاحب «ريحانة الأدب» ولكنه ذكر شخصاً آخر أيضاً بهذا الاسم نفسه (فخر الدين الحسيني الاسترآبادي) في هذا العصر نفسه، وله هوامش علىٰ قسم الجواهر، والاعراض والإلهيات من شرح التجريد للقوشجي[2].

وله ـ كما ذكر الشيخ علىٰ الدواني ـ هوامش علىٰ حاشية الدواني علىٰ تهذيب

---

١ ـ العددان الثالث والرابع من (مقالات وبررسيها) من منشورات كلية الالهيات والمعارف الاسلامية، ص: ٢٧، المحقق الخفري هو شمس الدين محمد بن أحمد الفاضل الحكيم الخفري نسبة الىٰ «خفر» من بلاد شيراز، (الكنىٰ والالقاب: ج ٢ ص ١٩٥ ـ ١٩٦)، المصحح.

٢ ـ ريحانة الأدب، ج ٤ ص ٣٠٤.

المنطق[1] ويبدو للنظر أن المسمىٰ بهذا الاسم ليس إلّا واحداً، ولكن صاحب الذريعة يصرح أنهما شخصان[2] أحدهما: فخر الدين محمد بن الحسن السماكي،والآخر فخر الدين محمد بن الحسين.

وليست لدينا معلومات أكثر من هذا عن شيوخ واستاذة السيد مرداماد في الفلسفة، ولا نعلم عند من درس فخر الدين السماكي (المحقق الفخري)؟ ومن هم تلامذته الآخرون؟ ومتىٰ كانت وفاته؟.

٢ ـ الشيخ بهاء الدين محمد بن الحسين بن عبدالصمد العاملي، كان من مهاجري جبل عامل، كان نابغة في الجمع بين العلوم والفنون المختلفة، ولانعرف من شيوخه واستاذته في العلوم العقلية (المنطق والفلسفة) أحداً سوىٰ المولىٰ عبدالله اليزدي المذكور سابقاً، وتتصل حلقه سلسلة أساتذته في المعقول بالخواجة نصير الدين الطوسي، ثم بابن سينا، الشيخ البهائي كان حكمياً فليسوفاً أديباً فقيهاً مفسراً رياضياً مهندساً وشاعراً، وليست لدينا معلومات عن تلامذته وحوزة درسه في الفلسفة،يقال ان صدر المتألهين كان يحضر درس الشيخ البهائي ولما رأىٰ الشيخ نبوغه المتفوق بعثه الىٰ درس السيد ميرداماد، وليس بأيدنا أي أثر من الشيخ في الفلسفة إلّا رسالة في وحدة الوجود قيل طبعت أخيراً في مصر[3] توفى الشيخ في سنة ١٠٣٠ هـ

٣ ـ مير أبو القاسم فندرسكي، منسوب الىٰ فندرسك من توابع استرآباد، كان حكيماً ورياضياً عارفاً، له تلامذة كثيرون وحوزة عامرة ومع ذلك ليست بأيدينا معلومات كثيرة عن حياته، كان معاصراً للشيخ البهائي وميرداماد، سافر الىٰ الهند واطلع علىٰ آراء حكمائها، له رسالة في الصناعات باسم (رسالة صناعية) ورسالة أخرىٰ في (الحركة) علىٰ مذاق المشائين[4] توفى سنة ١٠٥٠ هـ

---

١ ـ بالفارسية: شرح حال جلال الدين دواني: ص ١٦٥.

٢ ـ الذريعة: ج ١ ص ٩٩.

٣ ـ الدكتور محسن جهانگيري ـ في منشورات الفلسفة من كلية الآداب، رقم ١ ص ٧٢.

٤ ـ طبعت مختارات من هاتين الرسالتين بعناية السيد جلال الاشتياني في مجموعة بعنوان (منتخباتي أز آثار حكماى إلهى ايران).

الطبقة الثانية والعشرون:

هذه الطبقة من تلامذة الشيخ البهائي وميرداماد ومير فندرسكي.

١ ـ رفيع الدين محمد بن حيدر الحسيني الطباطبائط النائيني المعروف بالميرزا رفيعا، كان من تلامذة الشيخ البهائي ومير فندرسكي، وهو من السادات الطباطبائيين في نائين، وزوارة واردستان، ومن أخفاده المرحوم المير زاجلوه الفيلسوف المعروف في عهد القاجار والمتوفىٰ في ١٣١٤ هـ له رسالة في اقسام المشكك أقبل عليها المتأخرون، وله هوامش علىٰ شرح الاشارات للخواجة وشرح حكمة العين للشريف الجرجاني، ورسالة أخرىٰ في حل شبهة الاستلزام المطروحة في كتب الفلسفة، ورسالة ثالثة باسم «ثمرة شجرة إلهية» في اصول العقائد مع مقدمات فلسفية، نشرها أخيراًعبدالله النوراني من الفضلاء المعاصرين، ولد ميرزا رفيعا عام ٩٩٩ وتوفي في ١٠٨٣ عن عمر يناهز الـ ٨٥ عاماً.

٢ ـ محمد بن ابراهيم القوامي الشيرازي المعروف بالمولىٰ وصدرالمتألهين، الحكيم الإلهي والفيلسوف الرباني الذي اخل الحكمة الالهية الىٰ مرحلة جديدة، ان ما يسمىٰ بالعلم الأعلىٰ والعلم الكلي والفلسفة الأولىٰ والحكمة الالهية هو القسم الحقيقي من الفلسفة والفلسفة الحقيقية، اذ كل الاقسام الرياضية والطبيعية تعد من العلوم، والمولىٰ صدرا في هذا القسم من الفلسفة قد بزَّ كل أقرانه في هذا الفن، وغطّىٰ عليهم، فقد غيّر الاصول والأسس الاولىٰ هذا الفن وبناه علىٰ اصول أخرىٰ ثابتة قويمة.

ان فلسفه المولىٰ صدرا من جهة تشبه ملتقىٰ أربعة طرق: هي الحكمة المشائية الارسطية والسينائية، والحكمة الاشراقية السهروردية، والعرفان النظري لمحيي الدين ابن العربي والمفاهيم الكلامية.. التقت أحدها بالاخرىٰ وتلاقت كأربعة أنهر أوجدت نهراً عظيماً،ومن جهة أخرىٰ هي بمنزلة صورة مفاضة علىٰ عناصر أربعة مختلفة مرّت بسلسلة من الافعال وردودها، فوهبت هذه الصورة ماهية وواقعية جديدة لتلك العناصر

المتطورة،ماهية متفاوتة مع ماهية كل واحد من تلك المواد الاولىٰ.

ان فلسفة المولىٰ صدرا طفرت بعد سلسلة من الحركات المستمرة والمتدرجة في المعارف العقلية الاسلامية.

ان فلسفة المولىٰ صدرا من النوع الذي يقال فيه «سهل ممتنع» فعباراته ادبية مصنوعة، وفي ظاهرها بسيطة ساذجة،ولكن المستعد لدراستها، عليه أن يدرس كتابه حتىٰ يفهم أنه لايفهم كي يعود ليدرسها مرة أخرىٰ.

ربّ اناس متصدون لتدريس فلسفة المولىٰ صدرا في حين أنهم لم ينفذوا الىٰ اعماق فلسفة، ولهذا فان تحليل أفكار المولىٰ صدرا ليس من عمل كل أحد.

كان المولىٰ صدرا تلميذ الشيخ البهائي وميرداماد، ويذكر الشيخ البهائي في شرحه لاصول الكافي بعنوان: شيخي في العلوم النقلية، ويذكر السيد ميرداماد بعنوان شيخي في العلوم العقلية، كتبه أشهر من أن نعرّفها هنا، توفى في سنة ١٠٥٠ هفي البصرة فيطريقه الىٰ الحج للسفرة السابعة.

٣ ـ شمس الدين الگيلاني المعروف بالمولىٰ شمسا، كان من تلامذة السيد ميرداماد، له مراسلة مع زميله في الدراسة المولىٰ صدرا، سأله عن عدّة مشاكل فلسفية، من قبيل الموضوع في الحركة الكمية والوجود الذهني، وأجابه المولىٰ صدرا برسالة مطبوعة في هامش رسالته في المبدأ والمعاد.

٤ ـ سلطان العلماء الآملي المازندراني المعروف بخليفة السلطان، كا من تلامذة الشيخ البهائي وميرداماد، زوّجه الشاه عباس الثاني ابنته وفوض اليه الوزارة واستوزره الشاه صفي أيضاً، وكان محققاً بيدو مدىٰ تحقيقه في حواشيه علىٰ المعالم وشرح اللمعة، وكتاباته خالية عن الحشو والزوائد، وله هوامش علىٰ حاشيه الخفري علىٰ شرح التجريد للقوشجي، توفى في سنة ١٠٦٤ عن عمر يناهز الـ ٦٤ عاماً.

٥ ـ السيد أحمد العاملي ابن خال وصهر السيد ميرداماد وتلميذه، والظاهر أنه هو صاحب الهوامش المطبوعة علىٰ قسم الإلهيات من الشفاء لابن سينا، في الطبعة الحجرية، وجاء فيها بامور يبدو أنها من السيد ميرداماد، وقد يصرح بذلك.

٦ ـ شمس الدين الاشكوري صاحب الكتاب المعروف باسم (محبوب القلوب) كان من تلامذة المولىٰ صدرا كما في تاريخ الفلسفة.

٧ ـ السيد أمير فضل الله الاسترآبادي، من تلامذة ميرداماد [١] والمقدس الاردبيلي كما جاء في (روضات الجنات) ضمن ترجمة المقدس الاردبيلي نقلاً عن (رياض العلماء) [٢] قيل سئل المقدس الاردبيلي قبيل وفاته: الىٰ من نرجع بعدك؟ قال: في الشرعيات الىٰ الأمير علّام، وفي العقليات الىٰ الأمير فضل الله.

الطبقة الثالثة والعشرون:

١ ـ المولىٰ محسن الفيض الكاشاني، الحكيم والعارف والمحدث المشهور تلميذ وصهر المولىٰ صدرا، منه تعلم الحكمة، له رسائل في الحكمة والفلسفة طبعت أخيراً [٣].

وما وصل الينا منها انما هو تلخيصات من مقالات السيد الاستاذ، توفىٰ في سنة ١٠٩١ هـ وقد ذكرناه في المحدثين والمفسرين أيضاً.

٢ ـ المولىٰ عبد الرزاق اللاهيجي صاحب (شوارق الالهام) وكاب (گوهر مراد) و هو أيضاً من أصهار المولىٰ صدرا، هو أقل تأثراً باستاذه صدرا من الفيض، فقد اصطبغت رسائله بآراء الحكماء قبل المولىٰ صدرا من قبيل العلّامة الدواني وغياث الدين دشتكي، مات عام ١٠٧١ هـأو ١٠٧٢ (ودفن في قم المقدسة).

٣ ـ المولىٰ رجب علي التبريزي الاصفهاني صاحب (روضات الجنات) عن صاحب (رياض العلماء) أنه كان محترماً لدىٰ الشاه عباس الكبير واصحاب المقامات الحكومية، له تلامذة من قبيل محمد التنكابني والحكيم محمد حسين القمي والقاضي سعيد القمي، كان من تلامذة مير فندرسكي، توفىٰ في عام ١٠٨٠ هـ [٤]

٤ ـ المولىٰ محمد باقر المعروف بالمحقق السبزواري، كان حكيماً ومن أعاظم الفقهاء

---

١ ـ بالفارسية: «مقالات وبررسيها» العددان الثالث والرابع: ص ٢٨.

٢ ـ روضات الجنات: ص ٢٣.

٣ ـ طبعت بعناية السيد جلال الاشتياني.

٤ ـ مقدمة الشواهد الربوبية: ص ٩١.

تلميذ الشيخ البهائي [1] ومير فندرسكي [2] له هوامش متينة علىٰ الهيات الشفاء لابن سينا، قال صاحب (روضات الجنات): ان المحقق الخونساري (آقا حسين) واملولىٰ محمد التنكابني المعروف بـ(سراب) قد استفادا من دروسه كثيراً، ولكن الظاهر أن المحقق الخوانساري كان تلميذه في المنقول لا المعقول، توفى في عام ١٠٩٠ هـ [3]

٥ ـ آقا حسين الخونساري المعروف بالمحقق الخونساري تلميذ السبزواري في المنقول وصهره علىٰ اخته، وتلميذ مير فندرسكي في المعقول. [4]

له هوامش معروفة علىٰ الهيات الشفاء، موجودة،وشرح لاشارات الخواجة، وهوامش علىٰ شرح التجريد للقوشجي، والمحاكمات،توفى في سنة ١٠٩٨ هـ

كتب صاحب (روضات الجنات) في ترجمة المولىٰ زمان بن المولىٰ كلب علي التبريزي، يقول: «له كتاب اسمه: فرائد الفوائد في أحوال المدارس والمساجد» ألّفه أيام اقامته بمدرسة الشيخ لطف الله في شرقي ساحة (الشاه) [5] وذكر فيه أسماء جماعة من طلاب هذه المدرسة المباركة: من قيل آقا حسن الخونساري، والمولىٰ شمسا الجيلاني، المولىٰ حسن اللبناني الجيلاني (هو أيضاً كان من الحكماء والعرفاء، وله شرح للمثنوي المولوي الرومي التبريزي، وهو من الطبقة) وقال: ان المولىٰ حسن اللبناني كان عديم النظر في الفضل والتقوىٰ، ومنهم زبدة المحققين واسوة السالكين المولىٰ رجب علي التبريزي وتمليذه مير قوام الدين الطهراني (الرازي) صاحب كتاب «عين الحكمة» [6] ثم أضاف الروضات يقول: ومنهم الفاضل المحقق الحكيم البارع المولىٰ أبو القاسم بن محمد ربيع الگلبايگاني، صاحب التعليقات اللطيفة علىٰ كتب المعقول والمنقول.. الذي كان ـ حسب الظاهر ـ من تلامذة المجلسي الأول [7].

---

١ ـ روضات الجنات: ص ١١٦.

٢ ـ ريحانة الأدب: ص ١١٧.

٣ ـ روضات الجنات: ص ١١٧.

٤ ـ ريحانة الأدب: ج ٥ ص ٢٤١.

٥ ـ حسب التسمية القديمة، والآن تسمىٰ: ساحة الامام الخميني قدس سره.

٦ ـ روضات الجنات: ص ٢٨٧.

٧ ـ روضات الجنات: ص ٢٨٧.

المولىٰ حسن اللبناني المذكور آنفاً هو أبو المولىٰ حسين اللبناني تليمذ المجلسي، وعلىٰ هذايكون هذا أيضاً (اللبناني والگلبايگاني) من هذه الطبقة.

اهتم أخيراً استاذ كلية الالهيات والمعارف الاسلامية في مشهد، السيد جلال الدين الاشتياني بتعريف هؤلاء وآثارهم في دراسة بعنوان «منتخباتي أز آثار حكماى الهى ايران ـ از عصر ميرداماد ومير فندرسكي تا عصر حاضر».

الطبقة الرابعة والعشرون:

١ ـ محمد بن سعيد بن محمد مفيد القمي المعروف بالقاضي سعيد الملّقب بالحكيم الصغير، كان من تلامذة المولىٰ محسن الفيض والمولىٰ عبد الرزاق اللاهيجي والمولىٰ رجب علي التبريزي، تتلمذ لدىٰ المولىٰ رجب علي في اصفهان، وكان كاستاذه محترماً لدىٰ الشاه عباس الصفوي، كما نقل صاحب الروضات، وتتملذه لدىٰ المولىٰ عبد الرزاق اللاهيجي كان في قم المقدسة، ويحتمل أن يكون قد درس لدىٰ الفيض في قم أيضاً، ولم يعلم صاحب الروضات وصاحب ريحانة الأدب، تاريخ وفاته، ولكن نقل في هامش الروضات عن الذريعة أن ولادته سنة ١٠٤٩ هـ ووفاته عام ١١٠٣ هـ

٢ ـ المولىٰ محمد التنكابني (سراب) تلميذ المولىٰ رجب علي التبريزي [١] والمحقق السبزواري [٢].

٣ ـ جمال الدين الخونساري المعروف بالسيد آقا جمال الخونساري ابن السيد حين الخونساري المذكور آنفاً، تتلمذ لدىٰ والده وخاله المحقق السبزواري، له هوامش مختصرة علىٰ طبيعيات الشفاء، مطبوعة مع الطبعة الحجرية، وهوامش علىٰ شرح الاشارات، كان محققاً جامعاً بين العلوم الشرعية والعقلية، توفي في ١١٢١ هـ

٤ ـ قوام الدين محمد الرازي المعروف بقوام الدين الحكيم، قال الاستاذ همائي ف مقدمة لشرح المشاعر للمولىٰ جعفر اللنگرودي: ان قوام الدين كان تلميذ المولىٰ رجب

---

١ ـ روضات الجنان: ص ٣١٢.

٢ ـ روضات الجنات: ص ٦١٩.

علي التبريزي، واستاذ الشيخ عناية الله الگيلاني، وقد طبع السيد جلال الدين الاشتياني في المجلّد الثاني من مختاراته من آثار حكماء ايران، آثاراً من هذا الرجل وكتب شيئاً عن ترجمته.

٥ ـ محمد رفيع بير زادة، تلميذ المولىٰ رجب علي التبريزي، وهو من تلامذة تلامذة مير فندرسكي، طبع بعض آثاره في المجلّد الثاني من مختارات آثار حكماء ايران[١].

الطبقة الخامسة والعشرون:

١ ـ المولىٰ محمد صادق الاردستاني، لانعلم عنه سوىٰ أنه كان رجلاً حكيماً وزاهداً مترضاً، غضب عليه بعض معاصريه، وكفّره وأبعده حتىٰ توفى في ١١٣٤ هـ[٢].

قال السيد الاشتياني والأخ همائي أنه قد بقي من المولىٰ صادق رسالة باسم (حكمت صادقية) في النفس وقواها المادية والمعنوية.[٣]

من معاصريه: الشيخ عناية الله الگيلاني من تلامذة مير قوام الحكيم مدرس الفلسفة المشائية، والآخر مير سيد حسين الطالقاني مدرّس كتب الشيخ شهاب الدين السهروردي شيخ الاشراق وشرح فصوص الحكم لمحيي الدين ابن العربي[٤].

الطبقة السادسة والعشرون:

١ ـ المولىٰ اسماعيل الخاجوني من مشاهير حكماء القرون الأخيرة، مازندراني الأصل عظّمه صاحب روضات الجنات، وصفه بالعلم والجمع للعلوم الشرعية والعقلية وكذلك التقوىٰ والمعنوية والمتانة والوقار، ويقول: ان نادر شاه الذي لم يكن يتواضع لأحد كان يخضع لهذا الرجل، كان معاصراً لفتنة الافغان، وقد طغت علىٰ بعض كتاباته، ويقول صاحب الروضات: لم نعرف شيوخه واستاذته، هوالذي تصدىٰ للفلسفة بعد فتنة

---

١ ـ منتخبات آثار حكماى ايران بعد از ميرداماد ومير فندرسكي: ج ٢ ص ٤٤٩ ـ ٤٥١.

٢ ـ ريحانة الأدب: ج ١ ص ١٠٤.

٣ ـ مقدمة همائي على شرح مشاعر المولىٰ جعفر اللنگرودي.

٤ ـ مقدمة همائي علىٰ مشاعر اللنگرودي.

الافغان، وتربىٰ في حوزة درسه تلامذة بارزون من قبيل آقا محمد البيدآبادي واملولىٰ مهدي النراقي والميرزا أبي القاسم المدرس الاصفهاني والمولىٰ محراب الحكيم، تـوفىٰ ١٠٧٣ هـ[١].

٢ ـ الميرزا محمد تقي الماسي، ذكر صاحب الروضات انه حفيد أو سبط المجلسي، بل كان والده سبط المجلسي الأول، وقد دفن في بقعة المرحـوم المـجلسي بـاصفهان[٢]، ويصرح أنه كان استاذ آقا محمد البيدآبادي.[٣]

ويذكر همائي في مقدمة شرح المشاعر رجلين آخرين من معاصري المولىٰ اسماعيل الخاجوئي أحدهما: المولىٰ حمزة الگيلاني المتوفى في سنة ١١٣٤هـ تلميذ المولىٰ محمد صادق الاردستاني، والآخر المولىٰ عبدالله الحكيم من استاذة آقا محمد البيدآبادي.[٤]

الطبقة السابعة والعشرون:

١ ـ آقا محمد البيدآبادي الگيلاني الاصفهاني من أعاظم حكماء القرون الأخـيرة، ومحيي فلسفة المولىٰ صدرا.

منذ عهد صدرالمتألهين، حيث كانت أمواج أفكار القدماء من قبيل ابن سينا وشيخ الاشراق السهروردي هي الغالبة، ولاسيما في ما شاع من الفلسفة من قبل مير فندرسكي ثم المولىٰ رجب علي التبريزي، لم تكن تطرح أفكار صدرا إلّا بين الفضلاء من تلامذته والمنتهين اليه، ويقول المولىٰ صدرا نفسه، انه كان يعيش كاحد الطلاب العـاديين، ولم تكن له شهرة او حرمة خاصة[٥] بنما كان معاصره المولىٰ رجب علي التبريزي في مرحلة فيها حرمة وكرامة حتىٰ ان الشاه ووزراءه كانوا يسرعون الىٰ زيارته ولقائه.

فلم تعرف أفكاره ولم تعلُ إلّا تدريجياً، والظاهر أن العين التي ظهر منها معين صدرا

---

١ ـ روضات الجنات: ص ٣١ ـ ٣٢.

٢ ـ روضات الجنات: ص ١٢٢.

٣ ـ روضات الجنات: ص ٦٢٤.

٤ ـ مقدمة همائي علىٰ شرح المشاعر: ص ١٥.

٥ ـ المبدأ والمعاد ط حجر ص: ٢٧٨.

للجميع هوالمرحوم آقا محمد البيدآبادي.

كان ـ كمافي الروضات ـ رجلاً زاهداً متقياً حليماً، مؤثراً علىٰ نفسه متقشّفاً، وذكره الشيخ آغا برزك الطهراني في كتبه،وقال: عارف سالك الىٰ الله، أخلاقي مهذّب، طبعت له رسالتان في السير والسلوك بالفارسية في مجلة «وحيد» بعناية السيد المدرسي الطباطبائي من أفاضل الحوزة العلمية بقم المقدسة، ان الروح العرفانية والاخلاقية للبيدآبادي سببت له الاعراض عن أصحاب المال والرجال، كانوا يقبلون عليه وهو يعرض عنهم.

وق تربّىٰ علىٰ يده تلامذة كثيرون سنذكرهم.

توفىٰ في سنة ١١٩٧ هـ[١].

٢ ـ المولىٰ مهدي النراقي الكاشاني،كان من أعاظم فقهاء وحكماء الاسلام، هو وابنه المولىٰ أحمد النراقي يعدان من كبار علماء الاسلام الجامعين بين العقول والشريعة، تتلمذ لديه المرحوم السيد محمد باقر شفتي الاصفهاني والحاج محمد ابراهيم الكلباسي[٢] وكان هو من تلامذة المولىٰ اسماعيل الخاجوئي[٣].

٣ ـ ميرزا أبوالقاسم الحسيني الخاتون آبادي المعروف المدرّس، من مشاهير مدرّسي الفلسفة في اصفهان، وهو من اسرة مير محمد حسين الخاتون آبادي وسبط المجلسي[٤] كان من تلامذة المولىٰ اسماعيل الخاجوئي[٥] توفى عام ١٢٠٣ هـ

٤ ـ المولىٰ محراب الگيلاني، الحكيم والعارف المعروف عدّه صاحب الروضات في تلامذة الخاجوئي[٦] واضاف صاحب الريحانة أنه تتلمذ علىٰ البيدآبادي أيضاً[٧].

---

١ ـ روضات الجنات: ص ٦٢٤

٢ ـ روضات الجنات: ص ٦٤٨.

٣ ـ روضات الجنات: ص ٣٣.

٤ ـ روضات الجنات : ص ٢٦٦ .

٥ ـ روضات الجنات: ص ٣٣.

٦ ـ روضات الجنات: ص ٣٣.

٧ ـ ريحانة الأدب: ج ٥ ص ٣٨٥.

وقد نقل المرحوم الحاج الشيخ آقا برزك الطهراني في كتابه (نقباء البشر ص ١١١٤ أن المرحوم الميرزا عبد الرزاق خان البغايري صاحب كتاب (معرفة القلبة) المتوفىٰ في سنة ١٣٧٢ هكان من أسباط المولىٰ محراب، توفى المولىٰ محراب في عام ١١٩٧ هـ[١]

الطبقة الثامنة والعشرون:

١ ـ المولىٰ علي النوري المازندراني الاصفهاني، كان من أكبر الحكماء الالهيين الاسلاميين، ومن الافراد المعدودين، بالانامل في هذا القرن الاخير الذين نفذوا الىٰ أعماق فلسفة المولىٰ صدرا، بدأ بالدراسة في مازندران وقزوين، ثم رحل الىٰ اصفهان واستفاد من دروس آقا محمد البيدآبادي والسيد أبي القاسم المدرس الاصفهانيٰ وتصدىٰ بعدهم لادارة حوزة الفلسفة والحكمة في اصفهان.

كان المولىٰ علي النوري قليل النظير في التدريس وتشكيل الحوزات الدراسية وتربية الطلاب ونشر العلوم العقلية وطول مدة تكفله بذلك (قيل: سبعون سنة).

وحينما بني المرحوم محمد حسين خان المروي مدرسته في طهران طلب من الشاه فتح علي القاجاري ان يدعو المولىٰ النوري من اصفهان لتدريس المعقول فيهذه المدرسة، فدعا الشاه الشيخ لذلك، وكتب الشيخ في جوابه: في اصفهان الفان من الطلاب مشتغلون بدراسة الحكمة والفلسفة، أربعمئة منهم ـ بل أكثر ـ من المتفوقين بحضور درسي يحضرون لديّ، واذا حضرت الىٰ طهران ستتلاش هذه الحوزة الدراسية، فطلب منه الشاه مرة اخرىٰ ان يختار للتدريس في هذه المدرسة أحد أفاضل تلامذته، فاختار الشيخ النوري المولىٰ عبدالله الزنوزي وبعثه الىٰ طهران لذلك.[٢]

لم يكن كل هؤلاء التلامذة من اطراف اصفهان، بل اشتركوا في حوزه دراسة هذا الرجل الكبير من أكناف البلاد، وتفرقوا في البلاد ونشروا معهم العلم والحكمة، طوال

---

١ ـ مقدمه الشواهد الربوبية.

٢ ـ كتب هذا المرحوم آقا علي المدرس الزنوزي ابن المرحوم المولىٰ عبدالله الزنوزي ضمن ترجمة نفسه ووالده، وطبع في مقدمة (الانوار الجلية) للمولىٰ عبدالله الزنوزي من منشورات جامعة مك گيل.

سبعين سنة.

قال صاحب الروضات: رأيته شيخاً أبيضّت ليحته، وأنا صبيّ، كان يحضر صلاة المرحوم السيد محمد باقر حجة الاسلام في مسجد السيد، ويجلس بعدها عنده مع ان السيد كان من تلامذته، وكان السيد حجة الاسلام والمرحوم الحاج كلباسي، اللذان كانت لهما الرئاسة و المرجعية في اصفهان يقدمان المولىٰ علياً النوري علىٰ نفسيهما في المجالس[1].

ومع وجود حكماء كابر في ذلك العهد لم تستمر الفلسفة إلا عن طريق هذا الرجل الكبير، وقد بقيت عنه بعض الهوامش المختصرة والقصيرة علىٰ (الاسفار) في نهاية الدقة والمتانة، قيل: وله تفسير كبير لسورة التوحيد، توفى في سنة ١٢٤٦ هـ[2]

٢ ـ الحاج المولىٰ أحمد النراقي بن الحاج المولىٰ مهدي النراقي المذكور آنفاً، كان كوالده جامعاً للفنون مفتياً مجتهداً مرجعاً للتقليد والفتيا، تلقىٰ العلوم العقلية، توفىٰ في سنة ١٢٤٤ أو ١٢٤٥ هـ[3]

وينقل العلّامة الطهراني في كتابيه (الكرام البررة) و (نقباء البشر) عن كتاب (لباب الالقاب) للمرحوم المولىٰ حبيب الله الكاشاني اسماء جماعة من أهل العلوم العقلية في القرنين ١٣ و ١٤ في كاشان، يبدو من ذلك أن كاشان كانت حتىٰ العهد القريب من مراكز العلوم العقلية، والظاهر أن اشاعة العلوم العقلية في كاشان كانت بسبب النرقيين.

٣ ـ الميرزا مهدي بن الميرزا هداية الله الشهيد المشهدي، كا هذا الرجل من مشاهير الفقهاء والمعروفين من علماء ذلك العصر، وكان فيالفقه والاصول من تلامذة الوحيد البهبهاني، ومعاصراً للسيد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء، كان اصفهاني الأصل، تعلم الحكمة من دراسات آقا محمد البيد آبادي، وأقام فط المشهد المقدس، مدرّساً للفقه والاصول والعلوم العقلية، يذكره المولىٰ علي النوري زميله في الدراسة لدىٰ

---

١ ـ روضات الجنات: ص ٤٠٢.

٢ ـ روضات الجنات: ص ٦٤٧.

٣ ـ ريحانة الأدب: ج ٦ ص ١٦٠.

المرحوم البيدآبادي، في استفتاء من الميرزا أبي القاسم القمي ـ كما في الروضات ـ بعنوان: الميرزا مهدي المشهدي، وكان عالماً بالرياضيات تعلمها من الشيخ حسين العاملي المشهدي والد زوجته وجد أولاده، وأولاده الميرزا هداية الله والميرزا عبدالجواد والميرزا داود، كانوا أيضاً حكماء والآخيران رياضيين أيضاً، استمرت الحكمة والعلوم في اسرة السيد مهدي الشهيد قرابة قرن ونصف قرن من الزمان، والمرحوم الحاج ميرزا حبيب الله الرضوي المجتهد الحكيم العارف والشاعر المشهدي المعروف المتوفىٰ ١٣٢٧ هكان حفيده أو سبطه، وكذلك المرحوم آقا بزرك الحكيم الشيهدي المشهدي استاذ الفلسفه في خراسان في منتصف القرن الرابع عشر الهجري القمري المتوفى في ١٣٥٥هـ كان حفيده أو سبطه وسيأتي ذكره.

كماالميرزا مهدي يدرّس اشارات الشيخ الرئيس وبعض كتب الرياضيات، ولد عام ١١٥٢ هـ استشهد في المشهد المقدس دفاعاً عن حقوق الناس، مقاوماً اختلاس نادر ميرزا، حفيد نادرشاه، من أموال العتبة المقدسة الرضوية، علىٰ يد نادر ميرزا.[1]

الطبقه التاسعة والعشرون:

١ ـ ميرزا حسن النوري بن المولىٰ علي النوري، تعهد بالدراسة بعد والده، وشكّل حوزة لها أهميتها، وممن استفاد من دراساته كثيراً، المرحوم آقا علي المدرس الزنوزي، الطهراني ـ سيأتي ذكره ـ حينما رحل الىٰ اصفهان، وقد نقل الاستاذ جلال الدين همائي في مقدمة كتابه ان بعض العلماء رجحوا الولد علىٰ الوالد في الفلسفة، وليس اليوم لدينا منه اثر يذكر ليحكم له بذلك إلّا أن تلميذاً كالسيد علي المدرس شاهد صدق علىٰ مراتب فضله. وعلىٰ أية حال، فهو ممن له دور مؤثر في نقل الفلسفة من السابقين الىٰ اللاحقين.

٢ ـ المولىٰ اسماعيل بن المولىٰ محمد سميع الدرب كوشكي الاصفهاني المعروف بواحد العين، كان من أجلاء تلامذة المولىٰ علي النوري واساتذه الحاج المولىٰ هادي السبزواري، كانت له حوزة دراسية يعتدّ بها، له هوامش علىٰ الاسفار والمشاعر للمولىٰ

---

١ ـ تراجع مقدمة حسبن حبيب لديوان المرحوم الحاج ميرزا حبيب الرضوي من ص ٨٦ فما بعد.

صدرا و شوارق اللاهيجي، وشرح لعرشيته، توفىٰ سنة ١٢٧٧ هـ[١].

٣ ـ المولىٰ عبدالله الزنوزي، هو الذي بعثه الحكيم النوري من اصفهان الىٰ طهران بطلب من محمد حسين خان المروي، لتدريس الفلسفة في مدرسته، ومن حينه بدأت مركزية طهران للدراسة تقوىٰ وتضعف مركزية اصفهان لذلك.

درس المقدمات في آذربايجان ـ كما ذكر ابنه آقا علي المدرس ـ ثم ذهب الىٰ كربلاء المقدسة وتمتع بدراسة الفقه في حوزة المرحوم صاحب الرياض، ثم رجع الىٰ قم المقدسة فتمتع بحضور دروس الميرزا القمي المجتهد المعروف (صاحب القوانين) ثم رحل الىٰ اصفهان فتعلم الحكمة بحضور دروس الحكيم النوري، ثم انتقل الىٰ طهران عام ١٢٣٧ هـ وبعد عشرين عاماً من التدريس، في مدرسة مروي رحل الىٰ جوار رحمة الله سنة ١٢٥٧ هـ[٢].

٤ ـ المولىٰ محمد جعفر اللنگرودي اللاهيجي، كان معاصراً للمولىٰ عبدالله الزنوزي وتلميذاً للسيد أبي القاسم المدرس الاصفهاني والمولىٰ محراب الگيلاني، لاسيما المولىٰ علي النوري، أثره المعروف (شرح المشاعر) للمولىٰ صدرا، طبع أخيراً بمناسة المئة الرابعة لميلاد المولىٰ صدرا مع مقدمة بالانجليزية بقلم الدكتور السيد حسين نصر ومقدمة بالفارسية بقلم الاستاذ جلال الدين همائي، ومقدمة بالفارسية أخرىٰ بقلم الاستاذ السيد جلال الدين اشتياني، وله بالاضافة الىٰ شرح المشاعر هوامش علىٰ شرح التجريد للقوشجي وحاشية الخفري علىٰ شرح التجريد للقوشجي ألفها أيام السلطان محمد شاه القاجاري عام ١٢٥٥ هـ

لانعرف تاريخ وفاته،وكتب همائي يقول: كانت وفاته قبل عام ١٢٩٤ هـ علىٰ التحقيق.

والعجيب أن المرحوم العلّامة الطهراني الشيخ آقا بزرك في كتابه (الكرام البررة فط

---

١ ـ ريحانة الأدب: ج ٦ ص ٢٨٥.

٢ ـ تراجع مقدمة آقا علي الزنوزي ابن المرحوم في مقدمة (الانوار الجلية) من مؤلفات والده، طبع أخيراً في جامعة مك گيل ـ القسم الاسلامي.

علماء القرء الثالث بعد العشرة ص ٢٣٩ و ص ٢٥٧) يذكر ثلاثة حكماء معاصرين باسم واحد من گيلان: الشيخ جعفر اللاهيجي والشيخ محمد جعفر اللنگرودي والشيخ محمد جعفر اللاهجيي، شرح المشاعر وكتب هوامش علىٰ الهيات شرح التجريد.

ومن المستبعد جداً وجود ثلاثة حكماء بهذا الاسم في عصر واحد من منقطة واحدة.

٥ ـ المولىٰ آقال القزويني هذا الرجل من افاضل تلامذة المولىٰ علي النوري[١]، شكل حوزة عامرة في قزوين بعد رجوعه من اصفهان واسرع اليه الفضلاء من كل مكان، كتب المرحوم آقا علي المدرس الزنوزي في ترجمته الشخصية انه رحل الىٰ قزوين للاستفادة من فيض دروس هذا الرجل، وهو من تلامذة المولىٰ اسماعيل الاصفهاني اكبر تلامذة المولىٰ علي المنوري.[٢]

وبهذا الاعتبار يمكن أن نعده في الطبقة الثلاثين من معاصري السبزواري، توفىٰ في ١٢٨٢ هـ[٣]

الطبقة الثلاثون:

١ ـ الحاج المولىٰ هادي السبزواري، أشهر الحكماء الإلهيين في القرن الأخير بعد المولىٰ صدرا، ولد سنة ١٢١٢ في سبزوار، كان له سبع سنين حين توفي والده، ولما بلغ العاشرة ذهب للدراسة الىٰ المشهد المقدس واقام بها عشر سنين، حتىٰ جذبته شهرة حكماء اصفهان الىٰ تلك المدينة، واستفاد فيها مدة سبع سنين من دراسات المولىٰ اسماعيل الدرب كوشكي الاصفهاني، وثلاث سنين من دروس الحكيم النوري، ثم رجع الىٰ المشهد المقدس وتصدىٰ للتدريس ثم عزم علىٰ الحج الىٰ البيت الله الحرام، وفي أيابه أقام ثلاث سنين بكرمان وحاول أن لايعرف بها كي يرتاض ويربي نفسه فيها ولذلك قام في كل تلك المدة بمساعدة خادم المدرسة في خدمة الطلاب، حتىٰ خطب ابنة الخادم

---

١ ـ الكرام البررة للعلامة آقا بزرك الطهراني: ص ١٥١.

٢ ـ مقدمة الاشتياني لشرح المشاعر للاهيجي ص ٤٥.

٣ ـ مقدمة الاشتياني للانوار الجلية ص ٥.

وتزوجّها ثم سافر الىٰ سبزوار، وتوقف بها أربعين عاماً من دون أن يخرج منها حتىٰ مرة واحدة، واشتغل بالقراء والبحث والتدريس والتأليف والعبادة ورايضة النفس وتربية الطلاب حتىٰ الوفاة.

ولم يبلغ بعد الحكيم النوري أحد مبلغ الحكيم السبزواري فط تشكيل حوزة فلسفية عامرة واجتذاب الطلاب من الاطراف وتربيتهم ونشرهم في البلاد، وقد طار صيته في جميع أكناف ايران وأقسام من خارجها، واسرع اليه طلاب الحكمة من كل مكان، وأصبحت سبزوار المدينة المتروكة الهادئة قبلة طلاب الحكمة من أثر وجود هذا الحكيم العظيم بها.

كان كنت گوبينو الفيلسوف الفرنسي المعروف ـ صاحب النظرية المعروفه في فلسفة التاريخ ـ الوزير المختار لفرنسا في ايران علىٰ عهد شهرة الحكيم السبزواري، وكتب كتباً عن ايران بعنوان (ثلاث سنين في ايران) يقول فيه: «طبقت شهرته العالم حتىٰ اقبل اليه طلاب كثيرون من الهند وتركيا والحجاز للاستفادة من دراساته الفلسفية في سبزوار بمدرسته العلمية»[1].

كان الحكيم السبزواري، حسن البيان والتقرير، وتدريسه كان عن شوق وجاذبية، وكان بالاضافة الىٰ مكانته العلمية والحكمية، صاحب ذوق عرفاني عظيم، وصاحب مراقبة تعبد وانضباط وتديّن ـ سلكاً الىٰ الله.

ومجموعة هذه الاوصاف جعلت تلامذته يغرمون به فلا مثيل له في جاذبيته في التدريس والعلاقة بينه وبين طلابه، حتىٰ كان بعض تلامذته يذكرونه بعد فترة زمينة أمتدت أربعين عاماً، فيهيجون ويبكون لاجله.

تلامذته كما اطلعنا عليهم هم:

١ ـ المولىٰ عبد الكريم خبوشاني (القوجاني) له حاشية علىٰ منظومة المنطق.

٢ ـ ميرزا حسين السبزواري المقيم بطهران استاذ المولىٰ محمد الهيدجي والميرزا

---

١ ـ مقدمة «مؤسسة المطالعات الاسلامية في جامعة مك گيل» لشرح منظومة السبزواري من طبع المؤسسة،نقلاً عن كتاب «المذاهب والفلسفة في القرون الوسطىٰ» من تأليف كنت گوبينو.

علي أكبر اليزدي المقيم بقم المقدسة[1].

٣ ـ الحاج ميرزا حسين العلوي السبزواري المقيم بسبزوار، الذي لامثيل له في البحث والتحقيق[2].

٤ ـ الحكيم عباس الدارابي استاذ الفلسفة الشهير في مقاطعة فارس[3].

٥ ـ الشيخ ابراهيم السبزواري استاذ شيخ الرئيس القاجاري[4].

٦ ـ الشيخ محمد ابراهيم الطهراني الذي كان له مرسلات مع الحكيم السبزواري، وقد رآها العلامة الطهراني عند الشيخ محمد جواد الجزائري[5].

٧ ـ السيد أبو القاسم الموسوي الزنجاني[6].

٨ ـ السيد عبد الرحيم السبزواري[7].

٩ ـ المولىٰ محمد الصباغ[8].

١٠ الشيخ محمد رضا البروغني استاذ الشيخ هادي البيرجندي[9].

١١ ـ الميرزا عبد الغفور الدارابي[10].

١٢ ـ المولىٰ غلام حسين شيخ الاسلام المشهدي استاذ الحاج فاضل الخراساني وآقا برزك الشهيدي المشهدي[11].

١٣ ـ الميرزا محمد السروقدي استاذ الحاج فاضل الخراساني وآقا بزرك الشهيد المشهدي[12].

---

١ ـ ريحانة الأدب: ج٦ ص ٣٨١ ونقباء البشر ص ٥٠٢.

٢ ـ نقباء البشر: ص ٥٦٩.

٣ ـ نقباء البشر: ص ٩٨٣.

٤ ـ نقباء البشر: ص ٣.

٥ ـ الكرام البررة: ص ٦.

٦ ـ نقباء البشر: ص ٥١.

٧ ـ نقباء البشر: ص ٧٢٧.

٨ ـ نقباء البشر: ص ٨٥٤.

٩ ـ نقباء البشر: ص ٧٢٧.

١٠ ـ مقدمة الاشتياني لرسائل الحكيم السبزواري: ص ٦٧ ـ ٨٢.

١١ ـ المصدر السابق.

١٢ ـ المصدر السابق.

١٤ ـ الشيخ علي الفاضل التبتي.[١]

١٥ ـ ميرزا آقا حكيم الدارابي.[٢]

١٦ ـ ميرزا محمد اليزدي.[٣]

١٧ ـ الحاج ميرزا أبوطالب الزنجاني.[٤]

١٨ ـ الحاج المولىٰ اسماعيل العارف البجنوردي.[٥]

١٩ ـ الشيخ عبد الحسين شيخ العراقيين.[٦]

٢٠ ـ ميرزا محمد الحكيم الالهي.[٧]

أن اكبر حسنات الحكيم السبزواري، هو المرحوم الحكيم الرباني والعارف الكامل الالهي والفقيه المعروف الآخوند مولىٰ حسين قلي الهمداني الدرجزيني قدس سره، هذا الرجل الكبير والكريم كان ابن فلاح طاهر الطينة، رحل من همدان الىٰ طهران لطلب العلم، ثم جذبه صيت الحكيم السبزواري وشهرته، وجاذبيته المعونية الىٰ سبزوار، واشترك في حوزة ذلك الحكيم مدة لا أعلم تاريخها ومقدارها، ثم تشرف الىٰ العتبات المقدسة، ودخل في زمرة طلبة استاذ المتأخرين الحاج مرتضىٰ الانصاري (رحمه الله) لاكمال العلوم الشرعية.

وفي تلك الايام تشرف بلقاء الآقا سيد علي الشتوشتري وطوىٰ مراحل السير والسوك الىٰ الله لدىٰ هذا العالم الجليل، وتوصل هو الىٰ مقام من الكمال والمعرفة لا يُعرف له مثيل إلّا قليلاً.

ولوكان تلامذة حوزة الحكيم السبزواري يفتخرون بالحضور في تلك الحوزة،فان تلك الحوزة تفتخر بحضور رجل كهذا.

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ المصدر السابق.

٦ ـ المصدر السابق.

٧ ـ المصدر السابق أيضاً.

ان حوزة دراسة المرحوم الآخوند مولىٰ حسين قلي،كانت حوزة تربية أكثر من التعليم، حوزة لتربية الانسان الأكثر كمالاً، وقد تخرج في هذه الحوزة رجلا كبار، يمكن معرفة سعة رقعة هذه التربية من خلال مطالعة مواضع متفرقة من كتاب (نقباء البشر).

ويستفاد من المصدر والاسناد المنشورة بشأن السيد جمال الدين الأسدآبادي المعروف بالافغاني [1] ان السيد استفاد من الحضور لدىٰ شخصين في مدة اقامته في النجف بان السيد جمال الدين كان مشتغلاً، بالدراسة في النجف الأشرف، وبالاضافة الىٰ ما يستفاد من ذلك من بعض آثاره، والتصريح بان السيد جمال الدين استفاد من دراسات هذين العلمين، يظهر أن السيد كان يحضر في العلوم العقلية لدىٰ ابن بلدته الآخوند الهمداني، وعلىٰ هذا فالسيد جمال من تلامذة تلامذة الحكيم السبزواري.

وحسب المصادر الموجودة كان السيد جمال الدين في مدة اقامته في النجف الأشرف مع السيد سعيد الحبوبي والسيد أحمد الكربلائي الطهراني من تلامذة الآخوند الهمداني المعروفين، بالخضوع وسلوك مراحل السير الىٰ الله،وكانت بينهم صداقة قوية [2]، وهذا جانب من جوانب شخصية هذا الرجل الخارق للعادة، وبعد جديد من أبعاد حياته، لم نر أحداً قد تنبه اليه.

كان الحكيم السبزواري ينظم الشعر بالفارسية والعربية، وكنىٰ نفسه في الشعر الفارسي بكلمة (أسرار) فهو وان كانت له اشعار غير قوية في القسمين العربي والفارسي، إلّا أنه له أشعاراً في القسمين أيضاً كمال الجمال والنظم.

توفى الحكيم السبزواري سنة ١٢٨٩ هـ في حالة من الغيبوبة واللاّوعي، ونظم أحد تلامذته بيتين يؤرّخ بهما وفاة الاستاذ الحكيم قال فيهما ما معناه:

---

١ ـ يراجع بالفارسية: «سيد جمال الدين الحسيني بايه گذار نهضت هاى اسلامي» ص ٢٦ ـ ٣١، و «مجموع اسناذ ومدارك در بارهٔ سيد جمال» للدكتور ايرج افشار وأصغر مهدوي.

٢ ـ المصدر نفسه.

لما مضىٰ (أسرار) من هذي الدُنى بلغ الأنين من الثرىٰ للعرش
قد قلت في تاريخه أن أرّخوا: بلغ الحياة لم يمت (أسرار):(١٢٨٩ هـ)[1]

٢ ـ آقا علي الزنوزي المعروف بآقا علي حكيم وآقا علي المدرس، ابن المولىٰ عبدالله الزنوزي المذكور آنفاً، وهو من الاساتذة النوادر في القرن الأخير، ولد في اصفهان عام ١٢٣٤ هـ أي قبل رحلة والده من اصفهان الىٰ طهران بثلاث سنين، استفاد كثيراً من علومه الشرعية والعقلية من والده، ثم هاجر الىٰ العتبات المقدسة لتكميل دراساته، ثم رجع الىٰ اصفهان وتمتع بالحضور لدىٰ دراسات الميرزا حسين النوري ابن المولىٰ علي النور، ثم ذهب الىٰ قزوين واستفاد من دروس المولىٰ آقا القزويني، ثم رجع مرة اخرىٰ الىٰ اصفهان الىٰ دروس الميرزا حسن النوري لاكمال دراساته، وأخيراً رجع الىٰ طهران، وأصبح مدرس رسمياً في مدرسة (سبهسالار) القديمة[2] حتىٰ توفى طهران سنة ١٣٠٧ هـ

٣ ـ آقا محمد رضا الحكيم القمشة اى، كان من اعاظم وأساطين العرفاء في القرون الأخيره، وهو من أهل مدينة (قُمْشه = شهرضا) هاجر في شبابه الىٰ اصفهان للدراسة وتمتع بالحضور لدىٰ الميرزا حسن النوري[3] والمولىٰ ممد جعفر اللنگرودي[4] وتعهد التدريس مدة سنين في اصفهان، وقبل عشره سنين من نهاية عمره هاجر الىٰ طهران، وسكن في مدرسة الصدر وتصدىٰ للتدريس هناك، واستفاد منه عدّة من الفضلاء، وهي السنين التي ذاع فيها صيت المرحوم.

كان متواضعاً عارفاً، يأنس بالوحدة والخلوة مبتعداً عن المجتمع، وكان ثرياً في شباه، إلّا أنه صرف ما يملكة من المنقول وغير المنقول للمعوزين، في سنين عجاف جافية (١٢٨٨هـ) وعاش فقيراً حتىٰ نهاية عمره.

---

١ ـ من تعريب المعرّب، والأصل:

اسرار چواز جهان بدرشد از فرش به عرش ناله برشد
تاريخ وفاتش ار بجوئی گويم: كه نمرد،زنده ترشد

٢ ـ مقدمة الانوار الجلية بقلم المرحوم نفسه.

٣ ـ مقدمة رسالة (ولايت) للحكيم القمشه اى: ص ٢ بالفارسية.

٤ ـ مقدمة همائي لكتاب (برگزيدهٔ ديوان سه شاعر اصفهان) ص ٢١، بالفارسية.

كانت ايام رحلته الىٰ طهران ايام شهرة آقا علي المدرس الزنوزي والميرزا أبي الحسن جلوه، ومع أنه كن يذهب مذاهب المولىٰ صدرا إلّا انه درّس كبت ابن سينا وكسر بذلك مجالس دروس الميرزا أبي الحسن جلوه مع تخصصه في فلسفة ابن سينا، حتىٰ اشتهر: أن الجلوة سقط عن الجلوة أي الشهرة والصيت!.

لم يخرج الحكيم قمشه اى عن زيّ القرويّين، ولم يدخل في زيّ العلماء أبداً، وقد نقل المرحوم جهان گير القشقائي الذي كان تلميذ الحكيم قشه اى قال: رحلت الىٰ طهران بدافع شوق الاستفادة من دروس الحكيم قشه اى، وفي الليلة الأولىٰ وصلتاليه فرأيته ليس في غير زيّ العلماء وانما يشبه بائعي الاقمشة القروية (قرية: سِدهٔ، من قرىٰ اصفهان) عرضت عليه جاجتي فقال: ميعادي معك بكرىٰ في الخرابات، وهي محل خارج خندق طهران القديم، وكان هناك مقهىٰ لدرويش، ذهبت بكرىٰ مع كتاب اسفار المولىٰ صدرا، فرأيته في خلوة علىٰ حصير، فتحت الكتاب فقرأ منحفظه، ثم أخذ في تحقيق المطلب، فرأىٰ الحكيم فيّ حالة من الوَجْد والطَرَبْ، فقال: أجل! أن حرارة الخمرة تستبدّ بالابريق فتكسره![1].

كان الحكيم قمشه اى ذا ذوق شعري قوي، ويكنىٰ نفسه في الشعر الفارسي بكلمة (صهبا) توفى عام ١٣٠٦ هـ في حجرته في المدرسة في وحدة وخلوة وسكون، وكان يوم وفاته مصادفاً لوفاة مفتي البلد الكبير المرحوم الحاج المولىٰ علي الكني، وقامت ضجة في البلد لوفاته، ولم يطّلع أحباؤه علىٰ وفاته إلّا بعد ساعات من ذلك، فسارعوا الىٰ تجهيزه ودفنه فوق رأس المرحوم الكني[2].

مات الحكيم السبزواري كما عاش وحيداً، وعاش كما قال هو في بيت من الشعر معناه:

هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم

وأما أنا فأريد زاوية والخرابات ليست قليلة!

---

١ ـ مقدمة رسالة (ولايت) للحكيم قمشه اى: ص ١٤.

٢ ـ مقدمة همائي (برگزيدهٔ ديوان سه شاعر اصفهان).

وقد اهتم الحكيم قمشه اى بتربية تلامذة كثيرين منهم:

آقا ميرزا هاشم الأشكوري، وآقا ميرزا حسن الكرمان شاهي، وآقا ميرزا شهاب النيريزي، وجهان گير خان القشقائي، والآخوند المولىٰ محمد الكاشي الاصفهاني، والميرزا علي أكبر اليزدي وكان مقيماً في قم المقدسة، والشيخ علي النورط مدرس مدرسة المرويالمعروف بالشيخ علي شوارق، والميرزا محمد باقر الحكيم والمجتهد الاصطهباناتي، وكان مقيماً فيالنجف الأشرف وقد قتل في الحركة الدستورية (المشروطة) ودفن في اصطهبانات، والحكيم صفا الاصفهاني الشاعر العراف المعروف، والشيخ عبدالله الرشتي الرياضي، والشيخ حيدر خان النهاوندي القاجاري والميرزا أبوالفضل كلانتر الطهراني، والميرزا سيد حسين الرضوي القمي،والشيخ محمود البروجردي، والميرزا محمود القمي.[1]

٤ ـ ميرزا أبو الحسن جلوه،وكان من مشاهير استاذة ومدرّسي هذه الطبقة، درّس سنين طويله، وربّى تلامذة كثيرين، ولد سنة ١٢٣٨ هـ وتوفي في سنة ١٣١٤ هـ كان المرحوم جلوه يدافع عن فلسفة ابن سينا، ولم يكن يعتقد بفلسفه المولىٰ صدرا، وكان اصفهانياً هاجر الىٰ طهران، وهو تلميذ الميرزا حسن النوري والميرزا حسن الچيني من تلمذة المولىٰ علىٰ النوري، قيل: ان جلوه جاء الىٰ طهران ليذهب الىٰ سبزوار ليستفيد من دروس الحاج سبزوراي ولكنه أعرض عن هذا وأقام بطهران، ودارت حوزة الفلسفة في طهران فيأواخر القرن عشر وأوائل القرن الرابع عشر علىٰ محور هؤلاء الثلاثة:جلوه، والحكيم قمشه اى، وآقا عليالمدرس، والأخيران كانا متقدمين علىٰ جلوة علمياً، وأكثر تلامذتهم مشتركون.

الطبقة الحادية والثلاثون:

الميرزا هاشم الاشكوري الرشتي، كان من استاذة الفلسفة والعرفان في عره، وقد

---

١ ـ يراجع: نقباء البشر: ص ٧٣٣ و ٦٩٠ و ١١٨٥، ومقدمة رسالة المرحوم قمشه اى في (الولاية والخلافة الكبرىٰ) التي هي هوامش علىٰ فص من فصوص الحكم ـ ص ٢.

تربىٰ في حوزة درساته المباركة تلامذة كثيرون، وهو أحد الأركان المتوسطة الناقلة للفلسفة والعرفان الىٰ الطبقات الآتية، كان شهرته بين معاصريه فيالعرقان النظري،له هوامش علىٰ مصباح الانس للفناري الذي هو شرح لمفتاح الغيب للقونوي، وهي مطبوعة ولكنهامع الأسف طبعة رديئة تذهب بالعينين ثمناً لقراءتها!كان من تلامذة الحكيم قمشه اى وآقا علي المدرس والميرزا جلوه، توفى في سنه ١٣٣٢ هـ

٢ ـ ميرزا حسن الكرمانشاهي، معاصر الاشكوري، وهو تلميذ الاستاذة الثلاثة المذكورين آنفاً، هو ايضاً ممن ربىٰ تلامذة كثيرين، ومن أركان انتقال الفلسفة الىٰ الطبقات المتأخرة، توفى في سنة ١٣٣٦ هـ

٣ ـ ميرزا شهاب الدين النيريزي الشيرازي،تلميذ الحكيم قمشة اى والميرزا جلوه، و كانت له مهارة تامة في الفقه والاصول ايضاً،وكانتله طول ممارسة فيالعرفان النظري علىٰ مسلك محيي الدين ابن العربي، أقام الحكيم النيريزي بمدرسة الصدر التي كانت قبلهم مقر استاذهم الحكيم قمشه اى، واخذ في البحث والتدريس وتربية التلامذة، له رسالة في «حقيقة الوجود» كانت موجودة لدىٰ المرحوم الشيخ آقا برزك الطهراني.[1]

٤ ـ الميزرا عباس الشيرازي الدارابي المعروف بالحكيم عباس، كان من استاذة الفلسفة في محافظة فارس،وهو تلميذ الحكيم السبزواري، وقد ذكرناه،وكتب العلامة الطهراني يقول: كان بارعاً في المعقول والمنقول، كتب الاسفار بخطه وكتب عليها هوامش لنفسه، وشرح دعاء كميل،وقصيدة مير فندرسكي، ومن تلامذته الشيخ أحمد الشيرازط النجفي المعروف بلقب (شانه ساز) والميرزا ابراهيم النيريزي من مدرسي الحكمة في شيراز[2]، و يقول العلّامة الطهراني: لا أعلم تاريخ وفاته، إلّا أن فرصت الدولة الشيرازي كتب في (آثار العجم) أن وفاته كانت في سنة ١٣٠٠ هـ وقبره بمقبرة حافظ الشيرازي.

٥ ـ جهان گيرخان القشقائي، اشتاق الىٰ دراسة العلم في كبره وتتبّع ذلک حتىٰ أصبح

---

١ ـ نقباء البشر: ص ٨٤٥.

٢ ـ نقباء البشر: ص ٩٨٣.

استاذ الفلسفة في اصفهان، كان المرحون القشقائي بالاضافة الىٰ مكانته العلمية والفلسفية نموذجاً في الوقار والانضباط، والمتانة الاخلاقية والتقوىٰ،بقي الىٰ آخر عمره في ملابسه الأولىٰ، وكان تلامذته يحبونه حباً جمّاً، كان تلميذ المرحوم آقا محمد رضا قمشه اى، ويحتمل أن يكون قد أدرك في بداية دراسته دروس الميرزا عبد الجواد الحكيم الخراساني المقيم باصبهان والمولىٰ اسماعيل الاصفهانيالدرب كوشكي [1]، ولد جهان گيرخان عام ١٢٤٣ في بلدة دهاقان من قرىٰ اصفهان وتوفى في اصفهان سنة ١٣٢٨ ودفن بها وقبره في مقبرة (تخت فولاد).

٦ ـ الآخوند المولىٰ محمد الكاشي المقيم باصفهان، معاصر جهان گيرخان وتلميذ الآقا محمد رضا قمشه اى،كان اقام بمدرسة باصفهان وبقي حتىٰ آخر عمره دون زواج، مثل جهان گيرخان، وكان رجلاً رياضياً له حالات عجيبة، كثير من الأكابر كانوا من تلامذة منهم المرجع الكبير المرحوم السيد الحاج آقا حسين البروجردي [2] والشيخ حاج آقا رحيم أرباب [3]، توفى الآخوند الكاشي سنة ١٣٣٢ فيإصفهان ودفن في مقبرة (تخت فولاد) قرب جهان گيرخان.

٧ ـ آقا محمد باقر الاصطهباناتي، هو أيضاً من تلامذة آقا علي الحكيموالحكيم قمشه اى والميرزا جلوه، ذهب لاكمال دراساته العقلية الىٰ العتبات المقدسة،وهناك درس علىٰ لديه العلوم العقلية جماعة، منهم المحقق الكبير المرحوم الحاج الشيخ محمد حسين الاصفهاني الغروي والمرحوم الحاج الشيخ غلام رضا اليزدي، قتل في الحركة الدستورية (المشروطة) سنة ١٣٢٦ في اصطهبانات.[4]

٨ ـ الميرزا علي أكبر الحكمي اليزدي القمي،كان من تلامذة الأساتذة الثلاثة المذكورين آنفاً، بالاضافة الىٰ السيد ميرزا حسين السبزواري المقيم بطهران [5]، ولعله

---

١ ـ مقدمة همائي اللنگرودي علىٰ مشاعر المولىٰ صدرا ص ١١.

٢ ـ سمعت ذلك منه سنة ١٣٢٢ (شمس) حينما كنت أحضر دروسه في بروجرد.

٣ ـ توفي رحمه الله عام ١٣٩٨ هـ

٤ ـ نقباء البشر: ص ٢١٢.

٥ ـ ريحانة الأدب: ج ٦ ص ٣٨١ في ترجمة المولىٰ محمد الهيدجي.

درس عند الأخير الرياضيات [1] وكان في أواخر عمله مقيماً في قم المقدسة، وبعد أن انتقل المرحوم الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري الىٰ قم المقدسة وشكّل الحوزة العملية واجتمع الفضلاء حوله، حضر لديه جماعة منهم المرحوم الحاج السيد محمد تقي الخونساري من مراجع التقليد في عصرنا والحاج السيد أحمد الخونساري أحد مراجع التقليد المعاصرين، واستاذ الكبار من المراجع المعاصرين [2] والظاهر أنه توفى في سنة ١٣٤٥ هـ

٩ ـ الحاج الشيخ عبد النبي النوري، جامع المعقول والمنقول، كان من المنقول تلميذ المرحوم الميرزا الشيرازي الكبير وفي المعقول تلميذ آقا علي المدرس، ومن المحتمل أن يكون قد تتلمذ لدىٰ قمشه اى وجلوه، توفى في سنة ١٣٤٤ ودفن في حضره عبد العظيم في مقبرة ناصر الدين شاه القاجاري، كان المرحوم الحاج الشيخ عبدالنبي معروفاً بالشمولية وحضور الذهن في مسائل العلوم المختلفة،والتقىٰ وتتلمذ عليه المرحوم الشيخ محمد تقي الآملي الفقيه والحكيم المعاصر المتوفىٰ في ١٣٩١ هـ مدة أربعة عشر عاماً.

١٠ ـ الحاج ميرزا حسين العلوي السبزواري تلميذ السبزواري فيالمعقول وتلميذ الميرزا الشيرازي في المنقول، كان معروفاً بالذكاء والحفظ، قيل: أن التعظيم الذي أبداه الميرزا الشيرازي في اجازة اجهاده لم يقله لاحد غيره، ونأسف أن عمره ذهب عبثاً في سبزوار دون أن يستفاد منه فائدة يعتد بها،ولد سنة ١٢٦٨ هـ وتوفىٰ فيعام ١٣٥٢ هـ [3]

١١ ـ الشيخ غلام حسين شيخ الاسلام الخراساني كان من تلامذة الحاج السبزواري، ادرك درسه مدة ست سنين في سبزوار، وحمل مشعل العلوم العقلية مدة سنين في المشهد المقدس، يذكر أسمه مع المرحوم الحاج ميرزا حبيب في قصة «راچه» (وهي قصة

---

١ ـ اذ كان أكثر تخصصه في الرياضيات.

٢ ـ هو سماحة آية الله العظمىٰ نائب الامام السيد روح الله الموسوي الخميني قدس سره، قائد الثورة الاسلامية المباركة المظفرة، وانما كنى عنه تقية، لانه كتب الكتاب في عهد الشاه، حيث كان الاعلام باسم الامام يكفي لمواجهة اشد العقوبات ـ المعرّب.

٣ ـ نقباء البشر: ص ٥٦٩.

معروفة في مشهد).[1]

كان من تلامذتة المرحوم الحاج الشيخ عباس علي الخراساني المعروف بالحاج فاضل، ولد في سنة ١٢٤٦ هـ وتوفى في عام ١٣١٩ هـ[2]

١٢ ـ الميرزا محمد السروقدي المشهدي، كان من تلامذة الحاج السبزواري ومدرسي العلوم العقلية في المشهد المقدس، وحضر لديه الحاج فاضل الخراساني.[3]

١٣ ـ المولىٰ محمد الهيدجي الزنجاني، بعد أن درس المقدمات في زنجان وقزوين رحل الىٰ طهران واستفاد علم الرياضيات من دراسات آقا ميرزا محمد حسين السزواري المقيم بطهران، والحكمة والفلسفة من دروس الميرزا جلوه، ولتكميل معلوماته سافر الىٰ العتبات المقدسة، وهناك أكمل دراساته العقلية والشرعية، وبعد رجوعه الىٰ طهران أصبحت له حوزة دراسية خاصة، له هوامش علىٰ شرح المنظومة للحكيم السبزواري مطبوعة، كا متمتعاً بصفاء النفس وتهذيبها، وبقىٰ كبعض اسلافه دون زواج، حتىٰ نهاية عمره وتوفى في سنة ١٣٣٩ هـ كان ينظم الشعر بالفارسية والتركية جيداً[4] له وصية حكيمة واعظة طبعت في آخر ديوانه المطبوع.

الطبقة الثانية والثلاثون:

١ ـ الحاج الشيخ عباس علي الفاضل الخراساني، كان في العلوم العقلية من تلامذة الحكيم السبزواري، وفي الشرعية من تلامذة المرحوم الميرزا الشيرازي الكبير كما سلف، وهو من نماذج الفضلاء في القرن الأخير.

نماذج الفضل والدقة والتحقيق والشمول في القرن الأخير ثلاثة: الحاج فاضل الخراساني في المشهد المقدس، والحاج الشيخ عبد النبي النوري في طهران، والحاج

---

١ ـ تراجع مقدمة حسن حبيب لديوان المرحوم الحاج ميرزا حبيب الشهيدي الخراساني: ص ٢٥ ـ ٣٧.

٢ ـ مقدمة الشواهد الربوبية: ص ١٤٦.

٣ ـ مقدمة الشواهد الربوبية: ص ١٤٦.

٤ ـ ريحانة الأدب: ج ٦ ص ٣٨١.

ميرزا حسين العلوي السبزواري في سبزوار، وقيل أن الحاج ميرزا حسين كان أفضلهم، أما الحاج فاضل فقد كان المدرّس الرسمي لكتب الفلسفة في حوزة مشهد العامرة علىٰ عهده، توفي في مشهد سنة ١٣٤٤ أي في السنة نفسها التي توفي فيها معاصره في طهران.

٢ ـ الميرزا العسكري الشهيدي المشهدي المعروف بآقا بزرك الحكيم، هو من أحفاد المرحوم الميرزا مهدي الشهيد المشهدي معاصر المولىٰ علي النوري، وقد ذكرا في الطبقة الثامنة والعشرين، وقلنا أن اسرة الشهيدي لازالت بيت العلم والحكمة والروحانية طوال قرن ونصف قرن من الزمان، المرحوم آقا بزرك ابن المرحوم ميرزا ذبيح الله، وهو ابن وتلميذ المرحوم ميرزا هداية الله، وهو ابن وتلميذ المرحوم الميرزا مهدي الشهيد تلميذ المرحوم آقا محمد البيد آبادي والشيخ حسين العاملي.

ولم نطلع علىٰ شيء في دراسات المرحوم آقا بزرك،والظاهر أنه كان تلميذ والده و المرحوم المولىٰ غلام حسين شيخ الاسلام والميرزا محمد السروقدي في المشهد المقدس قبل رحلته الىٰ طهران، ثم انتقل الىٰ طهران فادرك بعض دروس المرحوم جلوه، ودرس ايضاً لدىٰ الحكيم الأشكوري والحكيم الكرمانشاهي شاهي.

وقد ادركته ورأيته شيخاً كبيراً متواضعاً، أبيضت لحيته حينما كنت بادئاً بالدراسة في مشهد (٥٢ ـ ١٣٥٤ ه) له ولد اسمه الميرزا مهدي كان يلمع كنجمة في الفضل والفضيلة فيحوزة مشهد، كان يدرّس الاسفار وشرح المنظومة والكفاية، وكان عمره بين الثلاثين والأربعين، توفّى شاباً سنة ١٣٥٤ ه، وضجّت مشهد ضجة واحدة، وتوفي والده بعده بسنة واحدة، وبوفاته اغلقت اضبارة العلم والحكمة فيهذه الاسرة الشريفة في مشهد.

كان المرحوم آقا بزرك معروفاً بالتواضع وصراحة اللهجة والتحرر، وكان يعيش في منتهىٰ الفقر، ومع ذلك لايقبل من أحد شيئاً، وبعد ان اطلع علىٰ فقره أحد علماء طهران ممن كانت له مع المرحوم صداقة سابقة اتصل بالشخصيات الحكومية وصدر له قرار بتعيين راتب، فلما وصل القرار مع رسالة ذلك العالم الصديق، واطلع المرحوم علىٰ محتوىٰ الرسالة انزعج كثيراً من عمل هذا العالم الطهراني، وكتب في ظهر الرسالة رادّاً عليها وعلىٰ القرار: نحن لانذهب بماء وجوهنا القانعة!.

٣ ـ آقا سيد حسين البادكوبه اى،ولد في قرية من قرىٰ مدينة بادكوبه[١] سنة ١٢٩٣ هـ وجاء الىٰ طهران بعد دراسة المقدمات، وتعلم الرياضيات عند الميرزا جلوه، والفلسفة عند الحكيم الاشكوري والحكيم الكرمانشاهي، ثم ذهب الىٰ النجف الأشرف وأخذ في اكمال العلوم الشرعية في حوزة الآخوند المولىٰ محمد كاظم الخراساني، والشيخ حسن المامقاني.

ونقل العلّامة الطهراني في (نقباء البشر) أن المرحوم الباذكوبه اي اشتهر في النجف الاشرف بالعلوم الشرعية والعقلية وأخذ يدرّس الفنون المختلفة العقلية والشرعية، واستفاد منه جماعة كثيرون منهم استاذنا العلّامة الحاج السيد محمد حسين الطباطبائي (قدس سره) درس طبيعيات والهيات الشفاء من أوله الىٰ آخره عند هذا الرجل الكبير في النجف.

ونقل العلّامة الطهراني: ان هذا الرجل والمرحوم الحاج الشيخ محمد حسين الغروي كانا وجهين معروفين بالاطلاع الكامل في العلوم العقلية. توفي في النجف الاشرف في سنة ١٣٥٨ هـ[٢].

٤ ـ السيد آقا ميرزا محمد علي الشاه آبادي الطهراني الاصفهاني الأصل، جامع المعقول والمنقول، كان في الفلسفة والعرفان تلميذ الميرزا جلوه والميرزا الأشكوري، وفي الشرعيات تلميذ الحاج الميرزا حسن الاشتياني في طهران، والآخوند الخراساني والميرزا محمد تقي الشيرازي في النجف الاشرف وسامراء، وبلغ في طهران الىٰ مقام المرجعية والفتوىٰ. وعندما أقام المرحوم الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري في قم المقدسة، هاجر الىٰ قم ودرّس بها سنين.

---

١ ـ هي بلدة من أربع عشرة مدينة سلبتها روسيا القيصرية من ايران علىٰ أثر حرب كافرة، واستمرت روسيا الشيوعية في الاغتصاب، وتسمىٰ الآن قفقازية الاتحاد السوفياتي أو جمهورية آذربايجان السوفياتية. وتاريخ الاسلام والتشيع مليء بعلمائها ورجالها ـ المعرّب.

٢ ـ نقباء البشر في القرن الرابع عشرة: ج ٢ ص ٥٨٤ وص ٩١٨ ـ ودفن في مقبرة المرحوم السيد أبي الحسن الاصفهاني الموسوي جوار مقبرة الشيخ حبيب الله الرشتي المجاهد في الجانب الايسر من مدخل الصحن الشريف (باب الساعة) مقابل الإيوان الشريف ومرقد المحقق المقدس الاردبيلي ـ المعرّب.

وكان ممتازاً في العرفان بلا مثيل. كان أحد أساتذتنا الكبار[1] في تلك المدة يحضر درس هذا الرجل الكبير، وكان يثني عليه كثيراً في العرفان توفي في طهران عام ١٣٦٩هـ[2]

٥ ـ السيد علي المجتهد الكازروني الشيرازي ابن الحاج السيد عباس المجتهد الكازروني. ولد سنة ١٢٧٨ هـ وانتقل الىٰ شيراز عام ١٢٩١ هـ واشتغل بالدراسة فيها حتىٰ عام ١٣٠٤ هـ حصل علىٰ العلوم العقلية من الشيخ أحمد الشيرازي النجفي والشيخ محمد حسين (شانه ساز) واحتمل أنه أدرك شيئاً من أواخر ايام الحكيم عباس الدارابي المتوفىٰ ١٣٠٠ هـ وأقام عشر سنين في النجف الاشرف (١٣٠٤ ـ ١٣١٥) وحضر دروس الآخوند المولىٰ محمد كاظم الخراساني وبلغ المراتب العالية. ورجع الىٰ شيراز يدرّس بها حتىٰ نهاية عمره (١٣١٩ ـ ١٣٤٣) ولا سيما في الفلسفة والعرفان وعدد كبير من فضلاء ومدرّسي شيراز كانوا من تلامذته في المعقول والمنقول. ان المرحوم السيد علياً، كان نموذجاً من سلفه الصالح. ولتلاميذه وكل الشيرازيين، قصص كثيرة عن تقواه وصفاء نفسه الطاهرة.

٦ ـ الشيخ محمد الخراساني الگنابادي المعروف بالشيخ محمد الحكيم، والشيخ محمد الخراساني، مقيم مدرسة الصدر باصفهان. كان من تلامذة المرحوم جهان گيرخان. والآخوند المولىٰ محمد الكاشي (والاكثر جهان گيرخان). أصبح بعدهما استاذ الفلسفة في اصفهان، من تلامذته المرحوم الحاج ميرزا علي آقا الشيرازي[3] والسيد جلال الدين همائي استاذ جامعة طهران، كان الحكيم الخراساني لا مثيل له في الطهارة والتواضع إلّا قليلاً، وبقي ـ كالكاشي و القشقائي ـ دون زواج حتىٰ نهاية عمره حيث توفي في سنة ١٣٥٥ هـ وبعد الحكيم الخراساني تعهد رجلان آخران في اصفهان بحمل مشعل الحكمة و

---

١ ـ يعني الامام الخميني (قدس سره).

٢ ـ ريحانة الأدب: ج ٣ ص ١٦٧ ومتفرقات من غيرها.

٣ الظاهر أنه لم يختلف كثيراً في العمر مع استاذه وصديقه الشيخ محمد، بل كان صديقاً له ولزميله حاج آقا رحيم أرباب، ولكنه لم يتفرغ لدراسة الفلسفة إلّا في أواخر عمره، ولذلك فقد درس الفلسفة عند صديقه وقرينه في العمر.

الفلسفة، هما: المرحوم الحاج آقا صدر الكوبائي والمرحوم الشيخ محمد المفيد، وبوفاة هذين الرجلين انطفأ هذا المصباح الذي استمر مضيئاً طوال أربعمائة عام.

٧ ـ الحاج الشيخ محمد حسين الغروي الاصفهاني. كان وحيداً في التقوىٰ والعلم، معقولاً ومنقولاً. ولد عام ١٢٩٦ هـ في النجف الأشرف، وكان والده تاجراً متديناً مقيماً بالكاظمية. بقي المرحوم الاصفهاني حتىٰ عشرين عاماً من عمره في الكاظمية، مشتغلاً بالدراسة ثم انتقل الىٰ النجف الأشرف وحضر درس المرحوم الآخوند المولىٰ محمد كاظم الخراساني و استمر علىٰ ذلك حتىٰ نهاية عمره (١٣٢٩) هـ

كان في العلوم العقلية تلميذاً للمرحوم الميرزا محمد باقر الحكيم الاصطهباناتي، وله تأليفات كثيرة في الفقه والاصول، وافكاره مطروحة الآن بين الافكار الحية بين العلماء و الفضلاء في حوزات دروس الفقه والاصول. له منظومة في الفلسفة عالية في المعاني بعنوان (تحفة الحكيم) وله رسالة في المعاد. وقد استفاد حضرة استاذنا العلّامة السيد الطباطبائي (قدس سره) بين سِنيٍّ (١٣٤٤ ـ ١٣٥٤) من دروس هذا الرجل الكبير وهو يفخر بذلك.توفي في سنة ١٣٦١ بالسكتة.[1]

٨ ـ الشيخ محمد تقي الآملي،ولد سنة ١٣٠٤ في طهران، وحصل علىٰ اقسام من دروس المعقول والمنقول من والده الشيخ محمد الآملي (١٢٦٣ ـ ١٣٣٦) الذي كان من الفلاسفة. ثم اشترك في دروس المرحوم الميرزا الكرمانشاهي، ثم تمتع بعد وفاة الكرمانشاهي زهاء أربعة عشر عاماً بدروس الحاج الشيخ عبدالنبي المجتهد النوري، ثم انتقل الىٰ النجف الأشرف،وأخذ في اكمال دراساته في الفقه والاصول بحضور دروس الحاج ميرزا حسين النائيني والسيد أبي الحسن الاصفهاني، والشيخ آقا ضياء ا لدين العراقي وبلغ منزلة عالية،وفي الاخلاق استفاد من تربية العارف الكامل الحاج ميرزا علي آقا القاضي. وعندما أقام بطهران اشتغل بتدريس العلوم العقلية والشرعية. وأهمّ أثر له في العلوم العقلية هوامش وتعليقات علىٰ شرح منظومة السبزواري طُبعت مراراً. وأهم أثر له

---

١ ـ مقدمة المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر ـ من تلامذة المرحوم الاصفهاني ـ لهوامش وتعليقات الأصفهاني علىٰ مكاسب الشيخ الأنصاري.

في العلوم الشرعية شرح استدلالي علىٰ العروة الوثقى، توفي في ١٣٩١ هـ[1]

٩ ـ الحاج آقا ميرزا مهدي الاشتياني. من الاساتذة المتبحرين في عصرنا، والده الميرزا جعفر الملقّب بالميرزا (كوچك) كان من تلامذة الحاج آقا محمد رضا الحكيم القمشة اي، ووالدته بنت المرحوم الحاج ميرزا حسن الاشتياني المجتهد المعروف بطهران. كان المرحوم آقا ميرزا مهدي من تلامذة الميرزا حسن الكرمانشاهي والميرزا هاشم الأشكوري. وكان المدرس الرسمي للفلسفة والعرفان بطهران طوال سنين عديدة،ولا سيما في مدرسة (سبهسالار)[2] حيث إن صحيفة وقف هذه المدرسة تنصّ علىٰ أن يكون المدرس الرسمي للفلسفة بها ماهراً فيالعلوم العقلية وصاحب نظر في الشرعيات. وفي سنة ١٣٦٥ طلب منه عدة من فضلاء وطلاب الحوزة العلمية بقم المقدسة ان ينتقل اليها ليدرسوا لديه الفلسفة فهاجر اليها مدة عامين،وكنت ممن حضر لديه للدراسة.

له آثار قيمة، هوامش وتعليقات علىٰ شرح منظومة المنطق والفلسفة مطبوعة، وله كتاب باسم (أساس التوحيد) في قاعدة (الواحد..) ووحدة الوجود،مطبوع. وآثار اخرىٰ لا أعرفها توفي في سنة ١٣٧٢ هـ

١٠ـ الحاج آقا ميرزا أحمد الاشتياني. هو اصغر أولاد الحاج ميرزا حسن المجتهد الاشتياني، كان جامعاً للمعقول والمنقول، ونموذجاً في التقوىٰ والطهارة، اشتغل بتدريس الفقه والاصول والعلوم العقلية أربعين عاماً، وهو أيضاً من تلامذة الحكيم الكرمانشاهي والحكيم الأشكوري ولاكمال دراساته العقلية ذهب الىٰ النجف الأشرف، فدرس ودرس الاسفار، واشترك في درسه فضلاء من الدرجة الأولىٰ، كثير منهم كانوا من المجتهدين، منهم حضرة الاستاذ العلّامة الطباطبائي. توفي قبل سنة (١٣٩٥ هـ) وقد بلغ المائة عام.

---

١ ـ مقدمةالحاج ميرزا حسن المصطفوي للطبعة الثانية من تعليقة المرحوم علىٰ شرح المنظومة، وغيرها.

٢ ـ سميت بعد انتصار الثورة الاسلامية باسم المؤلف،اذ كان الاسم القديم يوحي بتمجيد رجال النظام الملكي السابق.

رحمه الله.[1]

١١ ـ آقا ميرزا طاهر التنكابني. كان من اساتذة الفلسفة في العصر الأخير، محضاً في الفلسفة. وكان محيطاً بمتون وآراء الفلاسفة احاطة محيّرة، ولد سنة ١٢٨٠ في بلدة (كلاردشت) وانتقل الىٰ طهران لاكمال دراساته فادرك عصر الميرزا جلوه والحكيم قمشه اي والحكيم المدرّس، ولا أدري هل كان يحضر لدىٰ الحكيم كرمانشاهي او الحكيم النيريزي أو لا؟ واصبح هو الاستاذ الوحيد بعد هؤلاء الثلاثة، حتىٰ توفي سنة ١٣٦٠ هـ

١٢ ـ السيد أبو الحسن الرفيعي القزويني، كان من مشاهير الاساتذة في نصف القرن الأخير. وكان جامعاً للمعقول والمنقول، تعلم الفلسفة لدىٰ الحكيم الكرمانشاهي والحكيم الأشكوري ،وبعد تأسيس الحوزة العلمية بقم المقدسة سنة ١٣٤٠ هـ بزعامة المرحوم الحاج الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي، هاجر الىٰ قم المقدسة، فكان يحضر درس الشيخ الحائري. ويدرّس شرح منظومة السبزواري. واسفار المولىٰ صدرا، وكان الفضلاء يحضرون دروسه،منهم احد استاذتنا الكبار[2] فقد قرأ لديه شرح المنظومة وقسماً من الاسفار، وكان يثني عليه بحسن البيان والتقرير. رجع المرحوم الرفيعي في حياة المرحوم الشيخ الحائري الىٰ قزوين، وكان طلاب الحكمة أحياناً يذهبون الىٰ قزوين للاستفادة منه، وفي السنين الأخيره رجع الىٰ طهران، وأقام بها وكان يعد من مراجعها حتىٰ توفي في سنة ١٣٩٣ هـ

١٣ ـ الشيخ محمد حسين الفاضل التوني، من مشاهير مدرّسي الفلسفة في العصر الأخير. كان علىٰ الظاهر من تلامذة الحكيم الأشكوري والحكيم الكرمانشاهي . وكان بعد تأسيس الجامعة يدرّس الفلسفة مدة سنين بكلية العلوم العقلية والنقلية (كلية الشريعة، أي الالهيات)، له هوامش وتعليقات علىٰ مقدمة شرح الفصوص للقيصري. ولد سنة ١٢٠٩.[3] وتوفي في ١٣٤٠ تقريباً.

---

١ ـ دفن بطهران واقام مراجع التقليد في قم المقدسة مجالس الفاتحة ـ المعرّب.

٢ ـ يعني الامام الخميني قدس سره. وكان اعداء الثورة الاسلامية قبل وفاة المرحوم القزويني يشيعون ذلك انقاصاً للامام بأنه متقدم علىٰ مشايخه مع تقدمهم عليه! ـ المعرّب.

٣ ـ نبقاء البشر: ص ٨٨٩.

١٤ ـ السيد محمد كاظم العصار من اساتذة الفلسفة في العصر الأخير، ولد سنة ١٣٠٥ هـ وذهب الىٰ اصفهان وعمره ثمانية عشر عاماً وبقي فيها ثلاث سنين يدرس الفلسفة (لدىٰ الآخوند المولىٰ محمد الكاشي وجهان گيرخان) ثم انتقل الىٰ طهران ودرس ست سنين لدىٰ اساتذة الفلسفة في طهران؛ الحكيم الأشكوري والحكيم الكرمانشاهي والحكيم النيريزي، ثم ذهب الىٰ العتبات المقدسة وأكمل العلوم الشرعية لدىٰ اساتذة الفن مدة عشر سنين، ثم رجع الىٰ طهران سنة ١٣٤٠ وعمره خمسة وثلاثون عاماً، وأخذ في تدريس الفلسفة فيها.

وبعد تأسيس جامعة طهران عام (١٣١٣ هـ شمسي، أي ١٣٥٣ هـ قمري) قبل ان يدرّس في كلية الآداب وكلية العلوم العقلية والنقلية (الشريعة أي الالهيات) وحينما غيّروا اسم مدرسة (سبهسالار) الىٰ (كلية الرّوحانيين) سنة ١٣٦٥ تقريباً، أخذ يدرس بها حتىٰ نهاية عمره.

كان المرحوم السيد العصّار طيّب المحضر اريحياً حلو المعشر، لايأخذ الأمور كلها بجدية كاملة. بل يمزجها بالهزل. له آثار في وحدة الوجود والبداء وعلم الحديث والتفسير. وطبع بعض آثاره أخيراً. وتوفي المرحوم سنة ١٣٩٤ هـ[1]

الطبقة الثالثة والثلاثون:

هذه الطبقة هي طبقة اساتذتنا، ونحن نمسك القلم اليوم عن ترجمة هذه الطبقة في الحال الحاضر، لملاحظات ونوكل ذلك الىٰ وقت آخر في فرصة مناسبة.

* * *

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ مدرسة سبهسالار، تأليف أبو القاسم سحاب: ص ١٦٩ ـ ١٧٠ وغيره.

من الطبيعي أن لاتخلوا جدولة هذه الطبقات من نقص، لانها كتبت لأول مرة. ولم نر أن قد سبقنا أحد الىٰ هذا العمل. أول نقص في هذا الجدول، هو أنه ليس جامعاً، فكثيرون من علماء الفلسفة غاب عنا ذكرهم، أو لم نذكرهم، اذ لم يكن الغرض ذكرجميع الحكماء في العصر الاسلامي، وليس ذلك بالميسور، وانما كان غرضنا اولئك الذين حملوا راية هذا الفن وكان لهم دور ايجابي في استمرار هذا القسم العظيم من الثقافة الاسلامية. وأثّـروا فيمن بعدهم لاستمرار هذا العلم، عن طريق التأليف، أو التدريس وتربية التلامذه، وفي ختام هذا الجدول أرىٰ من اللازم أن اذكر أموراً:

١ ـ ان هذا الجدول تقريبي ـ كأكثر الجداول ـ وان كان ملاكـه طـبقة الاسـاتذة و التلامذة، ولكنّا نعلم ان استاذاً يدرّس سنين فيدرس لديه أناس ليسوا سواء من حـيث البدء و الختام في تاريخ الدراسة ومتقدمو كل طبقة في تاريخ الدراسة غالباً يـتمتعون بتقدم علمي أيضاً.

فمثلاً: قد ذكرنا الحاج السبزواري باعتباره من تلامذة المولىٰ اسماعيل الاصفهاني وهذا من تلامذة المولىٰ علي النوري، مع الميرزا جلوه والحكيم قمشه اي وهما أيضاً من تلامذة النوري، في طبقة واحدة. في حين أن الحاج السبزواري من متقدمي هذه الطبقة وقد أدرك شطراً من عهد المولىٰ النوري نفسه وتوفي في ١٢٨٩ هـ

بينما الميرزا جلوه من شباب هذه الطبقة، وكان حياً حتىٰ سنة ١٣١٤. وكان هو في البداية عازماً علىٰ الاستفادة من دروس السبزواري في سبزوار.

٢ ـ بداية عهد الفلاسفة المسلمين في النصف الأول من القرن الثالث الهجري حـتىٰ نهاية القرن الرابع الهجري يعد دور الترجمة، فكان كثير من الفلاسفة فيه مترجمين، وكثير من المترجمين فلاسفة، مع وجود مترجمين غير فلاسفة وكذلك فلاسفة غير مترجمين، ولكن ليس دور الترجمة مستقلاً عن دور التأليف والبحث، وليس ـ كما زعم بعضهم ـ أن المسلمين اشتغلوا بالترجمة فقط قرناً أو قرنين، ثم ظهر بينهم من نسميهم فلاسفة اصحاب آراء، بل ظهر مع الترجمات الأولية أصحاب آراء نادرة كيعقوب بن اسـحاق الكـندي، فربّىٰ هذا تلامذة واستمر في الفلسفة،وكان معاصراً لمترجمين من قبيل حنين بن اسحاق

العبادي وعبد المسيح الحمصي،بل هو متقدم علىٰ كثير آخرين من المترجمين من قبيل ثابت بن قرة وغيره.

٣ ـ المترجمون كانوا في الأغلب يهوداً او نصارىٰ أو صابئين، وقلما نجد بينهم مسلماً او زرادشتيا، اللهم إلّا ابن المقفع الذي يمكن القول بأنه كان زرادشتياً، ولكنه ليس زرادشتياً بالدقه ،بل كان مانوياً فأسلم، أما الفلاسفة أصحاب الآراء في هذا العهد، فكانوا كلهم مسلمين، ولانجد حتىٰ فيلسوفاً واحداً صاحب رأي غير مسلم. وهذه نقطة تستحق البحث العلمي في ابحاث المجتمعات والتاريخ.

٤ ـ أكثر الفلاسفة بعد دور الترجمة ـ وقليل من دور الترجمة ـ حتىٰ القرنين السادس والسابع كانوا فلاسفة اطبّاء، كابن سينا الفيلسوف الطبيب، بل ان الطّب عند كثير منهم غالب علىٰ الفلسفة.

ويشترك في هذا الدور ـ دور الفلاسفة الأطباء ـ المسلمون واليهود والنصارىٰ ، ولكن لا أثر للصابئة في هذا الدور، عكس دور الترجمة،فكثيراً ما نجد في هذا الدور اطباء عظماء مسيحيين أو يهوداً هم فلاسفة ضمناً، ولكن لانجد فيلسوفاً عظيماً من اليهود أو النصارىٰ.

فمثلاً: ابو الفرج بن الطيّب معاصر ابن سينا، كان من الطب بمنزلة يثني عليه بها ابن سينا، ولكن لم يكن ابن سينا أو غيره يجد فيه شيئاً ملحوظاً من حيث الفلسفة، نعم يستثني من هذه الناحية أبو البركات البغدادي وحتىٰ أبوالخير حسن بن سوار، فان ابا البركات كان فيلسوفاً ذا رأي من اليهود،وأبوالخير كذلك من النصارىٰ، إلّا أنا ـ كما نعلم ـ لم يبق هذان علىٰ دينهما الأول، بل اسلم كلاهما في نهاية الأمر، وهذه الارقام لافتة للنظر من حيث الدراسات الاجتماعية. ان الفلاسفة اصحاب الآراء في دور المترجمين الفلاسفة والفلاسفة المترجمين كلهم مسلمون، أو في طبقة الاطباء الفلاسفة والفلاسفة الاطباء كذلك كلهم مسلمون، اما غير المسلمين، فمع مالهم من الاطباء العظماء، لافيلسوف لهم صاحب رأي ونظر. وهذا دليل علىٰ ان الروح الاسلامية اوفق مع التعقلات الفلسفية من سائر الأديان.

والجدير بالانتباه أنا لانجد في طول تاريخ الفلسفة والطب الاسلامي (١٢ قرناً) فيلسوفاً زرادشتياً ولا طبيباً (وكذلك الأمر ـ حسب الظاهر ـ في الرياضيات) ومن البديهي ان الزرادشتيين ايضاً كانوا متمكنين من المشاركة في هذه النهضة العلمية والثقافية والفلسفية والمساهمة فيها كاليهود والمسيحيين، ولكنهم لم يشاركوا قط! كما لم يشاركوا فيما قبل الاسلام أيضاً في الثقافة العالمية! فلايرانيون من حملة مشاعل العلم والثقافة قبل الاسلام، كانوا مسيحيين ويهوداً وصابئيين، وهم الذين كانوا يديرون شؤون مدرسة جندي شابور.

الزرادشتي الوحيد بين الفلاسفة في الدور الاسلامي هوبهمنيار بن مرزبان الآذر بايجاني، ولكنه اسلم بعد ذلك، وبين الاطباء يعرف علي بن عباس الأهوازي بابن المجوسي، ولكنه أيضاً ليس مجوسياً، وانما آباؤه مجوسيون، كما قاله ادوارد براون في (الطب الاسلامي) وغيره، وكما يشهد بذلك أيضاً لقبه (ابن المجوسي).

الحقيقة ان روح الزرادشتية كانت (او أصبحت) لا تلائهم ولا تنسجم مع العلم و الفلسفة، واذا كسر افراد منهم القيود واتجهوا الىٰ العلوم، كانوا يودّعون الزرادشتية.

٥ ـ الاكثرية بين الفلاسفة المسلمين شيعة، واكثرية الفلاسفة غير الشيعة لهم ميول شيعية، باستثناء فلاسفة الاندلس الذين كانوا بعيدين عن محيط الفكر الشيعي، ومن الممكن ان يكون هذا دليلاً علىٰ ان العقل الشيعي، كان فلسفياً من البداية، وقد بحثنا في كتاب (في رحاب بنهج البلاغة) [١] حول هذا الموضوع، والبحث الاوسع بحاجة الىٰ فرصة أكبر.

٦ ـ للايرانيين في الفلسفة والحكمة ـ قياساً بغيرهم ـ سهم أوفر، من مجموع الثقافة الاسلامية التي يشترك فيها الايراني وغيره، ولا سيما فيالقرنين الأخيرين، أي من بعد عهد المغول، ولاسيما من القرن العاشر حيث شاع التشيع في ايران بالمرة،فقد اصبحت الفلسفة الاسلامية مقصورة علىٰ الايرانيين، ان الايرانيين ليسوا أول من بدأ الفلسفة الاسلامية، اذ أن أول فيلسوف اسلامي هو من العرب، ولكنهم بعد أن اطلعوا علىٰ الفلسفة

---

١ ـ في رحاب نهج البلاغة: ص ٤٢ ـ ٤٦.

تعلقوا بها أكثر من أيّ قوم آخرين، ونحن نرىٰ أن لهذا عاملين جذريّين: أحدهما: أن العقلية الايرانية عقلية فلسفية بالرغم من المضايقات الزرادشتية قبل الاسلام، والآخر: نفوذ التشيع في ايران، ولو صرفنا النظر عن الفلاسفة الايرانيين الذين هم من حيث الدم والعنصر عرب او ترك أو أي عنصر آخر من قبيل: فخر الدين الرازي وجلال الدين الدواني وصدر الدين دشتكي وغياث الدين دشتكي وابن رشد الاندلسي وعدة آخرين، فالفلاسفة غير الايرانيين بالنسبة اليهم قليلون جداً ،والفلاسفة غير الايرانيين اما غير مسلمين ـ وهم جماعة من أطباء فلاسفة في مصر والشام والاندلس وغيرها ـ أومسلمون غير ايرانيين من قبيل: ابن الهيثم البصري المصري وأبي البركات البغدادي وعلي بن رضوان المصري والكندي وابن رشد وابن الطفيل وابن الصائغ وقطب الدين المصري وكمال الدين يونس الموصلي والفارابي ـ احتمالاً ـ وعددهم ليس بالكثير.

٧ ـ كان مركز التعليم والتعلم للفلسفة قبل ابن سينا بغداد، وابن سينا هو الذي نقل المركزية من بغداد الىٰ ايران (اما همدان واما اصفهان) بل لم يذهب ابن سينا الىٰ بغداد قط، بل لم يكن له استاذ في الفلسفة، وانما درس شيئاً من المنطق عند الاستاذ، ان نبوغ ابن سينا وشهرته هما اللذان جذبا طلاب الحكمة اليه والىٰ مطالعة كتبه من كل مكان حتىٰ اصبحت كتبه ناسخة لكتب السابقين، ومدرّسو كتبه كانوا في ايران فقط، ومنها انتشرت فلسفته الىٰ خارج ايران، وبانتشار أفكار ابن سينا ونسخها لكتب السابقين وتواجد مدرّسيها المتخصصين في ايران فقط، سقطت بغداد عن مركزيتها السابقة، بل اصبحت بغداد تتناول فلسفة ابن سينا بالبحث والدراسة من دون أن تكون لها مركزية في ذلك.

وكانت حوزة ابن سينا علىٰ عهده في الاقسام المركزية واحياناً الجنوبية من ايران، وبعده توسعت حتىٰ خراسان علىٰ يد تلميذ تلامذته ابي العباس اللوكري.

٨ ـ مع حملة المغول من ناحية، وحملات أمثال الغزالي من ناحية أخرىٰ، طويت موائد الفلسفة من غير ايران قليلاً أو كثيراً، وبقيت شعلة منها في ايران متقدة، ثم تدرجت من ضعفها الىٰ القوة والكمال، ولا سيما في حوزة فارس (شيراز) ومع بزوغ شمس الصفوية والنهضة العلمية والفلسفية في اصفهان وجدت الفلسفة مرة أخرىٰ رونقاً وبهاء

جديدين علىٰ يد صدر المتألهين والميرداماد.

٩ ـ لم تساهم نواحي ايران في الفلسفة الاسلامية بنسب متساوية،بعدما انحصرت تقريباً في الشيعة الايرانيين، منذ زمن الصوفية حتىٰ يومنا هذا، فبعض المناطق مع ما لها من الاسهام الملحوظ فيالعلوم النقلية والشرعية، لكن لا اسهام لها في العلوم العقلية أو ليس اسهامها اسهاماً ملحوظاً بل قليلاً فخوزستان مع مالها من اسهام مهم في الأدب، والحديث والفقه لا اسهام لها في الفلسفة والحكمة والعلوم العقلية، وكذلك مقاطعات سيستان وبلوجستان وليس ابو سليمان المنطقي السجستاني سوىٰ استثناء بالنسبة الىٰ منطقة سيستان.ولبعض المحافظات اسهام قليل كآذر بايجان، نذكر ممن اسهم من أهلها: بهمنيار، وشمس الدين خسرو شاهي والمولىٰ رجب علي، والمولىٰ حسينا الأردبيلي والآقا علياً الحكيم الزنوزي، وفي عصرنا العلّامة الطباطبائي، ولبعض الولايات والمحافظات الاخر اسهام أكثر، من قبيل خراسان واصفهان وفارس و...

ومما لا يتوقع ان يكون السهم الأوفر لشمال ايران من جيلان ومازندران و جرجان،فان ثلاثين من مشاهير اساتذة الفلسفة هم من أهل هذه الناحية، وبينهم فلاسفة كبار مشاهير مثل ميرداماد والمولىٰ اسماعيل الخاجوئي والآقا محمد البيد آبادي والمولىٰ علي النوري والميرفندرسكي وعبد الرزاق اللاهيجي والمولىٰ جعفر اللنگرودي وغيرهم، هؤلاء، وان كانت دراستهم وتعلمهم فيإصفهان إلّا أنهم من شمال ايران.

١٠ ـ ان طبقات الفلاسفة علىٰ الترتيب الذي ذكرناه، سلسلة منظمة مرتبة بلا وقفة،وهي حلقات ثقافة مستمرة كما بامكاننا أن نرىٰ نظير ذلك فيالفقه والحديث والعرفان والأدب وحتىٰ فيالرياضيات.

اللهم إلّا في نقطتين نصل فيهما الىٰ نقطة مجهوله من حيث سلسلة التلامذة والاساتذة: احداهما: في المولىٰ اسماعيل الخاجوئي، علىٰ عهد الأفغانيين، حيث لم يذكروا ـ كما نعلم ـ عن اساتذته شيئاً، والاخرىٰ: في فخر الدين السماكي استاذ السيد ميرداماد حيث لانعرف أيضاً عن اساتذته شيئاً.

لم تتوقف سلسلة التلمذة في هاتين النقطتين. وانما هي مجهولة لدينا الآن، ولعلها

تتبيّن بعد هذا واذا صرفنا النظر عن هاتين النقطتين استطعنا أن نبين سلسلة اساتذتنا حتىٰ ابن سينا، واذا قبلنا الشيخ البهائي باعتباره احد أساتذة الفلسفة ارتفعت احدىٰ تلكما النقطتين أي اتصلت سلسله التلمذة عن طريق الشيخ البهائي واستاذه المولىٰ عبدالله اليزدي، حتىٰ ابن سينا، لا عن طريق ميرداماد.

ولابن سينا وضع خاص، اذ لم يكن له استاذ في الفلسفة وانما تعلّم من كتب الآخرين.

١١ ـ الفارابي والكندي أيضاً كابن سينا، لم يكن لهما استاذ في الفلسفة وانما بمطالعة كتب الآخرين، اصبحا فيلسوفين،بل كل واحد منهما اصبح رأس سلسلة الفلاسفة.

لايذكر التاريخ أي فيلسوف بعنوان استاذ للكندي،بل لم يكن حينئذ أي فيلسوف في محيط الكندي، ولهذا فان فلسفة الكندي بدأت من شخصه فقط، والفارابي قرأ المنطق فقط لدىٰ استاذه (يوحنا بن حيلان) وقد قلنا قبل هذا ان مايقال بان الفارابي كان تلميذ أبي بشر متى ليس له أي أساس من الصحة.

وعلىٰ هذا فان المسلمين مدينون، من حيث الكتب الفلسفية لغير المسلمين ،لافي المعلمين.

والآن علينا أن نعرض لخدمات الايرانيين في العرفان والتصوف.

العرفان والتصوف

من العلوم التي ولدت في حجر الثقافة الاسلامية وترعرعت وتطورت، ما يسمىٰ بالعرفان.

ويمكننا الكلام حول العرفان من جانبين: احدهما الجانب الاجتماعي، والآخر الجانب الثقافي.

للعرفاء فرق مهم عن سائر طبقات أصحاب الثقافة الاسلامية كالمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين والفلاسفة والأدباء والشعراء.. وهو أنهم ـ بالاضافة الىٰ تكوينهم طبقة ثقافية وعلمية باسم العرفاء وظهور علماء كبار بينهم، وكتب مهمة ـ أوجدوا فرقة أجتماعية خاصة في عالم الاسلام، تختلف عن سائر طبقات اصحاب الثقافة كالفقهاء

والحكماء وغيرهم، الذين ليسوا سوىٰ طبقة ثقافية غير متميزة عن سائر الطبقات، أما أهل العرفان فحين يذكرون بعنوانهم الثقافي يذكرون بعنوان «العرفاء» وحينما يذكرون بعنوانهم الاجتماعي يذكرون بعنوان « المتصوّفة».

إن العرفاء والمتصوفة، وان لم يعدُّوا فرقة مذهبية في الاسلام، وهم لا يدّعون هذا، وهم موجودون في كل أو جلّ الفرق والمذاهب الاسلامية الحاضره، مع ذلك هم فرقة اجتماعية متصلة، وهناك سلسلة من الافكار والآداب فيالمعاشرات والالبسة، والأزياء وكيفية تنظيم شعر الرأس واللحية والسكنىٰ في التكايا والخانقات وغيرها، تصبغهم بصبغة فرقة خاصة مذهبية واجتماعية، نعم كان هناك ـ ولاسيما في الشيعة ـ عرفاء لم تكن لهم ميزة ظاهرة عن الآخرين، وهم مع ذلك متشددون في سلوكهم العرفاني، والعرفاء الحقيقيون هم هذه الطبقة، وليس تلك الفرق التي اخترعت صنوف الآداب وأوجدت عشرات البدع.

ولانبحث في هذه الابحاث التاريخية عن الجانب الاجتماعي والمذهبي أي جانب «التصوف» من العرفان، وانما نبحث هنا في الجانب الثقافي بالنظر الىٰ تطوره التاريخي، أي أنا ننظر الىٰ العرفان علماً وفرعاً من فروع الثقافة الاسلامية التي كانت في طول التاريخ وحدة متصلة، وبلا وقفة،وليس بعنوان فرقة أو طريقة اجتماعية.

والعرفان بوصفة حقلاً علمياً وثقافياً له قسمان: قسم عملي، وآخر نظري.

القسم العملي هو: ذلك القسم الذي يبين وضائف الانسان وعلاقاته مع نفسه ومع العالم ومع الخالق، والعرفان في قسمه هذا كالاخلاق، أي هو «علم» عملي مع ملاحظة نذكرها بعد هذا، وهذا القسم من العرفان يسمىٰ علم «السير والسلوك» وهذا القسم من العرفان يبين أن «السالك» الىٰ الله كي يصل الىٰ «التوحيد» أوقمة الانسانية من اين يجب أن يبدأ و أي مرحلة يجب أن يطوي واي حال يعرض له في المنازل بين الطريق، ويجب أن يكون ضمن هذه المنازل والمراحل اشراف ومراقبة انسان كامل، قد طوىٰ هذا الطريق ووعي رسوم هذه المنازل، وان لم تصحب السالك همّة انسان كامل هددته المخاطر، ويعبّر العرفاء عن هذا الانسان الكامل الذي لابد من اصطحابه مع السالكين: «بالخضر» و

«طائر القدس».

يقول الحافظ الشيرازي ما معناه:

«فيا «طائر القدس» اصطحبني بهمّة * فان طريق الوصل جدّ طويل»

ويقول:

«ولاتتركن هذي المراحل دون أن * تكون مع «الخضر» الظلام وخيم».

والتوحيد الذي ينظر اليه العارف أنه قمة الانسانية المنيعة وأنه آخر مراحل سير العارفين، يختلف مع التوحيد في نظر العوام، وحتىٰ مع توحيد الفيلسوف في أن واجب الوجود واحد لا شريك له، اختلافاً اساسياً كالبعد بين الأرض والسماء، ان توحيد العراف يعني أن الموجود الحقيقي منحصر بذات الله تعالىٰ، وان ما سوىٰ الله ظاهرة وجود لانفس الوجود. توحيد العارف يعني: لاشيء إلّا الله، توحيد العارف يعني التوصل الىٰ مرحلة لا يرىٰ فيها السالك العارف إلّا الله، ولا يؤيد هذه المرحلة من التوحيد، مخالفو العرفاء، بل يرونه أحياناً الحاداً وكفراً، فيحين يعتقد العرفاء أن هذا هوالتوحيد الحقيقي وان كل مراتب التوحيد لاتخلو من شرك، ويرىٰ العرفاء أن الوصول الىٰ هذه المرحلة ليس من علم الفكر والعقل، بل هو من عمل القلب، والمجاهدة والسير والسلوك وتصفية النفس وتهذيبها.

وعلىٰ أية حال،فان هذا القسم من العرفان هو القسم العملي، وهو بهذا النظر كعلم الاخلاق يبحث عما يجب أن يعمل، ولا يعمل مع الثلاثة فوارق الآتية:

أولاً ـ ان العرفان يبحث عن علاقات الانسان مع نفسه ومع العالم ومع الله، وعمدة نظرة في علاقات الانسان بربه، بينما لا يرىٰ جميع الأخلاقيين ضرورة أن يبحثوا حول علاقات الانسان بربه، إلّا الأخلاقيون المتديّنون، فهؤلاء يعنون بهذا الجانب من علاقات الانسان.

ثانياً: ان السير والسلوك أمران متحركان ـ كما يبدوا من مفهوم هاتين الكلمتين ـ بخلاف الأخلاق، فانه بحث هادئ ساكن، الكلام في العرفان عن نقطة البدء وعن المقصد والمنازل والمراحل التي يجب علىٰ السالك سلوكها ليصل الىٰ النهاية، العارف يرىٰ ـ

بدون أية شائبة ـ أن للانسان صراطاً لايصل الىٰ منزل حتىٰ يجتاز منزلاً سابقاً، ويـرىٰ العارف أن روح الانسان كروح الطفل أو النبات، وكماله في تطوره وفق نظام خاص، بينما ليس الكلام في الأخلاق إلّا عن لزوم اتصاف الروح بسلسلة من الفضائل من قبيل الصدق والعدالة والعفة والاحسان والانصاف والايثار وغيرها، الاخلاق ترىٰ أن روح الانسان يجب أن تزين بسلسلة من الزينة والحلي والنقوش، وفي العرفان أيضاً يأتي الكلام عن العناصر الاخلاقية، ولكن بصورة ديالكتيكية متحركة.

ثالثاً: أن العناصر الروحية والاخلاقية محدودة بمفاهيم ومعان معروفة لأكثر الناس، في حين ان الكلام في السير والسلوك العرفاني يأتي عن أحوال وخطرات لا قلبية تحصل إلّا لسالك السبيل في خلال المجاهدات وطي الطرق، ولا سبيل لسائر الناس الىٰ هـذه الأحوال والخطرات.

القسم الآخر من العرفان في تفسير الوجود، أي تفسير الخـالق والعـالم والانسـان، والعرفان في هذا القسم كالفلسفة يحاول تفسير الوجود،بخلاف القسم الأول الذي هـو كالأخلاق، يحاول تغيير الانسان الىٰ الافضل، وكما هناك فوارق بين الأخلاق و العرفان كذلك هنا توجد فوارق بين العرفان والفلسفة.

العرفان والاسلام

للعرفان بقسميه العملي والنظري علاقات متينة بالاسلام، فالاسلام ـ كأي دين آخر، وأكثر من أي دين آخر ـ قد بيّن علاقات الانسان بربه وبالعالم وبنفسه، وفسر الوجـود ككل. وهنا سؤال يطرح نفسه،هو: ماالنسبة بين مابينه الاسلام وما عرضه العرفان؟.

من المؤكد أن العرفاء المسلمين لايدعون أن لهم كلاماًوراء كلام الاسلام ،ويتبرأون من مثل هذه النسبة بشدة،بل يدعون أنهم اكتشفوا الحقائق الاسلامية أحسن من غيرهم وانهم هم المسلمون الحقيقيون، ويستند العرفاء سواء فيالقسم العـملي أو النـظري الىٰ الكتاب والسنة وسيرة النبي والأئمة وأكابر الصحابة.

ولغيرهم آراء بشأنهم نذكرها علىٰ التوالي:

أ ـ نظرية جماعة من المحدثين والفقهاء الاسلاميين: هؤلاء يعتقدون بأن العرفاء ليسوا متقيّدين بالاسلام، وان استنادهم الىٰ الكتاب والسنة ليس إلّا خداعاً للعوام وجلباً لقلوب المسلمين، وان لا علاقة للعرفان أساساً بالاسلام.

ب ـ نظرية جماعة من مثقفي العصر الحاضر: هؤلاء الذين لاعلاقة لهم بالاسلام ويتقبلون كل مايستشمّ منه رائحة «الاباحية» وما يمكن أن يوصف بانه مقاومة أمام المقررات الاسلامية، هؤلاء أيضاً كالسابقين يعتقدون بان العرفاء لا ايمان لهم بالاسلام، بل ان العرفان والتصوف انما هما وجهان لنهضة الأمم غير العربية أمام الاسلام والعرب تحت ستار من المعنوية والروحانية.

وهؤلاء يتّحدون مع الفرقة الأولىٰ في أن العرفان يخالف الاسلام ويضاده ،وانما يختلفون في أن الفرقة الأولىٰ تقدس الاسلام، وهم يحتقرون العرفاء بالاستناد الىٰ الاحساسات والعواطف الاسلامية العامة،ويحاولون اخراج العرفان بهذه الطريقة عن المعارف الاسلامية، بينما الفرقة الثانية تسعىٰ لتجد من شخصية العرفاء ـ الذين يتمتع بعضهم بشخصية عالمية ـ وسيلة للدعاية ضد العرب والاسلام، هؤلاء يقولون ان استناد العرفاء الىٰ الكتاب والسنة انما كان عن تقية من العوام وحفظاً لنفوسهم.

ج ـ نظرية المحايدين: بامكاننا أن نجد في العرفان والتصوف، ولا سيما في العرفان العملي وبالأخص فيمايجد جانباً عملياً للفرقة، تحريفات ومبتدعات كثيرة لاتوافق كتاب الله ولا السنة المعتبرة، إلّا ان العرفاء كسائر طبقات أصحاب الثقافة الاسلامية في غاية الاخلاص للاسلام،ولم يريدوا أن ينطقوا بشيء يضاد الاسلام، من الممكن ان يكون لهم أخطاء كسائر طبقات اصحاب الثقافة كالمتكلمين والفلاسفة والمفسرين والفقهاء، إلّا انهم لم يضمروا السوء للاسلام.

ان افتراض مخالفة العرفاء للاسلام انما جاء من قبل مغرضين، اما مضادّين للعرفان أوللاسلام، والا فلو قرأ انسان كتب العرفاء بلا غرض وبلا انحياز لم يشك في انهم كانوا مخلصين تماماً للاسلام،وان كان من الممكن أن يجد عندهم أخطاء كثيرة،ولكن بشرط ان يعرف منطقهم واعرافهم الخاصة ومصطلحاتهم.

ونحن نرجّح النظرية الثالثة ونعتقد بأن العرفاء لم يضمروا السوء للاسلام، وفي الوقت نفسه نرىٰ من اللازم ان يبحث متخصصون في المعارف الاسلامية والعرفان في مدىٰ توافق المسائل العرفانية مع الاسلام، بلا أي انحياز أو ممالأة.

والمسألة التي يلزم ان نعرض لها هنا هي : هل ان العرفان الاسلامي من قبيل الفقه والاصول والتفسير والحديث أي هو من العلوم التياتخذ المسلمون موادّها الاصلية من الاسلام واكتشفوا لها القوعد والاصول والضوابط؟ أو هو من قبيل الطب والرياضيات التي دخلت الىٰ عالم الاسلام من خارجه وتطورت وتكاملت علىٰ يد المسلمين؟ أو ان هناك قسماً آخر؟.

يختار العرفاء انفسهم الشطر الأول ولايقبلون أياحتمال آخر، وقد أصرّ بعض المستشرقين، ويصرون علىٰ ان العرفان وافكاره الدقيقة واللطيفة، انما دخلت عالم الاسلام من خارجه، فقد يرون أن لها عروقاً مسيحية وانها من نتيجة ارتباط المسلمين بالرهبان المسيحين، وقد يرون أنها ردود فعل من الايرانيين ضد العرب والاسلام! وقد يرون أنها من نتائج الفلسفة الافلاطونية الحديثة التي جاءت نتيجة تأليف أفكار ارسطو وافلاطون وفيثاغورس و الجينوسيين في الاسكندرية وآراء وعقائد اليهود والمسيحيين ، وقد يرون انها من أفكار البوذيين، كما أن مخالفي العرفاء من المسلمين، كانوا ولازالوا يحاولون أن يجدوا للعرفان و التصوف جذوراً غير اسلامية.

والنظرية الثالثة: ان العرفان بقسميه العملي والنظري أخذ مواده الأولىٰ من الاسلام وبيّن له قواعد وضوابط واصولاً،ولم يتخلص من تأثير الافكار الكلامية والفلسفية و لاسيما الاشراقية، أماما مدىٰ موفقية العرفاء في بيان القواعد والضوابط الصحيحة المستخرجة من المواد الاسلامية الاولىٰ،وهل انهم كانوا موفقين في ذلك كالفقهاء أولاً؟ وما مدىٰ التزامهم بعدم الانحراف عن الاصول الاسلامية الواقعية؟ وما مدىٰ تاثير المجريات الخارجية علىٰ العرفان الاسلامي؟ وهل ان العرفان الاسلامي صهرها في بوتقته وصبغها بصبغته وافاد منها أو ان امواج تلك المجريات دفعت العرفان الاسلامي في مسيرتها؟ هذه أمور يجب ان يبحث بدقة في مظانّها، والمؤكد أن العرفان الاسلامي أخذ

اصوله من الاسلام فحسب.

أصحاب النظرية الأولىٰ ـ وعدة من أصحاب النظرية الثانية ـ يدعون أن الاسلام دين فطري ودون تكلف وخال من كل رمز أو أمور غامضة غير مفهومة أو صعبة الفهم، فأساس عقائد الاسلام عبارة عن التوحيد،والتوحيد في الاسلام يعني، كما أن للبيت بانياً متميزاً عن البيت، كذلك العالم له بان خالق متميز عنه، واساس علاقة الانسان بمتاع الحياة الدنيا في نظر الاسلام هوالزهد،يعني الاعراض عن متاع الحياة الدنيا الفانية للوصول الىٰ نعيم الحياة الخالدة، واذا تجاوزنا هذه الأُسس وصلنا الىٰ سلسلة من المقررات الفطرية الفقهية، هؤلاء يرون أن ما جاء به العرفاء باسم التوحيد ليس إلّا شيئاً وراء التوحيد الاسلامي،اذ التوحيد العرفاني عبارة عن وحدة الوجود وان لاشيء فيالوجود سوىٰ الله و شؤونه واسمائه وصفاته وتجلّياته. والسلوك العرفاني أيضاً شيء وراء الزهد الاسلامي، اذ نجد فيالسلوك العرفاني سلسلة من المعاني والمفاهيم لانجدها في الزهد الاسلامي، من قبيل العشق وحب الله، والفناء في الله وتجلّي الله علىٰ قلب العارف. والطريقة العرفانية أمر وراء الشريعة الاسلامية، اذ فيها آداب لانجد أثراً لها في الفقه والشريعة الاسلامية.

هؤلاء يرون أن خيار الصحابة الذين ينتسب اليهم الصوفية والعرفاء ويعدونهم أئمتهم، لم يكونوا إلّا زُهاداً عابدين، ولم يكن لهم أي اطلاع علىٰ السلوك العرفاني، أجل كانوا معرضين عن متاع الحياة الدنيا مقبلين علىٰ الآخرة، ولم يكن لهم أي أصل في ذلك سوىٰ الخوف والرجاء، الخوف من عذاب جهنم ورجاء ثواب الجنة، فقط.

والحقيقة: أنه لايمكن تأييد نظرية هذه الفرقة،فان المادة الاسلامية الأولىٰ أغنىٰ مما تفترضة هذه الفرقة عمداً أو جهلاً، فلا التوحيد الاسلامي بهذه البساطة والسذاجة والفراغ؟ الذي افترضه هؤلاء، ولا المعنوية الاسلامية الانسانية مقصورة علىٰ الزهد الجامد، ولاصحابة الرسول الكرام كانوا كما وصفهم هؤلاء، ولا الأداب الاسلامية محدودة باعمال الاعضاء والجوارح الظاهرة وحدها.

وهنا نأتي بمطالب تثبت أن تعاليم الاسلام الأصيلة، كان بامكانها أن تكون ملهمة لسلسلة من المعارف العميقة في العرفان النظري والعملي،اما كم أفاد العرفاء المسلمون

من هذه التعليمات، وكم انحرفوا عنها فهوبحث لايمكننا التعرض اليه في هذا المختصر.

إن القرآن الكريم لايقيس الخالق والخلقة بالباني والبناء، ان القرآن يؤكد أن الله هو خالق العالم ويصفه بأنه في كل شيء، ومع كل شيء: ﴿اينما تولّوافثمَ وجه الله» و «نحن أقرب إليه منكم﴾[1] ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[2]

وبديهي أن أمثال هذه الآيات دعت الافكار الىٰ توحيد أسمىٰ وأعلىٰ من توحيد العوام، وقد جاء في حديث الكافي: «ان الله علم أنه يأتي في آخر الزمان متعمقون فانزل الآيات الأولىٰ من سورة الحديد وقل هو الله أحد ».

ويكفي في السير والسلوك طيّ المراحل للتقرب الىٰ الله حتىٰ آخر منزل ان نلقي نظرة علىٰ بعض الآيات في «لقاء الله» و « رضوان الله» والوحي والالهام ومكالمة الملائكة، ولاسيما مع غير الانبياء كمريم عليها السلام، وآيات معراج الرسول الأكرم صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وقد جاء في القرآن الحديث عن «النفس الأمارة» و «النفس اللوامة» و «النفس المطمئنّة» و عن « العلم الافاضي» و «العلم اللدنّي»،وعن الهداية نتيجة «المجاهدة » و«الذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا» وعن «تزكية النفس » بعنوان أنها طريق الفلاح الوحيد: ﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾ وعن «الحب الإلهي» وانه فوق كل حب.

وعن تسبيح وتحميد جميع ذرات العالم، بعبارة يُفهم منها: انكم أيها الناس ان أكملتم «تفقّهكم» أدركتم ذلك التسبيح والتحميد، وفي القرآن جاء الكلام في طينة الانسان عن « النفخة الالهية».

وتكفي هذه المفاهيم والآيات وغيرها، لان تكون ملهمة لمعنوية عظيمة وواسعة بشأن الله والعالم والانسان، ولاسيما بشأن علاقة الانسان بربه.

وليس الكلام في كيفية استفادة المسلمين من هذه المواد بصورة صحيحة او غير صحيحة، بل الكلام في النظريات المغرضة لجماعة من الغربيّين والمغتربين، الذين

١ـ الواقعة / ٨٥

٢ـ الحديد / ٣.

يحاولون تفريغ الاسلام من معنويته. الكلام عن رأسمال عظيم في صميم الاسلام كان بامكانه أن يكون ملهماً عظيماً في عالم الاسلام، علىٰ فرض ان يكون العرفاء اخفقوا في الافادة الصحيحة من هذا الرأسمال العظيم، فقد أفاد منه آخرون غير معروفين بعنوان العرفاء.

أضف الىٰ ذلك أن الروايات والخطب والأدعية والاحتجاجات الاسلامية و تراجم أكابر المتربين بتربية الاسلام، تثبت لنا أن الذي كان في صدر الاسلام لم يكن زهداً جامداً وعبادة علىٰ أمل الأجر والثواب، ان في الروايات والخطب والأدعية و الاحتجاجات معاني عظيمة، وان تراجم شخصيات الصدر الأول تحكي عن سلسلة من الثورات الروحية والبصائر القلبية، وعن عشق واحتراق معنوي عظيم، نذكر من ذلك هنا حديثاً واحداً.

في أُصول الكافي: «عن اسحاق بن عمّار قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ان رسول الله صلىٰ الله عليه وآله صلىٰ بالناس الصبح، فنظر الىٰ شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله: كيف اصبحت يافلان؟ قال: أصبحت يارسول الله موقناً ،فعجب رسول الله صلىٰ الله عليه وآله من قوله، وقال: ان لكل يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟ فقال: ان يقيني يا رسول الله هو الذي احزنني واسهر ليلي وأظمأ هواجري فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتىٰ كأني أنظر الىٰ عرش ربي وقد نصب للحساب وحشر الخلائق لذلك وأنا فيهم، حتى كأني أنظر الىٰ أهل الجنة يتنعمون في الجنة ويتعارفون وعلىٰ الأرائك متكئين، وكأني الىٰ أهل النار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي، فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وآله لاصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالايمان. ثم قال له: الزم ما أنت عليه،فقال الشابّ: أدعُ لي يارسول الله أن ارزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله، فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي صلىٰ الله عليه وآله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هوالعاشر».[1]

---

١ ـ اصول الكافي: ج ١ ص ٥٣ طهران ـ آخوندي، وروىٰ الحديث أبو بصير عن الامام الصادق عليه السلام

ان حياة وحالات وكلمات ومناجاة الرسول الأكرم صلىٰ الله عليه وآله وسلم، مليئه من الثورات المعنوية الالهية والاشارات العرفانية،وقد استشهد العرفاء كثيراً بأدعية الرسول الأكرم صلىٰ الله عليه وآله وسلم.

وكلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ملهمة للمعرفة المعنوية ، وهو الذي اليه يُنهي أكثرية أهل العرفان والتصوف سلسلة مشيختهم.

وان الأدعية الاسلامية،ولاسيما الأدعية الشيعية كنز من المعارف، كدعاء كميل و دعاء أبي حمزة الثمالي والمناجاة الشعبانية وأدعية الصحيفة السجادية.

فهل لنا مع جميع هذه المنابع أن نفتش عن أي منبع من خارج عالم الاسلام؟.

نرىٰ نظير هذا في حركة أبي ذر الغفاري الاجتماعية المعترضة علىٰ الخلافة المغتصبة، والمنتقدة إياها علىٰ تجبّرها وتنمرها، ان أبا ذر كان يعترض علىٰ الحكام في ظلمهم وجورهم و تعديهم وتجاوزهم وحيفهم لاموال المسلمين، واهمالهم لرعاية العدل والمساواة الاسلامية، وقد تحمل لذلك التبعيد والاتعاب المضنية المرهفة، حتىٰ ارتحل من الدنيا في منفاه غريباً.

وجاءاليوم بعض المستشرقين يطرحون تساؤلاً يقول: يا ترىٰ من كان يحرك أبا ذر لهذه الحركات؟ وهم يفتشون عن عامل من خارج عالم الاسلام حرك أبا ذر هكذا! ويردّ

أيضاً قال: «استقبل رسول الله صلىٰ الله عليه وآله حارثة بن مالك بن النعمان الانصاري ، فقال له: كيف أنت ياحارثة بن مالك؟» فقال: يارسول الله مؤمن حقاً، فقال له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله: لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك؟ فقال: يارسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فاسهرت ليلي وأظمأت هواجري، وكأني انظر الىٰ عرش ربي قد وضع للحساب، وكأني أنظر الىٰ أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع عواء أهل النار في النار، فقال له رسول الله صلىٰ الله عليه وآله: عبد نوّر الله قلبه، أبصرت فاثبت،فقال: يارسول الله ادعُ الله لي أن يرزقني الشهادة معك، فقال اللهم ازرق حارثة الشهادة، فلم يلبث إلّا اياماً حتىٰ بعث رسول الله صلىٰ عليه وآله سرية فبعثه فيها، فقاتل فقتل تسعة، ثم قتل».وفي رواية القاسم بن بريد عن ابي بصير هذه الرواية نفسها قال « استشهد مع جعفر بن أبي طالب بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»

وعلىٰ هذا فلايستبعد الخبر اذ تبين أن هذا كان في السنة الثامنة للهجرة سنة غزوة مؤتة، أي بعد ان مضىٰ علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله ثماني سنوات وهو يعظ الناس ويرشدهم، فلا يستبعد أن تكون مواعظ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله قد بلغت هذا المبلغ من هذا الشاب الانصاري الناشيء علىٰ الاسلام - المعرّب.

عليهم جورج جرداق المسيحي في كتابه «الامام علي صوت العدالة الانسانية» يقول: « لقد فطن هؤلاء المؤلفون لعبد الله بن سبأ والمزدكية، ولم يفطنوا لأبي ذر والاسلام. وهالهم «تأليب ابن السوداء الناس علىٰ الأئمة» فراحوا يجدون فيه سبب النقمة علىٰ عثمان، ولم يُهلهُم ماانكره المسلمون علىٰ عثمان، وما ينكره كل شعب علىٰ كل حاكم في كل عصر: من ايثار الفئة القليلة علىٰ الجماعة الكثيرة، ومن استئساد هذه الفئة برأي الحاكم وبعونه! لهذا راحوا يسألون الساقية الناضبة البعيدة عن مصدر الغيث ولم يسألوا البحر المحيط القريب»[1].

ونرىٰ مثل ذلك في موضوع العرفان، فالمستشرقون هنا أيضاً يفتشون عن منبع غير الاسلام ليكون هو الملهم للمعنويات العرفانية، بينما هم يتجاهلون هذا البحر العظيم! فهل يمكننا أن ننكر كل هذه المنابع من القرآن والحديث والخطب والاحتجاجات والأدعية و السيرة من أجل أن نصدق فرضية بعض المستشرقين، واذنابهم من الشرقيين ؟!.

ومن حسن الحظ أن بعض المتأخرين من المستشرقين مثل نيكلسون الانجليزي وما سينيون الفرنسي ممن يعترف لهم الجميع بمعرفتهم الواسعة في العرفان الاسلامي، اعترفوا بأن المنبع الأصلي للعرفان الاسلامي هو القرآن والسنة، يقول نيكلسون بهذا الصدد:

«نرىٰ القرآن يقول: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ ﴿لا إله إلّا هو..﴾ ﴿كل من عليها فان﴾ ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ ﴿ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾ ﴿اينما تولوا فثم وجه الله﴾ ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور﴾ ولاشك في وجود جذور للتصوف والعرفان في هذه الآيات، ولم يكن القرآن للصوفيين الأوائل كلمات لله فحسب بل سبب التقرب اليه أيضاً، وكان الصوفيون يسعون في الحصول علىٰ الحالة الصوفية التي لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله في أنفسهم عن طريق العبادة والتعمق في اقسام من القرآن، ولاسيما الآيات الرمزيه في «معراج رسول الله»[2].

ويقول أيضاً:

---

١ ـ الامام علي صوت العدالة الانسانية: ج ٤ ص ٨٩٩.

٢ ـ بالفارسية: ميراث اسلام: مجموعة مقالات للمستشرقين بشأن الاسلام: ص ٨٤.

«الوحدة الصوفية نرىٰ اصولها مذكورة في القرآن أكثر من أي مصدر آخر وكذلك الرسول يقول كما في الحديث القدسي: «لايزال العبد يتقرب اليّ بالنوافل حتىٰ اذا أحببته، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها».

وقد كرّرنا القول بأن الكلام ليس في صحة ما استلهمه العرفاء والمتصوفة وعدمها، بل الكلام في أن منشأ هذه الاستلهامات هل هي منابع اسلامية أو من خارج الاسلام؟[1]

القرن الأول:

من المسلم به أنه لم يكن في صدر الاسلام، ولا في القرن الأول جماعة يعرفون بالعرفان أوالتصوف بين المسلمين، وانما نجد اسم «الصوفي» في القرن الثاني الهجري، قيل: أن أول من دُعى بهذا اللّقب ابو هاشم الكوفي الصوفي في القرن الثاني، وهو أول من بنىٰ «الخانقاه» في رملة فلسطين لعبادة جماعة من العباد والزهّاد المسلمين[2] وأبوهاشم

---

١ ـ ذكر الاستاذ المؤلف الشهيد (قدس سره) ما يدعيه العرفاء لانفسهم وما يبرأون منه، ثم ذكر آراء الآخرين بشأنهم علىٰ التوالي: أ ـ نظرية جماعة من المحدثين والفقهاء، ب ـ نظرية جماعة من مثقفي العصر الحاضر، ج ـ ونظرية المحايدين القائلة بوجود انحرافات ومبتدعات كثيرة في التصوف والعرفان العملي مما لايوافق كتاب الله ولا السنة المعتبرة، وبوجود أخطاء لهم في العرفان النظري أيضاً، من دون ان يكونوا يضمرون السوء للاسلام، ثم رجح الاستاذ المؤلف هذه النظرية الثالثة ونبّه علىٰ لزوم تحقيق المتخصصين في المعارف الاسلامية، في مدىٰ توافق العرفان مع الاسلام، ثم طرح مسألة المنابع الأولىٰ للعرفان والتصوف، فجاء هنا ايضاً بنظريات ثلاث: أ ـ مدعى العرفاء أنفسهم بأن العرفان كسائر العلوم الاسلامية من الاسلام وحده، ب ـ مدعى المستشرقين وجماعة من المسلمين: بان منابع العرفان الأولىٰ من غير الاسلام: اما من الرهبنة المسيحية، أو الفلسفة الافلاطونية، او الافكار البوذية أو اليهودية أو الآريه الايرانية ضد العرب والاسلام!، ج ـ أنه من الاسلام ولكنه لم يتخلص من تأثير الافكار الكلامية والفلسفية ولاسيما الاشراقية وهنا ايضاً اختار الاستاذ المؤلف الشق الثالث، وقال بشأن النظريتين الأولىٰ والثانية: «والحقيقة: انه لايمكن تأييد نظرية هذه الفرقة...».

وقال بشأن تأييد النظرية الثالثة: «ونحن هنا نأتي بمطالب تفيد ان تعاليم الاسلام الأصيلة كانت..» وفي الوقت نفسه كرر التنبيه علىٰ التحريفات التي فيه فقال: «أما كم أفاد العرفاء من هذه التعليمات وكم انحرفوا عنها، فهو بحث لايمكننا التعرض له في هذا المختصر» ولنعم ما افاد الاستاذ بهذا الصدد ـ المعرّب.

٢ ـ تاريخ التصوف في الاسلام، للدكتور قاسم غني ص ١٩، وفي هذا الكتاب ص ٤٤ نقل عن كتاب «الصوفية والفقراء» لابن تيمية: أن أول من بنىٰ للصوفية صومعة صغيرة رجل من أصحاب عبدالواحد بن

من شيوخ سفيان الثوري المتوفى في سنة ١٦١ هـ ولا يعلم تاريخ وفاة أبي هاشم بالضبط.

ويقول أبو القاسم القشيري من مشاهير العرفاء والصوفية: ان هذا الاسم ظهر قبل نهاية القرن الثاني، ويقول نيكلسون أيضاً: ان هذا الاسم ظهر في أواخر القرن الثاني الهجري، ويظهر من رواية في كتاب المعيشة من كتاب الكافي المجلد الخامس: أن جماعة منهم سفيان الثوري كانوا في النصف الأول من القرن الثاني يدعون بهذا اللقب، ولو كان أبو هاشم الكوفي أول من عرف بالصوفي، وهو استاذ سفيان الثوري المتوفى في ١٦١ هـ فيعرف أن هذا الاسم عرف في النصف الأول من القرن الثاني الهجري لا أواخره كما يقول نيكلسون، ولاشبهة في ان وجه هذه التسمية هو لبسهم الصوف، اجتناباً عن الملابس الناعمة زهداً واعراضاً عن الدنيا.

ولا علم لنا متىٰ اطلق هؤلاء علىٰ أنفسهم لقب العرفاء أيضاً، والقدر المسّلم به ـ كما يفهم من كلمات السري السقطي المتوفى في ٢٤٣ هـ[1] ـ أن مصطلح العرفان كان شائعاً في القرن الثالث الهجري، وفي كتاب «اللمع» لابن نصر سراج الطوسي، الذي يعد من الكتب المهمة في العرفان والتصوف نقل عبارة عن سفيان الثوري تفيد ان هذا المصطلح ظهر في حدود منتصف القرن الثاني الهجري (اللمع ص ٤٢٧).

وعلىٰ أي حال، فلم يكن هناك جماعة في القرن الأول الهجري يعرفون بلقب الصوفية، وانما ظهر هذا اللقب في القرن الثاني والظاهر أن ظهور هؤلاء علىٰ شكل جماعة خاصة كان كذلك في هذا العهد، لا القرن الثالث كما يقول بعض المؤلفين.[2]

ولكن عدم وجود جماعة خاصة في القرن الأول الهجري يعرفون باسم العرفاء أو الصوفية أو أي اسم آخر، لايدل علىٰ أن خيار الصحابة كانوا أناساً زاهدين عابدين مؤمنين ايماناً فطرياً بسيطاً فاقدين للحياة المعنوية (كما يدعي ذلك الغربيون والمغتربون) ولعل بعض خيار الصحابة لم يكن لهم سوىٰ الزهد والعبادة، إلّاأن جماعة

زيد وهومن أصحاب الحسن البصري، ولو كان هذا الرجل هو أبو هاشم الكوفي الصوفي فلا منافاة بين النقلين.

١ ـ كما في تذكرة الأولياء للشيخ العطّار.

٢ ـ الدكتور قاسم غني في تاريخ التصوف في الاسلام.

منهم كانوا يتمتعون بحياة معنوية قوية، وأولئك ايضاً لم يكونوا في درجة واحدة حتىٰ ان سلمان وأبا ذر لم يكونا في درجة واحده من الايمان، فقد كان لسلمان صدر مشروح بالايمان لم يكن ليطيقه أبو ذر، ولذلك جاء في أحاديث متعدده ما معناه : « لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله» (سفينة البحار) [1].

والآن نعرض لطبقات العرفاء والصوفية من القرن الثاني حتىٰ العاشر الهجري.

القرن الثاني:

ألف ـ الحسن البصري، يبدأ تاريخ العرفان المصطلح ـ كالكلام ـ من الحسن البصري المتوفى في ١١٠ هـ ولد الحسن البصري سنة ٢٢ هـ وعاش ثمانية وثمانين عاماً وصرف تسعة أعشار عمره في القرن الأول من الهجرة ،لم يُعرف الحسن البصري بالصوفي، وانما يعد من الصوفية لانه:

أولاً: ألّف كتاباً باسم «رعاية حقوق الله» يمكن أن يعد أول كتاب في التصوف، و توجد نسخة وحيدة منه في مكتبة اكسفورد، ويدعي نيكلسون:

«ان أول مسلم كتب طريقة الحياة الصوفية الحقيقة هو الحسن البصري، الطريقة نفسها التي يشرحها المتأخرون للوصول الىٰ المقامات العالية: الأول التوبة ، ثم سلسلة من الاعمال الاخرىٰ.. يجب العمل بها للارتقاء الىٰ مقام اسمىٰ بكيفية خاصة» [2].

وثانياً ـ العرفاء أنفسهم ينهون بعض مشيخة طرائقهم الىٰ الحسن البصري ومنه الىٰ أمير المؤمنين علي عليه السلام، مثل سلسله مشايخ أبي سعيد ابي الخير [3] وينهي ابن النديم في الفهرست في الفن الخامس من المقالة الخامسة، سلسلة أبي محمد جعفر الخلدي الىٰ

---

١ ـ تراجع مادة «سلم» للاطلاع علىٰ شرح هذا الحديث لرفع الالتباس، المصحح.

٢ ـ تاريخ التصوف في الاسلام: ص ٤٦٢ نقلاً عن كتاب «حالات وسخنان أبو سعيد أبوالخير »

٣ ـ ميراث الاسلام ص ٨٥ ،وتراجع محاضرات الدكتور عبد الرحمن بدوي في كلية الالهيات والمعارف الاسلامية في السنة الدراسية ٥٢ ـ ٥٣ ، ومن الجدير بالملاحظة أن كثيراً من كلمات نهج البلاغة توجد في رسالة الحسن البصري ، والجدير بالملاحظة والتحقيق انتهاء بعض سلاسل الصوفية الىٰ الحسن البصري ومنه الىٰ أمير المؤمنين عليه السلام .

الحسن البصري، ويقول: أدرك الحسن البصري سبعين رجلاً من اصحاب بدر.

ثالثاً ـ وتفيد بعض الحكايات المنقولة، ان الحسن البصري كان من جماعة أوفرقة عرفت فيما بعد باسم المتصوفة، وسننقل بعض هذه الحكايات حسب المناسبات الآتية، وكان الحسن البصري من الموالي المولّدين الايرانيين.

ب ـ مالك بن دينار، كان من أهل البصرة ممن أفرط في الزهد وترك اللذات، وقد نقلت عنه حكايات وقصص، توفي في سنة ١٣١ هـ

ج ـ ابراهيم الأدهم، كان من أهل بلخ، له قصة معروفة ، مثل قصة بوذا، قيل أنه كان ملكاً علىٰ بلخ وحدثت أمور تاب علىٰ أثرها ودخل في أهل التصوف، يهتم به العرفاء كثيراً ووردت عنه قصة جميلة في ديوان المولوي المثنوي، توفي في ١٦١ هـ

د ـ رابعة العدوية، كانت من أهل البصرة أو مصر، وهي من أعاجيب العالم، وسميت رابعة لكونها رابعة بنات اسرتها، وهي غير رابعة الشامية التي هي ايضاً من العرفاء ومعاصرة للجامي في القرن التاسع الهجري .

لرابعة العدوية كلمات سامية وأبيات عرفانية وحالات عجيبة. ولها قصة جميلة في عيادة الحسن البصري، ومالك بن دينار ورجل آخر لها في مرضها، توفيت في عام ١٣٥ أو ١٣٦ وقيل توفيت في ١٨٠ أو ١٨٥ هـ

هـ ـ أبو هاشم الصوفي الكوفي، كان من أهل الشام، ولد وعاش بها، ولايعلم تاريخ وفاته، وانما يعلم أنه كان شيخ سفيان الثوري المتوفى في ١٦١ هـ وهو كما سبق أول من دُعي بلقب «الصوفي» حسب الظاهر. وكان سفيان يقول: لو لم يكن أبو هاشم لم أكن أعرف رموز الرياء!.

و ـ شقيق البلخي، كان من تلامذة ابراهيم الأدهم، وقد نقل علي بن عيسىٰ الأربلي في كتابه «كشف الغمة» والشبلنجي في «نور الأبصار»: أنه لاقىٰ الامام موسىٰ بن جعفر عليه السلام ونقل عنه بعض الكرامات، توفى في سنة ١٥٣ أو ١٧٤ أو ١٨٤ هـ

ز ـ معروف الكرخي، كان من كرخ بغداد، واسم أبيه «فيروز» ومن هنا يُظن أنه من أصل ايراني، كان من مشاهير العرفاء، قيل أن ابويه كانا مسيحيين وأسلم هو علىٰ يد

الامام الرضا عليه السلام، واستفاد منه معلومات قيمة، وينتهي كثير من مشـايخ طـرق العرفاء ـ كما يدعون ـ الىٰ معروف الكرخي ومنه الىٰ الامام الرضا عليه السلام ومنه الىٰ الأئمة السابقين حتىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ولهذاتسمىٰ هذه المشـايخ (بسلسلة الذهب) أو (الذهبيّين) توفي في ٢٠٠ أو ٢٠٦ هـ

ط ـ فضيل بن عيّاض، كان (من أهل مرو) ايرانياً من أصل عربي، قيل كان في بداية أمره سارقاً وقاطع طريق، وتسلق ليلة دار رجل قائم الليل يتلو القرآن فسمع آية تاب علىٰ أثرها، اليه ينسب كتاب (مصباح الشريعة) وقيل تلقىٰ دروسه من الامام الصـادق عليه السلام، وقد اظهر المحدث النوري الاعتماد علىٰ هذا الكتاب في خاتمة المستدرك مات فضيل في سنة ١٨٧ هـ.

القرن الثالث:

ألف ـ بايزيد البسطامي (طيفور بن عيسىٰ) من أكابر العرفاء من أهل بلدة بسطام، هو أول من تكلم عن الفناء في الله والبقاء بالله (!) كان يقول: خرجت من كوني بايزيد كما تخرج الحية من جلدتها! وله شطحات أوجبت تكفيره (؟) ويسميه العرفاء من أصحاب «السكر» (!) أي كان يتكلم بما يقول وهو كالسكران (!) مات عام ٢٦١ هـ قيل انه كان يسقي الماء في دار الامام الصادق عليه السلام، وهذا لايتفق مع التاريخ الثـابت، اذ لم يدرك بايزيد عصر الامام الصادق عليه السلام.

ب ـ بشر الحافي، كان من أهل بغداد، وآباؤه من أهل (مرو). كان من مشاهير العرفاء. كان في بداية أمره من أهل الفسق والفجور ثم تاب. وقد نقل العلّامة الحلي فـي كـتابه (منهاج الكرامة) قصة تدل علىٰ توبته علىٰ يد الامام موسىٰ بن جعفر عليه السلام، وكان حافياً فعرف بالحافي، وقيل في علة تلقيبه بالحافي وجه آخر .توفي في عـام ٢٢٦ أو ٢٢٧ هـ

ج ـ سري السقطي، كان من أهل بغداد، ولايعرف أصـله، وكـان مـن أحـباء بشـر وأصدقائه، ومن أهل الايثار والشفقة علىٰ الناس، ونقل ابن خلكان في (وفيات الأعيان)

عنه أنه كان يقول: لازلت استغفر الله ثلاثين سنة من قولي: الحمد لله. قالوا: كيف ذلك؟ قال: احترق السوق ليلة فخرجت لارىٰ هل وصلت النار الىٰ حانوتي فقيل لي: لا، قلت: الحمد لله، ثم انتبهت الىٰ أنه حتىٰ لو لم تبلغ النار الىٰ حانوتي أفلا يجب عليّ أن اهتمَّ بشؤون المسلمين؟!.

وقد نظم، هذا سعدي الشاعر والكاتب الايراني بقليل من الاختلاف والتفاوت.

كان السري من تلامذة معروف الكرخي، وكان شيخ الجنيد وخاله، وله كلمات كثيرة في التوحيد والحب الالهي وغيرهما، وهوالذي يقول: العارف كالشمس يشرق علىٰ جميع العالم، وكالأرض تحمل البر والفاجر ، وكالماء منه كل شيء حي، وكالنار يضيء لجميع الناس، توفي في ٢٤٥ أو ٢٥٠ هـ

د ـ الحارث المحاسبي، بصريّ الأصل، من أحباء وأصدقاء وأصحاب الجنيد ولذلك لقب بالمحاسبي كناية عن اهتمامه بالمحاسبة والمراقبة، كان معاصراً لأحمد بن حنبل ولعداوة أحمد بن حنبل مع أهل الكلام ، طرد الحارث لدخوله في الكلام، وهذا مما سبب اعراض الناس عنه، مات عام ٢٤٣ هـ

هـ ـ الجنيد البغدادي، كان أصله من نهاوند، ويدعوه العرفاء والصوفية بلقب «سيّد الطائفة» كما يلقب الشيعة الشيخ الطوسي «شيخ الطائفة». يعد عارفاً معتدلاً حيث لم يسمع منه ما كان يسمع من غيره من الشطحات، ولم يلبس ملابس الصوفية، وكان يتزيّا بزي العلماء والفقهاء، قيل له: البس «الخرقة»: (ملابس الصوفية) لرضا الأصحاب، قال: لو كنت اعلم ان اللباس يصنع شيئاً لصنعت لنفسي ملابس من حديد! ولكن الحقيقة تقول: ليس الاعتبار بالخرقة انما الاعتبار بالحرقة»: (حرقة القلب) كان الجنيد ابن أخت وتلميذ السري السقطي، وكذلك الحارث المحاسبي قيل مات ٢٩٧ وعمره تسعون عاماً.

و ـ ذو النون المصري، كان من أهل مصر، وكان في الفقه تلميذ مالك بن انس الفقيه المعروف، لقبه الجامي : برئيس الصوفية، وهو أول من استعمل الرموز مصطلحات للمسائل العرفانية، كي لايفهمها إلّا من كان من أهلها وارداً فيها، ولايفهم شيئاً منها من لم يردها من بابها، وتدرّج هذا العمل بعده واستعملت المعاني العرفانية في ثوب الغرام و

الغزل.ويرىٰ بعضهم أن تعاليم الفلسفة الافلاطونية الحديثة دخلت العرفان علىٰ يد ذي النون المصري (٣٣٠) توفي فيما بين سنّي ٢٤٠ ـ ٢٥٠ هـ

ز ـ سهل بن عبدالله التستري، كان من أكابر العرفاء والصوفية، اصله من شوشتر، واليه تنسب فرقة من العرفاء الذين يرون الأصل «جهاد النفس» فتدعىٰ باسم «السَهْلية». لاقىٰ ذا النون المصري في مكة المكرمة، وتوفي في ٢٨٣ أو ٢٦٣ هـ[١]

ح ـ حسين بن منصور الحلاج، كان من أهل (البيضاء) من توابع شيراز ترعرع في العراق. هو أكثر العرفاء ضجيجاً وصخباً، اذ كانت له شطحات كثيرة، حتىٰ أتّهم بالكفر والارتداد وادعاء الربوبية، فكفّره الفقهاء، وصلب علىٰ عهد المقتدر بالله العباسي، واتهمه العرفاء انفسهم ـ بافشاء الأسرار، قال حافظ العارف الشيرازي:

«ان الذي شمخ الصليب به * في الجرم: كان مذيع سر قد فشا»[٢]

ويعده بعضهم من المشعوذين، ويبرّيه العرفاء ويقولون: ان كلماته وكلمات بايزيد التي يستشم منها رائحة الالحاد صدرت عنهم في حالة سكر وغيبوبة صوفية عرفانية (!) و يعدّه العرفاء في الشهداء. صلب عام ٣٠٦ أو ٣٠٩ هـ[٣].

القرن الرابع :

الف ـ أبو بكر الشبلي، كان من مريدي وتلامذة الجنيد البغدادي، وقد أدرك الحلّاج، ونقلت عنه في كتاب (روضات الجنات) وسائر كتب التراجم، اشعار وكلمات عرفانية كثيرة،وقال الخواجة عبدالله الأنصاري: أول من تكلم بالرموز والكناية والاشاره ذو النون المصري، ولما جاء الجنيد رتب هذا العلم وبسطه والّف كتباً فيه، ولما جاء دور الشبلي صعد بهذا العلم الىٰ أعلىٰ المنابر (!) مات الشبلي بين سِنيّ ٣٣٤ ـ ٣٤٤ وعمره ٨٧ عاماً.

ب ـ ابو علي الرودباري، كان ينتسب الىٰ انوشيروان من عنصر ساساني، وهو من

---

١ ـ طبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن الشلمي: ص ٢٠٦.

٢ ـ من تعريب المعرّب.

٣ ـ في مقدمة الطبعة الثامنة لكتابنا «علل گرايش به ماديگرى»أوردت بحثاً مبسطاً حول الحلّاج ورد آراء بعض الماديين المعاصرين الذين سعوا الىٰ عده من الماديين.

ميريدي الجنيد وتعلم الأدب من ثعلب والفقه من ابي العباس بن شريح، ولذلك عدّ جامعاً للشريعة والطريقة والحقيقة. مات سنة ٣٢٢ هـ

ج ـ أبو نصر السرَّاج الطوسي، صاحب الكتاب المعروف «اللمع» وهو من المتون الاصيلة والقديمة والمعتبرة العرفانية والصوفية، مات في طوس سنة ٣٧٨ هـ كثير من مشايخ الطريقة من تلامذته بواسطة أو بدونها، ويدّعي بعضهم أن المقبرة الموجودة في الشارع الادنىٰ (بائين خيابان) في مشهد وتعرف باسم «پيرپالان دوز» هي مقبرة أبي نصر السراج هذا، والسّراج يساوي في الفارسية: زين ساز، أي صانع السروج، ثم تغيرت الكملة الىٰ صانع الجُلّ أي بالان دوز.

د ـ أبو الفضل السرخسي، كان من أهل خراسان وهوتلميذ ومريد أبي نصر السّراج واستاذ ابي سعيد أبيالخير العارف المعروف الشهير، مات عام ٤٠٠ هـ

هـ ـ أبو علي الرودباري، هو ابن أخت أبي علي الرودباري، وهو من عرفاء الشام، مات عام ٣٦٩ هـ

و ـ ابو طالب المكي، أكثر شهرته بكتابه الذي ألّفه في العرفان والتصوف باسم «قوت القلوب» وهو مطبوع موجود، ويعد من المتون الأصيلة والقديمة العرفانية والصوفية، أصله من بلاد الجبل من ايران، عرف بالمكي لمجاورته سنين مكة المكرمة، مات عام ٣٨٥أو ٣٨٦ هـ

القرن الخامس:

ألف ـ الشيخ أبو الحسن الخرقاني، أحد مشاهير العرفاء، وتنسب اليه قصص عجيبة، منها ادعاؤه أنه ذهب الىٰ قبر بايزيد البسطامي واتصل بروحه وحل بعضه مشاكله، يقول المولوي:

«ظهر الخرقان بعد بايزيد كان يلقاه علىٰ القبر المشيد
كان يلقاه مثالاً ناطقاً فيحل المشكل الصعب الشديد»[1]

---

١ ـ من تعريب المعرّب.

ذكره المولوي في المثنوي كثيراً والظاهر انه كان يجلّه كثيراً، قيل: له لقاء مع ابن سينا الفيلسوف المعروف ،وأبي سعيد أبي الخير العارف المعروف، مات عام ٤٢٥ هـ

ب ـ ابو سعيد ابو الخير النيسابوري، من أشهر العرفاء وأكثرهم عرفانية، له رباعيات جميلة، سُئل: ماهو التصوف؟ قال: «ان تدع ما في فكرك، وان تعطي ما في يدك، وان تندفع بما يأتي عليك » التقىٰ بأبن سينا، حضر ابن سينا يوماً مجلس وعظه، وكان أبو سعيد يتكلم في ضرورة العمل وآثار الطاعة والمعصية، فأنشأ ابن سينا في الاعتماد علىٰ رحمة الله دون اعمالنا يقول:

تـــوليت عـــفوك يـــاخالقي ... تـبرّأت مـن طـاعة أو مـعاص
وان مـــا عـــنيت بـنا يـــاالهـــي ... فلا فرق بـين مـطيع وعـاص (!)[1]

فأجابه أبو سعيد فوراً:

«يـــا مـــن عـــملت السيئات ولم ... تـعمل مـن الحسـنات شـيئاً يُـذكر
لاتســـــتند عـــــفو الاله، فـــهل ... ســـيّان شـيطان وعـبد يشكـر»[2]

وله بيتان يقول فيها:

« بكرىٰ تذول الجهات الست يوم غد ... ويصبح القـدر بـالعرفان فـاعتبر[3]
سعياً وراء صفات الحال حيث غـداً ... يكون حشرك طبق الوصف والاثر »

مـــات أبـــو ســـعيد سـنة ٤٤٠ هـ

ج ـ أبوعلي الدقاق النيسابوري، جامع الشريعة والطريقة، والواعظ والمفسر المعروف، لقب بالشيخ النائح لكثرة نوحه وبكائه في مناجاته، مات عام ٤٠٥ أو ٤١٢ هـ

د ـ أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري الغزنوي، صاحب كتاب (كشف المحجوب) من الكتب المعروفة في هذ الفرقة، طبع أخيراً.مات عام ٤٧٠ هـ

هـ ـ الخواجه عبدالله الانصاري،من نسل ابي أيوب الأنصاري الصحابي المعروف، هو من أشهر واعبد العرفاء، له كلمات قصار و مناجات ورباعيات جميلة مهيّجة، شهرته في

---

١ ـ من تعريب المعرّب .

٢ ـ من تعريب المعرّب.

٣ ـ من تعريب المعرّب

الأكثر بها، من كلماته: «حقير في الصغر، وسكران في الشباب، وضعيف في الشيخوخة، فمتىٰ تعبد الله» ومن كلماته: «جزاء السيئة بالسيئة عمل الكلاب، وجزاء الاحسان بالاحسان عمل الحمير، وجزاء السيئة بالحسنة هو الذي ينبغي أن يكون من عمل الخواجة الأنصاري» .

وله بيتان يقول فيهما:

«ان التكبّر أيها الانسان عارٌ عليك فلا تكن مختالاً
انظر الىٰ انسان عينك لايرىٰ إلّا سواه تواضعاً وكمالا» [1]

ولد في هرات وتوفي ودفن بها سنة ٤٨١ هـ ولذلك عرف بشيخ هرات،له كتب كثيرة، اشهرها وأكمل كتب العرفان الذي كان يدرّس في هذا الفن هو كتاب «منازل السائرين» وكتبت عليه شروح كثيرة ايضاً.

و ـ الامام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي، من اشهر علماء المنقول ورئيس المدرسة النظامية ببغداد، وكان يشغل اسمىٰ منصب ديني علىٰ عهده بها، ولكنه أحسّ ان العلوم والمناصب لم تشبع روحه، فاختفىٰ واشتغل بتهذيب نفسه وتصفيتها عشر سنين في بيت المقدس بعيداً عن عيون الناس، واتجه نحو العرفان، والتصوف، ثم لم يقبل أي منصب حتىٰ آخر عمره، ألّف كتابه الكبير «احياء علوم الدين» بعد رياضاته، ومات في طوس وطنه الأصلي عام ٥٠٥ هـ

القرن السادس:

ألف ـ عين القضاة الهمداني، اشهر العرفاء، مريد أحمد الغزالي وهو أخو محمد الغزالي، ألّف كتباً كثيرة، وله أشعار رائعة لاتخلو من الشطحات، ولذلك كفرّه الفقهاء فقتل واحرق جسده وذرّ رماده في الهواء، قتل في حدود ٥٢٥ ـ ٥٣٣ هـ

ب ـ سنائي الغزنوي، الشاعر المعروف، له شعر عرفاني عميق، أتىٰ ببعض افكاره المولويالمثنوي وشرحها، مات في النصف الاول من القرن السادس.

---

١ ـ من تعريب المعرّب .

ج ـ أحمد الجامي، المعروف به (ژنده بيل) من مشاهير العرفاء والمتصوفة، قبره في مدينة (تُربت جام) قرب حدود ايران وافغانستان، له شعر في الخوف والرجاء يقول ما معناه: «لا تغتر فكم من مراكب الرجال قد انقطع عن الطريق، ولاتيأس، فان الأذكياء قد وصلوا المنزل بحداء».

وقال في رعاية الاعتدال في الانفاق والامساك.

«لاتكن كالفأس فلا تقطع لنفسك دائماً... ولا تكن كالمبرد بلا منفعة لنفسك، وتعلم من المناشير، فجر شيئاً لنفسك واعط منه شيئاً ».

مات أحمد الجامي في حدود عام ٥٣٦ هـ

د ـ عبد القادر الجيلاني،ولد في شمال ايران ونما وترعرع في بغداد ودفن بها، واعتقد بعضهم أنه من أهل «جيل» لاجيلان معرّب «گيلان» كان من الشخصيات الصاخبة في عالم الاسلام.اليه تنسب سلسلة (القادرية) من سلاسل الصوفية، قبره ببغداد معروف مشهور، وقد نقل عنه كلام ودعاوي كبيرة مفرطة، اصله من السادة الحسنيين، مات عام ٥٦٠ أو ٥٦١ هـ

هـ ـ الشيخ روزبهان البقلي الشيرازي المعروف بالشيخ الشطّاح، لكثرة شطحاته، طبع بعض كتبه ونشر من قبل المستشرقين، مات عام ٦٠٦ هـ

القرن السابع:

ربّى هذا القرن عرفاء عظماء، نذكرهم حسب توالي تواريخ وفاتهم.

ألف ـ الشيخ نجم الدين كبرا الخوارزمي، من مشاهير وأكابر العرفاء،واليه ينتهي كثير من مشايخ الطرق الصوفية، تلميذ ومريد صهر الشيخ روزبهان البقلي الشيرازي، له تلامذة كثيرون متربّون علىٰ يده، منهم بهاء الدين الولد، والد المولىٰ المولوي الرومي، عاش في خوارزم علىٰ عهد المغول، ولما أراد المغول أن يهجموا علىٰ خوارزم ارسلوا اليه: بامكانكم أن تخرجوا من البلد وتنجوا بأنفسكم،فاجاب نجم الدين كنت في الرخاء فيهم واليوم لا أفارقهم في العسر والشدة، ولبس لامته للحرب وجاهد مع الناس حتىٰ قتل

شهيداً، سنة ٦١٦ هـ

ب ـ الشيخ فريد الدين العطّار النيسابوري، كان من أكابر الدرجة الأولىٰ من العرفاء، له كتب ودواوين شعر، ويعتبر كتابه (تذكرة الأولياء) في ترجمة العرفاء والصوفية ويبدأ بذكر خبر عن الامام الصادق عليه السلام، ويختم بخبر آخر عن الامام الباقر عليه السلام ، يعتبر هذا الكتاب من المصادر المعتبرة، ويوليه المستشرقون أهميّة وافرة، وكذلك كتابه الآخر (منطق الطير) كتاب مهم في العرفان.

قال المولوي بشأنه وبشأن العارف الآخر سنائي:

«كان العطّار روحاً وسنائي عينيه، وسنذهب نحن خلف هذين الرجلين».

وقال أيضاً:

« طوى العطار منازل العشق السبعة ونحن بعد في منعطف زقاق واحد»!.

ويقصد المولوي بالمنازل السبعة للعشق ما شرحه العطّار في كتابه (منطق الطـير) و اصطلح عليه بالوديان السبعة.

ويقول محمود شبستري في كتابه (گلشن راز):

«أنا لا أخجل من شعري، فلا يأتي في كل مائة قرن (عطّار) واحد».

كان العطّار تلميذ ومريد الشيخ مجد الدين البغدادي من مريدي وتلامذة الشيخ نجم الدين كبرا، وادرك صحبة قطب الدين حيدر من مشايخ هذا العصر، المدفون في مدينة (تربة حيدرية) ونسبت المدينة اليه.

كان العطّار معاصراً لفتنة المغول، ومات فيها، بل قيل انه قتل فيها في عام ٦٢٦ أو ٢٢٨ هـ

ج ـ الشيخ شهاب الدين السهروردي الزنجاني، صاحب الكتاب المعروف «عوارف المعارف» من المتون الجيدة في العرفان والتصوف ينتهي نسبه الىٰ ابي بكر، كان يزور مكة والمدينة كل سنة، له مع عبد القادر الجيلاني لقاء وصحبة، ومن مريديه الشيخ سعدي الشيرازي، وكمال الدين اسماعيل الاصفهاني الشاعر المعروف، ويقول سعدي بشأنه:

«قال لي مرشدي الشيخ العالم (شهاب) حكمتين احداهما:أن لا أحسن الظنّ بنفسي، والاخرىٰ: ان لا أسيء الظن بالناس».

وهذا السهروردي غير السهروردي الفيلسوف المعروف بشيخ الاشراق، المقتول بحلب سنة ٥٨١ ـ ٥٩٠.مات السهروردي العارف حدود عام ٦٣٢ هـ

د ـ ابن الفارض المصري، كان من العرفاء من الطراز الأول، وله شعر عرفاني عربي في نهاية الظرافة، وقد طبع ديوانه مراراً وشرح شعره كثير من العرفاء، منهم عبد الرحمن الجامي العارف المعروف في القرن التاسع، ويقاس شعره العرفاني في العربية بشعر الحافظ الشيرازي في الفارسية. قال له محي الدين العربي: اشرح أشعارك، قال: كتابك (الفتوحات المكية) شرح لاشعاري. كانت له حالات غير اعتيادية، فكان غالباً في حالة (الجذبة والخلسة) وقد نظم أكثر شعره في تلك الأحوال، مات ابن الفارض سنة ٦٣٢ هـ

هـ ـ محيي الدين العربي الحاتمي الطائي الاندلسي من أولاد حاتم الطائي، ولد في الاندلس، والظاهر أنه صرف أكثر عمره في مكة وسورية، وهو تلميذ الشيخ أبي مدين المغربي الأندلسي من عرفاء القرن السادس تنتهي طريقته بواسطة واحدة الىٰ الشيخ عبد القار الجيلاني السابق الذكر.

كان محيي الدين ـ واحياناً يقال: ابن العربي ـ أكبر عرفاء الاسلام، لم يبلغ مبلغه أحد قبله ولابعده، حتىٰ انه لقب بالشيخ الأكبر.

تكامل العرفان الاسلامي من بدء ظهوره قرناً بعد قرن ، ظهر في كل قرن عرفاء كبار طوّروا العرفان واضافوا اليه، وكان هذا التطور تدريجياً، وعلىٰ يد محيي الدين العربي فيالقرن السابع بلغ نهاية كماله، فانه ادخل العرفان مرحلة جديدة لاسابقة لها، أما القسم الثاني من العرفان أي العرفان العلمي والنظري الفلسفي فقد تأسّس علىٰ يد ابن العربي وأكثر العرفاء بعده عيال عليه، وهو بكل هذا اعجوبة من أعاجيب الحياة، ولذلك اختلف الناس بشأنه، فبعض يراه وليّاً كاملاً أو قطب الاقطاب، وينزّله آخرون حتىٰ حد الكفر ويدعونه ماحي الدين او مميت الدين، أما صدر المتألهين الفيلسوف الكبير والنابغة العظيمة فهو يجلّه نهاية الاجلال، ويراه أعظم حتىٰ من الفارابي وابن سينا! له أكثر من مائتي كتاب، طبع أكثر الموجود منها (ثلاثون كتاباً تقريباً) أهمها(الفتوحات المكية) وهو كتاب كبير يعدّ في الحقيقة دائرة معارف للعرفان، وبعده فصوص الحكم، وهو أدقّ واعمق

متن عرفاني شرحوه كثيراً، وقليل من يفهمونه في كل عصر، قد لايـتجاوزون ثـلاثة أو اربعة! مات بدمشق ودفن فيها وقبره معروف، عام ٦٣٨ هـ

و ـ صدر الدين محمد القونوي، نسبة الىٰ (قونيه في تركية) تلميذ ومريد ورببب محيي الدين العربي، كان معاصراً للخواجة نصير الدين الطوسي والمولوي الرومي، وتـبودلت بينه وبين الخواجه نصير الدين مراسلات، وكان محترماً لدىٰ الخواجه، وفي قونية كان الصفاء يسود الصداقة بينه وبين المولوي، كان القونوي امام جماعة وكان المولوي يحضر جماعته. والظاهر أن المولوي كان تلميذه ـ كمانقل ـ وتعلم عرفان ابن العربي منه، كما توجد معان منه في ديوانه، قيل : دخل يوماً الىٰ محفل القونوي فتحرك من مسنده وقدَّمه الىٰ المولوي ليجلس عليه، فلم يجلس المولوي،وقال: مـاذا اجـيب ربـي ان جـلست مجلسك؟! فطرح القونوي مسنده بعيداً، وقال: ما لاتجلس عليه لاأجلس عليه! .

القونوي احسن شارح لافكار محيي الدين، ولعله لو لم يكن لم تكن افكار ابن العربي تدرك وتنتشر، وكانت كتبه من الكتب الدراسية في الحوزات الفلسفية والعرفان الاسلامي في القرون الستة الأخيرة،وهي مفتاح الغيب، النصوص في شرح الفـصوص، الفكـوك، توفي سنة وفاة قرينه ومعاصره المولوي الرومي، والخواجة نصير الدين الطوسي ٦٧٢ أو بعدهما بسنة واحدة ٦٧٣ هـ

ز ـ مولانا جلال الدين محمد البلخي الرومي المعروف بالمولوي، صاحب الكـتاب العالمي: (المثنوي) كان من كبار عرفاء الاسلام ومن نوابغ العالم، يصل نسبه الىٰ أبي‌بكر الخليفة الأول، وديوان شعره المثنوي بحر من الحكمة والمعرفة والنـقاط الدقـيقة مـن المعرفة الروحية والاجتماعية والعرفانية، وهو من شعراء الطراز الأول من الايرانيين، وان كان أصله من بلدة بلخ، فقد خرج في صباه مع والده لزيارة بيت الله الحرام، وبعد رجوعه لاقىٰ الشيخ العطّار في نيسابور، ثم ذهب مع والده الىٰ قونيه واقام بها كان المولوي عالماً محترماً مشتغلاً بالتدريس، ثم لاقىٰ العارف المعروف شمس الدين التبريزي، فانجذب اليه شديداً وترك كل شيء وسمىٰ ديوانه باسمه، وذكره في المثنوي بحرارة واشـتياق، مات المولوي عام ٦٧٢ هـ

ح ـ فخر الدين العراقي [1] الهمداني، الشاعر المعروف، تلميذ صدر الدين القونوي و مريد شهاب الدين السهروردي المذكور آنفاً، مات عام ٦٨٨ هـ

القرن الثامن:

ألف ـ علاء الدولة السمناني، كان من أهل الديوان الحكومي الرسمي، ثم ترك شغله ذلك ودخل في سلك العرفاء، وانفق كل ثروته في سبيل الله،وألّف كتباً كثيرة وله نظريات خاصة في العرفان النظري تطرح في الكتب العرفانية المهمة، مات عام ٧٣٦ هـ كان الخواجه الكرماني الشاعر المعروف من مريديه، وقد قال في وصفه:

«من مشىٰ في طريق علي (عليه السلام) وصل الىٰ عين الحياة، مثل الخضر عليه السلام، وانطلق من وساوس الشيطان، كالعلّامة السمناني».

ب ـ عبد الرزاق الكاشاني، من محققي عرفاء هذا القرن ، شرح (فصوص الحكم) لمحيي الدين و (منازل السايرين) للخواجه عبدالله، وكلاهما مطبوعان واليهما يرجع أهل التحقيق وقد نقل صاحب (روضات الجنات) في ترجمة الشيخ عبد الرزاق اللاهيجي ان الشهيد الثاني أثنىٰ ثناء بليغاً علىٰ عبدالرزاق الكاشاني ، وقد كان بينه وبين علاء الدولة السمناني مباحثات ومشاجرات في المسائل النظرية المطروحة من قبل محيي الدين،مات عام ٧٣٥ هـ

ج ـ الخواجه حافظ الشيرازي، علىٰ الرغم من شهرته العالمية، ليست ترجمته واضحة، والمؤكد به هو أنه رجل عالم عارف حافظ ومفسر للقران الكريم، اشار الىٰ هذا المعنىٰ في شعره فقال:

«لم أر أحلىٰ من شعرك يا حافظ... وذلك بسبب القرآن الذي تحفظه في قلبك».

«اذا بلغ عشقك صراخ حافظ، فستقرأ القرآن عن ظهر القلب باربع عشرة رواية» «لم يجمع أحد من حفاظ العالم مثلي لطائف الحكم مع نقاط قرآنية»!.

---

١ ـ نسبة الىٰ عراق العجم مدينة في المحافظة الايرانية المركزية بين قم وطهران وساوة وخونسار، غيّر اسمها الىٰ (أراك) المعرّب.

ومع ذكره المرشد وشيخ الطريقة في اشعاره لم نعرف من هو مرشده ومربيه، اشعاره في قمة العرفان وقليل من يدركها، واعترف جميع العرفاء بعده بأنه قد طوىٰ المقامات العرفانية العالية، وشرح بعض الكبار بعض أبياته كالمحقق الدواني الفيلسوف المعروف فيالقرن التاسع حيث كتب رسالة في شرح بيت له قال فيه:

«قال شيخنا: لم يخِطئ قلم الصنعة، طابت نظرته الطاهرة الساترة علىٰ الأخطاء»!.

مات الحافظ سنة ٧٩١ هـ

د ـ الشيخ محمود الشبستري صاحب المنظومة العرفانية الراقية باسم (گلشن راز حديقة الأسرار) تعدّ هذه المنظومة أحد الكتب العرفانية الراقية، مما خلد اسم ناظمها، وقد كتب عليها شروح كثيرة، لعل أحسنها شرح الشيخ محمد اللاهيجي، مطبوع موجود، مات سنة ٧٢٠ هـ

هـ ـ السيد حيدر الآملي، أحد المحققين العرفاء، له كتاب باسم (جامع الاسرار) من الكتب العرفانية النظرية الدقيقة، طبع أخيراً طبعة جيدة، وله كتاب آخر باسم (نصّ النصوص في شرح الفصوص) كان معاصراً لفخر المحققين الحلي الفقيه المعروف، لم تعرف سنة وفاته.

و ـ عبد الكريم الجيلي صاحب الكتاب المعروف «الانسان الكامل».أول من طرح مفهوم الانسان الكامل بصوره نظرية، وهو محيي الدين العربي، ولقيت هذه المسألة اهتماماً خاصاًفي العرفان الاسلامي، بحث هذا الموضوع تلميذه ومريده صدر الدين القونوي في كتابه «مفتاح الغيب» في فصل مشبع وألّف اثنان من العرفاء كتابين حول هذا الموضوع، أحدهما عزيز الدين النسفي، من عرفاء النصف الثاني من القرن السابع، والآخر عبدالكريم الجيلي مترجمنا، وكلاهما بعنوان «الانسان الكامل» مات الجيلي سنة ٨٠٥ وعمره ٣٨ عاماً،ولم نعرف هل هو من جيلان (گيلان) أو من جيل من قرىٰ بغداد؟.

القرن التاسع:

ألف ـ الشاه نعمة الله الولي، ينتهي نسبه الىٰ علي عليه السلام، وهو من مشاهير العرفاء

والصوفية، وسلسلته «نعمة اللّهية» من أشهر الطرق الصوفية في العصر الحاضر، قبره ببلدة كرمان تزوره الصوفية (والسياح الأجانب)! قيل عمّر ٩٥ عاماً ومات سنة ٨٢٠أو ٨٢٧أو ٨٣٤، كان أكثر عمره فيالقرن الثامن له لقاء مع الحافظ الشيرازي،وله في العرفان شعر كثير.

ب ـ صائن الدين علي تركه الاصفهاني، من محققي العرفاء، له طول باع في العرفان النظري علىٰ مباني محيي الدين، كتابه (تمهيد القواعد) مطبوع وهو دليل علىٰ تبحره في العرفان، واليه يرجع المحققون والباحثون .

ج ـ محمد بن حمزة الفناري الرومي من علماء البلاد العثمانية، كان رجلاً جامعاً وله كتب كثيرة، شهرته بكتابه «مصباح الأُنس» وهو شرح لكتاب «مفتاح الغيب» لصدر الدين القونوي، وليس شرح كتب محيي الدين العربي أو تلميذه صدر الدين القونوي من عمل كل واحد، وقد عمل هذا مترجمنا الفناري وأيده محققو العرفان الذين أتوا بعده، طبع هذا الكتاب بطهران طبعة حجرية مع هوامش المرحوم آقا ميرزا هاشم الرشتي وهو من العرفاء المحققين في القرن الأخير، والطبعة رديئة حيث لا تقرأ بعض هوامش الرشتي.

د ـ شمس الدين محمد اللاهيجي نور بخش، شارح كتاب (گلشن راز) للشبستري، كان معاصراً لصدر الدين دشتكي والعلّامة الدواني، وكان يقيم في شيراز، كتب القاضي نور الله في (مجالس المؤمنين) أن صدر الدين دشتكي والعلّامة الدواني ـ وهما من الحكماء القديرين في عصرهما ـ كانا يجلّانه غاية الاجلال، كان من مريدي السيد محمد نور بخش، وهو تلميذ ابن فهد الحلي الذي سبق ذكره في تاريخ الفقهاء، يذكر اللاهيجي في شرحه لكتاب (گلشن راز) ص ٦٩٨ سلسلة فقرة (حسب المصطلح الصوفي) الذي ينتهي الىٰ معروف الكرخي، ومنه الىٰ الامام الرضا عليه السلام والأئمة السابقين حتىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وتسمىٰ هذه السلسلة «سلسلة الذهب».

أكثر شهرته بشرح كتاب (گلشن راز) الذي يعد من المتون العرفانية القيّمة، بدأ بتأليف كتابه هذا في سنة ٨٧٧ هكما ذكره في مقدمته، ولايُعرف تاريخ وفاته، والظاهر أنه كان قبل عام ٩٠٠ هـ

هـ ـ نور الدين عبدالرحمن الجامي، من أصل عربي، ينتهي نسبه الىٰ الحسن الشيباني الفقيه الشهير في القرن الثاني الهجري، كان شاعراً قديراً، يُعد آخر شاعر عرفاني كبير بالفارسية، كان يلقب نفسه في بداية أمره بلقب (دشتي) ولما دخل في مريدي أحمد الجامي (ژنده پيل) غيّر لقبه الىٰ لقب شيخه (الجامي) بالاضافة الىٰ ان مولده ولاية «جام» من توابع مشهد الامام الرضا عليه السلام، ولذلك قال في بيت له:

«مولدي (جام) ورشحات قلمي من فيوضات اناء شيخ الاسلام الجامي، ولهذا كان لقبي في جرائد الاشعار (الجامي) بمعنيين » (يقصد النسبة الىٰ الشيخ والمولد).

له مؤلفات كثيرة في فروع مختلفة من النحو والصرف والفقه والاصول والمنطق و الفلسفة والعرفان، منها (شرح فصوص الحكم) لمحيي الدين، و(شرح اللمعات) لفخر الدين العراقي و(شرح تائية ابن الفياض، و(شرح قصيدة البردة) في قدح الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم و (شرح القصيدة الميمية للفرزدق) في مدح علي بن الحسين عليه السلام وكتاب «اللوائح و «بهار ستان» علىٰ غرار «گلستان» لسعدي الشيرازي، وكتاب «نفحات الانس» في تراجم العرفاء، كان الجامي من مريدي طريقة بهاء الدين نقش بند مؤسس الطريقة النقشبندية، ومع ذلك فان شخصيته الثقافية والتاريخية أكثر من بهاء الدين نقش بند بمراتب عديدة، كما أن محمداً اللاهيجي من مريدي طريقة السيد محمد نور بخش، ومع ذلك فان شخصيته الثقافية والتاريخية أكبر من السيد محمد، وحيث كان نظرنا في هذه الشجرة التاريخية الىٰ الجانب الثقافي للعرفان لا الجانب الطريقي للفرقة، فقد خصصنا محمداً اللاهيجي و عبد الرحمن الجامي بالذكر دون مريديهما، مات الجامي عام ٨٩٨ هـ عن عمر ناهز ٨١ عاماً.

كان هذا تاريخاً مختصراً للعرفان من بدايته حتىٰ نهاية القرين التاسع، ونرىٰ أن العرفان بعد هذا تغيّر وضعه عن سابقه فالشخصيات العلمية والثقافية العرفانية كلهم كانوا الىٰ هذا التاريخ من المشايخ الرسمية للتصوف ، وكان اقطاب الصوفية هم الشخصيات الثقافية العرفانية الكبيرة، والآثار العرفانية الكبرىٰ هي منهم، ومنذ هذا التاريخ تغير الوضع عن سابقه بثلاث جهات :

أولاً: منذ هذا التاريخ،لم يكن لاقطاب الصوفية تلك الميزات العلمية والثقافية التي كان لاوائلهم، ورب قائل يقول: ان التصوف منذ هذا التاريخ غرق في ظواهر وآداب ابتدعتها الصوفية في كثير من الاحيان.

ثانياً: تخصص جماعة في العرفان النظري لمحيي الدين، دون أن يدخلوا في أي سلسلة من مشيخات وطرق التصوف، بحيث لايوجد بين المتصوفة الرسميين نظير لاولئك العرفاء غير المتصوفين، فمثلاً كان صدر الدين ـ صدر المتألهين الشيرازي المتوفىٰ في سنة ١٠٥٠ و تلميذه الفيض الكاشاني المتوفىٰ في سنة ١٠٩١ وتليمذ تلميذه القاضي سعيد القمي المتوفىٰ في سنة ١١٠٣ أكثر من أقطاب عصرهم وعياً للعرفان النظري لمحيي الدين من دون أن يكونوا من أي سلسلة من سلاسل التصوف، ولا زالت هذه الظاهرة مستمرة حتىٰ عصرنا هذا، فالمرحوم آقا محمد رضا الحكيم القمشه اي والمرحوم آقا ميرزا هاشم الرشتي من العلماء والحكماء في القرن الأخير كانا متخصصين في العرفان النظري من دون أن يكونا هما من سلاسل المتصوفة.

بل لما أُسس العرفان النظري منذ عهد محيي الدين وصدر الدين القونوي ودخل العرفان في صورة فلسفية خرج العرفان عن صورته الصوفية. حتىٰ أنا نحتمل أن يكون محمد بن حمزة الفناري المذكور آنفاً من هؤلاء العرفاء الفلاسفة غير الصوفية، إلّا أن هذا الوضع أصبح منذ القرن العاشر مشخصاً واضحاً، فظهرت جماعة متخصصة في العرفان النظري، اما لم يكونوا من أهل العرفان العملي والسير والسلوك، أو كانوا بعيدين عن سلاسل الصوفية الرسميين حتىٰ وان كانوا أهل سير وسلوك، وفي الأكثر كانوا كذلك قليلاً أو كثيراً.

ثالثاً: ونصادف منذ القرن العاشر في عالم الشيعة، جماعات كانوا أهل السير والسلوك والعرفان العملي، وقد طووا المقامات العرفانيه بأحسن وجه من دون أن يكونوا من أحدى سلاسل العرفان والتصوف الرسمي، بل لم يكونوا يعيرون لهم أية أهمية، بل كانوا يخطّئونهم اما في كل أعمالهم أو أكثرها أو بعضها.

ومن خصائص هؤلاء العرفاء، أنهم كانوا فقهاء ايضاً، فكانوا يوفقون توفيقاً ويطبقون

تطبيقاً كاملين بين الآداب الفقهية وآداب السلوك العرفاني، ولهذه الظاهرة أيضاً تاريخ لا مجال له هنا الآن.

وتبين من هذه الشجرة التاريخية أن الجانب الثقافي من العرفان، ظهر في جميع انحاء العالم الاسلامي من الاندلس الىٰ مصر وسورية والروم حتىٰ خوارزم، ولاشك أن اسهام الايرانيين في هذه الثقافة، كان أكثر من حديث الكمّية، اما كبار العرفاء وأصحاب الدرجة الأولىٰ، فقد ظهروا بين الايرانيين وغيرهم...

الصناعة والفنون

ما بيّناه في قسم العلم والثقافة، كان مظاهر الخدمات الفكرية، التي قدمها الايرانيون للاسلام، وتبيّن منه كم أعمل الايرانيون فكرهم في سبيل الاسلام والثقافة الاسلامية، والذي نشير اليه هنا، هو مظاهر خدماتهم الفنية والصناعية والذوقية. والاحساسية.

ان الخدمات الذوقية والفنية والصناعية بامكانها ان تظهر الاحساسات المخلصة للاسلام أكثر من الخدمات الثقافية؛ اذ الخدمات الذوقية اكثر اتصالاً بالايمان من الثقافية العامة.ان الضغط والثروة لايستطيعان ان يخلقا عبقرية ان الايمان هوالذي يخلق العبقريات، وهذه القاعدة تصدق علىٰ العبقريات الفكرية ايضاً، وكثير من آثار الايرانيين في قسم العلوم والثقافة الاسلامية، حالات عبقرية، ولكنّها أوضح انطباقاً بالنسبة الىٰ العبقريات الذوقية والفنية.

ان أكثر العبقريات الصناعية الايرانية في العهد الاسلامي كان دينياً اسلامياً، من فن العمران والنقوش ، والخطوط والتذهيبات الخواتيم والقاشاني والمعرّقات والرخام وغيرها.

ولا أراني باي وجه ذا صلاحية للدخول في هذا الموضوع، وهوموضوع يصلح أن يكون كتاباً مستقلاً، اترك الكلام فيه للمتخصصين.

والواضح للجميع هوأن هذه العبقريات السابقة قد تجلّت للناظرين في كثير من المساجد والمشاهد والمدارس والمصاحف، وكتب الأدعية (والمزارات والعتبات

المقدسة). المعمار المسلم اظهر مهارته في فنّه في هذه المساجد والمشاهد والمدارس الاسلامية، وكذلك القاشاني والخواتيم والكتائب المخطوطة النفيسة الصنع، وكنوز المصاحف في مختلف المتاحف في الدول الاسلامية وغيرها تظهر لنا مدىٰ ظهور الفن الايراني علىٰ الصعيد الاسلامي، وفي الحقيقة تظهر انبعاث الروح الاسلامية في الذوق الايراني.

ان الايرانيين لا في ايران فحسب، بل في غير ايران ايضاً، انشأوا كثيراً من الآثار الفنية الاسلامية، وكذلك في بعض البلاد غير الاسلامية التي فيها اقلية مسلمة كالهند الصينية ففيها توجد آثار اسلامية كثيرة صنعت بايدي الايرانيين، هي اسناد وأدلة علىٰ اخلاصهم للاسلام، ونكتفي هنا بهذه الاشارة، ونحيل التفصيل والتحقيق في ذلك الىٰ أهل الفن.

اللغة والآداب:

ومن مظاهر الخدمات الذوقية والفنية التي قدمها الايرانيون للاسلام هي الخدمات التي اسداها الايرانيون من طريق اللغة الفارسية للاسلام، ان الادباء والعرفاء و الخطباء الايرانيين، ابدعوا في بيان الحقائق الاسلامية بثوب اللغة الفارسية الجميلة، فمثلوا الحقائق الاسلامية بالامثال الجميلة وجسّدوها، وادخلو المعاني اللطيفة القرآنية في ثباب قصص جميلة ، والمثنوي خير شاهد علىٰ هذا الادعاء.

ان خدمات اللغة الفارسية (الدّرّية) للاسلام هي موضوع بحث وتحقيق مستقل، و من يطالع في هذا الموضوع، يرأن هذه اللغة خدمت الاسلام في طول عمرها الالف والمائتي عام أكثر من أي شيء آخر ولوتصدىٰ أحد لجمع الشعر الفارسي في التوحيد والقرآن ومدح الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم واهل البيت عليهم السلام، لاصبح عدّه مجلدات فضلاً عن شعر الحكمة والموعظة والقصص والغزل.

ان الشعر والنثر الفارسيين، كانا طيلة اثني عشر قرناً من عمرهما ـ ولازالا ـ متأثرين بالقرآن والحديث بصورة قوية، فان اكثر المضامين العرفانية والحكمية الفارسية، لها جذور في الحديث والقرآن، وقد طوت تحت أثر القرآن والسنة طريق السمو.

ان عداء بعض العناصر للغة الفارسية (الدّرّية) الذي كان يظهر أحياناً باقتراح اخراج اللغات العربية واحياناً باقتراح تغيير الخط الفارسي (العربي في اصله) كل ذلك لاجل أن هذ اللغة لغة اسلامية، أكثر من ايّ شيء آخر، وهي مرآة للثقافة الاسلامية، ولا يمكن مكافحة الاسلام من دون مكافحة هذه اللغة، تحت ستار مكافحة اللغات الاجنبية او الخطوط الاجنبية.

وفي بحثنا هذا عن الخدمات القيمة التي قدمتها اللغة الفارسية للاسلام أيضاً، نكتفي بهذه الاشارة ونوكل البحث التفصيلي في ذلك الىٰ العلماء ذوي الاختصاص.

قرنان من السكوت؟!

مما قرأ القارئ العزيز في القسم الثالث من هذا الكتاب ـ وان كان مختصراً ـ حصل علىٰ نتيجة واحدة هي: ان ردّ الفعل الايراني أمام الاسلام كان شاكراً وفياً، يحكي عن نوع من الوفاق الطبيعي بين الروح الاسلامية والاتجاهات الايرانية، وان الاسلام كان لايران والايرانيين غداءً لذيداً بلغ الىٰ أفواههم الفارغة الجائعة، ماءً عذباً، اريق في فم عطشان، وان الطبيعة الايرانية ـ ولا سيما مع الاوضاع الزمكانية والاجتماعية لايران قبل الاسلام ـ جذبت هذا الطعام اللذيذ الىٰ نفسها واتخذت منه قوة وحياة، ثم صرفت هذه القوة والحياة لخدمة الاسلام.

نعرف أن الامويين حكموا العالم الاسلامي من سنة ٤١ حتىٰ ١٣٢ هأي قرابة قرن من الزمان،وهؤلاءأحيوا ما أماته الاسلام من النعرات القومية والعنصرية، وعملوا بالتفرقة بين العرب وغيرالعرب ـ ولاسيماالايرانيين ـ وبكلمة: كانت سياستهم سياسة عنصرية قومية.

كانت للامويين حساسية خاصة ضد الايرانيين و لم تكن لهم هذه الحسّاسة ضد سائر العناصر غير العربية كالقبطيّين، ولعل السبب الاصلي لهذه الحساسية الأموية، هو الاتجاه الايراني النسبي الىٰ العلويين، ولاسيما شخص الامام علي بن أبي طالب عليه السلام، اجل، أن نقطة الحساسية الأموية هي مخالفتهم للعلويين، وبالنظر الىٰ أن سياسة علي عليه السلام، كانت مبنية علىٰ اساس تنفيذ الجوانب الاسلامية المضادّة للعنصرية

والطبقيّة، وكان من الطبيعي أن يكون تنفيذ هذه الاصول ثـقيلاً عـلىٰ العـرب عـموماً، وخصوصاً علىٰ القرشيّين الذين كانوا يرون أنفسهم العـنصر الاسـمىٰ! لهـذا فـقد افـاد الامويون من النخوة العربية والقرشية لصالح حكومتهم ضد العلويين.

ولهذا أيضاً كان الامويون يكافحون كل عنصر موال للعلويين سواء مـن العـرب أو الايرانيين أو الافريقيين أو الهنود، بل أن الظلم الذي لاقاه آل علي عليه السلام وشيعتهم من سياسة الأمويين العرب، كان أكثر واشق من الظلم الذي جرىٰ منهم علىٰ الايرانيين.

وتغيرت صفحة التاريخ من سنة ١٣٢،حيث تسنم العباسيون مناصب الحكم والعلم، وبنوا سياستهم ـ حتىٰ عهد المعتصم الذي جاء بعنصر الاتراك للـحكم ـ عـلىٰ حـماية الايرانيين، وتأييدهم ضد العرب! فكانت المائة سنة الأولىٰ من حكم العباسيين عـصراً ذهبياً للايرانيين، وكان بعض الوزراء الايرانيين كالبرامكة ـ أولاد البوذيين ببلخ ـ وفضل بن سهل ذي الرياستين السَرَخْسي، أكثر قوة بعد الخليفة.

الايرانيون وان كانوا في القرن الأول من العصر العباسي في رفاهية، إلّا أن إيران من حيث السياسة كانت جزءاً من الخلافة العباسية، لم تكن لها حكومة مستقلة،وبعد مائة سنة ـ أي من عهد حكومة الظاهريين علىٰ خراسان، ولاسيما عهد الصفّاريين ـ شكـل هؤلاء حكومة ايرانية مستقلة.

وهذه الحكومات المستقلة في الوقت نفسه كانت حتىٰ نهاية الخلافة العباسية تحت شعاع نفوذها المعنوي، وكان الايرانيون يعتقدون بنوع مـن القـداسـة لمكـانة الخـلافة باعتباره اسم خلافةالرسول الاكرم صلىٰ الله عليه وآله وسلم، ولايـعترفون بـالشرعية والقانونية لاي حكومة في ايران مالم تأت بمرسوم من قبل الخليفة ، حتىٰ انتهت الخلافة في القرن السابع، فانتهت هذه الرابطة، وبعد انتهاء الخلافة العباسية، خلفتها في نـفوذها وتأثيرها الروحي والمعنوي الخلافة العثمانية في غير ايران، أما في ايران فلم يكن لهم ايّ نفوذ وتأثير فيها لانتماء الايرانيين الىٰ المذهب الشيعي واعتقادهم بعدم شرعية خلافتهم.

وقد اطلق بعض المستشرقين، وعلىٰ رأسهم السيرجان ملكم الانجليزي علىٰ القرنين الأولين فيايران ـ أي من نصف القرن الأول الهجري، حيث افتتحت ايران حتىٰ منتصف

القرن الثالث الهجري، حيث تشكلت لها حكومة مستقلة نوعاً ما ـ قرني السكون والسكوت، بل عبودية ورقية الايرانيين ، باعتبار ان ايران في هذين القرنين كانت جزءاً من منطقة الخلافة ولم تكن لها حكومة مستقلة، وقد افتعلوا ضجيجاً وصخباً حول هذا المعنىٰ، حتىٰ ادخلوا بعض الايرانيين تحت تأثير هذه الفكرة (الكافرة)!.

نعم، اذا نظرنا الىٰ التاريخ من زاوية نظر امثال السيرجان ملكم، أي لم ننظر الىٰ الأُمة الايرانية، ولم نلتفت الىٰ التحولات الثقافية وغير الثقافية المثمرة التي ظهرت في هذين القرنين في ايران والتي أفادت الامة الايرانية فيها فوائد قيّمة، وانما ننظر الىٰ الطبقة الحاكمة ، حق لنا أن نعدّ هذا العهد الذي كانت فيه ايران جزءاً من منطقة الخلافة عهد السكوت و السكون.

أجل، لو نظرنا الىٰ طبقة الحجاج بن يوسف وأبي مسلم الخراساني فقط، اللذين قتل أولهما مائة وعشرين الفاً، والآخر ستمائة ألف نسمة، وأصبحنا كعربي متعصب عنصري نأسف لماذا لم يقتل الحجاج العربي هذه الستمائة ألفاً أيضاً! أو كايراني متعصب ناسف لماذ لم يجلس أبو مسلم الخراساني مجلس الحجاج العربيٰ من قبل ليقتل هذه المائة والعشرين ألفاً ايضاً بيده القديرة ! اذن حق لنا أن نسمي القرنين الأوليـن فـي ايران قرني السكون والسكوت، اذ حينما نقيس هذين القرنين بالأدوار الاخرىٰ نجد ان الشئ الوحيد الذي يوسف له ، هو أن يضرب المثل في هذين القرنين باسم حكام أمثال الحجاج العربي، دون أبي مسلم الخراساني!.

اما اذا نظرنا الىٰ الامة الايرانية، الىٰ ابناء الحذّائين والخزفيين أولئك الذين قام من بينهم أمثال سيبويه وأبي عبيدة وابي حنيفة وآل نوبخت وبني شاكر ومئات أمثالهم، الذين تفتحت استعداداتهم واستطاعوا ان يشاركوا في حلبة مسابقه ثقافية حرة ليحوزوا فيها قصب السبق علىٰ الآخرين، ويصبحوا لأول مرة في تاريخ ايران أئمة ادب وعلم ودين لسائر الامم، ويخلّدوا آثاراً باقية، ويقرنوا اسماءهم وترابهم بالعزة والفخر الخالد....

كان هذان القرنان قرني الحركة والكلام والنشاط والثورة الاسلامية الشعبية.

في هذين القرنين عرف الايرانيون أيديولوجية عالمية انسانية لا عنصرية فقبلوا

حقائقها علىٰ انها حقائق سماوية الهية تتجاوز كل زمان ومكان، وتعلموا لغتها علىٰ انها لغة اسلامية عالمية، لاترتبط بخصوص قوم، بل هي لغة مدرسة ودين، فتعلموها كأنـها لغتهم،بل قدّموها علىٰ لغتهم القومية والعنصرية الخاصة.

فواعجباً من هؤلاء اذ يقولون: «اللغة الايرانية كانت قد اخرست في هذين القرنين ولم ينطق بها إلّا علىٰ لسان السيف»!

أنا لا أفهم حقيقة معنىٰ هذا الكلام! أليست اللغة العلمية لغة حـرة؟! وأليست اللـغة الأدبية لغةً حرة؟! أفلم يؤلف سيبويه الفارسي الشيرازي في غضون هذين القرنين كتابه الأدبي الفذّ الذي يعد موازياً لكتاب المجسطي لبطليموس والمنطق لارسطو في فنهما ؟! واليس كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة من حصيلة هذين القرنين؟! اليس خلق الآثار الأدبية الراقية من اللغة؟!

انهم يقولون: هذه كلها بلغة عربية.

ونقول : هل أن أحداً قد اكرههم علىٰ خلق آثارهم الرائعة باللغة العربية؟! وهل من الممكن ان يخلق أحد أثراً رائعاً بالضغط والاجبار؟! وهل من العار علىٰ الايرانيين أنهم بعد أن تعرفوا علىٰ لغة وجدوا فيها المعجزة الالهية ولم يـروها مـتعلقة بأي قـوم، بـل وجدوها لغة كتاب اعتقدوا به وأيدوه، وبعد مضيّ ثلاثة قرون علىٰ امتزاج كلمات ومعاني هذه اللغة بلغتهم الايرانية القديمة، هل من العار عليهم بعد هذا أنهم صنعوا هـذه اللـغة الفارسية المعاصرة من مزيج اللغتين؟!.

قالوا: «كانت لغة هذه القومية (الايرانيين قبل الاسلام) لغة قوم يتمتّعون بقدر كاف من الأدب، والثقافة والعلوم والمعارف (!) فياترىٰ ماذا سمعوا عندما قابلوا العرب المسلمين حتىٰ أخرسّوا بعد أن كانوا ينطقون بمائة لغة »؟!

طرح هذا السؤال الدكتور زرّين كوب، واجاب عن نفسه يقول:

«ان اللغة العربية كانت قبل هذا لغة قوم نصف وحشيّين، ولم يكن لها أيُّ جـمال أو ظرافة، مع ذلك نرىٰ أنه لما دوّىٰ صوت الأذان في فضاء ملك ايران، انطفأت شعلة اللغة الفهلوية امامه، ان الذي أخرس لسان الايرانيين في هذه الحادثة، هـو عـظمة الرسـالة

الجديدة وموافقتها الفطرة الانسانية، وكانت هذه الرسالة الجديدة هي القرآن الذي كان قد أخرس خطباء العرب باعجاز بيانه وعمق معناه البليغ، اذن فليس عجباً ان تخرس هذه الرسالة العجيبة الجديدة ألسن الخطباء في ايران أيضاً وتحيّر عقولهم! الحقيقة ان اولئك الايرانيين الذين كانوا قد اعتنقوا هذا الدين بطيب خاطرهم، وجدوا في هذا الدين الاسلامي الجديد حرارة وشوقاً فائقاً خلبهم ألبابهم، بحيث لم يكونوا ليضيّعوا اوقاتهم بعد ذلك في الشعر والنثر بلغتهم القديمة»[1]

ليس بأيدينا أي سند علىٰ أن يكون الخلفاء الامويون قد اجبروا الايرانيين، علىٰ ترك لغتهم الاصلية (بل لغاتهم الاصلية؛ اذ لم تكن في ايران لغة واحدة، بل كان لكل منطقة لغة خاصة بها) وما قيل بهذا الصدد لايستند الىٰ أي سند من التاريخ وانما هو خيال من مريض مغرض، بل ان الجمال والجاذبية اللفظية والمعنوية للقرآن وتعاليمه العالمية اثرت في جميع المسلمين حتىٰ جعلتهم يرون هذه التحفة السماوية بكل ما فيها من لطف لهم، وينجذبوا الىٰ لغة القرآن حتىٰ يتناسوا لغتهم الاصلية، وليس هذا خاصاً بالايرانيين ان ينسوا لغتهم القديمة بعد تعرّفهم علىٰ نعمة القرآن السماوية، بل هذا شأن جميع الامم التي اعتنقت الاسلام ، وقد قلنا مراراً: لولا مساعي العباسيين التي كانت لهم سياسة مناوئة للعرب، لما وجدت هذه اللغة الفارسية المعاصرة المختلفة عن الفارسية قبل الاسلام، اذ هم أكثر من حثهم وحرّضهم علىٰ تكوين هذا اللغة، فكانوا يكرهون أن تشيع اللغة العربية في الايرانيين!.

كان بنو العباس يؤيّدون الشعوبيين الذين يضادون العرب ويؤلفون كتباً في مطاعنهم ومثالبهم! فهذا (علان الشعوبي) كتب كتاباً في مساوئ العرب وصفاتهم الذميمة في حين كان موظفاً رسمياً عند هارون الرشيد والمأمون، يستنسخ الكتب لهم في بيت الحكمة ببغداد ويأخذ أجراً لذلك،بينما كان مديرها سهل بن هارون الشعوبي شديداً ضد العرب وقد كتب كتاباً ضدّهم[2] وقد قلنا بشأن اللغة الفارسية سابقاً: ان المأمون هو أول حاكم

---

١ ـ بالفارسية: دو قرن سكوت: ص ١٠٧ ـ ١٠٨.

٢ ـ تاريخ التمدن الاسلامي: ج ٣ ص ٢٩٩ ط د، حسين مؤنس.

أعطىٰ الجائزة لشاعر فارسي تشجيعاً له!:

أجل كان ذلك سبباً في سكوت الايرانيين عن الفارسية القديمة، وهذا هو السبب في شيوع الفارسية الثانوية (الدّرية الخراسانية).وليس ذلك مما نأسف له بل نشكر الله عليه، فلكل لغة جمال وظرافة ورونق خاص، واللغة الفارسية هذه قد قّدمت ـ ببركة رشاقتها وجمالها الخاص، وبفضل همة وايمان الايرانيين الفارسيين ـ خدمات جلّىٰ للاسلام.

ويجنّب ادوارد براون نفسه عن أغراض أمثال السيرجان ملكم ويقول منصفاً:

«كتابان في تاريخ ايران يعرفهما الانجليز أكثر من أي كتاب آخر هما: كتاب السيرجان ملكم والثاني كتاب كلمينتز مار كهايم، وقد بحث هذان الكتابان حول عهد التحول الفاصل بين فتح العرب في القرن السابع الميلادي وبين تشكيل أول اسرة حاكمة ايرانية مستقلة أوشبه مستقلة (الطاهريون والصّفاريون) بعد الاسلام، في القرن التاسع الميلادي (القرن الأول والثاني الهجريين) بحثا هذين القرنين بصورة ناقصة سطحية.. في حين أن هذين القرنين كانا في كثير من النواحي أحسن من سائر الادوار والعهود،ولاسيما من حيث المعنوية وحتىٰ العلمية أثمر ادوار تاريخ ايران علىٰ الاطلاق»[1].

وبعد بحث حول سلمان الفارسي يقول:

«ان سلمان هو الشخص الايراني الوحيد الذي دخل في الجماعة المحترمة من اصحاب النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم وكثير من العلماء ذوي المرتبة العالية في الاسلام كانوا من أصل فارسي، وعدد من اسرىٰ الحروب العربية وصلوا الىٰ مراتب شامخة في عالم الاسلام، كأبناء شيرين الأربعة (ابن سيرين واخوته الثلاثة) اسرىٰ حرب جلولاء، وعلىٰ هذا فلايصح بأي وجه معنى كلام من يقول: بأن الايرانيين بعد استيلاء العرب علىٰ ايران حتىٰ ثلاثة قرون فقدوا حياتهم العلمية والمعنوية! وبالعكس نقول: ان تلك القرون الأولىٰ كانت عهداً مهماً عديم النظير من هذه الناحية المرفوضة نفسها، فهو عهد امتزاج الجديد بالقديم وتحول الآداب وتطور المراسيم و العقائد والافكار، وليس

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ ادبيات ايران: ج ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢.

عهد الركود والسكون أو الموت والجمود»[1].

ومن مميزات هذين القرنين هو أن الشخصيات المسلمة الايرانية بالاضافة الىٰ انفتاح استعداداتهم العلمية والثقافية واكتسابهم الفخر في ذلك، بلغوا بأنفسهم منزلة القداسة الدينية والمذهبية الىٰ درجة أنهم أصبحوا موضع احترام ديني من قبل الأمم الاخرىٰ، ولازالت اسماؤهم في هالة من القدسية في الكتب الاسلامية سيما غير الايرانية وغير الشيعية، ولازال الناس في أقصىٰ البلاد الاسلامية يذكرونهم بغاية التعظيم.أجل كان هذا العهد، من حيث العلم والثقافة فيالطراز الأول، وأما من حيث القداسة الدينية فهوعهد ذهبي لانظير له.

واذا أردنا أن نوضّح نتائج هذين القرنين،كان علينا أن نلقي نظرة علىٰ المجتمع الايراني ثم نستخلص النتائج، من العشرة الثالثة للقرن الأول الهجري حيث افتتحت ايران بيد المسلمين حتىٰ العشرة الثانية من القرن الثالث الهجري حيث شكلّ الطاهريون فيخراسان حكومة شبه مستقلة، أو حتىٰ العشرة السادسة من القرن الثالث، حيث استقل الصفّاريون (في خوزستان وكثير من مناطق ايران حتىٰ خراسان وماوراء النهر)

ولايخفىٰ أن كثيراً من العلماء الايرانيين الذين ظهرت استعداداتهم العلمية في عهد الصفاريين والسامانيين وغيرهم، لم يكونوا داخل حوزة الحكومة الايرانية ،بل ان أكثرهم كانوا يقيمون بالعراق أوالحجاز أو سائر البلدان.

واذا تجاوزنا سلمان الفارسي الذي حظي بفخر صحبة رسول الله صلىٰ الله عليه وآله ونال شرف قوله فيه «... منا أهل البيت» والذي هوفي نظر الشيعة أفضل صحابة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام ، وفي نظر غير الشيعة هو من كبار الصحابة، ولازال اسمه يلمع للناظر علىٰ جدار مسجد النبي صلىٰ الله عليه وآله.. اذا تجاوزنا هذا الرجل العظيم، ونظرنا الىٰ سائر أصحاب السمعة والشهرة من الايرانيين، وحيث ان من يقابلنا بهذا الكلام انما يتكلم بمنطق الشعور الوطني والقومي والعنصري الايراني، لذلك ندع الآن أحساساتنا الشيعية وحتىٰ الاسلامية جانباً، ونبحث الموضوع

---

١ ـ بالفارسية: تاريخ ادبيات ايران: ج ١ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢.

من جانب المفاخرات القومية كما يريدون، ونريد أن نرىٰ ماذا اكتسبنا في هذين القرنين من المفاخر القومية؟.

نال جماعة من الايرانيين في هذين القرنين منزلة الامامة الدينية والقداسة المذهبية في القراءة والتفسير والحديث والفقه بين سائر الأمم،ولازال خمسمائة مليون مسلم (غير الشيعة) يعظمون هؤلاء عقائدياً. ومن هذه الطبقة نافع وعاصم وابن كثير ومحمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج القشيري وطاووس بن كيسان وربيعة الرأي والأعمش و أبو حنيفة وليث بن سعد. وليث بن سعد وهو الايراني الذي أصبح مفتي مصر، ولما تشرف الىٰ الحج تقدم اليه سفيان الثوري يجر زمام ناقته تشرفاً به، وسفيان من مشاهير الدرجة الأولىٰ من فقهاء العامة، وهو عربي عدناني!.

جماعة آخرون نالوا في هذين القرنين الامامة في الادب : من قبيل سيبويه، و الكسائي والفراء وأبي عبيدة معمرة بن المثنىٰ ويونس والأخفش وحماد الراوية وابن قتيبة الدينوري.

وجماعة آخرون بلغوا الىٰ صفوف الامامة فيالتاريخ من قبيل: محمد بن اسحاق صاحب السيرة، وأبي حنيفة الدينوري، والبلاذري صاحب فتوح البلدان وغيرهم .

وجماعة آخرون بلغوا الىٰ طبقة أئمة علم الكلام، وتصدرت أراؤهم كتب الكلام من قبيل: آل نوبخت وأبي الهذيل العلّاف والنظام وواصل بن عطاء والحسن البصري، وعمرو بن عبيد وأمثالهم.

ولمع جماعة آخرون فيالفلسفة والرياضيات والنجوم مثل. أولاد موسىٰ بن شاكر، والنوبختيين وأبي معشر البلخي وأبي الطيّب السَرخْسي وغيرهم.

ولنا أن نذكر من القادة المسلمين الايرانيين، موسىٰ بن نصير فاتح اسبانيا والاندلس،ومن المقاتلين في ايران ظاهراً ذا اليمينين.

أجل؛ هذان هما القرنان اللذان سمّوهما عهد الركود والسكون والسكوت!

الفهارس

مقدمة الناشر ٥
بين يدي الكتاب ٧
مقدمة المؤلف ١٥
تمهيد ١٩
الجذور التاريخية للقومية ٢١
مقاييس تقليدية ٢٤
الوحدة اللغوية ٢٥
الوحدة العنصرية ٢٥
وحدة التقاليد ٢٧
الوحدة الاقليمية والطبيعية ٢٧
دور المثقفين ٣٠
الحدود الحقيقية ٣٢
الآلام المشتركة ٣٥
عوامل الوحدة ٣٥
أُمة في طريقها إلىٰ الحياة ٣٩
الاسلام والقومية الايرانية ٤٧

القسم الأول

الاسلام و القومية

نحن والاسلام ٤٩
القومية اليوم ٥٠
لفظة «الملة» ٥٥

كلمة «الملة» في المصطلح الفارسي الحديث ٥٦
القومية والمجتمع ٥٧
العصبيات القومية ٦٠
القومية ٦٠
مقياس القومية ٦١
الاسلام والقومية ٦٥
النقطة الأولىٰ: الدعوة الاسلامية دعوة عالمية ٦٥
النقطة الثانية: المقاييس الاسلامية ٦٩
اسلام الفرس ٧٢
بدء اسلام الفرس ٧٣
متىٰ بدأت خدمات الفرس للاسلام؟ ٧٤
أولاً ـ في النشاط الاسلامي للفرس في اليمن ٧٦
اسلام أبناء الفرس في اليمن ٧٩
ردّة العنسيّ وجهاد الأبناء ضدّه ٨٣
كتاب النبي الىٰ الأبناء ٨٥
مؤامرة الأبناء لقتل العنسي ٨٦
ردّة أهل اليمن ثانية وجهاد الأبناء ٨٧
هزيمة الفرس أمام الاسلام ٩٠
الفرس والحكم الفارسي ٩٢
ثانياً ـ دخول الاسلام الىٰ قلوب الفرس ٩٦
أما اللّغة الفارسية ١٠٣
وأمّا المذهب الشيعي ١١٠
الموضوع الأول ١١٢
الموضوع الثاني ١١٤
أوّلاً ١١٤
ثانياً ١١٧
ثالثاً ١١٨
رابعاً ١١٨
خامساً ١١٩
سادساً ١٢٠
سابعاً ١٢١
الإسلام يتغلب علىٰ العصبيات ١٢٢

تشيّع الفرس ١٢٤
اهانة باسم الدفاع! ١٢٧

القسم الثاني

معطيات الإسلام لايران

موهبة أم فاجعة؟ ١٣٣
نظريات ١٣٦
النظام الفكري والعقائدي ١٤٩
الأديان والمذاهب ١٥١
الدين الرسمي للدولة الزرادشتية ١٥٦
الدين المسيحي ١٦١
دين ماني ١٦٦
المذهب المزدكي ١٦٩
الدّين البوذيّ ١٧٥
العقائد الآرية ١٧٨
عقائد آريا قبل زرادشت ١٨٠
اصلاحات زرادشت ١٨٣
التطور في عقائد اريا بعد زرادشت ١٨٩
زرادشت والثنوية ١٩٦
الشيطان ٢٠٥
دين زرادشت في الفقه الاسلامي ٢٠٧
الثنوية الزرادشتية بعد زرادشت ٢٠٨
الثنوية المانوية ٢١٠
نرديسنا وادب بارسى ٣٢٠
الثنوية المزدكية ٢١٢
عبادة النيران ٢١٢
هل النار محراب للعبادة أم معبود؟ ٢١٨
الرسوم والتشريفات ٢٢٦
النظام الاجتماعي ٢٤٣

نظام الأسرة ٢٥١
التعلم والتعليم للمرأة ٢٥٨
النظام الأخلاقي ٢٦٠
أما صحيفة اعمال الاسلام في ايران ٢٦٥

القسم الثالث

خدمات الايرانيين للإسلام

كثرة الخدمات وسعتها ٢٨١
الحضارة الايرانية العريقة ٢٨٢
اخلاص الايرانيين للاسلام ٢٩٠
دوافع الامم الاسلامية ٢٩١
النشاط الإسلامي الايراني ٢٩٣
النشاط الإسلامي للايرانيين في الهند ٢٩٥
... والغوريون ٢٩٥
... والتيموريون ٢٩٦
... والقطب شاهيون ٢٩٧
... والعادل شاهيون ٢٩٧
... والنظام شاهيون ٢٩٨
... والملوك الأوديّون ٢٩٩
الإسلام في كشمير ٢٩٩
الإسلام في الصين ٣٠٠
الإسلام في جنوب شرقي آسيا وافريقيا الشرقية ٣٠١
الإسلام في المغرب وشمال أفريقيا ٣٠١
ردود الفعل ٣٠٤
تبليغ الإسلام ونشره ٣١٥
نظام الدين أولياء ٣٢٣
تقدم الإسلام في الصين ٣٢٥
الجندية والتضحية ٣٢٩
العلوم والثقافة ٣٣٢

أول حوزة علمية ٣٣٣
فما هو الموضوع الأول؟ ٣٣٦
متىٰ بدأ التدوين والتأليف؟ ٣٣٩
عوامل التقدم السريع ٣٤١
القراءة والتفسير ٣٤٥
أما التفسير ٣٤٨
أما تفاسير السنة ٣٥٤
الرواية والحديث ٣٥٨
الفقه ٣٦٦
الخلاصة والنتائج ٣٨٥
وأما في فنون الآداب ٣٩١
وأما في علم الكلام ٣٩٨
أما متكلمو السنة ٤٠٠
الفلسفة والحكمة ٤٠٣
الطبقة الأولىٰ ٤٠٦
الطبقة الثانية ٤٠٨
الطبقة الثالثة ٤١٢
الطبقة الرابعة ٤١٨
الطبقة الخامسة ٤١٩
الطبقة السادسة ٤٢٢
الطبقة السابعة ٤٢٦
الطبقة الثامنة ٤٢٨
الطبقة التاسعة ٤٣٢
الطبقة العاشرة ٤٣٤
الطبقة الحادية عشرة ٤٣٦
الطبقة الثانية عشرة ٤٤٠
الطبقة الثالثة عشرة ٤٤١
الطبقة الرابعة عشرة ٤٤٢
الطبقة الخامسة عشرة ٤٤٣
الطبقه السادسة عشرة ٤٤٤
الطبقة السابعة عشرة ٤٤٦
الطبقة الثامن عشرة ٤٤٧

الطبقه التاسعة عشرة ٤٤٩
الطبقة العشرون ٤٥٠
الطبقة الحادية والعشرون ٤٥٢
الطبقة الثانية والعشرون ٤٥٥
الطبقة الثالثة والعشرون ٤٥٧
الطبقة الرابعة والعشرون ٤٥٩
الطبقة الخامسة والعشرون ٤٦٠
الطبقة السادسة والعشرون ٤٦٠
الطبقة السابعة والعشرون ٤٦١
الطبقة الثامنة والعشرون ٤٦٣
الطبقه التاسعة والعشرون ٤٦٥
الطبقة الثلاثون ٤٦٧
الطبقة الحادية والثلاثون ٤٧٤
الطبقة الثانية والثلاثون ٤٧٨
الطبقة الثالثة والثلاثون ٤٨٥
العرفان والتصوف ٤٩١
العرفان والاسلام ٤٩٤
القرن الأول ٥٠٢
القرن الثاني ٥٠٤
القرن الثالث ٥٠٦
القرن الرابع ٥٠٨
القرن الخامس ٥٠٩
القرن السادس ٥١١
القرن السابع ٥١٢
القرن الثامن ٥١٦
القرن التاسع ٥١٧
الصناعة والفنون ٥٢١
اللغة والآداب ٥٢٢
قرنان من السكوت؟! ٥٢٣